تأليف: آ لاي

تشان

الطبعة الجديدة المنقحة

ZHANDUI

دوي

أسطورة كانغ با البالغ عمرها 200 عام

A 200-YEAR LEGEND OF KANGBA

Better Education GROUP

.indd 1 2025-11-27 10:55:38

瞻对

ZHANDUI

© إديوكشنال سيرفيسيس كومبانى
جميع حقوق الطبع محفوظة لشركة إديوكشنال سيرفيسيس كومبانى وغير مصرح بإستخدام أى جزء سواء كان مكتوباً أو مصوراً بأى شكل من الأشكال ميكانيكياً، إلكترونياً، بالتصوير، بالتسجيل أو بأى صورة أخرى دون الرجوع للناشر.
جميع حقوق النشر محفوظة لشركة إديوكشنال سيرفيسيس كومبانى.

Copyright © 2014 by Alai
Originally published by Sichuan Literature And Art Publishing House
Arabic edition copyright © 2025 by Better Education Group
by arrangement with Sichuan Literature And Art Publishing House
All rights reserved

Better Education Group
www.ebettereducation.com

الناشر
شركة إديوكشنال سيرفيسيس كومبانى

البريد الإلكترونى: escegy@gmail.com
educationalservicescompany96@gmail.com

التليفون: 01098548772 20+ - 01001383176 20+

رقم الإيداع: 31504/2025 **ISBN:** 978-977-8811-99-5

البيانات المتعلقة بالكتاب

عنوان الكتاب: تشان دوي (أسطورة كانغ با البالغ عمرها 200 عام)

المؤلف: آ لاي 著 阿来

الناشر: مجموعة سيتيك للنشر المحدودة

تَقع (تشان دوي) (حاليًا محافظة (شينلونغ)، ولاية (قان تسي) التبتية ذاتية الحكم، مقاطعة (سيتشوان))في منطقة (كانغ با).

دائمًا ما يشتهر أهالي (كانغ با) بشجاعتهم وشدة بأسهم، فيما يشتهر أهالي (تشان دوي) بأنهم الأشجع والأشد بأسًا بين أهالي (كانغ با).

يفتخر أهل المنطقة بذلك قائلين: (تشان دوي) هي كتلة من الحديد!

أنا لا أكتب التاريخ، بل أكتب الو اقع

آلاي |

إن تأليف هذا العمل الأدبي (تشان دوي) ، هو محض صدفة بالنسبة لي.

قبل بضع سنوات، بهدف كتابة رواية عن «الملك جيسار»، سافرت إلى العديد من الأماكن في التبت لجمع المواد. خلال رحلاتي التي استمرت عامًا إلى عامين، سمعت العديد من القصص، من بينها قصة عن (تشان دوي). (تشان دوي) هو عمل أدبي تاريخي توثيقي، كنت أنوي في الأصل كتابته كرواية. في البداية، فكرت في كتابة رواية قصيرة، ولكن مع تزايد المواد التاريخية، مثل السجلات الرسمية للحكومة، والحكايات الشعبية، وسجلات المعابد والأديرة، أصبحت المواد التي جمعتها في النهاية كافية لكتابة رواية طويلة. ولكن بعد ذلك، اكتشفت أن المواد الحقيقية كانت غنية جدًا، وأن غرابة ودرامية الواقع تفوق الروايات، ولم أعد بحاجة إلى اختلاق أي شيء. كانت المواد التاريخية أقوى بكثير من الروايات. وهكذا بدأت بالتعمق أكثر في هذه المواد، و شيئًا فشيئًا، أصبح لدي (تشان دوي).

بعد أن قمت بالتحقيق الميداني، اكتشفت أن قصة (تشان دوي) ليست مجرد حكاية شعبية، بل هي سلسلة من الأحداث التاريخية التي وقعت بالفعل في المنطقة، وترتبط بالعديد من الشخصيات التاريخية. على سبيل المثال، الإمبراطور (داو قوانغ)، بالإضافة إلى شخصية أخرى من سلالة (تشينغ) –– (تشي شان). يعرف أي شخص درس التاريخ الصيني أن هناك شخصية تدعى (تشي شان) كانت من دعاة الاستسلام خلال حرب الأفيون، حيث كان يشغل منصب المبعوث الإمبراطوري في بلاط (تشينغ). كان (تشي شان) في البداية من دعاة الحرب، لكنه عُزل من منصبه بعد أن أرسل مبعوثين إلى (قوانغتشو) للتفاوض على السلام مع القوات البريطانية ووقع معاهدة غير متكافئة. في وقت لاحق، أعاد الإمبراطور (داو قوانغ) تعيين (تشي شان) وأرسله إلى التبت ليكون الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، وسرعان ما نُقل مرة أخرى ليشغل منصب الحاكم العام لـ سيتشوان. في طريقه عودته من التبت إلى سيتشوان، فيما يُعرف الآن بمحافظة (قان تسي)، التقى بمجموعة من التبتيين يطلق عليهم اسم «جيا با». قطع هؤلاء التبتيون طريق سيتشوان-التبت السريع، ودعا (تشي شان) إلى قمعهم، مما أدى إلى سلسلة من الأحداث تعاون فيها بلاط (تشينغ) مع الحكومة المحلية في التبت لقمع قوات (بولومان) الانفصالية.

2025-11-27 10:55:40

في الأصل، أعمل في مجال كتابة الأدب الخيالي. ولكن خلال تتبعي لهذه القصة، اكتشفت أن الأحداث الحقيقية التي وقعت في التاريخ كانت مذهلة بالفعل، ولم تكن هناك حاجة لتخيل أي شيء أو اختلاقه. هذا يشبه إلى حد كبير شعورنا اليوم عندما نناقش قضايا واقعية، غالبًا ما نشعر أن العالم الحقيقي غريب وخيالي بما فيه الكفاية دون الحاجة لقيام الروائيين بالكتابة. فالعديد من الأمور تبدو غير معقولة وتفوق الخيال.

يدرس الناس التاريخ أملاً في استخدامه ليعكس الوضع الراهن لمجتمعنا. فعندما أتمعن في قضايا الأقليات العرقية التي ظهرت في بلدي الصين على مر السنين، أجد أن الأسباب والدوافع وراء تلك المشكلات كانت متطابقة بشكل مذهل، حتى بعد مرور مئة أو مئتي عام. بل إن الطرق والأساليب المستخدمة للتعامل مع هذه الأمور اليوم، وما يصاحبها من تقلبات ومنعطفات مختلفة، هي نفسها التي كانت في الماضي. وعلى الرغم من أن (تشان دوي) مجرد محافظة صغيرة، إلا أن تاريخها يعكس هذا الواقع أيضًا. في مثل هذه الحالة، قد يكون للتاريخ قيمة مرجعية كبيرة في عصرنا الحالي. كما أن مقولة «كل التاريخ هو تاريخ معاصر» لم تفقد صحتها بعد.

لذا عندما كتبت هذا الكتاب شعرت أنني لا أكتب التاريخ، بل أكتب الواقع. إن هدفي من هذا الكتاب هو استكشاف أصول قضية التبت الحالية، وكيف تطورت لتصل إلى ما هي عليه اليوم، ولأقدم للجميع صورة حقيقية عن التبت. أنا أعيش في أرض التبت وأكتب عن أحداث تاريخية، لكن الدافع وراء كتاباتي هو الواقع الراهن. يتضمن هذا العمل أيضًا أمنية قوية لدي، وهي أنني كصيني، بغض النظر عن انتمائي العرقي، أتمنى أن ينعم هذا البلد بالاستقرار، وأن يعيش شعبه بسعادة.

اعتمدت هذه المرة على نوعين من المواد في كتابتي: الأول هو تاريخ سلالة (تشينغ) وأرشيفاتها، والآخر هو سجلات المثقفين المحليين. تكمن أهمية المواد المحلية في أنها غالبًا ما تختلف عن وجهة النظر الرسمية. والأكثر إثارة للاهتمام هو أنه بالإضافة إلى هذين المصدرين، كانت هذه الأحداث التاريخية تنتشر أيضًا بين عامة الناس، مما أدى إلى ظهور نوع آخر من التدوين يسمى «الحكايات الشفوية»، أي رواية القصص. هذه القصص تحتوي على الكثير من المعلومات الحيوية التي تعود إلى الماضي. بصفتي كاتبًا غير روائي، أدركت أن إدخال هذه الحكايات الشفوية في سرد تاريخي محض قد لا يكون ذا معنى كبير. ولكن هذه الروايات الخيالية التي تبدو غامضة تحتوي في الواقع على آراء ومشاعر عامة الناس تجاه السياسة والأحداث الكبرى في ذلك الوقت. علاوة على ذلك، تتميز الأدبيات الشعبية بوجود روايات مختلفة للحدث نفسه، وقد قمت بعرض كل هذه الروايات في الكتاب.

من جانب آخر، للأدب الشعبي جمالية فنية. صحيح أنه قد لا يكون موثوقًا مثل التاريخ، ولكنه أكثر حيوية وجمالاً في شكله. أثناء كتابتي لكتاب (تشان دوي)، زرت كل قرية وكل موقع شهد معارك، وهو أمر كان يستحق الجهد وممكنًا تحقيقه، فزيارة هذه الأماكن تمنحك إحساسًا عميقًا بالمكان.

في الثقافة التبتية التقليدية، عندما يشرع أحدهم في كتابة كتاب، يكتب قصيدة في البداية ليعبر عن رؤيته وأمنياته من خلاله، وهذا يُعرف في البوذية باسم «النذر» (أي أنه يقطع على نفسه عهدا بالقيام بعمل صالح أو الرغبة في تحقيق شيء ما نبيل في المستقبل). على الرغم من أن أشكال الكتابة تتغير باستمرار اليوم، إلا أنني عندما كنت أعد لهذا الكتاب، كان لدي «نذر» قوي في قلبي. هذا النذر هو أنني عندما أرى المشاكل المختلفة في مجتمعنا، أتمنى أن يتم القضاء عليها. وعندما نؤكد على أهمية التنوع الثقافي، نكتشف بحزن أيضًا أن التوترات بين الثقافات المختلفة يمكن أن تتحول إلى صراعات سياسية. آمل أن يتم الحفاظ على التنوع العرقي مع حل التناقضات الثقافية في الوقت نفسه.

حتى اليوم، تغيرت الظروف الخارجية بشكل كبير، ولكن أفكار بعض المسؤولين الحكوميين تجاه الفلاحين، والمناطق الريفية، ومناطق الأقليات العرقية، لا تزال إلى حد ما، حتى بعد تغليفها بمصطلحات جديدة، لا تختلف عن أفكار مسؤولي بلاط (تشينغ) أو حكام المحافظات، بل قد تكون أسوأ. يمكن القول إن هذا الكتاب يصور بنية المجتمع، ويمكنك أن تعتبر (تشان دوي) قرية صينية، وهي ببساطة تعكس وضع المناطق الريفية المتخلفة بعض الشيء.

[redacted].indd 6-7 2025-11-27 10:55:41

على الرغم من أن (تشان دوي) مكان صغير جدًا، إلا أنه يجسد جوهر العلاقة بين قوميتي الهان والتبت منذ عهد سلالة (تشينغ). كانت قضية التبت في الأصل مسألة داخلية صينية، لكنها تحولت تدريجيًا إلى قضية دولية في العصر الحديث. عندما تدرس هذه العملية، ستكتشف أن العلاقة بين قوميتي الهان والتبت ليست بالبساطة التي يفهمها العامة اليوم. ليست كل المشاكل مرتبطة بهذه العلاقة؛ فالتوترات بين الثقافات والقوميات المختلفة أمر حتمي. لكننا اليوم نتبنى فكرًا مبسطًا للغاية: كل مشكلة تحدث في مجتمع التبت تُفسر على أنها قضية بين الهان والتبت. لقد كتبت هذا الكتاب على أمل أن أصحح هذا الفهم الخاطئ، وآمل أن يتمكن القراء من فهم العلاقة الحقيقية بين الهان والتبت.

فهرس المحتويات

الفصل الأول 13
حادثة صغيرة 15
(تشان دوي)، حكايات من الماضي 19
غيوم الحرب الأولى 21
الإمبراطور يحثّ القوات 26
تحرُّك الجيش الكبير 30
نهاية عام 1746 36
فاصل: الجنود التبتيون 43
خروج الحاكم العام من المعبر 47
وصول المبعوث الإمبراطوري 53
(تشان دوي) والتبت 56
إحراز النصر 61
الفصل الثاني 66
الحديث عن "جيا با" 86
تداعيات (تشان دوي) 47
اندلاع فوضى جديدة فيما لم تنتهِ الفوضى القديمة بعد 78
حرب (جين تشوان) تُحاكي حادثة (تشان دوي) القديمة 86
ظهور (بان قون) وإغلاق قضية (تشان دوي) 93
أحاديث عن (يويه تشونغ تشي) 97
الفصل الثالث 102
شيخ القبيلة البربري (لوَه بو تشي لي) 104
الشرارة، بسبب ضابط برتبة منخفضة مرة أخرى 107
القائد العام (لوه) يسحب القوات من تلقاء نفسه! 108
جنرال (تشنغدو) يشن حملة قمع مرة أخرى 111
قصة قديمة تتكرر نفسها مرة أخرى 114
الأساطير الشعبية، حيرةٌ بين الزمان والمكان 118

الفصل الرابع 120
(تشي شان) في التبت 122
في(لي تانغ)، المسؤول الكبير (تشي شان) يواجه عصابة "جيا با" 126
من هو (بو لو مان) 129
(تشان دوي) - الكتلة الحديدية 132
(قونغ بو لانغ جيا)، تجسيد لحامي الدارما 135
(بو لو مان) يُوحّد (تشان دوي) 140
عشرة شيوخ قبائل يشنون حملة عسكرية على (تشان دوي) 146
الحاكم العام (تشي شان) يقود حملة عسكرية على (تشان دوي) 151
القصص القديمة تتكرر مراراً وتكراراً 155
الفصل الخامس 160
(تشان دوي) تشن حملة لإخضاع (تشانغ قو) المنغولية الأصل 162
معركة (تشان دوي) لإخضاع شيوخ القبائل الشماليين 167
(تشان دوي) تشن حملة لإخضاع أكبر شيخ قبيلة في (كانغ با) 171
الأوجه المتعددة لـ(بو لو مان) في الأساطير الشعبية 176
القصص القديمة مستمرة 183
"الحرب الجرثومية" في (لي تانغ) 186
ليس كل تبتي يميل قلبه نحو لاسا 189
التبت ترسل قوات لمهاجمة (تشان دوي) 196
الجيش التبتي يسحق بطل (تشان دوي) (قونغ بو لانغ جيا) 202
"الجندي الخارق" الذي لا يُقهر 211
اللحظات الأخيرة لبطل عظيم في عصره 218
الصدى الخالد لقصة بطل 223
معالجة تداعيات (تشان دوي) غير مرضية 232
الفصل السادس 236
العرق والدولة في ظل الوضع الجديد 238
بلاط (تشينغ) يولي إهتمام بقضية منطقة التبت، لكنه متأخر قليلاً 242
ماضي وحاضر نظام شيوخ القبائل في حدود سيتشوان ومنطقة التبت 247
انتفاضة الأقنان الحقيقية 253
حملة بلاط (تشينغ) العسكرية الخامسة على (تشان دوي) 258
الفصل السابع 262
إهمال دمّلة قد يسبّب نكبة 264
الحملة العسكرية السادسة لبلاط (تشينغ) على (تشان دوي) 269
محاولة (لو تشوان لين) لتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين 276
معارضة جنرال (تشنغدو) للتغيير 280
افتقار أساس التقدم والتراجع، في (تشان دوي)، وفي التبت أيضًا 283
بداية تدويل قضية التبت 289
الفصل الثامن 300
أخيرًا، حان وقت التغيير 302
حتى المعبد الإمبراطوري يتمرّد أيضًا 308
مقتل السيد العظيم (فنغ) في (باتانغ) 313
قدوم (تشاو إرفنغ) 320
تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق حدود (سيتشوان) 334
ذوبان الكتلة الحديدية 339
الفصل التاسع 347
قدوم جمهورية الصين 349
مؤتمر سيملا وتأثيره المستمر حتى اليوم 353
فوضى الحدود تحت شعار "وحدة الأعراق الخمسة" 356
محافظة (تشان هوا) في أوائل عهد جمهورية الصين 363
استئناف حرب (داجين – بايلي) 372
(تانغ كه سان)، المبعوث المنتظر للوساطة 381
(تشان هوا) في حرب (داجين - بايلي) 390
الفصل العاشر 399
فشل الوساطة والمبعوث الخاص يواجه تمردًا عسكريًا 401

يظل الاعتماد على القوة هو الفيصل 405
أسطورة بوذا الحي (نونا) 417
(تشان هوا) بعد حرب (داجين - بايلي) 425
قرائتي لكتاب "تشان دوي" | (تشووي تشون) 433
حوار في المعرض الدولي للكتاب في صربيا | (ماي جيا) و(آ لاي) 436

الفصل الأول

وقعت حادثة ليست باليسيرة على الطريق الرئيسي المؤدي من سيتشوان إلى التبت، حيث تعرض ستة وثلاثون شخصًا لعملية سطو على يد مجموعة يُطلق عليها باللغة التبتية اسم «جيا با». في تلك الحقبة، لم يكن تعرض مجموعة من المسافرين للسرقة أو القتل في منطقة نائية أمرًا جللاً. ولكن ما جعل هذه الحادثة مختلفة هو أنها رُفعت أولاً إلى الحاكم العام لسيتشوان و(شنشي)، (تشينغ فو)، ثم قام (تشينغ فو) بتقديم مذكرة إلى الإمبراطور (تشيان لونغ)، موضحًا أن عملية السطو هذه ليست عادية على الإطلاق. وتبين أن من تعرضوا للسطو هم مجموعة من جنود (تشينغ).

2025-11-27 10:55:42

حادثة صغيرة

كان ذلك في زمن الازدهار، ازدهارعهدي الإمبراطورين (كانغ شي) و(تشيان لونغ).
في السنة التاسعة من عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، الموافق عام 1744م.
إمبراطورية (تشينغ) العظمى في أوج مجدها، كالشمس في كبد السماء.
في هذا الوقت تحديدًا، وعلى الطريق الرئيسي الذي لم يُفتح رسمياً إلا منذ عهد سلالة (تشينغ) الممتد من سيتشوان إلى التبت، والذي نُصبت عليه العديد من مخافر محطات البريد [1] ومحطات التموين [2]، وقعت حادثة لا هي بالصغيرة ولا بالكبيرة، لتكون فاتحة حديثنا عن قصة طويلة قاربت الثلاثمائة عام.

لم تكن حادثة كبيرة في الواقع، فقد تعرض ستة وثلاثون شخصًا للسرقة على يد مجموعة من التبتيين يطلق عليهم «جيا با» على طريق سيتشوان-التبت. في تلك الحقبة، لم يكن تعرض مجموعة من المسافرين للسرقة أو القتل في منطقة نائية أمرًا جللاً. ومع ذلك، تم رفع تقرير بهذه الحادثة أولاً إلى (تشينغ فو) الحاكم العام لسيتشوان و(شنشي)، ثم قام (تشينغ فو) بدوره بتقديم مذكرة إلى الإمبراطور (تشيان لونغ)، موضحًا أن هذه السرقة ليست عادية على الإطلاق. والسبب هو أن الضحايا كانوا جنودًا تابعين لسلالة (تشينغ). وبلغة اليوم، يُقال إن الحفاظ على الاستقرار ليس أمرًا بسيطًا، فما بالك عندما يتعرض للسرقة جنود مكلفون بالحفاظ على الاستقرار على طريق سيتشوان-التبت.

1 محطة البريد: هي مؤسسة بريد في عهد سلالة (تشينغ). تُعرف أيضاً باسم محطة «تَّانْغ العسكرية». في الأصل هي مؤسسة أُنشِئت في عهد سلالة (مينغ) لتسليم الوثائق العسكرية، وأصبحت نظاماً ثابتاً في عهد سلالة (تشينغ). أنشأت سلالة (تشينغ) عدداً من محطات البريد على طول طريق البريد الممتد من سيتشوان إلى التبت وفقاً لمسافات سير الخيل، وذلك بهدف الحفاظ على التواصل بين الحكومة المركزية ومنطقة التبت المحلية. كانت كل محطة بريد تضم عدداً من عمال البريد العسكريين المخصصين لنقل وتسليم البريد. وكان يراقب سير العمل ويشرف على التنفيذ ضابط برتبة «قائد منطقة».
المخفر: هو أدنى مستوى في نظام قوات الكتائب الخضراء في عهد سلالة (تشينغ)، والذي يتألف من أربعة مستويات: الحامية، والفرقة، والمعسكر، والمخفر. يتراوح عدد الجنود في كل مخفر من بضعة أفراد إلى بضع عشرات من الأفراد. ويشير أيضًا إلى المنطقة التي يتمركزون فيها. في عهد سلالة (تشينغ)، كان جنود المخفر يتمركزون بجانب محطات البريد العسكرية على طول الطريق الرئيسي بين سيتشوان والتبت، ولهذا كان يطلق عليها مجتمعة اسم مخافر محطات البريد.
2 محطة التموين: هي في الأصل مؤسسة لوجستية، كانت تُنشأ مؤقتاً في عهد سلالة (تشينغ) لتنظيم ونقل المؤن والأجور العسكرية والعتاد عند وجود تحركات عسكرية كبرى. لكن على الطريق الرئيسي بين سيتشوان والتبت، ونظراً للحاجة إلى دعم المخافر ومحطات البريد المنتشرة على طول الطريق والقوات المتمركزة في التبت، أصبحت العديد من محطات التموين مؤسسات دائمة. كانت هذه المحطات مسؤولة عن النقل والتخزين اليومي للحنطة والعلف والعتاد العسكري، مثل البارود والرصاص. كما كان يُطلق على مسؤولها الرئيسي أيضاً لقب ضابط التموين، وكان يتولى هذا المنصب عادةً أشخاص يحملون ألقاباً وظيفية من الدرجة السابعة أو ما يعادلها.

[redacted].indd 14-15 2025-11-27 10:55:42

ورد في «سجلات سلالة (تشينغ) الحقيقية» ما يلي: «انسحب (تشانغ فنغ) الذي يشغل منصب با زونغ[1] ومعه ستة وثلاثون جنديًا من مخفر (جيانغ كا) عندما وصلوا إلى محطة بريد (هاي تسي)، هاجمهم مائتان إلى ثلاثمائة شخص من عصابة 'جيا با' (قطاع الطرق المسلحون)، وسرقوا منهم الخيول، والأسلحة، والأمتعة، والفضة، والحبوب، ومواد أخرى».

تقع منطقة (جيانغ كا)، التي تعرف اليوم باسم (مانغ كانغ)، إحدى المحافظات التابعة لمنطقة (تشانغدو) ذاتية الحكم في التبت، على الضفة الغربية لنهر (جينشا)، وتواجهها عبر النهر محافظة (با تانغ) التي تتبع حاليًا سيتشوان على الضفة الشرقية لنهر (جينشا). «المخفر» هو موقع تمركز قوات الكتائب الخضراء في عهد سلالة (تشينغ). ومخفر (جيانغ كا) هو أحد مواقع تمركز قوات الكتائب الخضراء الموزعة على طول طريق البريد بين سيتشوان والتبت خلال عهد سلالة (تشينغ). تمامًا كما هو الحال في الجيش اليوم،، كان الجنود آنذاك يتناوبون على الخدمة بشكل دوري. قائد الفصيلة/«با زونغ» في عهد سلالة (تشينغ) هو ضابط يقود ما بين عشرة إلى مائة جندي، وهو ما يعادل اليوم ضابطًا في رتبة قائد فصيلة أو سرية. هذا هو قائد الفصيلة (تشانغ فنغ) الذي كان يقود أكثر من ثلاثين جنديًا. بعد إكمال مدة خدمتهم في مخفر (جيانغ كا)، كانوا في طريق العودة من التبت إلى المناطق الداخلية، عبروا نهر (جينشا)، ومروا بـ(با تانغ)، وبعد يوم واحد، وصلوا إلى منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ) (التي تُعرف الآن باسم «(لي تانغ)»). وفي هذا المكان الذي يُسمى محطة بريد (هاي تسي)، تعرضوا للسرقة. يُقصد بكلمة «هاي تسي» بحيرة الهضبة. والمكان الذي تعرضوا فيه للسرقة هو منطقة ذات مناظر طبيعية جميلة. و«محطة البريد» مثل «المخفر»، هي أيضًا موقع لتمركز الجنود على الطريق الرئيسي بين سيتشوان والتبت في عهد سلالة (تشينغ).

عبّر المسؤول الإقليمي رفيع المستوى (تشينغ فو) عن غضبه في مذكرته للإمبراطور، قائلًا: «كان على الجنود والضباط أن يقاتلوا بشجاعة عند لقائهم باللصوص المتوحشين، فلو أطلقوا النار على واحد أو اثنين، لكان الآخرون قد تفرقوا مذعورين». ولكن هذا قائد الفصيلة (تشانغ فنغ) كان «جبانًا للغاية، ووقف مكتوف الأيدي وسمح بحدوث عملية السرقة»، وأضاف «جنود وضباط مقاطعة سيتشوان المختلطة بقبائل البرابرة ضعفاء دائمًا، ويُنظر إليهم باحتقار من قبل هؤلاء البرابرة الأقوياء»، مما جعل «حتى المخافر ومحطات البريد العسكرية مجرد شكل بلا مضمون».

ما يُسمى بـ«اللصوص المتوحشين» هم السكان المحليين.

يبدو أن «عدم قدرة الجنود على القتال» هو مرض شائع في الإمبراطوريات التي تنعم بالسلام لفترة طويلة.

لكن في الواقع، شهد عهدي الإمبراطورين (كانغ شي) و(تشيان لونغ) المزدهرين في سلالة (تشينغ) حروبًا مستمرة. إذا تفحصنا السجلات التاريخية لتلك الفترة، فسنجد أن المناطق التبتية وحدها، من التبت إلى (تشينغهاي) ثم إلى سيتشوان، كانت تشهد صراعات عسكرية كبيرة وصغيرة بشكل متواصل. المشكلة الحقيقية كانت في النظام الذي أفرز الفساد. هذا الفساد لم يؤد فقط إلى تراكم الثروة بشكل غير مشروع في أيدي قلة من الناس، بل كانت عواقبه الأخطر هي الرخاوة واللامبالاة التي انتشرت في جميع مستويات النظام، مما أدى تدريجيًا إلى عجز المسؤولين عن الحكم والجنود عن القتال.

1 با زونغ: رتبة عسكرية لضابط. في عهد سلالة (تشينغ)، كان «با زونغ» هو الضابط المسؤول عن قيادة القوات في الوحدة الأساسية التي تُشكِّل مستوى المخفر العسكري، (وهو ما يعادل قائد فصيلة).

من خلال التقارير الرسمية، يتبين أن (تشينغ فو) لم يكتف سرد تفاصيل الحادثة بأكملها، بل قدم أيضًا مقترحات محددة للتعامل مع الأمر: «من جهة، أمر بفصل قائد الفصيلة المذكور واعتقاله للتحقيق معه، ومن جهة أخرى، أرسل توجيهًا إلى المسؤولين الحاكم المدني والقائد العسكري بشأن كيفية التدقيق في المراقبة والتفتيش في منطقة (هاي تسي) الكبيرة والشاسعة، حيث تتباعد المخافر ومحطات البريد العسكرية، وذلك لمنع السرقات والسطو في المستقبل». في ذلك الوقت، كان الحاكم العام لسيتشوان و(شنشي) يقيم في (شنشي). وكان المسؤولان المباشران عن إدارة شؤون سيتشوان هما الحاكم الإقليمي لسيتشوان والقائد الأعلى للجيش في سيتشوان المقيمان في (تشنغدو). ولهذا السبب، كان لزامًا عليه أن «يرسل توجيهًا إلى هذين المسؤولين وهما الحاكم المدني والقائد العسكري».

ظل الإمبراطور (تشيان لونغ) هادئًا، قائلاً: «ما رأيته صحيح تمامًا، ويجب أن يتم التعامل معه على هذا النحو».

قام الحاكم العام لمقاطعتي سيتشوان و(شنشي)، (تشينغ فو)، المتواجد في (شنشي) البعيدة، بتقديم تقريره مسبقًا، ليتبعه حاكم مقاطعة سيتشوان، (جي شان)، المتواجد في (تشنغدو) القريبة، بتقديم تقريره لاحقًا حول نفس الحادثة، جاء فيه: «تعرض قائد الفصيلة (تشانغ فنغ) الذي انسحب من (جيانغ كا) للسرقة عند وصوله إلى محطة بريد (هاي تسي)، وقد صدر الأمر بفصله واعتقاله للتحقيق معه». مقارنةً بتقرير (تشينغ فو)، كان تقرير (جي شان) أبسط بكثير، وكأنها محاولة لتقليل أهمية الحادثة. وهذا ما أثار غضب الإمبراطور. عندما يغضب المرء، يكثر كلامه ويُخرج ما في جعبته من توبيخ. قال الإمبراطور: «لقد انتهت قضية (قوه لوه كه) للتو»، و«(قوه لوه كه)» هي مجموعة تبتية أخرى كانت ضمن نطاق مسؤولية حاكم مقاطعة سيتشوان في ذلك الوقت، وتتبع اليوم منطقة (تشينغهاي). كانت القضية تتعلق أيضًا بـ«قطاع طرق أقوياء»، أي أنهم كانوا يسرقون المسافرين على «طريق الشاي والخيول القديم» وحتى المسؤولين الحكوميين. أصدر الإمبراطور (تشيان لونغ) مرسومًا يقول: «لقد انتهت قضية (قوه لوه كه) للتو، وها هي تتكرر. وهذا يعني أن تعاملكم معها العام الماضي كان سطحيًا فقط. علاوة على ذلك، فإن (تشينغ فو) أبلغني بهذا الأمر مبكرًا جدًا، وكانت وجهة نظره صحيحة تمامًا، ما إبلاغك فقد كان متأخراً، وكأنك لا تعتبر الأمر مهمًا جدًا، وهذا يُعد خطأً فادحًا باعتبارك مسؤول إقليمي رفيع المستوى. يجب أن تُظهر هذه القضية الهيبة القوة لردعهم وتغيير سلوكهم، ويجب العمل بكل تأكيد على القبض على الجناة الرئيسيين ليكون عبرة للعنيدين والمتمردين. وإلا، فلن تنعم مقاطعة سيتشوان بالسلام في السنوات القادمة!"

وهكذا، بدأت حادثة صغيرة في مكان صغير تكبر بسبب اهتمام الإمبراطور وغضبه.

في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم من الذي قام بالسرقة، بل كانوا يعرفون فقط أن مجموعة من الجنود، ما يعادل فصيلة اليوم، قد سُرق منهم كل شيء.

.indd 16-17 2025-11-27 10:55:42

حسنًا، فلنبدأ بالتحقيق حول هوية من سرق الجنود المسلحين بالكامل التابعين لقائد الفصيلة (تشانغ).

بعد أكثر من شهر، تلقى الإمبراطور (تشيان لونغ) تقريرًا من الحاكم الإقليمي لـ سيتشوان، (جي شان)، يحدد فيه هوية مرتكبي الجريمة.

وجاء في التقرير: «بالتحقيق من (دا جيان لو) إلى التبت، وُجد أن أنواع القبائل البربرية كثيرة، لكن أشرسها وأقواها هي قبيلة (تشان دوي) والقبائل المماثلة، التي تعيش على النهب والسطو».

هنا يظهر اسم (تشان دوي) -- وهو المكان الذي سيظل محط اهتمام هذا الكتاب.

(دا جيان لو) هي الآن (كانغ دينغ)، عاصمة محافظة (قان تسي). يتبع طريق سيتشوان-التبت السريع اليوم نفس مسار طريق البريد القديم. عند مغادرة (كانغ دينغ) وعبور جبل (تشه دوه شان)، يُعتبر المسافر قد «غادر الممر». بعد ذلك، يعبر نهر (يالونغ جيانغ) وصولاً إلى مقاطعة (ياجيانغ)، ثم يصعد إلى هضبة (لي تانغ). تقع (تشان دوي) في الجبال الواقعة شمال (لي تانغ). في ذلك الوقت، كان أهالي (تشان دوي) يأتون غالبًا إلى الطريق الرئيسي بين سيتشوان والتبت ليحصلوا على ثروات سريعة من المسافرين والتجار.

بعد عبور (لي تانغ)، يواصل طريق سيتشوان-التبت الرئيسي طريقه غربًا إلى (باتانغ)، ثم يعبر نهر (جينشا) ليصل إلى التبت. اليوم، يُطلق على التبتيين القاطنين على طول هذا الطريق اسم «(كانغ با)»، وهو اسم ارتبط بالكثير من الأساطير والرومانسية. في الواقع، وكما ذكر (جي شان) في مذكرته، هناك «أنواع عديدة من القبائل البربرية» على طول الطريق المتجه غربًا. فداخل الثقافة الأكبر، توجد ثقافات فرعية أصغر، مما يؤدي إلى اختلافات جميلة في اللغة والعادات. هذا التنوع الثقافي يعكس التنوع البيولوجي الغني في المنطقة، مما يجعلها مشهدًا رائعًا.

العثور على قطاع الطرق، أي «جيا با»، لم يكن صعبًا، ولكن بعد العثور عليهم، كيف سيتم التعامل معهم؟

كتب الحاكم الإقليمي لـ سيتشوان، (جي شان)، في تقريره: «بما أنهم سرقوا أمتعة الجنود والضباط، فإنه من المناسب أن نطلب العقوبة وفقًا للقانون. ولكن بسبب الحرب التي شُنّت على (تشان دوي) في السنة الثامنة من عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، والتي استهلكت الكثير من القوات، بسبب اعتماد هؤلاء البرابرة على الأراضي الوعرة، فإن مهاجمتهم ليست سهلة. خشية أن يؤدي عدم التخطيط المسبق إلى تعقيد الأمور لاحقًا، فقد أصدرنا أمرًا لشيخ قبيلة (لي تانغ) المحلية بمطاردة اللصوص واستعادة المسروقات. الهدف هو ‹استخدام البربري ضد البربري›، والتصرف بحكمة، وقطعًا لن نعتبر هذه المسألة ثانوية أو نستهين بها». اتضح أن أهالي قبائل (تشان دوي) قد أثاروا الفوضى من قبل، وأن الحكومة المركزية قد أرسلت قوات لقمعهم، ولكن بسبب تضاريس الجبال الوعرة وبعد مسافة الطرق، لم تكن النتائج ملحوظة.

(تشان دوي)، حكايات من الماضي

في السابق، وتحديدًا في العام السادس من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ) في عهد سلالة (تشينغ) الموافق عام 1728م، سمح شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، الذي عيّنه الإمبراطور (كانغ شي) على مكتب التهدئة والأمن[1] قبل عشرين عامًا فقط، لأتباعه بالانخراط في عصابة قطاع الطرق المسلحين «جيا با»، أي تحريضهم على الخروج والسطو. ولإظهار العقاب، قامت السلطات المعنية في سيتشوان بإرسال جنود من الهان والمسؤولين المحليين من معسكر (لي يا) القريب للقبض على الجناة المجرمين. تمكن القائد الميداني (قاو فن تشي) من استدراج وقتل شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى (تسي لنغ قونغ بو). ظن الجميع أن هذا سيجعل منطقة (تشان دوي) بلا قائد، مما سيسهل التقدم واقتحامها قطعة قطعة، وتحقيق نصر سريع.

ولكن هذا الفعل أثار كراهية شعب (تشان دوي)، الذين نصبوا كمينًا مستغلين التضاريس الوعرة من الوديان العميقة والغابات الكثيفة، مما أدى إلى القضاء على أكثر من مائتي جندي من قوات (تشينغ). وفر (قاو فن تشي) مهزومًا. وفي العام الثامن من عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، ولغسل عار هزيمة (قاو فن تشي) واستعادة هيبة إمبراطورية (تشينغ)، أرسل القائد الأعلى للجيش في سيتشوان (هوانغ تينغ قوي) نائب القائد[2] (ما ليانغ تشو) على رأس جيش يضم أكثر من 12 ألف جندي لقمع التمرد. قام أهالي (تشان دوي) بتدمير الجسور على نهر (يالونغ جيانغ) التي تتمد عبر كامل المنطقة من الشمال إلى الجنوب، وانسحبوا من الضفة الشرقية للنهر ونشروا قواتهم على الضفة الغربية للنهر. فوجد جيش (تشينغ) أنفسهم محاصرين على الضفة الشرقية، وعجز (ما ليانغ تشو) عن التقدم، وبسبب طول خطوط الإمداد، اضطر إلى سحب القوات بسرعة.

1 مكتب التهدئة والأمن: يُعرف أيضًا باسم مبعوث التهدئة والأمن، أو مكتب مبعوث التهدئة والأمن. وهي مؤسسة إدارية وعسكرية أنشئت في عهد سلالة (تشينغ) في مناطق الأقليات العرقية، وتُعادل في وظيفتها تقريباً الهيئات المحلية العرقية ذاتية الحكم في وقتنا الحاضر. كان هذا المنصب يُمنح بالوراثة لزعيم القبيلة من السكان الأصليين للمنطقة والذي يقوم بإدارة شؤون السكان المحليين والجنود المحليين ضمن أراضيه. بناءً على حجم المنطقة، وعدد سكانها، ومقدار إسهاماتها العسكرية في مساعدة جيوش الحكومة المركزية، تم تقسيم هذه المناصب إلى ستة مستويات إجمالية: مكتب القيادة ، ومكتب التهدئة والإشراف ، ومكتب الإعلان والتهدئة ، ومكتب التهدئة والأمن، ومكتب التجنيد والعقاب، ومكتب الزعامة. تُعرف هذه المستويات الستة مجتمعةً عادةً باسم «التُّوسي»/ شيخ القبيلة .

2 نائب القائد: خلال عهد سلالة (تشينغ)، أسس نورهس نظام «الرايات الثمانية» العسكري، ووضع رتبًا عسكرية مختلفة، منها قائد عام، ونائب قائد، وقائد مشارك، وقائد ميداني وغيرها. وبعد الدخول إلى الصين، تم إنشاء قوات الكتائب الخضراء ، وكان أيضًا يُعيَّن تحت القائد العام نائبُ القائد، وهي رتبة عسكرية عليا. وعادةً ما كان يتولى قيادة فرقة من الجنود والفرسان، ورتبته من الدرجة الثانية الدنيا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها بلاط (تشينغ) القوة العسكرية ضد (تشان دوي).

لم تكن الحملة العسكرية ضد كامل منطقة (تشان دوي)، بل كانت فقط ضد شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى الواقعة جنوب (تشان دوي) القريبة من منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ). في البداية، مُنيت الحملة بالفشل، وبعد ذلك، عادت القوات دون تحقيق أي نتائج.

لكن المسؤول عن العملية، القائد الأعلى للجيش في سيتشوان (هوانغ تينغ قوي)، أنهى الأمر بتقديم تقرير عن «النصر». ووفقًا لـ«ملخص شؤون التبت في عهد سلالة (تشينغ)»، فقد قدم (هوانغ تينغ قوي) التقرير التالي: «...قام قطاع الطرق والقبائل التبتية من (تشان دوي) وما حولها بتشكيل عصابات للسرقة والنهب، وقد تم إرسال القوات للقمع والتهدئة».

أصدر الإمبراطور (يونغ تشنغ) مرسومًا، جاء فيه: « ‹إن القوات العسكرية من الهان (الصينيين) والسكان المحليين التي تتقدم لقمع منطقة (تشان دوي)، قد قاتلت بشجاعة وقوة وهاجمت معقل العدو مباشرة. ونتيجة لذلك، فكانت جماعات البرابرة هي أول من أعلن خضوعه وولائه، وقد تم بالفعل إلقاء القبض على زعيم اللصوص وتسليمه إلينا.» لم يحضر الإمبراطور إلى الموقع بنفسه ولم يرسل مبعوثًا إمبراطوريًا، بل اكتفى بالاستنتاج بناءً على التقارير التي وصلته. كما أصدر مرسومًا بمنح المكافآت والتقدير للضباط والجنود المستحقين، ومنح التعويضات المعتادة للجنود المصابين والقتلى. لكن الحقيقة هي أن قوات (تشينغ) كانت قد أُعيقت عند الضفة الشرقية لنهر (يا لونغ)، ولم تتمكن من التوغل في عمق منطقة (تشان دوي) السفلى، وبالتالي فإن عبارة «هاجمت معقل العدو مباشرةً» هي كذبة صريحة. أما عن الحقيقة الفعلية، فربما كان الإمبراطور على علم بها لكنه تظاهر بالجهل، أو ربما لم يكن يعلم بالفعل.

لكن على الأرجح أن (تشينغ فو) و(جي شان)، ومن جاء بعدهم، كانوا على دراية تامة بالحقيقة.

غيوم الحرب الأولى

فشلت الحملة العسكرية الأولى ضد (تشان دوي) وعادت القوات دون تحقيق أي نتيجة. بسبب هذه التجربة السابقة، لم يجرؤ (جي شان) على التسرع في إرسال قوات جديدة. لذلك، اختار استراتيجية «استخدام البربري ضد البربري»، وأمر شيخ قبيلة (لي تانغ)، الذي تقع أراضيه بجوار (تشان دوي) السفلى، بمطاردة «اللصوص واستعادة المسروقات». كان هذا القرار منطقيًا، لأن (تشان دوي) السفلى لا تقع على الطريق الرئيسي بين سيتشوان والتبت. ولكي يتمكن أهلها من سرقة الجنود، كان عليهم التوجه جنوبًا، وعبور الجبال الشاهقة، ودخول أراضي شيخ قبيلة (لي تانغ). لذا، لا يمكن لشيخ قبيلة (لي تانغ)، المسؤول عن حماية الطريق والمنطقة، أن يتنصل من مسؤوليته. كانت خطة (جي شان) هي دفع شيخ قبيلة (لي تانغ) للتحرك، «فإذا سلم أهل (تشان دوي) الجناة الرئيسيين عصابة جيابا، فسيتم تقديم طلب للإمبراطور لإنهاء القضية».

كان الحاكم الإقليمي (جي شان) بحسب خبرته الطويلة في العمل الرسمي، يعلم أن هذه الخطة الاستراتيجية، التي لا تتطلب جهدا ولا قلقا، قد لا تُجدي نفعًا. لذلك، ترك لنفسه مخرجًا في مذكرته: «إذا استمروا في تمردهم، فسوف أتشاور مع الحاكم العام وقائد الجيش بشأن كيفية إظهار القوة، ووضع خطة للتعامل مع العواقب، وتعيين مسؤول متخصص للقيام بذلك».

يعتبر كل من الحاكم العام وقائد الجيش أعلى رتبة من الحاكم العام الإقليمي الذي يحتل المرتبة الثانية. بمعنى آخر، إذا تحولت المشكلة الصغيرة إلى مشكلة كبيرة، فإن الحاكم الإقليمي (جي شان) يريد أن يشركهم معه في تحمل مسؤولية اتخاذ القرار والقيادة.

بعد ثلاثة أشهر، قدم (جي شان) تقريرًا آخر للإمبراطور، في عام 1745، قال فيه: «ما زلنا نلاحق بصرامة لصوص (تشان دوي) الذين سرقوا أمتعة الجنود المنسحبين». وهذا يعني أن اللصوص الذين ينبغي القبض عليهم، لم يتم القبض عليهم بعد. يبدو أن خطة استخدام شيخ قبيلة (لي تانغ) للضغط على شيخ قبيلة (تشان دوي) لم تنجح. علاوة على ذلك، خلال هذه الفترة، كانت أراضي شيخ قبيلة (لي تانغ) نفسها تتعرض لعمليات نهب متكررة من قبل عصابة قطاع الطرق المسلحين «جيا با»، وهو ما ذكره (جي شان) أيضًا في مذكرته.

[redacted].indd 20-21 2025-11-27 10:55:43

«وفقًا لتقرير مدني ورد من خيام (تشا ما لونغ) السوداء، التابعة لـ (لي تانغ)، فقد قام ما يزيد عن أربعين شخصًا من عصابة قطاع الطرق المسلحين 'جيا با' بسرقة الخيام والمواشي.»

«ووفقا لتقرير من جنود قبيلة (إي وا بن سونغ تانغ) التبتية، فقد قام ما يزيد عن ثلاثين شخصاً من عصابة قطاع الطرق المسلحين 'جيا با'، وكل واحد منهم يحمل بندقية وسهاماً، بهدم المنازل وسرقة الوثائق.»

تُظهر هذه التقارير أن أولئك الذين يُعرفون باسم «جيا با» لم يكتفوا بسرقة الجنود الحكوميين، بل قاموا أيضًا بسرقة السكان المحليين.

«نظرًا لأن شيخ القبيلة لم يلق القبض على الجناة الرئيسيين ويسلم جميع المسروقات، فقد تم على الفور إصدار أمر للضباط ذوي الخبرة والمعرفة بطبيعة البرابرة بالذهاب إليهم وإبلاغهم. ورغم أنه من الصعب تحديد ما إذا كان سيتم إظهار القوة العسكرية مستقبلا أم لا، إلا أنه يجب التخطيط بعناية فائقة بخصوص إمدادات ومؤن الجيش مقدمًا.»

لذلك، أصدر الإمبراطور مرسومًا قال فيه: «الاستعداد المسبق أمر مناسب للغاية. فسرعة الجيش أمر بالغ الأهمية، وهذا يجب أن يكون معروفًا.»

وأصدر مرسومًا آخر قال فيه: «من هذا المنظور، يبدو أنه لا مفر من إظهار القوة العسكرية.»

وبعد صدور مرسوم الإمبراطور، بدأ المسؤولون في التنفيذ. أصدر الإمبراطور مرسومه في الشهر الثالث، وقدم الحاكم العام لسيتشوان و(شنشي) خطته الأولية في اليوم الأول من الشهر الرابع.

«اعتاد سكان القبائل في (تشان دوي) العليا و(تشان دوي) السفلى على الانخراط في ‹جيا با›.» بمعنى آخر، كان لدى (تشان دوي) العليا و(تشان دوي) السفلى دائمًا عادة الخروج للنهب والسرقة. علاوة على ذلك، وصف التقرير تضاريس (تشان دوي) بالتفصيل: «تقع (تشان دوي) العليا و(تشان دوي) السفلى على ضفتي نهر (يالونغ جيانغ)، وتتكون كل منهما من أكثر من عشرين قرية. يوجد طريقان رئيسيان في الشرق، وثلاثة طرق رئيسية في الغرب والجنوب والشمال، وكلها ممرات استراتيجية. كما أن المنطقة تتشارك الحدود مع منطقة شيخ قبيلة (سي وا شو). وجميع من يدخل أو يخرج (تشان دوي) إلى المناطق الداخلية داخل الصين يمرون حتماً عبر حدود منطقة (سي وا شو).»

إن منطقة (تشان دوي) بالفعل بعيدة الطرق ووعرة التضاريس، تذكر السجلات التاريخية لسلالة (تشينغ) أن (تشان دوي) العليا تبعد أربعة عشر محطة عن (دا جيان لو)، وأن (تشان دوي) السفلى تبعد ثمانية عشر محطة عن (دا جيان لو)، وباعتبار أن كل محطة تستغرق يوماً واحدًا، فإن زمن الوصول يستغرق ما يزيد على نصف شهر سيراً على الأقدام. هذه البيئة الجغرافية جعلت من الصعب إخضاعها وإخافتها على الفور حتى عندما تم شن هجوم عليها في السابق بقوة تزيد عن عشرة آلاف جندي، أما الآن، وإذا كانت القوة العسكرية اليوم أضعف نسبياً، فلن تكون كافية لإظهار القوة والهيبة. وعليه، يجب اختيار وتعيين قائد حامية وجنرال من المفوضين، ليكونا القائد العام للجيش ونائبه، وتُخصص طريق (جيان تشانغ) للإشراف على الانضباط، ويُنقل أربعة آلاف جندي من قومية الهان من وحدات القيادة العامة والحاميات والفرق العسكرية المجاورة، وأربعة آلاف جندي محلي من مناطق شيوخ القبائل من (تسا قو) و(وا سي) و(مو بينغ) وغيرها، تنطلق كل هذه القوات من (دا جيان لو)، وتتمركز بالقرب من معاقل الزعماء المحليين المستهدفين. ويُرسل أيضاً شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الخاضع للإدارة وشيخ قبيلة (لي تانغ) المجاور وغيرهم، ليقوموا بسد المنافذ والممرات الجبلية ومنع التسلل. أما

شيخ قبيلة (سي وا شو)، فلطالما خشي اعتداءات (تشان دوي)، وقد اضطر إلى إقامة صلات سرية معهم، لكن ذلك لم يكن عن رغبة حقيقية. لذا ينبغي توجيهه وإقناعه بعدم الانضمام إلى حزب الأشرار، وبذلك تُصبح (تشان دوي) معزولة. بعد ذلك، تُحدد أسماء وقرى قطاع الطرق المسلحين «جيا با»، ويُؤمر الزعماء المحليون في هذه القرى بـ ‹القبض عليهم وتسليمهم». فإذا أظهرت (تشان دوي) العليا الندم والتوبة، تُكافأ وتُؤمر بالمشاركة في الهجوم على (تشان دوي) السفلى. ثم يُؤمر شيوخ قبائل (تسا قو)، و(وا سي) وغيرهما بالتقدم بقوة في الصفوف الأمامية، على أن يتبعهم الجيش الكبير لاستكمال الهجوم والقمع».

باشر المسؤولون عن الشؤون العسكرية وضع خطط التقدم (التحرك العسكري) مسبقاً، كما تحرك المسؤولون الإداريون لوضع خطط الضمان اللوجستي والإمدادات مسبقاً أيضاً. وقام المفوض الإداري[1] لمقاطعة سيتشوان (لي رو لان) بتقديم طلب رسمي إلى وزارة الخزانة لـ «التخطيط المسبق لمخزونات الإمدادات في المناطق الحدودية». وبناءً على ذلك، تم شراء خمسة آلاف شي إضافية من الأرز والحبوب لكل من محافظتي (يا آن) و(ينغ جينغ) التابعتين لولاية (ياتشو) القريبة من أراضي شيوخ القبائل التبتيين، وثلاثة آلاف شي إضافية من الأرز والحبوب لمحافظة (تشينغ شي).

كما قدم (جي شان) تقريرًا ذكر فيه أن الحملة العسكرية على (تشان دوي) في السنة الثامنة من عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، والتي شارك فيها أكثر من اثني عشر ألف جندي من الهان والجنود المحليين، كلفت مبالغ طائلة من الأرز، والفضة، والأسلحة. وأضاف أنه بما أن عدد القوات لن يقل هذه المرة، بل قد يزيد، يجب تجهيز المزيد من الحبوب والمال والأسلحة. في ذلك الوقت، كان المستودع الحكومي في (دا جيان لو) والمستودعات القريبة منه تحتوي على أكثر من 7600 «شي» من الأرز، كما كانت هناك مخزونات في محافظات تابعة لـ (ياتشو). لذلك، يجب طحن خمسة آلاف «شي» من الحبوب وتحويلها إلى أرز ونقلها مسبقًا إلى (دا جيان لو). كما يجب توفير مبالغ إضافية من الفضة لشراء «تسامبا» (طعام التبتيين الرئيسي) وهو دقيق الشعير المحمص الذي يمكن حمله في الرحلات الطويلة، من (دا جيان لو) و منطقتي شيوخ قبيلتي (لي تانغ) و(باتانغ). ولذلك، «يجب توفير مبلغ ثلاثمائة وثلاثة وتسعون ألف تايل[2] من الفضة من الخزانة الحكومية».

تبدو الاستعدادات للحرب أمرًا شاقًا.

1 المفوض الإداري: هو اسم منصب رسمي في عهد سلالة (تشينغ)، والاسم الكامل له هو « المفوض الإداري لمكتب مفوض الإدارة الإقليمية. هذا المنصب يمثل المسؤول الأعلى عن الشؤون المدنية داخل المقاطعة. ويخضع في التسلسل الإداري لـ الحاكم العام والحاكم الإقليمي. ورتبته هي الدرجة الثانية الملحقة.

2 تايل: هي وحدة وزن صنينية تعادل 37.3 جرام في عهد سلالة (تشينغ)

.indd 22-23 2025-11-27 10:55:43

المشكلة الأكبر هي إنفاق المال.

فالتحرك العسكري يتطلب إنفاقًا كبيرًا.

«بالإضافة إلى النفقات الشهرية، والطعام، وتكاليف النقل، يجب دفع رواتب الجنود، ومنحهم مقدمات مالية لشراء الزي العسكري، بالإضافة إلى رواتب الاستقرار ومكافآت للجنود المحليين، وتوفير الملح، والخضروات، والطعام، والشاي، والماشية لكل من جنود الهان والجنود المحليين، وكذلك دفع رواتب الجنود، والموظفين، والمترجمين، وكتبة الحبوب، وعمال المستودعات، وغيرهم.»

الحرب ليست مجرد مواجهة كما تُعرض في المسلسلات. قبل حتى أن تبدأ المعارك، هناك الكثير من التفاصيل المعقدة التي تسبب الإزعاج.

ولكن هذه المرة، تم اكتساب خبرة من حملة الإمبراطور (يونغ تشنغ) الفاشلة في السنة الثامنة من حكمه، ولهذا السبب، «كل ما له سابقة في السنة الثامنة من عهد يونغ تشنغ سيتم اتباعه».

في هذا الوقت، تم تعيين قائد جديد لجيش سيتشوان، اسمه لي جي تشوي. وبصفته أعلى مسؤول عسكري في المقاطعة، كان يؤيد بشدة المضي قدمًا في الحملة. بعد توليه منصبه، قدم هووكل من (تشينغ فو) و(جي شان) مذكرة مشتركة قالوا فيها: «إن قطاع الطرق في (تشان دوي) يمارسون السرقة والنهب باستمرار. وعلى الرغم من إرسال قوات لقمعهم، إلا أن طبيعتهم المتمردة لم تتغير. يجب زيادة عدد الجنود لإخافتهم، عندها فقط يمكن تحقيق السلام مرة واحدة وإلى الأبد».

وهكذا، طلب ثلاثة من كبار المسؤولين المحليين رسميًا الإذن بشن حرب.

كما أصدر البلاط المركزي ردًا رسميًا بعد المداولة. هذا الرد يتمثّل في أن الإمبراطور أحال وثيقة طلب شن الحرب إلى الإدارات المعنية، مثل وزارة الحرب، قائلاً لهم: «أعطوني رأيكم في الأمر.” فأخرجت وزارة الحرب رأيًا بسرعة، وأصدرت أمر التنفيذ كما يلي: «يُعيَّن (يوان شي بي)، القائد العام لحامية (جيان تشانغ)، رئيسًا عامًا للحملة، ويُرسل ما مجموعه اثنا عشر ألفًا من الجنود والضباط من قومية الهان والسكان المحليين من مختلف معسكرات الوحدات العليا بمقاطعة سيتشوان ومن شيوخ القبائل في (تساقو) و(وا سي)، على أن يُختار منهم الأكفاء لقيادة الحملة وقمع التمرد. كما يُرسل ألف من جنود وضباط الهان والسكان المحليين من حامية (شي نينغ) القريبة من منطقة (تشان دوي)، بالإضافة إلى ألف جندي من كل من جنود القبائل التبتية التابعين للأمير التبتي (بولوه ناي) في (جيانغ كا)، ومن الجنود المحليين من قبيلة (ده قه)، للتواصل وتقديم الإسناد والدعم، والقيام بأعمال الدوريات والاستطلاع.»

بالتزامن مع إصدار هذ الرد، عبر الإمبراطور (تشيان لونغ) عن قلقه لكبار المستشارين العسكريين، قائلاً: «الحرب ليست أمرًا جيدًا أبدًا، والنفقات المالية هائلة. إذا لم تتم إدارة هذه الحملة بشكل جيد، أو أدت إلى إضعاف قوة الجيش، أو انتهت بسرعة وبشكل غير فعال تاركة وراءها المزيد من المشاكل كما حدث في السنة الثامنة من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، فإنني سأحاسب (تشينغ فو) و(جي شان) و(لي جي تشوي)».

لا أحد يعلم إن كان تصرف الإمبراطور هذا نابعًا من عدم ثقته بمرؤوسيه أم من شعور سيء مسبق لديه.

.indd 24-25 2025-11-27 10:55:43

الإمبراطوريحثّ القوات

طلبت المنطقة تنفيذ عمليات عسكرية، فوافقت الجهات المعنية في الحكومة المركزية بسرعة، لكن التحركات على المستوى الأدنى تباطأت.

في يونيو، قدم (تشينغ فو) -الحاكم العام لمقاطعتي سيتشوان و(شنشي)- مذكرة مرة أخرى، ورغم أنها لم تتناول بشكل مباشر مسألة تقدم القوات، إلا أنها كانت متعلقة بها إلى حد ما. ركزت هذه المذكرة على (دا جيان لو)، المعروفة اليوم باسم (كانغ دينغ). في ذلك الوقت، كان من المقرر أن تتجمع القوات والإمدادات التي تم تجنيدها من جميع أنحاء البلاد في (دا جيان لو) قبل إرسالها تدريجيًا نحو الغرب. لكن (تشينغ فو) والآخرون لم يقدموا تقريرًا حول هذه المسائل. تذكروا فجأة أنهم بحاجة إلى استعادة النظام العام في (دا جيان لو) ——»تفتيش دخول وخروج المدنيين»

إن كتابة المقالات طريقة جيدة، فعند الوصول إلى النقاط الحاسمة، يمكن الخروج عن الموضوع وكتابة بعض الكلمات التي ليست ذات صلة، وهذا في الواقع يزيد من التشويق. ولكن عندما يتعلق الأمر بالقضايا العسكرية، قد لا تكون هذه الطريقة مناسبة. ومع ذلك، قام (تشينغ فو) ورجاله بتقديم تقريرًا، جاء فيه: «بعد الفحص، تبين أن (دا جيان لو) تحتوي في الأصل على ثلاثة بوابات، البوابة الشرقية الكبيرة هي الطريق الرئيسي المؤدي إلى المقاطعة، والبوابة الجنوبية هي الطريق إلى التبت، أما البوابة الشمالية عند وادي (ياناقو) فهي تربط الطرق الصغيرة لشعبي (المياو) و(المان). نظرًا لأن المدينة بها سوق للشاي، فإن شعب (المياو) و(المان) يتجمعون هناك للتجارة، كما أن شعب (الهان) يتوافدون بأعداد كبيرة أيضًا، ولم يكن هناك أي سابقة لإجراء عمليات تفتيش.» لكن الآن، يجب تفتيش الأشخاص الداخلين والخارجين من المنطقة، كما يجب التحقق من وثائقهم. يجب أن تُسلم مفاتيح البوابات الثلاثة للمدينة إلى المسؤولين المحليين، ويجب نشر الجنود لحراسة البوابات، كما يجب أن يحصل جميع الأفراد الذين يغادرون المناطق الداخلية على تصاريح من المسؤولين المحليين. وعلى حراس البوابات التحقق من التصاريح قبل السماح بالمرور.» لم يُبدِ الإمبراطور اهتمامًا كبيرًا بهذه المسألة، لذلك أسند الأمر إلى كبار الوزراء من حوله لـ»مناقشتها والرد عليها». لكن ما قرره الوزراء في النهاية لم يتم تسجيله.

في شهر يوليو، قدم (جي شان) مذكرة أخرى، جاء فيها: «إن قبائل (تشان دوي) العنيدة غير ملتزمة بالقانون. وقد قام مقدم الالف[1] في لجنة القيادة الأمامية (شيانغ تشاو شيوان) بإرسال تعليمات واضحة، لكن شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى ، (بان قون)، قد نصب معسكرًا بأكثر من مئتي جندي عند سفح جبل (شينا) لعرقلة الطريق. أمر مقدم الألف زعماء (تشان دوي) بإرسال الوثائق الرسمية، وطالبهم بالرد، لكن (بان قون) استمر في المماطلة. وعندما وصل إلى قرية (تشي لين بينغ تو) في (تشان دوي) العليا، أبلغهم بالتعليمات السابقة. لكنهم قدموا أعذارًا، قائلين: «لقد توفي شيخ القبيلة، وأفراد العائلة لا يعلمون بالأمر، ولم يتم إطلاق سراح «جيا با»»، وغير ذلك من الأقوال. تنصلو من المسؤولية وألقوا باللوم على بعضهم البعض ولم يسلموا المسروقات والمجرمين في النهاية. ومنذ إظهار القوة العسكرية وتوفير الإمدادات اللازمة للجيش، تم بالفعل نقل أربعة الآف وثمانمائة وثمانون شي[2] من الأرز من مستودع (يا جون). بالإضافة إلى ذلك، تم شراء ثلاثة آلاف شي من الشعير اللازم للجيش من منطقة (لو دي)، وتم حجز وشراء ألف وخمسمائة شي من (لي) و(با أرتانغ) معًا. كما تم نقل الفضة والأموال اللازمة للجيش إلى (لو دي) لدعمهم وتلبية احتياجاتهم.»

الإمبراطور لم يكن مسرورًا بطبيعة الحال، قائلاً: «لقد علمت. الحرب تقتضي السرعة، وأنتم لم تحددوا موعدًا للتقدم بعد، بينما هم قد أعدوا قواتهم بالفعل لعرقلتكم! هل هذه هي الطريقة التي يدير بها الجنرال الجيد قواته؟»

استدعى الإمبراطور كبار المستشارين العسكريين مرة أخرى. وبالطبع لديه ما يبرر قلقه —— «في الوقت الحالي، بلغت الأموال والموارد المطلوبة أكثر من خمسمائة ألف!» والأهم من ذلك، «رفع (لي تشي تسوي) وآخرون مذكرة تقول: «بالأمس أرسل مقدم الألف جندي لإبلاغ التعليمات، وأمرهم بتسليم المسروقات والمجرمين» «. في وقت حشد القوات، ما الفائدة من إرسال التعليمات؟ النتيجة الوحيدة هي أن تجعل الآخرين «يستعدون مسبقًا فور سماع الأخبار»، ذلك، لم يستطع الإمبراطور منع نفسه من التساؤل: «أين مبدأ السرعة في الحرب؟»

أكثر ما يقلق الإمبراطور هو: «بالنظر إلى هذا الوضع، يبدو أنهم مترددون ومتصلبون في التعامل مع الأمر، وهذا لا يتناسب مع الموقف الحالي، ويخشى أن يكونوا في المستقبل غير قادرين على تنفيذ الحملة العسكرية بشكل تام وكامل، وبالتالي قد لا يتمكنوا من القضاء على المشاكل جذريًا». كما أدرك الإمبراطور بوضوح أنه إذا لم يتم التعامل مع الوضع بشكل صحيح، فقد ينتهي الأمر كما حدث في «السنة الثامنة من عهد (يونغ تشنغ)، حيث أُنجزت الأمور بتسرع، مما تسبب في أضرار اليوم.»

بعد أن وجه الإمبراطور موجة من اللوم والحثّ، قام بتعيين كل من نائب القائد (ما ليانغ تشو) ونائب القائد (سونغ تسونغ تشانغ) لقيادة القوات في حملة القمع ضد (تشان دوي). تزامن ذلك مع ترقية (سونغ تسونغ تشانغ) إلى منصب القائد العام[3] لحامية (سونغ بان). ورفع القائد الأعلى للجيش في سيتشوان (لي تشي تسوي) مذكرة إلى الإمبارطور يطلب فيها الإبقاء على (سونغ) في منصبه. وذلك لأن (تشان دوي) كانت منطقة تحت إدارته عندما كان يشغل منصب نائب القائد في فرقة (تاي نينغ)، وبالتالي فهو «على دراية تامة بالوضع هناك.»

---

1 مقدم الالف: رتبة عسكرية بمعنى أن المقدم يتقدم دومًا ألفًا من الجنود.

2 شي: وحدة وزن صينية تعادل 60 كيلو جرام تقريبا.

3 القائد العام: الاسم الكامل «القائد العام للحامية». كان منصبًا عسكريًا رفيع المستوى في قوات الكتائب الخضراء التابعة لسلالة (تشينغ)، ويأتي في المرتبة أدنى من رتبة القائد الأعلى، برتبة رسمية من الدرجة الثانية ويتولى إدارة الشؤون العسكرية لإحدى الحاميات.

.indd 26-27 2025-11-27 10:55:43

«موافق».

الإمبراطور أخيرًا نفد صبره وقال: «الحرب تقتضي السرعة، كيف يمكن أن يكون العدو قد أرسل قوات لوقفنا، ، بينما أنتم لم تحددوا حتى الآن موعد الخروج للحملة!» التوجيهات التالية كانت أكثر تحملًا ومعبرة عن مشاعر عميقة: «الحرب لا تُستخدم إلا عند الضرورة القصوى، فلا يمكن التساهل لإنهاء الأمور بطريقة سطحية مما يؤدي إلى مشاكل مستقبلية، كما لا يمكن تدمير كل شيء دون تمييز. أما فيما يتعلق بقتل الأسرى لتحقيق مكاسب زائفة، فهذا ما يجب الحذر منه بشكل خاص. اجتهدوا! واحذروا!»

الوقت هو الرابع عشر من يوليو، السنة العاشرة من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)

بعد أكثر من شهر، في السادس والعشرين من أغسطس، وصلت أخبار جديدة من الجبهة، ولكنها لم تكن أخبارًا عن بدء الحرب. قدم (تشينغ فو) تقريرًا يقول: «عندما سمع (بان قون) شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى عن اقتراب الجيش، ادعى حينئذٍ أنه مستعد لتقديم الولاء والخضوع. لكن يُحتمل أن يكون ذلك بهدف كسب الوقت حتى نضوج محاصيل الخريف، ولا يمكن التأكد من ذلك.» هذا (بان قون) شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى هو ابن مفوض التهدئة والأمن (سي لينغ قونغ بو)، الذي أُعدم على يد قوات (تشينغ) خلال عهد (يونغ تشنغ)، وهو يسيطر الآن على معظم مناطق (تشان دوي). أما في (تشان دوي) العليا، فقد توفي شيخ القبيلة العجوز وكان ابنه صغير السن، وبالتالي تولى إدارة المنطقة رئيس محلي قوي. «لا ينبغي أن نصدق ادعاء رؤساء (تشان دوي) العليا مثل (ساودا باو) وآخرون بأنهم على استعداد لتسليم ثلاث قرى وتقديم المساعدة كمرشدين، ومهاجمة (تشان دوي). سأقوم بفحص هذا الأمر بدقة عندما أصل إلى سيتشوان.»

اتضح أنه منذ اتخاذ قرار شن الحرب وحتى الآن، مرّ ما يقرب من نصف عام، ولم يصل الحاكم العام لـ سيتشوان و(شنشي) إلى مقاطعة سيتشوان القريبة من الجبهة.

بحلول نهاية سبتمبر، تلقى الإمبراطور مذكرة من (تشينغ فو)، الذي وصل أخيرًا إلى مقاطعة سيتشوان لتولي منصبه كمسؤول إقليمي رفيع المستوى. وجاء في المذكرة: «وصلتُ إلى مقاطعة سيتشوان في أغسطس، وعقدتُ اجتماعات مع المسؤولين المدنيين والعسكريين لتنظيم الشؤون العسكرية المتعلقة بـ(تشان دوي)»، علاوة على ذلك، تم الحصول على معلومات أكثر تفصيلًا حول الوضع في منطقة (تشان دوي). «رغم أن (تشان دوي) العليا والسفلى اشتركتا في التمرد والسرقة»، إلا أن هناك اختلافات بينهما. في (تشان دوي) العليا، شيخ القبيلة (كين تشو)، الذي يُفترض أن يرث منصب شيخ القبيلة، لا يزال طفلًا لم يكمل عامه الأول.» بعد سماعه أن القوات قادمة لقمع العدو، قام شخصيًا بتسليم ختم منصبه وإعلان ولائه، وقدم شكوى باكية بأن عمه (سي لانغ) خطط للاستيلاء على منصبه. كما أعرب عن استعداده لإرشاد القوات الحكومية لمهاجمة الأعداء..... يمكننا أن نعفو عن (كين تشو)».

أما (بان قون) شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى وزعيم اللصوص (سي لانغ) في (تشان دوي) العليا، فقد تآمرا معًا ولم يسلما الأموال والممتلكات المسروقة، لذا فإن جريمتهما أكبر. ومع ذلك، نظرًا لاستسلامهما طواعية، يمكن تأجيل إعدامهما مؤقتًا. يجب عليهما أولاً تسليم جميع الأموال والممتلكات المسروقة، وإعدام من يستحق الإعدام أمام الجيش. ثم يجب عليهما تسليم جميع الأسلحة الموجودة في الحصون، وبعد ذلك يمكن النظر في كيفية التعامل معهما. وإذا تمردا مرة أخرى، فسيتم القضاء عليهما تمامًا.

لا يعتقد الإمبراطور أن هذا الإجراء سيؤتي ثماراً جيدة، وقال إن إرسال جيش كبير لضغطهم وإجبارهم على إرجاع بعض المسروقات ليس بالأمر الصعب، ويمكنهم حتى إيجاد أشخاص ليحلوا محل القادة المطلوبين وإعدامهم. وتساءل: «بعد انسحاب القوات، هل يمكن ضمان عدم تكرارهم لهذه الأفعال؟»

وفي هذا الوقت، وصل الحاكم (لي تشي تسوي) إلى الخطوط الأمامية/الجبهة. قال (لي تشي تسوي): «بدأتُ رحلتي في الثامن من يوليو من مقاطعة سيتشوان للمشاركة في الحملة ضد (تشان دوي)، ووصلت إلى منطقة (دونغ آ لوه) في السادس والعشرين من الشهر. كما وصل القائد العام لبلدة (جيان تشانغ) (يوان شي بي) والقادة الآخرون من (الهان) والقوميات الأخرى مع قواتهم على التوالي».

.indd 28-29 2025-11-27 10:55:44

تحرُّك الجيش الكبير

بعد ذلك، انقسم الجيش إلى ثلاث طرق للتقدم: جنوبية وشمالية ووسطى. الطريق الجنوبية انطلقت من (لي تانغ) بقيادة نائب القائد (ما ليانغ تشو). كان (ما ليانغ تشو) هو نفسه الضابط الذي قاد حملة (تشان دوي) خلال فترة حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ). أما الطريق الشمالية، فكانت بقيادة (سونغ تسونغ تشانغ) القائد العام لحامية (سونغبان)، وانطلقت من (قان تسي). بينما تولى القائد العام (يوان شي بي) قيادة الطريق الوسطى، وانطلقت من (شا بولونغ)، لتقديم الدعم للطريقين الشمالية والجنوبية في نفس الوقت. تمركز (لي تشي تسوي) في (دونغ وو لو)، في موقع متوسط بين طريقي (لي تانغ) و(شا بولونغ)، ولم يكن بعيدًا عن (قان تسي)، حيث كان يدير وينسق جميع العمليات.

في أواخر شهر أكتوبر، وصل تقرير بالانتصار: "بمجرد خروج الضباط والجنود من الممرات، جاء (كن تشو)، الوريث المفترض لمنطقة (تشان دوي) العليا، شخصيًا إلى معسكر (يوان شي بي) القائد العام لحامية (جيان تشانغ)، واستسلم، كما قام الزعماء التابعون له، مثل (ساو دا بانغ)، بإحضار جنودهم المحليين وتسليم قراهم للمساعدة في الحملة. وبعد أن تأكد القائد العام للحامية من صدقهم، قام باستقبالهم على الفور. كما اتفق مع القوات الشمالية على مهاجمة (سي لانغ)."

"أما بالنسبة لـ(سي لانغ)، فهو في الأساس زعيم اللصوص في (تشان دوي) العليا، وحتى لو استسلم بنفسه، فلا يمكن التسامح معه."

لكن كان هناك بالفعل خلاف بين الضباط في الجبهة حول كيفية التعامل مع هذه المسألة. أرسل (تشينغ فو) تقريرًا يقول فيه: "الخطة الأصلية كانت مهاجمة (سي لانغ) أولًا، ثم توحيد القوات الحكومية لمهاجمة (تشان دوي) السفلى مباشرةً." (سي لانغ) هذا هو عم (كن تشو)، الصبي الصغير الذي كان من المفترض أن يرث منصب شيخ القبيلة في (تشان دوي) العليا. كان قد تواطأ سابقًا مع شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى لتحريض السكان على الانخراط في عصابة قطاع الطرق المسلحين «جيا با». لكن عندما رأى الجيش يقترب، أرسل والدته وأخاه إلى معسكر (سونغ تسونغ تشانغ) القائد العام لحامية (سونغ بان)، معلنين استسلامهم ورغبتهم في الخضوع والطاعة. كان (سونغ تسونغ تشانغ) قد تمت ترقيته لمنصب القائد العام لحامية (سونغ بان)، لكنه اضطر للبقاء هنا لقيادة الحملة. وبطبيعة الحال، كان يأمل أن تنتهي الحرب قريبًا حتى يتمكن من الذهاب إلى منصبه الجديد. لذلك، قام "بمكافأة والدة (سي لانغ) وأخيه، وطلب منهما المغادرة شخصيًا، بهدف إنهاء الأمر بسرعة." هذا يتعارض مع "الخطة الأصلية" المتفق عليها مسبقًا ويعد خطأً فادحًا. لذلك، ذكر (تشينغ فو) في تقريره إنه بما أن القائد العام (سونغ) قد استقبله، فليس هناك خيار سوى "احتجاز" (سي لانغ) مؤقتًا، وبعد هزيمة (تشان دوي) السفلى، سيتم "محاكمته وفرض العقوبة عليه بصرامة." "أمر القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) فورًا الضباط والجنود من الطرق الوسطى والجنوبية بمهاجمة (تشان دوي) السفلى أيضًا. وإذا لم يلتزموا بالترتيبات، فسيتم رفع تقرير رسمي إلى الإمبراطور للإبلاغ بسوء السلوك وإدانتهم."

هذا يعني أن المسؤول (تشينغ) قد قدم بالفعل تقريرًا عن القائد العام (سونغ) إلى الإمبراطور، مما مهد الطريق لـ«كشفه وإدانته» في المرة القادمة.

بهذا، وبعد تخطيط دام لنصف عام، بدأت أخيرًا معركة قمع (تشان دوي).

عندما اقترب الجيش الكبير، استسلمت منطقة (تشان دوي) العليا وسلمت قراها. أما والد (بان قون)، شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، واسمه (تسه لينغ قونغ بو)، فقد قُتل على يد قوات (تشينغ) في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) بسبب «الانخراط في عصابة جيا با». لذلك، قرر (بان قون) هذه المرة مواجهة قوات (تشينغ)، و«أقام عدة نقاط تفتيش وحصون على الضفة الشرقية لنهر (يالونغ)». أهم هذه النقاط كانت تسمى (جيا شه يا كا). كان على القوات الحكومية عبور نهر (يالونغ) من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية للتوغل في عمق منطقة (تشان دوي) السفلى، وكان عليهم أولًا الاستيلاء على هذه النقطة. كانت هذه النقطة تتكون من عدة نقاط أصغر مترابطة ومتعاونة، مما زاد من صعوبة الاستيلاء عليها. أرسل القائد العام (يوان شي بي) قواته من الطريق الوسطى للهجوم، وبعد قتال عنيف، تمكنوا من اختراق الممرات الثلاثة في هذه النقطة الرئيسية واحدًا تلو الآخر، وخصصوا أكثر من مائة جندي للدفاع عنها. وواصلوا الهجوم مستغلين زخم النصر، واقتربوا من «منطقة (مولو قونغ) حيث توجد حصون اللصوص، وتمكنوا من الاستيلاء على نقطة رئيسية أخرى ونقطتين على يمين ويسار (مولو قونغ)»، وبهذا حققت قوات الطريق الوسطى نصرًا ساحقًا.

قاد نائب القائد (ما ليانغ تشو) قوات الطريق الجنوبية من الجنود والضباط من قومية الهان والسكان المحليين، و«هاجموا ثلاثة قرى بربرية من منطقة (تشي دا)، وتقدموا حتى وصلوا إلى (تسا ما سو)، وبعد ذلك تمكنوا من اختراق وتدمير خمس عشرة قرية بربرية أخرى على التوالي. هرب اللصوص التبتيون من هذه القرى إلى الغابات الجبلية والأودية، فتم إرسال قوات لملاحقتهم، وتدمير تسعة من معاقلهم، كما أُرسلت قوات إضافية للهجوم على (رو ني) وتدمير ثلاث وعشرين قرية بربرية مُحصنة. ويجري الآن التخطيط للتقدم ومهاجمة (تسا يا سوه)».

وخلاصة نتائج المعركة، «في غضون أيام قليلة، تمكنت قوات الطريقين من الاستيلاء على ست نقاط رئيسية، وتدمير أكثر من خمسين قرية في المجموع».

.indd 30-31 2025-11-27 10:55:44

عندما تلقى الإمبراطور (تشيان لونغ) التقرير بالانتصار، شعر بالرضا بشكل طبيعي، قائلاً: «اطلعت على التقرير. لا يسعني إلا أن أشعر بالفرح». لكنه لم ينسَ أن يذكّرهم: «البداية ليست صعبة، لكن النهاية هي الصعبة». بمعنى أن العديد من الأمور لا تكون صعبة في البداية، ولكن الصعوبة الأكبر غالبًا ما تظهر في النهاية. ولم ينسَ أيضًا أن يحذرهم: «الاعتماد على النصر والاستهانة بالعدو أمر مكروه في فن الحرب».

واستمرت الأخبار الجيدة في الوصول من الجبهة.

أرسل (تشينغ فو) تقريرًا:

«قوات الطريق الوسطى، في الوادي على الجانب الأيمن من (مو لو قونغ)، هاجمت معقل اللصوص، ودمرت خمسة حصون. كما علمنا أن مائتي من اللصوص فروا إلى التلال في غابة (ني كا لونغ) شبه المنحدرة، فتقدمت قواتنا للهجوم والمطاردة، واختبأ اللصوص في الحصون، فقامت قواتنا بمحاصرتهم من ثلاث جهات، وفروا إلى الغابة، ودمرنا خمسة حصون أخرى. كما تم إرسال مجموعة من القوات للبحث في التلة اليمنى، وهاجموا معقلي اللصوص في (روه سه) و(جيا نا شي). أما (بان قون) من منطقة (تشان دوي) السفلى، فقد تجرأ وقاد قواته لمواجهة العدو، فقامت قواتنا بهجوم مشترك شرس، وهربت مجاميع اللصوص المهزومة إلى الغابة العميقة، ونحن الآن نترصد الفرصة للهجوم المناسب.

«قوات الطريق الجنوبية، التي توجهت إلى (تسا يا سوه)، قامت باستطلاع المعابر الخطرة، وقسمت القوات لمهاجمة معسكرات اللصوص الثلاثة الوسطى واليسرى واليمنى، ودمرت ثمانية من المعسكرات اليمنى، وثلاثة عشر من المعسكرات اليسرى.

«وصل القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) الذي يقود قوات الطريق الشمالية إلى منطقة (آ ساي)، عند حدود منطقة (تشان دوي) السفلى، ولم يصل بعد أي تقرير يوضح كيفية هجومه.»

من الواضح أن لغة التقرير تجاه (سونغ) كانت تعبر عن استياء.

شعر الإمبراطور بالشك بعد قراءة هذا التقرير: «تم إحراق وقتل الكثير، لكن من قتلوا في المعركة قليلون، لذا لا يمكن القول إن النصر كاملًا.»

وفي الوقت الذي جرى فيه تحريك القوات لإظهار هيبة الإمبراطورية، أصدر الإمبراطور (تشيان لونغ) مرسومًا يقول فيه: «في مقاطعة سيتشوان يختلط سكان الهان مع الأهالي المحليين، وضرائبهم على الحبوب غير موحدة .... جميع رعايا شيوخ القبائل من الأقليات الذين يؤدّون فضة ضريبة الأقليات، وكذلك كل شيخ قبيلة يؤدي ما عليه من جزية الخيول، سواء بأصلها أو بما يعادلها من بدائل، وسائر ما في حكمها من البنود، فإنها جميعًا تُعفى بلا استثناء، وذلك إظهارًا لعطفنا ورعايتنا للمناطق الحدودية.»

بمجرد صدور هذا الأمر، تسبَّب ذلك في تأثيرات متتالية. فعلى الفور، رفع ن نائب القائد العام للجيش المكلف بشؤون البرابرة في (تشينغهاي) مذكرة رسمية يطالب فيها بأن تتمتع المناطق التبتية الواقعة تحت إدارته في (تشينغهاي) بالتسهيلات ذاتها، وجاء في مذكرته: «هل يمكن إعفاء جميع القبائل مثل (يوشو) التابعة لمنطقة (شي نينغ)، وكذلك جماعات البرابرة (نَا كُه شُو) التي تخضع مؤقتًا لإدارة التبت، من مساهمات الخيول والفضة التي كان عليهم دفعها؟» صدر المرسوم الإمبراطوري بالرد: «ليُعفوا جميعًا.»

اجتمع (تشينغ فو) مع الحاكم الإقليمي لـ سيتشوان، (جي شان)، لتقديم تقرير مشترك حول «الانتصارات المتتالية لقوات الطرق الوسطى والشمالية والجنوبية في حملة قمع (تشان دوي) العليا والسفلى».

تحركت قوات الطريق الشمالية أخيرًا، «هاجمت ودمرت ممر (لينغ دا كا) الذي كان يسيطر عليه اللاما (جيا موون بو)، وهرب بقية اللصوص إلى الغابة. ثم انضمت إلى قوات (شي نينغ) وهاجمت جبل (مولو) العظيم، واستولوا على سلسلة التلال، وهاجمت ودمرت حصون اللصوص، وأبادت عددًا كبيرًا منهم.»

«قوات الطريق الوسطى، هاجمت ودمرت حصنين في (دي تشو)، وأبادت أكثر من عشرة من اللصوص، وهرب الباقون إلى الغابة. ثم هاجمت قرية (روه سه)، وأبادت أكثر من عشرة من اللصوص، ثم هاجمت (دي تشو) مرة أخرى، وأبادت عشرات آخرين. كما تم قتل عشرات اللصوص على التل الشرقي، وتم حرق إحدى وعشرين حصن. كما هاجمت قرية (تشو با وا)، وأصابت خمسة من اللصوص، وفر الباقون.»

«قوات الطريق الجنوبية، التي هاجمت (تسا يا سوه)، استولت في البداية على إحدى وعشرين قرية، والآن دمرت ستة وأربعين قرية أخرى، وأبادت عددًا لا يحصى من اللصوص، وبعضهم هرب إلى الغابات. ويجري الآن التخطيط لمهاجمة القرى المتبقية.»

عندما تلقى الإمبراطور هذا التقرير، لم يذكر المخاوف التي سبق أن عبر عنها، بل كان تركيز مرسومه على التشجيع، قائلاً: «أنا مسرور بالاطلاع على هذا».

لكتابة هذا الكتاب، قمت بزيارة منطقة (تشان دوي) الشاسعة وقليلة السكان، واطلعت على العديد من المواد التاريخية عنها. خلال فترة حكم جمهورية الصين، تم إرسال موظفين خصيصًا للتحقيق في الوضع في تلك المنطقة، وكان إجمالي عدد سكان (تشان دوي) في ذلك الوقت يزيد قليلًا عن ثلاثين ألف نسمة. ولكن عندما رأيت عدد القرى المدمرة في التقارير، تساءلت في نفسي: «يا إلهي، ألم يكونوا قد سيطروا على منطقة (تشان دوي) بأكملها؟» ذكرت التقارير أن القوات القادمة من الطريق الجنوبي وحدها كانت قد دمرت أكثر من مائة وثلاثين قرية، ومع ذلك كانت لا تزال تتمركز في مكان صغير يسمى (تسا يا سوه). ما هو السبب؟ بعد ذلك، فهمت أخيرًا أننا كان لدينا «اختلاف في الفهم» حول مفهوم «القرية» ما نعتبره عادةً قرية هو تجمع سكني طبيعي. في بداية الحرب، عندما أفاد (تشينغ فو) في تقريره إن كلًا من (تشان دوي) العليا والسفلى يمتلكان «أكثر من عشرين قرية»، كان المعنى هو نفسه حسب فهمنا. وإذا كان مفهوم «القرية» هذا قد بقي كما هو، لكانت القوات التي قادها (ما ليانغ تشو) قد استعادت (تشان دوي) العليا والسفلى ثلاث مرات وأكثر. ولكن عندما بدأوا في تقديم تقارير عن نتائج المعارك، قام هؤلاء المسؤولون الإقليميون رفيعي المستوى بتغيير محتوى المفهوم. من المحتمل أن «القرية» في هذه التقارير كانت تشير إلى «منزل واحد، أو أسرة واحدة، أو مبنى واحد». بل ربما تم إدراج حظائر الأبقار واسطبلات الخيول أيضًا في الإحصاءات. هذه هي «المهارة الخاصة» التي يمتلكها المسؤولون في الدوائر الرسمية في إعداد مواد التقارير.

[redacted].indd 32-33 2025-11-27 10:55:44

بعد الإبلاغ عن إنجازاتهم العسكرية، حان الوقت الآن للمطالبة بالفضة والتموين والعتاد العسكري.

قدم الحاكم الإقليمي (جي شان) تقريرًا إلى البلاط بشأن «المسائل التي يجب إعدادها لحملة قمع (تشان دوي)».

كان التقرير طويلًا نسبيًا، لكن مضمونه الأساسي يتمحور حول طلب الأموال:

دفع سلفة لملابس الجنود والضباط وأثمان سروج أحصنة الحمل؛

مكافآت مالية للجنود المحليين المرسلين من مناطق شيوخ القبائل في (واسي) و(موبينغ) و(ده قه) وغيرها؛

تأمين المؤن والرواتب. مخزون الحبوب في مستودعي (ياتشو) و(دا جيان لو) على وشك النفاد، ويجب تأمين عدة آلاف شيّ (وحدة وزن للحبوب) من الحبوب من مناطق أخرى؛

لنقل الحبوب إلى الخطوط الأمامية، يجب أولاً حساب «النقص بسبب الاستهلاك أثناء الطريق»، حيث يستهلك ناقلو الأرز من الأرز الذي يحملونه، وغالباً ما يُستهلك الكثير منه في الطريق. ثانياً، يجب دفع «أجرة النقل» لناقلي الأرز، وهي أجورهم.

يحتاج نقل الحبوب أيضًا إلى تنظيم وإدارة: «نظرًا لأن (دا جيان لو) هي مركز التوزيع الرئيسي للتصدير، يُرجى تعيين موظف مساعد إداري واحد، وتخصيص خمسة عشر مفوضًا خارجيًا [1] مكلّفون بتنفيذ الأوامر وأداء مهام محددة، وثلاثين جندياً لنقل الحبوب وتوزيع الرواتب، واثنين من المترجمين، واثنين من مراقبي الأوزان والمخازن. وتعيين موظف رئيسي مسؤول عن التموين في كل من (لي تانغ) و(باتانغ) و(تشانغ قو) و(قان تسي). وإضافة موظف مساعد إلى (لي تانغ). وتعيين موظف رئيسي مسؤول عن التموين في منطقة (ده قه). وفي (تسي لونغ)، وتعيين اثنان من المفوضين الخارجيين لإدارة التموين للإشراف بشكل عام على التموين. يُكلف مسؤول كبير وذو خبرة بالإقامة في (دا جيان لو) للإشراف على سير الأعمال، ويُخصص له خمسة عشر ضابطاً وجندياً ليكونوا جاهزين لأداء المهمات المختلفة»؛

«بخصوص الطريق من (دا جيان لو) إلى (ده قه)، ومن (دا جيان لو) إلى (با تانغ)، يجب تخصيص وإنشاء محطات عسكرية متنقلة مع الجيش على طول الطريق وفقاً لبعد الطريق وقربه»؛

« يجب إضافة معابر نهرية جديدة في (تشانغ قو) و(قان تسي) و(تشون كه) و(ده قه)، في نقاط العبور بحيث يتم بناء قاربين جديدين لكل معبر، وتعيين مفوض خارجي مسؤول عن القوارب، وأربعة جنود، ومترجم واحد، وأربعة بحارة. بالإضافة إلى ذلك، يجب بناء جسر في منطقة (لونغ تشا با)، وتعيين مفوض خارجي مسؤول عن الإشراف على الجسر، إضافة إلى الجنود وغيرهم.»

1 المفوض الخارجي: في نظام سلالة (تشينغ)، كان هذا لقبًا لضابط منخفض الرتبة يتم تعيينه مؤقتًا خارج التشكيل الرسمي في «جيش الكتائب الخضراء «. وهو نوعان: المفوض الخارجي برتبة قائد ألف (برتبة رسمية تعادل الدرجة الثامنة)، والمفوض الخارجي برتبة قائد فصيلة (برتبة رسمية تعادل الدرجة التاسعة)

بإيجاز، لكي تسير الأعمال الحربية بسلاسة، فإن إنشاء وتشغيل نظام لوجستي يعد شرطًا أساسيًا. وكل هذا، بلغة اليوم، يتطلب توفير الإمدادات الغذائية، والتمويل، وتعيين الكوادر البشرية اللازمة. وخلال عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، كانت خزينة الدولة ممتلئة، ولذلك لم يتردد قلمه الإمبراطوري عندما كتب: «بناء على الاقتراح يُنفذ بسرعة.»

في لمح البصر، حلّ الشتاء على هضبة (تشينغهاي-التبت). في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر، أي بعد شهر من آخر تقرير عن الحرب، تلقى الإمبراطور (تشيان لونغ) تقريرًا آخر من (تشينغ فو) وغيره، يوضح «الإجراءات الحالية في الشؤون العسكرية بمنطقة (تشان دوي) ووضع استمرار الهجوم على القرى»:

«قائد قوات الطريق الشمالية، (سونغ تسونغ تشانغ)، هاجم (لينغ دا)، وأباد عشرات اللصوص الواحد تلو الآخر. ولكن بسبب متانة الحصون ووعورة الطريق، لم يتمكن من التقدم، فقام سرًا بتقسيم قواته وأرسلها عبر طريق آخر من (ران دوه)، للانضمام إلى القوات التي لا زالت تهاجم حاليًا قرية (تشو با وا)، وذلك لمهاجمة وكر (بان قون).»

«قائد الطريق الوسطى، (يوان شي بي)، أرسل قواته في الخامس والعشرين من سبتمبر لإعادة الهجوم على حصون (دي تشو)، فقتل وجرح أكثر من عشرين من اللصوص. وفي السابع والعشرين، هاجم جبل (مولو)، واستولى على أربع حصون في منطقة (لا قاي) على الجانب الأيسر من الجبل، ودمر ثلاثة حصون أخرى، وقُتل جميع الرجال والنساء في الحصون، وأبيد أكثر من مائة شخص كانوا يقاومون في الخارج. وفي العاشر والحادي عشر من أكتوبر، استمر في مهاجمة (دي تشو)، فقتل أكثر من عشرين من اللصوص، بينما كان عدد الجرحى والهاربين لا يُحصى. ويقوم حاليًا بتقسيم قواته للهجوم بالتناوب، مع ضرورة التأكد من تحقيق النصر الحتمي، ومواصلة الهجوم مباشرة نحو معقل (بان قون).»

«قائد قوات الطريق الجنوبية، (ما ليانغ تشو)، استولى على أكثر من مائة قرية، بما في ذلك (تشي دا) و(رو ني) و(تسا ما) و(تسا يا) وغيرها. وبسبب الخوف الذي دب في قلوب بقية اللصوص، استسلم راهبان بوذيان وخمسة رؤساء محليون واثنين من رؤساء القبائل التبتية الهمجية، وزعموا جميعًا أنهم ليسوا من عصابات ‹جيا با›، وأن عددًا من أفرادها قد أُحرقوا حتى الموت على يد الجنود، بينما هرب الباقون، وأنهم على استعداد للقبض على اللصوص وتسليم الممتلكات المسروقة.» أحد القادة المحليون الذين استسلموا، يدعى (دان بي)، قام أيضًا بالقبض على اثنين من أفراد عصابات «جيا با» وتسليمهم. وفي الوقت نفسه، ذُكر في التقرير أن شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، (بان قون)، طلب من شيخ قبيلة (ده قه) أن يُعرب عن ندمه، «ولأننا لا نجرؤ على التعامل مع الأمر باستخفاف، فمن الضروري القبض على رأس الشر وحل الوضع نهائيًا، وما زلنا نحثّ القوات على مواصلة الهجوم».

في هذا الوقت، ظهر أخيرًا (لي تشي تسوي)، القائد الأعلى للجيش، في التقرير، حيث «انتقل في الشهر الماضي من (دونغ إي لوه) إلى (تشانغ قو)، ليكون قريبًا من قائد الطريق الوسطى لمناقشة خطط مواصلة القمع.»

[redacted].indd 34-35 2025-11-27 10:55:45

نهاية عام 1746

لم يكن الإمبراطور (تشيان لونغ) راضيًا ومطمئنًا إلى نتائج المعركة. «بالنظر إلى أولئك الذين استسلموا، قالوا جميعًا إن بضعة أشخاص فقط كانوا من عصابات ‹جيا با›، وإنهم احترقوا حتى الموت، وأن من تم إحضارهم والقبض عليهم لا يتجاوز اثنين أوثلاثة فقط. وهذا يعني أن أولئك الذين استسلموا لا يمكن الوثوق بهم.»

في الجبهة، لم يكن هناك انسجام بين قادة الطرق المختلفة. أبلغ (تشينغ فو) هذا الوضع للإمبراطور: «قائد الطريق الجنوبية، (ما ليانغ تشو)، شجاع ويتمتع بالحكمة، وقد قام بتطهير الممرات المهمة بالقرب من (لي تانغ) تقريبًا، وقد صدرت له الآن أوامر بمهاجمة معقل (بان قون). أما قائد الطريق الوسطى، (يوان شي بي)، فبسبب مقاومة (بان قون) وصعوبة التقدم عبر النهر، يحتاج إلى انتظار وصول قوات الطريقين الشمالية والجنوبية لمهاجمة العدو من الجانبين. أما قائد قوات الطريق الشمالية، (سونغ تسونغ تشانغ)، فهو على خلاف مع القادة الآخرين، ولديه نية إظهار تفوقه. وبعد توبيخه بشكل متكرر، أبدى ندمه. وقد قام (لي تشي تسوي) بتغيير أوامره، ووجهه للهجوم من طريق (ران دوه) الآن. إذا ما استمر في التهرب من الأوامر والانتظار، فسوف أقوم بتقديم شكوى رسمية ضده.»

في مواجهة هذه المشكلة المتعلقة بالأفراد، لم يعرب الإمبراطور عن رأيه بسهولة، واكتفى بالقول: «اطلعت على التقرير بالكامل وفهمته.» كان هذا أسلوبًا رسميًا في الموافقة. وفي بعض الأحيان، كان الإمبراطور (تشيان لونغ) يكتب بلهجة أبسط: «عرفت» (عرفت). وكان «اطلعت على التقرير بالكامل وفهمته» يحمل نفس المعنى والنبرة.

في غضون ذلك، قدم القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي) أيضًا تقرير، ولكنه لم يتضمن أي محتوى جوهري، وكأنه خشي أن ينساه الإمبراطور، فذهب ليطمئنه: «جميع الضباط والجنود بخير وفي صحة جيدة، وشيوخ القبائل ورؤساء القبائل جميعهم مطيعون. كما قام القرويون بنقل المؤن العسكرية والإمدادات الخاصة للمهمة دون أي تقصير.»

لم يكن الإمبراطور يهتم قط بسلامة الجنود والضباط في الخطوط الأمامية أو ما إذا كانوا في صحة جيدة، ولذلك من الطبيعي أن يعبّر عن عدم رضاه، قائلاً: «لم يتم الإبلاغ عن انتصار عظيم بعد، ولم يتم القبض على رأس الشر بعد، فكيف يمكن لهذا أن يرضي طموحاتي واهتمامي بالجنوب؟»

إن معرفة متى يتقرب المسؤول إلى رئيسه لإظهار نفسه، ومتى يتجنب الظهور أمامه، هي بالفعل فن خاص. وتقرير (لي تشي تسوي) هذا قُدِّم في وقت غير مناسب.

كان لدى الإمبراطور أسبابه للشعور بالاستياء.

اقترب عام 1746، أي شهر ديسمبر من السنة العاشرة لحكم الإمبراطور (تشيان لونغ). قال الإمبراطور لكبار المستشارين العسكريين إن آخر تقرير وصله من (تشينغ فو) كان في الرابع والعشرين من نوفمبر، وهو تقرير يعود إلى السادس من نوفمبر، لذا كانت لديه فكرة عامة عن الوضع هناك. ومنذ ذلك الحين، لم يتلق أي أخبار أخرى. وأشار الإمبراطور إلى أن تلك التقارير كانت تتحدث فقط عن حرق بعض القرى والحصون، وقتل عشرات قليلة من اللصوص، بينما فر معظم الباقين إلى الغابات الكثيفة.

لذلك، وجه الإمبراطور تعليمات سرية لكبار المستشارين العسكريين: «أرسلوا رسالة سرية إلى (تشينغ فو) وغيره، وأمروهم بتقدير الموقف. إذا كان من الصعب حقًا تحقيق النصر، فيبدو أن على (لي تشي تسوي) أن يتقدم بقواته لتعزيز الدعم. والمكان الذي يتمركز فيه (لي تشي تسوي)، فليذهب (تشينغ فو) ويقيم فيه لتنسيق العمليات من مكان أقرب.» وبعبارة اليوم، كان الإمبراطور يطلب من القادة من جميع المستويات أن يقودوا من الخطوط الأمامية. وأضاف: «إذا كانت هناك حاجة لقوات إضافية للتقدم، يمكن إحضار بضع مئات من الجنود المنشورين أيضًا.» وبهذا، سمح الإمبراطور للمرة الأولى باستخدام قوات النخبة من «الرايات الثمان» بالإضافة إلى القوات من قومية الهان والسكان المحليين. كما أمرهم بأن يقوموا بالعمل وفي نفس الوقت يرسلوا تقارير: «قدموا تقريرًا تفصيليًا وسريعًا عن الوضع الحالي!»

بعد فترة وجيزة، في الحادي والعشرين من يناير، تلقى الإمبراطور تقريرًا آخر من (تشينغ فو)، ولكنه لم يتضمن نتائج ملموسة للمعركة، بل تحليلًا للوضع العام: «أجد أن الزعيم المتمرد (بان قون)، على الرغم من تصلبه ومقاومته، إلا أن قوته تتضاءل مع مرور الوقت. ورغم أن طلبه للاستسلام قد لا يكون صادقًا، إلا أن قواتي التي مرت بمعقله لاستكشاف الوضع وجدت أن دفاعاته ضعيفة، ويبدو أن السبب هو نقص الغذاء والرصاص والبارود. إذا تقدمت قواتنا بقوة، فسوف نتمكن من الاستيلاء على المعقل. وعندما يتم القبض على الزعيم المتمرد، سيكون من السهل السيطرة على بقية أتباعه، رغم عددهم الكبير.»

وعلَّق الإمبراطور بخطه على التقرير: «بما أن عددًا كبيرًا من اللصوص فروا إلى ‹الواحات›، فكيف ستكون النهاية؟»

«الواحات» هي كلمة لم تعد تستخدم كثيرًا اليوم، وتشير إلى الغابات العميقة والكثيفة. كان الإمبراطور يتساءل: بما أن عددًا كبيرًا من اللصوص فروا إلى الغابة، ولم يتم القضاء على القوة القتالية الفعالة للعدو، فكيف يمكن إنهاء هذه الحرب؟

.indd 36-37 2025-11-27 10:55:45

لم يُرسل (تشينغ فو) قواته إلى الغابات للقبض على اللصوص، وبدلاً من ذلك أخذ يشرح للإمبراطور المنطق والأسباب، قائلاً: «إنه بعد الفحص تبين أنّ أهالي قبائل (تشان دوي) وإن كانوا يُوصَفون بالقسوة والعناد، إلا أنّ أصل أمرهم ليس بالضرورة كلّه يعود إلى عصابات «جيا با»، فلا بدّ أن يكون فيهم من هو صالح ومن هو طالح، فينبغي التمييز بينهم. وبما أنهم من أتباع (بان قون)، فحينما تزحف الجيوش العظيمة إلى حدودهم، فإنّ (بان قون) يجرؤ على المقاومة، ولا مفرّلهم من أن يحملوا السلاح ويتبعوه. فإن ظفروا خطف كل واحد منهم نصيبه واستأسد، وإن انهزموا تقهقروا إلى الغابات والأودية متوارين. فإذا تم القضاء على رأس العصاة، فإنّ جماعتهم ستتفكك تلقائيًا. وعندئذ، في أثناء معالجة المشكلات المتبقية بعد الأحداث، يُحقق مع من ثبت تورطه في أعمال عصابة قطاع الطرق «جيابا» ولديه سجلات سابقة، ويُحاكم بموجب القانون. أما الباقون فيُعيَّن لهم رؤساء محليين جدد، يُلزَمون بالتحقيق في أمرهم وضبطهم، وبذلك يمكن تحويل الطالحين إلى صالحين، دون التخوف من صعوبة السيطرة على العامة.»

أجاب الإمبراطور: «اطلعت على التقرير بالكامل.» لم يقل صحي أو غير صحيح.

الإمبراطور لا يجادل وزراءه، حتى لو كانوا من المسؤولين الإقليميين رفيعي المستوى.

في هذه الأثناء، بدأ الأمر أخيراً يحرز تقدماً طفيفاً. في الواقع، كانت هذه أحداث العام الماضي.

«أفاد قائد قوات الطريق الشمالي (سونغ تسونغ تشانغ) أنه في الفترة من السابع عشر إلى التاسع عشر من نوفمبر، غزى (آه سي) مرارًا وتكرارًا، واستولى على حصون التلال، وقام بإبادة اللصوص من القبائل، وحقق نصراً ساحقاً. وأفاد قائد قوات الطريق الوسطى (يوان شي بي) أن في ليلة الحادي عشر من أكتوبر، استعاد السيطرة على (دي تشو) واستولى على ممر مهم وطريق رئيسي. وفي اليوم الثاني عشر، أرسل ضباطاً وجنوداً آخرين لمهاجمة برج المراقبة، ومنذ الفجر حتى الغروب، قتل العديد من اللصوص، وما زالوا ينتظرون تناوب الهجوم. أما قائد قوات الطريق الجنوبي (ما ليانغ تشو) فقد بدأ في الثامن والعشرين من أكتوبر بالزحف لمهاجمة معقل (بان قون). ولكن كان من المقرر في البداية أن تهاجم قوات الطريق الشمالي وقوات الطريق الجنوبي معاً، والآن قوات الطريق الشمالي لم تتقدم من (ران دوه)، بل عادت إلى (لينغ دا)، و(ما ليانغ تشو) قام بالاستيلاء على (قو دوه ري ساي)، و(تسا ما سوه)، و(تسا يا سوه) وغيرها، وترك جنوداً لحمايتها، مما قلل من قوة الجيش، وجعل الدخول صعباً، لذلك يسيرون ببطء في الطريق، في انتظار وصول ٥٠٠ جندي من قبائل (ده قه) تم استدعاؤهم حديثاً، ثم يواصلون التقدم.»

اتضح أن سبب عدم إحراز تقدم هو وجود مشكلة مجددًا في التنسيق بين مختلف قوات الطرق.

"فيما يخص طلب (بان قون) الاستسلام، ورغم أنه سلّم بعض اللصوص والمسروقات وقدم الدروع والخوذات، إلا أنه ظل متردداً وخائفاً، ولم يحضر شخصياً لتسليم نفسه بعد. وبعد التشاور مع قائد الجيش الإمبراطوري (لي تشي تسوي)، نرى أنه من الحكمة أن نمنحه قبولاً مؤقتاً للاستسلام، مستغلين خوفه وطلبه للنجاة في الوقت الحالي. يُطلب منه تسليم لص واحد ممن يُعرفون بـ«جيا با»، ثم يُؤمَر بتسليم آخر. إذا سلم عشرة، يُؤمَر بتسليم عشرة آخرين. إذا تساهل أو تهرب قليلاً، يجب أن نبدأ بالهجوم فوراً. بهذه الطريقة يمكننا القبض على جميع اللصوص «جيا با». الهدف من ذلك هو استعمال سياسة الانتظار والإرهاق. ولكن قبل البدء بأي هجوم عسكري، يجب أن يكون التركيز على القضاء على «جيا با». حتى بعد بدء الهجوم، إذا تجرأ (بان قون) على المقاومة المتكررة، فعلينا أولاً أن نقطع رأسه. فمتى تمكنّا من القبض على (بان قون)، ستتفكك عصابات اللصوص من تلقاء نفسها. أما إذا تركنا (بان قون) في موقعه، فسيبقى اللصوص مستندين عليه، ولن نتمكن من

القضاء عليهم جميعاً. علاوة على ذلك، إذا اقتصر الأمر على مجرد تسليم بعض اللصوص والمسروقات، فلن يجد صعوبة في إعطاء أسماء عدد قليل منهم لخداعنا، ويصبح الأمر تصرُّفًا مرتجلًا. وإذا كان (بان قون) حقاً خائفاً ويطلب الاستسلام، وقد سبق للسيد الرئيس أن وعده بالإبقاء على حياته، ثم تدخل شيخ قبيلة (ده قه) كضامن، فلماذا لا يزال يخشى المجيء إلى المعسكر لطلب الأمان؟ هذا يدل بوضوح على أنه يتحجج للمماطلة والترقب.إذا وحدنا صفوفنا للهجوم، فربما يخرجون خوفاً من قوتنا، وإلا فسيستمرون في التمترس والمقاومة العنيدة لكسب الوقت، فكيف لنا أن نتهاون لمجرد ذلك! لقد أرسلت حالياً ضباطاً وجنوداً إلى هناك لتقييم الوضع وإبلاغ قوات الطريق الجنوبي. إما أن ننتظر حتى نهاية العام ونهاجم معاً مستغلين غفلتهم، أو نبتكر طريقة أخرى لقمعهم. يجب أن نضمن الانتصار لإرساء السلام في المنطقة. وإذا لزم الأمر أن أذهب بنفسي، فحالما تصلني تقارير الضباط والجنود الذين أرسلتهم، فسأرفع تقريراً إلى الإمبراطور وفي نفس الوقت أشرع في الانطلاق.

.indd 38-39 2025-11-27 10:55:45

ما أذكى السيد (تشينغ فو)! لقد حلل كل الاحتمالات الممكنة بدقة، لكنه لم يقدم في النهاية أي حل. لم يسع الإمبراطور إلا أن يشيد ببراعته، قائلاً: «لا يوجد ما أوافق عليه أو أعلّق عليه خارج هذا!» أي أنه قال كل شيء بشكل منطقي ومنطقي للغاية، لدرجة أنني أنا الإمبراطور لم أجد أي تعليق على هذا التقرير المنطقي! بعد الثناء، ذكّره الإمبراطور بالهدف النهائي من هذه الحملة العسكرية: «باختصار، هذه الحملة تهدف إلى حل شامل للمشكلة مرة واحدة وإلى الأبد، يجب ألا نترك أي مشاكل للمستقبل.»

بعد ذلك، قدم (تشينغ فو) تقارير عن انتصارات صغيرة أخرى، لكن الإمبراطور لم يكن مجاملاً: «ما ذكرته في تقريرك ليس سوى مكاسب صغيرة، والعدو لم يُهزم هزيمة كبرى، فكيف تسمي هذا إظهاراً للقوة العسكرية!»

في هذا الوقت، كانت السنة الجديدة قد بدأت، مُصادفةً الشهر الأول من السنة الحادية عشرة من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، أي فبراير من عام 1746م. أعطى الإمبراطور تعليمات شفهية لكبار المستشارين العسكريين: «أما بالنسبة للحملة العسكرية، فقد مرت عدة أشهر، ولم يتم بعد الوصول إلى وكرهم. الآن، (لي تشي تسوي) قد وصل بالفعل إلى (تشانغ قو)، وإذا تقدم (تشينغ فو) أيضاً، فإنهما سيتمكنان من التواصل وتعزيز بعضهما البعض، واتخاذ القرارات المناسبة، مما سيسرع من إنهاء العمليات العسكرية. يمكنكم إرسال رسالة إلى (تشينغ فو)، وتطلبون منه أن يتقدم وفقاً لتقديره، فهذا سيعزز من قوة الموقف الحالي، وعندما يتم القضاء على الفوضى في المستقبل، يمكنه الذهاب إلى هناك شخصياً لتقييم الوضع واتخاذ الإجراءات المناسبة.»

التاريخ لا يذكر ما إذا كان (تشينغ فو) قد تقدم بمركز قيادته في الوقت المناسب وفقاً للأمر الإمبراطوري، ولكن القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي) بالتأكيد تقدم لقيادة العمليات من موقع أمامي. بعد نصف شهر، أفاد (تشينغ فو) في تقرير: «(لي تشي تسوي) كان متمركزاً سابقاً في (رن دا)، وكل الخطط الهجومية لقوات الطرق الثلاث كانت تتطلب التشاور ذهاباً وإياباً مع القائد العام، مما أدى إلى تأخير الوقت. الآن انتقل إلى معسكر (مولو قونغ) العسكري.» ويبدو أن الأمور تحسنت بفضل ذلك.

قام (تشينغ فو) بنقل تقرير (لي تشي تسوي): «قامت قوات الطريق الشمالي من الهان والقوات المحلية بالهجوم على (لينغ دا)، واستولت على خمسة ممرات جبلية واثني عشر نقطة تفتيش تتبع اللصوص، ودمرت ستة حصون حربية وبرجين للمراقبة. استسلم اللصوص من أبراجهم، فتم توجيههم للقبض على لصوص آخرين وتقديم المسروقات، وتدمير الحصون المختلفة. وقد تم التحقق من أعداد السكان ومعالجة الأمور.

«بعد استيلاء قوات الطريق الوسطى على معسكر (لا قاي)، هاجموا (دي تشو) ودمروا حصنين حربيين حجريين من ثلاثة طوابق. بعد ذلك، اجتمع معهم (يوان شي بي) القائد العام لحامية (جيان تشانغ) لتقييم الوضع. وُجد أن موقع (مولو قونغ) يقع شرق النهر، وقريباً من وكر (بان قون) الواقع غرب النهر. كما أن (جيا نا شي)، و(دي تشو)، و(لا قاي)، و(نا هونغ دوه)، و(رو سي) وغيرها من المعسكرات شرقي النهر كانت تقدم المساعدة لهم، مما سمح لإخوة (بان قون) بالدفاع بقوة. إذا انتظرنا حتى يتم القضاء على الفوضى شرق النهر، ثم نهاجم غرب النهر، فإن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً. وبما أن (لينغ دا) الواقعة على الطريق الشمالي قد استسلمت، والطريق إلى الأمام مسدود بالثلوج، فقد تم إبلاغ (سونغ تسونغ تشانغ)، الذي انتقل الى حامية (سونغ بان)، أن يترك ألفي جندي لحماية معسكر (مولو قونغ) الواقع على الطريق الشمالي، ونقل القوات المتبقية إلى الطريق الوسطى للمساعدة في الهجوم الموحد.»

بعد توحيد القوات، تم تقسيم الجيش الرئيسي في الطريق الأوسط إلى أربعة فرق: فرقة تهاجم (شانغ لا قاي)، وفرقة تهاجم (تشونغ لا قاي)، وفرقة تهاجم (دي تشو)، وفرقة تهاجم (نا هونغ دوه). «تم تدمير ٥٥ حصنًا في المجموع. طلب زعيم اللصوص (بان قون) الاستسلام من غرب النهر، وأرسل والدته إلى المعسكر تطلب الرحمة. لكن هذا الزعيم مخادع وماكر ولا يمكن تصديقه على الفور، والآن نحن نترصد الفرصة المناسبة لمواصلة الهجوم والقضاء عليه.»

بعد أن رفض (لي تشي تسوي) طلب استسلام (بان قون) الذي قدمته والدته نيابة عنه، لم يقم باعتقالها. أثار هذا الأمر استياء (تشينغ فو)، حيث قال في مذكرته للإمبراطور: «بالنظر إلى أن (لينغ دا) قد أعلنت انضمامها (بالاستسلام)، ينبغي السماح بتهدئتها مؤقتًا. كما أن تقسيم قوات الطريق الشمالي إلى نصفين وانضمام النصف الآخر إلى الطريق الأوسط للمساعدة في الهجوم على القرى المختلفة هو إجراء مناسب أيضاً. لكن، بما أن (بان قون) قد طلب النجدة في غرب النهر، وخرجت والدته بنفسها لتطلب العفو، فكان ينبغي اغتنام هذه الفرصة والتقدم مباشرة نحو (رو لانغ) والقبض على (بان قون) فوراً، فكيف يُسمح لوالدته بالعودة إلى معقلها؟»»

وافق الإمبراطور على رأي (تشينغ فو): «بناءً على هذا، فإن (لي تشي تسوي) يفتقر إلى القيادة الكاملة، فكيف يسمح لوالدة (بان قون) التي وصلت إلى المعسكر بالعودة؟ هذا كله يمثل إهداراً للفرص، ويجب إصدار أمر بتوبيخه.» لكنه أضاف لاحقاً: «بناءً على هذا، يجب عليك أن تذهب بنفسك إلى هناك للإشراف على الأمور.»

بالطبع، امتثل (تشينغ فو): «أعتزم أنا العبد التوجه شخصيًا والتمركز في (دونغ إي لوه)، ليس فقط لحماية نقل المؤن، بل أيضاً كي أتمكن مع قادة الجيش الإمبراطوري وغيرهم من الإشراف والمتابعة عن كثب لقوات الطرق المختلفة للهجوم عند سنوح الفرصة. أما بخصوص إرسال قوات إضافية، فقد تم تخصيص وتحديد مائة جندي من قوات المانشو، ومائتي جندي من قوات وحدات القيادة العامة، ومائة جندي من قوات وحدات الحاكم الإقليمي، ونقل خمسين جندياً من كل من فرقة (تاي نينغ) وكتيبة (فو خه)، بالإضافة إلى عشرات الجنود الذين سأصطحبهم من قوات (شن شي) التابعة لي، جميعهم يخرجون معًا من الممر.»

.indd 40-41 2025-11-27 10:55:45

في هذا الوقت، قدم الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (فوتشينغ)، مذكرة للإمبراطور يتحدث فيها عن الأمور المتعلقة بطريق سيتشوان - التبت الذي انقطع بسبب عصابات «جيا با» المسلحة في (تشان دوي)، قائلاً: «منذ إلغاء المحطات في التبت، كثرت حوادث السلب والنهب والقتل، وأصبحت عصابات «جيا با» في منطقة (لي تانغ) أسوأ من أي وقت مضى. التبت تتبع الآن المناطق الداخلية (للإمبراطورية)، وبها جنود وضباط مقيمون فيها، فهل يُعقل ألا يكون هناك مسافرون؟! وكيف يمكن تخصيص حراسة لكل شخص ذهاباً وإياباً؟! وهل يُمكن قطع الطريق تماماً أمام التجار من الهان والقبائل الأخرى؟! خلال الأشهر القليلة الماضية، فُقدت العديد من الوثائق في المراسلات الرسمية المتبادلة، أو أُتلفت عن طريق الخطأ. لذلك، أطلب الإبقاء على نشر القوات والجنود كما كان في السابق.» ولكن طالما بقيت (تشان دوي) غير مستقرة، فإنه لا يمكن معالجة هذا الأمر. وبناءً عليه، أصدر الإمبراطور مرسوماً «يطالب الحاكم العام (تشينغ فو) بالتحقق عن كثب من الوضع بالتفصيل، وبأن يتفق مع الحاكم الإقليمي (جي شان) على الإجراءات اللازمة وتقديم طلب إصدار مرسوم إمبراطوري.»

كما قدم الحاكم الإقليمي (جي شان) مذكرة أخرى، يطلب فيها المزيد من الجنود والمال بسبب تأخر الحرب.

أما بالنسبة لإضافة الضباط، فإنه يجب توفير حصص غذائية، وخدم، ومبالغ للملابس والسفر، وأموال للعناية بالخيول كما هو معتاد.

أما بالنسبة لتجنيد الجنود المحليين من شيوخ قبائل (ده قه)، و(كونغ سا)، و(ما شو) القريبين، فإنه يجب توفير الشاي، والحصص الغذائية، والملح، والخضروات، وما إلى ذلك. وفي الوقت نفسه، يجب مكافأة شيوخ القبائل الذين يرسلون جنوداً محليين.

ومع تقدم الحرب، يجب مكافأة الجنود، وتقديم تعويضات للمصابين والمتوفين.

والأهم من ذلك هو العتاد العسكري، حيث أن مهاجمة الحصون وتدمير القرى تتطلب حوامل المدافع، وعجلات العربات، وبارود، ورصاص، والأهم من ذلك كله، الألغام الأرضية والمدافع الكبيرة. كل هذه الأشياء «تتطلب تكاليف لنقلها بواسطة الخيول والبغال وعمال النقل المحليين بالإضافة إلى تكاليف السروج والبطانات» وهذه التكاليف «باهظة جداً»

بالطبع، كان أمر الإمبراطور الوحيد هو: «يتم التنفيذ بسرعة كما هو مقترح.» بمعنى آخر، يتم الدفع كما هو مطلوب.

فاصل: الجنود التبتيون

بعد توحيد قوات الطريقين الشمالي والأوسط، سار التقدم بشكل سلس.

كان الطريق الجنوبي بقيادة نائب القائد (ما لينغ تشو)، يسير بسلاسة في البداية، لكن في هذه الوقت ظهرت مشكلة.

كان يتقدم من منطقة (لي تانغ) الجنوبية نحو (تشان دوي)، وكانت الممرات التي يحتاج إلى الاستيلاء عليها على طول الطريق تقع على قمم الجبال العالية. في فصل الشتاء، غطت الثلوج الجبال، مما «أعاق بشكل كبير إمدادات الغذاء بسبب الثلوج»، وكاد الهجوم أن يتوقف. والأهم من ذلك، أنه شعر بنقص في القوات بسبب إرسال الجنود لحراسة الممرات التي استولى عليها. وفي هذا الوقت، ادعى (تاي جي لينغ تسونغ ناي)، الذي أرسلته حكومة التبت المحلية لقيادة الجنود للمساعدة في الحرب، أنه مريض ويحتاج إلى علاج، وغادر منصبه دون إذن من (ما لينغ تشو)، عائداً إلى مكان تمركزه الأصلي (جيانغ كا) غرب نهر (جينشا). يجب أن نتذكر موقع (جيانغ كا)، فمنه انطلقت القوات التابعة لسلالة (تشينغ) التي كانت متمركزة هناك في طريق عودتها إلى سيتشوان، وتعرضت للسرقة من قبل عصابات «جيا با» في (تشان دوي)، مما أدى إلى اندلاع هذه الحرب. كان الانضباط العسكري للجنود التبتيين الذين قادهم (لينغ تسونغ ناي) ضعيفاً، وعندما رأوا قائدهم (لينغ تسونغ ناي) يغادر، عادوا هم أيضاً إلى ديارهم وتشتتوا. هؤلاء الجنود التبتيون، على الرغم من أنهم لم يكونوا قوة يعتمد عليها، إلا أنهم على الأقل كانوا قادرين على حماية المؤخرة، وقد جعل رحيلهم استخدام القوات لدى (ما لينغ تشو) أكثر صعوبة، لدرجة أنه لم يعد قادراً على التقدم.

كانت هذه المجموعة من القوات التبتية مختلفة عن الجنود المحليين تحت قيادة شيوخ القبائل مثل (وا سي)، و(وتسا قو)، و(تشانغ قو)، و(ما شو)، و(كونغ سا)، و(ده قه) الذين رافقوا القوات الحكومية. فجميع شيوخ القبائل هؤلاء كانوا يخضعون لسيطرة مباشرة من سيتشوان، بينما كانت هذه المجموعة من الجنود التبتيين الذين تفرقوا دون إذن تابعة لحكومة التبت المحلية. ولهذا السبب، نشأت معركة حبروقلم في الرسائل المتبادلة على طول الطريق الطويل لمحطات البريد.

بدأ الأمر بمذكرة من (تشينغ فو) إلى الإمبراطور: «إن (تاي جي لينغ تسونغ ناي) التبتي الذي قاد جنود (جيانغ كا) المحليين للمساعدة في الهجوم على قطاع الطرق، وأبدى جهداً كبيراً.» هذه كانت المقدمة التقليدية، المدح قبل الذم. ثم أضاف: «لكن بعد ذلك، بسبب عودة (لينغ تسونغ ناي) إلى (جيانغ كا) للتداوي من المرض، تفرق الجنود المحليين وعاد كل منهم إلى منزله. هذا يخالف القانون العسكري بوضوح. لقد أرسلت الآن خطاب استشاري إلى القائد العام للجيش المقيم في التبت ليبلغ الأمير (بولوه ناي) بمعاقبة الجنود المحليين الذين دعوا وحرضوا على العودة. وقد سمعت أن (لينغ تسونغ ناي) عاد إلى (جيانغ كا) أيضاً، وبما أن جميع الجنود المحليين قد عادوا إلى منازلهم، فقد قام بإرسال جنود آخرين ليحلوا محلهم. إذا كانوا سيذهبون إلى المعسكر، فلا ينبغي أن نمنعهم من التوبة وتقديم الخدمة، ويجب السماح لهم بالخدمة في المعسكر.»

في ذلك الوقت، لم تكن حكومة (كاشاغ) التي يرأسها الدالاي لاما والتي سيطرت على التبت في وقت لاحق قد تأسست بعد، وكانت السلطة الإدارية بيد النبلاء العلمانيين (الأمراء). كان (بولوه ناي) الموالي لسلالة (تشينغ) هو (الأمير) في ذلك الوقت. كان (لينغ تسونغ ناي) الذي قاد القوات في (جيانغ كا) أحد مرؤوسيه. لذلك، طلب (تشينغ فو) من الإمبراطور أن يأمر (بولوه ناي) بمعاقبة مرؤوسه.

لم يتخذ الإمبراطور موقفاً فورياً، بل قال فقط إنه علم بالأمر، وقد أصدر بالفعل أمراً إلى الأمير (بولوه ناي).

بعد فترة وجيزة، جاء الرد من التبت.

لم يكن الرد من الأمير التبتي (بولوه ناي) مباشرة، بل من خلال مذكرة قدمها الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (فوتشينغ): «أبلغنا الأمير (بولوه ناي) بالتفصيل، أن الحاكم العام سبق وأن ذكر في مذكرته أن (لينغ تسونغ ناي) كان يفرط في شرب الخمر ويتصرف بتهور هناك، لذا من المناسب تماماً أن يتم تأديبه وتوبيخه بشدة. وقد تم تكليف (تساي سانغ نه تشين) وآخرين بإدارة الجنود الذين كان يقودهم (لينغ تسونغ ناي)، وأمروا بعودته إلى التبت.»

اتضح أن القادة العسكريين في الخطوط الأمامية كانوا مستائين بالفعل من (لينغ تسونغ ناي) قبل أن يغادر منصبه دون إذن، وقد أبلغوا السطات العليا عن سلوكه المتهور وإفراطه في شرب الخمر. وقد نُقل هذا الرأي أيضاً إلى الجانب التبتي. اتخذ (بولوه ناي) أيضاً الإجراء المناسب، حيث أرسل شخصاً يدعى (نه تشين) ليحل محله ويقوم بمهامه بالإنابة.

ولكن، «بناءً على تقرير من (نه تشين) وآخرين، فإن (لينغ تسونغ ناي) رفض تسليم الجنود، وعاد بنفسه، وتبعته جميع القوات وعادت أيضاً.»

اتضح أن هذا القائد، عندما طلب إجازة مرضية، كان ذلك بسبب مزاجه السيئ. فمنذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، غالباً ما لا يكون المرض أو الإجازة المرضية للمسؤولين، كباراً كانوا أم صغاراً، من قومية الهان أو من القبائل الأخرى، مرتبط بالضرورة بحالتهم الصحية.

«إن (لينغ تسونغ ناي) شخص مرتبك، وأخشى أن يكون وجوده بلا فائدة. وقد سبق أن أبلغت عن هذا الأمر. والآن، عندما سمعت أن جنوده قد عادوا، انتابني خوف شديد. على الرغم من أن (بولوه ناي) شخص متواضع، إلا أن الإمبراطور تفضل عليه ولقبه بـ(الأمير)، ولذلك لن أتردد في بذل كل جهدي..... إذا كان المسؤولون قد ذكروا في تقاريرهم أنني السبب في عودة (لينغ تسونغ ناي) بجنوده، فإن (بولوه ناي) لن يكون له مخرج، ويساوره خوف شديد. لقد تم تعيين (لينغ تسونغ ناي) بقرار إمبراطوري، وأرجو أن يتم تقديم طلب (للإمبراطور) لمحاكمته وإعدامه.»

يبدو أن مسؤولين كبار من سيتشوان مثل (تشينغ فو) قدموا مذكرة أخرى، تفيد بأن (لينغ تسونغ ناي) غادر منصبه بأمر من الأمير (بولوه ناي)، وهذا ما أكده أيضاً مرسوم الإمبراطور. قال الإمبراطور:

«تلقيت مؤخراً مذكرة من الحاكم العام (تشينغ فو) وآخرين، تفيد بأن الأمير (بولوه ناي) استدعى (لينغ تسونغ ناي)، وأن جنوده أيضاً عادوا تباعاً. أنا أرى أن (بولوه ناي) حريص في كل شيء، فقد أرسل، بالإضافة إلى الجنود المتجهين إلى (تشان دوي)، مساعديه الموثوق بهم الذين لهم خبرة عسكرية مثل (تساي سانغ) وآخرين، وكل ذلك من باب الامتنان لنعمتي والإخلاص في الخدمة. إن استدعاءه لـ(لينغ تسونغ ناي) كان تقديراً منه لما فيه مصلحة العمل. أما الجنود، فهم جميعاً ممن قادهم (لينغ تسونغ ناي)، وسكان المناطق الحدودية لا يعرفون القوانين والانضباط، ولأن قائدهم عاد، فإنهم تبعوه. لهذا السبب، لم أصدر أمراً خاصاً، بل اكتفيت بتوجيه المسؤولين بإبلاغ المبعوثين بالمذكرة التي قدمها الحاكم العام، وأن يطلبوا منه أن يبلغ (بولوه ناي) بأن عودة الجنود لم تكن بتوجيه منه، وأني أدرك ذلك تماماً. الآن، عندما أرى ما قاله (بولوه ناي) بأنه إذا تم الإبلاغ بأن جنود (جيانغ كا) عادوا بسبب كلامه، فإنه لن يكون له مخرج ويساوره خوف شديد، يزداد اهتمامي به. يجب إرسال رسالة إلى نائب القائد العام للجيش (فوتشينغ) لإبلاغ (بولوه ناي) بوضوح عن سبب قيامي بالتعامل مع الأمر بهذه الطريقة. بالإضافة إلى ذلك، بناءً على ما ذكره (بولوه ناي)، فإن (لينغ تسونغ ناي) شخص مرتبك، وقد ارتكب مخالفة عسكرية، يجب تسليم الأمر إلى المسؤولين لمناقشة العقوبة، وانتظار مرسومي، ويتم إبلاغ (بولوه ناي) بكل ذلك.»

في هذا الأمر، اختلف الإمبراطور عن (تشينغ فو) وآخرين، فبينما كان هؤلاء يهتمون بالجوانب العسكرية فقط، كان الإمبراطور يهتم بالسياسة. في ذلك الوقت، كانت التبت قد استقرت حديثاً، وكان الأمير (بولوه ناي) مخلصاً جداً للبلاط الإمبراطوري، لذلك لم يكن الإمبراطور يريد أن يطبق قوانين صارمة وعقوبات قاسية على مسؤول تبتي بسبب مخالفته الانضباط العسكري، مما قد يؤدي إلى شعور التبتيين بالاستياء. ولكن من وجهة نظر القادة في الخطوط الأمامية مثل (تشينغ فو)، فإن ضابطاً يغادر ساحة المعركة دون إذن يستحق الإعدام. لذلك، بعد أن طمأن الإمبراطور (الأمير) المتوتر، كان عليه أيضاً أن يقدم تبريراً للقادة الكبار الذين كانوا بحاجة إلى تطبيق الانضباط العسكري الصارم. وهكذا، أحال قضية كيفية التعامل مع (لينغ تسونغ ناي) إلى كبار المستشارين، وقال لهم: «ناقشوا الأمر وتوصلوا إلى حل يرضي جميع الأطراف.»

.indd 44-45 2025-11-27 10:55:46

لكن هؤلاء المسؤولين الكبار لم يدركوا ما يدور في عقل الإمبراطور تماماً، فهم من أولئك الذين ينخرطون في السياسة دون فهمها. كان رأيهم هو: «يجب أن يتم إعدام (لينغ تسونغ ناي) فوراً، كما طلب الأمير (بولوه ناي)، ليكون عبرة لمن يخالفون الأوامر العسكرية.» و«أما بالنسبة للجنود التابعين لـ(لينغ تسونغ ناي)»، «فنرجو إرسال بلاغ رسمي إلى نائب القائد العام للجيش المقيم في التبت (فوتشينغ) ليصدر أمراً بتسليمهم إلى الأمير (بولوه ناي) للتحقيق والمحاكمة بصرامة».

أخيراً، اضطر الإمبراطور إلى التعبير عن رأيه مباشرة: «سبق أن أفاد الحاكم العام (تشينغ فو) في مذكرته أن (لينغ تسونغ ناي) عندما وصل إلى الجبهة لأول مرة كان مجتهداً. والآن، أفاد (بولوه ناي) في مذكرته أنه مرتبك وتصرف بتهور بعد شرب الخمر، وأنه يخشى أن يكون وجوده في الجبهة بلا فائدة، فطلب منه العودة. لكنه لم يمتثل لأمر (بولوه ناي) بتسليم الجنود إلى (نه تشين)، وعاد على الفور. إن ذنبه يعود إلى جهله وغبائه، وهذا يستحق الشفقة. لذا، نمنحه العفو من الإعدام، ونسلم أمره إلى (بولوه ناي) لتقدير العقوبة المناسبة. ما تبقى يُعمل به كما هو مقترح.» أما بالنسبة لبقية أولئك الجنود، فلن تصل عقوبتهم إلى حد الإعدام على أي حال، فليتم التعامل معهم فقاً لما تم الاتفاق عليه.

اليوم، غالباً ما نسمع عبارة «لا توجد أمور صغيرة في التبت» و«لا توجد أمور صغيرة في المناطق التبتية» من مسؤولي مختلف المستويات الإدارية، ولعل هذا الشعور قد بدأ بالفعل منذ عهد الإمبراطور (تشيان لونغ).

خروج الحاكم العام من المعبر

بعد هذه الحادثة الجانبية، يجب أن نعود إلى ساحة معركة (تشان دوي).

في شهر مارس، بدأت تظهر علامات الربيع في وادي نهر (يالونغ)، ولكن في هذا الوقت، ظهرت مشكلة في الخطوط الأمامية.

كانت المشكلة كبيرة جداً، وإلا لما كان (تشينغ فو) قد كتب عنها في مذكرة وقدمها إلى الإمبراطور.

في معسكر (تشان دوي) العسكري، بعد أن نقل القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي) مقره إلى معسكر الطريق الأوسط (مولو قونغ)، لم يعد هناك أي تقارير عن عمليات هجومية، باستثناء التقارير التي قدمها هو و(سونغ تسونغ تشانغ) و(يوان شي بي) عن مهاجمة (دي تشو)، وحرق بعض أبراج المراقبة، وطلب (بان قون) الاستسلام بعد أن أرسل والدته.

بالطبع، كان (تشينغ فو) قلقاً، «وعندما أرسلت مذكرة لحثهم على الهجوم، طلبوا المزيد من الجنود مرتين، دون التفكير في تحقيق النصر في الموعد المحدد.» بالإضافة إلى ذلك، اكتشف أن هناك معلومات كاذبة في تقارير المعركة، «إن هجوم قوات حامية (سونغ بان) وآخرين على معسكرات (نا هونغ دوه) وغيرها كان مجرد استعراض للقوة، والتقارير كانت غير دقيقة. كما أن الجنود كانوا يفتقرون إلى المياه، ولم يتمكنوا من البقاء لفترة طويلة، وعادوا مؤقتاً إلى معسكر (لا قاي) الرئيسي.» حامية (سونغ بان) هي (سونغ تسونغ تشانغ). قبل المعركة، كان قد رُقّي للتو من نائب قائد في فرقة (تاي نينغ) إلى قائد عام في حامية (سونغ بان)، وقبل توليه منصبه، اندلعت قضية (تشان دوي)، فتم تكليفه بالمشاركة في المعركة على الفور.

كانت هناك أيضًا مشاكل في الطريق الجنوبي: «لقد كانت قوات الطريق الجنوبي مهابة دائمًا، ولكن نظرًا لأن القوات في الطريق الأوسط والشمالي لم تتمكنا من الهجوم، تجمعت جماعات البرابرة كلها لمقاومة الطريق الجنوبي، وما زاد الطين بلة هو عودة (لينغ تسونغ ناي) من تلقاء نفسه دون إذن، مما جعل القوة العسكرية وحيدة وضعيفة، فأصبحت عرضة لتربص القبائل المتمردة.»

عبر الإمبراطور أيضاً عن خيبة أمله في القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي) والقادة المرؤوسين التابعين له، قائلاً: «إن (لي تشي تسوي) ومن معه قرون تماماً إلى العزيمة في حشد القوات والتقدم بشجاعة، إنه لجحود عظيم لفضلي.»

الحل هو بتعزيز القوات.

تم نقل جنود محليين تابعين لشيخ قبيلة (با تانغ) إلى الطريق الجنوبي.

كما تم نقل جنود من قوات الكتائب الخضراء «مع الأمر بأن تتقدم بسرعة في الطريق الأوسط، وتبذل قصارى جهدها للمشاركة في الهجوم.»

في ظل هذه الظروف، كان على (تشينغ فو) أن يتقدم بنفسه للقيادة. لذا، تحرك من (تشنغدو) ووصل إلى (دا جيان لو) في شهر مارس، لكنه توقف هناك لأنه كانت هناك مشاكل لوجستية. «سبق وأن تلقيت مرسومًا إمبراطوريًا، يقضي بأن على (لي تشي تسوي) أن يقود القوات للتقدم للتعزيز والدعم. وعليه، أُمرت بالتوجه والتمركز في المكان الذي يتمركز فيه (لي تشي تسوي) لتولي القيادة عن كثب. لذلك، وصلت إلى (دا جيان لو) في اليوم الرابع من هذا الشهر، وكنت أنوي المغادرة، ولكن سمعت أن إدارة المعسكرات لم تُنفذ بشكل صحيح، وأن المؤن والأجور تحتاج إلى الترتيب المسبق، لذا اعتزمت استدعاء المسؤولين للاستفسار، والبقاء هنا لبضعة أيام.» بعد الانتهاء من شؤون (دا جيان لو)، واصل (تشينغ فو) طريقه، لكنه لم يصل إلى (دونغ إي لوه) كما كان مخططاً. والسبب هو أنه بعد إجراء بعض التحقيقات الميدانية، وخاصة بعد أن أفادت قبيلة (مينغ تشنغ) أن (لي تشي تسوي) تمركز في (دونغ إي لوه) لمدة خمسة أشهر العام الماضي، وأن جميع إمدادات الحطب قد نفدت. لا توجد غابات في تلك السهول العشبية، وكان الحطب يُشترى من مناطق غابات مثل (دا جيان لو) ويُنقل لمسافات طويلة. وفي هذا الوقت، كانت السهول العشبية خارج (دا جيان لو) «مغطاة بالجليد والثلوج، مما جعل نقل الحطب صعباً للغاية.» وهكذا، أقام معسكراً في مكان يسمى (سي ما تانغ) بين (دا جيان لو) و(دونغ إي لوه).

قال (تشينغ فو) في مذكرته: «سأقيم مؤقتاً في (سي ما تانغ) خارج الممر، والتي تبعد حوالي مائة لي عن (دونغ إي لوه)، ويمكنني من هنا التنسيق بين جميع الأمور. وسأنتظر حتى يذوب الثلج وينمو العشب، وعندها يمكننا التفكير في التقدم.»

الحاكم العام، في نظام حكم سلالة (تشينغ) هو مسؤولاً محلياً كبيرًا من الدرجة الثانية على الأقل، ويشرف على الشؤون العسكرية والإدارية في عدة مقاطعات. مقارنة باليوم، هو مسؤول أعلى من مستوى الوزير في المقاطعة. عندما يكون مسؤول رفيع المستوى كهذا في منطقة حدودية للخدمة في الجبهة، فماذا يمكن للإمبراطور أن يقول؟ لم يكن أمامه سوى توبيخ مرؤوسيه: «يجب حل هذا الأمر بسرعة، لقد مرت أكثر من سبعة أشهر على الحملة، ووصلت نفقات الجيش إلى مليون، فما الذي يفعله (لي تشي تسوي) ومن معه!»

اضطر (تشينغ فو) إلى تأكيد عزمه مرة أخرى، وفي الوقت نفسه، ألقى باللوم على مرؤوسيه: «إن تأخر الحملة العسكرية في (تشان دوي) يعود كله إلى تساهل القيادة العسكرية في المعسكرات والحاميات.» القيادة يقصد القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي). والحاميات يقصد القائدان العامان (يوان شي بي) و(سونغ تسونغ تشانغ) لحاميتي (جيان تشانغ) و(سونغ بان). هؤلاء الأشخاص «تم رفع تقرير ضدهم بالفعل من قِبلي»، «ونطلب إضافة ونقل قوات للدعم والمساندة، أما هؤلاء الأوغاد التافهون فلا بد من القضاء عليهم فورًا.»

أبدى السيد (تشينغ) عزمه، وقدم خطة. عندما وصل إلى (دا جيان لو)، أخبره أحدهم أن هناك سجيناً في السجن المحلي يدعى (قان سونغ جيه)، كان في الأصل مسؤولاً محلياً صغيراً في منطقة (تشان دوي). هذا الشخص له عداء مع (بان قون)، و»يرغب في بذل قصارى جهده». وسمع أيضاً أن لـ(بان قون) أخاً غير شقيق، يسمى (إربان قون)، قتله أخوه الأكبر (بان قون). هذا (إربان قون) له أخ شقيق آخر من أمه يدعى (إي مو دينغ)، وهو دائماً يرغب في الانتقام لأخيه والأخذ بثأره. و(إي مو دينغ) في هذا الوقت موجوداً في قرية (بان قون). عندما علم (تشينغ فو) بهذه الأخبار الشائعة، بحث عن قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) التابع لشيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الذي كان يرافق ويقود الجنود المحليين للمساعدة في المعركة، واستفسر منه، وتم تأكيد صحة الخبر. بالإضافة إلى ذلك، فهم قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) مقصد السيد (تشينغ)، وعرض أن يكون ضامناً للمجرم (قان سونغ جيه)، ويرسله إلى قرية (بان قون) في (تشان دوي) ليتواصل سراً مع (إي مو دينغ)، ويجمع أقاربه من الجنود المحليين ليكونوا عوناً من الداخل. وفي النهاية، بالتعاون مع قوات (تشينغ)، «يمكن القبض على (بان قون) الحقير بهجمة واحدة.»

في نفس الوقت الذي تم فيه رفع المذكرة إلى الإمبراطور، بدأ تنفيذ هذه الخطة.

«بما أن المسألة العسكرية سرية للغاية، وأخشى أن تتسرب، فقد تجرأت بإصدار أمر سري لشيخ قبيلة (مينغ تشنغ) ليكون ضامناً له وإخراجه، وإرساله للقيام بالمهمة.» هذا يعني أن (تشينغ فو) أخرج السجين الذي يدعى (قان سونغ جيه)، وطلب من شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) أن يضمنه، وأرسله إلى الجبهة لتنفيذ خطته زرع الانقسام. كان (تشينغ فو) يعلم بالطبع أن هذا الأمر ليس بالهين، وإذا لم ينجح، فإنه سيتحمل مسؤولية جسيمة، لذلك قال في تقريره إلى البلاط: «إذا حدث أي تقصير أو إهمال، فإنني أتحمل اللوم ولا يمكنني التنصل منه، وأرجو أن يتم إصدار أمر إلى الإدارة بمعاقبتي بصرامة.» لكن بما أن الجيش كان محاصراً في الجبال، ولا يمكنه إظهار قوته، فإنه لم يكن أمامه خيار سوى اللجوء إلى هذه الخطة، والتي قد تكون حلاً محظوظاً لتحقيق النصر. بالطبع، كان الإمبراطور يدرك صعوبات وزيره، فأصدر مرسوماً يقول: «هذا أمر تتصرف فيه بما تقتضيه الظروف، فأي ذنب في ذلك؟ لقد علمت.»

أما عن نتيجة تنفيذ هذه الخطة، فإنه لم يكن من الممكن معرفتها بعد، ولكن المسؤولية عن إرهاق القوات وتأخرها يجب أن يتحملها شخص ما. اختار (تشينغ فو) شخصاً واحداً. ظننت في البداية أنه سيكون (سونغ تسونغ تشانغ) بلا شك. ولكن عندما وصلت مذكرة (تشينغ فو) إلى الإمبراطور، اتضح أن الشخص هو (يوان شي بي) القائد العام لحامية (جيان تشانغ).

.indd 48-49 2025-11-27 10:55:46

قدم الحاكم العام (تشينغ) مذكرة قال فيها: «في حملة (تشان دوي) العسكرية، قام القائد العام في الطريق الأوسط، وهو (يوان شي بي)، القائد العام لحامية (جيان تشانغ) ، بالتعامل مع الأمر بالاستسلام. وعلى الرغم من أنه أفاد مراراً وتكراراً بالاستيلاء على العديد من القرى، إلا أن زعيم المتمردين (بان قون) لم يتم القبض عليه بعد. وبعد أن ذهبت بنفسي إلى المنطقة، علمت أن ما أفاد به لم يكن صحيحاً. أطلب إقالة (يوان شي بي) من منصبه مع إبقائه في الخدمة، ليستمر في قيادة الجنود الذين كان يقودهم، وليؤدي عمليًا دوره وخدمته.»

أصدر الإمبراطور مرسوماً بالموافقة، حاء فيه: «بما أن (يوان شي بي) تراخى في البداية، ثم زيّف الحقائق لاحقاً، فإنه يُعزل من منصب القائد الأعلى. ولكن بالرغم من ذلك، ونزولاً عند الرأي المُقدّم، يُسمح له بالاحتفاظ بمنصبه كقائد عام ليقوم بالخدمة ككفارة عن ذنبه. أما بالنسبة للقائد الأعلى للطريق الشمالي، (سونغ تسونغ تشانغ) القائد العام لحامية (سونغ بان)، فعلى الرغم من أن نيته في البداية كانت الاستسلام، إلا أنه أطاع الأوامر بعد ذلك، لذلك نعفيه من العقوبة مؤقتاً، ونأمره بالتعاون في الهجوم، وسنرى نتائج عمله لاحقاً. إن عاد إلى التسويف والتهرّب، فسيُرفع تقرير بحقه مباشرة.» أما بالنسبة لذلك القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي)، فقد أراد الإمبراطور أيضاً أن يوجه له توبيخاً لاذعاً: «إن القائد الأعلى للجيش (لي تشي تسوي) تقع تحت إدارته قادة الطرق الثلاث، ولكنه اتبع رأيهم ووافق عليه دون أن يُبدي رأيًا حاسمًا بالموافقة أو الرفض، مُقصِّرًا بذلك فعليًا في أداء واجبه. أصدر هنا تحذيرًا شديدًا، وآمره بقيادةِ قواتِ جميع الطرق، وأن يجمعها ويهاجم ويقبض على المتمردين... فإذا استمر في التردد أو التلكؤ أو التقاعس أو الإهمال في أداء الواجب، فإنني أنا الإمبراطور لن أتساهل معه أو أعفو عنه.»

قام الإمبراطور أيضاً مع كبار المستشارين العسكريين بتحليل أسباب عدم قدرة الجيش على التقدم أو التراجع، مما أدى إلى إرهاق القوات. السبب الأول هو الاستخفاف بالعدو. كانوا يعتقدون أن (تشان دوي) منطقة صغيرة، وأن الجيش العظيم سيسحقها بسهولة. وعلى الرغم من وجود سابقة في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) عندما قامت قوات كبيرة بحملة وعادت دون نجاح، إلا أن هؤلاء القادة الكبار لم يعيروا ذلك اهتماماً حقيقياً. السبب الثاني هو نقص التحقيق والبحث. يمكن تلخيص هذين السببين في جملة واحدة، كما قال الإمبراطور: «عندما بدأوا في التعامل مع الأمر، لم يخططوا بشكل مفصل للتضاريس وظروف القبائل في المنطقة، واعتبروا الأمر سهلاً جداً.»

أما السبب الثالث، فهو أنه عندما سارت الأمور بشكل سيء، قام هؤلاء المسؤولون الذين يتحملون مسؤوليات كبيرة في النظام بإخفاء الحقائق والإبلاغ عن إنجازات زائفة. وكلما كثرت الأكاذيب، زادت الفوضى.

الإمبراطور هو القائد الأعلى لهذا النظام. وعندما يكذب كل المسؤولين تقريباً ويبلغون عن إنجازات زائفة، فإنه لا يستطيع معاقبة جميع المسؤولين بسبب ذلك. من يمكنه أن يكون أكثر وعياً بذلك من الإمبراطور؟ كما تقول المسرحيات، قلب الإمبراطور واضح كالمرايا، ولم يكن أمامه خيار سوى اللجوء إلى الحيلة القديمة في البلاط المتمثلة في قتل الدجاجة لإخافة القرد أي مجازًا معاقبة واحد ليكون عبرة للآخرين.

لكن انعدام الكفاءة القتالية للجيش لم يكن مجرد نتيجة لسوء القيادة وتجنب الصعاب من قبل عدد قليل من المسؤولين في الخطوط الأمامية. لننظر إلى أصل معركة (تشان دوي)، حيث عجز أكثر من ثلاثين جندياً مسلحاً بالكامل عن مواجهة عصابات «جيا با» والذي نصفها من قطاع الطرق ونصفها من المدنيين، وتمت سرقة أمتعتهم وأسلحتهم أمام أعينهم. الجيش الذي ذهب لقمع (تشان دوي) هو نفس الجيش الإمبراطوري. هذا الجيش لم يعد قوة النخبة المخضرمة التي كانت تقاتل بضراوة في بداية حكم سلالة (تشينغ). فقد كان هذا الجيش يتآكل ويتدهور تحت مظهر الرخاء والعظمة في العصر الذهبي. تفتقر المصادر التاريخية إلى وصف مباشر لهذا الجيش، ولكن يمكننا أن نرى لمحة عنه في الوثائق المتبادلة بين البلاط الإمبراطوري والجبهة. في وثيقة «الرد على المناقشة» لكبار المستشارين العسكريين في ذلك الوقت، جاء ما يلي: «اتسمت قادة المعسكرات والحاميات، كما بالإهمال في البداية، ثم بتقارير ملفقة، مع أوامر متضاربة ومكافآت وعقوبات غير واضحة». لم يكن هذا مرضاً مفاجئاً، بل كان عادة مستمرة. وكان الجيش أيضاً بهذا الشكل: «الجنود المرضى والضعفاء، لم يتم استبعادهم.» كان هناك العديد من الجنود غير القادرين على القتال. «الأسلحة الصدئة والمكسورة، لم يتم استبدالها.» كانت هناك العديد من الأسلحة غير صالحة للاستخدام في المعركة. إذا استمر الوضع على هذا المنوال، فسيكون أشبه بالحرب الصينية اليابانية عام ١٨٩٤، حيث كانت قذائف المدفعية لا تحتوي على بارود، بل كانت مليئة بالرمل. مثل هذا الجيش، لا يمكن بالطبع أن نتوقع منه معنويات عالية:

"انهارت معنويات القادة، وتشتت ولاء الجنود."

ولهذا السبب، بعد وصول الجيش العظيم، «زادت قوة اللصوص، وانتشرت عصابات «جيا با». وبقيت قواتنا مترددة وجمودية.» وكانت هناك أعذار لهذا السلوك السلبي للجيش، حيث قالوا إنهم ينتظرون حتى تنفد ذخيرة الخصم، ولن يكون لديهم ما يقاومون به. لكنهم لم يعلموا أن المنطقة غنية بالملح والكبريت، وهما المادتان الخام اللازمتان لصنع البارود.

في مواجهة هذا الوضع، لم يكن أمام (تشينغ فو) خيار سوى إعادة تنظيم الجيش في الجبهة. «تم إعادة الجنود الضعفاء وكبار السن الذين لم يحققوا إنجازات وأما الأسلحة الصدئة والمعطوبة فيُستبدل بها من بين الجنود المسرّحين.» غير أن مثل هذه الأسلحة «الصدئة والمعطوبة» لم تكن قليلة، حتى لم يعد يكفي ما يُستبدل منها. لذلك لم يكن من بدٍّ سوى طلب تعزيزات إضافية من الجنود. «يُقترح الآن سراً نقل ألف جندي من الحاميات الثلاث القريبة التابعة لمقاطعة سيتشوان، وهي (سونغ بان) و(تشوان بي) و(تشونغ تشينغ)، على أن يتقدّموا أولًا إلى المعسكر للمشاركة في الهجوم. بالإضافة إلى ذلك، يتم استدعاء ألف جندي من قوات وحدات القيادة العامة بمقاطعة (قانسو)، وألف جندي من قوات حامية (شي نينغ)، ليشكلوا قوة احتياطية لاحقة.»

بالإضافة إلى طلب تعزيز القوات، رفع الحاكم الإقليمي (جي شان) تقريرًا يلتمس فيه الإسراع في طحن وتجهيز خمسة عشر ألف شيٍ من أرز الجيش. «لإرسالها بسرعة إلى (دا جيان لو) كتعزيزات». وفي الوقت نفسه، التمس أيضًا «طحن وتجهيز عشرين ألف شيٍ أخرى من الأرز، تُنقل على عجل لتكون احتياطًا عند الحاجة».

.indd 50-51 2025-11-27 10:55:47

بعد طلب زيادة الجنود والمؤن، قدم (تشينغ فو) ضمانا، قائلاً: «أتعهد بإتمام حملة القمع وإنجاز المهمة في غضون شهري مايو ويونيو.»

ماذا يمكن للإمبراطور أن يقول؟ لم يكن أمامه سوى «الموافقة على التنفيذ بسرعة». أي، افعلوا ما قلتموه بسرعة. في داخله، لم يكن يصدق هذا الضمان. هذا ليس مجرد تكهن، بل ورد في مرسوم إمبراطوري من الإمبراطور إلى كبار المستشارين العسكريين داخل الهيئات المركزية: «الآن، يطلب (تشينغ فو) المزيد من الجنود مرة أخرى، ويزعم أنه سيتم الانتهاء من الحملة بين شهري مايو ويونيو. هل لدى (تشينغ فو) حقاً معرفة حقيقية بالوضع؟ سمعت مؤخراً أن أبراج المراقبة التي يسكنها اللصوص إما على قمم الجبال أو على سفوحها، وهي تضاريس وعرة، والأسوار متينة، ويستخدمونها لمقاومة قواتنا، مما يجعل من الصعب على جنودنا إظهار مهارتهم وشجاعتهم. أتساءل إن كان هذا هو الحال هناك بالفعل؟»

لذلك، بدأت عزيمة الإمبراطور على قمع (تشان دوي) لتعزيز الهيبة العسكرية للبلاد تتزعزع قليلاً:

«أرى أن (تشان دوي) ليست سوى مجموعة صغيرة من الأوغاد، وحتى لو استولينا على كامل أراضيهم، فلن يكون هناك سبب لتحويلها إلى مقاطعة. يجب أن يتم إرسال مرسوم سري إلى (تشينغ فو)، يسأله هل الوضع هناك يسمح بإتمام العمليات العسكرية بين شهري مايو ويونيو كما زعم؟ وإذا لم يكن قادراً على تحقيق النصر في الموعد المحدد، فما هي خطته البديلة؟ يجب أن يخطط جيداً ويفكر بتمعن، ويقدم تقريراً مفصلاً عن كل شيء. لا يجب أن يضغط على نفسه من أجل تحقيق نتيجة مؤقتة، ولا يجب أن يدافع عن تصريحاته السابقة.»

كانت الرسالة واضحة، فالخطة الأصلية يمكن تغييرها بناءً على الوضع الفعلي.

(تشينغ فو)، بصفته رجلاً خبيرًا في الشؤون السياسية والإدارية، فهو يفهم بطبيعة الحال النوايا الجادة للإمبراطور.

سواء كان ذلك للحفاظ على ماء وجهه، أو لأنه كان واثقاً تماماً من فعالية إعادة تنظيمه للجيش بعد خروجه إلى (دا جيان لو)، فإنه لم يمض وقت طويل حتى رد على الإمبراطور: «لقد وجدت أن (تشان دوي) تعتمد على أبراج المراقبة والصخور الكبيرة، للتصرف بحصانة. في السابق، كانت قواتنا غير معتادة على طرق الهجوم. مؤخراً، وبفضل القوة الإلهية، استولينا على (تشاو وو شي) و(جيا نا قو) وغيرها، وتقدمنا بسهولة. وبمجرد الاستيلاء على برج المراقبة عند مدخل (نا دوه هونغ قو)، يمكننا التقدم مباشرة إلى (رو لانغ). لقد أصبح زعيم المتمردين (بان قون) في وضع حرج، وأخوه غير الشقيق (إي مو دينغ) بالإضافة إلى رؤساء قبائل (تشان دوي) العليا، (ساو دا بانغ) و(لاما جيا موون بو)، اللذان استسلما سابقًا، يرغبون جميعاً في المساعدة وتقديم الإرشاد سراً. لقد أصدرت أمراً سرياً لقائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) بعبور النهر من (رو سي)، ليكون قوة مساندة للقوات الكبيرة ومهاجمة وكرهم. سنتمكن بالتأكيد من تحقيق النصر بين شهري مايو ويونيو.»

ولكن بعد هذا التقرير، لم ترد أي أخبار أخرى.

وصول المبعوث الإمبراطوري

وصول المبعوث الإمبراطوري

أصبح الإمبراطور المقيم في القصر بالعاصمة قلقاً، فأمر كبار المستشارين العسكريين بالاستعجال في الرد على الأسئلة، قائلاً:: «لقد مر أكثر من شهر منذ التقرير السابق، ولم يتم تقديم أي تقارير عن الوضع العسكري. إن فن الحرب يتطلب السرعة، وقوات الهجوم ليست مثل قوات الدفاع. يجب الإبلاغ عن كيفية التخطيط والاستعجال في التقدم، وكيفية الترتيب للهجوم في أي وقت. لماذا لم تقدم تقريراً منذ فترة طويلة؟ كيف يمكنني أن أعرف الوضع في الجبهة؟» وطلب الإمبراطور من كبار المستشارين العسكريين «إرسال رسالة إلى (تشينغ فو) ليقدم تقريراً فورياً عن الوضع الحالي، وعليه أن يقدم تقارير في أي وقت في المستقبل، ولا يجوز له التأخر.»

وأرسل أيضاً المبعوث الإمبراطوري، (بان دي)، إلى الجبهة للإشراف على القتال.

بعد مرور أكثر من عشرة أيام، جاءت أخبار أخيراً من (تشينغ فو): «أفاد مرة أخرى بالهجوم والاستيلاء على قرى (تشاو وو شي) و(جيا نا قو) وغيرها.»

يجب أن نتذكر أنه في التقرير السابق، أفاد (تشينغ فو) بالفعل بأنه «هاجم واستولى على (تشاو وو شي) و(جيا نا قو) وغيرها، وتقدم بسهولة.» بعد ما يقرب من شهرين، وتحت ضغط الإمبراطور، اضطر إلى تقديم تقرير، لكنه كان عن الاستيلاء على نفس المكانين، (تشاو وو شي) و(جيا نا قو). على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن من المناسب أن يكشفه مباشرة، إلا أنه كان غير صبور، وكانت كلماته غير ودية: «لا يوجد أي أخبار عن نصر كامل، هذا مجرد تعزيز بسيط لمعنويات القوات.»

بعد شهر آخر تقريباً، في شهر أبريل من التقويم القمري، قدم (تشينغ فو) تقريراً جديداً عن المعركة: «قمت بتوجيه قوات (هان) والضباط والجنود المحليين للاستيلاء على قرى اللصوص بما في ذلك قرية (ماي لونغ قانغ)، و(تشو قونغ شان ليانغ)، و(شانغ قو شي)، وغيرها، ودمرت أكثر من مائة وخمسون برج مراقبة خطيراً. وأفاد زعماء القبائل لأكثر من عشر قرى، بما في ذلك (شانغ جيا نا تشو قه)، أنهم استسلموا خوفاً من قوتنا، وقدم كل منهم أبناءه كرهائن، وسلموا الخيول والأسلحة. كما أن الأخ غير الشقيق لزعيم المتمردين (بان قون)، (إي مو دينغ)، و(لاما جيا موون بو) الذي استسلم سابقاً من (لينغ دا) الشمالية، و(ساو دا بانغ) زعيم قبيلة (تشان دوي) العليا، جميعهم يرغبون في المساعدة وتقديم الإرشاد سراً. لقد أصدرت أمراً سرياً للقائدين الميدانيين (وانغ شي تاي) و(لو يو تشاو) لتوجيه قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) وغيره من مناطق (رو سي) الشمالية، لعبور النهر سراً. كما أرسلت قوات من (قان شي) لمهاجمة طريق (ران دوه) الخلفي، وطلبت من قائد الجيش الإمبراطوري (لي تشي تسوي) حث القوات على مهاجمة مدخل وادي (نا هونغ دوه)، لضمان تحقيق النصر الكامل.»

[redacted].indd 52-53 2025-11-27 10:55:47

هذه المرة، يبدو أن الأمور قد بدأت تتحسن بالفعل.

بالفعل، أصبحت نتائج المعركة تسير بسلاسة.

بعد بضعة أيام، قدم (تشينغ فو) تقريراً آخر: «استولت القوات على مدخل وادي (نا هونغ دوه)، وعبَروا النهر عند (رو سي)، واقتحموا قرية (رو لانغ) الكبرى. فر الزعيم المتمرد (بان قون) مع عائلته. تم إصدار أوامر فورية إلى قادة كل الطرق والحاميات وشيوخ القبائل بتوزيع الجنود على الممرات الهامة للقبض عليه.» وصل المبعوث الإمبراطوري في الوقت المناسب تماماً، «فقد وصل المبعوث الإمبراطوري (بان دي) وآخرون إلى المعسكر في نفس اليوم، لاستقبال وإعادة تأهيل وتهدئة القبائل المتبقية، وتوسل الكثير منهم للاستسلام.»

كان هذا في اليوم الرابع عشر من الشهر الرابع من العام الحادي عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ). لو لم يفشلوا في القبض على (بان قون)، لكانت خطة (تشينغ فو) قد انتهت قبل الموعد المحدد.

عندما تلقى الإمبراطور التقرير، أعرب الإمبراطور عن سروره وارتياحه. «ولكن بما أن (بان قون) لم يتم القبض عليه، فلا يمكن اعتبار النصر كاملاً. يجب أن تشرف بنفسك على القبض على الجاني الحقيقي، وتتوخى الحذر من أي محاولة للتزوير.» أي، يجب القبض على زعيم العصابة، ولا تسمح لأحد بأن يزيف الأمر، ولا تدع مرؤوسيك يخدعونك ويخدعوني معهم. على الرغم من ذلك، لا يزال الإمبراطور يعتقد أن هذا النصر هو «نتيجة جهود (تشينغ فو) الحثيثة منذ وصوله، فقد قام بالتنظيم بجدية، وعزز من قوة الجيش»، ولذلك تحقق هذا الإنجاز. كما يؤمن الإمبراطور أيضاً بأن «رأس العصابة (بان قون) قد هرب مؤقتاً، لكنه سيُسلّم نفسه عما قريب، ومن ثمّ، يمكن أن تنعم هذه المنطقة الحدودية بالسلام والهدوء الأبديين.»

قال الإمبراطور: « إن قيادة (تشينغ فو) منظمة ومناسبة، كما أن تخطيط (جي شان) عمليات النقل والإمداد يستحق الثناء حقاً! كما أن قادة الجيش والحاميات والمسؤولين والضباط والجنود، الذين أظهروا شجاعة الآن ولم يتجنبوا المخاطر، ووصلوا مباشرة إلى معقل العدو، فهم أيضاً يستحقون الثناء. لذا، يُؤمر بتكليف وزارة الحرب بمناقشة وتقديم مقترحات لمكافآتهم بامتياز. أما كيفية تصنيف المزايا والتقصير وتحديد الرتب والدرجات، فيُؤمر (تشينغ فو) بالتحقق من الأمر وتقديم تقرير مفصّل به.» هذا يعني أنه طُلب من وزارة الحرب وضع المقترحات الأولية للمكافآت.

سرعان ما قدمت وزارة الحرب اقتراحاتها: «ينبغي إضافة ثلاث درجات إلى رتبة كل من المستشار الأكبر (تشينغ فو) والحاكم الإقليمي (جي شان) ، كما هو معتاد.»

بالإضافة إلى موافقته على ذلك، حرص الإمبراطور على مكافأة (تشينغ فو) بمكافأة أكبر: « يُمنح (تشينغ فو) لقب المعلم الأكبر لولي العهد ، بالإضافة إلى الترقية لثلاث درجات. ويُرقى (جي شان) لثلاث درجات.»

بالطبع يستحقون المكافأة، فدولة (تشينغ) في أوج ازدهارها كانت بحاجة ماسة إلى مثل هذه الانتصارات!

XXXX XXX.indd 54-55 2025-11-27 10:55:47

(تشان دوي) والتبت

في هذا الوقت، جاءت أخبار من التبت.

كانت الأخبار من نائب القائد العام للجيش المقيم في التبت، (فوتشينغ).

اتضح أن التبت، التي كانت أبعد من (تشنغدو) و(دا جيان لو) عن (تشان دوي)، كانت تتابع بصمت تطورات معركة (تشان دوي). بعد أن استولت قوات (تشينغ) على المعسكر الرسمي لـ(بان قون) في (رو لانغ)، طلب كل من الدالاي لاما، و(البانشن لاما)، والأمير (بولوه ناي) من (فوتشينغ) أن يقدم طلباً نيابة عنهم إلى الإمبراطور، «لإرسال مبعوثين إلى (بان قون) لإبلاغه، وأمره بالقبض على عصابات «جيا با» وتقديمهم، ووعده بفرصة لإصلاح نفسه، وسحب الجيش الكبير.»

رد الإمبراطور على الفور، «لا أوافق على الطلب.»

ربما فكر الإمبراطور، لماذا لم تقدموا «طلباً» كهذا قبل اندلاع الحرب؟ ولماذا لم تقدموا «طلباً» كهذا عندما كانت الحرب في طريق مسدود؟

هذا الأمر ذكّر الإمبراطور (تشيان لونغ) بشيء مهم: «إن (بان قون) هو زعيم التمرد في (تشان دوي)، وجريمته لا تُغتفر. والآن، عندما أرى الدالاي لاما يتوسط له ويطلب العفو، يبدو أن (بان قون) والتبت على اتصال وثيق منذ بداية الحرب. وعندما أصبح وضعه يائساً، لم يكن لديه أي خيارات، فطلب الدالاي لاما وغيره من أجله. إن تواطؤهم السري في السابق لم يتم الانتباه إليه. بما أن علاقتهم وثيقة، فإن (بان قون) عندما يصبح في وضع حرج، ولا يجد مكاناً للفرار، فقد يختبئ هناك سراً. يجب إبلاغ (تشينغ فو) بهذا الوضع على الفور، وأمره ببذل قصارى جهده لمنعه من الهروب. وإذا كان هناك أي إهمال هذه المرة، أو إذا تمكن (بان قون) من الفرار، فإنني سأحاسب (تشينغ فو) وحده.»

يدرك الإمبراطور في قرارة نفسه، أنه لن يوبّخ الدالاي لاما الذي يسعى لإقامة جبهة موحدة معه بشكل مباشر، ولكنه وجه تذكيراً وانتقاداً شديداً لـ(فوتشينغ): «... الآن، بعد أن هُزم المتمردون هزيمة نكراء، هرب (بان قون) وحيداً، ودُمّرت أوكاره، وسوف يُقبض عليه عاجلاً أم آجلاً. يجب أن يكون الدالاي لاما و(بولوه ناي) قد تبادلا الرسائل بشكل منتظم، قبل أن يطلبوا العفو من أجل (بان قون) ويقدموا مذكرة بشأنه. في مثل هذه الحالة، كان من الأنسب لـ(فوتشينغ) أن يرفض استلام مذكرة يطلب فيها العفو عن خائن ومتمرد. وإذا أصروا على طلبهم مراراً وتكراراً، زاعمين أنهم يخشون أن يتم إهمال الأمر، كان بإمكانه حينها فقط أن يقدم طلبهم بناءً على الوضع. لكن (فوتشينغ) قام باستلام المذكرة وتقديمها بتهور، وهذا يدل على غباء شديد وعدم فهمه للأمور. وعلاوة على ذلك، كان الغرض من تعيينه في التبت هو الإشراف وتوفير الحماية. هل يعقل أن (بان قون) المتمرد يتبادل الأخبار مع التبتيين، و(فوتشينغ) لا يعلم بذلك! إذا كان يعلم، وقام بتقديم الطلب نيابة عنهم، فإن جريمته لا تُغتفر. وإذا زعم أنه لا يعلم، فما الفائدة من وجوده هناك؟» هل عينتك في لاسا لتمرر لي أي طلب سخيف دون تمييز بين الصواب والخطأ؟ «بما أن لدى (فوتشينغ) أكثر من خمسمائة جندي، فعليه أن يولي اهتماماً خاصاً، ويجري تحقيقاً شاملاً. وإذا كان هناك أي إهمال، وسمح للصوص بالفرار إلى التبت، فإن (فوتشينغ) سيتم إعدامه هناك، ولن يكون هناك أي تسامح.»

إن المرسوم الإمبراطوري الذي يهدد مباشرة بـ«الإعدام» يظهر مدى غضب الإمبراطور.

لم يكن غضبه من (فوتشينغ) بسبب «غبائه» و«عدم فهمه للأمور» فقط.

إن سلوك الدالاي لاما والأمير التبتي (بولوه ناي) أثار بطبيعة الحال غضب الإمبراطور وحيرته. لتفسير سبب غضب الإمبراطور، يجب أن نذكر بعض الأحداث التاريخية القديمة.

في السنة السادسة والخمسين من حكم الإمبراطور (كانغشي)، الموافق عام 1717م، غزت قوات النخبة من قبيلة (زونغار) المغولية، قوامها ستة آلاف جندي، التبت. هُزمت القوات التبتية، وقُتل (لا زانغ خان) الذي كان يحكم التبت آنذاك. كان (بولوه ناي) آنذاك تحت إمرة (لا زانغ خان)، وقد أصيب بجروح في الحرب ضد (الزونغار). في عام 1720م، أي في السنة التاسعة والخمسين من حكم (كانغشي)، تقدمت قوات (تشينغ) إلى التبت وطردت (الزونغار). قاد (بولوه ناي) مع (كانغ جي ناي) حاكم (آ لي)، القوات لمساندة قوات سلالة (تشينغ)، ونجحوا في النهاية في صدّ جيش المغول الزونغار الغازي للتبت. بعد الحرب، تم تعيين (بولوه ناي) كواحد من الأربعة كالون (كبير المسؤولين) المسؤولين عن إدارة شؤون التبت، ليساعد الكالون الأول (كانغ جي ناي) في إدارة الشؤون المالية. لاحقاً، دبّ الخلاف بين الكالونات الأربعة، فقام الكالون (آربوبا) بقتل الكالون الأول (كانغ جي ناي) في عام 1727م، أي في السنة الخامسة من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ). قام (بولوه ناي) بحشد قوات من (هوتسانغ) و(آ لي) لمحاربة (آربوبا)، وحقق في النهاية النصر. خلال الحرب، رفض وساطة (البانشن لاما)، وأصر على أن يتولى إمبراطور سلالة (تشينغ) الحكم والبتّ النهائي في الأمر. في السنة السادسة من حكم (يونغ تشنغ)، وبإشراف من بلاط (تشينغ)، تم إعدام الكالون (آربوبا) المتمرد ومن معه. تمت ترقية (بولوه ناي) إلى منصب الكالون الأول، ومُنح لقب «بي تسي». كان لقب «بي تسي» أحد ألقاب النبلاء من الدرجة الرابعة في سلالة (تشينغ). وفي السنة الرابعة من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم منحه لقب «جون وانغ» (الأمير). كان لقب «جون وانغ» (الأمير) يُعد المرتبة الثانية بين ألقاب النبلاء في سلالة (تشينغ).

[redacted].indd 56-57 2025-11-27 10:55:47

لهذا السبب، كان تصرف (بولوه ناي) هذه المرة مفاجئاً للغاية للإمبراطور، وبالطبع جعله يشعر بالحيرة والغضب.

رفع (تشينغ فو) تقريرًا آخر، جاء فيه: «بعد التحقق وجدت أن شيوخ القبائل في منطقة الجنوب الغربي يعظمون اللاما ويقدمون له الشاي المغلي كقرابين. لذلك، فإن توسّل الدالاي لاما لطلب العفو بالنيابة عن (بان قون) ليس بالأمر المستغرب. غير أن إيصال (بولوه ناي) لهذا الطلب أيضاً يعدّ حماقة بالغة.» ثم أعاد (تشينغ فو) التذكير بواقعة سابقة، ففي العام الماضي «حين هاجمت قوات (جيانغ كا) بقيادة (ما ليانغ تشو) من الطريق الجنوبي موقع (شيا تشيوقونغ)، وكان الطريق وعراً تغمره الثلوج، هرب (لينغ تسونغ ناي) بقواته عائدًا. وعندما أُرسلت قوات (جيانغ كا) لاحقًا، تذرّعت بأعذار للتأخير والمماطلة، حتى بعد أن تم اختراق (رو لانغ)، عندها فقط أُبلغ عن وصولهم إلى المعسكر». هذا الأمر أشبه بصبّ الزيت على النار، مما زاد من غضب الإمبراطور. ولكن الإمبراطور يدرك أنه لا يستطيع أن يوجه غضبه مباشرة إلى الدالاي لاما والأمير (بولوه ناي)، فاضطر إلى الاستمرار في صبّ غضبه على (فوتشينغ) الذي نقل هذه العريضة السخيفة وغير المنطقية.

استدعى الإمبراطور كذلك (فوهَنغ)، شقيق (فوتشينغ) الذي كان يعمل في الحكومة المركزية كمساعد وزير وزارة الإيرادات، وطلب منه أن يكتب رسالة إلى أخيه في لاسا بالتبت، لتجديد اللوم والمساءلة: «»إن سبب تعيينك للعمل في التبت هو، أولاً: رعاية المنطقة، وثانياً: للوقوف على آخر الأخبار والتفاصيل حول الأوضاع هناك.» قبل سفرك، استقبلك الإمبراطور بنفسه، هل نسيتَ مدى جدية تحذيره لك ونصحه الصادق لك؟ «حين ودّعتني، ألم أوصيك كيف يجب أن تسلك؟ فمنذ وصولك إلى هناك لم ترفع التقارير بما يجب رفعه، بينما رفعت تقارير طائشة بما لا ينبغي رفعه. مثل قضية التماس الدالاي لاما و(بولوه ناي) من أجل العفو عن اللص المتمرد (بان قون) في (تشان دوي)..... فقد سبق أن أصدرتُ أمرًا بتوبيخك بشدة. ثم أيضًا، حين ودّعتني، كنتُ قد أمرتُك بوصية واضحة، إذ إنني كثيرًا ما أغدقتُ الإحسان على أهل التبت، فأردت أن أعرف أحوالهم وأوضاعهم بدقة .... وأن تبحث في كل شيء بالتفصيل وترفعها بصدق في تقاريرك. وها قد مضت سنتان، ولم تقدم أي تقرير. ولم تولِ اهتمامًا بما أوصيتك به. وأنت الآن تقيم هناك على رأس الجنود، فإن حدث أن تسلل المتمرد (بان قون) إلى التبت ولم تستطع أن تقود الجنود للقبض عليه، ولم تتمكن من القبض عليه، فسوف يتم إعدامك في ذلك المكان على الفور. بلّغه هذا الأمر ليعلمه.»

هدد الإمبراطور مرة أخرى المسؤول المقيم في التبت بعقوبة الإعدام مباشرة.

لاحقاً، توفي (فوتشينغ) بالفعل أثناء خدمته في التبت، ولكن ليس بسبب قضية (تشان دوي).

في العام الثاني عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، توفي (بولوه ناي) بسبب المرض. قبل وفاته، طلب من بلاط (تشينغ) أن يخلفه ابنه الثاني (جيورمي نامجيل) في منصبه. وافق الإمبراطور على الطلب، وأمره بتولي إدارة الشؤون السياسية في التبت. كما أصدر مرسوماً لـ(فوتشينغ) قائلاً: «(بولوه ناي) كان ذا خبرة كبيرة، وكان مخلصاً في خدمة الصين. أما (جيورمي نامجيل) فهو صغير السن، فعلى (فوتشينغ) أن يوليه اهتماماً. وإذا كانت هناك أمور لم يفكر فيها (جيورمي نامجيل)، فعليك أن ترشده وتوجهه.»

في العام الثالث عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم نقل (فوتشينغ) من التبت ليشغل منصب القائد العام لحامية (تيانجين)، وسرعان ما تمت ترقيته إلى رتبة القائد الأعلى للجيش في (قويوان).

في العام الرابع عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، بدأ (جيورمي نامجيل) الذي خلف والده في منصبه، وشقيقه في القتال. وبسبب «سلوك (جيورمي نامجيل) المتمرد وإثارته للفوضى»، أعاد الإمبراطور (فو تشينغ) إلى التبت.

في العام الخامس عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، وصل (فوتشينغ) ونائبه (لا بو دون) إلى لاسا. في هذا الوقت، كان (جيورمي نامجيل) قد هزم شقيقه وقتله، ونفى ابنه. وفي الوقت نفسه، انقطع التواصل بين المخافر ومحطات البريد العسكرية على طريق سيتشوان-التبت، وقطع الاتصال مع بلاط (تشينغ)، وتواطأ مع (الزونغار) الذين حاربهم والده بضراوة في السابق. بعد قطع الاتصال، لم يتمكن (فوتشينغ) من الحصول على تعليمات من الإمبراطور، فاضطر هو و(لا بو دون) إلى اتخاذ قرار بأنفسهم: «إن (جيورمي نامجيل) على وشك التمرّد، وإذا انتظرنا، فسنُذبح بلا ثمن. وإذا استمر التمرد، فلن تتمكن قواتنا من التقدم على الفور، وهذا يعني التخلي عن التبتين معاً. الأفضل أن نبادر نحن بالهجوم، حتى لو متنا، فإن التمرد سيكون من السهل إخماده بعد ذلك.»

في شهر أكتوبر من ذلك العام، استدعى (فوتشينغ) (جيورمي نامجيل) في لاسا إلى مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، وزعم أن لديه مرسوماً إمبراطورياً، فاستدرجه للصعود إلى الطابق الثاني، ثم أزال السلالم. لم يكن (جيورمي نامجيل) يعلم أن هذا فخ، فركع يستمع إلى المرسوم، فهاجمه (فوتشينغ) من الخلف وطعنه بسيف حتى الموت. لاحقاً، قام قادة وحدات (جيورمي نامجيل) بقيادة قواتهم لتطويق مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، وأطلقوا النار وقذائف المدفعية، وأشعلوا النيران في المبنى. قاوم (فوتشينغ) بشراسة، وأصيب بثلاثة جروح، ثم انتحر بقطع رقبته، كما لقي (لا بو دون) حتفه معه ومن بين الذين لقوا حتفهم معهما أكثر من خمسين ضابطاً وجندياً، وسبعة وسبعون تاجراً ومدنياً. عندما علم الإمبراطور بالخبر، قال عنه: «لقد قيّم الوضع ووازن القوى، واتخذ قراراً حاسماً؛ فكان جَهده عظيماً وإنجازه ضخماً.» مُنح بعد وفاته لقب الكونت من الدرجة الأولى، ولُقب بـ «شيانغ ليه» (المدافع الشجاع)، وأمر فوراً ببناء ضريح له في (تونغ سي قانغ)، حيث كان يقع مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت. عندما تم نقل جثمانه إلى العاصمة، ذهب الإمبراطور بنفسه لتقديم القرابين عند نعشه. هذه قصة خارج سياق حرب (تشان دوي).

.indd 58-59 2025-11-27 10:55:48

ما ذكرهنا عن التبت هوفي الواقع حديث عن الوضع العام للمنطقة التبتية بأكملها، وذلك لتوفيرخلفية أوسع لأحداث (تشان دوي).

لا يوجد شيء في العالم يحدث بمعزل عن غيره. حتى لوكان حدثاً منعزلاً وعابراً في وقت وقوعه، فإن تأثيره يمتد ليشمل وجهات نظرمختلفة لدى الأشخاص ذوي التوجهات المختلفة. خاصة بالنسبة للأشخاص من ثقافات مختلفة ومعتقدات دينية مختلفة، فإن مشاعرهم تجاه الأمرتختلف بشكل كبير. فالإمبراطور كان يكره (بان قون) كرهاً شديداً، بينما كان الدالاي لاما وآخرون يتعاطفون معه بشدة.

سأترك هذا النقاش جانباً، وأعود مرة أخرى إلى موضوع (تشان دوي).

إحرازالنصر

بعد أن استولت قوات (تشينغ) على المعسكرالرسمي في (رو لانغ)، هرب (بان قون) سراً.

أصرالإمبراطور على القبض على الجاني الرئيسي، لكن المسؤولين في الأسفل اعتقدوا أن المهمة قد انتهت، وأن هذا الحدث الكبيرالذي شهد الكثيرمن التقلبات قد وصل إلى نهايته.

رفع المفوض الإداري لـ سيتشوان (لي رو لان)، تقريرًا قال فيه: «مع قرب انتهاء العمليات العسكرية، فإن كمية الحبوب التي تم طحنها ونقلها من مخازن المناطق التابعة واستُخدمت كمؤن للجيش بلغت سبعين ألف شي (وحدة وزن)، وهي كمية كبيرة جداً.» وحدة الـ شي الواحدة تُعادل تقريباً مئة وعشرين جين (وحدة وزن). بمعنى آخر، في هذه الحرب، استهلك الجنود وحاملو المؤن وحدهم أكثرمن ثمانية ملايين جين من الأرز (تعادل أربعة مليون كيلو غرام)! وبإضافة الشعيروالحبوب المتنوعة الأخرى التي تم شراؤها محلياً لصنع المعكرونة المقلية، فإن الاستهلاك الإجمالي للحبوب في معركة (تشان دوي) وحدها تجاوز عشرة ملايين جين (ما يعادل خمسة مليون كيلو غرام). هدف (لي رو لان) من رفع هذا التقريرهوإبلاغ الإمبراطور بأن هذا الاستهلاك الهائل قد أفرغ تقريباً المخازن الحكومية التي يديرها هو بصفته مفوضاً إدارياً، وعليه يجب الإسراع في جمع الحبوب لتعويض النقص.

في الواقع، كانت المعارك في الخطوط الأمامية لا تزال مستمرة في هذا الوقت. في شهر يونيو، رفع (تشينغ فو) مذكرة رسمية أخرى، جاء فيها: «بالتعاون مع المبعوثين الإمبراطوريين (بان دي)، و(نو سان)، وقائد الجيش الإمبراطوري (لي تشي تسوي)، هاجمنا قرية (يا لو ني ري)، وقبضنا على البربري اللص (تا با سي جياو) حياً، الذي أكد أثناء استجوابه أن (بان قون) يختبئ في القرية. وفي ساعة متأخرة من الليل، حشدنا الجنود للهجوم، واستخدمنا الألغام الأرضية، وتم إحراق أكثرمن خمسين حصنًا عسكريًا صغيرًا وكبيرًا على التوالي، وقد قُتل حرفًا ما بين سبعمئة إلى ثمانمائة رجل وامرأة من البرابرة اللصوص، بمن فيهم الزعيم المتمرد (بان قون) ورئيس قرية (ني ري)، (جيانغ تسوه تاي)، وآخرون. أكد جميعهم أنهم قُتلوا حرفًا داخل الحصون. لاحقًا، وعند استجوابنا لكل فرد من أفراد البرابرة في القرية، أكدوا جميعًا أن (بان قون) قُتل حرفًا بالفعل ولم يهرب. والآن، أصدرنا أوامر إلى القادة في جميع الحاميات وإلى شيوخ القبائل المحلية المجاورة بالقيام بحراسة المنطقة بشكل صارم. أما بالنسبة لـ(شا جيا بانغ) و(دان بي) وغيرهما، الذين كانوا من الأطراف الشريرة سابقاً، فيجب أيضاً التفكيرفي طريقة للقضاء عليهم، وعدم ترك أي أثرلهم. إضافة إلى ذلك، فإن بقية قبائل البرابرة قد خافوا من قوة الجيش وأعلنوا الاستسلام، ومن المتوقع أن تنتهي الأمور قريباً.»

XXXX XXX.indd 60-61 2025-11-27 10:55:48

تنتهي الأمور تعني «إنجاز المهمة» أو «إتمام العمل بنجاح».

هل انتهى الأمر؟ هل انتهى الأمر حقاً؟ هل انتهى الأمر بهذه البساطة؟

فكرتُ في البداية كم كانت الأمور صعبة وشاقة، لكن الآن... يبدو أن النصر أتى بسهولة كبيرة، أليس كذلك؟

إذا قلتم أن الأمر حقيقي، فسأصدقكم: «لقد تحقق النصر الآن، ويمكننا تسميته نجاحًا»». لكن الإمبراطور ظلّ غير مصدق تمامًا للأمر، وقال: «ولكن بما أنهم كانوا يتواصلون سرًا مع التبت، فهل نضمن ألا يخططوا للهرب؟ لو ظهر (بان قون) مجددًا في المستقبل، فكيف سنحل هذه المعضلة؟»

لم يكن الإمبراطور مطمئنًا، فطلب مجددًا من المبعوث الإمبراطوري الجديد الذي تم إرساله إلى الجبهة، (بان دي)، أن يتحدث عن الأمر.

رفع (بان دي)، الذي كان قد وصل إلى الجبهة للإشراف على القوات بصفته وزير الحرب، تقريراً قال فيه: «وصلنا إلى المعسكر في اليوم الرابع عشر من شهر أبريل، وتوجهنا على الفور إلى قرية (رو لانغ) التي كان يسكنها (بان قون). في ذلك الوقت، كان (بان قون) قد هرب مع زوجته وأطفاله وأخيه (إي مو لاو دينغ). استفسرنا من قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) ومن شقيق (بان قون) الذي استسلم حديثاً، (إي مو دينغ)، عن مكان هروب (بان قون)، وعما إذا كان لديه أي مخابئ، فأفادوا بأن: «خال (بان قون) (شا جيا بانغ)، وشقيق زوجته (جيانغ تسوه تاي)، يقيمان في منطقة (يا لو). ومن المؤكد أن (بان قون) قد هرب إلى هناك. ولا يوجد مكان آخر يمكنه الفرار إليه.» في اليوم العشرين، فانطلقتُ على الفور أنا وقائد الجيش الإمبراطوري (لي تشي تسوي)، وقمنا بقيادة القوات وملاحقته إلى منطقة (يا لو)، حيث قمنا بإحراق جميع الحصون وأبراج المراقبة، التي يزيد عددها عن أربعين برج صغير وكبير، بالكامل. قُتل جميع من كان يسكن داخل الأبراج من رجال ونساء وشيوخ وأطفال حرقاً بالنار، ولم يتمكن شخص واحد من الفرار. خشينا أن يكون الزعيم المتمرد (بان قون) ماكراً ومحتالاً، ويهرب مجدداً مستغلاً ظلمة الليل والضباب والمطر، لذلك أرسلنا ضباطاً وجنوداً للاستفسار والتحقيق في كل مكان. أكد السكان المحليون جميعاً أن (بان قون) قد احترق حتى الموت، وبعد التحقق مراراً وتكراراً، تأكدنا من ذلك. كل هذا حدث بفضل العظمة الإلهية، التي مكنتنا من القضاء التام على زعيم اللصوص. لقد انتهت العمليات العسكرية، وسنقود القوات إلى العاصمة اليوم.» لقد مات (بان قون) حرقًا حقًا، وأصبحت منطقة (تشان دوي) مستقرة حقًا، وحان الوقت لعودتنا مع جيشنا إلى البلاط الإمبراطوري.

الغريب أنَّ (تشيان لونغ)، وهو إمبراطور محب للمجد والاحتفال بالانتصارات، لم يشعر هذه المرة ببهجة النصر الساحق.

ما دمتم تقولون إنه انتصار، فليكن انتصارًا إذًا. في المرة السابقة، كوفئ كل من (تشينغ فو) و(جي شان)، كما صدرت أوامر لوزارة الحرب بتسجيل الجدارة لجميع الضباط والجنود من مختلف الرتب. لم ينس أيضاً أن «هذه المرة في حملة قمع (تشان دوي)، قام شيوخ القبائل في سيتشوان بقيادة جماعات البرابرة لتوفير المؤن للجيش، وتجنيد عمال النقل، وقد قاموا بذلك بحماس وحيوية، واستمروا على هذا الحال لما يقرب من عام، وكان اندفاعهم لخدمة الشأن العام والالتزام بالواجب أمرًا يستحق الثناء حقًا. لقد تم بالفعل إعفاء هؤلاء الشيوخ القبليين من الإتاوات والضرائب المفروضة عليهم هذا العام. والآن، وقد انتهت المهمة العسكرية، فليُمنحوا المزيد من التقدير، وتُعفى كذلك جماعات البرابرة التي ساهمت في خدمة الجهد الحربي داخل وخارج ممر (دا جيان لو) من الإتاوات والضرائب المفروضة عليهم لمدة عامين آخرين.»

ما كان يجب فعله شكليًا فعله كما ينبغي، لكن في أعماق نفسه لم يكن الإمبراطور مطمئنًا، إلا أن هذا الشعور بعدم الإطمئنان اضطر أن يبوح به لكبار المسؤولين المركزيين مثل كبار المستشارين العسكريين. «بحسب التقارير، فإن حالة الاحتراق حتى الموت ما تزال تثير الشكوك، فـ (بان قون) هو زعيم عصابات، وفي لحظة الخطر، من غير المرجح أن يجلس وينتظر الموت. فاحتمال هروبه واختباؤه هو أمر وارد، وحتى لو احترق حتى الموت، فإن شكله وآثاره ستكون مختلفة عن سائر الناس، إذ لا يُعقل أن يتحول الجميع إلى رماد تام، بحيث لا يمكن تمييز أحدهم عن الآخر.»

إن وجود الشكوك لدى الإمبراطور، وعدم مساءلته مباشرة لكبار المسؤولين في الجبهة، بل إرسال هذه الرسالة عبر كبار المستشارين العسكريين، هو نوع من فن القيادة.

قدم (تشينغ فو) مذكرة أخرى ليطمئن الإمبراطور ويزيل شكوكه.

قال إنني عندما تلقيت خبر احتراق (بان قون) حتى الموت، لم أصدق ذلك أيضاً. ولكن بعد التحقيق، أكد جميع الجنود من قومية الـ (هان) والسكان المحليين، كباراً وصغاراً، الخبر، ولم نجرؤ على رفع التقرير بهذا الخبر إلا بعد نصف شهر. والآن، لم يتبق لقوات جميع الطرق سوى ما يكفي من الغذاء لمدة عشرة أيام، لذلك اضطر الجيش للانسحاب. لكننا سنترك قوة مكونة من أربعة آلاف جندي للتعامل مع ما بعد المعركة. وفي الوقت نفسه، أصدرنا أمراً سرياً لقائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) التابع لشيخ قبيلة (مينغ تشنغ) «لإجراء تحقيق سري». هذا الشخص (وانغ جيه) كان دائماً مخلصاً، وأنا أضمن أنه حتى لو لم يحترق (بان قون) حتى الموت، فلو وجده (وانغ جيه) لقبض عليه وقتله. علاوة على ذلك، بعد الحريق، تعرّف (إي مو دينغ) وآخرون على بندقية (بان قون) النارية ووعائه النحاسي وغيرها من ممتلكاته الشخصية، مما يثبت أن (بان قون) مات في الحريق. ولأن الحريق استمر لعدة أيام، فإن جثث اللصوص تحولت إلى رماد، مما جعل من المستحيل التعرف عليها.

في الوقت نفسه، رفع (تشينغ فو) طلبًا من أجل مكافأة قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه)، قائلاً: « إن رئيس مكتب الإعلان والتهدئة في (لي تانغ)، (آن بن)، محدود الكفاءة، ضعيف في الإدارة والقيادة. ومؤخرًا خسر الأراضي وتغاضى عن المجرمين، وكان من الواجب – وفق اللوائح الخاصة بالإخلال بالواجب – عزله من منصبه. غير أني أراعي ما أبداه من اجتهاد نسبي في إدارة شؤون نقل المؤن، فأقترح تخفيف العقوبة، وخفض رتبته إلى نائب شيخ القبيلة. أما المنصب الشاغر في مكتب الإعلان والتهدئة، فبعد المراجعة تبين أن قائد الحراسة المحلي (وانغ جيه) في منطقة (مينغ تشنغ) كان أثناء حملة القمع في العام الماضي ضد (تشان دوي) قد بذل جهدًا متميزًا في التفاوض والهجوم والسيطرة على المواقع، فيُقترح ترقيته فورًا ليشغل منصب رئيس المكتب.» أما السجين (قان سونغ جيه) الذي أرسله (تشينغ فُو) سابقًا متخفيًا إلى قرية (بان قون)، فلم تذكر الوثائق اللاحقة شيئًا عن الدور الذي أدّاه أو ما قام به تحديدًا، لكنه نال أيضًا – بناءً على طلب (تشينغ فُو) –رتبة «قائد الألف» من الجنود المحليين.

.indd 62-63 2025-11-27 10:55:48

ناقشت وزارة الحرب الأمر فقالت: « موافقون على ذلك.»

بعد ذلك، تم تقييم إنجازات وإخفاقات العديد من القادة العسكريين بناءً على اقتراح (تشينغ فو).

أما القائد العام للجيش (لي تشي تسوي) فتم عزله من منصبه، و»أُرسل إلى الجبهة العسكرية، على نفقته الخاصة، ليعمل ويكفر عن ذنبه.»

أما (يوان شي بي)، الذي كان قد عُزل من منصبه سابقاً، فقد تم الكشف عن المزيد من المشاكل بعد التحقيق. وقررت وزارة العدل في النهاية: «إن الجنرال (يوان شي بي) الذي كان في سيتشوان، لم يتعاون مع القائد العام للجيش (لي تشي تسوي). وعندما تم نقله إلى (تشاو وو شي)، تأخر عن الموعد المحدد. كما أنه سمح لقائد الحراسة المحلي (فان فوباو) بالتقدم بتهور. ارتكب العديد من الجرائم، ويجب الحكم عليه بالإعدام المؤجل، وفقاً لقانون التخلف عن الموعد المحدد في مواجهة العدو، ويتم تنفيذ الحكم في الخريف.»

قال الإمبراطور: «أوافق على ذلك.»

أما القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) ونائب القائد (ما ليانغ تشو)، فكانت إنجازات الأول أكثر من أخطائه، فتمت ترقية (سونغ تسونغ تشانغ) درجة واحدة. أما (ما ليانغ تشو) فلم يكافأ ولم يعاقب، وهذه هي المرة الثانية التي ينجو فيها سالماً من حرب (تشان دوي). أوربما كان (ما ليانغ تشو) هذا ليس هو (ما ليانغ تشو) ذاك، وربما كانا مجرد شخصين يحملان نفس الاسم، وكلاهما شارك في حرب (تشان دوي)، وكلاهما كان يشغل منصب نائب قائد. بعد مئات السنين، لا يمكننا أن نتحقق من (ما ليانغ تشو)، والتاريخ لم يقدم تفسيراً، لذلك يبقى الأمر محل شك.

لو حدث هذا في زمننا اليوم، لكان المسؤولون في المستويات الأدنى يقولون إن الإمبراطور (تشيان لونغ) كان صارماً جداً. لقد تحقق النصر، وحتى لولم يكن هناك إنجاز، فقد كان هناك جهد. فالمسؤولون من المستوى الإداري القديم، الذين على وشك التقاعد، يستحقون معاملة لائقة. فلم يُكتفي بعدم ترقيتهم، بل تم عزلهم والتحقيق معهم. يظن كثير من الناس اليوم أن الجميع كان يقصر في أداء واجباته، فلماذا كان الإمبراطور وحده يعمل بجدية؟ هؤلاء الذين يسألون بذلك ينسون أن في ذلك الوقت الدولة لم تكن دولة للجميع. فلو كانت الدولة ملكًا للجميع، لكان الجميع يبذل جهده في صيانتها وحسن إدارتها، وإن فشلت، لكان الجميع يختلقون الأعذار ويخادعون بعضهم البعض. لكن في ذلك الزمان، كانت الدولة ملكًا للإمبراطور وحده، دولة العائلة الإمبراطورية. وكان الإمبراطور ككيان قانوني يتحمل مسؤولية غير محدودة عن هذه الدولة، ولذلك كان لابد أن يكون جادًا إلى هذا الحد، وصارمًا بهذه الدرجة

على أي حال، وضعت حرب (تشان دوي) أوزارها أخيراً.

الفصل الثاني

في مرحلة صباي، كان هناك رجال في مسقط رأسي ممن يُحبّون التباهي ببطولاتهم، يرتدون سيفاً طويلاً في أحزمتهم معلقًا بشكل مائل، غمده مصنوع من جلد البقر، وعندما يُسحب السيف من غمده، يكون عرضه حوالي ثلاث أو أربع بوصات، وطوله حوالي قدمين أو ثلاث أقدام، لامعاً وحاداً. في لهجة مسقط رأسي، كان هذا السيف يُسمى «جيا با».

.indd 66-67 2025-11-27 10:55:48

الحديث عن «جيا با»

حان الوقت للحديث عن «جيا با» في (تشان دوي).

يجب ألا تكونوا قد نسيتم أن هذه الحرب بدأت بسبب عصابات «جيا با» في منطقة (تشان دوي).

في مرحلة صباي، كان هناك رجال في مسقط رأسي ممن يُحبّون التباهي ببطولاتهم، يرتدون سيفاً طويلاً في أحزمتهم معلقًا بشكل مائل، غمده مصنوع من جلد البقر، وعندما يُسحب السيف من غمده، يكون عرضه حوالي ثلاث أو أربع بوصات، وطوله حوالي قدمين أو ثلاث أقدام، لامعاً وحاداً. في لهجة مسقط رأسي، كان هذا السيف يُسمى «جيا با».

لاحقاً، وعندما قرأت المزيد من المصادر التاريخية عن المنطقة التبتية، علمت أن «جيا با» تعني في الأصل «لص» في لهجة (كانغ با). القرية الجبلية التي ولدت فيها تقع عند مدخل واد عميق، وإذا دخلت هذا الوادي لمسافة عشرة أميال، ستجد غابة سوداء، ويقال إن عصابات «جيا با» كانت تتربص هناك في الماضي، وتنهب التجار العابرين. في فترة شبابي خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، كانت الطرق السريعة قد افتُتحت عبر الجبال الثلجية، وأصبحت الطرق القديمة مهجورة، واختفى التجار. عندما كنت في المدرسة الإعدادية، كان هناك معسكر عسكري بجانب المدرسة، وكانت مواعيد المدرسة تتبع أصوات الأبواق العسكرية من الجوار. في مثل هذا العصر، فقدت عصابات «جيا با» بالطبع أرضها، ولم يتبق منها سوى اسم السيف. لاحقاً، تغيرت الأزياء أيضاً تدريجياً، واستبدل معظم الرجال في مسقط رأسي الملابس التبتية الفضفاضة بأزياء قصيرة، واختفى ذلك السيف الذي لا فائدة عملية منه تدريجياً من حياتهم. عندما كنت أكتب هذا الكتاب، عدت إلى مسقط رأسي لزيارة أقاربي، وسألت العديد منهم، وأخبرني الجميع أنهم لا يعرفون متى اختفت هذه السيوف من منازلهم.

عندما أقرأ المصادر التاريخية لسيتشوان والتبت، فإن كلمة «جيا با» تظهر مراراً وتكراراً بين السطور.

على سبيل المثال، لدي كتاب بعنوان «رحلة إلى التبت»، مؤلفه هو (تشو آي ليان) من مقاطعة (جين شان) في (شانغهاي). في العام السادس والخمسين من حكم (تشيان لونغ)، أرسلت سلالة (تشينغ) جيشاً كبيراً بقيادة (فو كانغ آن) في حملة عسكرية إلى التبت، لطرد الجوركا الغزاة. في ذلك الوقت، كان (سون شي يي)، حاكم سيتشوان، يتمركز في (دا جيان لو) و(تشا مو دوه) (الآن: تشانغدو) في التبت) للإشراف على إمدادات الغذاء والذخيرة، وكان مسؤولاً عن الدعم اللوجستي. كان (تشو آي ليان) مساعداً لـ(سون شي يي)، وخلال السنتين اللتين استغرقتهما الحرب، سافر ذهاباً وإياباً على طريق سيتشوان - التبت، وكتب عن ملاحظاته وتجاربه في كتاب «رحلة إلى التبت». يذكر في الكتاب أن «قبيلة (سان يان با) قريبة من (جيانغ كا) و(تشا مو دوه)، ويعيشون على تربية الأبقار والأغنام، ويتبعون مصادر المياه والمراعي... وفي بعض الأحيان تظهر عصابات «جيا با» لتقوم بالنهب.» ويقول أيضاً إن «(تشان دوي) الثالثة القريبة من (لي تانغ) لها عادات مشابهة.» وأضاف في هامش الكتاب بنفسه أن «جيا با تعني لص».

في إحدى السنوات، زرت (كانغدينغ)، المعروفة سابقاً بـ(دا جيان لو)، وتصدر هيئة الثقافة المحلية مجلة تاريخية ثقافية تسمى «حديقة (كانغ با) الأدبية»، والتي تحتوي دائماً على مقالات كتبها مثقفون محليون يبحثون في التاريخ والعادات المحلية. في ذلك الوقت، ولأن الطريق كان مغلقاً بسبب الأمطار وانهيار الطريق العام، لم أتمكن من التقدم، فقضيت الوقت في الفندق اتصفح العدد الجديد من مجلة «حديقة (كانغ با) الأدبية». فوقع نظري على مقال كتبه (ده قه) و(زا سي) بعنوان « أغاني المتجولين من شعب كانغ». فوسّع هذا المقال مداركي، وأوضح لي أن كلمة «جيا با» في لهجة (كانغ با) لا تحمل دلالة سلبية في الأصل، ويمكن ترجمتها إلى اللغة الصينية بـ«الفارس الجوال أو المتجول»، وهناك أغنية شعبية تسمى «(تشانغ لو)» متداولة بين الناس. هذه الأغنية الشعبية تمجد «جيا با»، أو ربما تكون أغنيتهم الخاصة التي يغنونها عن أنفسهم..

سأكتب أولاً أغنية:

آه، يقولون إن في العالم ثلاثة أبواب،

الباب الأول هو باب المعبد لتقديم القرابين للبوذا،

أنا، الفارس الجوال، لا أدخل، لا أدخل هذا الباب،

فمن دون تقديم القرابين، فإنهم لن يفتحوه، لن يفتحوه.

آه، الباب الثاني من الأبواب الثلاثة،

[redacted].indd 68-69 2025-11-27 10:55:48

هو باب السلطة الرسمية، باب القوة القانونية،

أنا، الفارس الجوال، لا أدخل، لا أدخل هذا الباب،

فمن دون الهدايا لا يسمحون بالدخول، لا يسمحون بالدخول.

آه، الباب الثالث من الأبواب الثلاثة،

هو باب المرح والغناء الجميل والرقص الهيج،

أنا، الفارس الجوال، لا أدخل، لا أدخل هذا الباب،

فمن دون النبيذ الجيد، فإنهم لن يفتحوه، لن يفتحوه.

نعم، هذا هو «جيا با»، هذا هو اللص، وهذا هو الفارس الجوال.

اللص، هو نظرة العالم لسلوكهم؛ والفارس الجوال، هو تعريفهم لطريقة عيشهم.

إن منطقة (تشان دوي)، بجبالها العالية، وأنهارها الباردة، وغاباتها الكثيفة، وطرقها الطويلة، مناسبة بطبيعة الحال لهؤلاء «الجيا با» للتجول.

هناك سجلات من ذلك الوقت تقول: «إن أرض (تشان هوا) فقيرة، وسبل العيش فيها متدهورة، وأغلب أهلها لصوص»، «لا يزال الناس في ذلك الوقت يطلقون على أهل (تشان هوا) اسم (تشان دوي وا). و(تشان دوي وا) معروفون بقوتهم وفظاظتهم في جميع أنحاء (كانغ با)، والناس في المحافظات المجاورة يرتعشون خوفاً ويفرون عند سماع اسم أطفال (تشان دوي)».

من الأغنية التي يغنيها الفارس الجوال، نعلم أن هؤلاء «الجيا با» لم يكونوا سوى منبوذين من عصر لم يتمكنوا فيه من دخول أبواب المصير التي يمكن أن ترتقي بحياتهم وتمنحها معنى. عند باب المعبد، فإن حارس الباب هو اللاما البوذي، «إذا لم يكن لديك قرابين، فإنهم لن يفتحوا لك.» وعند باب السلطة، فإن حارس الباب هو المسؤول، «إذا لم تحمل (هادا)»، أي لا تظهر الاحترام، «فإنهم لن يسمحوا لك بالدخول.» وعند باب السعادة، «إذا لم يكن لديك نبيذ جيد، فإنهم لن يفتحوا لك.»

بعد أن تحدثنا عن «جيا با»، دعونا نعود إلى (تشان دوي).

في صيف عام 1929، قام باحث يدعى (رن ناي تشيانغ)، بصفته مفتشاً للحدود، بالبحث لمدة عام في تسع محافظات تابعة الآن لولاية (قان تسي) التبتية ذاتية الحكم. قام بالبحث في التطورات التاريخية والجوانب الاجتماعية، وراقب الأوضاع السياسية والاقتصادية، ورسم الخرائط، وكتب تقريراً عن كل محافظة. من بين المحافظات التسع، كانت هناك (تشان دوي)، موضوع هذا الكتاب. ولكن في عهد جمهورية الصين، تم تغيير اسمها إلى محافظة (تشان هوا).

التقرير رقم 7 من «تقارير تفتيش (شيكانغ)» للسيد (رن)، بعنوان «تقرير تفتيش محافظة (تشان هوا)»، موجود في كتاب «مذكرات (شيكانغ)» الذي أهداه لي ابن السيد (رن)، (رن شين جيان).

دعونا نتبع السيد (رن) لنرى كيف كانت منطقة (تشان دوي).

«المنطقة بأكملها على شكل شبه منحرف، مساحتها من الشمال إلى الجنوب في خط مستقيم 80 لي، ومن الشرق إلى الغرب 85 لي. المسافة التي يقطعها الإنسان لا تقاس بوحدة (لي)، وهي تقريباً أربعة أضعاف المسافة المستقيمة.» وهذا يتطلب تفسيراً صغيراً. «المسافة المستقيمة» هي في رأيي القطر، أي المسافة التي يقطعها طائر في خط مستقيم. هذا يعني أنها لم تكن منطقة كبيرة. و«المسافة التي يقطعها الإنسان لا تقاس بوحدة (لي)»، يعني أن الناس لم يكن لديهم عادة استخدام وحدة (لي) لقياس المسافة. في الجبال الكبيرة، تكون الطرق متعرجة، لذلك فإن المسافة التي يقطعها الإنسان أو الحيوان على الأرض تكون أربعة أضعاف المسافة التي يقطعها الطائر في خط مستقيم. أما عدد السكان فكان أقل. يقول السيد (رن) في تقريره: «يبلغ عدد سكان (تشان هوا)، وفقاً لسجلات الضرائب، أكثر من عشرين ألف نسمة، وعدد الذكور والإناث متساوٍ تقريباً، ولكن العدد الحقيقي أقل من ثلاثين ألف نسمة. ومن بين هؤلاء، ربعهم من الرهبان والراهبات، وربعهم من البالغين، والباقي من الرعاة.» وهذا يعني أن أغلبية سكان (تشان دوي) كانوا من المزارعين. في عهد جمهورية الصين، «كانت (تشان هوا) تتكون من 4 مناطق و48 قرية و4578 عائلة. وكانت الضرائب السنوية 977 داناً و2 دوان و5 شينغ و7 حه من الحبوب، و421 داناً و5 دوان و8 حه من الشعير، و6492 يوان و3 جو من الفضة من ضرائب المواشي، و3173 قطعة نحاسية من ضريبة الأغنام.»

في خريف عام 2012، وصلت أخيراً إلى منطقة (تشان دوي) التي ترددت في الوثائق القديمة. اليوم، تغير اسمها مرة أخرى إلى محافظة (شين لونغ). بعد تناول العشاء مع القادة المحليين في المدينة الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر (يالونغ)، عدت إلى الفندق، ووصلت إلى غرفتي «سجلات محافظة (شين لونغ)» التي طلبتها من المقاطعة. قرأتها طوال الليل، وكانت البداية وصفاً أكثر دقة لـ(شين لونغ)، أي (تشان دوي) القديمة:

«محافظة (شين لونغ)، تقع في وسط ولاية (قان تسي) التبتية ذاتية الحكم في سيتشوان، على خط طول 99 درجة و37 دقيقة شرقاً، وخط عرض 30 درجة و23 دقيقة شمالاً. تحدها سبع مقاطعات هي: (لو هو)، (داو فو)، (يا جيانغ)، (لي تانغ)، (باي يو)، (قان تسي)، و(ده قه). تبلغ مساحتها 8674.7 كيلومتر مربع. وتتكون المحافظة من 4 مناطق وبلدة واحدة و23 بلدة، وخمسة أعراق، ويبلغ عدد سكانها 39332 نسمة، منهم 82.34% من التبتيين. يقع مقر المحافظة في بلدة (رو لونغ)، على بعد 475 كيلومتراً من (كانغدينغ).»

.indd 70-71 2025-11-27 10:55:49

يجب أن تتذكر أن (دا جيان لو) التي ورد ذكرها مراراً في الكتاب السابق هي اليوم (كانغدينغ)، عاصمة ولاية (قان تسي).

في اليوم الذي وصلت فيه إلى (شين لونغ)، سافرت صباحاً من (تشنغدو) إلى (كانغدينغ). وعندما وصلت إلى مطار (كانغدينغ)، اكتشفت أن أمتعتي لم تصل. أكد لي موظفو المطار أنهم سيضمنون تسليمها في غضون ثلاثة أيام إلى أي مكان أذهب إليه في (قان تسي). استقبلني الكاتب المحلي (قه رونغ تشوي مي) في المطار، وذهبنا معاً في رحلة استكشافية، وتوقفنا واسترحنا، ووصلنا إلى (شين لونغ) في يومين. في المساء، اتصل بي سائق حافلة من المحطة، ليخبرني أن أمتعتي قد وصلت. هذا يظهر أن النقل اليوم أسهل بكثير من الصعوبات التي واجهها (تشينغ فو) ورفاقه في حملة (تشان دوي).

بمجرد وصول الأمتعة، تمكنت من تغيير ملابسي وغسلها، وقرأت السجلات الجديدة للمحافظة.

هذه المرة، قرأت عن الماضي. في عام 1701، أي العام الأربعين من حكم الإمبراطور (كانغشي)، «استسلم» شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، (تسه لينغ قونغ بو)، لبلاط (تشينغ)، وحصل على ختم مكتب التهدئة والأمن، وبتبع ولاية (يا تشو) في سيتشوان، وكان يحكم 600 عائلة. في العام السادس من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، تم استدراج وقتل (تسه لينغ قونغ بو) من قبل القائد الميداني (قاو فن تشي) من (لي يا ينغ)، بسبب انخراطه وتسامحه مع «جيا با». أثار هذا الأمر مقاومة السكان المحليين في (تشان دوي)، الذين قتلوا أكثر من مائتين جندي من جيش (تشينغ)، وهرب (قاو فن تشي). في العام الثامن من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، أرسل بلاط (تشينغ) نائب القائد العام (ما لينغ تشو) على رأس أكثر من عشرة آلاف جندي من قوات (الهان) والقوات المحلية[1] لقمع التمرد، لكنهم عجزوا عن عبور نهر (يالونغ)، ولم يتمكنوا من الوصول إلى قلب (تشان دوي) السفلى الواقعة على الضفة الغربية، وعادوا دون نجاح.

بعد أكثر من عشر سنوات، نزل سكان (تشان دوي) السفلى جنوباً إلى الطريق الرئيسي بين (لي تانغ) وسيتشوان والتبت وهاجموا الجنود المتناوبين على الحامية ونهبوا ممتلكاتهم. فأمر القائد الأعلى للجيش في سيتشوان شيخ القبيلة (بان قون)، ابن (تسه لينغ قونغ بو)، بتسليم «جيا با» وإعادة الممتلكات المنهوبة، لكنه رفض. عندها، أصدر الإمبراطور (تشيان لونغ) أمراً بإرسال قوات لقمع التمرد. لقد رويت معظم القصة، ولكن إذا كان الأمر قد انتهى بنصر سهل، وأصبحت (تشان دوي) «زاوية صغيرة» مسالمة، وتخلت عن عاداتها السيئة، لما كان هذا الكتاب يستحق الكتابة.

1 قوات (الهان) والقوات المحلية: في نظام الجيش خلال عهد سلالة (تشينغ)، كان الجيش الوطني يتكون بشكل أساسي من قوات الرايات وقوات الكتائب الخضراء. كانت قوات الرايات هي قوات الرايات الثمان، وكان أفرادها في الغالب من عرقية المانشو أو المغول. أما قوات (الهان)، فكانت هي قوات الكتائب الخضراء، وكان أفرادها في الغالب من قومية الهان، ولذلك سُموا بـ قوات الهان. إلى جانب هذين النوعين من نظام القوات، كانت هناك طريقة أخرى وهي تجنيد المدنيين في مناطق شيوخ القبائل من الأقليات العرقية في الجنوب الغربي، حيث كان الأفراد يعيشون كمدنيين في الأوقات العادية ويتحولون إلى جنود قوات شيوخ القبائل في أوقات الحرب، ويُطلق عليهم اسم القوات المحلية. خلال حكم سلالة (تشينغ)، تم تجنيد قوات شيوخ القبائل التبتية في سيتشوان للمشاركة في العديد من الحروب: إخماد الإضطرابات الداخلية، مثل تمردات (جين تشوان) الكبرى والصغرى؛ ومقاومة الغزو الأجنبي، مثل المقاومة مرتين لغزو النيباليين، والحرب للدفاع عن الحدود التبتية؛ والحرب للدفاع عن (تشجيانغ) خلال حرب الأفيون، وغيرها.

خلال حكم سلالة (تشينغ)، تحتوي المصادر التاريخية المتعلقة بالمناطق التبتية في سيتشوان على العديد من السجلات عن عصابات «جيا با». جميعها تذكر أن عصابات «جيا با» قامت بنهب الوثائق والممتلكات الحكومية على الطرق الرئيسية، بل وحتى نهب الأدوات الدينية والتحف الثمينة التي منحها البلاط الإمبراطوري للدالاي لاما. عندها، كان البلاط يأمر شيخ القبيلة في المنطقة التي وقعت فيها السرقة بتسليم أفراد العصابة. وإذا لم يتمكن من تسليمهم، فإنه يعتبر متواطئاً معهم. في معظم الحالات، كانت هذه الأمور تنتهي دون أي نتيجة بعد تبادل المراسلات. ونادراً ما كانت تحدث حملات عسكرية كبيرة مثل تلك التي حدثت في عهد (تشيان لونغ) بناءً على هذا السبب، ولكن من أغنية «الفارس الجوال» التي ذكرتها سابقاً، يبدو أن هذه العصابات في كثير من الأحيان لم تكن تضع شيوخ القبائل في اعتبارها.

كان لدى عصابات «جيا با» قاعدة أخرى، وهي أنها لا تقوم بالنهب في مناطقها الأصلية.

جميع المناطق التي تظهر فيها عصابات «جيا با» هي مناطق جبلية وباردة، والإنتاجية فيها منخفضة للغاية، بينما يتحمل السكان ضرائب عينية وأعمالاً شاقة دون مقابل. وهكذا، أصبح النهب في تلك المناطق طريقة إنتاج متوارثة، أو بالأحرى، وسيلة لتعويض نقص الإنتاج. خلال حكم سلالة (تشينغ)، كانت المناطق التبتية في سيتشوان تعاني دائماً من انتشار عصابات «جيا با»، ولكن يبدو أن لا البلاط الإمبراطوري ولا شيوخ القبائل المحليين فكروا في اتخاذ إجراءات أساسية لزيادة الإنتاجية وتخفيف الأعباء عن السكان، وهو الإجراء الوحيد الذي يمكن أن يقضي على ظاهرة «جيا با».

أحياناً، كانت عصابات «جيا با» تُنظم وتُوجه من قبل شيوخ القبائل المحليين.

وفي أحيان أخرى، لم يكن شيوخ القبائل أنفسهم قادرين على التعامل مع مضايقات عصابات «جيا با». ولكن بمجرد ظهورهم، كان البلاط يوجه اللوم إلى شيوخ القبائل، وكانت طريقة التعامل معهم بسيطة جداً.

.indd 72-73 2025-11-27 10:55:49

تداعيات (تشان دوي)

كما ذكرت سابقاً، على الرغم من أن الحملة العسكرية على (تشان دوي) شهدت تقلبات، إلا أنها انتهت بالنصر. وبعد تقييم الإنجازات وتحديد العقوبات، كان هناك من تمت ترقيتهم، ومن تم عزلهم، بالإضافة إلى بعض الإجراءات اللاحقة. عندما كان الإمبراطور (تشيان لونغ) يقرأ المذكرات عن صعوبات الحرب، لم يكن فقط بسبب التضاريس الوعرة، والطباع العنيفة للسكان، بل إن أبراج المراقبة التي استخدمها السكان المحليون للمقاومة قد تركت انطباعاً عميقاً لديه.

بعد انتهاء الحرب، أصدر مرسوماً عدة مرات، جاء فيه: «تعتمد جماعات البرابرة على أبراج المراقبة للاحتماء، وقد كان هجوم جيشنا هذه المرة مرهقًا جدًا... ... أرسل رسالة أخرى إلى (تشينغ فو) حول كيفية منع بناء أبراج مراقبة أخرى، وفي نفس الوقت تتمكن جماعات البرابرة من العيش بأمان ومزاولة أعمالهم، ينبغي دراسة أوضاع المنطقة بعناية ، والتعامل مع الوضع بحكمة، لضمان السلام الدائم.»

قدم (تشينغ فو) مذكرة بـ»العديد من الإجراءات اللاحقة»، وإحداها بعنوان «وضع المحظورات لمنع التمرد»، والتي تحدثت تحديداً عن أبراج المراقبة: «كان (بان قون) يعتمد على أبراج المراقبة القوية التي يبلغ ارتفاعها سبعة أو ثمانية أمتار، والتي تحتوي على العديد من ثقوب الرصاص، ويستخدمها للدفاع والهجوم. لقد أصدرنا الآن أوامر بتدميرها، مع الإبقاء على أبراج الإقامة فقط». «في الشمال الغربي، تُبنى المنازل من الحجارة، وتسعى الأبراج التي تُستخدم للإقامة فقط بـ»أبراج الإقامة». أما الأبراج التي تحتوي على ثقوب رصاص متعددة ويصل ارتفاعها إلى سبعة أو ثمانية طوابق فتسمى «أبراج القتال». وهذا شائع بين جميع شيوخ القبائل، ولكنه كان منتشراً بشكل خاص في (تشان دوي). أطلب أن يتم إصدار أمر إلى شيوخ القبائل المعنيين بفحصها وتدميرها بشكل تدريجي كل عام. وفي المستقبل، يجب ألا يزيد ارتفاع أبراج المراقبة الجديدة عن ثلاثة طوابق.»

هذه الأبراج ستستمر في إزعاج الإمبراطور (تشيان لونغ)، ولكن ليس في (تشان دوي)، بل في منطقة (جين تشوان) الكبرى والصغيرة في مسقط رأسي. حتى إنه أمر لاحقاً بنقل أسرى الحرب من (جين تشوان) الكبرى إلى (شيانغ شان) في بكين، وبناء أبراج مراقبة لتدريب قوات (تشينغ) على تكتيكات الهجوم، ثم إرسالهم لمسافة آلاف الأميال إلى جبال ووديان سيتشوان العميقة في الخطوط الأمامية لـ»قمع البرابرة». اليوم، عندما زرت ساحة معركة (تشان دوي) القديمة، لم أجد أي من أبراج القتال السابقة، ولكن السكان المحليين لا يزالون يعيشون في منازلهم التقليدية المكونة من طابقين أو ثلاثة طوابق، أو ما يسمى في المصادر التاريخية «أبراج الإقامة». في ذلك اليوم، نزلت من الجبال العالية على الضفة الغربية لنهر (يالونغ)، ورأيت على مرتفع في منتصف الجبل عدة نساء يقمن بفصل حبوب الشعير عن سنابله باستخدام عصا في الطابق الثاني من «برج الإقامة»، وكانت أصوات العصي مختلطة بأغانيهن. جلست هناك، وكانت خلفي قمم جبلية مغطاة بالثلوج، وفي الأسفل كان النهر يلتف ويتعرج، والسماء كانت واسعة، مما جعلني أشعر أنني في زمن ومكان آخر.

بعد كل هذه الأحاديث الجانبية، دعونا نعود لنرى كيف واصل (تشينغ فو) ورفاقه «التعامل مع ما بعد المعركة» في (تشان دوي).

بعد فترة وجيزة، تم اكتشاف أن «القائد المساعد (مان كانغ) والقائد الميداني (سون هوانغ) زوروا إنجازات عسكرية، وأن القائد الميداني (يانغ تشي تشي) تعرض معسكره للنهب من قبل اللصوص»، بالإضافة إلى أن القائد (قو جيو قاو) فقد مدفعه في المعركة، وهؤلاء جميعهم يجب «عزلهم بسبب الإبلاغ الكاذب والإهمال».

كان رأي الإمبراطور: «وفقاً للقانون العسكري، يجب إعدامهم في نفس المنطقة، فهذا هو الطريق الصحيح للقيادة العسكرية.»

أما الإجراء اللاحق الأكثر أهمية، فهو «تقسيم مناطق (تشان دوي) ومكافأة المسؤولين، ويجب منحهم ألقاباً لضمان السيطرة».

تم السماح لـ(كن تشو)، الذي كان من المفترض أن يرث منصب شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، بتولي منصب «حاكم». أما شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى الذي تمرد لجيلين، فقد تم عزله، وتعيين (إي مو دينغ) كـ»حاكم» بدلاً منه. بالإضافة إلى ذلك، تم تعيين العشرات من الأشخاص في مناصب «قائد ألف جندي محلي» و»قائد مئة جندي محلي». في مناطق الأقليات، كان «منح العديد من الألقاب» يعني «تقسيم نفوذهم»، وذلك لمنع أي طرف من أن يصبح قوياً جداً ويصعب السيطرة عليه.

بعد تحقيق النصر، انسحبت القوات تدريجياً، وتوقفت أصوات المدافع، واختفى دخان المعركة، وعاد السكان الذين فروا إلى ديارهم التي دمرتها الحرب.

ما الذي تغير في منطقة (تشان دوي) بعد هذه الحرب الكبيرة؟ لم يتغير شيء سوى أن عدد السكان انخفض، ودُمرت العديد من المنازل والقرى. وبقي النظام الاجتماعي كما هو. فالأرض والناس لا يزالون يتبعون شيوخ القبائل، والقادة المحليين، والقادة العسكريين، ويجب على الناس أن يزرعوا الأرض لكسب لقمة العيش، والأرض كلها ملك لشيوخ القبائل. وبمجرد أن يزرعوا، يجب عليهم دفع الضرائب وأداء أعمال شاقة دون مقابل، ولا يزال اللاما في المعابد يسيطرون على حياتهم الروحية. أما الطرق التي تم توسيعها بسبب تقدم الجيش، فقد ابتلعتها الأدغال تدريجياً، وأصبحت هذه المنطقة منسية مرة أخرى. وقد قال الإمبراطور سابقاً: «أرى أن (تشان دوي) ليست سوى مجموعة صغيرة من الأوغاد، وحتى لو استولينا على كامل أراضيهم، فلن يكون هناك سبب لتحويلها إلى محافظة.» أي أن البلاط الإمبراطوري يحكم هذه المناطق، وإذا لم يطع الزعماء المحليون الأوامر الإمبراطورية، فسيرسل قواته لقمعهم، ولكنه لا يخطط لتغيير أي شيء بعد القمع. هذا سؤال لم يسأله أحد من قبل، إذا لم تكن تخطط لتغيير أي شيء، فما الفائدة من كل هذا الجهد والإنفاق على الناس؟

.indd 74-75 2025-11-27 10:55:49

بقيت المنطقة بعد الحرب في حالة من الهمجية: لم ينتشر فيها التعليم، ولم تتغير أو تتحسن طرق الإنتاج.

كان شيوخ القبائل لا يبعدون فقط عن العاصمة بكين، بل عن مقاطعة سيتشوان ومدينة (يا تشو)، وكان إرسال رسالة قصيرة أو خبر يستغرق أكثر من نصف شهر، مما يعطيهم شعوراً بالبعد عن كل شيء. ونتيجة لذلك، كانت الصراعات تندلع باستمرار بين شيوخ القبائل، حيث يسيطر الأقوى على الضعيف، والكبير على الصغير. كان «منح العديد من الألقاب» مجرد تقسيم للمنطقة إلى أجزاء صغيرة. أما بالنسبة للسكان، فكان عليهم الاستمرار في الاعتماد على عصابات «جيا با» لتوفير ما يحتاجونه من سبل العيش. وبالنسبة لشيوخ القبائل، وبسبب انخفاض الإنتاجية وندرة السكان، لم يتمكنوا من جمع الثروات في أراضيهم، ولتعزيز قوتهم، لم يتبق لهم سوى غزو جيرانهم، والاستيلاء على أراضيهم، ونهب ممتلكاتهم.

لذلك، خلال حكم سلالة (تشينغ)، كانت مناطق القبائل التبتية في سيتشوان تعاني من الاضطرابات المستمرة، والتي كان سببها دائماً إما أن يرتكب السكان المحليون جرائم بصفتهم «جيا با»، أو أن يتقاتل شيوخ القبائل فيما بينهم على السكان والأراضي.

وهذا ما حدث، فبعد انتهاء حرب (تشان دوي) وانسحاب الجيش، قام شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، (إي مو دينغ)، الذي تم تعيينه حديثاً من قبل البلاط بسبب مساعدته للقوات، بمهاجمة شيخ قبيلة (تشونغ شي) بالقرب من (لي تانغ). كان السبب هو العداوة القديمة بينهما. كان (تشونغ شي) شيخ قبيلة صغير، وقوته ضعيفة. وهذه المرة، استغل (إي مو دينغ) منصب «شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى» الذي منحه إياه البلاط، وأرسل رجاله لمهاجمة أراضي شيخ قبيلة (تشونغ شي)، وقاموا بالنهب، ثم قتلوه.

في مواجهة هذا الموقف، لم يكن أمام البلاط الإمبراطوري خيار سوى التغاضي عنه وتجاهله.

كان هذا في العام الثاني عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، وكان الإمبراطور لا يزال يهتم بأمور ما بعد معركة (تشان دوي). وفي شهر مارس، اندلعت اضطرابات جديدة في منطقة (جين تشوان) الكبرى، وهي منطقة أخرى في سيتشوان تقع على ضفاف نهر عميق. قدم الحاكم الإقليمي (جي شان) مذكرة قال فيها: «قام شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى، (شوو لوو بن)، بالاستيلاء على أراضي شيخ قبيلة (غه بو شي زا)، وبدأت الأعمال العدائية بينهما، كما قام بإغواء واغتصاب ختم شيخ قبيلة (جين تشوان) الصغيرة، (تسه وانغ)، وهو ابن أخيه.» كانت حدود أراضي شيوخ القبائل، وكذلك أختامهم، محددة وممنوحة من قبل الحكومة المركزية لسلالة (تشينغ). هذا التصرف من شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى كان أكثر خطورة من «تسامح» شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى مع عصابات «جيا با». وتذكيراً بالمتاعب التي واجهتها حملة (تشان دوي) التي انتهت للتو، وتكاليفها الباهظة، لم يكن (تشيان لونغ) يرغب في بدء حرب أخرى، فأمر كبار المسؤولين في سيتشوان، مثل (تشينغ فو) و(جي شان)، بتقديم النصح والتحذير لشيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى، ولكن لم يكن لذلك أي تأثير. وفي النهاية، ولمواكبة نظام البلاد وهيبة البلاط، لم يكن أمامهم خيار سوى إطلاق جيش لمعاقبة الجاني.

في الأصل، كان الإمبراطور (تشيان لونغ) قد عين (تشانغ قوانغ سي) ليخلفه كحاكم عام على سيتشوان و(شانشي)، وكان ينوي إعادة (تشينغ فو) ليعمل في دوائر الحكومة المركزية، ولكن في هذا الوقت، أمره بالبقاء في سيتشوان «لانتهاز فرصة قمع التمرد»، و«لا داعي للإسراع في العودة إلى العاصمة.»

.indd 76-77 2025-11-27 10:55:49

اندلاع فوضى جديدة فيما لم تنتهِ الفوضى القديمة بعد

بينما كان الإمبراطور (تشيان لونغ) يخطط للحملة العسكرية على شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى، لم ينس قضية (تشان دوي).

أصدر أمراً للحاكم العام الجديد لسيتشوان و(شانشي)، (تشانغ قوانغ سي)، جاء فيه: «في السابق، قدم المستشار الأكبر (تشينغ فو) مذكرة قال فيها: ‹(بان قون) وعائلته و(إي مو لاو دينغ) و(جيانغ تسوه تاي) قد احترقوا حتى الموت معاً›، وما إلى ذلك، ولكن التفاصيل مشبوهة جداً.» وأمره «بالتحقق من الأمر بالتفصيل عندما يصل إلى سيتشوان.» وسبب هذا الإجراء هو أن القائد المساعد (يوان شي لين)، الذي شارك في معركة (تشان دوي)، وصل إلى بكين. وكان هذا القائد المساعد هو من أشعل النار في معسكر (ني ري)، فأرسل الإمبراطور مسؤولاً كبيراً في منصب مستشار أكبر لاستجواب (يوان شي لين) بنفسه، وسأله ما إذا كان (بان قون) قد احترق حقاً حتى الموت في معسكر (ني ري). أجاب (يوان شي لين): «إن (جيانغ تسوه تاي) من معسكر (ني ري)، الذي أفاد (تشينغ فو) بأنه احترق مع (بان قون)، لم يحترق حتى الموت. وبما أن (جيانغ تسوه تاي) كان معهم، ولم يمت، فمن المرجح أن (بان قون) لم يمت أيضاً.»

في شهر مايو، أمر الإمبراطور (تشيان لونغ) (تشينغ فو) بالانتقال إلى (ونتشوان) القريبة من (جين تشوان) الكبرى. وتبع نائب القائد (ما ليانغ تشو) الحملة على (جين تشوان)، وتمت ترقيته إلى قائد عام. كما شارك القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) في الحملة على (جين تشوان) أيضاً.

في شهر أغسطس، وصل تقرير من (تشانغ قوانغ سي) إلى الإمبراطور. لم يكن يتحدث عن معركة (جين تشوان)، بل عن مكان وجود (بان قون) الذي أمره الإمبراطور بالتحقيق فيه سراً، جاء فيه: «بعد وصولي إلى معسكر الجيش، قمت بالتحقيق في ما إذا كان (بان قون) قد احترق حتى الموت. سمعت أن هناك جنديين تابعين لشيخ قبيلة (شي شي تشوو) و(با تا إير)، هربا من معسكر (بان قون)، فاستدعيتهما إلى المعسكر واستجوبتهما بدقة. أجابوا: ‹لقد هرب (بان قون) من معسكر (رو لانغ)، وذهب للاختباء في معسكر خاله (شا جيا بانغ). وعندما قام الجيش الكبير بحرق معسكر (ني ري)، لم يكن (بان قون) موجوداً فيه.› وتلقيت أيضاً رسالة من القائد (وو شنغ موو) تقول: ‹هناك جندي استسلم حديثاً يدعى (وانغ هواي شين)، سمع في (لي تانغ) أيضاً أن (بان قون) لم يمت، ويقول إنه موجود الآن في (جين تشوان).› وهكذا، أصبح من الواضح أن (بان قون) لم يحترق حتى الموت. وسأواصل التحقيق سراً بشتى الطرق للتأكد من مكانه الحقيقي، ثم سأقدم تقريراً آخر.»

أصدر الإمبراطور مرسوماً: «عند قراءة هذا، يتأكد أن (بان قون) لم يمت. إذا لم يمت، فأين يذهب غير (جين تشوان)؟ سيكون إنجازاً واحداً يحقق هدفين، وأنا أعتمد عليك في ذلك.»

أثناء إبلاغ (تشانغ قوانغ سي) الإمبراطور بالوضع، عبر أيضاً عن مخاوفه، وخوفه من أن يغضب منه (تشينغ فو) الذي كان أعلى منه في المنصب وأكثر سلطة. فقال له الإمبراطور: «أما بالنسبة لجميع المخاوف، وخشيتك من إثارة العداء، فلا داعي لذلك. اجتهد!» أي أن هذه المهمة من عندي، فلا تخف من إغضاب أي شخص، واستمر في العمل الجيد!

أبلغ الجندي (وانغ هواي شين) القادم من (لي تانغ) عن حالة مفادها أن (وانغ جيه) الذي كان في الأصل قائد حراسة محلي تحت إمرة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، عيّن من قبل (تشينغ فو)، وفي نهاية حرب (تشان دوي)، تم منحه لقب شيخ قبيلة (لي تانغ) تقديرًا لجهوده. وعندما تولى (وانغ جيه) منصبه شيخ القبيلة، «أرسل (بان قون) رجالاً إلى (وانغ جيه) لتقديم وشاح الـ(هادا) يُعرب عن تهانيه.» كما أفاد الجندي المحلي (شي شي تشوو) في إفادته: «توسط (وانغ جيه) لـ(إي مو دينغ)، شقيق (بان قون)، ليستسلم، وأمر (بان قون) بالهروب إلى مكان آخر.» ونتذكر أيضاً أنه عندما كان القتال في حالة جمود، وضع (تشينغ فو) خطة، وهي أن يضمن (وانغ جيه) إطلاق سراح السجين (قان سونغ جيه) من سجن (دا جيان لو)، ليعود إلى (تشان دوي) ويتعاون مع (إي مو دينغ)، الأخ غير الشقيق لـ(بان قون)، لمساعدة القوات الحكومية من الداخل والخارج، وهي الخطة الذي وافق عليها الإمبراطور (تشيان لونغ) أيضًا. وبعد الحرب، قام البلاط الإمبراطوري بتعيين (إي مو دينغ)، شقيق (بان قون) منصب شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى. عندما علم الإمبراطور بهذا الخبر، لم يتمالك نفسه من الغضب: «إذاً (وانغ جيه) هو شخص ماكر ومحتال، فهو من ناحية يظهر أنه يساعدنا، ومن ناحية أخرى لا يريد أن يغضب (بان قون) منه. هذه هي الحيلة الماكرة التي مكنت اثنين من ‹البرابرة› الصغار من جني الفوائد. و(تشينغ فو) وقع في فخهم دون أن يدري. وفي المستقبل، يجب اتخاذ إجراء مختلف لمعالجة أمر هذا الشخص.» وفي هذا الوقت، كان شيخ قبيلة (لي تانغ) الجديد، (وانغ جيه)، يقود قواته للمشاركة في حملة (جين تشوان)، لذلك كان على الإمبراطور أن يتمالك أعصابه، وأمر (تشانغ قوانغ سي)، قائلاً: «بما أن (وانغ جيه) الآن في الجبهة، فعليك أن تنتبه جيداً لكل شيء، ولا تكشف عن أي خطة له، حتى لا تثير شكه. وبالأخص، يجب ألا يُعهد إليه أمر تعقب (بان قون) على الإطلاق.»

.indd 78-79 2025-11-27 10:55:50

في هذا الوقت، كان الإمبراطور قد أمر (تشينغ فو) بالعودة إلى العاصمة.

في الطريق، قدم (تشينغ فو) مذكرة قال فيها: «وفقاً للمرسوم، غادرت معسكر الجيش في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس للعودة إلى العاصمة، وقد وصلت الآن إلى عاصمة مقاطعة (شانشي).»

رد الإمبراطور بلهجة باردة: «كان عليك أن تقدم تقريراً فوراً عندما غادرت. الآن، بعد أن وصلت إلى (شيآن)، تقدم التقرير، هذا متأخر جداً.» ألا تعتقد أن هذا التقرير جاء متأخراً بعض الشيء؟

في شهر أكتوبر، تلقى الإمبراطور أخباراً جديدة عن (بان قون). لم يكن (بان قون) في (جين تشوان)، بل كان لا يزال في وكر عصابته القديم، (رو لانغ). ولم يكتفِ بعدم إخفاء آثاره، بل أرسل قوات لمهاجمة شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، (كن تشو)، الذي كان قد ساعد قوات (تشينغ). ولكن لا حيلة أمامه، «فالآن، يجب أن نركز كل جهودنا على حملة (جين تشوان) الكبرى، ولا يمكننا تقسيم القوات. وعندما تنتهي قضية (جين تشوان) في المستقبل، يجب أن نرسل على الفور قواتنا إلى (رو لانغ) للقضاء على التمرد، ولا يمكننا التأخر.» وعلاوة على ذلك، كان هناك مسؤول شارك في حرب (تشان دوي) ويشارك الآن في حملة (جين تشوان)، «القائد الميداني (لو يو تشاو) كان أيضاً من المسؤولين عن القضية في العام الماضي، أخشى أن يكشف الحقيقة ويحاول التغطية على الأمر.» وبالطبع، كان هناك (وانغ جيه)، «بما أن (وانغ جيه) كان عيناً لهم وأذناً، فإن (لو يو تشاو)، بصفته مسؤولاً في الجيش، وهو شخص من الداخل، يجرؤ على التواطؤ معه، وهذا أكثر خطورة. وعندما نتقدم بالجيش، يجب أن يتم استدعاء (لو يو تشاو) و(وانغ جيه) مسبقاً إلى معسكر الجيش، واستجوابهما بدقة، وعندها يمكننا الحصول على موقع (بان قون) الحقيقي، وإثبات إدانته.»

في هذا الوقت، كانت حملة (جين تشوان) الكبرى، مثل معركة (تشان دوي)، قد بدأت بسلاسة في البداية، ولكنها سرعان ما وصلت إلى طريق مسدود. بينما كان الإمبراطور يخطط لكيفية حل المأزق في الجبهة، كان لا يزال يفكر في قضية (تشان دوي). لقد أصبح مقتنعاً بأن شيخ قبيلة (جين تشوان) تجرأ على التمرد لأن حرب (تشان دوي) لم تكن ناجحة. واعتقد أن (بان قون) لم يمت، وأن مجموعة من كبار المسؤولين كانوا يتواطئون للاحتيال عليه. لذا، فإن الجرائم المختلفة للقائد العام (يوان شي بي)، الذي تم عزله من منصبه وحُكم عليه بالإعدام المؤجل من قبل وزارة العدل، ربما كانت ملفقة من قبل هذه المجموعة، فأصدر أمراً للمسؤولين المعنيين بتأجيل الحكم. وفي المستقبل «سيتم مواجهة (لي تشي تسوي) مع (يوان شي بي)، وحينها ستتضح إنجازاتهم وأخطاؤهم.»

وفي الجهة الأخرى، كان (جي شان) الذي لم يكن على علم بما يجري، يقدم مذكرة، يطلب فيها تأمين راتب (وانغ جيه) الذي تم تعيينه حديثاً كشيخ قبيلة: «يجب أن يتم صرف ٢٩٤ تايل و٥ تشيان من راتب شيخ القبيلة، لـ(وانغ جيه).»

بعد المناقشة ردت وزارة المالية: «يجب الموافقة على الطلب.»

في شهر نوفمبر، قدم الحاكم العام لسيتشوان و(شانشي)، (تشانغ قوانغ سي)، الذي كان في جبهة (جين تشوان) الكبرى، تقريراً آخر عن قضية (تشان دوي): «لقد وجدت أن حملة (تشان دوي) في العام الماضي، لم تتم كما أفاد (تشينغ فو)، حيث لم يتم تدمير أبراج القتال وتقسيم الأرض. و(بان قون) لم يجد مكاناً للاختباء، لذا هرب إلى مكان آخر. لقد وجدت أن (لي تشي تسوي) في بداية وصوله إلى منطقة اللصوص، استولى على أكثر من عشرة أبراج ومعسكرات، ولكن بعد أن تجاوزوا (رو لانغ)، قاموا فقط بحرق برجين فارغين، وحاصروا معسكراً واحداً وهو (ني ري)، والباقي بقي سليماً كما كان. أما بالنسبة لاقتراح تقسيم الأرض، فإن شيوخ القبائل لم يجرؤوا على تولي أي أراض، لأن (بان قون) لا يزال موجوداً، لذا بقيت جميع الأراضي تحت سيطرة (بان قون).» ثم تحدث عن (وانغ جيه)، «لقد وجدت أن (وانغ جيه) ليس سوى شخص ماكر وذكي، وبسبب معرفته الجيدة بوضع القبائل، فهو يعتبر من أكثر الأشخاص فهماً بين شيوخ القبائل، ولهذا السبب وثق به (تشينغ فو) واعتمد عليه.»

كان (تشانغ قوانغ سي) يواجه صعوبات في قيادة حملة (جين تشوان)، وتعرض للمساءلة مراراً من قبل الإمبراطور. وبما أن قضية (تشان دوي) قيد التحقيق، فقد استغل الفرصة لإخفاء فشله، وقام أخيراً باستدعاء (وانغ جيه) واستجوابه. اعترف (وانغ جيه): «في اليوم الثالث عشر من شهر أبريل، عبرنا النهر، ووصلنا إلى (رو لانغ) في منتصف الليل، ووجدنا أن المعسكر فارغ. كان (بان قون) قد هرب بالفعل، وعندما سألت (إي مو دينغ)، قال إن (بان قون) رأى من الضفة الأخرى أننا نحرق المعسكر، فخاف وهرب.» عند سماع هذا، لا بد أن الإمبراطور قد ابتسم ببرود في قصره. إذن، هذه هي الطريقة التي «اقتحم» بها (تشينغ فو) ورفاقه معسكر (رو لانغ) الكبير!

تلقى الإمبراطور أخباراً أخرى.

قام القائد الميداني (لو يو تشاو) و(وانغ جيه) بتهديد (بان قون) «بعدم الظهور لمدة ثلاث سنوات»، ولكن (بان قون) لم ينوِ أن يختفي، بل أرسل قوات على الفور للانتقام من شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، (كن تشو)، الذي كان قد ساعد قوات (تشينغ). وعندها، أرسل (وانغ جيه) رسالة إليه «يطلب منه الاختفاء، حتى لا يتورط في قضية (جين تشوان) عندما تنتهي.»

في شهر ديسمبر، قدم (تشانغ قوانغ سي) تقريراً آخر بفضل معلومات جديدة من (وانغ جيه): «في شهر يونيو من العام الماضي، بعد أن انسحب القائد العام، بينما كان القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) لا يزال في (لا قاي)، سمعت أن (بان قون) لم يحترق حتى الموت، ولكني لم أكن أعرف مكان اختبائه، فأبلغت القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) والقائد الميداني (لو يو تشاو). لاحقاً، عندما انسحبنا إلى قمة (كوانغ يو)، علمت أن (بان قون) كان يختبئ في كهف في معسكر (كونغ تشي). وكان في الكهف ماء وحطب، ويمكنه البقاء هناك لفترة طويلة. وأبلغت (سونغ تسونغ تشانغ) مرة أخرى. فسمع (سونغ تسونغ تشانغ) ذلك، وشعر بالخوف، وتنهد وقال: ‹ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟›» إذا كان هذا صحيحاً، فإن (وانغ جيه) ليس بالماكر الذي ظنه الإمبراطور، بل كان القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ) وآخرون هم المتكاسلون المهملون.

.indd 80-81 2025-11-27 10:55:50

أصدر الإمبراطور مرسوماً: «أمره بأن يبلغنا بالحقيقة فوراً، دون أي تستر.»

بعد ذلك، قام بمراجعة سجلات الجبهة مرة أخرى، «فيما يتعلق بالإبلاغ الكاذب عن احتراقهم حتى الموت، بعد مراجعة السجلات، وجدت أن (تشينغ فو) رفض تقرير (لي تشي تسوي) الأصلي، فأضاف (لي تشي تسوي) ‹رأينا ثلاثة من اللصوص معلقين ومحترقين في الضوء، و(بان قون)، و(إي مو دينغ)، و(جيانغ تسوه تاي) قد احترقوا جميعاً حتى الموت›، ثم قدم (تشينغ فو) التقرير بناءً على ذلك.» وهذا يعني أن (تشينغ فو) لم يكن يهتم بالنتيجة الفعلية للمعركة، بل بمدى قوة الأدلة في التقرير. لا أعرف ما إذا كانت هذه ظاهرة شائعة في ذلك العصر. ولكن في الوقت الحاضر، فإن رؤساء العمل يرفضون التقارير ويعيدونها لكتابتها مجدداً، ولكن في معظم الأحيان، لا يكون الأمر متعلقاً بحياة أو موت الأشخاص، بل بالبيانات الإحصائية. وهذا يثبت أن (تشينغ فو)، القائد الأعلى لحرب (تشان دوي)، لم يكن مخدوعاً من قبل مرؤوسيه، بل كان على علم بالحقيقة وتواطأ معهم في الاحتيال.

عند هذه النقطة، أدرك الإمبراطور أخيراً أن ما يسمى بحرب (تشان دوي) كان مجرد تمثيلية كبيرة، أنفقوا عليها أموالاً حقيقية واستمرت لأكثر من نصف عام.

أصدر مرسوماً على الفور: «لقد تمت ترقية المستشار الأكبر (تشينغ فو) عدة مرات منذ عهد والدي»، أي أن الإمبراطور (يونغ تشنغ) قام بترقيته عدة مرات، «وشغل العديد من المناصب الوزارية، وعندما اعتليت العرش، عينته قائداً عاماً للجيش»، أي أنني أوليتك أهمية كبيرة. ولكن بعد أن انكشفت قضية (تشان دوي)، لا يمكنني حمايتك. «منذ أن قدم (تشانغ قوانغ سي) تقريره، وأنا أفكر في الأمر مراراً وتكراراً لعدة أيام.» من أعلى مسؤول في الدولة إلى أصغر مسؤول مثل القائد الميداني (لو يو تشاو)، لم يكن هناك من يعمل بجد من أجل البلاد، بل تواطؤوا جميعاً للاحتيال على الإمبراطور. بالطبع، لم ينم الإمبراطور لعدة ليال. «هل يمكن للبلاد أن تضمن عدم وجود حروب لمئات أو آلاف السنين؟ وإذا كان القادة العسكريون يخدعونها بهذا الشكل، فما الذي يتبقى؟»

«إن أقاربي ووزرائي القدامى يشاركون البلاد في أفراحها وأحزانها.» يا (تشينغ فو)، أنتم أيها الأقارب والوزراء، هذا البلد ملك لنا جميعاً، ونحن مجتمع مترابط! كيف يمكنكم فعل ذلك؟ كيف فعلتم ذلك؟! «لو فكر (تشينغ فو) في هذا الأمر، لما استطاع أن يسامح نفسه! فكيف يمكن لوزير كبير أن يتلقى هذا القدر من النعم من الدولة، ثم يتواطأ في مثل هذه الأمور العسكرية المهمة ويخدعها إلى هذا الحد! إذا قيل إنه صدقهم عن طريق الخطأ، أو أن الأمور في المناطق الحدودية يجب أن تنتهي بهذه الطريقة بعد حرب طويلة، فإن هذه الأمور لا ينبغي أن تُقدم في تقرير رسمي، بل يجب أن تُقدم في تقرير سري. ولكنه لم يقدم تقريراً حقيقياً على الإطلاق. والآن، بعد أن انكشفت كل الحقائق، ونظراً للقانون، حتى لو أردت أن أتساهل معه، فلا يمكنني ذلك. لذا، يتم عزل (تشينغ فو) من منصبه، ويُطلب منه البقاء في منزله في انتظار العقوبة.»

«يجب على كبار المستشارين العسكريين، ووزارة العدل، بالتعاون مع بعضهما البعض، التحقيق في تفاصيل هذه القضية مع (لي تشي تسوي) الذي هو الآن في السجن. وإذا كان هناك أي شيء يجب مساءلة (تشينغ فو) عنه، فيجب استجوابه أيضاً، والتحقق من كل نقطة، وتقديم الحكم النهائي وفقاً للقانون.»

وهناك أيضاً المبعوثان الإمبراطوريان اللذان تم إرسالهما إلى الجبهة، (بان دي) و(نو سان).

«في السابق، بسبب مشاركة (بان دي) و(نو سان) في حملة (تشان دوي)، وخدمتهما بإخلاص، حققا إنجازات. ولهذا السبب، أمرت بإحالة إنجازاتهما وخدماتهما إلى وزارة العدل، بما في ذلك الحراس الشخصيين مثل (قوان باي آ تانغ) وآخرين، للنظر في ترقيتهم. كما منحت (بان دي) نعمة خاصة بالسماح له بالخدمة أمام العرش... وعلى الرغم من أن (بان دي) و(نو سان) عملا مع (تشينغ فو)، فإنهما لم يكونا على دراية كاملة بالتضاريس المحلية، وهما يختلفان عن (تشينغ فو) و(لي تشي تسوي) اللذين كانا مسؤولين عن قيادة القوات. ومع ذلك، لم يتفحصا الوضع هناك، بل ذهبا إلى أبعد من ذلك، حيث زعما أن (بان قون) قد احترق حتى الموت، وتقدما بتقرير بتهور، وهذا غير لائق. وبما أن هذه القضية قد انكشفت، فإن الترقيات التي تمت الموافقة عليها لهما، ولحراسهما الشخصيين مثل (قوان باي آ تانغ) وآخرين، ستُبطل جميعها. ولا داعي لـ(بان دي) و(نو سان) للخدمة أمام العرش، بل يجب أن يخدما عند بوابة (تشيان تشينغ).»

أما الجنرالان (سونغ تسونغ تشانغ) و(ما ليانغ تشو)، فكانا يقاتلان بشدة في جبهة (جين تشوان). كان الإمبراطور قد أمر بنقل ضباط من نفس الرتبة من أماكن أخرى ليحلوا محلهما. ولكن من ذهب ليحل محلهما كان ضعيفاً في المعركة وغير كفء في القيادة، وكانت شجاعته وقدراته أقل من هذين الرجلين، لذلك لم يكن لديه خيار سوى تركهما يخدمان في الجبهة مؤقتاً، وعدم معاقبتهما في الوقت الحالي.

في هذا الوقت، كان (بان قون) يعيش حياة مريحة جداً في (تشان دوي).

أرسل (تشانغ قوانغ سي) لاما يدعى (يونغ تشونغ بان جي) ليتفقد (تشان دوي)، ورأى هذا اللاما بنفسه حالة (بان قون) المريحة، وأبلغ (تشانغ قوانغ سي)، الذي بدوره قدم تقريراً إلى الإمبراطور.

«لقد ذهب المسؤول المكلف بالتفتيش، وعلم أن (بان قون) يتربع على عرشه في (رو لانغ)، ولا يخشى أن يعلم أحد بذلك. كما أنه يتبادل الهدايا باستمرار مع شيوخ القبائل المجاورة مثل (ده قه)، و(هوو إر (قان تسي))، و(تشانغ قو)، و(كونغ سا)، و(ما شو)، و(تشو ووه). لقد وجدت أن شيوخ القبائل هؤلاء، قد شاركوا جميعاً في حملة (تشان دوي) في العام الماضي، وهم الآن يتواصلون مع (بان قون) مرة أخرى. إنهم لم ينقلبوا ويتبعوا العدو. فقبائل الحدود المجاورة، عندما يأمرها البلاط الإمبراطوري، فإنها تنضم إلى الجيش، وعندما تنتهي الحرب وتنسحب القوات، فإن الأعداء يعودون للعداوة، والأصدقاء يعودون للسلام. هذه هي عادات البرابرة.»

[redacted].indd 82-83 2025-11-27 10:55:50

نتذكر أنه عند انتهاء حرب (تشان دوي)، تدخل شخصيات كبيرة في التبت مثل الدالاي لاما، وطلبوا من الإمبراطور أن يعفو عن (بان قون)، بالإضافة إلى انسحاب القوات التبتية من (جيانغ كا) التي كانت تدعم الحرب من تلقاء نفسها، مما أثار شكوكاً كبيرة لدى الإمبراطور الذي اعتقد أن «من ليس من عرقنا، قلبه مختلف بالضرورة». ويبدو أن الاختلافات الثقافية والدينية كانت عقبة لا يمكن تجاوزها في بناء دولته الموحدة. في ذلك الوقت، لم يكن قد مضى سوى بضعة عقود على ضم التبت تحت حكم سلالة (تشينغ)، وقد اندلعت بالفعل العديد من الحروب. ففي عهد (كانغشي)، أرسل الإمبراطور ابنه على رأس جيش كبير في حملة عسكرية. وكان الهدف النهائي هو مساعدة طائفة الدالاي لاما والنبيل العلماني (بولوه ناي) ليصبحا القوة الأساسية الحاكمة في التبت، ولكن في حرب (تشان دوي) التي لم تكن تحت سيطرة التبت، كان تعاطفهم مع (بان قون) الذي ينتمي إلى نفس عرقهم وثقافتهم. ومن أجل الحفاظ على الاستقرار العام، علم الإمبراطور أنه لا يمكنه توبيخ الدالاي لاما و(بولوه ناي) بعمق بسبب هذا، لذا صب غضبه على الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (فوتشينغ). ربما كان (تشانغ قوانغ سي) يدرك تماماً هذه العقلية للإمبراطور، ولكنه كان هادئاً، ولهذا قال في مذكرته إن هذا «هو حال البرابرة»، و«الذين شاركوا في حملة (تشان دوي) في العام الماضي، يعودون الآن إلى التواصل مع (بان قون)، وهذا لا يعني أنهم انقلبوا عليه وأصبحوا معه». كان هذا الرأي هادئاً وموضوعياً.

وهذا الاستنتاج من (تشانغ قوانغ سي) كان له أساس واقعي آخر.

وفقاً لنظام شيوخ القبائل في سلالة (تشينغ)، كانت (لي تانغ) تتولى مكتب الإعلان والتهدئة، وهو منصب أعلى من شيخ قبيلة (تشونغ شي) وشيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى. ومن الناحية النظرية، يجب أن تخضع شيوخ القبائل هذه لحكم شيخ قبيلة (لي تانغ). بعد حرب (تشان دوي)، قام (تشينغ فو) بتخفيض رتبة شيخ القبيلة الأصلي إلى نائب، وعين (وانغ جيه) شيخ قبيلة رئيسي مكانه، ولكن شيوخ القبائل المحليين لم يقتنعوا بذلك، «وبسبب تعيين (وانغ جيه) في منصب رئيس مكتب الإعلان والتهدئة، أخذ أتباعه يتذمّرون وينتقدون الأمر.» بالإضافة إلى ذلك، كان (وانغ جيه) في هذا الوقت يقود القوات المحلية من (لي تانغ) للمشاركة مع الجيش الإمبراطوري في الحملة العسكرية على (دا جين تشوان)، فانتهز شيوخ القبائل والزعماء المحليون في منطقتي **(تشان دوي) و(لي تانغ)** الفرصة ليعودوا إلى حالة من **الفوضى واللاّنظام**، أي إلى ما يشبه **حالة اللاّحكومة**. إن هذا السلوك من شيوخ القبائل في المناطق التبتية هو أمر معتاد، ولكن الإمبراطور كان يعتبره إهانة لهيبة الدولة وسلطته، وكان يريد القضاء عليه بأي ثمن. ولكن لأنه لم يكن قادراً على إرسال قوات إلى كل مكان، فإنه كان يلوم مرؤوسيه دائماً. لم يكن لدى (تشانغ قوانغ سي) مثل هذه التوقعات، لذلك كان موقفه هادئاً، وقال: «إن طبيعة البرابرة سهلة الإثارة ويصعب ترويضها، والانتقام هو أمرهم المعتاد.» في الواقع، فإن ظهور عصابات «جيا با» كان أيضاً «أمراً معتاداً». فهذه المنطقة كانت ما تزال عند مستوى اجتماعي بدائي، وركوب الخيل والإغارة والثأر كانت جزءًا من عاداتهم الثقافية ونظرتهم البطولية للحياة. ولكي تتجاوز هذه البنية الاجتماعية ويتسارع تقدمها الحضاري، كان لا بد من إدخال ثقافة أكثر تطورًا ونظم إدارة أكثر تقدمًا. لكنّ سياسة شيوخ القبائل التي انتهجها بلاط (تشينغ) لم يكن هدفها النهوض بالمنطقة أو تحديثها، بل كانت غايتها كبح مظاهر الوحشية والفوضى في النظام القبلي التبتي، وذلك من خلال سياسة «كثرة الإقطاعات وتعدد الزعماء لتقاسم النفوذ» — أي تجزئة القوة الإقطاعية المحلية وحبس كل زعيم داخل حدوده الإدارية لمنعه من التوسع. غير أنّ أولئك شيوخ القبائل الذين حُبسوا فعليًا داخل إقطاعاتهم، وخاصة عامة الناس التابعين لهم الذين يعيشون في أراضيهم، لم ينالوا أي فائدة من هذا النظام، ولذلك فقد أصبح تمردهم على هذه القيود المفروضة أشبه بغريزة طبيعية لديهم.

.indd 84-85 2025-11-27 10:55:51

حرب (جين تشوان) تُحاكي حادثة (تشان دوي) القديمة

في هذا الوقت، بدت حرب (جين تشوان) وكأنها نسخة طبق الأصل من أحداث حرب (تشان دوي).

في بداية الحملة، كانت معنويات قوات (هان) والميليشيات المحلية عالية، ونجحوا في الاستيلاء على المعسكرات والأراضي، لكن هذه الانتصارات كانت في الأطراف فقط. وبمجرد اقترابهم من قلب أراضي شيخ قبيلة (جين تشوان)، أصبحت المقاومة أقوى، وأصبحت المعارك على المعسكرات والأبراج أكثر صعوبة. في النهاية، تراجعت المعنويات تدريجياً، وبدأ القادة في جميع المستويات بتبادل اللوم والشكوى، وأصبحت وتيرة التقدم أبطأ. وتوقفت الحرب، ودخلت في حالة من الجمود. ومن وقت لآخر، كانت القوات تتعرض لهجمات مضادة، وتتكبد خسائر فادحة، وتفقد المواقع الهامة التي تم الاستيلاء عليها بصعوبة. حتى (ما ليانغ تشو)، الذي كان أداؤه جيداً في حرب (تشان دوي)، تم اتهامه من قبل (تشانغ قوانغ سي) أمام الإمبراطور: «القائد العام (ما ليانغ تشو) لا يفكر في السعي لهزيمة العدو، بل هو جبان وغير كفء، وقام بسحب أكثر من خمسة آلاف جندي في يوم واحد. ونتيجة لذلك، فقد الكثير من المعدات العسكرية والمدافع. إنه رجل عجوز ولا فائدة منه، وبقاؤه في الجيش للتكفير عن ذنبه لا فائدة منه.» فأصدر الإمبراطور أمراً به»إحضار هذا الجنرال العجوز الذي يبلغ من العمر أكثر من ستين عاماً إلى العاصمة لمحاكمته.» «المحاكمة» تعني تحديد العقوبة التي يستحقها وفقاً لقوانين سلالة (تشينغ).

أما (سونغ تسونغ تشانغ)، فلم يكن هناك مفر من جريمته، وأصدر الإمبراطور أمراً: «القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ)، في السابق في (تشان دوي)، لم يقاتل بشجاعة لهزيمة العدو، بل قام بتزييف الحقائق والتستر عليها. ومنذ بداية حملة (جين تشوان) الكبرى، وعلى الرغم من التقارير التي تفيد ببعض الانتصارات، فإنه لا يزال لا يتقدم بشجاعة، وما زالت حيله في التستر كما كانت، والآن، أصبح مجرد قائد كسول ومضر بهيبة الجيش. لقد أصدرت أمراً لـ(تشانغ قوانغ سي) بإحضار (سونغ تسونغ تشانغ) أيضاً إلى العاصمة، حتى يتم استجوابه في قضية (تشان دوي).»

في هذه المرحلة، أصبحت حقيقة قيام القادة العسكريين، من الحاكم العام إلى القائد الأعلى للجيش إلى القائد العام في الخطوط الأمامية، بتزييف نتائج حرب حملة القمع على (تشان دوي) واضحة بشكل عام، وانتهى تحقيق (تشانغ قوانغ سي). بعد فترة وجيزة من إحضار (ما ليانغ تشو) و(سونغ تسونغ تشانغ) إلى العاصمة، توفي شيخ القبيلة (وانغ جيه)، الذي كان له علاقة بقضية (تشان دوي)، في المعسكر بسبب المرض. مع وضوح القضية، تغيرت نظرة الإمبراطور (تشيان لونغ) إلى (وانغ جيه)، ولم يعد مقتنعاً بأنه كان متواطئاً مع (بان قون). وفي هذا الصدد، قال الإمبراطور: «بسبب اعتقادي أن شيخ القبيلة (وانغ جيه) كان يتواصل سراً مع (بان قون)، وأن (تشينغ فو) قد خدع، فقد أمرت (تشانغ قوانغ سي) باستدعاء (وانغ جيه) إلى معسكر الجيش بسبب قضية أخرى، للتحقيق في مكان وجود (بان قون) وإثبات إدانته. والآن، وفقاً لتقرير (تشانغ قوانغ سي)، فإن الكلمات التي قالها (سونغ تسونغ تشانغ) في تقريره الأصلي بأن (بان قون) لم يحترق حتى الموت، جاءت جميعها من فم (وانغ جيه). وبالنظر إلى هذه التفاصيل، فإن (وانغ جيه) ليس جاسوساً مقرباً من (بان قون)، فإذا كان (وانغ جيه) ينوي حقاً إخفاء (بان قون)، فلماذا يكشف الحقيقة لـ(سونغ تسونغ تشانغ)! يجب أن نرسل أمراً سريعاً إلى (تشانغ قوانغ سي)، حتى لا يتم إلحاق الظلم بـ(وانغ جيه) لأنه صدر أمر مني بإثبات إدانته. وفي الوقت نفسه، يجب عليه الانتباه والتحقق، وإذا كان الشخص ليس ماكراً حقاً، ولا يزال يمكن الاستفادة منه، فيجب أن يبلغنا بذلك.»

لكن الإمبراطور تلقى تقريراً بأن (وانغ جيه) قد مات بالفعل في المعسكر بسبب المرض.

بعد ذلك، لم يَرِد في **"سجلات تشينغ الرسمية"** أيّ ذكرٍ ولو بكلمة واحدة عن **(وانغ جِيه)** وفي كتاب «مواد التاريخ والثقافة لولاية (قان تسي ((الجزء الثامن)، الذي أعدّه المؤتمر الاستشاري السياسي لولاية)قان تسي)، تضمَّن الباحث (قه‌لانغ‌جيه) في مقاله «نبذة عن شيوخ قبائل لي تانغ في جنوب كانغ» عرضًا دقيقًا ومتسلسلًا لأسماء وأعمال جميع من تولّوا منصب رئيس مكتب الإعلان والتهدئة في)لي تانغ) منذ منحه هذا اللقب في السنة السابعة من عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، غير أنه لم يذكر إطلاقًا اسم)وانغ جِيه(الذي تولّى منصب مكتب الإعلان والتهدئة لفترة وجيزة بعد حرب (تشان دوي)، وقد أشار فقط إلى أن شيخ القبيلة)آن بن)، الذي خُفِّضت رتبته إلى نائب رئيس مكتب الإعلان التهدئة في السنة الثالثة عشرة من عهد (تشيان لونغ)، قد أُعيد إلى منصبه الأصلي كرئيس لمكتب الإعلان والتهدئة في السنة الرابعة عشرة. ويبدو من ذلك أنّ تعيين)وانغ جِيه) شيخ قبيلة لم يلقَ قبولًا بين أهل (لي تانغ)، وإضافة إلى قِصَر مدّة ولايته، فإنه بعد تولّيه المنصب خرج مع جيش (تشينغ) في حملة بعيدة إلى)دا جين تشوان)، ثم ما لبث أن طواه النسيان وغاب اسمه في أعماق التاريخ.

منذ ذلك الحين، لم يعد بإمكان (تشانغ قوانغ سي) استخدام قضية (تشان دوي) لتحويل انتباه الإمبراطور عن حرب (جين تشوان). الشيء الوحيد الذي كان الإمبراطور يسأله عنه هو تقدم حرب (جين تشوان). ومع عدم إحراز أي تقدم في الحرب، انتهت فترة شهر العسل بينه وبين الإمبراطور. وبعد فترة وجيزة، أرسل الإمبراطور المستشار الأكبر (نا تشين) من جانبه لـ»الإشراف» على جهة (جين تشوان) الكبرى، مما كشف عن خيبة أمله العميقة في (تشانغ قوانغ سي).

لم يغيروصول (نا تشين) من مسار الحرب.

غضب الإمبراطور وقرر معاقبة المسؤولين. بدأ الإمبراطور (تشيان لونغ) بمعاقبة الحاكم الإقليمي لـ سيتشوان، (جي شان)، الذي كان مسؤولاً عن الدعم اللوجستي في حرب (تشان دوي)، والسبب كان «عدم اتفاقه» مع الحاكم العام (تشانغ قوانغ سي)، و»أُمر بتقديم استقالته والعودة إلى العاصمة». وفي الوقت نفسه، أمر (نا تشين) بالتحقيق في تصرفات هذا الحاكم أثناء توليه منصبه، وكانت النتيجة «سلوكه كان نزيهاً»، «ولم يرتكب أي فساد، ولكنه كان سيئ الإدارة، وقد خدعه مرؤوسوه.» كانت هذه النتيجة خطيرة جداً. تم إحضار القائد العام (ما ليانغ تشو) إلى بكين، واعترف بأن انسحاب قواته من جهة (جين تشوان) لم يكن بسبب الخسارة في المعركة، بل بسبب عدم وصول الإمدادات، ولم يكن لدى الجيش ما يأكله لمدة نصف شهر، حتى إنهم قاموا بطي جلود سروج الخيل لتناولها. عندما علم الإمبراطور بهذا الوضع، أصدر أمراً آخر قال فيه إنه بما أن هذا هو الواقع، فإن (جي شان) لا يحتاج إلى العودة إلى العاصمة، «بل يتم عزله من منصبه، وإرساله إلى معسكر الجيش، ليتم تعيينه من قبل المستشار الأكبر(نا تشين)، وعلى نفقته الخاصة، ليعمل ويكفرعن ذنبه. أما منصب حاكم سيتشوان، فيتم تعيين (بان دي) بشكل مؤقت.»

يجب أن نتذكر (بان دي). في المرحلة اللاحقة من حرب (تشان دوي)، عينه الإمبراطور مبعوثًا إمبراطوريًا، وأرسله إلى الجبهة، ثم تم تخفيض رتبته إلى بوابة (تشيان تشينغ) بسبب تورطه في قضية (تشان دوي). والآن، عاد إلى جبهة (جين تشوان) الكبرى للمشاركة في الأعمال اللوجستية، وبعد مشكلة (جي شان)، تولى منصب حاكم سيتشوان. يبدو أن قائمة المسؤولين الاحتياطيين في المنظمة المركزية في سلالة (تشينغ) لم تكن غنية بما يكفي، لذلك نجد المسؤولين الذين يواجهون مشاكل يعودون مراراً وتكراراً.

عندما تم إحضار (ما ليانغ تشو) إلى بكين، كشفت إفادته عن (جي شان). وعندما تمت محاكمة القائد العام (سونغ تسونغ تشانغ)، كشفت إفادته عن جريمة جديدة لـ(تشينغ فو).

«لقد قام (تشينغ فو) بتزوير اسم ابن (بان قون)، (شا جيا تشي لي)، إلى (ده تشانغ لاما)، وزور برج المراقبة الكبيرلـ(بان قون) إلى قاعة صلاة، ومنحه إياها للإقامة.» لكن السجلات التاريخية لا تحتوي على دفاع (تشينغ فو)، ولا نعرف ما إذا كان هذا صحيحاً، أولماذا أراد أن يتساهل مع ابن (بان قون). أصدر الإمبراطور أمراً: «في السابق، أصدرت أمراً بسجنه في منزله، ولكن بعد فترة طويلة، لا يزال يعيش حياة مريحة، فكيف يطمئن قلبه؟ يتم إحضار (تشينغ فو) وإحالته إلى وزارة العدل في انتظار المحاكمة، وعندما تنتهي الأمور العسكرية في (جين تشوان)، سيتم التحقيق في جميع المسؤولين المتورطين في قضية (تشان دوي)، وتحديد العقوبة لكل منهم.» أي أنه في السابق، ولأنه كان وزيراً كبيراً، تم وضعه تحت الإقامة الجبرية فقط، ولكن الآن عليه أن يذهب إلى السجن!

اعتقد الإمبراطور أن السبب وراء تمرد شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى هو الانتهاء المتسرع لحرب (تشان دوي). لذلك، قرر تأجيل إصدار الحكم حتى عودة الجيش منتصراً من (جين تشوان) الكبرى.

بعد فترة وجيزة، ضرب زلزال منطقة (جين تشوان)، ثم زلزال آخر في (دا جيان لو). في ذلك الوقت، كانت هذه الأحداث تعتبر علامات سيئة. بالطبع، أصبح الإمبراطور (تشيان لونغ) متيقظاً للغاية.

ولكن (تشانغ قوانغ سي) كان لا يزال يتحدث عن (تشان دوي)، وقدم مذكرة قال فيها: «لقد أرسلنا القائد الميداني (لو يو تشاو) والرئيس المحلي (قان سونغ جيه) لإغراء (بان قون) للخروج من وكر جماعته، ثم القبض عليه.»

(لو يو تشاو) شارك في حرب (تشان دوي)، وكان مذنباً. أما (قان سونغ جيه)، فربما تتذكرون أنه كان مجرماً في (تشان دوي) وسُجن في (دا جيان لو)، ثم أطلق (تشينغ فو) سراحه، وأرسله ليكون جاسوساً في معسكر (بان قون)، وتم منحه لقب «قائد» بعد الحرب. في هذا الوقت، كان يجب أن يكون في الجيش المشارك في حملة (جين تشوان) الكبرى.

سأل الإمبراطور عن النتيجة.

وأخبروه في تقرير لاحق أن (لو يو تشاو) قد أُعيد، مما يعني أن هذه الخطة فشلت أيضاً.

أصدر الإمبراطور أمراً: «بالإضافة إلى ذلك، هذان الشخصان كانا موثوقين من قبل (تشينغ فو)، وبما أنهما قدما اعترافات مؤكدة، فإنه سيتم تأكيد إدانة (تشينغ فو). لذا، يتم القبض على (لو يو تشاو) و(قان سونغ جيه) سراً وإحضارهما إلى العاصمة، حتى يمكن إغلاق هذه القضية.» لاحقاً، تم إعدام (لو يو تشاو)، و(قان سونغ جيه) «تم إعدامه بشنقه».

بعد بضعة أشهر، كان القادة في الجبهة عاجزين أمام شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى الذي لم يكن لديه سوى بضعة آلاف من المقاتلين. فقد الإمبراطور صبره أخيراً، وأصدر أمراً بإعدام (تشانغ قوانغ سي) و(نا تشين). يمكن التغاضي عن الأخطاء الصغيرة، ولكن في مثل هذه القضية الوطنية، حيث كان لديهم ما يقرب من ثلاثين إلى أربعين ألف جندي، أي عشرة أضعاف عدد العدو تقريباً، لم يحققوا أي تقدم، بل تكبدوا خسائر فادحة، وكان على المسؤولين المعنيين أن يتحملوا المسؤولية.

(تشانغ قوانغ سي) «يتم عزله من منصبه، وإحالته إلى وزارة العدل للمحاكمة، وإحضاره إلى العاصمة برفقة الحارس (فو تشنغ).»

أما المستشار الأكبر(نا تشين)، «لم أكن أرغب في سجنه في زنزانة، فيتم عزله من منصبه، ويرسل إلى معسكر الجبهة الشمالية، على نفقته الخاصة، ليعمل ويكفرعن ذنبه.»

.indd 88-89 2025-11-27 10:55:51

كما تم نقل المستشار الجامعي الأكبر (فو هنغ) للجبهة العسكرية للسيطرة والإشراف على القوات ووضع الخطط والاستراجيات.

في نوفمبر من العام الثالث عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم تقسيم المنطقة الإدارية الكبيرة التي كانت تحت حكم الحاكم العام لسيتشوان و(شانشي) إلى منطقتين إداريتين: سيتشوان و(شان غان)، وتم تعيين حاكم عام لكل منهما. وكانت الحروب المتتالية في مناطق (تشان دوي) و(جين تشوان) التابعة لسيتشوان هي السبب المباشر لإعادة التخطيط الإداري هذه.

تم تعيين (تسه لينغ) حاكماً عاماً لسيتشوان.

من الجدير بالذكر أن (تسه لينغ) هو شقيق (نا تشين) الذي تم عزله للتو من جبهة (جين تشوان) الكبرى. في الشهر السابق، قدم مذكرة إلى الإمبراطور بشأن قضية شقيقه، ولكنه لم يكن يطلب العفو عنه: «إن (نا تشين) قد خان ثقة الدولة في هذه القضية العسكرية الكبرى، ولا يمكن للقانون أن يتسامح معه، لذا أطلب إحالته إلى وزارة العدل لمعاقبته بشدة.» فقال الإمبراطور: «إن (تسه لينغ) يشعر بالخجل والأسف الشديدين بسبب العقوبة القاسية التي تلقاها شقيقه، وهو صادق تماماً. إن الأب لا يتحمل مسؤولية جرائم ابنه، فما بالك بالأخ، و(تسه لينغ) مناسب لهذا المنصب.»

في شهر ديسمبر، لم يعد الإمبراطور (تشيان لونغ) يريد أن ينتظر حتى تهدأ الأوضاع في (جين تشوان) لإنهاء قضية (تشان دوي): «لا يمكن أن تبقى هذه القضية معلقة، لذا يتم إصدار حكم نهائي على (تشينغ فو) و(لي تشي تسوي) وآخرين، وفقاً للقانون، ويجب على كبار المستشارين العسكريين والوزارة المعنية أن يقدما اقتراحاً بالحكم. ويجب إطلاع الأمراء والمسؤولين المنشورين والهان على هذا المرسوم.»

قدم كبار المستشارين العسكريين، ووزارة العدل اقتراحاً بالحكم: «يتم الحكم على الحاكم العام (تشينغ فو)، والقائد العام (لي تشي تسوي)، والقائد العام (سونغ تسونغ تشانغ)، بالإعدام المؤجل، ويتم تنفيذ الحكم في الخريف.»

«نوافق.»

لقد تم معاقبة القائد العام (يوان شي بي) سابقاً، والآن يتم معاقبة هؤلاء الثلاثة. أما الحاكم العام لـ سيتشوان وشانشي، (تشينغ فو)، فقد تم عزله من منصبه، وهو ينتظر في السجن قرار الإمبراطور النهائي. ومن بين القادة الكبار في حرب (تشان دوي)، لم ينجُ أحد سوى (ما ليانغ تشو).

عندما شارك (ما ليانغ تشو) في حملة قمع (تشان دوي)، كان يقود قوات من الهان الجنود المحليين في الطريق الجنوبي، ولم يشارك في المؤامرات في الطريقين الأوسط والشمالي. وفي حرب (جين تشوان) الكبرى، اتهمه (تشانغ قوانغ سي) بالانسحاب من المعركة. ولكن تم التحقق لاحقاً من أن السبب كان عدم وجود إمدادات لمدة نصف شهر. وبعد التحقيق، عاد إلى الجيش في (جين تشوان) ليقود القوات. وبعد أن انتهت قضية (جين تشوان) الكبرى، أعيد إلى منصبه كقائد عام بسبب إنجازاته.

(تشانغ قوانغ سي) «يتم الحكم عليه بالإعدام الفوري وفقاً لقوانين وزارة العدل»، أي يتم الحكم عليه بالإعدام، ويتم تنفيذه على الفور. ويتم تعيين (ده باو) و(له إرسن) للإشراف على تنفيذ الحكم.

أخذ المستشار الأكبر (فو هنغ) وغيره من المسؤولين في جبهة (جين تشوان) الكبرى على عاتقهم اتخاذ قرار بشأن مصير (نا تشين).

في يناير من العام الرابع عشر من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، وصلت قوات من مناطق (هيلونغ جيانغ)، و(هوبي)، و(قويتشو) إلى الجبهة بعد أشهر من السفر للانضمام إلى المعارك، بينما كان بضعة آلاف من الجنود لا يزالون في الطريق. لكن حرب (جين تشوان) الكبرى انتهت فجأة. والسبب في ذلك هو أن الزعيم المتمرد (شوو لوو بن) كان قد خدم البلاط سابقاً، حيث قاد قواته في عهد الإمبراطور (كانغشي) مع القائد الشهير (يوبه تشونغ تشي) في حملة (يانغ دونغ)، وحقق إنجازات كبيرة. وفي وقت لاحق، وبفضل توصية من (يوبه تشونغ تشي)، عينه بلاط (تشينغ) منصب رئيس مكتب التهدئة والأمن الخاص بـ (جين تشوان)» في العام الأول من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ). عندما أصبحت حرب (جين تشوان) صعبة، أعاد الإمبراطور (تشيان لونغ) استخدام القائد المخضرم (يوبه تشونغ تشي) الذي كان قد فقد ألقابه، لقيادة القوات إلى (جين تشوان) وإعادة الروح القتالية للجيش. وفي النهاية، دخل (يوبه تشونغ تشي) مع عدد قليل من جنوده إلى قلعة (له وو وي)، وحث (شوو لوو بن) على الاستسلام. وهكذا، انتهت حرب (جين تشوان) الكبرى.

في فبراير من العام الرابع عشر من حكم (تشيان لونغ)، أصدر الإمبراطور مرسوماً: «أرسل (شوو لوو بن) و(لانغ كا) مراراً وتكراراً موفدين موثوقين لتقديم القرابين، وطلبوا إعفاءهم من الإعدام، وقالوا إنهم سيبنون معبداً للمستشار الأكبر (فو هنغ). أما الشروط الستة التي وافقوا عليها، مثل عدم مهاجمة الجيران، وإعادة الأراضي المنهوبة، وتسليم المجرمين، وتسليم الأسلحة، وإعادة السكان المحليين، والعمل مع شيوخ القبائل، فقد امتثلوا لها جميعاً. وقالوا إنهم على استعداد للعمل بجد أكثر من شيوخ القبائل الآخرين، وهذا هو ما يسمى بالتغيير الحقيقي. أما طلبهم الاستسلام من بعيد، فهم لا يجرؤون على الاقتراب من معسكر الجيش، وهذا من طبيعة البشر. فكيف يمكنني أن أقتلهم، وأنا الذي يجب أن أتسامح مع كل شيء! إن الجيش الملكي لم يقاتل، بل أوقف الحرب من أجل السلام. لقد أظهرنا قوتنا، وحققنا النصر، وعودة الجيش إلى الوطن الآن أمر مناسب...»

أصدر الإمبراطور عفواً عن (شوو لوو بن)، وعادت القوات إلى العاصمة.

في وقت سابق، تم إعدام (تشانغ قوانغ سي)، وكان الإمبراطور متردداً جداً في اتخاذ قرار بشأن مصير (نا تشين). أولاً، قام بعزله من منصبه وأمره بالعمل في الجبهة. بعد سقوط (نا تشين)، أصبحت التقارير التي تأتي من مرؤوسيه أكثر إغضاباً للإمبراطور. في يناير من العام الثالث عشر من حكم (تشيان لونغ)، قبل أن يأتي خبر النصر في (جين تشوان) الكبرى، كان قد أصدر مرسوماً: «يتم إحضار (نا تشين) إلى الجبهة، ويتم محاكمته مع المستشار الأكبر (فو هنغ)، وإعدامه في المعسكر.» أما حالة (نا تشين) في ذلك الوقت، فقد ذكرتها التقارير: «(نا تشين) لا يأكل ولا يشرب، وهو طريح الفراش.» كنت أعتقد أن الإمبراطور، بعد سماع خبر النصر، وبعد أن عفا عن زعيم التمرد (شوو لوو بن)، سيعفو أيضاً عن (نا تشين)، لكن (نا تشين) لم ينتظر هذا اليوم.

.indd 90-91 2025-11-27 10:55:52

أبلغ الحارس (إي شي) الإمبراطور: «في اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير، عندما كنا في طريقنا إلى جبل (بين لان)، تلقينا مرسوماً بإعدام (نا تشين)، وتم تنفيذ الحكم.»

وفي الوقت نفسه، أظهر الإمبراطور (تشيان لونغ) عفواً كبيراً عن زعيم التمرد في (جين تشوان) الكبرى، (شوو لوو بن). لم يكتفِ بالعفو عنه من عقوبة الإعدام، بل أصدر مرسوماً: «أنتم أيها البرابرة الصغار، لا تستحقون أن أصدر لكم مرسوماً بنفسي. ولكن لأنكم استسلمتم بإخلاص وترغبون في القدوم إلى البلاط لطلب العفو، فإنني أصدر هذا الأمر الخاص، وأطلب من الحاكم العام أن يمنحكم مكافآت مناسبة. عليكم أن تتبعوا الأوامر، وتلتزموا بالقانون، وتسعوا للخير، وتعتنقوا البوذية، وتحافظوا على أراضيكم وحدودكم، ولا تعتدوا على الآخرين أبداً. وشيوخ القبائل الذين استسلموا، لن يعتدوا عليكم. وإذا تعرضتم للظلم من قبل أي شيخ قبيلة، فبإمكانكم تقديم شكوى إلى الحاكم العام أو القائد العام، وسوف يتم التحقيق في الأمر وحل النزاعات بينكم، ولا يسمح لكم بالقتال.»

بعد ذلك، لم يرتكب (شوو لوو بن) أي أعمال غير قانونية.

ولكن بعد أكثر من عشرين عاماً، في العام السادس والثلاثين من حكم (تشيان لونغ)، وبعد وفاة (شوو لوو بن)، تمرد ابن أخيه الذي ورث منصب شيخ القبيلة، (سنغ غه سانغ)، مرة أخرى. شن الإمبراطور (تشيان لونغ) حملته الثانية على (جين تشوان)، واستمرت هذه الحرب خمس سنوات، وانتهت بالقضاء على منطقتي (جين تشوان) الكبرى والصغيرة، ولكن هذه قصة أخرى.

ظهور (بان قون) وإغلاق قضية (تشان دوي)

في ذلك الوقت، عندما وصل خبر استسلام شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى، (شوو لوو بن)، إلى (تشان دوي)، بحث (بان قون) عن طريقة ليعرب عن رغبته في الاستسلام للبلاط الإمبراطوري.

قدم الحاكم العام لـ سيتشوان، (تسه لينغ)، تقريرًا: «وفقاً لتقرير من (لاما) (دال إر هان) من معبد (هوي يوان)، أرسل (بان قون) في السابق رجلاً إلى المعبد لطلب العفو بعد أن استسلم (شوو لوو بن) وعفا عنه الإمبراطور. والآن، جاء (بان قون) مرة أخرى ليطلب العفو، وأحضر ابنه (لوو تسانغ دينغ) إلى المعبد ليعتذر ويتوب، وهو يبدو صادقاً جداً. لذا، أرسلت ضابطاً إلى (تاي نينغ)، فجاء (بان قون) مع إخوته ورؤساء محليين وزعماء قبليين لاستقباله على الحدود، وأقسموا على أنهم سيظلون مخلصين حتى الموت. وبما أنهم لم يصابوا بمرض الجدري، فإنهم لا يجرؤون على دخول المناطق الداخلية، وهذا يظهر أنهم نادمون وصادقون.»

أصدر الإمبراطور مرسوماً: «إن استسلام (بان قون) كان بسبب تأثره باستسلام (شوو لوو بن)، وهذا يدل على أن التمرد السابق في (جين تشوان) كان بسبب تمرده هو، مما أدى إلى انتشار العصيان. وهذا يثبت أن من كان مسؤولاً عن هذه القضية، فإن جريمته لا يمكن التسامح معها.» وهذا يعني أن (بان قون) يمكن أن يتم العفو عن حياته. وفي هذا الوقت، تذكر الإمبراطور الشخص الذي كان لا يزال في السجن، وقال: «(تشينغ فو) الذي يخضع للمحاكمة قد اعترف بجرائمه، وكنت أنوي إعدامه في يوم التنفيذ. ولكن بالنظر إلى أنه من عائلة مرموقة، وقد عمل كمسؤول كبير منذ عهد والدي، وأنه يختلف قليلاً عن (نا تشين) و(تشانغ قوانغ سي) اللذين خانا ثقة الدولة وألحقا بها العار، لا أستطيع أن أسمح بإعدامه في مكان عام. لذا، يتم إرسال الحرس (ده باو) و(هوي باو) و(آ كه دون) ليطلعوا (تشينغ فو) على تقرير (تسه لينغ) الأصلي، وبذلك يمنحونه نعمة...» فهل كان الإمبراطور سيمنحه نعمة كما فعل مع (شوو لوو بن) و(بان قون)؟ لا. «كجزء من العفو، يتم منحه أمراً بالانتحار.»

وهكذا، انتهت قضية (تشان دوي).

الليلة الماضية، بعد أن انتهيت من كتابة خاتمة قضية (تشان دوي)، كانت الساعة الثالثة فجراً، ولم أستطع النوم، فنشرت تغريدة على «ويبو» تقول: «أكتب كتاباً جديداً، ما يسمى بـ»الأدب الواقعي»، والذي يتناول الأحداث التي تحدث الآن. في البداية، شعرت بالجدية، ولكن كلما كتبت، وجدت أن هذه الأحداث «الجديدة» قديمة جداً في جوهرها، قديمة لدرجة محزنة. لذا، عدت إلى كومة الكتب القديمة لأكتب عن القصص القديمة. ووجدت أن هذه القصص التي تعود إلى مائة أو مائتي عام لا تزال جديدة جداً. الفارق الوحيد هو أن أبطالها يضعون مكياجاً عصرياً ويؤدون نفس الأساليب القديمة على المسرح.»

قبل أسبوع، بدأت بكتابة رواية جديدة، من «الأدب الواقعي»، وتتعلق بالصراعات الثقافية الجديدة بين (هان) والتبتيين. شعرت حقاً أن الأحداث الجديدة هي مجرد أساليب قديمة، لذا أوقفت العمل على جهاز الكمبيوتر في مكتبي، ونقلته إلى طاولة الطعام الكبيرة، وبدأت أكتب عن قصة (تشان دوي) القديمة بالاعتماد على كومة الكتب القديمة التي كانت على الطاولة. إن هذه الأحداث القديمة، عندما تعكس الواقع الحالي، تجعل المرء يشعر بالجدية والوعي. يبدو أن «جدة» الأدب و»قدمه» لا تعتمدان على الموضوع، كما يقول النقاد الذين يلفون أنفسهم بنظريات جديدة ومجزأة.

بعد أن نشرت التغريدة، استحممت وذهبت إلى الفراش، ولكنني لم أستطع النوم.

قمت بقراءة بعض المواد الجغرافية من كتاب قديم على وسادتي. هذا الكتاب القديم يسمى «سجلات التبت»، وقد كتبه شخص معين في العام الرابع عشر من عهد جمهورية الصين، عندما كانت مقاطعة سيتشوان تخطط لإصدار «سجلات سيتشوان العامة». ومن هذا يمكننا أن نعرف أن المسؤولين في مقاطعة سيتشوان، منذ عهد سلالة (تشينغ)، كانوا يعتبرون شؤون المناطق التبتية أمراً مهماً. يوجد في «سجلات التبت» فصل بعنوان «بحث في طرق النقل في التبت»، يشرح بالتفصيل حالة الطرق القديمة قبل وجود الطرق السريعة، ويبدأ بوصف الطريق السريع بين سيتشوان والتبت من (يا آن)، مروراً بـ(دا جيان لو) وصولاً إلى لاسا.

يبدأ الطريق من (يا آن). اليوم، على جانب الطريق السريع بين سيتشوان والتبت، يوجد مجموعة من التماثيل التي تصور صورة العمال الفقراء الذين كانوا يحملون الشاي والبضائع على طول الطريق في الماضي. هذه التماثيل تهدف إلى الإشارة إلى ما يسمى بـ»طريق الشاي والخيل القديم»، والذي كان نقطة بداية طريق سيتشوان والتبت القديم. اليوم، تستغرق القيادة من هنا إلى (كانغدينغ)، أي (دا جيان لو) القديمة، أربع إلى خمس ساعات، بينما كانت تستغرق عدة أيام في الماضي. «سجلات التبت» تذكر أسماء المحطات والمسافات بالتفصيل: من (يا آن) إلى (شينغ جينغ)، تسعين (لي)؛ من (شينغ جينغ) إلى (هان يوان)، مائة وعشرة (لي)؛ من (هان يوان) إلى (ني توو)، ثمانين (لي)؛ من (ني توو) إلى (هوا لين بينغ)، خمسة وسبعين (لي)؛ من (هوا لين بينغ) إلى (لو دينغ تشياو)، خمسة وسبعين (لي)؛ من (لو دينغ تشياو) إلى (توو داو شوي)، سبعين (لي)؛ من (توو داو شوي) إلى (دا جيان لو)، ستين (لي). كانت أسرع رحلة تستغرق أسبوعاً.

عند الخروج من البوابة الجنوبية لـ(دا جيان لو)، يُقال إنك «تغادر البوابة»، وحتى اليوم، يطلق السكان المحليون على المنطقة الواقعة غرب (كانغدينغ) اسم «خارج البوابة». «تسير على جسر (قونغ تشو)، وتصعد الجبل، وبعد أكثر من عشرين (لي)، تصل إلى القمة، التي تسمى (تشه دوو)، الجبل مرتفع ولكنه ليس خطيراً جداً، وفي الخريف والشتاء، تتراكم عليه الثلوج مثل الجبال. وعلى بعد عشرين (لي) أسفل الجبل، توجد منازل وحطب. وعلى بعد خمسين (لي) تصل إلى (دي تشيا تانغ)، حيث توجد منازل وحطب. وعلى بعد خمسين (لي) تصل إلى (نا وا)، والطريق ليس خطيراً، ويوجد سكان محليون ومناطق موبوءة بالأوبئة، وتسير في الوادي، وبعد أربعين (لي) تصل إلى (آ نيانغ با)، وهي منطقة غنية جداً. ومن هنا، تمر عبر معبد (وا تشي)، ثم عبر جسر (ووو سونغ دوو)، وتصل إلى (دونغ وو لوو)، حيث توجد أبراج حجرية وحطب.» (دونغ وو لوو)، اسم مألوف. في بداية حرب (تشان دوي)، تمركز القائد العام لسيتشوان، (لي تشي تسوي)، في هذا المكان، ليتولى قيادة القوات الثلاث التي توغلت في الجبال والوديان العميقة في (تشان دوي).

من هذا المكان، يمر طريق سيتشوان والتبت السريع أيضاً عبر معبد (غاو ري)، وصخرة (ووو لونغ)، وبرج (با جياو)، ومخفر (تشونغ دوو)، و(ما غاي تشونغ)، و(جيان زي وان)، و(شي وو لوو)، و(زا ما لا دونغ)، و(لوان شي ياو)، و(هوو تشوكا)، و(هوو شاو بو)، ثم يصل إلى (لي تانغ). ومن (لي تانغ)، يمر بـ21 محطة ليصل إلى مخفر (جيانغ كا). (جيانغ كا) أيضاً اسم مألوف، حيث جاء منها قائد الفصيلة (تشانغ فنغ) الذي تعرض للنهب مع جنوده. وعندما كانت حرب (تشان دوي) مستمرة، أرسلت التبت قوات لدعمها من هناك، ولكن لاحقاً، غادر الضابط التبتي المسمى (لنغ زونغ ناي) الجبهة من تلقاء نفسه، وتفرقت تلك القوات التبتية. سلم (تشيان لونغ) (لنغ زونغ ناي) إلى الأمير (بو لوه ناي) في التبت لمعاقبته، ولكن لم تذكر السجلات التاريخية ما حدث له بعد ذلك، على الأرجح أن الأمر تم إخفاؤه وتمت تسويته دون أي نتيجة.

(لي تانغ)، هي الطريقة التي تكتب بها في تاريخ سلالة (تشينغ)، واليوم تكتب (لي تانغ)، وهو اسم ورد ذكره عدة مرات في هذا الكتاب، وسوف يظهر أكثر في المستقبل.

في بداية القصة، كان هذا هو المكان الذي «نهب» فيه سكان (تشان دوي) أكثر من ثلاثين جندياً من (تشينغ).

وهو أيضًا المكان الذي تولّى فيه (وانغ جيه)، الذي اعتبره الإمبراطور (تشيان لونغ) في البداية جاسوساً متواطئاً مع (بان قون)، ثم برّأه لاحقًا من تلك التهمة، وشغل منصب رئيس مكتب الإعلان والتهدئة لمدة عام واحد.

[redacted].indd 94-95 2025-11-27 10:55:52

قد يتساءل القارئ الفضولي، لماذا لم يتم ذكر (تشان دوي) في هذا الطريق؟ نعم، لم تُذكر (تشان دوي). فهي تقع في الجبال العميقة شمال (لي تانغ). عندما كنت أزور (تشان دوي)، التي أعيد تسميتها اليوم بـ(شين لونغ)، رأيت على لافتة الطريق عند حدود المدينة أن الطريق المتعرج جنوباً إلى (لي تانغ) يبلغ طوله أكثر من 210 كيلومترات. وهذا يعني أن (تشان دوي) لا تقع على طريق سيتشوان والتبت السريع. في ذلك الوقت، عندما كانت عصابات «جيا با» من (تشان دوي) تهاجم المسافرين على طريق سيتشوان والتبت، كانوا يحتاجون إلى خيول جيدة وسيوف حادة للاندفاع لمئات الأميال إلى أراضي شيوخ القبائل الأخرى. ولهذا السبب، كانت (لي تانغ) أيضاً نقطة انطلاق القوات في الطريق الجنوبي في حرب (تشان دوي).

ينقسم طريق سيتشوان والتبت السريع دائماً إلى طريق شمالي وجنوبي، وتعتبر (لي تانغ) نقطة مهمة على الطريق الجنوبي. أما الطريق الشمالي، فيبدأ أيضاً من البوابة الجنوبية لـ(دا جيان لو)، وبعد عبور جبل (تشه دوو)، فإنه ينفصل عن الطريق الجنوبي، ويمر عبر (تاي نينغ)، و(داو فو)، و(لو هوه)، و(قان تسي)، ثم يعبر نهر (جينشا) عبر (يو لونغ) و(ده قه)، ويغادر أراضي قبائل سيتشوان ليدخل أراضي التبت. و(تشان دوي) أيضاً لا تقع على هذا الطريق الشمالي السريع. عند حدود مدينة (قان تسي) اليوم، يتدفق نهر كبير، وهو نهر (يالونغ). وإلى الجنوب من مدينة (قان تسي)، توجد سلسلة من القمم الثلجية. وبعد مسافة قصيرة من المدينة، ينعطف نهر (يالونغ) جنوباً، ويغوص في واد عميق تحت الجبال الثلجية، ويتجه إلى (تشان دوي). في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى (تشان دوي)، سلكت هذا الطريق السريع، وسافرت جنوباً على طول النهر، واجتزت وادياً عميقاً لأكثر من مائة كيلومتر حتى وصلت إلى مدينة (روو لونغ) في محافظة (شين لونغ).

وهذا يعني أن (تشان دوي) تقع في عمق الجبال بين الطريقين الشمالي والجنوبي لسيتشوان والتبت، وهي تعتبر منطقة نائية حتى اليوم. لذلك، قبل سلالة (تشينغ)، لم يكن هناك سوى أساطير غامضة عنها. أما بعد سلالة (تشينغ)، فقد بدأت تظهر المزيد من السجلات المكتوبة عنها. والسبب في تسجيلها، هو أن سكان (تشان دوي) كانوا يذهبون إما جنوباً أو شمالاً، لشن الهجمات على التجار والسكان المحليين على الطريقين الشمالي والجنوبي. من الخارج، تبدو (تشان دوي) بعيدة حقاً. ولكن بالنسبة لسكانها الذين يتقنون ركوب الخيل واستخدام الأقواس، ويعتبرون «الجيا با» وسيلة للعيش، فإن العالم الخارجي ليس بعيداً. ولهذا السبب، سنتقابل معهم مراراً وتكراراً في هذا الكتاب.

أحاديث عن (يويه تشونغ تشي)

أشرقت الشمس!

من النادر أن نرى مثل هذه الشمس الساطعة في شتاء (تشنغدو)، لذلك توقفت عن الكتابة وقررت التجول في الشوارع. بعد كل هذه الأيام التي قضيتها في الكتب القديمة، كان من الأفضل أن أتخلص من العفن ببعض أشعة الشمس. لذا، تركت سيارتي وذهبت سيراً على الأقدام إلى مكتب الأمن العام للحصول على تأشيرة خروج للذهاب لإلقاء محاضرة في (هونغ كونغ). بعد الانتهاء من التأشيرة، ذهبت إلى مكتب البريد للحصول على بعض الأجور من المقالات الصغيرة التي كتبتها. مررت بشارع في المنتصف، اسمه شارع (يويه فو). في ذلك الوقت، كان هذا هو موقع قصر القائد الشهير (يويه تشونغ تشي)، الذي حقق إنجازات عظيمة في استقرار المناطق التبتية في عهد سلالة (تشينغ). اليوم، لم يعد هناك أي أثر لقصر (يويه) الكبير، ولم يتبق سوى اسم الشارع. يمر الناس المختلفون جيئة وذهاباً، كل منهم يسعى لكسب رزقه الجيد أو السيئ، وكل منهم يحمل أفكاراً واضحة أو غامضة، ولا يعرف الكثير منهم سبب تسمية هذا الشارع بهذا الاسم.

دعونا نتحدث أكثر عن (يويه تشونغ تشي)، ونختتم هذا الكتاب مؤقتاً. لأن منطقة (تشان دوي) ستثير اضطرابات مرة أخرى في السجلات التاريخية، ولكن هذا لن يحدث حتى عهد الإمبراطور (جيا تشينغ) في سلالة (تشينغ). لا يزال الوقت طويلاً. بعد انتهاء حرب (تشان دوي)، حكم (تشيان لونغ) لمدة ثلاثين عاماً أخرى قبل أن يحين دور (جيا تشينغ).

□□□□ □□□.indd 96-97 2025-11-27 10:55:52

ينتمي (يوبه تشونغ تشي) إلى عائلة من الجنود الذين خدموا في عهد ثلاثة أباطرة. كان والده قائداً عسكرياً في عهد الإمبراطور (كانغشي)، وقد حقق إنجازات في الحملة العسكرية على قبيلة (غاردان) المنغولية، وتمت ترقيته إلى منصب قائد لسيتشوان. انضم (يوبه تشونغ تشي) إلى الجيش في سن العشرين، وتبع والده من (قانسو) إلى سيتشوان في سن الرابعة والعشرين. بعد سبع سنوات، في العام السادس والخمسين من حكم (كانغشي)، أي عام 1717، قام الأمير (تسه وانغ آ لا بوو تان)، حاكم قبيلة (زونغار) المنغولية، بغزو التبت، واستولى على لاسا، وحاصر قصر (بوتالا)، وقتل ملك التبت، (لا تسانغ هان). في السنة الثامنة والخمسين من حكم الإمبراطور كانغشي (1719 م)، أرسل الإمبراطور (كانغشي) القائد العام للجيش (فالا) لقيادة القوات والخروج من (دا جين لو) لتقديم العون لمساعدة التبت. وعين (فا لا) نائب القائد (يوبه تشونغ تشي)، الذي كان في ذلك الوقت قائد الفرقة في (يونغ نينغ)، كرائد للقوات، وأمره بالاستيلاء على النقاط الرئيسية على طريق سيتشوان والتبت، مثل (لي تانغ) و(با تانغ)، لفتح الطريق إلى التبت. نجح (يوبه تشونغ تشي) في القضاء على الدي با[1] لمنطقة (لي تانغ) الذي رفض الاستسلام، و»أسر سبعة من القادة المتمردين، مما جعل حاكم (با تانغ) يخاف ويسلم سجلات السكان». ثم قاد زعيم القوات التبتية القوات، وقاموا باستسلام السكان المحليين على طول الطريق، وتقدموا بسرعة لمسافة ألف (لي) حتى وصلوا إلى لاسا، وهزموا قوات (زونغار) المنغولية التي فرت إلى (إيلي).

بعد انتهاء الحرب، تمت ترقية (يوبه تشونغ تشي) إلى منصب القائد الأعلى للجيش في سيتشوان.

وبعد بضع سنوات، قام شيخ القبيلة المنغولية (لوه بو تسانغ دان جين) بشن تمرد في (تشينغهاي) ضد سلالة (تشينغ)، وعين البلاط (يوبه تشونغ تشي) بلقب «الجنرال (فن وي)» لقيادة الحملة. استغل (يوبه تشونغ تشي) فرصة عدم نمو العشب في الربيع، ونقص الإمدادات لدى المتمردين، وتفرقهم في المعسكرات، وقام بهجوم مفاجئ على مكان إقامة (لوه بو تسانغ دان جين). كانت قواته المكونة من خمسة آلاف جندي تحمل لكل جندي فرسين، وسافروا ليلاً ونهاراً حتى وصلوا بسرعة إلى الجبهة، وهاجموا معسكر (لوه بو تسانغ دان جين) بقوة. انهارت قوات المتمردين على الفور، واستغل (لوه بو تسانغ دان جين) الفوضى، وارتدى ملابس نسائية، وهرب مع أكثر من مائتي شخص إلى قبيلة (زونغار). وتم أسر والدته، وأخيه، وأخته، وزوج أخته. حقق (يوبه تشونغ تشي) نصراً عظيماً، واستمر في مطاردتهم، «وقطع مسافة ثلاثمائة (لي) في يوم وليلة، وعاد بعد أن لم يجد العدو. وفي غضون خمسة عشر يوماً، قتل ثمانين ألفاً.» في خمسة عشر يوماً فقط، استعاد (يوبه تشونغ تشي) منطقة (تشينغهاي) بأكملها التي تبلغ مساحتها مئات الآلاف من الكيلومترات المربعة.

لاحقاً، قاد (يوبه تشونغ تشي) قواته لإخماد تمرد بعض القبائل التبتية في منطقة (وو وي) في مقاطعة (قانسو) الحالية، وتولى منصب قائد لـ(قانسو)، ثم حاكم لـ(قانسو). وأصبح يسيطر وحده على الشؤون العسكرية والإدارية في مقاطعة بأكملها. في ذلك الوقت، كان (يوبه تشونغ تشي) في أوائل الأربعينيات من عمره، وكان في قمة مجده.

1 دي با: ترجمة من اللغة التبتية، وتعني في الأصل زعيم القبيلة. وفي عهد سلالة (تشينغ)، كان هناك نوعان من (دي با): الأول هو المسؤول الذي كان يدير الحكومة المحلية في التبت، والثاني هو المسؤول المحلي الذي كان يتم تعيينه من قبل الحكومة المحلية في التبت في المناطق التي تسيطر عليها. وهنا، تشير الكلمة إلى النوع الثاني.

باستثناء عدد قليل جداً من المحظوظين، لا تسمح الحياة المهنية لأي شخص بأن يكون ناجحاً بهذه السهولة. وهكذا، بدأت الشائعات تصل إلى مسامع الإمبراطور. وقال الإمبراطور (يونغ تشنغ): «على مدى سنوات، لم يأتِ من يشتكي على (تشونغ تشي) بمذكرة واحدة فقط، بل قالوا إنه من سلالة (يوبه في)، وأنه يريد الانتقام لحرب (سونغ) و(جين). (تشونغ تشي) قد حقق إنجازات عظيمة، ولهذا السبب أسندت إليه مناصب مهمة وقوات كبيرة، والناس في سيتشوان و(شانشي) يحترمون الإمبراطور ويحبون البلاد، والجميع يعرف ذلك.» وفي الوقت نفسه، كان هناك بالفعل من حاول إقناع (يوبه تشونغ تشي) بالتمرد، لكنه رفض. (يونغ تشنغ) لم يكن رجلاً واسع الأفق مثل والده (كانغشي)، وبدأت تلك الشائعات تتجذر في قلبه.

في العام التاسع من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، أي عام 1731، استغل الإمبراطور (يونغ تشنغ) خسارة (يوبه تشونغ تشي) الطفيفة في حملته العسكرية على قبيلة (زونغار) المنغولية، وعزله من منصبه وسجنه بتهمة «التسبب في خسارة للدولة وخيانة الثقة». انتهز الوزراء والجنرالات الذين كانوا يكرهونه الفرصة للاستفادة من الموقف وتقديم الشكاوى ضده. حتى (تشانغ قوانغ سي)، الذي تم إعدامه لاحقاً بسبب فشله في حرب (جين تشوان)، اتهم (يوبه تشونغ تشي) «بالإدارة السيئة للقوات والإمدادات.» كانت نتيجة مشاورات كبار الوزراء «الحكم على (يوبه تشونغ تشي) بالإعدام الفوري.» ولكن الإمبراطور (يونغ تشنغ) غير الحكم إلى «إعدام مع وقف التنفيذ». وبعد ثلاث سنوات، توفي الإمبراطور (يونغ تشنغ)، بينما كان (يوبه تشونغ تشي) لا يزال على قيد الحياة في السجن. في العام الثاني من حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم إطلاق سراح (يوبه تشونغ تشي)، وتجريده من منصبه، وعاش في قصر (يوبه) في (تشنغدو) لمدة عشر سنوات.

في العام الثالث عشر من حكم (تشيان لونغ)، عندما كانت حرب (جين تشوان) تسير بشكل سيئ، وكان (تشانغ قوانغ سي) و(نا تشين) على وشك المحاكمة، لم يكن هناك من يمكن الاعتماد عليه في البلاط الإمبراطوري. عندها، تذكر (تشيان لونغ) الجنرال القديم الذي كان قد أطلق سراحه، وأعاد استخدامه، وعينه في منصب القائد العام وأرسله إلى الجبهة، ثم رقاه لاحقاً إلى قائد أعلى للجيش في سيتشوان. عندما وصل (يوبه تشونغ تشي) إلى الجبهة، قاد عشرات الآلاف من الجنود، وتقدم خطوة بخطوة نحو قلب (جين تشوان)، قلعة (له وو وي). لم يستطع (شو لوو بن) الصمود، وكان متردداً بين الاستسلام وعدم الاستسلام، فذهب (يوبه تشونغ تشي) مع عدد قليل من جنوده إلى معسكر العدو وأجبر (شو لوو بن) على الاستسلام. في ذلك الوقت، كان قد بلغ الثانية والستين من عمره. وبسبب إنجازاته، تم منحه لقب «ولي العهد الكبير»، وإعادة رتبته كـ»دوق من الدرجة الثالثة». وأشاد به الإمبراطور الذي كان يحب كتابة الشعر، قائلاً: «عاد السيف والحصان إلى البادم، رجل عجوز لكنه يتمتع بشجاعة كبيرة، وذهب وحده إلى وكر الأعداء، يا له من طموح عظيم.»

.indd 98-99 2025-11-27 10:55:53

كان (يوبه تشونغ تشي) مخلصاً تماماً للبلاط في سلالة (تشينغ)، وقاد القوات مرتين أخريين إلى المناطق التبتية لإخماد التمرد. وفي النهاية، في سن الثامنة والستين، قاد قواته إلى (تشونغتشينغ) لإخماد تمرد، وتوفي في طريق عودته إلى (تشنغدو) بعد أن حقق النصر.

كنت أتجول في شارع (يوبه فو)، تحت أشعة الشمس الدافئة، وأتأمل أسطورة هذا الجنرال الذي توفي قبل أكثر من مائتي عام. كانت هناك أعمال بناء قريبة تسد الشارع، وكان هناك ازدحام في السيارات والفوضى بين المارة، ولكن هذا لم يمنعني من التأمل في الماضي بسلام.

عندما عدت إلى المنزل، قرأت مرة أخرى في «سجلات (تشينغ)» كيف أن (يوبه تشونغ تشي) يصف استسلام (شوو لوو بن) بلهجة هادئة في مذكرته: «قمت بقيادة أربعين إلى خمسين جندياً إلى وكر العدو، وقاموا باستقبالي باحترام شديد. وفي تلك الليلة، نمت في (له وو وي). وفي اليوم التالي، ذهبت إلى قاعة صلاتهم، وأمرت (تشوزون) و(جاو جي) مع (شوو لوو بن) و(لانغ كا) بأن يقسموا أمام بوذا وفقاً لتقاليدهم. ثم ذهبت إلى (كا سا)، وأبلغت المستشار العام. ثم عدت إلى (با لانغ)، وقمت بإحضار شيخ القبيلة، و(شيه)، وطلبت منهم أن يركعوا ويستسلموا.»

.indd 100-101 2025-11-27 10:55:53

الفصل الثالث

اندلعت اضطرابات جديدة في (تشان دوي). وعلى أسرة (تشينغ) الحاكمة أن ترسل قواتها إلى (تشان دوي) مرة أخرى.

حرب جديدة، وفي الوقت نفسه، قصة قديمة. أو بالأحرى، قصة جديدة تتكرر بنفس الأسلوب القديم. في هذا الوقت، كان قد مر تسعة وخمسون عاماً على الحملة الثانية على (تشان دوي) في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ). وقد تولى حاكم جديد عرش أسرة (تشينغ): الإمبراطور (جيا تشينغ).

□□□□ □□□.indd 102-103 2025-11-27 10:55:53

شيخ القبيلة البربري (لوَه بو تشي لي)

اندلعت اضطرابات في (تشان دوي) مرة أخرى.

وعلى سلالة (تشينغ) الحاكمة أن ترسل قواتها إلى (تشان دوي) مجدداً.

حرب جديدة، وفي الوقت نفسه، قصة قديمة. أو بالأحرى، قصة جديدة تتكرر بنفس الأسلوب القديم.

في هذا الوقت، كان قد مر تسعة وخمسون عاماً على الحملة الثانية على (تشان دوي) في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ). وقد تولى حاكم جديد عرش سلالة (تشينغ): الإمبراطور (جيا تشينغ).

كان هذا في العام التاسع عشر من حكم (جيا تشينغ)، أي عام 1814.

ظهر اسم (تشان دوي) الذي كان قد اختفى في طيات الزمن، مرة أخرى في مذكرة، ووضعت أمام الإمبراطور. وتغير بطل القصة: «شيخ القبيلة البربري في (تشان دوي) الوسطى، (لوَه بو تشي لي).» نتذكر أن هدف الحملة السابقة كان شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، (بان قون)، أما هذه المرة، فالهدف هو شيخ القبيلة البربري في (تشان دوي) الوسطى، (لوَه بو تشي لي).

الشخص الذي قدم المذكرة اسمه (تشانغ مينغ)، وكان يشغل منصب جنرال في (تشنغدو)، وهو منصب جديد. في حرب (تشان دوي) السابقة، لم يكن هناك مثل هذا المنصب. في العام السادس والثلاثين من حكم (تشيان لونغ)، اندلعت اضطرابات جديدة في منطقة شيخ قبيلة (جين تشوان) الكبرى، فأرسل الإمبراطور (تشيان لونغ) جيشاً كبيراً في حملة، وكانت هذه هي حملة (جين تشوان) الكبرى الثانية. في العام الحادي والأربعين من حكم (تشيان لونغ)، انتهت حملة (جين تشوان) الكبرى الثانية. وبسبب كثرة الاضطرابات والحروب في مناطق الأقليات العرقية في سيتشوان، أنشأ بلاط (تشينغ) مكتب «جنرال (تشنغدو)»، واسمه الكامل «جنرال حماية (تشنغدو) والمناطق الأخرى». وينص على أن سلطته تشمل «جميع المسؤولين المدنيين والعسكريين في المناطق البربرية». واليوم، لا يزال هناك شارع (جيانغ جون) ومكتب (جيانغ جون) في (تشنغدو).

بما أن المشكلة اندلعت في منطقة (تشان دوي)، فإنها تقع بالطبع ضمن منطقة مسؤولية جنرال (تشنغدو)، (تشانغ مينغ).

بعد مرور ما يقرب من ستين عاماً، تغير ميزان القوى بين شيوخ القبائل المحليين في (تشان دوي). يجب أن نتذكر أنه في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم منح شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى ألقاباً جديدة. ولكن في المناطق التبتية التابعة لسيتشوان في ذلك الوقت، لم يتم الالتزام أبداً بالحدود التي وضعها البلاط الإمبراطوري لشيوخ القبائل. وكلما كانت المنطقة نائية، زادت فيها الفوضى. لذلك، بعد عقود، أصبح (لوَه بو تشي لي) من (تشان دوي) الوسطى هو المسيطر على (تشان دوي). لا توجد سجلات في التاريخ الرسمي للدولة عن هذا التغيير في ميزان القوى في (تشان دوي). وعند البحث في السجلات الشعبية، نجد أن الأساطير الشعبية غالباً ما تكون مشوشة وغير واضحة، ويصعب التأكد من صحتها. ولكن صعود (لوَه بو تشي لي) في (تشان دوي) الوسطى مذكور في الوثائق التبتية المحلية.

كان أجداد (لوَه بو تشي لي) من نفس عائلة شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى. ولكن في وقت لاحق، قتل جده (شياو بان قه) على يد شقيقه بسبب صراع على منصب شيخ القبيلة. وتم طرد جدته وابنه اليتيم (قونغ بو دنغ) من مقر الزعامة في (تشان دوي) السفلى، وانتقلوا إلى (تشان دوي) الوسطى.

كان (قونغ بو دنغ) يهدف إلى الانتقام منذ صغره، ولكنه كان وحيداً، ولم يكن لديه ما يفعله أمام عمه القوي. كان الحل الوحيد هو أن يتحمل الإهانة، وأن يعمل بجد في (تشان دوي) الوسطى، ويبني قوته تدريجياً، وكانت هذه بداية صعود قوة (تشان دوي) الوسطى. أثار عمل (قونغ بو دنغ) الجاد في (تشان دوي) الوسطى قلق شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، أي عمه، فقام باستمالة المقربين من (قونغ بو دنغ)، ودبروا لقتله. بعد وفاة (قونغ بو دنغ)، لم يقم ابنه (قونغ بو تشا شي) بأي شيء، ولكن زوجة ابنه (شا قه ما) لم تستسلم، وذهبت إلى (دا جيان لو) لتقديم شكوى. ولكن المسؤولين في (دا جيان لو) لم يفعلوا شيئاً. ثم ذهبت شمالاً لطلب الدعم من زعيمي القبائل المجاورتين لـ(تشان دوي)، (تشو ووه) و(تشانغ قو)، ولكنها لم تحصل على أي نتيجة. ولتجنب المزيد من الاضطهاد من قبل شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، اضطرت (شا قه ما) إلى نقل عائلتها إلى قرية قريبة من عائلة والدتها، لطلب الحماية.

.indd 104-105 2025-11-27 10:55:53

(لوَه بوتشي لي) هو ابن (قونغ بوتشا شي) و(شا قه ما). عندما بلغ سن الرشد، قام بتوسيع نفوذه من خلال الزواج. تزوج أولاً من ابنة عائلة (آ جيا) التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في المنطقة، وأنجبت له ولداً وأربع بنات. توفي الابن في سن مبكرة. وتزوجت بناته الأربع من شيوخ القبائل المحليين، مما أدى إلى توسع نفوذ عائلته بسرعة. بعد أن أصبح قوياً، قام ببناء مقر قيادة في منطقة (وا دا)، أطلق عليه اسم (وا دا بوو رونغ). في هذه الأثناء، كان هناك زعيمان في (تشان دوي) يتقاتلان، وبعد مقتل أحدهما، تزوج (لوَه بوتشي لي) من أرملته، وأنجبت له ثلاثة أبناء وابنتين، وتزوجت الابنتان أيضاً من رؤساء قبائل محليين. وهكذا، أصبح لدى (لوَه بوتشي لي) ستة من شيوخ القبائل كأصهار، وكان أبناؤه الثلاثة شجعاناً ومتهورين، ووفقاً للعادة القديمة في (تشان دوي)، كانوا يجمعون الشباب من مناطقهم ويقومون بالهجمات والنهب. ومنذ ذلك الحين، أصبح (لوَه بوتشي لي) يسيطر على (تشان دوي) الوسطى.

في عام ما -لم تذكر الوثائق التبتية العام- قام ابنه الأكبر (لوو بوو) بشن غارة على (لو هوه)، ولكن تم خيانته من قبل عائلة كان يقيم عندها، وقام شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لو هوه) بسجنه. كان (لوو بوو) مجرماً. وتوجد قصة محلية تقول إن شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لو هوه) ذهب بنفسه إلى السجن ليرى قائد «جيا با» من (تشان دوي)، الذي كانت الشائعات تقول إنه شرس جداً، وكان يأمل أن يطلب (لوو بوو) العفو عن حياته. ولكن (لو بو) أخذ يضحك ولم يستسلم، فغضب شيخ قبيلة (تشانغ قو) وقتله بيده في السجن.

ومنذ ذلك الحين، نشأت عداوة دموية بين (لو هوه) و(تشان دوي) الوسطى، وأصبحت منطقة (لو هوه) غير آمنة.

الشرارة، بسبب ضابط برتبة منخفضة مرة أخرى

في العام التاسع عشر من حكم الإمبراطور (جيا تشينغ)، خرج (لوَه بوتشي لي) شمالاً مرة أخرى إلى الطريق الشمالي بين سيتشوان والتبت، أي الطريق الوطني 317 اليوم، في مقاطعة (لو هوه)، ودخل في «صراع على الحدود بسبب العداوة» مع شيخ قبيلة (تشانغ قو). وأثناء القتال بين شيخ القبيلتين، أصاب (لوَه بوتشي لي) المفوض الخارجي في جيش (تشينغ) ويدعى (دنغ تشي لونغ) والذي أُرسل للتوسط بينهما. هذا الخط مواجه لأراضي شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لو هوه)، وقد قام شيوخ القبائل المجاورة (تشو ووه)، و(ما شو)، و(كونغ سا)، و(باي لي) بالتوقيع على مذكرة، وطلبوا من بلاط (تشينغ) إرسال جيش كبير لقمع (لوَه بوتشي لي).

«المفوض الخارجي» هو اسم لمنصب ضابط برتبة منخفضة في جيش (تشينغ)، وكان يعادل أعلاها «مقدم الألف» وأقلها قائد فصيلة. ووجوده في منطقة الصراع بين (تشان دوي) و(تشانغ قو)، جعله، عن غير قصد، شرارة الحملة الثالثة على (تشان دوي) في عهد سلالة (تشينغ).

يجب أن نتذكر أن الحملة الثانية على (تشان دوي) كانت بسبب تعرض ضابط منخفض الرتبة للنهب. إن القتال بين شيوخ القبائل هو أمر معتاد، والحكومة لا تستطيع السيطرة عليه. ولكن إذا قمت بإصابة مسؤول حكومي، حتى لو كان ضابطاً برتبة منخفضة، وحتى لو كان ذلك عن غير قصد، فإن هذا يعد إهانة للبلاط الإمبراطوري، ويضر بهيبة الدولة. ويكون من الصعب جداً عدم إرسال قوات لإظهار القوة. «لقد قام شيخ القبيلة البربري في (تشان دوي) الوسطى، (لوَه بوتشي لي)، بمهاجمة القبائل المجاورة لعدة سنوات، وتجرأ على إصابة مسؤول حكومي، وجريمته خطيرة، ويجب قمعه ومعاقبته عليها.»

لذا، تم إرسال القوات. في ذلك الوقت، كانت سلالة (تشينغ) قد تجاوزت عصرها الذهبي، ولكن مواجهة منطقة صغيرة مثل (تشان دوي)، التي لا تزيد مساحتها عن ألف (لي) وعدد سكانها بضع عشرات الآلاف، لم يكن أمراً صعباً ولا يستحق الذكر.

وهكذا، تم إرسال القوات.

تم إرسال (لوه شنغ قاو) القائد العام لحامية (سونغ بان) لقيادة أكثر من عشرة آلاف جندي من جيش (تشينغ) والجنود المحليين لقمع (تشان دوي).

□□□□ □□□.indd 106-107 2025-11-27 10:55:53

القائد العام (لوه) يسحب القوات من تلقاء نفسه!

عندما تم إرسال القوات، تكررت القصة القديمة.

في بداية الحملة، كان الأمر سهلاً بشكل غير مسبوق: «لقد استولت القوات على جبل (زونغ موو دوو)، وهاجموا الأبراج الحصينة شرق النهر»، «واستمروا في التقدم، وأظهروا قوة الجيش، مما أرعب الأعداء.»

بعد ذلك، «خاف (لوّه بوتشي لي) من قوة الجيش، وأحضر أحد عشر مجرماً، بمن فيهم (لانغ جي تشي لي)». وطلب من شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا وغيره من شيوخ القبائل المرموقين والمؤثرين أن يتوسطوا له، فجاء إلى خيمة القائد العام (لوه)، «ويعرض تسليم ختم الزعامة ليتولى ابنه (آ غنغ) منصب شيخ القبيلة». أما هو، فيرغب في أن يتم نفيه إلى منطقة أخرى تبعد خمسمائة (لي) ليعيش حياة طبيعية.

وافق القائد العام (لوه) على هذا الطلب دون انتظار الموافقة من القيادة العليا!

في ذلك الوقت، كان جنرال (تشنغدو)، (تشانغ مينغ)، الذي كانت منطقة مسؤوليته تشهد حرباً، يستعد للذهاب إلى الجبهة، وغادر مكتبه في (تشنغدو) متجهاً إلى (دا جيان لو)، وتلقى تقريراً من (لوه شنغ قاو). لم يكن القائد العام (لوه) يطلب الإذن لاتخاذ هذا القرار، بل قال: «لقد وافقت على طلبه، وأمرته بالعودة، وسحبت القوات»، وأضاف أن «القوات في الطريقين قد انسحبت بالفعل لمسافة عدة أيام». وهذا يعني أن القوات قد انسحبت إلى أماكن تبعد عن الجبهة بمسافة عدة أيام من السير، وأن القوات المحلية التي كانت تشارك في الحملة «قد تفرقت وعادت إلى ديارها».

كانت هذه مشكلة جديدة في القصة القديمة.

غضب (تشانغ مينغ)، وقدم تقريراً إلى الإمبراطور، وكان هذا التقرير في الواقع شكوى.

في تقريره، قدم (تشانغ مينغ) اقتراحاً محدداً: «أطلب عزل (لوه شنغ قاو) من منصبه وتحويله إلى جندي عادي.»

رد الإمبراطور (جيا تشينغ) على الاقتراح قائلاً إنه «لا يكفي لردع الآخرين»، «يتم عزل (لوه شنغ قاو) واعتقاله، وتسليمه إلى الحاكم العام للتحقيق معه، وتقديم اقتراح بالحكم، ثم إبلاغنا به لطلب الموافقة.»

ذهب (تشانغ مينغ) إلى المستويات الأدنى، ورأى أمراً سيئاً آخر، وقدم تقريراً إلى الإمبراطور.

كان هناك ضابط صغير اسمه (توو تانغ آ)، كان متجهاً إلى منطقة (تشينغهاي) للتحقيق في «قضية نهب من قبل لصوص (شينينغ)». وهذا يعني أن هناك أيضاً «عصابات «جيا با»». ولكن عندما وصل إلى منطقة شيخ قبيلة (ده قه)، لم يستطع المرور، «قام شيخ القبيلة هذا بقيادة الزعماء القبليين للتمركز في وادي (آ لونغ) لمنع التقدم.» لذلك، قدم (توو تانغ آ) شكوى إلى (تشانغ مينغ) الذي كان في الجبهة بالقرب من (ده قه).

عندها، «وصل (تشانغ مينغ) بنفسه إلى المكان، ووجد أن شيخ قبيلة (ده قه) كان قد أرسل جنوده للتعاون مع القوات الحكومية في حملة (تشان دوي) الوسطى، وكان قد أعد الكثير من الماشية والخيول والإمدادات، وكان مخلصاً ومجتهداً للغاية. وبعد التحقيق، وجد أنه لم يكن هناك أي شيء يمنع (توو تانغ آ) من المرور، وأن الضابط (توو تانغ آ) [1] قدم شكوى كاذبة لأن شيخ القبيلة لم يخرج لاستقباله.»

هذا هو حال الجيش في المناطق الحدودية في ذلك الوقت، «لقد ظهر كل شيء من الداخل». إذا لم يخرج شيخ القبيلة لاستقبال المسؤول القادم، فإنه يغضب. هذه ظاهرة شائعة في المناطق التبتية حتى اليوم. عندما يأتي مسؤول ذو سلطة إلى منطقة أو مقاطعة، فإن المسؤولين المحليين يذهبون لاستقباله على الحدود بين المقاطعات. ولكن الآن، لا يزعج ذلك السكان كثيراً، حيث يقتصر الأمر على استقبال المسؤولين للمسؤولين. بالطبع، عندما يأتي مسؤول أكثر أهمية، فإن تعبئة جماهير الشعب والطلاب للوقوف على جانبي الطريق للترحيب به بالغناء والرقص هو أمر آخر.

لذلك، عندما قرأت هذا الجزء من التاريخ، لم أستطع إلا أن أتساءل، هل بدأت هذه العادة الرسمية تتشكل منذ عهد سلالة (تشينغ)؟

[redacted].indd 108-109 2025-11-27 10:55:53

وبغض النظر عن الأحاديث الجانبية، فقد شعر الإمبراطور (جيا تشينغ)، بعد قراءة هذا التقرير التفصيلي، برغبة في التعليق: «إن إدارة شيوخ القبائل والقبائل البربرية تعتمد كلياً على تطبيق العدالة في الثواب والعقاب، من أجل كسب قلوبهم. أما التصرف المتهور لـ(توو تانغ آ)، الذي يهدف إلى التنفيس عن غضبه الشخصي دون الاهتمام بشؤون الدولة، فهو أمر بغيض للغاية. لذا، يتم عزل (توو تانغ آ) واعتقاله، وتسليمه إلى الحاكم العام للتحقيق معه. وقد يكون الأمر متعلقاً بالابتزاز، أو التحرش، أو التهديد. لذا، يجب الحكم عليه بشدة، وتقديم الاقتراح بالحكم في أسرع وقت ممكن، دون أي تساهل.»

جنرال (تشنغدو) يشن حملة قمع مرة أخرى

بعد أن تعامل الجنرال (تشانغ مينغ) مع هذه الأمور، قام بإعادة تنظيم قواته، ووضع خطة، وأرسل القوات مرة أخرى للقيام بحملة.

في شهر مايو، كان الربيع قد عاد إلى الهضبة، وذابت الثلوج. وبعد أن نبت العشب، زادت نسبة الأكسجين في الهواء، مما جعل الظروف مناسبة للقتال.

بعد فترة وجيزة، تلقى الإمبراطور تقريراً: «في هذه الحملة على (تشان دوي) الوسطى، قام القائد (تساو شينغ بانغ) بقيادة زعماء قبيلة (تشان دوي) السفلى للاستيلاء على جبل (تسانغ دوو)، وقتلوا أكثر من مائتي من المتمردين، وأسروا أكثر من ثلاثين من بينهم (آ جيا جيانغ تسووه تشه لي)، واستسلم أكثر من مائتي بربري، ثم استسلم ثلاثمائة عائلة أخرى، وتم الاستيلاء على الكثير من السكاكين، والأسلحة، والأبقار، والأغنام، والخيول. أما (لوَه بو تشي لي)، فقد فر مع بقية العصابة إلى منطقة (ره لونغ).»

في هذه المرة، قامت قبيلة (تشان دوي) السفلى التي قاومت القوات الحكومية مرتين، بالقتال إلى جانب قوات (تشينغ).

عندما كان الإمبراطور يناقش الوضع في الجبهة مع كبار المستشارين العسكريين، سمع أخباراً جديدة: «لقد أصدر القائد العام وغيره من المسؤولين أوامر فورية للقائد العام (لوه سي جو) لعبور النهر عند جسر (روو لانغ) في (تشان دوي) السفلى، ومهاجمة (ره لونغ) من الخلف مع (تساو شينغ بانغ).»

في يونيو، رفع (تشانغ مينغ) تقريراً، جاء فيه: «تقدمت القوات الحكومية ووصلت إلى غرب النهر. بعد أن فر (لوَه بو تشي لي) إلى غرب النهر، قام مع شيخ القبيلة الكبير (با إر جيا) بجمع أتباعه في معسكر (تشيوه تشي) للمقاومة. وقام القائد العام (لوه سي جو) وغيره من المسؤولين بقتل أكثر من مائتين من المتمردين، بمن فيهم (دا نا تاي). وجاء أحد رؤساء (تشان دوي) العليا (قه قه رونغ تاي) مع عدة أشخاص من (تشان دوي) الوسطى، بمن فيهم (لانغ كا تسي لي)، واستسلموا في الجبهة العسكرية، سمح لهم القائد الأعلى للجيش بالاستسلام، وأصدروا أوامر لرؤساء القبائل في القرى المجاورة بالقدوم، تم احتجازهم في المعسكر، وأُمروا بتسليم سيوفهم وبنادقهم وأسلحتهم وأدواتهم.»

□□□□ □□□.indd 110-111 2025-11-27 10:55:54

قال الإمبراطور: «ما تم فعله صحيح. في هذا الوقت، ليس هناك ما يمنعنا من قبول استسلام البرابرة. ولكن البرابرة لديهم الكثير من الحيل، والطرق الجبلية وعرة، والأبراج الحصينة موجودة في كل مكان. وعندما تتوغل قواتنا في أراضيهم، فإن هؤلاء الزعماء لن يترددوا في المراقبة. وإذا حقق جيشنا انتصارات متتالية، فإنهم سيخافون وينضمون إلينا. ولكن إذا لم يكن جيشنا قوياً، فإنهم قد ينضمون إلى الأعداء، ويعيقون طريقنا، وهذا أمر خطير.»

كما قدم الإمبراطور بنفسه خطة، قائلاً: «يجب إبلاغ الرؤساء القبليين المستسلمين، وجعلهم في المقدمة، وأن تكون قواتنا تابعة لهم في الخلف، أولًا، باستخدام المتمردين لمهاجمة المتمردين، يمكن الاستفادة من قوتهم، ثانيًا، بما أن هؤلاء الرؤساء القبليين قد اشتبكوا بالفعل مع المتمردين، فبمجرد مغادرتهم (المنطقة) لن يتمكنوا من التوحد مرة أخرى، ويمكن منع تكرار انقلابهم.» بالنظر إلى هذا القول، فإن الإمبراطور (جيا تشينغ) عندما أرسل القوات إلى (تشان دوي)، لم يراجع ملفات حرب (تشان دوي) التي خاضها والده. لذلك لا يعلم أن هؤلاء الشيوخ القبليين الذين يطلبون من الإمبراطور العظيم إرسال قوات حاليًا، كانوا قد أرسلوا جنودًا محليين للمشاركة في الحملة العسكرية آنذاك، وبمجرد انسحاب جيش (تشينغ)، عاد (بان قون)، وتكررت قصة تبادله للهدايا باستمرار مع شيوخ القبائل المجاورة مثل قبيلة (ده قه)، وقبيلة (قان تسي) المنغولية الأصل، و(تشانغ قو)، و(كونغ سا)، و(ما شو)، و(تشووه).»

الشخص الذي لا يعرف التاريخ غالباً ما يعتقد بسذاجة أنه ذكي بشكل غير مسبوق.

الشخص الذي لا يعرف التاريخ غالباً ما يفعل أشياء قديمة، ويعتقد أنه يقوم بأعمال جديدة تماماً.

فجأة، انتهت حرب (تشان دوي).

تماماً مثل حرب (تشان دوي) السابقة، تم حرق الزعيم المتمرد (لوَه بو تشي لي) حتى الموت في معسكره.

ومرة أخرى، لم يتم العثور على جثته: «في المكان الذي تم فيه حرق (لوَه بو تشي لي)، لم يكن هناك دليل سوى سرج الخيل الحديدي، والبندقية، والخاتم الذهبي المرصع بالمرجان الذي كان يرتديه في يده. وكان جسده متفحماً لدرجة أنه لم يكن من الممكن التعرف عليه.» ولكن «جميع البرابرة» قالوا إن (لوَه بو تشي لي) قد احترق حتى الموت.

وبناءً على ذلك، أصدر البلاط أمراً بتقسيم أراضي وسكان (تشان دوي) الوسطى بين شيخي قبيلتي (تشان دوي) السفلى والعليا، وعاد الجيش منتصراً. وتمت مكافأة جميع الجنود، من قومية (الهان) والجنود المحليين، الذين شاركوا في الحرب. أما جنرال (تشنغدو)، (تشانغ مينغ)، فقد أصدر الإمبراطور مرسوماً بأنه «لم يتمكن من إلقاء القبض على زعيم التمرد حياً، ولن يتم منحه أي ترقية.»

تمت ترقية القائد الأعلى للجيش (دوه لونغ وو) والقائد العام (لوه سي جو). كما مُنح قادة الميليشيات المحلية الذين شاركوا في الحملة، مثل (لانغ إر جي) و(آ سي جيا)، لقب (با توو لوو). وكلمة (با توو لوو) تعني «الشجاع» باللغة المنشورية، وهي لقب فخري. أما شيخ قبيلة (ده قه) الذي شارك في الحملة، (تسه وانغ دوه إر جي)، فقد مُنح رتبة من الدرجة الثانية وريشة الطاووس.

قصة قديمة تتكرر نفسها مرة أخرى

في ديسمبر من العام الثاني والعشرين من حكم الإمبراطور (جيا تشينغ)، قدم مسؤول من (هوا يانغ) في سيتشوان مذكرة يذكر فيها أربع مشكلات في مقاطعة سيتشوان، وإحداها تتعلق بحرب (تشان دوي) التي انتهت للتو.

اتهم هذا المسؤول جنرال (تشنغدو)، (تشانغ مينغ)، بتزييف الإنجازات العسكرية، قائلاً: «علمت أن الزعيم المتمرد في (تشان دوي) الوسطى، (لوَه بوتشي لي)، لم يُحرق حتى الموت خلال الحملة السابقة. وبسبب العداوة التي كانت بينه وبين شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، (قه قه رونغ تاي)، فقد قام بقتل (قه قه رونغ تاي) هذا العام. هذا شيخ القبيلة البربري قوي جداً، وإذا لم يتم القضاء عليه، فإنه قد يتسبب في المزيد من المشاكل.» وهذا يعني أن (لوَه بوتشي لي) لم يُحرق حتى الموت، بل كان يقتل أعداءه في (تشان دوي).

إنها قصة قديمة تتكرر نفسها مرة أخرى، حيث لم يتم حرق الشخص الذي كان من المفترض أن يُقتل. في المرة السابقة كان اسمه (بان قون)، وفي هذه المرة تغير اسمه إلى (لوَه بوتشي لي). وهذا الشخص الذي لم يُحرق كان أكثروقاحة من (بان قون). فبعد انسحاب الجيش، عاد وقتل شيخ القبيلة (قه قه رونغ تاي) الذي كان قد استسلم لجيش (تشينغ).

لم يغضب الإمبراطور (جيا تشينغ)، ربما كان يتمتع بمزاج أفضل من والده، أوربما كان أكثروعياً بعيوب النظام الذي يحكمه، لذلك شعر أن الغضب لا يستحق. لقد أصدر فقط مرسوماً إلى حاكم سيتشوان، (جيانغ يو شيا)، «يجب التحقق من الأمر بدقة.»

في هذا الوقت، مات (تشانغ مينغ)، وتوفي بسبب المرض.

أجاب (جيانغ يو شيا) على الإمبراطور: «بعد أن تلقيت أمراً بالتحقيق في قضية عدم حرق الزعيم المتمرد (لوَه بوتشي لي)، قمت بإرسال ضابط سراً للتحقيق. هذه المنطقة بعيدة جداً عن المقاطعة، وسوف يستغرق الضابط حوالي شهرين للعودة، وسأقدم تقريراً عندما ينتهي التحقيق.»

سأل الإمبراطور مرة أخرى (ساي تشونغ آ) الذي كان جنرالاً في (تشنغدو) ثم عاد إلى العاصمة. قال (ساي تشونغ آ) للإمبراطور إنه، بالإضافة إلى (تشانغ مينغ) نفسه، سمع أيضاً شائعات بأن (لوَه بوتشي لي) لم يُحرق حتى الموت وعاد. تقول الأسطورة أن (لوَه بوتشي لي) هرب قبل أن يشن الجيش هجومه. غضب الإمبراطور الآن، فـ(تشانغ مينغ) قد مات ولا يمكن معاقبته، ولكن هناك آخرون يمكنهم تحمل المسؤولية. «يتم عزل القائد العام (لوه سي جو) واستجوابه، ويتم إرجاع (دوه لونغ وو) إلى سيتشوان، ويتم عزله واستجوابه أيضاً، والتحقيق في تزويرهم للأحداث السابقة، ويتم الحكم عليهم وفقاً للقانون وتقديم الاقتراح بالحكم.»

في أبريل من العام الثالث والعشرين من حكم الإمبراطور (جيا تشينغ)، جاءت نتائج التحقيق. قدم (جيانغ يو شيا) تقريراً: «وفقاً للتحقيق السري الذي أجراه المسؤولون الذين أرسلتهم، فقد تم القضاء على (تشان دوي) الوسطى، وتم تقسيم أراضيها بين (تشان دوي) العليا والسفلى، ثم جاءت مجموعة من البرابرة بقيادة (تشي لي غون) صهر (لوَه بوتشي لي)، وادعوا أن (لوَه بوتشي لي) لا يزال على قيد الحياة، وطلبوا استعادة الأراضي من (تشان دوي) العليا، وذهبوا بعد صراع. ومنذ ذلك الحين، لم يعد (تشي لي غون) يتسبب في أي مشاكل، ولكن (تشان دوي) العليا أصبحوا مستعدين دائماً لأي هجوم محتمل. وبعد التحقيق الدقيق، لم يتم العثور على أي أثر حقيقي لـ(لوَه بوتشي لي). أما (قه قه رونغ تاي)، فهو على قيد الحياة ولم يُقتل.»

أصدر الإمبراطور مرسوماً آخر: «يجب على الحاكم العام أن يواصل التحقيق وفقاً للمرسوم. يجب أن يتم القبض على (تشي لي غون) واستجوابه، حتى يتمكن من التمييز بين الحقيقة والباطل. على الرغم من أن (تشي لي غون) بربري ولا يستقر في مكان، ولكن بما أنه قد هاجم (تشان دوي) العليا في السابق، فمن الصعب ضمان أنه لن يعود مرة أخرى. يجب على (جيانغ يو شيا) أن يجد طريقة للتجسس عليه والقبض عليه. إذا تم القبض على (تشي لي غون) واعترف بأن (لوَه بوتشي لي) قد احترق حتى الموت، ثم تم معاقبته بسبب طلبه للأرض، فإن جميع الشكوك ستتبدد، ولن يتمكن أحد من نشر الشائعات الكاذبة. يجب على الحاكم العام أن يبذل قصارى جهده في التعامل مع هذا الأمر، ولا يتهاون فيه.»

في «المواد التاريخية التبتية لسجلات (تشينغ)» المكونة من تسعة مجلدات، و«ملخص شؤون التبت في عهد سلالة (تشينغ)» المكون من مجلدين، لم يعد هناك أي سجلات عن كيفية انتهاء هذه القضية، ويبدو أنها تم التغاضي عنها.

وعند الاطلاع على مواد أخرى، نجد أن (دوه لونغ وو) و(لوه سي جو)، اللذين أمر الإمبراطور بعزلهما واعتقالهما، لم يتأثرا كثيراً بهذا الأمر.

(دوه لونغ وو) ينحدر من أسرة من رجال الرايات، وكان جنرالاً عسكرياً. في عهد الإمبراطور (داو قوانغ)، شغل منصب وزير مساعد في (بي إرتشيانغ)، وفي العام السادس من حكم (داو قوانغ)، مات في المعركة في (بي تشنغ) بمنطقة (شينجيانغ).

XXXX XXX.indd 114-115 2025-11-27 10:55:54

تعتبر قصة حياة (لوه سي جو) أسطورية للغاية. هو من قومية (الهان) من سيتشوان، ومن عائلة فقيرة. «عمل كقاطع طريق بين (تشين) و(يو) و(تشوان) و(تشو)»، وهذا يعني أنه كان قاطع طريق قبل أن ينضم إلى الجيش. كان شجاعاً وذكياً في القتال، وبحلول عهد (جيا تشينغ)، تمت ترقيته إلى قائد عام. تقول سيرته الذاتية: «في العام العشرين، تمرد شيخ القبيلة البربري في (تشان دوي) الوسطى، (لوَه بوتشي لي)، وبنى أبراجاً حصينة على طول النهر. لم يتمكن القائد العام (لوه شنغ قاو) من هزيمته، وسمح له بالاستسلام، وتم نفيه بسبب تصرفه من تلقاء نفسه. وأُمر (سي جو) بشن حملة، واستولى على أربعة أبراج، وقضى على (لوَه بوتشي لي). وطلب تقسيم الأراضي لمكافأة رؤساء قبائل (تشان دوي) العليا والسفلى، وهكذا استقرت الأمور.» في العام الأول من حكم (داو قوانغ)، تمت ترقيته إلى قائد أعلى للجيش في (قويتشو). وبعد عشرين عاماً، توفي (لوه سي جو) وهو في منصبه.

هناك ثلاث قصص قصيرة عنه تستحق الذكر.

الأولى: أثار (تشاو جين لونغ) من (ياو) الفوضى في قرية (هونان)، وقُتل القائد الأعلى للجيش (هاي لينغ آ) في المعركة. تولى (لوه سي جو) قيادة القوات وذهب مجدداً للحملة التأديبية. حاصر (تشاو جين لونغ) ودحره تماماً في السابق، لم يكن الإمبراطور مطمئنًا، فأرسل الوزير (شي إن) للإشراف على الجيش. ولكن (لوه سي جو) قتل (تشاو جين لونغ) قبل ثلاثة أيام من وصول الوزير، وأخمد تمرد (ياو). هذا الأمر أثار استياء كبيراً لدى المسؤول المركزي الكبير، الذي غضب قائلاً: «لماذا لم تنتظر وصولي لتحقق هذا الانتصار؟" هذا المسؤول الكبير كان «متغطرسًا بسبب مكانته المرموقة، وغضب لأنه لم ينتظره، وهاجمه بقوة»، لكن (لوه سي جو) لم يأبه لذلك، فقال: «الكثير من السادة النبلاء يتوخون الحذر»، أما هو فلا يخشى شيئاً، قائلاً: "أنا سي جو مجرد رجل صعلوك لست من السادة النبلاء، تلقيت نعمة عظيمة من الدولة حتى أصبحت قائداً أعلى للجيش، ولا أعرف سوى أن أرد الجميل بالقتال حتى الموت، ، أما الأمور الأخرى المعقدة، فلا أعيرها أي اهتمام!»

سأل الوزير الذي جاء من العاصمة مرة أخرى، هل (تشاو جين لونغ) مات حقاً؟

على عكس الحملة السابقة على (تشان دوي)، هذه المرة كان لديه جثة (تشاو جين لونغ)، وختمه، وسيفه ليطلع عليها الوزير. وعندما يواجه مسؤولاً متمرداً كهذا، لا يمكن حتى للمفوض الإمبراطوري أن يفعل شيئاً.

الثانية: بعد أن أصبح (لوه سي جو) مسؤولاً كبيراً، لم يكن يخجل من الحديث عن كونه قاطع طريق، بل كان يذكر ذلك أمام الناس في كثير من الأحيان. حتى أنه كتب رسائل إلى جميع الدوائر الحكومية في مختلف المقاطعات والولايات في سيتشوان وشنشي وهوبي، قائلاً: « قاطع الطريق المطلوب القبض عليه، (لوه سي جو)، يخدم الآن الدولة ويؤدي لها خدمات جليلة، لذا عليكم إغلاق القضية.»

الثالثة: ذهب إلى بكين، واستقبله الإمبراطور (جيا تشينغ).

سأله الإمبراطور، أي مقاطعة لديها أفضل الجنود؟

فأجاب: «إذا كان القائد جيداً، فإن الجنود سيكونون جيدين.»

لاحقاً، تغير الإمبراطور، واستقبله مرة أخرى، وسأله كيف يطبق الثواب والعقاب بشكل عادل. وكان جوابه موجزاً أيضاً: «خطوة للأمام، ثواب. خطوة للخلف، عقاب.» وقال الإمبراطور ان الإجابة جيدة جداً.

وهكذا، انتهت الحملة الثالثة على (تشان دوي) في عهد سلالة (تشينغ).

إذاً، هل (لوَه بوتشي لي) قد احترق حتى الموت؟ بعد أن رأيت تصرفات (لوه سي جو)، أصبحت أنا أيضاً أصدق أنه احترق حتى الموت.

.indd 116-117 2025-11-27 10:55:54

الأساطير الشعبية، حيرةٌ بين الزمان والمكان

ولكن وفقاً لمقال «تاريخ صعود وسقوط (شين لونغ) (قونغ بو لانغ جيا)» الذي كتبه الباحث (شي راو وو ره) في المجلد الثالث من «مجموعة المواد الأدبية والتاريخية لمحافظة (قان تسي)»، فإن (لوَه بو تشي لي) لم يُحرق حتى الموت حقاً. تقول المقالة إنه عندما هاجمت قوات (تشينغ)، جاءت من (قان تسي) جنوباً، وعبرت جسر نهر (يالونغ) في (دا قاي)، وهاجمت (تشي يي)، وحاصرت مقر القيادة في (وا دا بوو رونغ). في ذلك الوقت، كان أحد أبناء (لوَه بو تشي لي) يهاجم (لو هوه) ولم يكن قد عاد، و(لوَه بو تشي لي) نفسه لم يكن في المقر، وكان ابنه (بوو لا ما) هو الوحيد الذي يدافع عن المقر. تظاهر (بوو لا ما) بأنه يريد الاستسلام لقوات (تشينغ)، وأرسل ممثلين للتفاوض، وقام بفرش السجاد ووضع الشاي، والسمن، وغيرها من الأشياء أمام المقر، مدعياً أنه يريد الترحيب بالجيش الحكومي وإطعامه. أرسلت قوات (تشينغ) ضابطاً اسمه (قو) مع جنوده لقبول الاستسلام، وبمجرد أن جلس، قام (بوو لا ما) بقتلهم جميعاً في كمين. غضبت قوات (تشينغ)، وهاجمت المقر، وأحرقته في تلك الليلة، ومات (بوو لا ما) حرقاً فيه.

عندما كنت في (شين لونغ)، وجدت وثيقة تبتية أخرى عن تاريخ (تشان دوي) كتبها راهب في الماضي، وقمت بترجمتها في (كانغدينغ). وتقول إن ابن (لوَه بو تشي لي) الذي قتل في مقر القيادة كان لاما. ولم تذكر أي تظاهر بالاستسلام: «قاوم الابن الثاني لـ(لوَه بو تشي لي)، (ون بو لاما)، بشدة، وأطلقت قوات (تشينغ) السهام على المقر من جميع الجهات، وقتل الضابط (قو) بسهم. لم تخف قوات الحصار من الموت، وقاموا برمي البارود داخل المقر، وفي خضم النيران الهائلة والانفجارات، مات (ون بو لاما) في المعركة، ودمر المقر تماماً. أما (لوَه بو تشي لي)، فقد اختبأ في البداية في منزل بالقرب من القرية، ثم هرب إلى الجبال العميقة، ويُقال إنه كان يتلقى الطعام والشراب من عائلة (جيا ري) وأبناء عائلة (آ سه) لأكثر من عام.»

أما بالنسبة لما حدث لـ(لوَه بو تشي لي) لاحقاً، فلم أجد أي معلومات في المواد الشفهية أو المكتوبة التي اطلعت عليها.

في ضوء شمس نوفمبر، وقفت على ضفة نهر (يالونغ)، واستمعت إلى صديق محلي وهو يشير إلى أنقاض برج مراقبة على الضفة الأخرى، ويروي قصة قديمة. تقول القصة إن زعيماً قبلياً متمرداً حوصر من قبل القوات الحكومية والميليشيات. من الجانب الشرقي للنهر، أطلق أحد أتباعه الذين استسلموا بالفعل نداءً لحثه على الاستسلام. ولكن نداء هذا التابع كان شتائم شريرة تماماً: أيها اللعين الذي تستحق ألف موت، لقد حانت نهايتك! عندما تضربك المدافع، ستتحول أنت ومقر قيادتك إلى رماد! وعندما تحرقك النيران، ستصبح أنت ومقر قيادتك قرابين نارية للآلهة الحامية! أيها الشرير المليء بالآثام، هل تجرؤ على النظر؟ لقد حاصرك الجيش من كل الجهات، ومحاولة الاختراق هي حلم بعيد المنال! النهر هو المكان الوحيد الذي لا يوجد فيه جنود، إذا كنت تخاف من الاحتراق، فاقفز في النهر لتطعم الأسماك! قال صديقي المحلي إن هذا التابع كان يلمح للزعيم المحاصر بأنه يمكنه محاولة الهرب من النهر تحت الضفة شديدة الانحدار لمقر القيادة. وبالطبع، فإن مياه النهر باردة وسريعة، والسباحة للهروب من هناك تعني أنك لن تنجو إلا بأعجوبة. وفهم شيخ القبيلة هذا التلميح المخفي في النداء. وهكذا، قفز شيخ القبيلة في النهر ليلاً، ونجا بالفعل.

لكن من كان هذا الشخص؟ في عهد سلالة (تشينغ)، خاضت (تشان دوي) ثلاث حروب مع الحكومة، وستخوض حروباً أخرى لاحقاً. وقد اختلطت شخصيات هذه القصص في الأساطير المحلية، فيقول البعض إنه (بان قون)، والبعض الآخر يقول إنه (لوَه بو تشي لي)، ولكن الأغلبية يقولون إنه البطل الذي سيظهر لاحقاً، (قونغ بو لانغ جيا). وهناك شخص آخر أكثر حداثة، وهو زعيم التمرد الذي قاوم الإصلاح الديمقراطي في عام 1956، بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية. وقد نجا هذا الشخص بالفعل، وذهب إلى المنفى في الهند مع الدالاي لاما.

في محافظة (شين لونغ) اليوم، وعندما أبحث عن القصص القديمة في (تشان دوي)، غالباً ما أجد نفسي في متاهة من الروايات الشعبية، وأشعر أحياناً بوجود سحر يمزج بين الزمان والمكان.

إذا لم أكن أبحث عن حقائق تاريخية، بل أستمع إلى هذه الأساطير من منظور السرد، فإنها تعطيني كروائي الكثير من الإلهام حول كيفية التعامل مع الزمان والمكان.

.indd 118-119 2025-11-27 10:55:54

الفصل الرابع

وهكذا، وحَّد (قونغ بو لانغ جيا) منطقة (تشان دوي) بأكملها، وقضى على كل شيوخ القبائل في (تشان دوي) العليا والسفلى الذين عينهم البلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ). وقام برمي الأختام، والوثائق، والملابس الرسمية، والقبعات التي منحها إياهم أباطرة سلالة (تشينغ) في النهر دفعة واحدة. وقال: «أنا لست مسؤولاً (هانياً)، ولا مسؤولاً تبتياً، لقد أصبحت قوياً بجهدي، وهذا هو المنصب الذي أريده.»

.indd 120-121 2025-11-27 10:55:54

(تشي شان) في التبت

بعد الإمبراطور (جيا تشينغ) في سلالة (تشينغ)، جاء الإمبراطور (داو قوانغ).

في عهد الإمبراطور (داو قوانغ)، بدأت قوة سلالة (تشينغ) تتدهور. كانت الاضطرابات مستمرة في مناطق الأقليات العرقية، واندلعت أعمال شغب دينية في مناطق (الهان)، وهي مشكلة قديمة ظلت تظهر وتختفي منذ تأسيس سلالة (تشينغ). أما الوضع الجديد وغير المسبوق، فهو أن الأجانب بدأوا يغزون البلاد، وهزموا جيش سلالة (تشينغ) هزيمة ساحقة. بعد أن خسرت سلالة (تشينغ) الحرب التي اندلعت بسبب حظر تجارة الأفيون، تقول كتب التاريخ البسيطة فقط إن زعيم الجناح المناهض للحرب، (لين تسي شوو)، قد تم عزله ونفيه، ولكنها لا تذكر أن (تشي شان)، الذي كان يعتبر ممثلاً لجناح الاستسلام، لم يكن مصيره أفضل، فقد تم «عزله وتقييده، ومصادرة ممتلكاته». وهذا يدل على أنه في مواجهة عدو قوي، لم يكن الإمبراطور يعرف ما إذا كان يجب عليه القتال أو الاستسلام. ولكن عندما فشل كلا الخيارين، لم يكن مضطراً لتحمل المسؤولية، بل جعل الوزراء ككبش فداء ليتحملوا المسؤولية.

"كان الإمبراطور بالطبع على دراية تامة بهذه الأمور، لذلك أعاد تعيين (تشي شان (بعد بضع سنوات. وهكذا، ظهر (تشي شان) في لاسا، وتولى منصب «الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت»، وهو ما لا يعرفه معظم الصينيين. تقول السجلات التاريخية إن (تشي شان) «كان لا يزال محترماً ومجتهداً» في منصبه. بعد توليه منصبه، بدأ في تطهير الحكومة المحلية في التبت، وحقق في قضايا الفساد والرشوة التي تورط فيها كبار المسؤولين في حكومة الكاشاغ. كان ذلك في العام الرابع والعشرين من حكم الإمبراطور (داو قوانغ)، أي عام 1844، بعد أربع سنوات من اندلاع حرب الأفيون الأولى.

سبق أن ذكرنا أنه في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، تمرد أمير التبت بالتعاون مع قبيلة (زونغار) المنغولية، فقام (فو تشينغ) بقتل الأمير، ولكن (فو تشينغ) قُتل هو الآخر على يد المتمردين أثناء عمله. فأرسل الإمبراطور (تشيان لونغ) جيشاً إلى التبت لقمع التمرد. وبعد إخماد التمرد، تم وضع ٢٩ مادة «لإصلاح التبت»، وتم إلغاء نظام الأمير إلى الأبد. وانتهت بذلك حالة الفصل بين الدين والدولة، حيث كان النبلاء العلمانيون يسيطرون على السلطة السياسية، والدالاي لاما يسيطر على السلطة الدينية. وتم نقل السلطة العلمانية التي كان يمتلكها الأمير إلى الدالاي لاما. ومنذ ذلك الحين، أصبح الدالاي لاما قائداً دينياً في التبت وفي الوقت نفسه يمتلك السلطة الإدارية للحكومة المحلية في التبت. وبذلك، تشكل رسمياً نظام دمج الدين والدولة الذي أثر على استقرار التبت والمنطقة التبتية بأكملها في العصر الحديث. وعلى الرغم من أن وجود وزير مقيم في التبت كان يحد من سلطة الدالاي لاما الذي كان يجمع بين السلطتين الدينية والسياسية، إلا أنه في الوقت الذي تولى فيه (تشي شان) منصبه، ومع ضعف سلالة (تشينغ)، تضاءل نفوذ الوزير المقيم في الحكومة المحلية في التبت بشكل كبير. كان مسؤولو حكومة (كاشاغ) محافظين وفاسدين، ولم يكونوا على دراية بالوضع العالمي، وكانوا يتلاعبون بالسلطة ويشكلون عصابات، وكانت إدارتهم الداخلية في حالة يرثى لها. في مواجهة هذا الوضع، سعى (تشي شان) لإعادة تأهيل سياسة التبت، وخطط لإجراء إصلاحات، وقدم «٢٨ مادة لإصلاح الممارسات السيئة في (شانغ شانغ)». «شانغ شانغ» كانت في الأصل مؤسسة إدارية شخصية للدالاي لاما، ولكن بعد أن أصبح الدالاي لاما يسيطر على السلطتين الدينية والسياسية في التبت، أصبحت «شانغ شانغ» تدريجياً اسماً آخر لحكومة (كاشاغ). ركز إصلاح (تشي شان) على إعادة التأكيد على أن مكانة الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت مساوية للدالاي لاما و(البانتشن لاما)، وشدد على أن الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت هو المسؤول عن الشؤون الخارجية.

كما حقق (تشي شان) في قضية الوصي على الدالاي لاما، (تسه موه لين) الثاني، الذي سيطر على حكومة (كاشاغ) لمدة ستة وعشرين عاماً بسبب صغر سن الدالاي لاما. وقام (تشي شان) بعزله، ومصادرة ممتلكاته.

وبعد ذلك، بدأ في إعادة تنظيم القوات في التبت.

في أغسطس من العام الرابع والعشرين من حكم الإمبراطور (داو قوانغ)، قدم (تشي شان) تقريراً: «إن الجنود والضباط في التبت كانوا يتغيرون كل ثلاث سنوات، وكان مسموحاً لهم بتوظيف نساء تبتيات للقيام بأعمال الخياطة وجلب الحطب والماء.» وهذا يعني أن الجنود في التبت كان يمكنهم توظيف نساء تبتيات محليات لخياطة ملابسهم وجمع الحطب والماء. ولكن بعد ذلك، لم يتم تطبيق نظام التغيير كل ثلاث سنوات بشكل طبيعي، «وبقي الجنود لفترات طويلة، وقل عدد التغييرات، وأصبح أبناء الجنود الذين ولدوا من علاقات غير شرعية يأكلون ويشربون في المعسكر، ويمثلون اثنين أو ثلاثة من كل عشرة.» وبسبب عدم تغيير الجنود بشكل منتظم، أصبح لديهم «أبناء غير شرعيين» من «النساء البربريات» المحليين. وبما أن أبناء الجيل الثاني من الجنود يكبرون يوماً بعد يوم، فإنهم يأكلون ويشربون في المعسكر، وهذا جعل المعسكر لا يشبه المعسكر، «كما أن هناك خوف من أن يتحول الجنود والضباط إلى قبائل (تانغ قوته)». كان (تشي شان) قلقاً من أنه إذا استمر هذا الوضع، فإن الجنود والضباط في التبت سيتأثرون بالثقافة التبتية بشكل كبير.

.indd 122-123 2025-11-27 10:55:55

دعنا نوضح مصطلح «تانغ قوته» أولاً. في عهد سلالة (تشينغ)، لم يكن هناك مصطلح موحد لـ«التبتيين» لتعريف السكان الأصليين على هضبة (تشينغهاي) والتبت. كان البعض يُعرف بـ«تانغ قوته»، والبعض الآخر بـ«بربري»، مثل سكان (تشان دوي) الذين كنا نراهم في التقارير السابقة، فقد كانوا يُعرفون بـ«برابرة». وقبل الحملة على (جين تشوان)، كان السكان المحليون يُعرفون بأسماء أخرى مثل قومية «مياو مان».

وافق الإمبراطور على إجراءات (تشي شان): «يجب تغيير الجنود كما هو معتاد عند حلول وقت التغيير، والسماح لعدد قليل منهم بالبقاء.»

ولكن لا أحد يعلم ما إذا كان هذا سيتم تنفيذه. فسبب بقاء هؤلاء الجنود لفترة طويلة هو أنه لم يكن هناك جنود ليحلوا محلهم، بالإضافة إلى تأخر دفع رواتبهم، لذلك اضطروا للبقاء في المعسكرات بانتظار استلام مستحقاتهم.

وفي نفس الشهر من العام، قدم (تشي شان) تقريراً آخر: «إن الذخيرة والرصاص التي يجب أن تكون موجودة في التبت قد تم استخدامها بشكل مفرط، وهي غير كافية للتدريبات.» لقد تسبب الاستخدام المفرط في عجز كبير في مخزون الأسلحة. وذكر التقرير الأرقام المحددة: «أربعة آلاف ومائة وستون (جين) من البارود، وألف وستمائة قرص من الفتيل، وثلاثة وثلاثون ألف رصاصة، ومائتا قذيفة.» فما الحل؟ «يتم محاسبة جميع الوزراء المقيمين في التبت الذين كانوا مسؤولين عن هذا الأمر.» وعلى الرغم من أنهم قاموا بمحاسبة مجموعة من المسؤولين الكبار، فإن الفساد كان منتشراً بين المسؤولين الكبار والصغار، وكانوا أكثر شجاعة من الجنود في ساحة المعركة.

وعلى طريق سيتشوان والتبت، كان هناك مسؤولون يُطلق عليهم اسم «مسؤولو الإمدادات»، وهم مسؤولون عن نقل وتخزين المؤن. قدم (تشي شان) تقريراً آخر إلى الإمبراطور، يذكر فيه أن العديد من مسؤولي الإمدادات، عندما يعودون إلى سيتشوان بعد انتهاء مهامهم، لا يقومون بمراجعة مالية، مما يجعل «حساباتهم غير واضحة، لذا أطلب منهم العودة إلى التبت لتقديم كشف حساب». أصدر الإمبراطور مرسوماً، وأُمر اثنان من مسؤولي الإمدادات الذين أصبحوا حكام محافظات في سيتشوان بالعودة إلى التبت «لتقديم كشف حساب واضح».

وبالمصادفة، بينما كان (تشي شان) يقوم بإصلاحات كبيرة في التبت، تم إعادة استخدام (لين تسي شوو) في العام السادس والعشرين من حكم الإمبراطور (داو قوانغ)، بعد نفيه إلى (إيلي) بسبب موقفه المؤيد للحرب في حرب الأفيون. وعُين حاكماً عاماً لـ(شانشي) و(قانسو). ولكن قبل أن يصل إلى منصبه، واجه تمرداً آخر من البرابرة في منطقة (تشينغهاي)، فأُمر أولاً بـ«البحث عن اللصوص البرابرة والقبض عليهم»، «فقد تم تعيين (لين تسي شوو)، بصفته حاكماً عاماً لـ(شانشي) و(قانسو)، حاكماً لـ(شانشي)، وأُمر بالانتهاء من التعامل مع شؤون البرابرة قبل التوجه إلى منصبه الجديد.»

في العام السادس والعشرين من حكم الإمبراطور (داو قوانغ)، بعد عامين فقط من وصول (تشي شان) إلى التبت، وعندما بدأت الأمور التي كان يعمل عليها تتضح، تلقى تعييناً جديداً، حيث «تم منحه رتبة من الدرجة الثانية، وتعيينه حاكماً عاماً لسيتشوان».

بما أن الحاكم العام الجديد لم يكن قد وصل إلى منصبه بعد، فقد اضطر (تشي شان) إلى الاستمرار في عمله في التبت، وانتظر وصول الحاكم العام الجديد. لم يتمكن (تشي شان) من المغادرة إلا بعد أكثر من عام، في العام الثامن والعشرين من حكم (داو قوانغ).

[redacted].indd 124-125 2025-11-27 10:55:55

في(لي تانغ)، المسؤول الكبير(تشي شان) يواجه عصابة «جيا با»

في طريق عودة (تشي شان) إلى منصبه، واجه موقفاً غير سار على الإطلاق.

كان ذلك مرة أخرى على الطريق الرسمي في منطقة (لي تانغ). قيل للمسؤول (تشي شان) إن الطريق أمامه مسدود ولا يمكنه المرور. والسبب في إغلاق الطريق هو أن عصابات «جيا با» كانت تقوم بالنهب، مما أدى إلى قطع الطريق الرسمي. ومن أين جاءت هذه العصابات؟ قال شيوخ القبائل المحليون إنهم جاءوا من (تشان دوي).

وبسبب قطع طريق سيتشوان والتبت السريع، حوصر المسؤول (تشي شان) في مقر شيخ قبيلة محلي لأكثر من عشرة أيام، ولم يستطع التقدم.

لا أعرف ما إذا كان المسؤول (تشي شان) يعرف شيئاً عن الأحداث القديمة. إذا كان يعرف، فإن اسم (تشان دوي) يجب أن يكون مألوفاً لديه. وحتى لو لم يكن يعرف شيئاً من قبل، فإن هؤلاء «البرابرة المجانين» الذين لا يعرفون حدودهم، لا بد أنهم تركوا لديه انطباعاً عميقاً. (وهنا) تذكرت مرة أخرى «أغنية المبارز» (أغنية الفروسية) الأخرى التي قرأتها في (كانغدينغ):

حصاني المجنح تحت ساقي،

أحتاجه لعبور السهول الشاسعة.

على ظهري خمس صواعق وخمس حبات بَرَد،

أحتاجها لأثقب بها جماجم الأعداء.

سيفي المعقوف الذي لا يلامسه الندى معلق على خصري،

أحتاجه لأقطع به رؤوس الأعداء.

واجه (تشي شان)، الحاكم العام لسيتشوان، مثل هؤلاء الأشخاص في سهول (كانغ با) التابعة لسيتشوان. في ذلك الوقت، هُزم شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا في صراع داخلي، وطُرد من موطنه، وكان يقيم مؤقتاً في منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ). وقد استغل الفرصة لإبلاغ (تشي شان) بالوضع في (تشان دوي).

بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على الحملة الفاشلة على (تشان دوي) الوسطى في العام العشرين من حكم الإمبراطور (جيا تشينغ)، عاد (تشان دوي) الوسطى للظهور مرة أخرى تحت قيادة ابن (لوّه بو تشي لي)، (قونغ بو لانغ جيا). وعندما وصل (تشي شان) إلى (لي تانغ)، كان (قونغ بو لانغ جيا) قد هزم تماماً شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى، وضم جميع أراضي (تشان دوي) تحت سيطرته، وبدأ يهاجم شيوخ القبائل المجاورة بشكل متكرر. وعلى عكس الهجمات السابقة التي كان يشنها سكان (تشان دوي) بهدف النهب، كان (قونغ بو لانغ جيا) يهدف إلى ضم الأراضي والسيطرة عليها لفترات طويلة. اعتقد (تشي شان) أن شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى قد تم تعيينهما من قبل بلاط (تشينغ)، وأن (قونغ بو لانغ جيا) استولى على أراضيهم وختمهم، وهذا يعتبر تحدياً واضحاً للأوامر الإمبراطورية، ويجب إرسال القوات لقمعهم. ولكن بما أنه كان لا يزال في الطريق، لم يكن لديه خيار سوى الانتظار حتى يتولى منصبه الجديد قبل أن يتخذ أي إجراء. وبعد أيام، وصل (تشي شان) إلى (دا جيان لو)، وجاء خمسة من شيوخ القبائل من شمال (تشان دوي)، وهم: (تشانغ قو)، و(ما شو)، و(كونغ سا)، بالإضافة إلى شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الذي كانت أراضيه حول (دا جيان لو)، ليشتكوا من (قونغ بو لانغ جيا) الذي كان يهاجم أراضيهم وينهب سكانهم.

حتى قبل أن يصل (تشي شان) إلى منصبه الجديد، رأى هذا الوضع، وشجع شيوخ القبائل على اتخاذ الإجراءات أولاً. وفي (دا جيان لو)، قدم تقريراً عن الوضع في (تشان دوي)، وفي الوقت نفسه، أمر خمسة من شيوخ القبائل من شمال (تشان دوي)، وهم: (تشانغ قو)، و(ما شو)، و(تشو ووه)، بالإضافة إلى شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) من الشرق، وشيخ قبيلة (ده قه) من الشمال الغربي، وزعماء قبيليتي (لي تانغ) و(با تانغ) من جنوب (تشان دوي)، وشيخ قبيلة (تشونغ ديان) من الجنوب، بجمع القوات والمؤن لمهاجمة (تشان دوي) بشكل مشترك.

هذه العملية لم تُسجل في السجلات الرسمية تقريباً.

[redacted].indd 126-127 2025-11-27 10:55:55

في (شين لونغ) اليوم، وفي (تشان دوي) القديمة، أبحث عن آثار المعارك القديمة، وأستمع إلى القصص الشعبية، وأبحث عن المواد التاريخية التبتية المحلية. ما أريد معرفته هو تاريخ (تشان دوي) بأكمله خلال القرون التي امتدت من عهد سلالة (تشينغ) إلى جمهورية الصين. و(قونغ بو لانغ جيا) هو مجرد جانب واحد من بحثي. ولكن في الأساطير المحلية، يوجد بطل واحد فقط، وهو (قونغ بو لانغ جيا). في عهد سلالة (تشينغ)، تم إرسال القوات إلى (تشان دوي) عدة مرات، واستمرت الحروب، ولكن الذاكرة الشعبية المحلية لم تحتفظ إلا بالحرب التي أشعلها (قونغ بو لانغ جيا)، وقد نُسيت الحروب الأخرى. أوربما، أن قصص هؤلاء الأشخاص الأقوياء الذين تجرأوا على تحدي الأوامر الإمبراطورية قد نُسبت إلى (قونغ بو لانغ جيا).

يبدو أنه شخصية تاريخية تستحق الاهتمام بشكل خاص.

من هو (بو لو مان)

الأكثر إثارة للسخرية هو أنه قبل أن أذهب إلى (شين لونغ)، كلما كنت أتحدث عن تاريخ (تشان دوي) القديم، كان الجميع يقولون إن هناك بطلاً اسمه (بو لو مان). وإذا كنت أتحدث مع شخص من (شين لونغ)، فإنهم كانوا يظهرون فخرهم به بوضوح. بحثت في السجلات الرسمية، ولكنني لم أجد هذا الاسم أبداً. كنت أشعر بالخجل من نفسي، ولفترة طويلة، كنت أبحث في الكتب القديمة عن تاريخ (تشان دوي) القديم، ولكنني لم أعرف أبداً من هو هذا الشخص.

موطني (ما إركانغ) يقع بالقرب من (جين تشوان) الكبرى، وفي الماضي، كانت تحكمه أربعة من شيوخ القبائل. قبل يومين من ذهابي إلى (شين لونغ)، قامت مجموعة من كبار السن من مسقط رأسي الذين يعملون في (تشنغدو) بتأسيس جمعية تجار (ما إركانغ) في (تشنغدو)، ودعوني للمشاركة. في حفل الافتتاح، رأيت قائداً قديماً كان قد تولى مناصب إدارية في كل من محافظتي (آ با) و(قان تسي). سألني عن وجهتي، فقلت له إنني سأذهب إلى (شين لونغ) بعد يومين. فسألني: هل ستكتب عن (بو لو مان)؟ وقبل أن أجيبه، دخل الرجل في حالة من التأمل، وقال متنهداً إن (بو لو مان) شخص مثير للاهتمام. لم أجرؤ على سؤاله من هو هذا الشخص العظيم.

عندما وصلت إلى (شين لونغ)، كان اسم الفندق الذي أقام فيه هو فندق (بو لو مان). وأخيراً، في غرفة الشاي في هذا الفندق، عقدت ندوة مع هواة التاريخ المحليين، وظهر اسم (بو لو مان) بشكل متكرر. وأخيراً، طرحت السؤال الذي لم أجد له إجابة في سجلات سلالة (تشينغ): من هو (بو لو مان)؟

.indd 128-129 2025-11-27 10:55:55

أجابوا أن (بولو مان) تعني «الأعمى»، أو «ذو العين الواحدة».

إذن، هو شخص ذو عين واحدة. لكن السؤال لا يزال قائماً، من هو (بولو مان)؟

أدرك أصدقائي المحليون أنني لا أعرف، وقالوا إنه (قونغ بولانغ جيا)!

وهكذا، ضحكت عالياً، وضحك الجميع أيضاً.

الأساطير الشعبية غنية ومتنوعة، وعلى الرغم من أنها تزيد من صعوبة التحقيق التاريخي، إلا أنها مليئة بالتفاصيل، وروايتها حية، مما يجعلها ساحرة. أما عن كيف أصبح (بولو مان) ذا عين واحدة، فهناك روايات مختلفة.

الأولى، وهي الأكثر تصديقاً بالنسبة لي.

في شبابه، وقبل أن يصبح (قونغ بولانغ جيا) شخصية عظيمة، قام بتحريض عائلتين قويتين في (تشان دوي) للقتال، وكان يأمل أن يضعف كل منهما الآخر. وأثناء القتال، كان يختبئ في برج مراقبة، ويتجسس على مجريات المعركة من النافذة. ونتيجة لذلك، أصابته رصاصة طائشة في النافذة، وأصيبت عينه بشظايا من إطار النافذة.

أي عين؟ قيل إنها عينه اليسرى.

وفي يوم ما، جلست أمام لاما بالقرب من موقع مقر (قونغ بولانغ جيا) القديم، وراح يروي أسطورة (بولو مان). كان اللاما شاباً، في الأربعينيات من عمره، وقام بترتيب عباءته، ومسح وجهه بيديه، وروى قصة، وتنهد، ثم مسح وجهه مرة أخرى، وروى قصة أخرى. قال إنه عندما ولد (قونغ بولانغ جيا)، رآه راهب عظيم بثلاث عيون، وعرف أنه شيطان تجسد، فمسح وجهه بلطف، وأغلق إحدى عينيه، مما قلل من قوته الشيطانية. أما الأشخاص العاديون، فلم يروا عينه الثالثة، فاعتقدوا أنه ذو عين واحدة، وأطلقوا عليه اسم (بولو مان).

هناك روايات أخرى من هذا القبيل، ولكنها جميعاً تتأثر بالغموض والمصير في البوذية التبتية، ولن نذكرها كلها.

ومع ذلك، كان ذهابي إلى (شين لونغ) مفيداً للغاية. أولاً، حصلت على معلومات يمكنها أن تكمل النقص في السجلات الرسمية، والأهم من ذلك، أنني تمكنت من رؤية الناس والأحداث في (تشان دوي) من وجهة نظر السكان المحليين. هذا النهج، الذي يعتمد على وجهات نظر متعددة، قد يكون أقرب إلى الحقيقة الموضوعية. إذا تحدثنا عن (تشان دوي) من وجهة نظر سكانها، فإن تاريخها سيكون أقدم بكثير، وبالطبع، سيكون أقرب إلى الأسطورة. لذا، دعونا نبدأ من أصل (تشان دوي). في بداية القصة، ظهرت عصابة «جيا با» فجأة، مما تسبب في حرب مفاجئة. الآن، حان الوقت لنبدأ من البداية.

□□□□ □□□.indd 130-131 2025-11-27 10:55:55

(تشان دوي) - الكتلة الحديدية

عندما ذهبت إلى (تشان دوي)، سألت السكان المحليين عن معنى كلمة (تشان دوي).

كان الجواب مليئاً بالفخر: الكتلة الحديدية!

يُقال إنه في القرن الثالث عشر، كانت هناك سلالة حاكمة في بكين تسمى (يوان). ومنذ ذلك الوقت، وبفضل راهب اسمه (شي راو جيانغ زه)، حصلت هذه المنطقة على اسم (تشان دوي).

في منطقة (تشان دوي)، يوجد جبل مقدس يسمى (تشا قا)، وهو قمة على شكل أسد ذكر، لا يوجد عليها أشجار أو زهور، بل صخور حادة ومتعرجة تخترق السماء. لقد تسلقت هذا الجبل المقدس. ومن الأعلى، يمكن رؤية ديران صغيران بين غابات التنوب والمروج على سفح الجبل. وأسفل ذلك، توجد حوض جبلي صغير مفتوح. تتلوى الجداول في الحوض، وعلى المنحدرات اللطيفة على جانبي النهر، توجد حقول زراعية. وبين الحقول، توجد قرى ومساكن متناثرة، هادئة ومسالمة. وفوق القرى، توجد غابات كثيفة. هذه المنطقة تسمى (شيونغ لونغ شي)، وهي الآن بلدة تابعة لمحافظة (شين لونغ).

وُلد الراهب العظيم (شي راو جيانغ زه) في (شيونغ لونغ شي). وأصبح راهباً، وفي عام 1253، ذهب إلى بكين مع الراهب العظيم (با سي با) من طائفة (سا جيا) التبتية، لمقابلة (قوبلاي خان). تقول الأسطورة إن (شي راو جيانغ زه) أظهر قوته السحرية أمام الإمبراطور (قوبلاي خان)، وقام بثني سيف بيديه ليحوله إلى كتلة حديدية. وبسبب ذلك، منحه (قوبلاي خان) ختماً رسمياً، وأمره بالعودة إلى موطنه ليكون مسؤولاً. ولكن (شي راو جيانغ زه) عاد إلى موطنه، ولم يكن مهتماً بالحياة الدنيوية، واستمر في ممارسة شعائره الدينية في الدير. وترك السلطة التي حصل عليها من سلالة (يوان) لأخته. ومنذ ذلك الحين، نشأت عائلة مرموقة في هذه المنطقة. كان اسمها التبتي هو «(تشان دوي بن تشونغ)»، ويعني العائلة التي حصلت على منصب رسمي بسبب ثني الكتلة الحديدية. وتغير اسم المنطقة التي كانت تحت سيطرة هذه العائلة تدريجياً، وأصبحت تسمى (تشان دوي).

تَقع (تشان دوي) في منطقة (كانغ با)، ودائمًا ما يشتهر أهالي (كانغ با) بشجاعتهم وشدة بأسهم، فيما يشتهر أهالي (تشان دوي) بأنهم الأشجع والأشد بأسًا بين أهالي (كانغ با). ويفتخر أهل المنطقة بذلك قائلين: (تشان دوي) هي كتلة من الحديد!

في عهد سلالة (تشينغ)، تقول الأساطير المحلية والوثائق التبتية إن شيوخ القبائل الأقوياء الذين ذكرناهم في قصص الحروب كانوا من سلالة (شي راو جيانغ زه). ولكن هل هذا صحيح، أم أنهم قاموا بتزوير نسبهم ليظهروا أنهم من سلالة نبيلة؟ هذا أمر يصعب التحقق منه الآن.

بعد أن حصلت عائلة (تشان دوي) على التكريم من سلالة (يوان)، غادرت (شيونغ لونغ شي)، التي تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من (تشان دوي)، وذهبت إلى (ره لوو)، وهو وسط (تشان دوي)، أي حيث تقع مدينة (شين لونغ) اليوم، وبنوا مقر قيادة (ره لوو) في عام 1270. وبما أن التل في (ره لوو) الذي يمتد نحو نهر (يالونغ) يشبه شكل التنين، والمقر بني على رأسه، وبما أن أخت (شي راو جيانغ زه) كانت هي الحاكمة، فقد أطلق على المقر اسم (تشو مو و كا)، ويعني مقر التنين الأنثى.

بعد ذلك، لا توجد أي سجلات عن هذه العائلة لمدة ثلاثمائة عام. وبحلول عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) و(تشيان لونغ)، كما ذكرنا سابقاً، ادعى شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى أنهم من سلالة نبيلة، وأنهم ينحدرون من «تشان دوي بن تشونغ» الذي ثنى الكتلة الحديدية. ولكن بسبب توسع العائلة تدريجياً، انقسمت إلى فرعين، يحكم كل منهما (تشان دوي) العليا والسفلى، وهما شيخي القبيلتين اللذان كرّمتهما سلالة (تشينغ).

أما عائلة (لوَه بو تشي لي)، فقد انحدرت من عائلة شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، وهذا أمر مؤكد تماماً، وفقاً للروايات الشفوية والمواد المكتوبة التي حصلت عليها.

على الرغم من أن (شانغ)، و(تشونغ)، و(شيا) (تشان دوي) يدعون أنهم من نفس النسب النبيل، فإن منطقة سيتشوان التبتية كانت دائماً عالماً يسيطر فيه القوي على الضعيف. وحتى لو كانوا من نفس النسب، فإنهم كانوا يتجنبون الحروب الدموية من أجل التوسع أو الحماية الذاتية. عندما كانت قوتهم تتغير، ويتقاتلون، لم يكونوا يعتبرون الحدود التي حددتها سلالة (تشينغ) أمراً مقدساً، بل كانوا يتصرفون وفقاً لقانون الغابة القديم. ومن أجل التنافس على السكان والأراضي، كانوا يشكلون تحالفات وينفصلون عنها، وكانت الحروب الدموية تحدث حتى بين الأقارب.

.indd 132-133 2025-11-27 10:55:55

على مر مئات السنين، كان الاستيلاء على السكان والأراضي بالقوة والمؤامرات هو الطريقة الوحيدة لشيوخ القبائل المحليين لزيادة قوتهم. وبصرف النظر عن ذلك، لم يعرفوا أبداً أن إنشاء المدارس، وتحسين تقنيات الإنتاج، ودعم التجارة والصناعة يمكن أن يؤدي أيضاً إلى إثراء السكان المحليين وزيادة قوتهم. وهكذا، كانت المؤامرات في الغرف السرية، والنهب والقتل في وضح النهار، وهكذا دخل التاريخ في حلقة مفرغة مأساوية. والمأساة الأكبر هي أن الأشخاص الذين يعيشون في هذا الواقع لا يعتبرونه مأساوياً، بل يطورون ثقافة خاصة تمجد الأبطال، حيث يعبدون الأقوياء، ويخضعون للأشداء. وفي ظل هذه الثقافة، يتم دفع الجميع نحو طريق لا عودة منه، طريق الثأريين العائلات، ثم الانتقام، ثم نشوء عداوات جديدة. في عهد سلالة (تشينغ)، كانت هذه الأفعال تُعتبر ببساطة عصياناً للأوامر الإمبراطورية وتمردًا، ولم يقم أحد بدراسة الأسباب الثقافية والاقتصادية وراءها. ولم يحاول أحد تطبيق وسائل حكم طويلة الأمد في المناطق القبلية غير القوة العسكرية. وكانت الطريقة الوحيدة هي إرسال القوات العسكرية. ولكن المنطقة التبتية في سيتشوان كانت واسعة، والقبائل كثيرة، وحتى في أوج قوة سلالة (تشينغ)، كانت تختار بعض الحالات النموذجية فقط لضربها. أما بالنسبة للمناطق الأخرى، فلم يكن هناك خيار سوى تركها تتبع عاداتها القديمة، ولم يتغير الوضع كثيراً. فكانت العائلات القوية تمتلك قوات خاصة بها وتسيطر على أراضيها وتقاتل بعضها البعض. على سبيل المثال، في (تشان دوي)، شنت سلالة (تشينغ) حملتين عسكريتين في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) و(تشيان لونغ)، مما أدى فقط إلى إضعاف شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، وبذلك صعدت قبيلة (تشان دوي) الوسطى التي كانت تحت سيطرة (تشان دوي) العليا والسفلى، وعندما أصبح (لوَه بو تشي لي) قوياً، خرج للغزو، فتم إرسال جيش كبير للقضاء عليه. ولكن هذه لم تكن قوة سلالة (تشيان لونغ). وهكذا، كانت هذه الحملة أشبه بمظاهرة، ولم تتأثر قبيلة (تشان دوي) الوسطى بشكل كبير. وبعد سنوات قليلة من اختفاء (لوَه بو تشي لي)، عاد ابنه الثالث، (قونغ بو لانغ جيا)، ليعيث فساداً في (تشان دوي).

(قونغ بو لانغ جيا)، تجسيد لحامي الدارما[1]

عند ولادة (قونغ بو لانغ جيا)، رآه راهب عظيم كشيطان متجسد.

تقول السجلات التبتية: «وُلد (قونغ بو لانغ جيا) من إله الجبل الثلجي، وكان لديه قوة خارقة وذكاء وشجاعة. ومنذ صغره، كان الأطفال يتبعونه، وعندما كبر، كان يركب الخيل ويتدرب على السيف يومياً، وكان يقول لنفسه بفخر: ‹لماذا خلقني السماء في هذه المنطقة البربرية!›»

ويقول بعض الرهبان إنه تجسد لإله حامي. فكلمة «قونغ بو» في اسمه تعني «الإله الحامي» باللغة التبتية. في عالم الآلهة الذي بناه البوذيون التبتيون، فإن معظم الآلهة الحامية هي شياطين شريرة من السكان الأصليين، وبعد أن وصلت البوذية من الهند إلى التبت، تم إخضاع هذه الشياطين من قبل أساتذة البوذية التبتية، وأصبحوا حماة للبوذية. في المناطق التبتية، لا يعبد معظم البوذيين (بوذا) والتعاليم البوذية بسبب قراءتهم للكتب البوذية، بل لأنهم يؤمنون بالآلهة الحامية التي تمتلك قوى سحرية مختلفة.

وبما أن (قونغ بو لانغ جيا) كان يُنظر إليه على أنه تجسد للإله الحامي، فإن سلوكه، وفقاً للأسطورة، كان غير عادي منذ طفولته. تقول الأسطورة إنه كان ذو بشرة داكنة وعيون حمراء وقوي البنية، وإنه كان يقتل الطيور والحشرات والديدان التي يجدها.

عندما أصبح شاباً، جمع (قونغ بو لانغ جيا) مجموعة من المراهقين حوله، وكانوا يقاتلون، ويسرقون، وينهبون. وكان يحب التحريض على الصراعات، ويستمتع بمشاهدة الآخرين يتقاتلون. أما الشباب المليئون بالطاقة الذين يتبعونه، فكان يعطيهم المال بسخاء إذا اتبعوا أوامره، وإذا عصوه، كان يضربهم بقسوة.

1 الدارما: تشير إلى تعاليم بوذا النبيلة

.indd 134-135 2025-11-27 10:55:56

لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) متهوراً دائماً، فعندما كان يواجه عدواً قوياً، كان يتحمل ويتراجع، ثم يخطط للانتقام لاحقاً.

تقول إحدى القصص إن هناك رجلاً اسمه (تشونغ ونغ دا جي)، كان قوياً جداً وصادقاً، وكان يحتقر ما يفعله (قونغ بو لانغ جيا). وكان ينتقد بشكل خاص سرقاته ونهبه، مما زرع بذور الكراهية بينهما. في ذلك الوقت، كانت الطريقة النهائية لحل الكراهية في (تشان دوي) هي القتل. في إحدى المرات، كان (قونغ بو لانغ جيا) مع عدد قليل من أتباعه، والتقى بـ(تشونغ ونغ دا جي) في ممر جبلي ضيق. فقام (تشونغ ونغ دا جي) بسحب سيفه، واستعد للقتال، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) استدار وهرب، مما جعل أتباعه يسخرون منه. كان هذا السلوك مخجلاً بالنسبة لرجل من (تشان دوي). ولكن (قونغ بو لانغ جيا) لم يخجل، بل ضحك عالياً، وقال: «عندما تواجه عدواً، يجب أن تستخدم القوة أحياناً، والحكمة أحياناً أخرى. حتى عندما تسرق من شخص ما، يجب أن تعرف أولاً مزاج كلب الحراسة. أنا لست قوياً مثل (تشونغ ونغ دا جي)، وإذا تقاتلنا، فإننا سنموت معاً، وهذا فشل بالنسبة لي. وإذا مت أنا وحدي، فهذا سيكون أسوأ. لا يزال لدي الكثير من الأعداء لأنتقم منهم، ولا يمكن أن أكون بسيط التفكير مثلكم.» ومنذ ذلك الحين، لم يعد (تشونغ ونغ دا جي) آمناً، وكان (قونغ بو لانغ جيا) يتآمر عليه في كل مكان. وفي النهاية، لم يعد بإمكانه البقاء في (تشان دوي)، وهاجر إلى مكان آخر.

وتقول قصة أخرى إن هناك عائلتين في (تشان دوي) الوسطى، إحداهما اسمها (با جه)، والأخرى اسمها (آ تشو). كانتا تتمتعان بنفوذ كبير في المنطقة، واعتبرهما (قونغ بو لانغ جيا) عقبة أمام صعود عائلته. فقام بالتحريض بينهما، حتى بدأتا تتقاتلان. وأثناء القتال، كان يساعد عائلة (با جه) سراً أحياناً، وعائلة (آ تشو) سراً أحياناً أخرى. وفي إحدى المرات، كانتا تتقاتلان مرة أخرى، فاختبأ في منزل عائلة (با جه)، وراقب هزيمة عائلة (آ تشو). وفي تلك المرة، أصابته شظايا رصاصة ارتدت من إطار النافذة، مما أفقده إحدى عينيه.

كان (قونغ بو لانغ جيا) يعرف أيضاً التقليد المحلي لشيوخ القبائل في توسيع نفوذهم من خلال الزواج. بعد أن أصبح بالغاً، تزوج أولاً من (تشي ما)، ابنة شيخ قبيلة قوي في (تشان دوي)، ثم تزوج زوجة ثانية، (يا شي)، لنفس السبب. أنجبت له (تشي ما) ثلاثة أبناء وأربع بنات، وأنجبت له (يا شي) ولداً وثلاث بنات. كما أنه قام بتشكيل علاقات عائلية واسعة مع العائلات القوية في (تشان دوي) وحولها. تزوجت بناته الأربع من (تشي ما): الكبرى في (لي تانغ)، والثانية من شيخ قبيلة محلي في (تشان دوي)، والثالثة في (داو فو)، شمال شرق (تشان دوي)، وهي عائلة غنية وقوية، والرابعة من شيخ قبيلة (لينغ كونغ)، شمال (تشان دوي). أما بناته الثلاث من (يا شي)، فقد تزوجت إحداهن من أحد أتباعه، والأخرى من شيخ قبيلة (تشو ووه)، شمال شرق (تشان دوي)، والأخيرة من (لاما) ثري.

وتقول الأسطورة أن (قونغ بو لانغ جيا) كان لديه أيضاً ابنان غير شرعيين، أصبحا فيما بعد (لاما).

تذكر إحدى الوثائق التبتية أنه عندما كانت القوات الحكومية تحاصر والده (لوَه بو تشي لي)، كان (قونغ بو لانغ جيا) يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، وكان في (لو هوه) ولم يكن قد عاد. بعد انسحاب قوات (تشينغ)، عاد إلى (تشان دوي) الوسطى، واختبأ في منطقة (كا نيانغ)، وكان يراقب الوضع. في تلك السنوات، كان شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى يتعرضان للاضطهاد من قبل (لوَه بو تشي لي) في (تشان دوي) الوسطى. وعندما رأيا أنه قد هُزم من قبل قوات (تشينغ)، انتهزا الفرصة للانتقام، واتفقا على إرسال قوات لاعتقال (قونغ بو لانغ جيا) وقتله. هاجمت قوات شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى مباشرة (كا نيانغ)، حيث كان يختبئ (قونغ بو لانغ جيا)، ولكنه هرب، بينما تم القبض على والدته. كان شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا قد اتفق مع شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى على مهاجمة (كا نيانغ) في نفس الوقت، ولكنه انحرف عن الطريق، وذهب أولاً للاستيلاء على قرية (تشي يي)، ونهب ممتلكات عائلة (قونغ بو لانغ جيا)، ثم اتجه نحو (كا نيانغ). وبسبب أن كل من شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى كان لديه خططه الخاصة، فإن تنسيقهما لم يكن جيداً، مما سمح لـ(قونغ بو لانغ جيا) بالفرار. وعلى الرغم من أن شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى انتصر مؤقتاً، إلا أنه كان خائفاً من (قونغ بو لانغ جيا)، فقام بتسليم والدة (قونغ بو لانغ جيا) التي كان قد قبض عليها إلى شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، بهدف تحويل انتباه (قونغ بو لانغ جيا) إلى شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا. أما شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، فاعتقد أنه باحتجاز والدة (قونغ بو لانغ جيا) كرهينة، يمكنه تجنب هجومه. كما أرسل شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا رؤساء قبائل لإدارة الأراضي والسكان الذين كانوا يمتلكونهم في قرية (تشي يي). تقول الوثائق التبتية: «بعد أن غادرت قوات (تشينغ)، استقرت عائلة (لوَه بو تشي لي) في قرية (كا نيانغ جيا نا)، وجاء شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، (دنغ تشو ونغ جيا)، من الأعلى، وهاجم شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، عائلة (روو لونغ)، من الأسفل. وسقطت القرية التي كان يعيش فيها ثمانون عائلة في يد شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا.»

[redacted].indd 136-137 2025-11-27 10:55:56

بالطبع، كانت حسابات شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا خاطئة تماماً.

بعد فترة وجيزة، هاجم (قونغ بو لانغ جيا) قرية (تشي يي) في إحدى الليالي، وأسر جميع رؤساء القبائل الذين أرسلهم شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا. وأرسل رسالة إلى شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا يقول فيها: لقد استعدت السيطرة على أرضي وشعبي، ولدي هنا بضعة أبقار (يقصد رؤساء قبائل شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا)، وأنا مستعد لذبحها وإرسالها إليك. يجب أن تعيد والدتي، وإلا أقسم أنني سأقضي على عائلتك بأكملها! تقول الأسطورة أن (قونغ بو لانغ جيا) قام أيضاً عمداً بكتابة اسم شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا بشكل خاطئ في الرسالة، وكتبه باسم امرأة، لإهانته.

لم يكن أمام شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا خيار سوى إعادة والدته، مقابل استعادة رؤساء القبائل الذين تم أسرهم، وأبرم مع (قونغ بو لانغ جيا) اتفاقية عدم اعتداء في المستقبل، وأن يعيش كل منهما في سلام.

ومنذ ذلك الحين، ارتفعت مكانة (تشان دوي) الوسطى مرة أخرى.

بعد ذلك، استعاد (قونغ بو لانغ جيا) منطقة (كا نيانغ) التي كان قد هرب منها في السابق، وأعاد ضمها إلى سيطرته، وقام بإعدام الخونة الذين كانوا قد أبلغوا شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى عن مكان اختبائه. كما قام بجلد ومعاقبة من كانوا مقربين من شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، وفرض عليهم غرامات مالية كبيرة.

وفي منطقة (تشان دوي)، كان هناك بعض رؤساء القبائل المستقلين عن شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى. وفي مكان يسمى (بانغ ره)، يقع على الضفة الشرقية لنهر (يالونغ)، توجد سهل صغير، وخلفه جبال شديدة الانحدار، ونهر صغير يتدفق من الجبل عبر السهل الصغير. وكان هذا المكان يحكمه رئيس قبيلة اسمه (سي لانغ تسه رن). وكان (قونغ بو لانغ جيا) يراقب هذا المكان منذ فترة طويلة. وبعد فترة وجيزة، تلقى (سي لانغ تسه رن) رسالة من (قونغ بو لانغ جيا): «إذا لم تسلم الأرض، فسأقتل عائلتك بأكملها.»

أدرك (سي لانغ تسه رن) أنه لا يملك القوة للمقاومة، فقام بالتخلي عن أرضه وشعبه، وهرب مع عائلته.

أرسل (قونغ بو لانغ جيا) قواته على الفور لاحتلال (بانغ ره)، واستولى على أراضي وسكان المنطقة. قام بهدم مقر شيخ القبيلة القديم، وحشد السكان لجمع الخشب والحجارة، وبنى مقراً جديداً مهيباً، أطلق عليه اسم «(بانغ ره دا موو كا)»، ويعني «مقر النمر في (بانغ ره)»، وانتقلت عائلته للعيش فيه. وبذلك، أصبح هذا المكان مركز حكمه الجديد.

□□□□ □□□.indd 138-139 2025-11-27 10:55:56

(بو لو مان) يُوحّد (تشان دوي)

بسبب الاضطرابات الاجتماعية الطويلة الأمد، وضعف الإنتاج في منطقة (تشان دوي)، نشأت عادة النهب، مما أدى إلى نشوء ثقافة قوية لدى السكان المحليين لا يبالون فيها بالموت ويهتمون بسمعتهم. وفي مثل هذا المجتمع، كان (قونغ بو لانغ جيا) يواجه بعض الخصوم الأقوياء أثناء غزواته. تذكر إحدى الوثائق التبتية:

«كان هناك صراع قديم بين (وا شيوه سه وي) من (ماي جيوو) و(تشان دوي) الوسطى، لذلك قاد (قونغ بو لانغ جيا) رجاله ونصب كميناً على الطريق. وعلى الرغم من أن (وا شيوه سه وي) كان كبيراً في السن وضعيفاً، إلا أنه صرخ ‹الموت أفضل من عدم أكل هؤلاء (رونغ با) (الفلاحين) مثل أرجل الحملان!› واندفع على حصانه في المقدمة. وأثناء هجومه، أصيبت إحدى ساقيه، فصرخ في أبنائه: ‹اجعلوا جسدي درعاً وأطلقوا النار على الأعداء!› وبعد معركة شرسة، قُتل ابن (وا شيوه سه وي)، (دان با دا جي)، بطلقة نارية؛ وقتل ابنه الآخر، (آ سوو)، أربعة أشخاص من جانب (قونغ بو لانغ جيا)، وهم: (آ قه قونغ بو)، و(رن تشينغ)، و(سونغ جيا)، و(آ تشا). وأصيب (جيوو موو لوو بوو) و(با دنغ)، وكانت الخسائر فادحة، فهرب (قونغ بو لانغ جيا) ورفاقه على عجل. وصف الناس هذا الحدث لاحقاً بقولهم: ‹لا ينمو العشب على الطريق الذي يهرب منه (قونغ بو لانغ جيا)›.»

عندما كان (قونغ بو لانغ جيا) يوسع نفوذه، كان الاعتماد على العلاقات العائلية من خلال الزواج وسيلة مهمة بالإضافة إلى القوة العسكرية. ولكن إذا كان أحد أقاربه يعيق توسيعه، فإنه لم يكن يتردد في التعامل معه بقسوة. وهذا ما تذكره أيضاً إحدى الوثائق التبتية: «على الرغم من أن (دنغ تشو بنغ) من قرية (لينغ دا) هو صهر (قونغ بو لانغ جيا)، إلا أنه تظاهر بأنه فقد العديد من خيوله، وذهب للبحث عنها. وعندما وصل هو ورجاله إلى قرية (لينغ دا)، كان القرويون يصبون له الشاي، فقام رجاله باحتلال جميع المنازل، ولم يكن أمام القرويين خيار سوى الاستسلام. أما (دنغ تشو بنغ) وأتباعه، فلم يكونوا في القرية، بل كانوا في المراعي الجبلية العالية. وعندما سمعوا ما حدث، عرفوا أنهم أصبحوا بلا مأوى، وهربوا في اتجاه (تشانغدو) في التبت.»

بعد أن قام (قونغ بو لانغ جيا) بضم القبائل الصغيرة المستقلة في (تشان دوي)، أصبح عليه أن يواجه اثنين من أقوى خصومه في (تشان دوي): شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى.

في ذلك الوقت، كان شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، (دنغ تشو ونغ جيا)، ضعيفاً وغير كفؤ، وكانت زوجته (بان تشن) هي التي تتخذ جميع القرارات. كانت (بان تشن) قوية وشرسة وقاسية على أتباعها. وبفضل خلفيتها كابنة شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، كانت أكثر وقاحة. تزوجت من شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا، وأنجبت له ولدين وابنة. وعندما تقدم (قونغ بو لانغ جيا) لخطبة ابنتها، وافق شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا على زواجها من ابن (قونغ بو لانغ جيا)، (تشي مي قونغ بو). وبسبب هذا الزواج، انتقدها أهلها في (تشان دوي) السفلى. فغضبت (بان تشن) على زوجها، وفي شجار، قامت بضربه. كان هذا الأمر غير مسبوق في المجتمع المحلي الذي يقدس الرجال، مما دفع (دنغ تشو ونغ جيا) إلى الانتحار من الخزي.

أعطى هذا الحدث (قونغ بو لانغ جيا) الفرصة للتدخل في شؤون (تشان دوي) العليا.

بعد انتحار (دنغ تشو ونغ جيا)، قرر رؤساء القبائل الأقوياء في (تشان دوي) العليا تشكيل قيادة جماعية، وتولي مهام شيخ القبيلة مؤقتاً. وفي مواجهة (قونغ بو لانغ جيا) العدواني، قرروا إرسال ابني شيخ القبيلة الذين لم يبلغا سن الرشد بعد، أحدهما إلى (لاما) اسمه (دان تشين) لحمايته، والآخر إلى عائلة شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى للاحتماء به. كان اللاما (دان تشين) هو شقيق (دنغ تشو ونغ جيا)، ولم يكن راضياً عن سيطرة رؤساء القبائل على السلطة، فقرر التحالف مع زوجة أخيه لاستعادة السلطة. ولكن زوجة أخيه (بان تشن) خططت لقتل اللاما (دان تشين) أولاً مع عشيقها، ثم التخلص من رؤساء القبائل الكبار، واستعادة سلطة شيخ القبيلة.

لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) جالساً بلا عمل، فقد نصح (بان تشن) بإعادة ابنها الذي أرسلته إلى أهلها للعيش في مقر قيادته. وقال إن ذلك سيجعل العائلتين واحدة، وسيمكنها من استعادة سلطة شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا. وكانت نيته الحقيقية هي الحصول على سلطة وأراضي (تشان دوي) العليا دون قتال. وبالطبع، رفض جميع رؤساء قبائل (تشان دوي) العليا هذا الاقتراح بالإجماع. وعندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) أن الطريقة السلمية لم تنجح، أرسل إنذاراً نهائياً إلى (تشان دوي) العليا: أولاً، يجب أن يتم تسليم (بان تشن) وابنها إلى مقر قيادته؛ ثانياً، لا يُسمح لرؤساء القبائل بالبقاء في مقر شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا؛ ثالثاً، لا يُسمح لرؤساء القبائل بالقيام بمهام شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا. وبما أن شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا كان قد تم تعيينه من قبل بلاط (تشينغ)، فإن (قونغ بو لانغ جيا) لم يكن لديه أي حق في التدخل. علاوة على ذلك، كان من المعتاد أن يتولى رؤساء القبائل إدارة الأمور عندما يموت شيخ القبيلة القديم ويكون شيخ القبيلة الجديد قاصراً. لذلك، رفض رؤساء قبائل (تشان دوي) العليا بطبيعة الحال مطالب (قونغ بو لانغ جيا) غير المعقولة.

[redacted].indd 140-141 2025-11-27 10:55:56

أرسل (قونغ بو لانغ جيا) قواته على الفور، وحاصر مقر شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا والدير. بعد قتال استمر عشرة أيام، قام بقطع المياه عن المقر والدير، ولم يعد بإمكان رؤساء قبائل (تشان دوي) العليا المقاومة، فاستسلموا. وخلافاً لعدوانه المعتاد، لم يقتل (قونغ بو لانغ جيا) أو يعتقل رؤساء القبائل المستسلمين، بل وبخهم بشدة، وأمرهم بعدم القيام بمهام شيخ القبيلة مرة أخرى، وطالبهم بالانصياع لأوامره في المستقبل. وفي الوقت نفسه، عين رئيس قبيلة (آ ره قه دنغ با)، الذي كان قد انضم إليه سابقاً، ليعود إلى (تشان دوي) العليا، ويحكم المنطقة نيابة عنه.

استدعى (قونغ بو لانغ جيا) (بان تشن)، واتهمها بإجبار زوجها على الانتحار، وبأنها كانت على علاقة غير شرعية مع رجل، وبأنها تعاونت مع أهلها في (تشان دوي) السفلى لمقاومته. وتذكر (قونغ بو لانغ جيا) أيضاً أن شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا كان قد تحالف مع شيخ قبيلة (لو هوه تشانغ قو) لمهاجمته، فغضب وقال لها: «أنتِ امرأة شريرة، لا يجب أن تبقي على قيد الحياة، ولكن لأنك امرأة، سأتركك حية.»

ولكن (بان تشن)، هذه المرأة الشرسة، لم تخف، وراحت تشتمه: «أيها (الطفل الأعمى)، أنت لا تعرف أقاربك، وتدعوني عمة، ولكنك تحلم بالاستيلاء على أراضي عائلتي. اليوم، لقد نجحت في مؤامرتك، فاقتلني!»

فوضعها (قونغ بو لانغ جيا) تحت الإقامة الجبرية في قرية نائية.

طلبت ابنة (بان تشن)، التي كانت زوجة ابن (قونغ بو لانغ جيا)، عدة مرات أن تسمح لها بالاعتناء بوالدتها، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) لم يسمح بذلك، وأمر بعدم السماح لهما بالالتقاء. وبعد فترة قصيرة، أصبحت (بان تشن) محتجزة، وأصيبت بالجنون، ولم يتمكن سكان القرية من السيطرة عليها. فأمر (قونغ بو لانغ جيا) بإلقائها في نهر (يالونغ) وإعدامها.

عندما رأى رؤساء القبائل العشرة التابعون لشيخ قبيلة (تشان دوي) العليا مصير (بان تشن)، اعتقدوا أن (قونغ بو لانغ جيا) سيؤذيهم يوماً ما، فهربوا مع عائلاتهم من منطقة (تشان دوي). لقد هربوا أولاً إلى (دا جيان لو)، وعندما فشلت شكواهم في مكاتب حكومة (تشينغ)، اتجهوا إلى التبت، وطلبوا التدخل من حكومة (كاشاغ).

بعد فرار رؤساء القبائل الخمسة عشر من (تشان دوي) العليا، قام (قونغ بو لانغ جيا) بنقل الأشخاص المقربين منهم إلى قرى مختلفة في (تشان دوي) الوسطى، وقام بنقل رجاله المخلصين في (تشان دوي) الوسطى إلى (تشان دوي) العليا، لإدارة شؤون القرى.

وهذا يدل على أن استيلاءه على القرى والأراضي لم يكن مجرد عمل متهور، بل كان لديه خطة طويلة المدى.

بعد أن احتل (تشان دوي) العليا، حول (قونغ بو لانغ جيا) هجومه إلى شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى.

أول خطوة قام بها كانت إعادة تنظيم قواته، وإصلاح البنادق والسيوف والرماح، وتخزين كميات كافية من الذخيرة، كما نظم فرق انتحارية من الشباب، وقام بتدريبهم على استخدام السلالم لمهاجمة الأبراج الحصينة.

في ذلك الوقت، كان شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى، (بو با قونغ بو)، لا يزال صغيراً في السن، وكانت والدته وجدته تديران شؤون الحكم. كانتا عاجزتين أمام (قونغ بو لانغ جيا) الذي كان يستعد للحرب بشكل علني، فطلبتا من اللاما والرهبان العظماء القدوم إلى المقر للصلاة وقراءة الطالع، وقامتا أيضاً بتجميع قواتهما لحماية المقر.

في مواجهة هذا الوضع، اقترح (له وو ما)، أحد قادة (قونغ بو لانغ جيا)، أن يبدأوا الهجوم أولاً على (تشان دوي) السفلى. وافق (قونغ بو لانغ جيا)، وقال: «يجب أن تُطفئ النار وهي صغيرة، فإذا كبرت، سيكون من الصعب إخمادها.» وهذا يعني أنه إذا لم يهاجم الآن، فسيكون من الصعب التعامل مع شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى عندما يكبر. على الفور، أرسل قواته لحصار مقر قبيلة (تشان دوي) السفلى ومهاجمته بشكل مستمر. وعلى الرغم من أن شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى كان صغيراً في السن، إلا أن قواته كانت شجاعة وماهرة في القتال، ولم ينجح (قونغ بو لانغ جيا) في الهجوم لمدة خمسة عشر يوماً.

قدم القائد (له وو ما) خطة أخرى، حيث قام بجمع أقارب رؤساء قبائل (تشان دوي) السفلى الذين كانوا يدافعون عن المقر، وقام بتقييدهم أمام المعسكر، وصرخ في المحاصرين، وسألهم ما إذا كانوا يريدون إنقاذ حياة أقاربهم أم حماية مقر شيخ القبيلة. وفي الوقت نفسه، قام بقطع قناة المياه السرية التي كانت توصل المياه إلى المقر. وأثناء الحصار، قام بترك ثغرة عمداً، ليترك للمحاصرين طريقاً للهرب. وبمجرد تطبيق هذه الخطة، أتت ثمارها على الفور، حيث قام بعض رؤساء القبائل بالتسلل من المقر والاستسلام لـ(قونغ بو لانغ جيا). وهرب آخرون من هذه الثغرة إلى منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ).

□□□□ □□□.indd 142-143 2025-11-27 10:55:57

استمرت بقية القوات في المقر بالصمود لخمسة أيام أخرى بعد انقطاع الماء، وفي النهاية، لم يكن أمامهم خيار سوى إرسال اثنين من اللاما للتفاوض مع (قونغ بو لانغ جيا). وكان لديهم شرط واحد فقط، وهو أن يضمن (قونغ بو لانغ جيا) عدم قتل عائلة شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى بأكملها.

أقسم (قونغ بو لانغ جيا) أمام (بوذا) والآلهة الحامية بأنه سيحافظ على حياة عائلة شيخ القبيلة بأكملها. وفي نظر السكان المحليين في (تشان دوي)، لا أحد يجرؤ على كسر مثل هذا القسم.

وهكذا، فُتحت بوابات المقر، وركض المحاصرون المتعطشون إلى نهر (يالونغ)، وشربوا حتى ارتوت ظمأهم.

ولكن (قونغ بو لانغ جيا) لم يخف من انتهاك القسم الذي قطعه أمام (بوذا) والآلهة الحامية. وبعد فترة وجيزة، قام بإلقاء شيخ قبيلة (تشان دوي) السفلى الشاب، (بو با قونغ بو)، في نهر (يالونغ)، وأعدمه. كما قام بوضع والدته وجدته تحت الإقامة الجبرية في قريتين نائيتين مختلفتين. ومن العادات القديمة في (تشان دوي) أنه بعد وفاة الشخص، يتم تحنيط جثته وتركها في المقر. ولكن (قونغ بو لانغ جيا) قام بإلقاء جميع الجثث المحنطة لشيوخ قبيلة (تشان دوي) السفلى السابقين في نهر (يالونغ).

كما قام بتقسيم جميع الثروات التي حصل عليها على جنوده وضباطه في حفل كبير.

بعد احتلال (تشان دوي) السفلى، قام بتعيين ابنه (دونغ دنغ قونغ بو) كحاكم لـ(تشان دوي) السفلى، وأصبحت المنطقة بأكملها تحت سيطرته.

وهكذا، وحَّد (قونغ بو لانغ جيا) منطقة (تشان دوي) بأكملها، وقضى على كل شيوخ القبائل في (تشان دوي) العليا والسفلى الذين عينهم البلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ). وقام برمي الأختام، والوثائق، والملابس الرسمية، والقبعات التي منحها إياهم أباطرة سلالة (تشينغ) في النهر دفعة واحدة. وقال: «أنا لست مسؤولاً (هانياً)، ولا مسؤولاً تبتياً، لقد أصبحت قوياً بجهدي، وهذا هو المنصب الذي أريده.»

كان (قونغ بو لانغ جيا) قوياً في الخارج، ولكنه لم يكن يتردد في التعامل مع الفساد الداخلي.

(دنغ تشو موه) هو أحد مرؤوسي (قونغ بو لانغ جيا)، وهو صهره الثاني. كان (دنغ تشو موه) لا يوافق على تصرفات (قونغ بو لانغ جيا). شعر (قونغ بو لانغ جيا) بالاستياء، وكان قلقاً من أن يتسبب له في مشاكل في المستقبل، وقال: «إذا وضعت شخصاً شريراً في مكان ما، فإنه سيجعل المكان غير آمن. إذا وضعت غزالاً في الغابة، فإن الغابة ستكون في خطر. إذا تعفن الثوب الداخلي، فإنه سيكون أسوأ شيء، والخيانة الداخلية هي أخطر شيء.» وأمر رجاله بالبحث عن فرصة للتخلص منه. وعندما علم (دنغ تشو موه) بذلك، هرب في الليل مع عائلته إلى التبت.

كان صهر (قونغ بو لانغ جيا)، وهو شيخ قبيلة أيضاً، يحب شرب الخمر، وغالباً ما يتحدث في أمور لا يجب أن يتحدث فيها وهو مخمور. وبسبب هذه العادة، سرب أخباراً عن تحركات (قونغ بو لانغ جيا)، مما أدى إلى فشل عملية كان ينفذها. رأى (قونغ بو لانغ جيا) أن هذا الشخص سيتسبب في ضرر أكبر في المستقبل، فأرسل رجاله لدفعه من جرف، وقُتل.

عندما زرت محافظة (شين لونغ)، وسألت السكان المحليين عن هذه القصص، أومأوا برؤوسهم موافقين، وأضافوا قصة أخرى.

كان هناك شيخ قبيلة آخر، وهو أيضاً شقيق زوجة (قونغ بو لانغ جيا). هذا الرجل اسمه (قونغ بو وانغ جيا)، وهو يعاني من انحناء بسيط في ظهره، وكان بطبعه شكاكاً. وعندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) يضرب صهره وزوج أخته، اعتقد أن هذا المصير التعيس سيحل به أيضاً. ومع ازدياد قلقه، أرسل زوجته إلى (قونغ بو لانغ جيا) ليختبر نواياه. طلب منها أن تبكي أمامه وتشتكي من سوء معاملة زوجها لها، ليرى رد فعله. فقال (قونغ بو لانغ جيا) لأخته: «هذا (الأحدب) يفعل هذا لأنه غير راضٍ عني. في (تشان دوي) اليوم، أنا أكبر شيخ قبيلة، والجميع تحت سيطرتي. على الرغم من أننا أقارب، إلا أن الأمور الرسمية شيء، والأمور الشخصية شيء آخر. لا تحزني يا أختي، فالتخلص منه سهل جداً!»

تسببت هذه القصة التي اختلقها شيخ القبيلة في خوفه، وعندما عادت زوجته إلى المنزل، نقلت له ما قاله (قونغ بو لانغ جيا)، فخاف وأخذ عائلته وبعض أتباعه، وهرب من (تشانغ قو) بـ (لو هوه) إلى مكان آخر.

[redacted].indd 144-145 2025-11-27 10:55:57

عشرة شيوخ قبائل يشنون حملة عسكرية على (تشان دوي)

في الوقت الذي كان فيه (قونغ بو لانغ جيا) يستولي على (تشان دوي)، كان (تشي شان) في طريقه من منصبه كوزير مقيم في التبت لتولي منصبه الجديد كحاكم عام لسيتشوان في (تشنغدو).

عندما وصل (تشي شان) إلى (لي تانغ)، تم إيقافه على الطريق الرسمي بسبب عصابات «جيا با» من (تشان دوي). وجاء إليه أفراد من عائلة شيخ قبيلة (تشان دوي) العليا الذين هربوا إلى (لي تانغ)، وقدموا شكوى، وقالوا إن (قونغ بو لانغ جيا)، سليل (لوّه بو تشي لي) الذي هاجمه الجيش الحكومي في السابق، قد تصرف بشكل غير قانوني، وتجاهل البلاط الإمبراطوري، وقضى على شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى الذين عينهما إمبراطور بكين.

وعندما وصل إلى (دا جيان لو)، جاء إليه شيوخ القبائل المجاورة لـ(تشان دوي)، وادعوا أن (قونغ بو لانغ جيا) قد تجاوز الحدود وهاجمهم. اعتقد (تشي شان) أنه بما أن شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى قد تم تعيينهما من قبل البلاط الإمبراطوري، فإن (قونغ بو لانغ جيا) الذي تجرأ على القضاء عليهما هو في الحقيقة يعارض البلاط الإمبراطوري، ويجب إرسال القوات للقضاء عليه.

قدم (تشي شان) على الفور تقريراً إلى الإمبراطور (داو قوانغ): «إن البربري (قونغ بو لانغ جيا) من (تشان دوي) الوسطى، قد تصرف بشكل غير قانوني، وخرج من منطقته، واستولى على الأختام والوثائق من شيخي قبيلتي (تشان دوي) العليا والسفلى، واحتل منطقتين، وهما: (سو نا) و(شي دون)، اللتان كانتا تحت سيطرة (تشو) وسيتشوان، بالإضافة إلى تسع مناطق أخرى كان يحكمها شيوخ قبائل بدون أختام. ...الحاكم العام السابق، بسبب مكر البرابرة، لم يهتم بالأمر. ولكن هذا البربري أصبح يعتمد على قوته ووقاحته، ويحاول أيضاً احتلال (لي تانغ). وقد تبين أن (لي تانغ) هو الطريق الرئيسي إلى التبت. وإذا قام هذا البربري باحتلاله، فسيتم قطع الطريق، وهذا أمر خطير للغاية. وبشكل مناسب، فإن شيوخ قبائل (مينغ تشنغ) و(ده قه) وغيرهم، بعد أن تعرضوا للتنمر من قبل هذا البربري، قدموا طلباً العام الماضي لشن حملة ضده. وبعد تفكير عميق، أرى أنه من الأفضل أن نتحرك في أقرب وقت ممكن بدلاً من ترك الأمر يتفاقم.»

وبعد موافقة البلاط الإمبراطوري، أمر (تشي شان) عشرة من شيوخ القبائل المجاورة لـ(تشان دوي) من الشمال والجنوب بجمع قواتهم وشن حملة.

اجتمع شيوخ القبائل، وجمعوا قواتهم، واستعدوا لمهاجمة (تشان دوي).

عندما تلقى (قونغ بو لانغ جيا) الأخبار، لم يجزع، بل استعد للحرب بهدوء.

أولاً، قام بتطهير داخلي، ونقل شيوخ القبائل الذين كانوا يعارضونه، ووضعهم تحت المراقبة والسيطرة، لمنع حدوث أي اضطرابات داخلية عند اقتراب القوات.

ثانياً، قام بتجنيد جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وستين عاماً. واختار منهم ثلاثمائة رجل قوي لتشكيل فرقة انتحارية. وتم تقسيم بقية الرجال إلى ثلاثة أقسام: أولئك الذين لديهم خيول وبنادق شكلوا سلاح الفرسان؛ وأولئك الذين ليس لديهم خيول، ولكن لديهم بنادق وسيوف، شكلوا سلاح المشاة؛ والبقية الذين ليس لديهم خيول أو بنادق، ولكن لديهم سيوف وفؤوس، شكلوا قوات الدفاع عن القرى، والممرات، والمضائق. وتم وضع كميات كبيرة من الصخور المتدحرجة على الممرات والمضائق، كما تم وضع حراس في كل تلة وممر، وعندما يظهر العدو، كانوا يرسلون إشارات بالدخان أو بقطع الأشجار.

كما أرسل اللصوص والنهابين المهرة إلى مناطق شيوخ القبائل الأخرى، وطلب منهم أن يعيدوا إليه كل ما ينهبونه. ما كان (قونغ بو لانغ جيا) يريده منهم هو أن يتجسسوا على العدو أثناء النهب، وأن يعودوا إلى (تشان دوي) للإبلاغ عن أي معلومات يحصلون عليها.

كما أمر السكان بإخفاء جميع ممتلكاتهم وأبنائهم، وترك فقط كبار السن والضعفاء في القرى لحراسة المنازل.

كما أعلن بوضوح أن من يقتل زعيماً للعدو في الحرب، سيحصل على حصان؛ ومن يأسر زعيماً للعدو، سيحصل على حصان وبندقية؛ ومن يقتل جندياً من العدو، سيحصل على بقرة. ولإثبات النصر، يجب تقديم رأس العدو، أو يديه، أو قدميه، أو أذنيه كدليل.

كان هذا تنظيماً محكماً وغير مسبوق في عصر كان فيه شيوخ القبائل يتنافسون مع بعضهم البعض.

لكن تصرفات شيوخ القبائل العشرة الذين حاصروا (تشان دوي) لم تكن متسقة.

في بداية الحرب، لم ترسل قبيلتا (با تانغ) و(جي تانغ) قوات، لأنهما لا تجاوران (تشان دوي)، وتبعدان عنها.

ولكن بقية شيوخ القبائل الثمانية جمعوا قواتهم، وقسموها إلى ثلاث مجموعات، وهاجموا (تشان دوي) من الجنوب عبر (لي تانغ)، ومن الشمال عبر (قان تسي)، ومن الشمال الشرقي عبر (داو فو).

وتم تشكيل المجموعة التي جاءت من الشمال الشرقي عبر (داو فو) من قوات شيوخ قبائل (تشو ووه) و(تشانغ قو) و(مينغ تشنغ). في البداية، اشتبكوا في معركة عنيفة مع قوات (قونغ بو لانغ جيا) في (ماي كه مو تشانغ) في (تشان دوي)، وتمكن (قونغ بو لانغ جيا) من صد هجومهم الأول. وكان المستشار العسكري لشيخ قبيلة (مينغ تشنغ) هو اللاما (تشينغ تسه). وفي الهجوم الثاني، قاد اللاما (تشينغ تسه) المعركة بنفسه. وأثناء القتال، انفجرت بندقية (قونغ بو لانغ جيا)، وهرب حصانه، مما أدى إلى فقدان (قونغ بو لانغ جيا) السيطرة على قواته، ووقعوا في حالة من الفوضى، وتكبدوا خسائر فادحة.

قام راهب محلي في (تشان دوي) بتسجيل هذه المعركة بناءً على الأساطير:

«في الشهر الرابع من التقويم القمري، اندلعت الحروب في كل مكان. تولى اللاما (تشينغ تسه) قيادة القوات، وعندما كانت قوات شيوخ قبائل (تشو ووه) و(تشانغ قو) و(مينغ تشنغ) القادمة من (داو فو) تعسكر في قرية (ماي دوي)، وصل (قونغ بو لانغ جيا) وقواته إلى هناك. رأوا قوات العدو من بعيد، واندفعوا بسرعة إلى القرية وهم يصرخون ‹غيه سوو سوو›، واحتلوا المرتفعات. انتقلت قوات (مينغ تشنغ) من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من المعسكر، وقام اللاما (تشينغ تسه) بتقطيع عباءته إلى قطع صغيرة، ووزعها على الجنود كتعويذة للحماية. دخل الجنود مواقعهم، واندلع تبادل إطلاق نار عنيف بين الجانبين. بعد وقوع العديد من الضحايا، هربت قوات (تشان دوي) بشكل فوضوي، وطاردتهم قوات (مينغ تشنغ). كانت الرصاصات تتساقط كالمطر، والسيوف تلوح كالهواء، وطاردت قوات (تشانغ قو) قوات (تشان دوي) بعيداً مثلما تطارد الذئاب الأغنام.

«في هذه الأثناء، انفجرت بندقية (قونغ بو لانغ جيا) فجأة، وهرب حصانه. لم يجد سوى حصاناً صغيراً. وقُتل أكثر من ستين من أتباعه، بمن فيهم (شا بوو تا لي) و(وا بوو شا داو تسه رن)، وهرب الباقون إلى قراهم في حالة من الفوضى. وعانت قوات (تشان دوي) من هزيمة كبيرة، ولم يُقتل أي شخص من جانب (تشانغ قو)، وحققوا نصراً ساحقاً.

«وهكذا، احتلت قوات شيخ قبيلة (تشانغ قو) جميع مناطق (بنغ ري) و(كا سوو) على ضفتي نهر (نيانغ تشو). ووصلت قوات (ده قه) و(لي تانغ) إلى (تشي بي غانغ). قبل الحرب، كان (قونغ بو لانغ جيا) قد وضع قواعد لمكافأة المحاربين الذين يقتلون الأعداء بالكثير من المال، لذلك، سخر منه شيخ قبيلة (ده قه) وآخرين، وقالوا: ‹تكافأ بحصان لقتل ماعز، وتغرم ببقرة لقولك ‹أوم، واحدة›.›»

«بعد ذلك، وقعت عدة معارك بين الطرفين، مما أدى إلى سقوط العديد من القتلى والجرحى. استمرت هذه المعارك من الشهر الرابع حتى الشهر التاسع من التقويم القمري، أي لخمسة أشهر، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على (تشان دوي)، وفي النهاية، اضطروا إلى التراجع.»

وهذا يعني أن شيوخ القبائل الثمانية حققوا تقدماً في البداية، ولكن الوضع انقلب تدريجياً بعد ذلك.

والسبب، بالطبع، هو أن شعب (تشان دوي) بأكمله تحول إلى جيش. وتذكر هذه الوثيقة التبتية: «(قونغ بو لانغ جيا) جعل النساء يبحثن عن أي أثر لقوات شيخ قبيلة (ده قه) وغيرها، وإذا وجدن شيئاً، فإنهن يشعلن دخاناً على التلال للإبلاغ عن العدو. وجعل الشباب الشجعان يندفعون إلى الأمام للهجوم. أما الرجال في منتصف العمر، فقد جعلهم يدافعون عن القرى والمضائق الخطرة، وجعل كبار السن يرتدون الدروع ويحملون الأسلحة لحراسة المنازل.»

ولم يشارك المدنيون فقط في الحرب، بل شارك معظم الرهبان في (تشان دوي) أيضاً.

وقد سجل الراهب في (تشان دوي)، واسمه (يه ليه تشو تشنغ): «في هذه الفترة، بدأت تظهر ظاهرة، حيث كان معظم الرهبان، باستثناء بعض الأفراد، يملأ قلوبهم السموم الثلاثة: الجشع، والغيظ، والجهل. ولم يفرقوا بين الخير والشر في أفعالهم، ولم يترددوا في ارتكاب الشر، وظهرت طبيعتهم الشريرة بوضوح. أما العلمانيون، فقد كانوا يرتكبون الشر فقط. وبسبب الحسد والغيظ، كان كل واحد منهم يتسابق لارتكاب أفعال شريرة، ولم يكن يعتبر من لا يقتل شخصاً بطلاً. وكان الجبناء الذين لا يتمتعون بمكانة اجتماعية يقتلون الجرحى الهاربين أو الأعداء الذين يستسلمون، ويأخذون رؤوسهم وأيديهم وآذانهم إلى (قونغ بو لانغ جيا) لطلب المكافأة. وكانوا يتباهون أمام الآخرين بأنهم قتلوا هذا العدد الكبير من الأعداء. حتى لو كان شخص واحد قد قتل شخصاً واحداً فقط، فإن الكثيرين كانوا يتسابقون للمطالبة بالجائزة، ويقسمون أنهم هم من قتلوه. ولم يبالوا بانتهاك قسمهم أمام (بوذا) من أجل مكافأة على فعل شرير.»

في هذه اللحظة الحرجة من الحصار، كان (قونغ بو لانغ جيا) في طليعة القوات، وقاد المعركة بهدوء، وتمكن من تثبيت الوضع. وأثناء تراجعه، قام بإعادة تجميع قواته، وشن هجمات جانبية على قوات شيوخ القبائل المهاجمة، واستمر في مضايقة خطوط إمدادهم، وقطع عنهم الإمدادات الغذائية، مما جعلهم في وضع سلبي تدريجياً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن قوات شيوخ القبائل لم تكن قوات نظامية، بل كانت تتكون من فلاحين ورعاة عاديين، ولم يكن لديهم انضباط عسكري صارم. كانت هذه العصابات تنهب الممتلكات وتغتصب النساء عندما تدخل (تشان دوي)، مما دفع جميع سكان (تشان دوي) إلى الاتحاد لمقاومة العدو بشدة.

.indd 148-149 2025-11-27 10:55:57

في مواجهة قوات شيوخ القبائل التي كانت تفوقه بأضعاف، كان (قونغ بو لانغ جيا) يجمع قواته للقتال عندما يكون قادراً على ذلك، وعندما لا يستطيع، كان يقسم قواته إلى مجموعات صغيرة ويختبئ في أعماق الجبال والغابات الكثيفة. وعندما يسترخي العدو قليلاً، كان يهاجمهم فجأة. وبسبب تكتيكات (قونغ بو لانغ جيا)، ظلت جيوش شيوخ القبائل الثمانية في عمق أراضي (تشان دوي) لعدة أشهر، ولم تحصل على شيء سوى القرى المهجورة، ولم تلحق أي ضرر حقيقي بقوات (قونغ بو لانغ جيا). بعد ستة أشهر، حل الشتاء، وأصبح الطقس بارداً، وغطت الثلوج الطرق، مما جعل الإمدادات اللوجستية لقوات شيوخ القبائل صعبة، وتدهورت معنوياتهم يوماً بعد يوم، ولم يكن أمامهم خيار سوى الانسحاب. انتهز (قونغ بو لانغ جيا) هذه الفرصة، وطاردهم، وعلق رؤوس الأعداء المقطوعة على جميع الممرات الرئيسية، مما أثار الرعب في قلوب الأعداء، ورفع معنويات جنوده، وفي النهاية، تمكن من طرد قوات شيوخ القبائل الثمانية بالكامل من (تشان دوي). وبعد الحرب، أرسل (قونغ بو لانغ جيا) رؤوس بعض الجنود القتلى إلى مناطق شيوخ القبائل، ليُظهر لهم قوته العسكرية.

تكبد شيوخ القبائل خسائر فادحة، وعادوا في النهاية مهزومين، ولم يكن أمامهم خيار سوى تقديم شكوى مرة أخرى إلى مقر الحاكم العام لسيتشوان.

وفي (تشان دوي)، ازدادت هيبة (قونغ بو لانغ جيا) بعد هذا النصر.

الحاكم العام (تشي شان) يقود حملة عسكرية على (تشان دوي)

في بداية العام التاسع والعشرين من حكم الإمبراطور (داو قوانغ)، أي عام 1849، قدم الحاكم العام (تشي شان) تقريراً آخر، يطلب فيه إرسال قوات حكومية وقوات شيوخ القبائل لمهاجمة (تشان دوي).

في شهر فبراير، أصدر الإمبراطور (داو قوانغ) مرسوماً: «إن البربري (قونغ بو لانغ جيا) من (تشان دوي) الوسطى يجرؤ على الخروج من منطقته، ويحدث الفوضى، ويقوم بنهب شيوخ القبائل، ويقتل المدنيين، وهو خارج عن القانون. يمكن تجاهل البرابرة الماكرين الذين يأكلون بعضهم البعض. ولكن هذا البربري يعتمد على قوته ووقاحته، ولا يكتفي باحتلال مناطق شيوخ القبائل، بل يريد أيضاً احتلال (لي تانغ) لقطع الطريق الرئيسي. وعلى الرغم من أن الحاكم (يقصد الحاكم العام (تشي شان)) قد أصدر إعلانات، إلا أن هذا البربري لا يزال متمرداً. يجب القضاء على هذا الوقح في أقرب وقت ممكن، حتى لا يتفاقم الأمر. (تشي شان) يذهب الآن إلى (تشان دوي) الوسطى، ليقود الضباط والجنود، ويتخذ الإجراءات المناسبة للقضاء عليه بسرعة، وقتل زعيمهم، ومنعهم من الانتشار والتسبب في الفوضى.»

هناك نقطة واحدة يجب ملاحظتها هنا.

لم يذكر مرسوم الإمبراطور سوى أن «شيوخ القبائل قد تعرضوا للنهب»، و«احتل مناطق شيوخ القبائل». ولم يذكر فشل حملة شيوخ القبائل الثمانية على (تشان دوي). هل السبب هو أنهم لم يخبروا الإمبراطور بذلك؟

ربما كان عدم إخباره أفضل. في ذلك الوقت، لم تكن سلالة (تشينغ) في عصرها الذهبي في عهد (كانغ شي) و(تشيان لونغ)، بل كانت تواجه مشاكل داخلية وخارجية، وكان لدى الإمبراطور ما يشغله.

لا شك أن (تشي شان) كان يتعاطف مع الإمبراطور، ولم يكن يريد أن يرهقه، لذلك، بعد شهرين، قدم تقريراً عن حملته على (تشان دوي)، وقال إنه حقق «نصراً ساحقاً». كان الإمبراطور سعيداً بطبيعة الحال. فقوات سلالة (تشينغ)، التي لا تستطيع هزيمة إنجلترا ذات السفن القوية والمدافع، أليس من السهل عليها التعامل مع «البرابرة الصغار» من (تشان دوي) الوسطى؟ قال (تشي شان) في تقريره: «(تشي شان) قاد القوات الحكومية، وتجرأ زعيم العصابة البربرية على القدوم ومواجهة قواتي. فتحت قواتي النار بالقنابل، واستخدمت البنادق والرماح، مما أدى إلى مقتل زعيمين من العصابة وأكثر من مائتي شخص. وهرب الباقون، فلاحقناهم وقتلنا عدداً لا يحصى منهم، واستولينا على العديد من الخيول والأبقار. وسقط قائدا العصابة (قه لوو بوو) و(تشا بي آ سوو) من جرف وماتا. ونحن الآن نستكشف الطرق ونجمع المؤن، للقضاء عليهم في كهوفهم.»

.indd 150-151 2025-11-27 10:55:58

عندما رأى الإمبراطور التقرير، أصدر مرسوماً: «ما تم القيام به جيد جداً. (تشي شان) لديه خطة جيدة، ويجب أن يتم تكريمه.» يا صاحب الجلالة، الحرب قد بدأت للتو، وحتى لو كان هناك نصر، فهو مجرد نصر أولي! إذا نظرنا إلى الحروب السابقة في (تشان دوي)، فإن الانتصارات الأولية كانت غير موثوقة! في عهد سلالة (تشينغ) والسلالات السابقة، كان هناك مؤرخون ومؤسسات خاصة لإدارة الوثائق التاريخية. وهذه المرة هي المرة الرابعة التي ترسل فيها سلالة (تشينغ) قوات إلى (تشان دوي). ألم يقرأ الإمبراطور والوزراء من حوله الوثائق السابقة؟ إذا لم يفعلوا، فما فائدة دراسة التاريخ؟ ولكن الإمبراطور لم يتعلم من دروس التاريخ، وسمح لأفشل جزء من التاريخ أن يتكرر على يديه. بسبب النصر الأولي، لم يكتفِ بتكريم (تشي شان)، بل كرم أيضاً «جميع الضباط والجنود الذين شاركوا في هذه الحملة.»

كان (تشي شان) مصمماً على النصر في هذه الحملة على (تشان دوي)، وقد قام بالفعل بتحضيرات كافية.

أولاً، قام بحشد الآلاف من الجنود، وتحرك من (تشنغدو) إلى (دا جيان لو). ثم قاد الجنود وقوات شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) واللاما (تشينغ تسه) إلى (لو هوه)، شمال شرق (تشان دوي). وعندما وصل إلى (لو هوه)، استقبل شيوخ قبائل (تشانغ قو)، و(ما شو)، و(تشو ووه)، و(كونغ سا)، و(قان تسي)، و(ده قه) الستة من شمال وشمال غرب (تشان دوي)، بالإضافة إلى اللاما من دير (تشو تشينغ) الذي كان يتمتع بنفوذ قوي على الطريق الشمالي بين سيتشوان والتبت. وتم تجميع قوات جميع شيوخ القبائل.

لم يجرؤ (تشي شان) على الاستهانة بـ(قونغ بو لانغ جيا)، وعرف أن الحملة على (تشان دوي) لن تكون سريعة، لذلك استخدم تكتيك الدفاع المتقطع، والتقدم التدريجي، وحشد المدنيين، وبناء الطرق، لضمان الإمدادات والنقل. أولاً، أرسل فريقاً استطلاعياً لمهاجمة (دا لا سونغ بوو) في (تشان دوي) العليا، وأمرهم ببناء تحصينات، وحفر خنادق، وبناء معسكرات، وزراعة الخضروات، استعداداً لحرب طويلة الأمد.

بعد ذلك، قام بتقسيم قواته المكونة من خمسة آلاف جندي من سلالة (تشينغ)، وقوات شيوخ القبائل، وهاجم (تشان دوي) من ثلاث جهات: (قان تسي)، و(لو هوه)، و(داو فو). أما القوة التي هاجمت من (لو هوه)، فقد تعاونت مع قوات شيخ قبيلة (لو هوه)، ودخلت أولاً إلى (ماي كه موتشانغ) في (تشان دوي).

معظم سكان (تشان دوي) وقراها يتركزون في الأودية النهرية المنخفضة على ضفتي نهر (يالونغ)، حيث يمكن ممارسة الزراعة. بشكل عام، يوجد خلف الأراضي الزراعية في الوادي غابات كثيفة، وفوق الغابات توجد بعض المناطق المفتوحة، وهي المراعي. وتعد (ماي كه موتشانغ) مرعى مرتفعاً بين (تشان دوي) و(لو هوه). وباحتلال هذا المكان، يمكن لقوات سلالة (تشينغ) وقوات شيوخ القبائل التي يقودها (تشي شان) أن تتحرك من المرتفعات إلى المنخفضات، وتضغط على وادي نهر (يالونغ)، وهو قلب (تشان دوي). وبالطبع، اعتبر (قونغ بو لانغ جيا) مرعى (ماي كه موتشانغ) بوابة مهمة لـ(تشان دوي)، وخاض معركة شرسة مع قوات (تشينغ) هناك.

مقارنةً بجيش (قونغ بو لانغ جيا)، كانت قوات (تشينغ) أكبر عدداً، وذات أسلحة أفضل. وخاصة المدافع المتفجرة التي كانت تستخدمها قوات (تشينغ). لم يستطع (قونغ بو لانغ جيا) وجنوده، مهما كانوا شجعاناً، مقاومة هذه القوة. بالإضافة إلى ذلك، كانت قوات (تشينغ) وقوات شيوخ القبائل الأخرى تتقدم أيضاً من (قان تسي) و(داو فو)، لتدعم الهجوم المركزي. ولم يكن أمام (قونغ بو لانغ جيا) خيار سوى الدفاع بقوة والتراجع تدريجياً.

بعد بضعة أيام، تلقى الإمبراطور في بكين تقريراً من (تشي شان)، الذي كان يقود المعركة من الأمام في (لو هوه): «في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر، اخترنا جنوداً من النخبة وهاجمنا من عدة اتجاهات. في غضون بضعة أيام، استولينا على أكثر من عشرة أبراج، وأربعة ممرات ضيقة، وقتلنا مئات من البرابرة.»

وبالطبع، قال الإمبراطور: «ما تم القيام به جيد جداً.»

كما أصدر تعليمات: «استغلوا هذه القوات النخبة، وهاجموا في هجوم واحد، لتدمير كهوفهم والقبض على زعيمهم.» وفي هذا الوقت، كان الإمبراطور قد عرف بعض الشيء عن وضع (تشان دوي)، فأصدر تعليمات أكثر تحديداً: «إن معقل البرابرة محاط بأسوار دفاعية، وأبراجهم قوية، لذلك يجب تقدير قوة المدفعية بما يكفي، لضمان دقة القصف، واحتلال المضائق، وتدمير التحصينات القوية.» كان الإمبراطور قلقاً، وإلا لما كان قد فكر في تفاصيل مثل ضرورة وضع المدافع قريباً من أبراج الأعداء لكي تكون دقيقة. وأصدر المزيد من التعليمات: «على الحاكم أن يدرس الوضع بعناية، ويتخذ الإجراءات المناسبة، ويضمن توافر الإمدادات العسكرية الكاملة، بما في ذلك الطعام والأسلحة، وأن يستكشف الطرق بدقة، ويبدأ الهجوم في أقرب وقت ممكن للقضاء على كل الأعداء.»

□□□□ □□□.indd 152-153 2025-11-27 10:55:58

اهتم الإمبراطور أيضاً بالعمليات اللوجستية، وذكر ذلك بالتفصيل في مرسومه، لأن (تشي شان) كان قد قدم تقريراً عن صعوبات الإمداد: «في هذه الحملة على برابرة (تشان دوي) الوسطى، فإن أكثر من عشر محطات خارج الحدود مليئة بالجبال الشاهقة والغابات الكثيفة، بالإضافة إلى الثلوج التي تغطي الطرق الوعرة. لذا، فإن نقل الإمدادات صعب للغاية، وعلى طول الطريق، لا يوجد سكان لمئات الأميال، والجنود يمشون ويتسلقون الجبال نهاراً، وينامون على الثلج ليلاً.» وهذا هو الوضع الحقيقي على طريق الحملة العسكرية.

بالإضافة إلى جهوده للتحضير، حاول (تشي شان) أيضاً الحصول على حماية من الآلهة. فذكر في تقريره للإمبراطور: «عندما وصلت إلى (دا جيان لو)، علمت أن المعابد خارج الحدود كلها تعبد آلهة حامية لدعم الدين الأصفر، واسم أحدها (ناي جيونغ)، والآخر (دوو جي شون ديان). ويتم تبجيلها بشدة من (دا جيان لو) إلى التبت، وهي معروفة بقدرتها على الاستجابة للصلوات. ... وعندما كنت في (دا جيان لو)، علمت بهذا الوضع. وأنا قلق من أن يصاب جنودنا بالمرض. وأخشى أيضاً أن يستمر زعيم (تشان) في المقاومة، مما سيجعل الحرب طويلة الأمد. لذلك، ذهبت بنفسي إلى إلهي الحماية لأصلي من أجل الحماية.» من هذا التقرير، يمكن للإمبراطور أن يرى أن (تشي شان) لم يكن واثقاً تماماً من هذه الحملة. لو كان إمبراطوراً سابقاً، مثل (تشيان لونغ)، لكان قد أشاد به، أو شكك في الأمر، وكان سيعلق على ذلك. ولكن الإمبراطور (داو قوانغ) لم يقل شيئاً.

القصص القديمة تتكرر مراراً وتكراراً

لحسن الحظ، بعد أن بدأت الحملة في بداية العام، وفي شهر مايو، أي بعد أقل من نصف عام، وصلت أخبار إلى العاصمة بأن البرابرة من (تشان دوي) الوسطى قد «تابوا واستسلموا».

«بعد أن قاد الحاكم العام (تشي شان) القوات وشن حملة، حقق انتصارات متتالية، ووصل مباشرة إلى وكرهم. شعر البربري (قونغ بو لانغ جيا) بالرعب من قوة الجيش، فقدموا تعهداً[1] رسميًا بالاستسلام، وأبدى رغبته في إعادة جميع الأراضي والسكان الذين استولى عليهم إلى شيوخ القبائل، وأن يعيش الجميع في سلام كما كانوا في السابق. ومن الطبيعي أن يتم التسامح مع ما حدث في الماضي، حتى يتمكنوا من الإخلاص والولاء. ويجب أن يُمنح (قونغ بو لانغ جيا) لقب مسؤول من الدرجة السادسة، تشجيعاً له.»

لم يسأل الإمبراطور بالطبع لماذا أصبح البربري (قونغ بو لانغ جيا) الذي كان متمرداً ووقحاً فجأة مطيعاً ومستسلماً. بالنظر إلى قصة حملة (تشان دوي) السابقة، لو كان الإمبراطور (تشيان لونغ)، لكان قد سأل بالتأكيد. ولكن لا أحد يعرف ما إذا كان الإمبراطور (داو قوانغ) أكثر صدقاً من (تشيان لونغ)، أم أنه كان يعلم أن قوة الإمبراطورية قد تضاءلت، وأن السؤال لن يجدي نفعاً، فتظاهر بالجهل.

لم يكتف (تشي شان) بطلب منصب رسمي لـ(قونغ بو لانغ جيا)، بل طلب من الإمبراطور «منح لوحة» للآلهة التي صلى لها.

فقال الإمبراطور: «إن الحاكم قد صلى بإخلاص للآلهة الحامية في المعابد، ولم تتعرض الحملة لأي عوائق، لذلك يجب مكافأتهم. يجب أن يتم إرسال لوحتين كتبهما الإمبراطور، ليتم تعليقهما بوقار، كرد للآلهة.»

1 التعهد: يُعرف رسميًا باسم «قان جيه». «جيه» تعني في الأصل وثيقة مكتوبة أو صك. أما «قان جيه» فتعني وثيقة خطية وموقعة تسلم إلى الحكومة. إنها بمثابة تعهد أو ضمانة بقبول التزامات ومسؤوليات معينة، مع الاستعداد التام لتقبّل العقوبة في حال الإخلال بهذا الوعد.

.indd 154-155 2025-11-27 10:55:58

تذكر السجلات التاريخية أن هاتين اللوحتين اللتين خطهما الإمبراطور (داو قوانغ) كانتا: إحداهما «المكانة الروحية في الأراضي البعيدة»، وقد منحت لمعبد (جيان تو). والأخرى «السلام والرخاء على الحدود»، وقد منحت لمعبد (بوو ديي قانغ تسا).

بعد عودة الجيش، لم يتم تكريم قادة القوات الحكومية فحسب، بل حصل أيضاً شيوخ القبائل الذين ساعدوا في الحملة مثل (قه زونغ دا إرجيه) و(سي لانغ وانغ جيه) و(قونغ بو إه تشو لانغ جيه) على ريشات ومراتب رسمية.

السؤال هو: هل انتصرت الحرب حقاً؟

الجواب هو: لم تنتصر الحرب.

ولكن يمكن تبرير ذلك مقارنة بفشل حملة (تشيان لونغ) على (تشان دوي)، والتي حدثت في عصر ذروة قوة سلالة (تشينغ). في ذلك الوقت، كانت سلالة (تشينغ) قد بدأت في الانحدار بسبب المشاكل الداخلية والخارجية. وكانت السنة التي قاد فيها (تشي شان) حملته على (تشان دوي) مليئة بالأحداث.

في هذه السنة، استخدم المسؤول البرتغالي في ماكاو، (أمال)، رفض الحاكم العام لـ(قوانغدونغ) و(قوانغشي) لطلب إلغاء الجمارك في ماكاو وإنشاء قنصلية في (قوانغتشو)، كذريعة لطرد المسؤولين من سلالة (تشينغ) في ماكاو، ووقف دفع الضرائب السنوية التي كانت تدفعها ماكاو للحكومة الصينية منذ «استعارتها» للمنطقة. وفي شهر يوليو، قامت القوات التابعة لسلالة (تشينغ) باغتيال (أمال). وبعد ذلك، وصلت سفن حربية بريطانية إلى ماكاو، وقدم سفراء بريطانيا، وفرنسا، وأمريكا احتجاجاً مشتركاً إلى حكومة (تشينغ)، لدعم البرتغاليين علناً. وهكذا، أرسلت البرتغال قوات واحتلت ماكاو، التي كانت أرضاً صينية.

وبالإضافة إلى المشاكل الخارجية، كانت هناك أيضاً مشاكل داخلية.

ففي هذه السنة، اندلعت ثورة فلاحين بقيادة (لي يوان فا)، زعيم جماعة (تيان دي هوي) في (هونان).

في ذلك العام، حدث فيضان في (هونان)، واستغل ملاك الأراضي الأغنياء الفرصة لرفع أسعار الحبوب، واستغلوا الفلاحين بأسعار فائدة مرتفعة، كما قامت الحكومة بالاستيلاء على ممتلكات الشعب باسم «البيع بأسعار عادلة». قاد (لي يوان فا) الجماهير تحت شعار «السرقة من الأغنياء وإعطاء الفقراء»، وتحالف مع الفلاحين في (قوانغشي تشوان تشو)، وهاجموا المدن والسجون، وقتلوا المسؤولين من سلالة (تشينغ). ومثل قصة (تشان دوي)، فشلت قوات (تشينغ) في القضاء عليهم، وتم عزل قائد القوات في (هونان)، (ينغ جون)، ثم أمر الحاكم العام لـ(هوغوانغ)، (يوتاي)، بقيادة قوات من أربع مقاطعات: (هونان)، و(هوبي)، و(قوانغشي)، و(قويتشو)، للقضاء على الثورة. واستغرقت سنة كاملة للقضاء عليها.

وبعد عامين آخرين، كانت حرب مملكة (تايبينغ) السماوية على وشك الاندلاع، وهي الحرب التي أضعفت قوة سلالة (تشينغ) بشكل كبير، وهزت أسس حكمها.

في القصص المحلية في (شين لونغ) عن (قونغ بو لانغ جيا)، يُعتبر (تشي شان) شخصية مثيرة للسخرية.

تقول الأساطير الشعبية إنه في المراحل اللاحقة من الحرب، كانت المعركة عالقة، وازداد عدد الجنود الذين يهربون من جيش (تشينغ). بالإضافة إلى ذلك، توفيت والدة الإمبراطور في بكين، واستخدم الإمبراطور مرسوماً عاجلاً ليطلب من (تشي شان) سحب قواته في أقرب وقت ممكن. لم يكن لدى (تشي شان)، الذي كان قد استعد لحرب طويلة الأمد، أي خيار سوى إرسال شخص للتفاوض مع (قونغ بو لانغ جيا).

أرسل (تشي شان) رسالة إلى (قونغ بو لانغ جيا) يقول فيها: «أنت رجل محظوظ، وسأجعلك شيخ قبيلة (تشان دوي).»

لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) يريد الاستسلام حقاً، ولكنه استخدم ذلك كحيلة لكسب الوقت، فأرسل قائده (جيا ما بنغ) للتفاوض. أثناء المفاوضات، طلبت قوات (تشينغ) فقط أن يعيد (تشان دوي) مدفعين كان قد استولى عليهما، وفي المقابل، اعترفوا بسيطرة (قونغ بو لانغ جيا) على (تشان دوي). بالإضافة إلى شهادة التعيين، والملابس الرسمية، وقبعة المسؤول، أعطى (تشي شان) (قونغ بو لانغ جيا) الكثير من الحرير والشاي كمكافأة.

بعد المفاوضات، انسحبت القوات الحكومية وقوات شيوخ القبائل تدريجياً من (تشان دوي) بأكملها.

عاد (جيا ما بنغ) من المفاوضات حاملاً الملابس الرسمية وقبعة المسؤول التي منحها إياها (تشي شان)، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) قال: «أنا لست مسؤولاً (هانياً)، ولا مسؤولاً تبتياً، ولست بحاجة إلى هذه القبعة (المنغولية)! إذا كنت تريد هذه الأشياء، فخذها، وإذا كنت لا تريدها، ارمها في النهر!»

وبما أن (جيا ما بنغ) لم يكن يجرؤ على الاحتفاظ بهذه الأشياء، فقام بإلقاء الملابس الرسمية وقبعة المسؤول في نهر (يالونغ).

.indd 156-157 2025-11-27 10:55:58

في (تشان دوي)، لم أتمكن من العثور على الأماكن التي وقعت فيها الأحداث الكبرى بسبب تغير الأسماء وتدمير المباني، ولكن هناك من تمكن من إرشادي بدقة إلى المكان الذي ألقى فيه (قونغ بو لانغ جيا) الملابس الرسمية وقبعة المسؤول الخاصة بسلالة (تشينغ) في نهر (يالونغ).

بعد الحرب، انتشرت قصيدة ساخرة كتبها راهب محلي على شكل أبيات: «الحاكم بنفسه أتى إلى (كانغ)، وشيوخ القبائل سعداء. لكن (قونغ بو لانغ جيا) لن يموت، وينتظركم لتأتوا وتخدموه.»

وبعد انتصاره، ألف (قونغ بو لانغ جيا) أغنية شعبية، وأمر الناس بغنائها: «زعيمات القبائل، تزوجن الحاكم (الهاني)، والرجال (الهانيون) عادوا خائبين، أما زعيمات القبائل، فيتحسرن على حظهن السيء!»

من المؤكد أن جميع شيوخ القبائل الذين رافقوا قوات (تشينغ) في هذه الحملة كانوا رجالاً. فبقوله إنهم نساء، كان (قونغ بو لانغ جيا) يعبر عن احتقاره الشديد لهم.

وبعد انسحاب الجيش، قام (قونغ بو لانغ جيا) على الفور بتطهير داخلي. وعاقب بشدة قبيلة (لا دوي) التي كانت تقع على حدود (تشان دوي) السفلى، والتي كانت قد قدمت المساعدة لقوات (تشينغ).

تذكر السجلات التبتية: «قامت قوات (لا دوي) التي حاصرت (تشان دوي) بطرد ماشيتهم، وتم قتل معظم الناس، والاستيلاء على جميع ممتلكاتهم، وتدمير خيامهم. وعندما وصلوا إلى دير (قولو)، قبضوا على راهب الدير (كونغ تسه دوي جيوو) وعائلته. وتم حبس (دوي جيوو) في منزل مهدم لعدة أشهر، ثم قُتل، وتم تقطيع زوجته إلى قطع، أما ابنه، فتم دفنه تحت كومة من روث الأبقار حتى مات اختناقاً.»

يقول البعض أيضاً إن (قونغ بو لانغ جيا) قام بتجريد قائده (جيا ما بنغ)، الذي أرسله للتفاوض مع المسؤولين من سلالة (تشينغ)، من رتبته، وجعله من عامة الناس. وكان السبب وراء ذلك أكثر تعقيداً. يقول البعض إنه كان غير راضٍ عن (جيا ما بنغ) بسبب دعوته للتصالح مع سلالة (تشينغ)؛ ويقول آخرون إنه كان يعتقد أن المفاوضات ستكون صعبة للغاية، لذلك أرسل (جيا ما بنغ)، ولكن نجاح المفاوضات جعله يشعر بالغيرة منه.

ولكن بعد ذلك، كان (جيا ما بنغ) يظهر دائماً في حروب (قونغ بو لانغ جيا). ربما لم تكن هذه القصة صحيحة، أو ربما أعاده سيده إلى الخدمة عندما أصبحت الحرب صعبة.

.indd 158-159 2025-11-27 10:55:58

الفصل الخامس

في تلك الليلة، بعد غروب الشمس فوق قمة المقر الرسمي، وضعوا مواد قابلة للاشتعال في أسفل المبنى. وبحلول منتصف الليل، بدأ مبنى المقر بالكامل يحترق، والتهمت النيران كل ما فيه من كنوز وممتلكات.. وبعد أن خمدت النيران، عُثر على بقايا ابن (قونغ بو لانغ جيا)، (تشي مي قونغ بو)، وزوجته وغيرهم من بين الأنقاض. أما (قونغ بو لانغ جيا) وابنه (دنغ دنغ قونغ بو)، فلم يتم العثور عليهم أحياء أو أمواتاً، واختفى أثرهم. تمامًا مثل السحب العائمة في السماء، والقوس قزح الذي يتلاشى.

□□□□ □□□.indd 160-161 2025-11-27 10:55:58

(تشان دوي) تشن حملة لإخضاع (تشانغ قو) المنغولية الأصل

بعد انسحاب جيش (تشينغ)، أصبح (قونغ بو لانغ جيا) يسيطر بشكل أقوى على (تشان دوي) بأكملها.

ومنذ ذلك الحين، وبدافع الانتقام وطموحه في التوسع، بدأ (قونغ بو لانغ جيا) هجماته على شيوخ القبائل المجاورة. وكان أول من تعرض للهجوم، بالطبع، هو شيخ قبيلة (تشانغ قو) في منطقة (لو هوه).

من الناحية العسكرية، كانت منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) في الشمال دائماً طريقاً مهماً لمهاجمة (تشان دوي). فبالتقدم جنوباً من (لو هوه)، واحتلال المرتفعات في منطقة (ماي كه مو تشانغ) في (تشان دوي)، يمكنهم الهيمنة، وتشكيل تهديد كبير لـ(تشان دوي) الوسطى و(تشان دوي) العليا. وفي كل مرة كانت سلالة (تشينغ) ترسل فيها قوات إلى (تشان دوي)، كان شيخ قبيلة (تشانغ قو) يرسل قوات للمساعدة.

وبالإضافة إلى ذلك، كما ذكرنا سابقاً، قُتل شقيق (قونغ بو لانغ جيا) الأكبر على يد شيخ قبيلة (تشانغ قو). وعلى الرغم من أن ذلك كان نتيجة هجومهم على منطقة شيخ قبيلة (لو هوه)، إلا أن (قونغ بو لانغ جيا) اعتبر شيخ قبيلة (تشانغ قو) مسؤولاً بشكل كامل. كان الانتقام جزءاً مهماً من القيم الأساسية لسكان (كانغ) في ذلك العصر.

بعد فترة قصيرة من انسحاب قوات (تشينغ)، بدأ سكان (تشان دوي) بشن هجمات متكررة على (لو هوه).

ولكن سكان (لو هوه) لم يكونوا سهلي التعامل.

كان لدى شيوخ القبائل في مناطق (تشوووه) و(ما شو) و(كونغ سا) و(باي لي)، و(تشانغ قو) في (لو هوه)، الواقعة شمال (تشان دوي) اسم مشترك وهو «(هوه إر)». وكلمة (هوه إر) تعني «منغولي». وهذا يعني أن هؤلاء الشيوخ القبليين ينحدرون من أصول منغولية محبة للحرب ومُجيدة للقتال. وهم أحفاد المنغوليين الذين استقروا في هذه المنطقة في بداية عهد أسرة (يوان)، وكانوا جميعاً محاربين أقوياء. وشيخ قبيلة (تشانغ قو)، كونه واحداً من شيوخ قبائل «هوه إر» الخمس المنغولية الأصل، لم يكن استثناءً. شن (قونغ بو لانغ جيا) هجمات متتالية على شيخ قبيلة (تشانغ قو) سبع أو ثمان مرات، لم يتمكن من تحقيق أي تقدم. وبالطبع، لم تكن هذه الهجمات حروباً واسعة النطاق. في منطقة شيوخ القبائل في سيتشوان، كانت المنطقة واسعة والسكان قليلون، وعادة ما كانت القوات المشاركة في الحرب لا تتجاوز بضع مئات من الجنود. وإذا وصل العدد إلى ألف أو بضعة آلاف، فإنها تعتبر حرباً ضخمة.

عندما فشل (قونغ بو لانغ جيا) في تحقيق النصر بهجوم شامل، غير استراتيجيته، واعتمد على تكتيكات الهجوم الفردي.

كان هدفه الأول هو شيخ قبيلة (جي شا دا جي)، الذي كان تابعاً لشيخ قبيلة (تشانغ قو).

هذه المرة، لم يرسل (قونغ بو لانغ جيا) جيشاً كبيراً، بل أرسل قائدين صغيرين مع عشرة أشخاص فقط. تسللوا بهدوء إلى قرية (جي شا دا جي)، ودخلوا إلى القلب، وقتلوا (جي شا دا جي). وبعد أن نجحوا بسهولة، قاموا بخطف ابنه وأخذوه إلى (تشان دوي). وبعد بضعة أيام، في المقر الجديد لـ(تشان دوي) في (بانغ ره)، رأى (قونغ بو لانغ جيا) رأس (جي شا دا جي) الذي قدمه له أتباعه. وقام (قونغ بو لانغ جيا) شخصياً بفتح بطن ابن (جي شا دا جي) وأخرج قلبه، انتقاماً لموت أخيه. ثم قام بتعليق رأسي الأب والابن على الطريق، ليُظهر قوته للجميع.

بعد فترة وجيزة، أرسل (قونغ بو لانغ جيا) رجاله لمهاجمة مرعى (تشو جياو)، التابع لشيخ قبيلة (تشانغ قو). وبعد أن أسروا زعيم (تشو جياو)، أجبروه على إرسال ابنه لقتل شيخ قبيلة آخر تابع لشيخ قبيلة (تشانغ قو)، وهو (جي رونغ لا كه). ولكن الخبر تسرب، وهرب شيخ القبيلة، ولكن أفراد عائلته قُتلوا. قام شيخ قبيلة (تشانغ قو) بوضع خطة لاصطياد القاتل، وألقاه في السجن، واستعد لإعدامه، ولكن حارس السجن أخذ رشوة، وسمح له بالهروب.

وبعد هذه الانتصارات المتتالية، استهدف (قونغ بو لانغ جيا) قرية (دوو بواي)، وهو مدير أعمال شيخ قبيلة (تشانغ قو). تمكن (دوو بواي) وابنه من الهرب، ولكن قريتهم احتلت من قبل سكان (تشان دوي)، وتم نهب جميع ممتلكاتهم. بصفتي كاتباً، اعتقدت في البداية أن (قونغ بو لانغ جيا) كان لديه طموحات أكبر من شيوخ القبائل الآخرين، لذلك كانت لدي توقعات مختلفة لهذه القصة. ولكن بعد أن استمعت إلى المزيد من هذه القصص، شعرت بأنها مكررة وحزينة. يبدو أن التاريخ يتكرر في نفس المكان؛ وأن (قونغ بو لانغ جيا)، هذا القائد العظيم، لم يكن يفعل سوى تكرار القصص القديمة؛ وأن القصص التي يرويها الناس بسعادة، هي في الواقع متكررة. في هذه الأرض، تتغير الشخصيات الرئيسية، ولكن الخلفية لا تتغير. ولم ينمُ وعي البشر أو حكمتهم.

.indd 162-163 2025-11-27 10:55:59

تستمر القصة، ولا تزال قديمة جداً.

لكنها تشتمل على بعض العناصر الجنسية.

حيث انضم إليها الرهبان الذين كان عليهم الالتزام بالقواعد.

في قصص المنطقة التبتية، يطلق على الرهبان اسم خاص: (لاما).

تقول القصة إن أتباع (قونغ بو لانغ جيا) عندما هاجموا قرية مدير أعمال شيخ قبيلة (تشانغ قو)، تمكن المدير وابنه من الهرب، ولكنهم أسروا (لاما). كان هذا اللاما يستطيع جعل الآلهة تتلبس جسده، وبذلك يتمكن الناس من استشارة الآلهة من خلال جسده لمعرفة مصيرهم.

كان هذا اللاما من أكبر معبد في (تشانغ قو)، وهو معبد (شو نينغ).

ويقول السكان المحليون إن «(لاما) التنبؤ» هذا من معبد (شو نينغ) كان على علاقة مع زوجة شيخ قبيلة (تشانغ قو).

عندما علم (قونغ بو لانغ جيا) بذلك، اعتبرها كنزاً، وقام بنفسه بإجراء تحقيق مع اللاما، وتأكد من أن القصة حقيقية وليست مجرد إشاعات. وبعد التحقيق، قام (قونغ بو لانغ جيا) بإطلاق سراح اللاما، وفي الوقت نفسه، أمر بنشر قصة خيانته مع زوجة شيخ القبيلة في كل مكان. تقول إحدى الوثائق التبتية المحلية: «انتشرت الفضيحة في (لو هوه)، وتسببت في انقسام السكان والأتباع عن شيخ القبيلة، مما مهد الطريق لـ(قونغ بو لانغ جيا) لمهاجمة (لو هوه).»

تحتاج القصة القديمة لكي تخلد بطلاً، إلى تقديم شيخ قبيلة آخر كضحية. في هذه القصة، كانت الضحية هو شيخ قبيلة (تشانغ قو)، الذي كان أسلافه من المنغوليين المحاربين. وعندما هرب أحد مديريه وهو مذعور بعد أن فقد قريته، وقعت مشكلة لمدير آخر له.

وقع الحادث في نفس المكان الذي كان فيه اللاما على علاقة مع زوجة شيخ القبيلة: معبد (شو نينغ).

في ذلك الوقت، كان شيخ قبيلة (تشانغ قو) قد عين مديراً آخر لإدارة معبد (شو نينغ). كان هذا المعبد كبيراً، ويتبع المدرسة (غلوغ) في البوذية التبتية، ويعتبر (دالاي لاما)، الذي يسيطر على السلطة الدينية والسياسية في التبت، المعلم الأعلى له. ومكانة المعلم الأعلى الخاصة في التبت جعلتهم غير راغبين في أن يكونوا تحت سيطرة شيخ القبيلة الذي يتمتع بسلطة علمانية. فاستغلوا هجوم (قونغ بو لانغ جيا) المستمر، وتعب شيخ قبيلة (تشانغ قو)، وطردوا المدير الذي أرسله لإدارة المعبد، بحجة أن إدارته كانت قاسية جداً. لم يستطع شيخ القبيلة التعامل مع المعبد القوي، فصب غضبه على المدير، وطرده من قريته. واستغل شيخ قبيلة آخر تابع لشيخ قبيلة (تشانغ قو)، واسمه (تشو لوو)، الفرصة، واستولى على أراضي المدير وممتلكاته.

لم يكن لدى المدير، واسمه (تشان دنغ)، مكان يذهب إليه، فهرب إلى (تشان دوي)، وانضم إلى (قونغ بو لانغ جيا) الذي كان نفوذه قوياً.

بالنسبة لـ(قونغ بو لانغ جيا)، كانت هذه فرصة لا تعوض. فأرسل على الفور مجموعة من رجاله الشجعان مع (تشان دنغ)، هذا الرجل الخائب، للتسلل إلى منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو). تقول الأسطورة إنهم تسللوا إلى قرية (تشان دنغ) السابقة في إحدى الليالي. وبمساعدة (تشان دنغ)، الذي كان يعرف تضاريس القرية جيداً، نصبوا كميناً في كل مكان في القرية قبل الفجر. وعندما حل الصباح، تنكر أحدهم في هيئة شحاذ، وطلب طعاماً عند باب منزل شيخ القبيلة الجديد، أي منزل المدير السابق (تشان دنغ). وتسلل بعض المسلحين خلفه، ودخلوا المقر. وفي ذلك الوقت، كان شيخ القبيلة الجديد (تشو لوو)، الذي كان قد حصل على الأرض والسكان حديثاً، يصلي بإخلاص أمام تمثال (بوذا) في قاعة الصلاة. ولكن على غير المتوقع، تم طعنه وقتله هو وعائلته على يد المسلحين الذين تسللوا إلى المقر.

وبعد هذه الأحداث، فقد شيخ قبيلة (تشانغ قو) الكثير من أراضيه، بالإضافة إلى بعض الأتباع الأقوياء. والآن، حان الوقت لـ(قونغ بو لانغ جيا) لشن هجوم واسع النطاق. فجمع (قونغ بو لانغ جيا) قواته، وشن هجوماً مباشراً. يمر نهر (شيان شوي) في وسط منطقة شيخ قبيلة (لو هوه)، والأراضي المنخفضة على ضفتي النهر هي الأماكن التي تتركز فيها الثروة والسكان. شكلت قوات (تشان دوي) صفوفها على ضفتي نهر (شيان شوي)، وتقدمت معاً. كانت قواته لا تُقهر، ووصلت مباشرة إلى مقر شيخ القبيلة، وبدأت الهجوم. كانت منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) ليست كبيرة، وعرف أنه ليس لديه مكان يهرب إليه، فقاوم بشراسة. ولكن قوات (تشان دوي) هاجمت لعدة أيام دون أن تحقق أي تقدم، فأمر (قونغ بو لانغ جيا) بالانسحاب مؤقتاً.

[redacted].indd 164-165 2025-11-27 10:55:59

وبعد فترة وجيزة، قام بحشد قوة أكبر، وقسمها إلى مجموعات، وحاصر مقر شيخ قبيلة (تشانغ قو). في ذلك الوقت، أدرك شيخ قبيلة (تشانغ قو) أنه لا يستطيع المقاومة، فهرب مع عائلته قبل وصول القوات. وترك مدير أعماله ليقوم بمهام شيخ القبيلة، وقيادة الجنود والسكان للدفاع عن المقر. استمرت هذه المعركة ستة عشر يوماً، ولكن المقر لم يتم احتلاله. وكان الجنود في المقر، وخاصة بعض اللاما، يندفعون خارج المقر وهم يقاتلون بشراسة رغم الصعوبات التي كانوا يواجهونها، مما تسبب في وقوع العديد من الضحايا بين صفوف (تشان دوي)، ولكن في النهاية، كانت مقاومتهم ضعيفة. وبسبب هروب شيخ القبيلة، كانت معنويات المحاصرين منخفضة، وقام جميع رؤساء القبائل الكبار والصغار الذين كانوا يدافعون عن المقر بالخروج والاستسلام لـ(تشان دوي).

وفي النهاية، تدخل اللاما من معبد (شو نينغ) للتوسط، واستسلم المدافعون عن مقر شيخ قبيلة (تشانغ قو).

قام (قونغ بو لانغ جيا) بأسر رؤساء القبائل، واللاما، والمحاربين الشجعان الذين كانوا ذوي سمعة جيدة من بين المستسلمين، وأرسلهم إلى (تشان دوي)، وأطلق سراح الباقين.

وهكذا، تمكن سكان (تشان دوي) من احتلال جميع أنحاء منطقة شيخ قبيلة (لو هوه تشانغ قو). وقام (قونغ بو لانغ جيا) بتعيين مساعده الموثوق به، (لوو غو تسه رن)، ليكون حاكماً دائماً لـ(لو هوه)، وبنى مقراً جديداً قوياً ومهيباً، ليدير ويسيطر على منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) بأكملها.

معركة (تشان دوي) لإخضاع شيوخ القبائل الشماليين

بعد احتلال جميع أنحاء منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو)، كان هناك عدة شيوخ قبائل آخرين من أصول منغولية في شمال (تشان دوي). وباستثناء شيخ قبيلة (تشو ووه) الذي كان قد تزوج من ابنة (قونغ بو لانغ جيا)، وشعر ببعض الأمان، فإن مناطق شيوخ القبائل الأخرى كانت مليئة بالشائعات والخوف. وقد أدى انضمام اللاما الذين كانوا يجيدون التنبؤ إلى انتشار المزيد من الشائعات.

«تنبأ اللاما (باي ما موو جيه ون بوو) من معبد (تشانغ قه) في منطقة (تشانغ تاي) التابعة لشيخ قبيلة (ده قه): ‹سيحدث صراع داخلي في (ده قه)، وفي عام (الخنزير) لن نعرف إلى أين نذهب، وفي عام (الفأر) ستُغطى المنطقة بأكملها بالنار، وفي عام (الثور) ستهزم عصابة الشياطين، وبعد ذلك، سيعيش الجميع في سلام، وستشرق شمس (ساجيا) كما هي، وستشرق شمس (غاندان) كما هي، وستشرق شمس جبل (ليه تشينغ) المقدس كما هي.›»

«كان لدى اللاما (لوو تشو) من (تشا كه) أيضاً نبوءة، حيث كتب بوضوح عن سقوط (قان تسي) وخيانة (تشا دوي) بعد عام (الفأر).»

حتى منطقة (سه دا)، الواقعة في أقصى الشمال، والتي لم يكن فيها شيوخ قبائل معينون من قبل البلاط الإمبراطوري، والتي كانت دائماً قوية ومتمردة، اهتزت بسبب هذه الشائعات: «حلم (لاما) في منطقة (سه جي غن تانغ) بحقيبة من جلد البقر مليئة بالسيوف الحديدية، وبمجرد انتشار هذا الخبر، قال الجميع إن قوات (تشان دوي) ستأتي بالتأكيد، وهرب سكان المعابد والقرى، وأصبحت المعابد فارغة من السكان، وبسبب عدم وجود من يعتني بها، تدهورت معظم هذه المعابد بسبب تسرب المياه.»

[redacted].indd 166-167 2025-11-27 10:55:59

عندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) هذا الوضع، فرح كثيراً. فقرر أن يستغل خوف شيوخ القبائل، وأن يزيد الطين بلة.

كانت هذه الزيادة عبارة عن إثارة للفرقة.

لفترة من الوقت، كان على اتصال دائم بـ(ده قه)، و(باي لي)، اللذين كانا بعيدين نسبياً عن (تشان دوي). وتجاهل عن عمد زعيمي قبيلتي (كونغ سا) و(ما شو)، اللذين كانا قريبين من (تشان دوي). أدى ذلك إلى خلق الشك بين شيوخ القبائل. ثم هاجم قبيلتي (كونغ سا) و(ما شو). استفاد (قونغ بو لانغ جيا) من درس فشله في الهجوم المباشر على شيخ قبيلة (تشانغ قو). في بداية المعركة، أمر جنوده بالهجوم قليلاً، ثم التظاهر بالهزيمة، ليجعل خصومه يعتقدون أن (تشان دوي) ليست قوية كما تقول الشائعات. وفي المعارك التالية، كان جنود (قونغ بو لانغ جيا) ينسحبون بعد قتال قصير، وفي بعض الأحيان يتظاهرون بالهرب، مما جعل خصومهم يستهينون بهم تدريجياً. وبجانب مقر شيخ القبيلة، استرخى سكان القرى على ضفتي نهر (يالونغ). وكانت هذه هي الفرصة التي كان (قونغ بو لانغ جيا) ينتظرها بصبر. في إحدى الليالي، أرسل سكان (تشان دوي) قوات كبيرة، وهاجموا مناطق زعيمي قبيلتي (كونغ سا) و(ما شو) في وقت واحد. وفي ليلة واحدة، احتلوا المنطقة بأكملها تقريباً، وحاصروا مقري زعماء القبيلتين. عندما رأى زعماء قبيلتي (كونغ سا) و(ما شو) ذلك، أدركوا أنهم لا يستطيعون المقاومة، فجمعوا كنوزهم وأختامهم[1] التي منحها لهم البلاط الإمبراطوري، وتركوا أراضيهم وسكانهم، وهربوا غرباً، وعبروا نهر (جين شا)، ودخلوا التبت.

وبهذا، لم يتبق من شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية في شمال (تشان دوي) ، سوى (باي لي) و(تشو ووه). وكان شيخ قبيلة (تشو ووه) هو صهر (قونغ بو لانغ جيا)، وعندما رأى ذلك، انضم إليه على الفور. أما عائلة شيخ قبيلة (باي لي)، فعندما أدركت أنها لا تستطيع المقاومة، استسلمت لـ(قونغ بو لانغ جيا).

بعد هزيمة شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، سيطر (قونغ بو لانغ جيا) على جميع أراضي مقاطعتي (قان تسي) و(لو هوه)، وتضاعف عدد السكان والأراضي الخاضعة لسيطرته. وبعد النصر، قام بثلاثة أشياء، سأقتبسها من الوثيقة التبتية الأصلية:

1 الختم: الختم هو طابع يمنح من قبل الإمبراطور. في عهد سلالة (تشينغ)، عندما يتم تعيين شيخ قبيلة، يتم منحه وثيقة (شهادة) وختماً. وتختلف مادة الختم، وعادة ما تكون من النحاس أو الفضة، حسب رتبة شيخ القبيلة.

«بنى مقراً لم يسبق له مثيل في (قان تسي)، وعيّن (سو لانغ ونغ تشا) و(تشا شي دنغ تشو) كزعيمين.»

«وجعل (شا قو لاما) زعيماً على مقر (قو تشو دا)، وبنى قلاعاً في جميع الأماكن الاستراتيجية. بالإضافة إلى ذلك، عيّن العديد من القادة. وطرد الأشخاص الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ والقوة إلى أماكن أخرى.»

هاتان النقطتان كانتا متوقعتين، ولكن النقطة الثالثة التالية تظهر أن (قونغ بو لانغ جيا) كان لديه طموح أكبر بكثير من شيوخ القبائل المحليين الذين كانوا يتقاتلون باستمرار.

لقد قام بالهجرة.

«قام (قونغ بو لانغ جيا) بأخذ عائلة أو اثنتين من القرى التي استولى عليها إلى (تشان دوي)، وأخذ عائلة أو اثنتين من (تشان دوي) ليحل محلها، وخلط الأتباع الجدد والقدامى معاً.»

ماذا يفعلون بعد خلطهم معاً؟ هل يطورون الإنتاج؟ هل يندمج المهاجرون الجدد والقدامى ويتعايشون؟ لم يقم أحد بهذا الأمر في هضبة (تشينغهاي) والتبت منذ فترة حكم أسرة (توبو) التي وحدت الهضبة لفترة قصيرة. فبعد انهيار مملكة (توبو)، كان شيوخ القبائل المحليون في الهضبة يتقاتلون باستمرار، من أجل الحصول على عدد محدود من السكان، والثروة، والأراضي. ولكن يبدو أن الاستيلاء على السكان والأراضي كان فقط من أجل الحصول على المزيد من القوة، حتى يتمكنوا من الاستيلاء على المزيد من الثروة والسكان والأراضي. كان يمكن لشيوخ القبائل أن يستفيدوا من التبادل التجاري فيما بينهم، ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم تخطر على بالهم أبداً. وهكذا، توقفت خطى التاريخ الطبيعية بشكل غريب في هضبة (تشينغهاي) والتبت. وحتى اليوم، فإن الشعب التبتي الذي يتباهى بقوته يضعف يوماً بعد يوم بسبب الحروب المتكررة: يقل عدد السكان، وتتآكل الثروة، مما يؤدي إلى استنزاف القوة الإنتاجية والمعنويات.

باحتلاله لأراضٍ جديدة، قام (قونغ بو لانغ جيا) بشيء إضافي لم يفعله الآخرون، وهو الهجرة، ولكن النتيجة لم تكن جيدة. تذكر السجلات التبتية المحلية: «منذ أن انضموا إلى (تشان دوي)، فقد رؤساء القبائل الكبار والصغار والمدنيون الرغبة في العمل، وكانوا يعيشون في حالة من الخوف طوال الوقت، ولم يكن هناك من يستطيع أن يعيش بسلام.»

2025-11-27 10:55:59
.indd 168-169

لأن عملية الهجرة التي قام بها كانت تهدف إلى مراقبة السكان الذين احتلهم حديثاً، وليس إلى تشجيع التبادلات ذات المعنى بين الناس.

(تشان دوي) تشن حملة لإخضاع أكبر شيخ قبيلة في (كانغ با)

لا يزال (قونغ بو لانغ جيا)، بطل (تشان دوي)، لا يستطيع الهروب من مسار القصة الذي استمر لآلاف السنين في هذه الأرض. فبعد أن احتل شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، تضاعف عدد السكان والأراضي الخاضعة لسيطرته، وهي مساحة كافية للقيام بالعديد من الأشياء. ولكن مسار القصة الذي استمر لآلاف السنين جعل الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفكر فيه هو الحصول على المزيد من السكان والأراضي.

أكبر مساحة من الأراضي، وأكبر عدد من السكان، يقعان في الشمال الغربي من (تشان دوي)، وهي منطقة شيخ قبيلة (ده قه).

كان شيخ قبيلة (ده قه) أكبر شيخ قبيلة في منطقة (كانغ با). أولاً، كانت رتبته عالية: كان «مسؤولاً من الدرجة الثالثة» عينته سلالة (تشينغ). ثانياً، كانت أراضيه واسعة. عادة، كانت استراتيجية سلالة (تشينغ) في تعيين شيوخ القبائل هي «تعيين الكثير من الزعماء لتقسيم قوتهم». ففي المنطقة التي تعتبر الآن مقاطعة، كان هناك في ذلك الوقت عدة شيوخ قبائل، يعتمدون على بعضهم البعض، ويراقبون بعضهم البعض. ولكن شيخ قبيلة (ده قه) سيطر على منطقة تبلغ مساحتها عشرات الآلاف من الكيلومترات المربعة في مقاطعة سيتشوان ومنطقة التبت المتمتعة بالحكم الذاتي. وبسبب هذه المساحة الكبيرة، كان عدد سكانه وجنوده أكبر بعدة مرات من شيوخ القبائل العاديين. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك جماعات قوية من المعابد التابعة لطوائف مختلفة في منطقته، مما زاد من هيبة شيخ قبيلة (ده قه).

عندما تذهب إلى (ده قه) اليوم، ويتحدث الناس عن القصص القديمة، فإنهم يذكرون بفخر جملة يتناقلونها منذ مئات السنين: «(لانغ شيوخ القبائل)، (شا شيوخ القبائل).» وهذا يعني «السماء (ده قه)، والأرض (ده قه).» وهذا يدل على اتساع أراضي شيخ قبيلة (ده قه) وعظم هيبته في عصره. في ذلك الوقت، حتى سكان (تشان دوي)، الذين كانوا يعتبرون أقوياء، كانوا يضطرون إلى الانحناء أمام هيبة شيخ قبيلة (ده قه)، والتنازل في النزاعات على المراعي الحدودية. وفي إحدى الفترات، كان شيخ قبيلة (تشان دوي) يقدم هدايا قيمة لشيخ قبيلة (ده قه) كل عام، تعبيراً عن خضوعه. وتقول بعض المصادر إنه حتى (قونغ بو لانغ جيا) المتغطرس، عندما لم يكن قوياً، كان يظهر الاحترام لشيخ قبيلة (ده قه)، كأنه والده، تعبيراً عن إجلاله.

بالنسبة لشخص بمثل طبيعة (قونغ بو لانغ جيا)، فإن كل هذا التواضع الذي أُجبر عليه تحول إلى كراهية في قلبه، وكان ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام.

في أحد الأيام، قامت مجموعة من جنود (تشان دوي) الذين كانوا يقومون بدورية على الطريق الرئيسي بالقبض على ساعٍ من شيخ قبيلة (ده قه). كان هذا الساعي في طريقه من منطقة شيخ قبيلة (ده قه) في الشمال الغربي من (تشان دوي)، إلى منطقة شيخ قبيلة (ماويا) في (لي تانغ) جنوب (تشان دوي). تم تفتيش الساعي، وعُثر معه على رسالة من شيخ قبيلة (ده قه) إلى شيخ قبيلة (ماويا)، يطلب فيها منه أن يرسل قوات لمهاجمة (تشان دوي) من الشمال والجنوب معاً. وهناك وثيقة تحتوي على نص الرسالة الأصلي.

كانت الرسالة بأسلوب لغوي تبتي فصيح: «لقد ظهر في (تشان دوي) تجسيد للشيطان، والأعمى يهدد شيوخ القبائل المجاورة. نأمل أن نتحد، ونقضي عليه عندما يكون ضعيفاً. وإلا، فإن النار الصغيرة ستتحول إلى نار كبيرة، والمشكلة الصغيرة ستصبح كارثة، وسنندم في النهاية.»

بعد أن تم اعتراض هذه الرسالة، كتم (قونغ بو لانغ جيا) الأمر. وأخفى حقيقة القبض على الساعي ومحتوى الرسالة. علم شيخ قبيلة (ده قه) فقط باختفاء الساعي، ولم يعلم أن (قونغ بو لانغ جيا) قد حصل على محتوى الرسالة بالكامل. أما شيخ قبيلة (ماويا)، الذي كان من المفترض أن يستلم الرسالة، فلم يكن لديه أي علم بالأمر.

بعد هذا، لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) ليترك (ده قه). كان يعرف أن شيخ قبيلة (ده قه) هو الأقوى بين جميع شيوخ القبائل المحيطة بـ(تشان دوي)، ولا يمكن الاستهانة به. فبينما كان يحشد قواته ويستعد للحرب، كانت وجهته هي عدوه القوي في الشمال الغربي، (ده قه)، ولكنه سرب معلومات عمداً، وقال إنه سيتجه جنوباً لمهاجمة شيخ قبيلة (لي تانغ)، لكي يخدع خصومه.

في ذلك الوقت، كان الإمبراطور (داو قوانغ) قد توفي. وكان الإمبراطور (شيان فنغ) يجلس على عرش سلالة (تشينغ).

في عام 1852، أي السنة الثانية من حكم الإمبراطور (شيان فنغ)، قسم (قونغ بو لانغ جيا) قواته إلى ثلاث مجموعات من المشاة (عليا، ووسطى، وسفلى)، ومجموعتين من الفرسان (شمالية، وجنوبية)، وهاجم (ده قه). كانت جميع المجموعات الخمس تسير سراً، وتستخدم التضاريس للاختباء في الغابات الكثيفة أثناء النهار، وتتقدم بسرعة في الليل.

عندما وصلت القوات إلى (يو لونغ)، وهي بوابة شيخ قبيلة (ده قه)، استسلم شيخ قبيلة (يو لونغ) الذي كان يدافع عن الحدود الشرقية لشيخ قبيلة (ده قه)، دون أن يطلق رصاصة أو يلوح بسيف. لأن (قونغ بو لانغ جيا) وعده بأنه يمكنه الاحتفاظ بحقه في حكم (يو لونغ). وبعد استسلام شيخ قبيلة (يو لونغ)، قام بمكافأة قوات (تشان دوي) بكميات كبيرة من الأبقار، والأغنام، والذهب، والفضة.

في الوقت نفسه، اندفعت قوات (تشان دوي) الفرسان الجنوبية إلى قلب منطقة شيخ قبيلة (ده قه)، ووصلت إلى قرية (أوو بوو لونغ)، التي كانت قريبة جداً من مقر شيخ قبيلة (ده قه). أرسل (قونغ بو لانغ جيا) رسالة إلى شيخ قبيلة (ده قه)، يخبره فيها بأنه تم تطويقه من قبل جيش (تشان دوي)، وأرسل معه الرسالة التي كان قد استولى عليها، والتي كانت تدعو شيخ قبيلة (ماويا) لمهاجمة (تشان دوي)، ليُظهر أن هجومه مبرر.

في ذلك الوقت، كان عمر شيخ قبيلة (ده قه)، (تشي ماي دا بي دوو جي)، أحد عشر عاماً فقط، وكانت والدته ومدير أعماله يديران شؤون القبيلة. عندما رأوا أن قوات (تشان دوي) قد وصلت إلى قلب منطقتهم، وأن جيشاً كبيراً يحاصرهم، لم يتمكنوا من حشد قوات للمقاومة، ولم يكن لديهم أي خطة للتراجع، فهربت العائلة بأكملها. وكان هذا الأمر متوقعاً من قبل (قونغ بو لانغ جيا). وعندما عبروا نهر (جين شا)، وشعروا بالارتياح، ظنوا أنهم قد هربوا من الخطر، ولكن قوات (تشان دوي) لحقت بهم في مكان يسمى (وانغ بوو دوي)، وتم أسر شيخ القبيلة ووالدته.

قاد (قونغ بو لانغ جيا) قواته في هجوم سريع، وتمكن من أسر شيخ قبيلة (ده قه) ووالدته دون إراقة دماء، واحتل مركز حكمه. وعندما رأى شيوخ القبائل التابعون له وبعض اللاما من المعابد الرئيسية أن الأمر قد انتهى، هربوا وتفرقوا. أما الذين لم يتمكنوا من الهرب، فقد أصبحوا أسرى لدى (تشان دوي).

وهكذا، تمكنت قوات (تشان دوي) من هزيمة أقوى شيخ قبيلة في منطقة سيتشوان بسهولة، واحتلت معظم أراضيه. وبعد النصر، قام (قونغ بو لانغ جيا) بتعيين قائده القوي (ليه وو ما) كزعيم كبير في (ده قه)، وعين (جيا ري لاما تسه رن) و(جيه وو دا جي) كزعماء تابعين له، وبنى قلاعاً قوية، ليعبر عن نيته في الاحتفاظ بالمنطقة لفترة طويلة.

.indd 172-173 2025-11-27 10:56:00

تذكر المصادر التاريخية المحلية: «بعد احتلال (ده قه)، ازدادت هيبة (قونغ بو لانغ جيا) بشكل كبير. حتى شيوخ القبائل الكبار والصغار خارج (ده قه)، وزعماء (تشانغ دوو لاما)، قدموا له (خا دا) ودفعوا له الضرائب. وحتى شيوخ القبائل في (تشينغهاي) أظهروا ولائهم لـ(قونغ بو لانغ جيا). وكان الطريق الرئيسي المؤدي إلى (تشان دوي) مليئاً بالناس الذين يأتون لتقديم الولاء ودفع الضرائب لـ(قونغ بو لانغ جيا).»

وبعد ذلك، كرر (قونغ بو لانغ جيا) نفس التكتيك. فقام باحتجاز جميع رجال الدين والعلمانيين من الطبقة العليا الذين أسرهم، وأرسلهم إلى (تشان دوي). وتذكر المصادر الشعبية: «جمع (قونغ بو لانغ جيا) العديد من الأسر من شيوخ القبائل في (تشا شي كا)، والعديد من الأسر من (تشانغ تاي)، والعديد من الأسر من (وا شيويه)، والعديد من الأسر من (يو كه) في (ماي كه) في (تشان دوي). كما قام بتوزيع بعض اللاما واللاما المؤثرين من المعابد في (ده قه) في ثلاثة معابد: معبد (جيو جيو)، ومعبد (ني غو)، ومعبد (وو وا). استخدم (قونغ بو لانغ جيا) هؤلاء الأشخاص كرهائن.»

كان (قونغ بو لانغ جيا) قد قال في السابق: «من لا يطيعني، ومن قد يتمرد، لا يمكن أن أتركه حياً. ولكنني فكرت في طريقة أخرى غير القتل لأتحكم بهم، وقد وجدت هذه الطريقة الآن.»

يحتوي المجلد الثالث من «مجموعة المصادر الأدبية والتاريخية لولاية (قان تسي)»، الذي نشرته جمعية مستشاري (قان تسي) السياسية، على مقال بعنوان «تاريخ نهوض وسقوط (قونغ بو لانغ جيا) في (شين لونغ)»، بقلم (شي راو إه ري)، والذي يوضح تفاصيل أحداث (قونغ بو لانغ جيا). ويصف المقال بالتفصيل كيفية تعامل (قونغ بو لانغ جيا) مع أراضي شيخ قبيلة (ده قه) بعد احتلالها:

«بعد احتلال (ده قه)، قام (قونغ بو لانغ جيا) بتوزيع شيخ قبيلة (ده قه) وتابعيه الذين أسرهم كما يلي:

«قام (قونغ بو لانغ جيا) بحبس شيخ قبيلة (ده قه) في قرية (جيا ري) في (تشان دوي)، وحبس والدته في مقر (بانغ ره). وأرسل اللاما (ون يون) من معبد (با بانغ) واللاما (غو ما) من مدرسة (ساجيا) القادم من (هوتسانغ) إلى معبد (شي وا)، وأرسل اللاما (تشي ماي جي كونغ) من معبد (جيا توو) إلى معبد (تشو ده)، واللاما (قه تسه) إلى معبد (ليو كونغ)، واللاما (بن لوو) من معبد (تشو تشينغ) إلى معبد (آي وانغ). وبسبب هروب مدير أعمال شيخ قبيلة (ده قه)، (غنغ جيا يو ليه)، وبعض شيوخ القبائل إلى التبت، لم يثق (قونغ بو لانغ جيا) بشيوخ القبائل التابعين لشيخ قبيلة (ده قه) الذين استسلموا له، لذلك قام بحبس (جيا كاو سي لانغ)، و(سو موو ني با)، و(بوو ما بوو جيه)، و(دا بن تشا شي قه ليه)، و(وانغ دوي تسه رن دوو جي) في (رونغ لوو)، و(دا قاي)، و(قه تشا)، و(تشي يي)، و(بانغ ره) في (تشان دوي).

«كان شيخ القبيلة (تشو دنغ تسه با) واللاما (تسه رن) قد استسلما لـ(قونغ بو لانغ جيا) عندما وصل إلى (ده قه)، وسبا (شيخ قبيلة شيوخ القبائل) أمام (قونغ بو لانغ جيا)، وقالا إنه حاكم غير عادل. ولكن بعد أن تم أسر شيخ قبيلة (ده قه) في (وانغ بوو دوي)، وأُرسل إلى (تشان دوي)، قام الاثنان سراً بلعن (قونغ بو لانغ جيا) أمام شيخ القبيلة الشاب، وادعيا أنه شيطان. اعتقد (قونغ بو لانغ جيا) أنه لا يمكن استخدام هؤلاء الأشخاص المزدوجي الوجه، لذلك قام بإلقائهما في نهر (يالونغ)، وأعدمهما.

«من بين شيوخ القبائل التابعين لشيخ قبيلة (ده قه)، لم يتم حبس سوى شيخ قبيلة (يو لونغ) الذي استسلم في البداية، لأنه كان يتقرب إلى (ليه وو ما) وصهر (قونغ بو لانغ جيا)، شيخ قبيلة (لينغ تشونغ).»

تذكر مذكرات تركها راهب: «لم تكن هذه السنة هادئة في (ده قه) على الإطلاق، بل كانت مليئة بالأحداث.»

لأكثر من ألف عام، كان أهم الشخصيات في المجتمع التبتي هما: اللاما من المعابد، وشيوخ القبائل العلمانية. وهذا يعني أن هذا المجتمع كان بسيطاً وبدائياً للغاية. وبالسيطرة على هذين النوعين من الأشخاص، يمكن السيطرة على المجتمع. كان (قونغ بو لانغ جيا) يعرف هذا جيداً، لذلك قام باحتجاز هذين النوعين من الشخصيات من المناطق التي احتلها حديثاً، وأرسلهم إلى (تشان دوي) للسيطرة عليهم.

[redacted].indd 174-175 2025-11-27 10:56:00

الأوجه المتعددة لـ(بولو مان) في الأساطير الشعبية

في (تشان دوي) السابقة، والتي تعرف اليوم بمحافظة (شين لونغ)، نادراً ما يذكر الناس اسم (قونغ بولانغ جيا) في الأساطير الشعبية، بل يستخدمون لقبه (بولو مان).

يُعد (بولو مان) بطلاً لسكان (تشان دوي).

أثارت أعماله اهتمام المثقفين التبتيين و(الهان) المحليين، وتمت كتابتها باستمرار. ولم تقتصر على الأساطير الشعبية، بل قدمت لي هذه الكتابات العديد من الأدلة. وخاصة الأفكار التي كانت مخفية بشكل واضح أو ضمني في هذه الكتابات، والتي أعطتني الكثير من الإلهام. كما أن تفسيراتهم الحديثة لهذا الشخصية التاريخية، جعلتني أرى هذا الشخص من زوايا مختلفة.

كان لدي أمل كبير في اكتشاف معانٍ جديدة من هذه القصة الكبيرة.

كنت آمل أن أجد في هذا الحدث، أو في هذا البطل الذي تم الحديث عنه لما يقرب من مائتي عام، شيئاً يمكن أن يكسر الحلقة التاريخية المظلمة التي عاشها الشعب التبتي لآلاف السنين. ولكن، يجب أن أعترف أن النتيجة خيبت أملي في النهاية.

حتى بطل مثل (بولو مان)، لم يتمكن من تجاوز عصره وثقافته. وفي النهاية، لم يكن سوى قائد من القادة الذين يمكن أن ينتجهم هذا المجتمع، ولكنه، بالطبع، كان الأبرز بينهم. ففي هذه الأرض، كان أكثر عناداً، وأكثر شجاعة، وأكثر قسوة، وأكثر مكراً من جميع القادة السابقين. ولكنه أيضاً، لم يكن يعرف شيئاً عن الأوضاع العالمية، ولم يكن لديه أي رغبة في تغيير وجه المجتمع. وفي النهاية، كان مصيره أن يكرر نفس الأخطاء في نفس الحلقة التاريخية.

عندما تسير في منطقة (شين لونغ) اليوم، يمكنك أن تسمع العديد من القصص الغريبة عنه.

هناك قصة تتحدث عن قسوته:

عندما كان (قونغ بولانغ جيا) جالساً في مقره لا يفعل شيئاً، كان لديه هواية خاصة، وهي أن يأمر رجاله بإحضار طفل من إحدى القرى المجاورة، ويملأ بطنه بالحليب، ثم يلقي بالطفل من الطابق العلوي من المقر، ويشاهده وهو يسقط على الحجارة في الأسفل، وتنفجر معدته المنتفخة، ويتناثر الحليب. يضحك (قونغ بولانغ جيا) ويصفق، ويقول إن الإنسان يمكن أن يموت دون أن يسيل دمه، بل يتدفق منه حليب أبيض كالثلج.

وهناك قصة أخرى تتحدث عن جبروته:

لم يكن (قونغ بولانغ جيا) يحب الغربان، وخاصة أصواتها المزعجة.

في ذلك الوقت، كان يشعر أن المقر الجديد في (بانغ ره)، الذي تم بناؤه قبل بضع سنوات، ليس مهيباً بما فيه الكفاية، فقام بحشد السكان لإعادة بنائه. أصبح المقر الجديد مكوناً من سبعة طوابق، وبجدران سميكة تقارب ثلاثة أمتار. وكان السكان يعملون بالإكراه وبلا أجر في قطع الأشجار، وجمع الحجارة، وبناء الجدران. وبعد أن تم بناء المقر الجديد، قرر (قونغ بولانغ جيا) أنه لا يجب أن يظهر أي غراب في السماء فوق المقر.

في شهر أكتوبر، وهو بداية الشتاء في (شين لونغ)، في صباح يوم مثلج، على الهضبة غير الواسعة على ضفاف نهر (يالونغ)، وعلى أنقاض مقر (بانغ ره) القديم، كانت هناك طبقة رقيقة من الصقيع على حقول القمح التي تم حصادها. أشار لي الناس إلى برج على التل على الجانب الآخر من النهر، وقالوا إنه تم بناؤه في نفس الوقت مع مقر (قونغ بولانغ جيا) الجديد، ووضع فيه (قونغ بولانغ جيا) عائلة. وكانت مهمة هذه العائلة الوحيدة هي توجيه بنادقها نحو السماء طوال اليوم، وإطلاق النار على أي غراب يجرؤ على الطيران فوق المكان. ثم استدرنا، ورأينا على التل على هذا الجانب من النهر، وراء بعض الأشجار، أنقاض برج مماثل. وضع (قونغ بولانغ جيا) عائلة أخرى هناك، وكانت مهمتها أيضاً منع الغربان من الطيران فوق المقر. كان هذان البرجان، اللذان يواجهان بعضهما البعض عبر النهر، يبعدان عن بعضهما البعض أقل من كيلومتر، وكانت نيرانهما المتقاطعة كافية للسيطرة على هذه المنطقة من السماء. قال لي المسؤول الحكومي الذي كان يرافقني، إنه حتى الآن، لم تظهر أي غربان في هذا المكان. وقد زرت هذا المكان عدة مرات، وفي إحدى المرات، بقيت هناك لنصف يوم، ولم أرَ أي غراب.

[redacted].indd 176-177 2025-11-27 10:56:00

لكن مقر (قونغ بو لانغ جيا) لم يعد موجوداً. وبجانب الأساسات الواسعة التي أصبحت الآن أراضي زراعية، لا تزال هناك بقايا جدار أو جدارين منخفضين. وبجانب هذه الحقول، توجد مدرسة ابتدائية، ومبنى حكومة البلدة الذي تم بناؤه حديثاً.

مبنى حكومة البلدة بسيط للغاية، ويتقاسم سكرتير الحزب وقائد البلدة مكتباً واحداً تبلغ مساحته سبعة أو ثمانية أمتار مربعة. كنا نجلس في هذا المكتب، نستمع إلى راهب يروي قصة (قونغ بو لانغ جيا).

كان يتحدث عن عدم احترامه للرهبان، أي للشريعة البوذية، كما تحدث عن غروره.

هذه القصة وقعت أيضاً في هذا المكان:

تقول القصة إنه في ذلك الوقت، كان نهر (يالونغ) الذي يمر عبر هذه المنطقة يصدر صوتاً عالياً، وهذا أغضب (قونغ بو لانغ جيا). في الأساطير، كان (قونغ بو لانغ جيا) شخصاً لا يحترم الرهبان. كان يطلب من الرهبان الذين يدعون أن لديهم قوى خارقة أن يظهروا هذه القوى أمامه. وبالطبع، كان الكثير من الرهبان الذين يدعون أن لديهم قوى خارقة مزيفين، وكان (قونغ بو لانغ جيا) يسخر منهم بلا رحمة. وكانت إحدى الطرق التي يستخدمها لاختبار ما إذا كان الراهب يمتلك قوى خارقة هي أن يطلب منه أن يوقف الضوضاء التي يصدرها نهر (يالونغ). لم يتمكن أي راهب من فعل ذلك، ولكن في النهاية، فعلها راهب واحد. كان هذا الراهب، واسمه (باي ما دنغ دنغ)، من مدرسة (نينغ ما)، وكان الشخص الوحيد في (تشان دوي) الذي كان يتمتع بشهرة تعادل شهرة (قونغ بو لانغ جيا). كان هو من أظهر قوته، وجعل نهر (يالونغ) الذي يمر بجانب مقر (قونغ بو لانغ جيا) هادئاً. ولم يقتصر الأمر على الراهب الذي كان يروي لي القصة، بل قال معظم سكان (شين لونغ)، إنه منذ ذلك الحين، أصبح (قونغ بو لانغ جيا)، الذي كان معتاداً على إهانة الرهبان، يكن احتراماً صادقاً لهذا الراهب الوحيد في (تشان دوي). وعندما تحدث عن كيف جعل هذا الراهب المقدس (باي ما دنغ دنغ) مياه النهر الصاخبة هادئة، مد الراهب الذي كان يروي لي القصة يديه، وأصدر صوتاً يعبر عن إعجابه الصادق.

ثم مال بأذنه وقال: اسمع، إن النهر هادئ حقاً!

في الواقع، يتدفق نهر (يالونغ) هنا إلى مجرى أوسع وأكثر هدوءاً. وعلى الرغم من أن أمواجه أصبحت أهدأ وأقل صوتاً مقارنة بالمجرى الضيق في المنبع، إلا أنه لا يزال يصدر بعض الأصوات.

أنا هنا لأستمع إلى القصص الغريبة، لذلك لم أكن أرغب في الإشارة إلى هذه النقطة بموضوعية.

لم أكن أرغب في أن أقع في فخ هذه القصص الخيالية. والسبب هو أن الكثير من الأشخاص الذين يأتون للاستماع إلى القصص وجمعها يكونون في البداية واعين، ولكن بعد الاستماع إلى هذه الأساطير لفترة طويلة، يمكن أن يقعوا في نفس الجنون الخيالي.

غادر الراهب. نظرت إليه وهو يسير في الممر الجبلي الضيق، ويمر عبر الأعشاب الخريفية الصفراء، والشجيرات التي تتساقط أوراقها، ويعود إلى معبده على الجبل. كان هو رئيس ذلك المعبد.

غادرنا بالسيارة أيضاً. وفي السيارة، روى لي الشخص الذي كان يرافقني قصة أخرى.

كانت عن الراهب المقدس (باي ما دنغ دنغ) أيضاً. قال إنه عندما تم الانتهاء من بناء مقر (قونغ بو لانغ جيا) المهيب، ظهر هذا الراهب المقدس فجأة على ظهر حصان هزيل. أنزل حجراً من على ظهر الحصان، وكان هذا الحجر من قمة الجبل المقدس الذي كان يتعبد فيه. وطلب من (قونغ بو لانغ جيا) أن يضع هذا الحجر في مكان معين على قمة المقر. نظر (قونغ بو لانغ جيا) إلى مقره الجديد والمهيب والقوي، ورفض بفخر. وفي تلك اللحظة، طار الحجر من تلقاء نفسه، وعاد إلى الجبل المقدس الذي جاء منه. قال راوي القصة إنه لو كان (قونغ بو لانغ جيا) قد قبل الحجر، لما فشلت مساعيه. لكنه لم يقبله، والآن يتحسر الناس على مصيره.

في الظهيرة، عدنا إلى فندق (بو لو مان) في مدينة (شين لونغ) لتناول الغداء.

أراد شخص آخر أن يروي قصة عن (قونغ بو لانغ جيا). وطلب الرجل من النساء الابتعاد، وقال إن القصة ليست مناسبة، فابتعدت المرأة الوحيدة التي كانت معنا.

تقول القصة إن (قونغ بو لانغ جيا) كان أحياناً يشاهد الناس وهم يمارسون الجنس.

ضحك الجميع. يشاهد الناس وهم يمارسون الجنس!

كان راوي القصة جاداً، وقال إنه كان يشاهدهم يمارسون الجنس. كان يأمر شاباً وفتاة بممارسة الجنس أمامه. وبعد أن ينظر إليهم بعناية من جميع الجوانب، كان (قونغ بو لانغ جيا) يصفق ويضحك، ويقول إن الرجل يدخل ويخرج من جسد المرأة، مثل خروف يأكل جزرة! فم أحمر يأكل جزرة حمراء!

حسب علمي، لم يكن الجزر يزرع في هذه المنطقة في ذلك الوقت. ولكنني هنا فقط للاستماع إلى القصص. وعندما تنتشر شهرة شخص ما في القصص، فمن الطبيعي أن تُضاف إليها أشياء جديدة، ومن المنطقي أن يُضاف إليها تشبيه الخروف الذي يأكل الجزرة.

وفي يوم آخر، في نفس غرفة الطعام في فندق (بولومان)، روى لي راهب مقدس أعرفه منذ سنوات قصة أخرى. تقول هذه القصة أيضاً إن (قونغ بو لانغ جيا)، هذا الرجل المتغطرس، كان يكن الاحترام في حياته لراهب مقدس واحد فقط. ولكن هذا الراهب المقدس لم يكن من (تشان دوي)، بل كان اللاما (توو دنغ) من معبد (تشو تشينغ) في منطقة (ده قه).

تقول القصة إنه بعد أن احتل (ده قه)، مكث (قونغ بو لانغ جيا) هناك لفترة طويلة.

قام بزيارة معظم أنحاء منطقة شيخ قبيلة (ده قه). وفي كل مكان يذهب إليه، لم يقم فقط بإعادة تعيين شيوخ القبائل، بل زار أيضاً العديد من المعابد. وعندما كان يقابل اللاما، أو رئيس المعبد، كان سؤاله الأول دائماً: «هل سأذهب إلى أرض (بوذا) النقية عندما أموت، أم إلى الجحيم؟»

في نظر هؤلاء الرهبان، هذا الرجل الذي تجسد فيه الشيطان يجب أن يذهب إلى الجحيم. ولكنه كان قوياً ومتغطرس، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد سمعوا عن سوء سمعته في عدم احترامه لـ(بوذا)، والشرائع، والرهبان، لذلك لم يجرؤوا على قول الحقيقة. وفي النهاية، كانوا يجيبون بما يخالف ضمائرهم: «شيخ القبيلة (قونغ بو لانغ جيا) سيذهب بالتأكيد إلى أرض (بوذا) النقية.» وبذلك، كانوا ينتهكون قاعدة «عدم الكذب» الأساسية.

ولكن المشكلة هي أن (قونغ بو لانغ جيا)، عندما كان يسمع كلامهم، لم يكن يتقبله: «أنتم مجرد محتالين، تعرفون فقط كيف تخدعون الناس من أجل أموالهم. لا تستحقون البتال في المعابد!» كان يقول لهؤلاء الرهبان إن أمامهم خيارين، وعليهم أن يختاروا أحدهما. الخيار الأول هو مغادرة المعبد والذهاب إلى (تشان دوي). وهناك سيكون لديهم مسكن وطعام، ولكن لا يمكنهم التحرك بحرية. والخيار الثاني هو خلع ملابسهم الرهبانية والعودة إلى منازلهم. فمن كان راعياً يعود لرعي الأبقار، ومن كان مزارعاً يعود لزراعة المحاصيل. أما المعبد، فلا يجب أن يكونوا فيه. بعد أن طرد الرهبان، أمر (قونغ بو لانغ جيا) رجاله بتدمير تماثيل (بوذا)، وإحراق المعابد.

في أحد الأيام، وصل (قونغ بو لانغ جيا) إلى معبد (تشو تشينغ) الشهير. يقع هذا المعبد في حوض صغير على منحنى جبلي، تحيط به الجبال العالية من الخلف، والتلال المنخفضة من الجانبين. يتكئ المعبد على جبل ثلجي عظيم، وتتألق الأنهار الجليدية تحت أشعة الشمس، وتحت الأنهار الجليدية، توجد غابة هادئة وعميقة. من بعيد، سمع (قونغ بو لانغ جيا) صوت الأجراس والطبول، وأصوات الأبواق. كانت أصوات ترانيم الرهبان مثل الغناء، على عكس المعابد التي زارها سابقاً، حيث كان رؤساء المعابد يخرجون على عجل لاستقباله. تفاجأ (قونغ بو لانغ جيا)، وفكر في نفسه، «يعرفون أنني الشيطان الذي يدمر التماثيل ويحرق المعابد، ولكنهم يواصلون طقوسهم الدينية بهدوء.» فأمر بحصار المعبد، ثم دخل المعبد على صهوة جواده بغطرسة.

خرج اللاما (توو دنغ) من معبد (تشو تشينغ) لاستقباله، ولكنه وقف أمام حصانه دون أن يتكلم.

سأل (قونغ بو لانغ جيا) بصوت عالٍ من على ظهر حصانه: «هل أنت هو اللاما (توو دنغ) الذي يتحدث عنه الناس؟»

ابتسم اللاما بهدوء، وهو يحمل مسبحته، ولم يتكلم.

كرر (قونغ بو لانغ جيا) سؤاله: «هل سأذهب إلى أرض (بوذا) النقية عندما أموت، أم إلى الجحيم؟»

لم يجب اللاما (توو دنغ).

فقال (قونغ بو لانغ جيا): «الرهبان الكبار الذين قابلتهم سابقاً، عندما كانوا يسألون هذا السؤال، كانوا يقولون إنهم بحاجة إلى قراءة بعض الترانيم، وقراءة بعض الطلاسم للإجابة. هل أنت مثلهم؟»

أجاب اللاما (توو دنغ): «لا أعرف ما إذا كنت تريد أن تسمع الحقيقة أم الكذب؟»

□□□□ □□□.indd 180-181 2025-11-27 10:56:00

قال (قونغ بو لانغ جيا): «الحقيقة!»

أومأ اللاما (توو دنغ) برأسه، وقال بصوت عالٍ: «أنت شرير، لا تحترم الآلهة، ولا تعبد (بوذا)، ولقد أخذت أرواحاً لا تعد ولا تحصى. كيف يمكن لشخص مثلك أن يذهب إلى أرض (بوذا) النقية؟ من الأفضل ألا تفكر في ذلك. لقد حُكم عليك منذ أن ولدت بالذهاب إلى الجحيم عندما تموت! والذنوب التي ارتكبتها في هذه الحياة ستمنعك من أن تولد من جديد كإنسان!»

اعتقد الناس من حوله أن (قونغ بو لانغ جيا) سيخرج سيفه ويقتل اللاما. ولكن على عكس ما توقعوا، نزل من على حصانه، وخلع قبعته، وقال: «اليوم، قابلت (لاما) حقيقياً. أيها اللاما (توو دنغ)، أنت الوحيد الذي رأى بعين ثاقبة ماضي ومستقبلي. لقد أخبرني حلمي ذات مرة أنني سأذهب إلى الجحيم، وكنت أعرف ذلك منذ فترة طويلة!»

وبعد أن قال ذلك، تراجع (قونغ بو لانغ جيا) إلى الخلف باتجاه خارج المعبد. وعندما خرج من باب المعبد، ركب حصانه وأعطى أمر الانسحاب. في الوقت نفسه، أصدر أمراً بمنع أي شخص من إزعاج المعبد، أو اللاما (توو دنغ).

زرت هذا المعبد مرتين في السنوات الثلاث الماضية.

في المرة الأولى التي ذهبت فيها، كان المعبد يقيم احتفالاً دينياً، وكان مشهداً لا يصدق. لم يكن المشاركون من السكان المحليين فقط، بل جاء الكثيرون من داخل الصين، ومن المناطق الساحلية، وحتى من (هونغ كونغ) وماكاو. أكثر شيئين لفتوا انتباهي كانا: المطبخ المؤقت الذي يمكنه تحضير الآلاف من الوجبات السريعة في وقت واحد، واللوتس التي كانت تملأ فناء المعبد. عندما رأيت اللوتس تطفو في أحواض المياه في الفناء، تفاجأت، لأن هذه الزهرة لا يمكن أن تنمو في هذا الارتفاع الذي يزيد عن ثلاثة آلاف متر. هل كانت معجزة حقيقية؟ ولكنني شعرت بالارتياح عندما نظرت عن كثب، لأن اللوتس الأحمر والأبيض كانت كلها مصنوعة من البلاستيك، وبشكل متقن. في المرة الثانية التي ذهبت فيها، نزلت من السيارة قبل الوصول إلى المعبد، وبقيت على التل الصغير أمامه، وشاهدته من بعيد. في هذه المرة، كان المعبد هادئاً جداً، وخلفه كانت هناك غابة من أشجار الصنوبر ذات اللون الأخضر الداكن، وخلفها، تحت قمة الجبل الثلجي، كان هناك نهر جليدي يلمع تحت أشعة الشمس.

القصص القديمة مستمرة

أجد أن سرد هذه القصص المتفرقة أكثر إثارة للاهتمام من سرد حملة إخضاع (قونغ بو لانغ جيا) لشيوخ القبائل، بالاعتماد على السجلات التاريخية.

لقد تكررت هذه القصص عن الفتوحات مرات لا تحصى في التاريخ. فالمؤامرات، والهجمات، والعهود مع الآلهة ثم نكثها، والمذابح... كل هذه الأساليب هي حبكات قديمة جداً، وتعمل بشكل اعتيادي في إطار قديم. لا يجب أن تكون هذه القصص مثيرة للاهتمام، على الأقل بالنسبة لي. فلماذا أسجلها إذاً؟ لقد رأيت في التلفزيون أن القائد الجديد للحزب الشيوعي الصيني يوصي بقراءة كتاب لفرنسي. هذا الشخص يُدعى توكفيل، وأنا أحب كتبه، وقرأت أكثر من كتاب له. لأنه يناقش كيف يتقدم التاريخ، ويدعو إلى تطور المجتمع، ويهتم بعمق بكيفية تطور المجتمع نحو الأفضل. اسم الكتاب الذي أوصى به شيخ القبيلة هو «النظام القديم والثورة»، وهو يناقش الثورة الفرنسية التي حدثت في الماضي، وتم نشره عام 1856. في الصين، كان ذلك في عهد الإمبراطور (شيان فنغ). وفي (تشان دوي)، كانت قوة (قونغ بو لانغ جيا) في أوجها. في ذلك الوقت، عرف الفرنسيون الصين، ووصلوا إلى أبوابها. وعرف الصينيون تدريجياً فرنسا، ولكن سكان (تشان دوي) لم يعرفوا. ليس فقط سكان (تشان دوي)، بل لم يعرف أسلافنا في هضبة (تشينغهاي) والتبت أي شيء عن ذلك. لا يمكننا أن نقول إن أسلافنا من الطبقة العادية لم يعرفوا، ولكن حتى النبلاء الأقوياء الذين ولدوا في هذا العصر، والقادة الدينيين الذين كانوا يدّعون أنهم أنبياء، لم يعرفوا شيئاً. لقد قام الأجانب بثورة، ثم عادوا لمناقشة كيفية جعل الثورة أفضل للشعب والمجتمع. ولكن في هضبة (تشينغهاي) والتبت، حيث عاش الشعب التبتي لأجيال، فإن رؤيتهم للعالم لم تتوسع، بل تقلصت. فبكونهم في الصين، لم يعرفوا حتى مدى اتساعها. وعلى الرغم من أن الأجيال العديدة قد توالت من الناحية البيولوجية، إلا أن عقولهم لا تزال عالقة في الماضي، قبل ألف عام.

[redacted].indd 182-183 2025-11-27 10:56:01

إن صعود (قونغ بو لانغ جيا) لم يكن سوى تكرار للقصص القديمة.

ولكن، دعونا نستمر في سرد قصته البطولية المأساوية.

في غضون بضع سنوات، هزم شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية في شمال (تشان دوي)، بالإضافة إلى شيخ قبيلة (ده قه) الذي كانت منطقته أكبر. وأصبحت الأراضي والسكان الذين كانوا أكبر بعدة مرات من (تشان دوي)، تحت سيطرة (قونغ بو لانغ جيا).

حان الوقت الآن لكي يوجه نظره جنوباً.

أول الأهداف كانت بالطبع منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ). كانت تلك المنطقة نقطة مهمة على طريق سيتشوان والتبت الذي تم افتتاحه في بداية عهد سلالة (تشينغ). كانت تحتوي على مخازن لتخزين المؤن العسكرية، ومخافر ومحطات البريد العسكرية لتمركز قوات الكتائب الخضراء، للحفاظ على حركة المرور. عندما كانت سلالة (تشينغ) قوية، كانت تتجاهل المناوشات الصغيرة بين شيوخ القبائل. ولكن أن يسيطر شيخ قبيلة على مناطق عدة شيوخ قبائل متتالية، فهذا لم يكن مسموحاً به على الإطلاق. قبل بضع سنوات، عندما بدأ في التحرك، قاد الحاكم العام لسيتشوان، (تشي شان)، قواته للقضاء عليه شخصياً. ولكن بمجرد انسحاب الجيش، قام (قونغ بو لانغ جيا) على الفور بجمع قواته مرة أخرى، وسيطر على مناطق عدة شيوخ قبائل.

وخلال هذه الفترة، حدث شيء آخر، لقد بحثت عنه كثيراً عندما كنت أجمع القصص عن (تشان دوي)، ولكني لم أجد أي دليل. وهو أن (تشي شان)، الذي قاد الحملة ضد (قونغ بو لانغ جيا)، وقع في مشكلة أخرى لاحقاً، ولا أعرف ما إذا كان (قونغ بو لانغ جيا) يعرف ذلك في ذلك الوقت. بعد أن سحب (تشي شان) قواته من (تشان دوي)، تم نقله من منصب حاكم سيتشوان إلى منصب حاكم (شانشي) و(قانسو). وفي منصبه الجديد، واجه مشاكل مع الأقليات العرقية. فتمرد شعب (سالا) في وادي النهر العلوي من النهر الأصفر، وتمرد المسلمون، وتمردت مجموعة أخرى من التبتيين في (تشينغهاي)، والتي أطلقت عليها سجلات سلالة (تشينغ) اسم «برابرة (يونغ شا)». كانت هذه قصة قديمة أيضاً، وفي مثل هذه الأمور، كانت الحكومة المركزية والمسؤولون المحليون يستخدمون دائماً نفس الأسلوب: القمع والتفاوض. إذا كان بإمكانهم القضاء عليهم، فإنهم يقمعونهم بقسوة، وإذا لم يتمكنوا من ذلك، فإنهم يتفاوضون معهم. على المدى الطويل، أصبح شعار «استخدام الفضيلة لإخضاع الشعوب البعيدة» مجرد كلام فارغ للطرفين.

في نفس السنة التي توفي فيها الإمبراطور (داوقوانغ)، وتولى فيها الإمبراطور (شيان فنغ) العرش، وهي نفس السنة التي غزا فيها (قونغ بو لانغ جيا) (ده قه)، قمع الحاكم العام لـ(شانشي) و(قانسو) ثورة (يونغ شا). قتل بعض الناس، وأسر آخرين، وحبسهم في السجن. وبمجرد توليه العرش، تلقى الإمبراطور الجديد مذكرة تتهم (تشي شان) بأنه «قتل العديد من برابرة (يونغ شا)، وهذا قتل لا مبرر له». أمر الإمبراطور الجديد على الفور بالتحقيق. وبعد عام واحد، توصل التحقيق إلى نتيجة: «تصرفات الحاكم العام لـ(شانشي) و(قانسو)، (تشي شان)، في التعامل مع برابرة (يونغ شا)، كانت خاطئة، حيث قام بحشد القوات وشن هجوماً عليهم دون وجود دليل على السرقة، وبالإضافة إلى ذلك، لم يقم بإبلاغ الإمبراطور مسبقاً، وهذا يعد تصرفاً استبدادياً. فليُرسل إلى (جيلين) ليعوض عن ذنبه».

لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) يعرف هذا الأمر، ولكنهم جميعاً سمعوا أن «الكبار من سلالة (تشينغ)» يواجهون مشكلة كبيرة، وأن حرباً ضخمة قد اندلعت، وهي ثورة مملكة (تايبينغ) السماوية. كانت تلك حرباً ضخمة حقاً. بعد دخول سلالة (تشينغ) إلى الصين، خاضت حرباً كبيرة في عهد الإمبراطور (كانغ شي)، وهي ثورة (وو سان غوي) التي حدثت بسبب قمع الأمراء. أما هذه الحرب، فهي الأكبر من حيث نطاقها ودمارها، حتى أنها تفوق حرب (وو سان غوي). قد يفوق عدد القتلى في معركة واحدة في تلك الحرب عدد سكان (تشان دوي) بأكمله. وعندما تورط «الكبار من سلالة (تشينغ)» في هذه الحرب الضارية، أدرك (قونغ بو لانغ جيا) أنه يمكنه أن يفعل ما يريد.

□□□□ □□□.indd 184-185 2025-11-27 10:56:01

"الحرب الجرثومية" في (لي تانغ)

حشد (قونغ بو لانغ جيا) جيشاً كبيراً، واتجه جنوباً مباشرة نحو منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ)، أي إلى النقطة الاستراتيجية على طريق سيتشوان والتبت، الذي كان يربط بين المناطق الداخلية والتبت.

وقاد الهجوم ابناه الشجاعان، وأخذ معه حفيده البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ليشرف على المعركة.

في هذه المرة، ازداد (قونغ بو لانغ جيا) غطرسة، وأطلق على نفسه لقب «(تشان دوي) ذو الثمانين ألفاً». قيل إن هذا يعني أن لديه ثمانين ألف أسرة تابعة له؛ وقيل إنه يعني أن لديه ثمانين ألف جندي شجاع من المدنيين والعسكريين. وهكذا، قاد جيشه باتجاه منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ). وعلى طول الطريق، كان لا يُقهر، وفي وقت قصير، حاصر مقر شيخ قبيلة (لي تانغ) بشدة. هناك وثيقة تاريخية محلية تحتوي على جملتين تصفان جشع (قونغ بو لانغ جيا): «شرب مياه البحر كلها ولم يرتو، وأكل الجبال كلها ولم يشبع». فهم شيخ قبيلة (لي تانغ) هذا الأمر جيداً. فعندما سمع أن (قونغ بو لانغ جيا) قد احتل (ده قه)، عرف أن هذا الرجل من (تشان دوي) لم يعد لديه أي منافس في الشمال، وأن دوره قد حان. لذلك، استعد للحرب بنشاط، فحفر خنادق عميقة، وبنى حصوناً عالية، وجمع كميات كبيرة من البارود والمؤن، وحفر آباراً داخل المقر، ليمنع قطع المياه عنه في حالة الحصار.

لم يتوقع (قونغ بو لانغ جيا) أنه بعد هزيمة شيخ قبيلة (ده قه) القوي، سيجد خصماً قوياً كهذا في منطقة (كانغ). ففي كل هجوم على مقر شيخ قبيلة (لي تانغ)، كانت قواته تُقتل باستمرار في المناطق المفتوحة، وأمام الخنادق العميقة التي تحمي المقر، بينما لم يتعرض العدو داخل الحصن لأي أذى. ولكن لحسن الحظ، كان لدى (قونغ بو لانغ جيا) الكثير من الجنود في ذلك الوقت، وبعد أن تتكبد مجموعة خسائر، تأتي مجموعة أخرى لتحل محلها. ولكن بعد ثلاث جولات من التغيير، ظل مقر شيخ قبيلة (لي تانغ) قوياً. ومن حين لآخر، كان بعض شيوخ القبائل الخارجيين يقتحمون المقر، ويقدمون الإمدادات، مستغلين عدم استعداد قوات (تشان دوي).

عندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) هذا الموقف، اضطر لتغيير تكتيكاته. فأرسل جزءاً من قواته لمواصلة الحصار المحكم للمقر، بينما أرسل الباقي لتطهير المناطق المحيطة، بهدف إضعاف المقر من الخارج حتى يسقط من الداخل. ولكن منطقة (لي تانغ) كانت عبارة عن سهول باردة ومرتفعات، على عكس (تشان دوي) التي كانت تعتمد على الزراعة. لم يكن لدى سكان القرى في (لي تانغ) أي قرى ثابتة. كان الرعاة يعيشون في خيام، مع قطعانهم من الماشية، ويتنقلون بحثاً عن الماء والعشب. عندما كانت قوات (تشان دوي) تهاجم، كان الرعاة يقاومون، ويضعون خيامهم المطوية على ظهور قطعانهم، ويقودون ماشيتهم بسرعة إلى مكان آخر. وبعد أن يتخلصوا من القوات المهاجمة، كانوا يعودون إلى نصب خيامهم، ويستمرون في حياتهم الرعوية اليومية. لم يكن لدى المزارعين المستقرين أي طريقة للتعامل مع الرعاة المتنقلين.

وهكذا، استمرت الحرب سبعة أشهر. عندما وصل أهل (تشان دوي) إلى (لي تانغ)، كانت الأعشاب قد بدأت في النمو، ولكن بعد سبعة أشهر، كانت الرياح الباردة تهب، والثلوج تتساقط بغزارة، وأصبح سكان (تشان دوي) في مأزق. في ذلك الوقت، توصلت زوجة شيخ قبيلة (لي تانغ) إلى خطة ذكية للتخلص من العدو. اقترحت عليه أن يستخدموا الجدري لإضعاف العدو القوي.

أمر شيخ قبيلة (لي تانغ) رجاله على الفور بجمع القشور من الأشخاص الذين أصيبوا بالجدري. وقاموا بطحن هذه القشور المليئة بالجراثيم إلى مسحوق ناعم، وخلطوه مع دقيق (تسامبا) ومسحوق التبغ، وأرسلوه إلى خيمة (قونغ بو لانغ جيا). وادعوا أنهم قد استنفدوا قواهم، وأن ذخيرتهم ومؤنهم قد نفدت، وأنهم لم يعودوا قادرين على القتال، وأنهم مستعدون للاستسلام لـ(تشان دوي)، وأرسلوا دقيق (تسامبا) والتبغ كعلامة على حسن نيتهم. لم يعلم (قونغ بو لانغ جيا) بالمكيدة، فأمر بتوزيع هذه الهدايا على جنوده لرفع معنوياتهم. ونتيجة لذلك، انتشر الجدري في معسكر (تشان دوي) بعد بضعة أيام، وأصبح منتشراً بشكل متزايد. حتى حفيد (قونغ بو لانغ جيا) الذي كان قد أحضره معه لمشاهدة المعركة، أصيب بالمرض وتوفي. وبسبب هذا الوباء، فقدت قوات (تشان دوي) قدرتها على القتال، ولم يكن لدى (قونغ بو لانغ جيا) خيار سوى الانسحاب بمرارة.

.indd 186-187 2025-11-27 10:56:01

كانت هذه حرباً جرثومية، حرباً جرثومية وقعت في أرض ليس بها أي علم.

في السنة التالية، أرسل (قونغ بو لانغ جيا) مجموعة أخرى من القوات لمهاجمة (لي تانغ).

كانت غالبية هذه القوة من الأشخاص الذين أصيبوا بالجدري ونجوا في العام السابق. أولاً، لم يكونوا يخافون من أن يستخدم شيخ قبيلة (لي تانغ) فيروس الجدري مرة أخرى؛ وثانياً، كانوا يكنون الكراهية الشديدة لسكان (لي تانغ). وفي هذه المرة، أخذوا ينهبون ويقتلون بوحشية، دون تمييز بين الفقراء والأغنياء أو بين الصغار والكبار.

كان شعار(قونغ بو لانغ جيا) لحشد قواته هو: «انتقموا للموتى، واستعيدوا ما فقدناه من (لي تانغ)!»

وقال: «إن (لي تانغ) عبارة عن سهل عشبي كبير، وسوف نجعله سهلاً فارغاً بلا ماء أو عشب!»

في هذه المرة، أدرك شيخ قبيلة (لي تانغ) أنه لا يستطيع المقاومة، فاستغل الفرصة قبل أن تتمكن قوات (تشان دوي) من محاصرة مقره، وأخذ عائلته، وسلك نفس الطريق الذي سلكه شيوخ القبائل المهزمين في الماضي. وعبر نهر (جين شا)، وهرب إلى التبت.

أما (ماو يا)، وهو شيخ قبيلة صغير بالقرب من (لي تانغ)، والذي حاول شيخ قبيلة (ده قه) في السابق التواصل معه لمهاجمة (قونغ بو لانغ جيا)، فعندما رأى الوضع، استسلم لقوات (تشان دوي) دون قتال.

وبعد احتلاله لـ(لي تانغ)، قطع (قونغ بو لانغ جيا) الطريق المؤدي إلى التبت. وقام بإحراق مخازن الحبوب والثكنات. حتى إنه تجرأ على فك الأختام وقراءة الوثائق الرسمية التي كانت تُرسل على الطريق، وتم منع الوزير المعين حديثاً في التبت من الوصول إلى لاسا لتولي منصبه.

ليس كل تبتي يميل قلبه نحو لاسا

بينما كانت سلالة (تشينغ) في حالة ضعف، كان من الطبيعي أن يكون (قونغ بو لانغ جيا) يحتقر «الكبار من سلالة (تشينغ)». ولكن على عكس شيوخ القبائل المحليين الآخرين الذين تجرأوا على التمرد ضد أوامر الحكومة المركزية، لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) يأبه للحكومة المحلية في التبت، والتي كان يقودها (دالاي لاما).

السبب في قول ذلك هو أنه حتى اليوم، في التفكير السياسي المعتاد، إذا حدث شيء في المنطقة التبتية، فمن المؤكد أن يكون سببه هو الانفصال عن الحكومة المركزية، والتوجه نحو لاسا. وهذا هو أحد الأسباب النفسية لما يسمى الآن بـ«التبت الكبرى». بالطبع، لدى بعض التبتيين هذا التفكير، ويعتبره العالم الخارجي الخيار الحتمي لجميع التبتيين. ولكن ما نفترضه أنه حتمي، قد لا يكون حقيقة. وقد يكون مثال (قونغ بو لانغ جيا) دليلاً صغيراً على تفكيك هذه الأسطورة.

حتى الآن، لا تزال هناك العديد من أقوال (قونغ بو لانغ جيا) المضحكة المتداولة في منطقة (شين لونغ).

لقد سخر من قادة الجيش المحلي في التبت الذين كانوا يرتدون الزي الأصفر، ولقبهم بـ«(بوو سه تسه جي ما)» - «الحشرات الصفراء على روث البقر». وقال إنه بمجرد أن تلمس هذه الحشرات بعود من العشب، فإنها تسحب أقدامها بسرعة، مشيراً إلى أن الجيش التبتي جبان، وليس لديه قدرة على القتال.

وقال: «أمير الهند إنسان، وإمبراطور (تشينغ) إنسان، وأنا في (تشان دوي) أيضاً إنسان!» هذه الكلمات تكشف عن طموحه الأكبر.

[redacted].indd 188-189 2025-11-27 10:56:01

أشهر ما قاله: «يذهب الكثير من سكان (تشان دوي) إلى التبت للحج، والطريق طويل وصعب. لماذا لا ننقل تمثال (ساكياموني بوذا) من معبد (جوخانغ) في لاسا إلى منطقتنا، حتى يتمكن سكان (تشان دوي) من أن يصبحوا (بوذا) في منطقتهم؟»

يذكر التاريخ التبتي بوضوح: أن (قونغ بو لانغ جيا) وجه (ليه وو ما)، شيخ قبيلة (ده قه) التابع له، لكتابة رسالة إلى (دالاي لاما) والوصي على العرش في لاسا: «إن تمثال (ساكياموني بوذا) في لاسا هو (بوساتفا) لنا جميعاً، ولا يجب أن تقتصروا على الاحتفاظ به في لاسا. نريد أن نجلبه إلى (تشان دوي). وإلا، فإن جنود (تشان دوي) كثيرون مثل بذور الكرنب، وأسلحتنا حادة مثل الإبر.»

وأرسل مع الرسالة ثلاثة أشياء: بذور الكرنب، وإبرة، وروث كلب. فهم سكان (تشان دوي) رموز هذه الأشياء الثلاثة. فبذور الكرنب ترمز إلى كثرة الجنود، والإبرة ترمز إلى الأسلحة الحادة، وروث الكلب يرمز إلى أن (قونغ بو لانغ جيا) و(ليه وو ما) سيكونان مثل روث الكلب إذا لم يلتزما بوعودهما.

بالطبع، هناك رأي آخر يقول إن (قونغ بو لانغ جيا) لن يكون وقحاً إلى هذا الحد مع (دالاي لاما)، وأن تلك الرسالة كانت مؤامرة من شخص آخر، وأُرسلت باسمه إلى التبت. وهذا الشخص هو شيخ قبيلة (يو لونغ) الذي كان تابعاً لشيخ قبيلة (ده قه). عندما بدأ (قونغ بو لانغ جيا) هجومه، استسلم له (يو لونغ) الذي كان يدافع عن البوابة الشرقية لـ(ده قه). ومنذ ذلك الحين، كان يخدم (ليه وو ما)، شيخ القبيلة الجديد لـ(ده قه)، ولكن في قلبه، كان دائماً يخطط لاستعادة قوة شيخ قبيلة (ده قه). وعندما رأى أن (قونغ بو لانغ جيا) كان مغروراً، وأن (ليه وو ما) ومجموعته بدأوا يفكرون في مهاجمة التبت، اعتقد أن هذه هي الفرصة الذهبية للتسبب في هزيمتهم، فقام على الفور بالاحتيال وإضافة الوقود إلى النار.

تقول الأسطورة إن هذا الرجل قام أولاً بكتابة رسالة لـ(قونغ بو لانغ جيا)، متظاهراً أنه حكومة (كاشاغ).

وتقول الرسالة إن شيخ قبيلة (ده قه)، وشيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، وشيخ قبيلة (لي تانغ) هم رعاة للمعابد الكبرى في التبت، وأن مناطقهم هي واحدة من المصادر الرئيسية للاما في الأديرة الثلاثة الكبرى. لذلك، لن يُسمح لك يا (قونغ بو لانغ جيا) بغزوهم كما تريد. ونأمرك الآن بالانسحاب فوراً، وإعادة الحكم إلى شيوخ القبائل.

عندما وصلت هذه الرسالة المزورة إلى (ليه وو ما)، قام بفتحها، وسب حكومة (كاشاغ) لعدم احترامها لقوة (قونغ بو لانغ جيا) وهيبته. وطلب على الفور من شيخ قبيلة (يو لونغ) السابق أن يرد على الرسالة نيابة عنه. وهذا ما كان يتمناه (يو لونغ)، فكتب الرسالة التي تم ذكرها سابقاً. وفي الرسالة، ادعى أيضاً أن «الاستسلام لنا هو الخيار الوحيد لحكومة (كاشاغ) وسكانها. وإلا، سأرسل جيشاً كبيراً إلى التبت. وفي ذلك الوقت، سنجلب تمثال (ساكياموني بوذا) بالقوة، ونجعل قاعات المعابد الثلاثة الكبرى إسطبلات للخيول، واللوحة الحجرية أمام معبد (جوخانغ) مكاناً لربط الخيول. وسأجعل أمير الهند خائفاً، وإمبراطور (تشينغ) يرتجف، وأنتم أيها ‹الحشرات الذهبية›، ستفقدون عقولكم. وهذا ليس مجرد كلام فارغ. إذا لم أتمكن من فعل ذلك، فسأكون كلبكم الأليف.»

اللوحة الحجرية أمام معبد (جوخانغ) هي لوحة التحالف التي لا تزال موجودة حتى اليوم، والتي تعود إلى عهد سلالة (تانغ) ومملكة (توبو).

يذكر النص التبتي الذي تركه راهب، أنه في ذلك الوقت، كان هناك بالفعل راهب قد تنبأ بحدث سيء. وتقول النبوءة: «عندما يصبح الرجل السيء (ليه وو ما) مسؤولاً، سيضع رأس كلب في طبق.»

لا توجد لدي معلومات عن رد التبت في ذلك الوقت.

ولكن بالبحث في سجلات سلالة (تشينغ)، وجدت أن الوزير المعين حديثاً في التبت، (جينغ ون)، قد وصل إلى (دا جيان لو)، ولكنه لم يتمكن من التقدم بسبب قطع الطريق المؤدي إلى التبت من قبل قوات (تشان دوي). في ذلك الوقت، كان الإمبراطور وعهد الحكم قد تغيرا، وكان ذلك في السنة الثانية من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، أي عام 1863.

«وصل (جينغ ون) إلى مدينة (لوو)، ولكن الرؤساء المحليون قطعوا الطريق، ومنعوه من التقدم.»

وسبب تعيين سلالة (تشينغ) لـ(جينغ ون) كوزير جديد في التبت، هو أن الوضع في التبت لم يكن مستقراً أيضاً. «أثار اللاما في التبت المشاكل»، ولم يتمكن الوزير (مان تشينغ) من التعامل مع الوضع بشكل صحيح، فأرسل الإمبراطور (تونغ تشي) وزيراً جديداً ليحل محله، «وعند وصوله إلى التبت، يجب أن يتحقق من سبب مشاكل اللاما، ويتصرف بإنصاف. وإذا كان (مان تشينغ) قد تصرف بشكل غير عادل أو أخذ رشوة، فيجب عليه أن يبلغ الإمبراطور، وسيتم معاقبته حسب الأمر، لإرضاء الجميع.»

لكن (جينغ ون) لم يتمكن من الوصول إلى هناك.

في ذلك الوقت، بعد أن احتل (قونغ بو لانغ جيا) (لي تانغ)، هاجم منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) في الشرق. وبهذا، لم تتأثر محطات الطريق في منطقة (لي تانغ) فقط، بل إن شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، الذي كان دائماً موالياً للحكومة المركزية، كان مشغولاً بمقاومة هجمات (قونغ بو لانغ جيا)، ولم يكن قادراً على ضمان سير العمل الطبيعي لمحطات الطريق في منطقته. كان (جينغ ون) على علم بهذا الوضع، وقال في تقريره: «يقوم (قونغ بو لانغ جيا) وقواته من (تشان دوي) بإثارة الفوضى في مناطق شيوخ القبائل. وشيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، (جيا موو تسان)، و(قونغ بو لانغ جيا) وغيرهم، يثيرون المشاكل، مما يتسبب في إغلاق محطات الطريق، وتوقف العديد من المسؤولين عن السير.»

.indd 190-191 2025-11-27 10:56:01

لا يبدو أن الإمبراطور (تونغ تشي) كان على علم دقيق بالوضع الخطير في المنطقة التبتية في سيتشوان، والأوامر التي أصدرها كانت مجرد كلام رسمي: «وفقاً لتقرير سابق من (لوه بينغ تشانغ) بأن شيخ القبيلة البربري يثير الشغب في حدود (مينغ تشنغ)، فقد أمرنا الحاكم العام بإقناعه، وأمرنا شيوخ القبائل بتشديد الحراسة على الحدود.»

(لوه بينغ تشانغ) كان الحاكم العام لسيتشوان في ذلك الوقت.

كانت قوات (قونغ بو لانغ جيا) تهاجم (مينغ تشنغ) بقوة، فكيف يمكن «إقناعهم»؟ كانت قوات شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) تتراجع، ولكن لحسن الحظ كانت أراضيه واسعة، وكان لديه مجال للمناورة، ويمكنه التراجع إلى عمق أراضيه لمواصلة القتال، ولكن كيف يمكنه «تشديد الحراسة على الحدود»؟

في منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الواسعة، وقعت قوات (تشان دوي) تدريجياً في مأزق، وهو نفس المأزق الذي واجهته قوات (تشينغ) التي هاجمت (تشان دوي) في السابق. وبسبب عدم معرفتهم بالطرق والتضاريس، تعرضت قوات (تشان دوي) للكثير من الكمائن، مما أدى إلى زيادة الخسائر. ولذلك، أبلغ القائد (قونغ بو لانغ جيا) قائلاً: «لقد تراجع العدو إلى مكان ‹تخطف فيه الأشجار الناس› و‹تأكل فيه الحجارة الطعام›، ونطلب منك أن تأمرنا بما يجب فعله.»

«الأشجار تخطف الناس» تعني أن القوات قد دخلت منطقة غابات، وبسبب كثافة الأشجار والكروم والأشواك، أصبح من الصعب جداً على قوات (تشان دوي) أن تتقدم. أما «الحجارة تأكل الطعام»، فتعني أن الناس في المنطقة يضعون ثلاثة أحجار لطبخ الطعام. وعندما يجهز الشاي أو الطعام، يضعون بعضاً منه على الأحجار الثلاثة كعادة لتقديم القرابين للآلهة. استخدم أتباع (قونغ بو لانغ جيا) هاتين الجملتين لإخباره بأنهم في مكان لا يناسبهم، وأنهم يواجهون صعوبات كبيرة.

اضطر (قونغ بو لانغ جيا) إلى سحب قواته.

وأرسل (قونغ بو لانغ جيا) قوات أخرى لمهاجمة منطقة شيخ قبيلة (با تانغ) غرب (لي تانغ)، ولكنهم عادوا خالي الوفاض بسبب المقاومة الشرسة.

وفقاً للسجلات المحلية، فشلت حملة (تشان دوي) على (با تانغ) بسبب انتشار الجدري في المنطقة. ولكن الأهم من ذلك، أن (قونغ بو لانغ جيا) أثار ضجة كبيرة، لم تلفت انتباه الحكومة المركزية في بلاط (تشينغ) فحسب، بل أثارت أيضاً قلقاً كبيراً لدى الحكومة المحلية في التبت، والتي بدأت تتعاون لوقف المزيد من توسع (قونغ بو لانغ جيا). في شهر مارس من السنة الثانية من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، تلقى الإمبراطور تقريراً من الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (مان تشينغ)، جاء فيه: «شيخ القبيلة البربري (قونغ بو لانغ جيا) من (تشان دوي) يجمع شيخ قبيلة (ده قه) ويقومون بإثارة الفوضى في منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) المنغولي الأصل وغيرها. وسيصلون قريباً من (با تانغ) و(جيانغ كا) إلى (تشا يا) و(قوان جوبه). وقام ابنه (دونغ دنغ قونغ بو) بجمع الناس، وحاصر مقر شيخ قبيلة (لي تانغ)، ودمروا جميع الجسور على الطريق الرئيسي، وقاموا بفك الأختام عن الرسائل الرسمية وقراءتها، واحتجزوا المترجمين.» من هذا التقرير، يبدو أن مسؤولاً كبيراً مثل (مان تشينغ) لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة لما كان يحدث في (تشان دوي) ومنطقة (كانغ) منذ أكثر من عشر سنوات. لأن (قونغ بو لانغ جيا) كان قد احتل منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) المنغولي الأصل منذ فترة طويلة، ثم احتل منطقة شيخ قبيلة (ده قه)، ولم يكن «يثير الفوضى» مع شيخ قبيلة (ده قه) في منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) المنغولي الأصل. أو ربما كانوا يعرفون مدى خطورة الوضع، ولكنهم قللوا من شأنه كعادتهم، ولكنهم لم يتمكنوا من إخفاء حقيقة أن طريق سيتشوان والتبت قد تم قطعه. لذلك، أبلغوا بالحقيقة أن قوات (قونغ بو لانغ جيا) دمرت الجسور على الطريق، وقامت بفك الأختام عن الرسائل الرسمية، واحتجزت المترجمين.

كما أن هجوم (قونغ بو لانغ جيا) على (با تانغ) أثار قلق الحكومة المحلية في التبت. فإذا سقطت (با تانغ)، فإن المناطق التي تسيطر عليها حكومة (كاشاغ) بشكل مباشر ستكون تحت تهديد قوات (قونغ بو لانغ جيا). لذلك، أبلغ (مان تشينغ) الإمبراطور (تونغ تشي)، قائلاً: «لقد أرسل الدالاي لاما ومسؤولون آخرون العديد من المسؤولين التبتيين مع جنود محليين إلى (تشا يا)، و(قوان جوبه)، و(جيانغ كا)، لسد الممرات. كما أمروا (39) قبيلة بإرسال 1500 جندي للانتشار في (با تانغ)، وأمروا الداي بن (تشي مي دوو جي) بالذهاب إلى (جيانغ كا) لتقديم الدعم.»

لتوضيح كلمة «داي بن»: هو لقب عسكري في الجيش المحلي في التبت، وهو أيضاً وحدة عسكرية. تُكتب الآن عادة «داي بن»، وكل داي بن لديه 500 جندي. منذ العصور القديمة، كانت الوثائق الصينية تستخدم الحروف الصينية لترجمة الألقاب، والأسماء، والأماكن التبتية، وحتى اليوم، لا يوجد معيار موحد، لذلك يمكن أن يظهر الاسم التبتي نفسه بطرق مختلفة في فترات مختلفة، ومناطق مختلفة، وحتى في كتابات أشخاص مختلفين، مما يسبب سوء فهم للأشخاص الذين لا يعرفون اللغة أو التاريخ التبتي. على سبيل المثال، شيخ قبيلة (ده قه) يُكتب في تقارير سلالة (تشينغ) بأساليب مختلفة مثل «ده إرقه ته»، و«ده إرقه». أما اسم (قونغ بو لانغ جيا)، فيُكتب بأساليب مختلفة مثل «قونغ بو لانغ جيه»، و«غونغ بو لانغ جيا»، و«قونغ بو لانغ جيا».

.indd 192-193 2025-11-27 10:56:02

أصدر الإمبراطور (تونغ تشي) أمراً: «يجب التعامل مع شيخ القبيلة (قونغ بو لانغ جيا) الذي يثير الفوضى بشكل عاجل.»

بدأ (قونغ بو لانغ جيا) تمرده في عهد الإمبراطور (داو قوانغ)، وبعد فشل (تشي شان) مرتين في القضاء عليه بقوات (الهان) والتبت، استمر تمرده خلال عهد الإمبراطور (شيان فنغ)، حتى وصل إلى عهد الإمبراطور (تونغ تشي)، أي ثلاثة عهود. لذا، فإن التخطيط للقضاء عليه الآن هو محاولة متأخرة جداً، ولا يمكن اعتبارها «تعاملاً عاجلاً».

ولكن التعامل مع الأمر كان صعباً للغاية. في ذلك الوقت، لم تكن سلالة (تشينغ) قوية كما كانت في عهود الأباطرة (كانغ شي)، و(يونغ تشنغ)، و(تشيان لونغ)، حيث كانت قادرة على حشد المؤن، وإرسال الجيوش للقضاء على أي مشكلة. أصدر الإمبراطور (تونغ تشي) أمره الآن، وكان يعلم أن «مؤن وجنود مقاطعة سيتشوان لا تكفي»، ولكن لحسن الحظ كان هناك «جنود (تبتيون) يمكن استخدامهم»، أي يمكنه استخدام شيوخ القبائل التبتيين وجيش حكومة (كاشاغ).

لم ينسَ الإمبراطور أن يلخص سبب تمرد (قونغ بو لانغ جيا) ووصوله إلى هذا الحجم: «هذا المتمرد أثار المشاكل في عهد الإمبراطور (داو قوانغ). ذهب حاكم سيتشوان السابق، (تشي شان)، بقواته للقضاء عليه، ولكنه لم يهاجم بقوة، بل تصرف بشكل سطحي فقط، مما جعل هذا شيخ القبيلة لا يخاف من أي شيء، ويأكل شيوخ القبائل المجاورة كما يريد.»

من جانب الإمبراطور، كان يتبادل التقارير مع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت والحاكم العام لسيتشوان، ويستعد للقضاء على (تشان دوي) مرة أخرى، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) لم يأبه لذلك، واستمر في شن هجمات على المناطق المحيطة.

في شهر أبريل من السنة الثالثة من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، تلقى الإمبراطور تقريراً آخر: «أرسل شيخ القبيلة (قونغ بو لانغ جيا) متمرديه الكبار (تشي مي قونغ بو) إلى منطقة (سان با)، حيث نهبوا أمتعة مسؤول المؤن، وسرقوا الوثائق والرسائل الرسمية القادمة من التبت. وهناك رسائل استغاثة من منطقة (قه جي). ... الآن، انقطعت التجارة بين سيتشوان والتبت، وأصبح نقل الجنود والمؤن صعباً، والكل، من (الهان) والتبتيين، يخشى من المجاعة. وإذا تم احتلال (با تانغ)، فسيكون من الصعب الحفاظ على (جيانغ كا).»

إذا سقطت (جيانغ كا)، فهذا يعني أن (قونغ بو لانغ جيا) يمكنه مهاجمة المناطق التي تسيطر عليها حكومة (كاشاغ) بشكل مباشر.

XXXX XXX.indd 194-195 2025-11-27 10:56:02

التبت ترسل قوات لمهاجمة (تشان دوي)

في الماضي، كانت حكومة (كاشاغ) تستمتع بمشاهدة صراع شيوخ القبائل ضد سلالة (تشينغ). ولأنهم كانوا من نفس العرق والدين، كانوا يتعاطفون معهم، بل وكانوا يساعدونهم سراً في بعض الحالات. ولكن هذه المرة، كان (قونغ بو لانغ جيا) مختلفاً جداً عن شيوخ القبائل السابقين، فهو لم يظهر الاحترام الواجب للقادة الدينيين في التبت، بل كان يتباهى بأنه سيحتل التبت. وبعد أن أصبح قوياً في منطقة (كانغ)، لم يوجه قواته شرقاً نحو أراضي (الهان)، بل وجهها نحو التبت. وهذا أثار بالطبع قلقاً كبيراً في حكومة (كاشاغ). ونتيجة لذلك، اتفقوا مع سلالة (تشينغ) على إرسال قوات مشتركة لمهاجمة (تشان دوي).

وفي هذه المرة، تم وضع خطة مشتركة لمهاجمة (تشان دوي) بسرعة، على الرغم من بطء الطرفين المعتاد في اتخاذ الإجراءات.

كانت الخطة تتضمن هجوماً من أربعة محاور.

«يتم تعيين مسؤولين تبتيين لجمع الجنود والمؤن، والاتفاق مع القبائل التسع والثلاثين لجمع الجنود المحليين للدفاع عن الجانبين الغربي والشمالي ضد المتمردين من (تشان دوي).» وهذا يعني أن الجانبين الغربي والشمالي ستكون مسؤوليتهما على عاتق الحكومة المحلية في التبت والقبائل التسع والثلاثون، وهي قبائل رعوية تعيش بين التبت و(تشينغهاي). لا تعني القبائل التسع والثلاثون وجود تسع وثلاثين مجموعة عرقية مختلفة هناك، بل تعني أن هناك تسع وثلاثين عشيرة. يقول (ده رونغ تسيرن دنغ تشو)، وهو باحث من ولاية (قان تسي)، في كتابه «التاريخ العام للشعب التبتي: الجرة المباركة»: إنه في عهد سلالة (تشينغ)، كانت المناطق التي تسيطر عليها حكومة (كاشاغ) مباشرة تسمى «تسونغ»، وهي تعادل المقاطعات تقريباً. أما المناطق التبتية في سيتشوان، و(قانسو)، و(يونان)، فكانت تحت نظام شيوخ القبائل. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك قبائل غير منظمة في سيتشوان، و(تشينغهاي)، والتبت، والتي كانت تسمى «عرقية»، أي عشيرة، وليس كما نعرفها اليوم بمعنى العرق أو القومية.

كانت القوات في المسارين الشرقي والجنوبي «يجب أن تُجمع من قبل سيتشوان». وكانت هذه القوات من المناطق الخاضعة لسيطرة شيوخ القبائل في سيتشوان، مثل شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) و (جين تشوان) الكبرى والصغرى.

وقبل أن يتحرك الجيش التبتي، قدموا طلبًا: «لقد تم جمع أكثر من 10,300 جندي من التبت، ولكنهم يملكون مؤنًا تكفي لمدة أربعة أشهر فقط. خزائننا فارغة، ونفتقر إلى البارود والرصاص، ونحتاج إلى دعم عاجل من سيتشوان».

أصدر الإمبراطور أمرًا: «أرسلوا بسرعة 40,000 إلى 50,000 قطعة فضية، و30,000 إلى 40,000 قطعة من البارود». ولكن كيف يمكن إيصال هذه الأموال والبارود إلى الجيش التبتي بينما قطع (قونغ بو لانغ جيا) طريق سيتشوان و التبت؟ كان الحل هو الالتفاف. وكان هذا الالتفاف طويلاً جدًا: «يتم الالتفاف عبر (هوي لي تشو) في مقاطعة (يونان)، والوصول إلى (نان دون) على حدود التبت، أو إلى منطقة (تسا وا غانغ) التابعة لـ (تشانغ دوو)، ثم التقدم تدريجيًا». بعبارة أخرى، ينزلون جنوبًا من حوض سيتشوان، ويعبرون ولاية (لیانغ شان) التي يسكنها (يى) اليوم، ومن (هوي لي) يعبرون نهر (جين شا) إلى (يونان)، ثم يتجهون شمال غربًا إلى منطقة (شانغريلا) التابعة لـ (يونان)، ثم يلتفون شمالًا على طول وادي نهر (جين شا)، إلى (نان دون) على الحدود بين التبت وشيخ قبيلة (با تانغ) التابع لـ سيتشوان، ثم يواصلون صعود النهر إلى (تشانغ دوو)، أي منطقة (تشانغ دوو) في إقليم التبت ذاتي الحكم اليوم. في ذلك الوقت، كانت حكومة (كاشاغ) قد أنشأت منطقة إدارية في (تشانغ دوو) لإدارة شؤون التبت الشرقية المجاورة لمناطق شيوخ القبائل في سيتشوان.

وبعد حصول الجيش التبتي على المال والذخيرة، انطلقوا نحو (تشان دوي) للقضاء على التمرد.

وفي شهر يونيو، تلقى الإمبراطور تقريرًا يفيد بأن الجيش التبتي قد وصل إلى (با تانغ). وهذا يعني أنهم يمكنهم مهاجمة (لي تانغ) التي احتلها (قونغ بو لانغ جيا)، وإعادة فتح طريق سيتشوان و التبت. في الوقت نفسه، تلقى الإمبراطور أخبارًا أخرى من حاكم سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، في تقريره: «وصل الجنود التبتيون الذين تم إرسالهم من التبت إلى (با تانغ)، وبمجرد دخولهم، بدأوا في النهب، ودمروا المنازل القريبة من مستودع البارود والجسور. كما قاموا بخلع ملابس جنود البريد، وأخذوا طعامهم، وبسبب مطالبتهم بالعمالة والخيول، حاصروا مقر شيخ قبيلة (با تانغ)، وأطلقوا النار، مما أدى إلى مقتل بعض الأشخاص، ولم يكن قمعهم فعالًا».

[redacted].indd 196-197 2025-11-27 10:56:02

كان في هذه القوة أيضًا مشرف عسكري يُدعى (لي يو بو)، أرسله الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت. في الواقع، كان هذا المشرف العسكري مجرد اسم بلا سلطة حقيقية، ولم يكن يستطيع السيطرة على الجنود التبتيين. ولكن الإمبراطور، الذي لم يكن يستطيع التحكم في الجيش التبتي، غضب من هذا المسؤول (الهان)، وأصدر أمرًا للوزير في التبت بمحاكمته، ثم غير رأيه وأمره «بالمثول في بكين للمواجهة».

في الواقع، كان هناك خلاف بين المسؤولين الكبار في سلالة (تشينغ) حول ما إذا كان يجب مهاجمة (تشان دوي) أم لا. كان الحاكم العام لـ سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، سلبيًا إلى حد ما. كان يعتقد أن الصراعات بين شيوخ القبائل «هي مجرد نزاعات بين الهمج، ولا تستدعي إرسال جيش بعيد، بل يكفي إرسال مسؤول لإقناعهم بالعودة إلى مناطقهم».

كان الحاكم (لوه بينغ تشانغ) ساذجًا جدًا.

ولكننا نعلم أيضًا أن نظام الحكم الإقطاعي صعب جدًا، ولن يتمكن شخص ساذج من أن يصبح حتى مسؤولًا في مقاطعة، فكيف يمكنه أن يصل إلى منصب حاكم عام مسؤول إقليمي رفيع المستوى؟ ولكن في ذلك الوقت، كانت مقاطعة سيتشوان نفسها، قد خرجت للتو من تمرد (شي دا كاي) التابع لجيش (تايبينغ)، واندلعت تمردات محلية أخرى، وكانت الأوضاع المالية متدهورة بالفعل، والآن يجب عليهم إرسال جيش إلى الحدود التبتية، ودفع رواتب الجنود التبتيين، وكانوا عاجزين عن ذلك، لذلك كانوا غير راغبين في الأمر.

عندما رأى الإمبراطور (تونغ تشي) أن الجيش التبتي لم يقاتل (قونغ بو لانغ جيا)، بل بدأ في إثارة الفوضى في (با تانغ)، خاف من أن المنطقة لن تكون آمنة حتى لو فاز الجيش التبتي. لذلك، غير رأيه، وأصدر أمرًا جديدًا في بداية شهر يوليو: «لقد أمرنا بسحب الجنود التبتيين، وحماية أراضي التبت. وإذا دخل شيخ قبيلة (تشان دوي) المنطقة، فيجب مهاجمته، وعدم السماح له بإثارة الفوضى في المناطق الداخلية.» وهذا يعني أن الجنود التبتيين يجب أن ينسحبوا إلى المناطق التي تسيطر عليها حكومة (كاشاغ)، ولا يمكنهم القتال إلا إذا هاجمت قوات (تشان دوي) التبت، أما مناطق شيوخ القبائل فهي «مناطق داخلية»، ولا يريدونهم أن يتولوا المسؤولية عنها.

بعد ذلك، أرسل الحاكم العام لـ سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، مُشرفًا يدعى (شي تشي كانغ) إلى (تشان دوي) «لإقناعه».

بعد ذلك، أرسل حاكم مقاطعة سيتشوان العام، (لوه بينغ تشانغ)، أيضًا المشرف الإقليمي [1] (شي تشي كانغ) وآخرين للذهاب إلى منطقة (تشان دوي) «بهدف التوجيه والإقناع».

1 المشرف الإقليمي: هو اسم منصب رسمي في عهد أسرة تشينغ، واسمه الرسمي هو «المدير الإقليمي». وله ألقاب أخرى مثل «المفتش العام» و«المراقب الإداري». وهو مسؤول رفيع المستوى (برتبة من الدرجة الرابعة)، يقوم بمساعدة المفوض الإداري للمقاطعة ورئيس القضاء والتفتيش للمقاطعة في تسيير الشؤون الحكومية، أو يتولى إدارة مؤسسات إدارية على مستوى المنطقة (مثل إدارة التعليم أو إدارة الملح). وبعد فترة حكم الإمبراطور (جيا تشينغ)، أُضيفت إلى مسؤولياته مهمة التفتيش والمراقبة.

في شهر نوفمبر، بعد حوالي نصف عام، يبدو أن الإمبراطور (تونغ تشي) لم يتلق تقارير عن الوضع في جبهة (تشان دوي) من كبار المسؤولين في سيتشوان والتبت. فقام بجمع كبار المستشارين العسكريين لمناقشة الأمر: «هل انسحب الجنود التبتيون؟ ما هو الوضع في (تشان دوي)؟ هل أطاع المسؤولون (شي تشي كانغ) وغيرهم الأوامر وانسحبوا؟ لم نتلق أي رد من الجنرالات».

ولكن بمجرد أن تحرك الجيش التبتي، وفي الوقت الذي وصل فيه المحور الغربي إلى (با تانغ)، شن المحور الشمالي هجومًا على (ده قه).

في ذلك الوقت، كانت سلالة (تشينغ) تمر بأزمة كبيرة، وتراجعت سلطة الحكومة المركزية إلى أدنى مستوى لها. وعندما حاولت إصدار أوامر، لم يعد أحد يطيعها. في بداية السنة الرابعة من عهد الإمبراطور (تونغ تشي)، ذكر الإمبراطور بنفسه الاضطرابات الكبيرة في البلاد: أولاً، «تمرد (شي دا كاي) الذي أثار الفوضى في سيتشوان العام الماضي»؛ ثانياً، «التمردات الخطيرة للمسلمين في (قانسو)»؛ ثالثاً، «تمدد قوة المتمردين في (شينجيانغ)». كانت قوات (تشينغ) مشغولة بمكافحة الحرائق في كل مكان، ولم يكن لديها القوة الكافية لمهاجمة (تشان دوي). ولكن الإمبراطور (تونغ تشي) كان يعلم جيدًا أنه إذا توغل الجيش التبتي في أراضي شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان، فسيكون هناك المزيد من المشاكل في المستقبل. كانت أمنيته الوحيدة هي أن ينسحب الجيش التبتي إلى التبت، وأن يتم إخضاع (تشان دوي) من قبل جنود شيوخ القبائل في سيتشوان.

استذكر الإمبراطور أيضًا مع كبار المستشارين العسكريين وغيرهم الإنجازات التي حققها جنود شيوخ القبائل بعد توليه الحكم: «في عهد الإمبراطور (شيان فنغ)، عندما كان (شيانغ رونغ) يقود القوات في جنوب نهر (يانغتسي)، قام بتجنيد الجنود المستوطنين[1] من سيتشوان، وقد اشتهروا بالبسالة والشجاعة في الهجوم على خطوط القتال. ولكن بسبب عدم اعتيادهم على المناخ في الجنوب، فقد توفي العديد من هؤلاء المجندين المستوطنين وآخرين». وهذا يعني أنه خلال حرب الأفيون الثانية، تم استدعاء الجنود من شيوخ قبائل (جين تشوان) الكبرى والصغرى، و(تسا قو)، و(وا سي) في سيتشوان، للقتال في الخطوط الأمامية ضد القوات البريطانية في (دينغهاي) و(تشنهاي) بمقاطعة (تشجيانغ). وقد تكبدوا خسائر فادحة، وبسبب عدم اعتيادهم على المناخ، لم يعد معظم الآلاف من الجنود إلى ديارهم. وفي منطقة شيخ قبيلة (وا سي)، الأقرب إلى المناطق الداخلية، كان يوجد قبر ضخم يسميه السكان المحليون «مقبرة الضفائر». وتعود أصل هذه التسمية إلى أنه عندما قُتل أو مات بالمرض الجنود المحليون الذين غادروا للقتال في (تشيجيانغ) خلال الحرب ضد بريطانيا، لم يكن بالإمكان إلا قص ضفائر شعرهم وإحضارها إلى الوطن لدفنها بشكل جماعي. وهذا المكان لا يزال موجودًا حتى اليوم.

1 الجنود المستوطنين: في عهد سلالة (تشينغ)، تم تطبيق سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ سيتشوان. على سبيل المثال، في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، تم إلغاء منصب شيخ قبيلة (تسا قو) فيما يعرف اليوم بمحافظة (لي شيان) ، وأُنشئت في تلك المنطقة خمسة تجمعات استيطانية/عسكرية هي: (تسا قو)، و(قانغ بو)، و(شانغ منغ)، و(شيا منغ)، و(جيو تسي). وتم تعيين رؤساء القبائل السابقين الذين أعلنوا ولاءهم كقادة حراسة محليين. في عهد سلالة (تشينغ) بلغ عدد مسؤولي الحراسة المحليين في سيتشوان ما مجموعة ستة عشر مسؤولاً. هذا النظام يهدف إلى دمج الجيش بالسكان المدنيين.الرجال الأقوياء في المستوطنات يحملون أسلحة، ويعملون في الزراعة في وقت السلم، ويشاركون في الحرب في وقت الحرب. ولهذا أطلق عليهم اسم الجنود المستوطنين.

XXXX XXX.indd 198-199 2025-11-27 10:56:02

تذكر الإمبراطور أيضًا أن (شي دا كاي) الذي أثار الفوضى في سيتشوان «تم استدراجه إلى أرض قاحلة من قبل جنود شيوخ القبائل، وتمكن الجيش الحكومي من القبض عليه والقضاء عليه». كان يأمل في استخدام جنود شيوخ القبائل الموالين بالفعل للقضاء على (تشان دوي).

على عكس سلفه، الإمبراطور (تشيان لونغ)، يبدو أن الإمبراطور (تونغ تشي) لم يكن يعرف الكثير عن هؤلاء شيوخ القبائل وجنودهم المحليين. لذلك، طرح العديد من الأسئلة على كبار المستشارين العسكريين وغيرهم حول هؤلاء الجنود المحليين.

سأل أولاً عما إذا كان الجنود الذين قاتلوا في (تشيجيانغ) وشاركوا في القضاء على (شي دا كاي) «هم نفس النوع من الجنود». أي، هل هم من نفس المنطقة ونفس العرق؟

ثم سأل: «إذا تم إرسال ألف جندي خارج المقاطعة للقضاء على المتمردين، فما هي التكاليف اللازمة للملابس والأسلحة؟ وما هي رواتبهم الشهرية مقارنة برواتب الجنود العاديين في المناطق الداخلية؟» في الواقع، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها سلالة (تشينغ) جنود شيوخ القبائل في سيتشوان لمساعدة الجيش الحكومي. وكانت نفقات المؤن والأسلحة والرواتب محددة بالفعل في السجلات السابقة، ويمكن العثور عليها بسهولة.

لم يرغب الإمبراطور (تونغ تشي) في أن يشاركوا في القضاء على (تشان دوي) فحسب، بل أراد أيضًا إرسالهم إلى (فانسو) و(شينجيانغ) للمساعدة في قمع التمرد. لذلك، سأل أيضًا: «وهل هؤلاء الجنود الذين يتم إرسالهم إلى مقاطعات أخرى يتم التعامل معهم مثل المرتزقة؟ وما هو مقدار المال الذي يجب أن يدفع لهم مقدمًا؟»

شاركت هذه القوات في أكثر من عشر معارك داخل سيتشوان، وشاركت في حملات خارج المقاطعة في التبت و(قويتشو) و(جيانغسو) و(تشيجيانغ)، وكانت هذه الأمثلة موثقة بالتفصيل في سجلات الأجيال السابقة. ولكن الإمبراطور لم يبحث في هذه السجلات، بل سأل حاكم سيتشوان الذي كان يبعد عنه آلاف الأميال. وطلب من « (لوه بينغ تشانغ) أن يتحقق من السجلات السابقة حول كيفية استدعاء جنود المستوطنات، وكيف يجب أن يتم التعامل مع الوضع الحالي، وأن يقدم تقريرًا مفصلاً»، و»أن يبلغ جميع المسؤولين على مسافة ٥٠٠ لي بهذا».

كانوا هنا لا يزالون يتناقشون حول كيفية إرسال جنود شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان لقمع (تشان دوي).

هناك، لم يطع الجنود التبتيون أمر الإمبراطور بالبقاء في مناطقهم، بل عبروا نهر (جين شا) شرقاً في وقت مبكر. لم يحتل المحور الغربي (با تانغ) فحسب، بل توغل المحور الشمالي أيضاً في أراضي شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان، ووصلوا إلى منطقة (داووو). في شمال (تشان دوي)، تمتد المناطق من الغرب إلى الشرق: أولاً، شيخ قبيلة (ده قه)، ثم شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية مثل (كونغ سا)، و(ما شو)، و(تشووو). أقصى شرق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية هو شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لوهوه)، وبعد هذا المكان تأتي (داووو) - والتي تُكتب الآن (داوفو) - وهي تبعد بضع مئات من الكيلومترات فقط عن (دا جيان لو). رفع حاكم سيتشوان (لوه بينغ تشانغ) مذكرة إلى الإمبراطور: «الجنود التبتيون وصلوا إلى (داووو)، بالقرب من منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، ويزعمون أنهم يريدون مهاجمة معقل (تشان دوي). ليس هناك شك في أنهم يستغلون الوضع لطلب المال وإثارة الفوضى في المناطق الداخلية.»

أصدر الإمبراطور أمرًا آخر، يؤكد فيه على الأمر السابق، بضرورة انسحاب الجيش التبتي إلى التبت. وذلك لأن حاكم سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، قد أبلغ بأن « (تشان دوي) قد أبرمت اتفاقية سلام مع شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، ولم تعد تهاجم». وعلى الرغم من أن هذا كان صحيحًا من جانب، إلا أن (لوه بينغ تشانغ) أخفى حقيقة أخرى، وهي أن (قونغ بو لانغ جيا) اضطر لوقف القتال مع شيخ قبيلة (مينغ تشنغ). وذلك لأن قواته كانت تخوض معارك شرسة على الجهتين الشمالية والغربية ضد أكثر من عشرة آلاف جندي (تبتي)، ولم يكن لديه القوة الكافية للالتفات إلى الشرق. في الماضي، عندما كنت أتعمق قليلاً في هذا الجزء من التاريخ، كانت الكتابات سطحية، وتتحدث عن حملة مشتركة بين سيتشوان والتبت للقضاء على (تشان دوي). ولكن الآن، بعد التعمق في التفاصيل، أرى الحقيقة الكاملة للوضع في ذلك الوقت. فالتاريخ السطحي دائمًا ما يبسط الأمور المعقدة، مما يؤدي إلى تفكير وقرارات ساذجة لاحقًا.

في وقت لاحق، أوضح الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (جينغ ون)، الذي كان ممنوعاً من الوصول إلى منصبه في سيتشوان لأكثر من عام، الحقيقة في تقريره: «شيخ قبيلة (تشان) (قونغ بو لانغ جيا) يحتل أراضي شيوخ القبائل، ويثير الفوضى على طريق سيتشوان والتبت، وقد أصبح مشكلة حدودية منذ فترة طويلة. الآن، تمكنت القبائل المتضررة من الاتفاق مع الجيش التبتي لاستعادة أراضي شيوخ القبائل، ومحاصرة معقل شيخ قبيلة (تشان). إنهم يحققون نجاحاً في القضاء عليه، وسيكون من الصعب جداً أن نأمرهم بالانسحاب.»

تلقى الإمبراطور هذا التقرير في شهر يوليو من السنة الرابعة من حكم الإمبراطور (تونغ تشي). وفي ذلك الوقت، كان قد مر أكثر من عام على إرسال الجيش التبتي إلى (تشان دوي).

لذلك، أصدر الإمبراطور أمرًا آخر للاستفسار: « (لوه بينغ تشانغ) قدم تقريراً سابقاً يفيد بأن (تشان دوي) قد أبرمت اتفاقية سلام مع شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، بينما (جينغ ون) يذكر أن الجيش التبتي يحقق نجاحاً في القضاء على متمردي (تشان)، وأنه سيتم القضاء عليهم قريباً. هناك تناقض في التقارير.» لذلك، أراد الإمبراطور أن يعرف الحقيقة: «هل (تشان دوي) لا تزال تقاتل الآن؟»

في الواقع، كان الجيش التبتي على وشك احتلال (تشان دوي) في ذلك الوقت.

.indd 200-201 2025-11-27 10:56:03

الجيش التبتي يسحق بطل (تشان دوي) (قونغ بو لانغ جيا)

تُعدّ هذه حادثة غريبة حقاً.

على عكس الجيوش التبتية السابقة في عهد مملكة (توبو)، لم يكن للجيش التبتي التابع لحكومة (كاشاغ) التي تجمع بين الدين والدولة، أي قوة قتالية حقيقية، ولا رغبة قوية في القتال. فخلال عهد سلالة (تشينغ)، لم يتمكن الجيش التبتي من مقاومة الغزوات الرئيسية التي حدثت في التبت، مثل غزو منغوليا (زونغار) لشمال التبت وصولاً إلى لاسا، وغزوات (غورخا) النيبالية لجنوب التبت، ونهب المعابد المهمة مثل معبد (تاشيلونبو). وفي كل مرة، كان يجب على سلالة (تشينغ) أن ترسل جنودها، وجنود شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان، لتقديم الدعم لالتبت، لإبعاد الغزاة. بالإضافة إلى ذلك، كانت التبت أرضاً فقيرة، وكان الدخل المحدود يُستخدم بشكل أساسي للحفاظ على الحكومة المحلية، وإعالة العدد الكبير من الرهبان والمعابد. كان الحفاظ على قوة عسكرية محدودة يمثل عبئاً مالياً كبيراً، وكانت تدريباتهم ومعداتهم بدائية وردية. وكانت أي مشاركة في حرب تتطلب إنفاق مبالغ ضخمة من المال. لذلك، عندما كانت تحدث أي مشكلة في التبت، لم يكن الجيش يقاتل بحماس، بل كان ينتظر وصول الدعم من الحكومة المركزية.

أظهرت التبت في حملة (تشان دوي) هذه المرة نشاطًا غير معتاد. يكمن السبب الجذري في أن سلالة (تشينغ) كانت في ذلك الوقت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية، مما جعل الحكومة التبتية، سواء قادتها الدينيين أو نبلائها العلمانيين، تدرك هذا الوضع جيدًا وتصبح أكثر استقلالاً عن أوامر الحكومة المركزية. بعد أن تكبدت سلالة (تشينغ) خسائر فادحة في حروبها الخارجية، ثم في حروبها الداخلية مثل تمرد (تايبينغ) وثورة مسلمي (قانسو)، أصبحت قواها ضعيفة وخزينتها فارغة، ولم تعد قادرة على شن حملة عسكرية خامسة على (تشان دوي). لذلك، اضطرت إلى الاعتماد على الجيش التبتي كقوة رئيسية، وحشدت شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان لمحاصرة (تشان دوي). ولكن بمجرد بدء الحرب، لم يطع الجيش التبتي الأوامر، مما دفع الإمبراطور (تونغ تشي) لتغيير رأيه، وطلب من الجيش التبتي الانسحاب إلى التبت. ثم وضع الإمبراطور آماله على جنود شيوخ القبائل في (مينغ تشنغ)، و(جين تشوان) الكبرى والصغرى، و(تسا قو)، و(وا سي)، الذين كانوا مشهورين بمهاراتهم القتالية. ولكن في ذلك الوقت، كان حاكم سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، متردداً بين القمع والتفاوض. ونتيجة لذلك، من بين المحاور الأربعة للهجوم، لم يكن هناك نشاط قتالي إلا من قبل الجيش التبتي على المحورين الشمالي والغربي. أما الجنود التابعون لسيتشوان على المحورين الجنوبي والشرقي، فقد توقفوا عن التقدم، ودخلوا في حالة من الهدوء الغريب.

لقد أظهر الجيش التبتي هذه المرة نشاطًا غير معتاد، مما يكشف عن طموح خفي للحكومة المحلية في التبت، لاستغلال ضعف سلالة (تشينغ) وتوسيع نفوذها في المناطق التبتية.

في منطقة (شين لونغ) اليوم، هناك رواية شعبية خاصة تفسر سبب هجوم الجيش التبتي النشط على (تشان دوي).

لم يكن (قونغ بو لانغ جيا) شخصًا متديناً تجاه (بوذا)، أو (دارما)، أو الرهبان. تقول الأساطير الشعبية إنه أرسل رسالة إلى حكومة (كاشاغ)، مهدداً بنقل تمثال (ساكياموني) الذي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، والموجود في معبد (جوخانغ) في لاسا، إلى (تشان دوي). هذا التمثال أحضرته الأميرة (ون تشنغ) من (تشانغ آن) في عهد سلالة (تانغ) عندما تزوجت من ملك (توبو). ويعتقد المؤمنون في المنطقة التبتية أن هذا التمثال صنعه (ساكياموني) بنفسه عندما كان على قيد الحياة.

بطبيعة الحال، اعتبرت حكومة (كاشاغ)، التي يرأسها (دالاي لاما)، أن تصريح (قونغ بو لانغ جيا) هذا هو إهانة متعجرفة لكرامة الدين، ولذلك كان عليها أن تشن حرباً للدفاع عن كرامة الدين.

ولكن الأساطير الشعبية لا تذكر حقيقة أن الجيش التبتي كان تحت إشراف مسؤولين من سلالة (تشينغ).

بل تقول الأسطورة إن حكومة (كاشاغ) قامت أولاً بالكهانة والتنبؤ، لمعرفة ما إذا كانت الآلهة توافق على مهاجمة (تشان دوي).

وتقول الأساطير أيضاً إنهم صنعوا تمثالاً لـ(قونغ بو لانغ جيا)، ووضعوه في أحد المعابد في مدينة لاسا، وجمعوا العديد من اللاما المهرة في المانترا، وقاموا بصب اللعنات عليه. وتحت تأثير اللعنات المكثفة، سقط التمثال الواقف فجأة، واعتبر ذلك نذيراً بهزيمة حتمية لـ(قونغ بو لانغ جيا).

[redacted].indd 202-203 2025-11-27 10:56:03

يؤمن سكان (شين لونغ) اليوم بأن هذه القصة قد حدثت بالفعل.

يقولون بثقة إن سكان (شين لونغ) الذين ذهبوا إلى لاسا للحج أو التجارة في السنوات الأخيرة، رأوا تمثال (قونغ بو لانغ جيا) في أحد معابد لاسا. ويؤكدون أن هذا التمثال لا يزال مقيداً بسلاسل حديدية حتى اليوم.

لقد سألت أكثر من عشرة أشخاص عن المعبد الذي يوجد فيه هذا التمثال، ولكن لم يستطع أحد منهم الإجابة. قالوا إن الأشخاص الذين عادوا لم يذكروا اسم المعبد بالتحديد، ولكنهم أكدوا أنه موجود في أحد معابد لاسا.

يقولون بابتسامة: ربما لا يزال سكان التبت خائفين حتى اليوم من أن فتح السلاسل سيؤدي إلى هجوم قوات (تشان دوي) على لاسا.

ويذكر النص التبتي «تاريخ (تشان دوي) و(نيانغ رونغ)» ما يلي:

«بما أن (قونغ بو لانغ جيا) قد احتل العديد من الأماكن في منطقة (كانغ)، وبسبب التهديدات المتكررة من (ليه وو ما)، قامت حكومة (غا دن) في التبت بالكهانة والتنبؤ. وأمرت المعابد الثلاثة الكبرى: (غا دن) و(سيه لا) و(تسه بانغ)، بالصلاة وصب اللعنات، وقد أظهرت كل التنبؤات نتائج إيجابية في إخضاع (تشان دوي). لذلك، في السنة التبتية لسنة الديك الخشبي، تم إرسال القوات إلى (ده قه) و(جيا جيه) (التي هي الآن (باي يو)).»

كانت السنة التبتية لسنة الفأر الخشبي هي السنة الثالثة من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، أي عام 1864 ميلادي.

ويذكر المؤرخ المحلي (شي راو أوره) في كتابه «تاريخ صعود وسقوط (قونغ بو لانغ جيا) في (شين لونغ)» ما يلي:

«قام شيوخ القبائل ورؤساء القبائل الذين تعرضوا للغزو والتهديد من قبل (قونغ بو لانغ جيا) وهربوا إلى التبت، بإثارة الوضع، وطلبوا من حكومة (كاشاغ) إرسال قوات. كما عرضت حكومة (تشينغ) على حكومة (كاشاغ) إرسال قوات مشتركة. وبعد المناقشة والكهانة، قررت حكومة (كاشاغ) ما يلي: من ناحية، يقوم الرهبان من الأديرة الثلاثة الكبرى بالصلاة وصب اللعنات على (قونغ بو لانغ جيا)؛ ومن ناحية أخرى، يتم حشد قوات إضافية من غرب التبت، وجمع جيش كبير؛ كما يتم اختيار مرشدين من بين رؤساء القبائل الهاربين من منطقة (كانغ)، والبدء في الحملة في يوم مبارك.»

وصل جيش حكومة (كاشاغ) إلى ضفة نهر (جين شا) في عام 1864. وعندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) الوضع، قام بسرعة بجمع قواته، وبناء التحصينات، وتعزيز الدفاعات. وفي الوقت نفسه، قام بنقل الأشخاص الأثرياء والمؤثرين في مناطق شيخ قبيلة (ده قه) وشيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، بالإضافة إلى الأشخاص الذين أظهروا استياءً من (قونغ بو لانغ جيا)، إلى أماكن أخرى ووضعهم في السجون لمنعهم من مساعدة الجيش التبتي وإحداث الفوضى. ولكن بمجرد أن بدأ الجيش التبتي هجومه، هُزمت قوات (تشان دوي) في معركتي (جيانغ دا) و(باي يو). كان السبب الرئيسي لذلك هو أن الجيش التبتي كان على دراية بالتضاريس وكان لديه مرشدون محليون، بالإضافة إلى أن السكان المحليين، بسبب معتقداتهم الدينية، اعتقدوا أن الجيش التبتي هو «جيش إلهي» أرسله « (بوذا)»، ولذلك لم يجرؤوا على المقاومة. ولكن السبب الأهم هو أن قوات (تشان دوي) كانت تضطهد السكان المحليين، مما تسبب في استيائهم من (قونغ بو لانغ جيا). لذلك، بمجرد وصول الجيش التبتي، قام بعض السكان بمساعدتهم سراً، بينما قام آخرون بتقديم الدعم علناً.

في ذلك الوقت، هزمت خيانة شخص واحد خط دفاع (ده قه).

هذا الشخص هو شيخ قبيلة (يو لونغ) الذي تم ذكره سابقًا، والذي كان تابعًا لشيخ قبيلة (ده قه). عندما حاصرت قوات (تشان دوي) (ده قه)، كان (يو لونغ) أول من استسلم. في ذلك الوقت، كان يخدم القائد (ليه وو ما) الذي أرسله (قونغ بو لانغ جيا) إلى (ده قه)، ولكنه كان يخطط باستمرار لإشعال الفتنة بين (تشان دوي) والتبت. في هذا الوقت، رأى شيخ قبيلة (يو لونغ)، الذي كان تابعًا لشيخ قبيلة (ده قه) السابق، أن الجيش التبتي يهاجم (ده قه)، فقام بالخيانة مرة أخرى، وقاد قواته لشن هجوم مفاجئ من الخلف على حراس (تشان دوي)، مما أضعف خط دفاعهم.

تراجع قائد قوات (تشان دوي) في (ده قه)، (ليه وو ما)، وطلب المساعدة من (قونغ بو لانغ جيا).

أرسل (قونغ بو لانغ جيا) على الفور قائده الشجاع الآخر، (بو شيونغ جان دوي)، مع ثلاثمائة فارس لتقديم الدعم. كان (بو شيونغ جان دوي) يتبع (قونغ بو لانغ جيا) لسنوات عديدة، وكان لديه خبرة واسعة في القتال. وفي طريقه لإنقاذ (ده قه)، اكتشف أن قائد الجيش التبتي، (تشي مان)، كان متمركزًا في منطقة (وانغ بوو دوي) القريبة من (ده قه). فتقدم بقواته نحو (شي تشو)، وأطلق الدخان لإخفاء خطته، قائلاً إنه ذاهب لحماية أقاربه، شيخ قبيلة (لينغ تسونغ). ولكن هدفه الحقيقي كان استخدام تكتيك الالتفاف، ومهاجمة الجيش التبتي من الشمال بالتعاون مع قوات (ليه وو ما) التي كانت تدافع عن (ده قه)، ومحاصرتهم والقضاء عليهم. ولكن لم يكن يعرف الجغرافيا مثلما يعرفها في (تشان دوي)، ففقد طريقه عند عبور جبل (نا نا ما)، وفشل في الالتقاء بـ(ليه وو ما) في الموعد المحدد لمهاجمة الجيش التبتي. وعندما تم كشف أمره، كشف الجيش التبتي عن مؤامرته، وتجنب هجومه. عاد (بو شيونغ جان دوي) خالي الوفاض من (وانغ بوو دوي)، وتراجع إلى (شي تشو).

[redacted].indd 204-205 2025-11-27 10:56:03

بسبب فشل خطته، لم يراجع (بو شيونغ جان دوي) أخطاءه، بل غضب من القوات المحلية التي كانت تدافع عن نهر (جين شا). واتهمهم بضعف المقاومة، واحتجز قادتهم وأرسلهم إلى منطقة (قان تسي) للاحتجاز. هذه القوات المحلية كانت قد استسلمت لـ(قونغ بو لانغ جيا) بسبب قوته، ولكنهم استاؤوا من تصرفات (بو شيونغ جان دوي). والآن، بدلاً من التفكير في كيفية الدفاع عن أنفسهم ضد الجيش التبتي، أصبحوا يأملون في وصوله في أقرب وقت.

لطالما كان لدى منطقة (تشان دوي) تقليد «السرقة» من المناطق الأربع المحيطة بها، مما أدى إلى نشوء شعب قوي. كان (قونغ بو لانغ جيا) يدرك هذا الأمر جيدًا. ففي (تشان دوي) فقط، كان يفرض قيودًا صارمة على جنوده لمنعهم من إزعاج السكان المحليين أو نهبهم. ولكن بمجرد خروجهم من (تشان دوي)، كان يسمح لهم بالنهب على نطاق واسع، وينص بوضوح على أن جميع المسروقات تعود إلى الأفراد، دون الحاجة إلى تسليمها للحكومة. كان هذا أحد الأسباب المهمة لحماس وشجاعة قوات (تشان دوي) في القتال. وفي هذه المرة، عاد فرسان (بو شيونغ جان دوي) إلى سهول (شي تشو) في شمال (ده قه)، وقاموا بالنهب على نطاق واسع مرة أخرى. ولم تسلم حتى المعابد الشهيرة مثل معبد (سه شو) ومعبد (شا شي). أصبحت شكاوى السكان المحليين واضحة، وأظهروا عدم دعمهم لقوات (تشان دوي) عندما واجهوا هجوم الجيش التبتي. لم يدرك (بو شيونغ جان دوي) ذلك. وعندما عادوا جنوبًا مرة أخرى، كان هو وفرسانه مبتهجين، ومحملين بالغنائم.

عاد (بو شيونغ جان دوي) بقواته إلى شرق (ده قه)، وعبر جبل (تشوه إر) للانضمام إلى (ليه وو ما). في ذلك الوقت، كان الجيش التبتي قد احتل جبل (ده قه) الجنوبي، وكان على وشك الوصول إلى (ده قه). فشن (بو شيونغ جان دوي) هجومًا من جبل (ده قه) الشمالي، واندلعت معركة عنيفة مع الجيش التبتي. ولكن (بو شيونغ جان دوي) لم يستطع المقاومة، وتراجعت قواته. حاول أن يتمركز في وسط (ده قه)، في منطقة (قنغ تشينغ) التي كان يدافع عنها (ليه وو ما). ولكن (ليه وو ما)، الذي كان أيضًا من قوات (تشان دوي)، منعه من دخول الحصن. ولم يكن أمام (بو شيونغ جان دوي) أي خيار.

في اليوم التالي، استغل (بو شيونغ جان دوي) التضاريس المرتفعة، وشن هجومًا آخر على الجيش التبتي، وتمكن أخيرًا من صدهم، ورفع التهديد مؤقتًا عن وسط (ده قه).

احتفظ (ليه وو ما) بـ(قنغ تشينغ)، ولكنه لم يسمح لجنود (بو شيونغ جان دوي) الذين جاءوا للمساعدة بالدخول، مما أدى إلى انقسام بين الطرفين وعدم مساعدة أحدهما للآخر. تصرف (ليه وو ما) هذا تجاه (بو شيونغ جان دوي)، الذي قطع مسافة طويلة لتقديم المساعدة، كان غريباً حقًا. لقد حاولت جاهداً أن أجد إجابة لهذا، ولكن الأساطير الشعبية تركز على القصص البطولية لـ(قونغ بو لانغ جيا) نفسه، ولا تهتم بتفاصيل المعارك. أما الوثائق التي جمعتها، فجميعها متشابهة، ولم تشرح سبب تصرف (ليه وو ما) هذا. الحقيقة الغريبة حدثت، ولكن السبب لا يزال غامضاً، ولا يمكنني أن أقدم افتراضات.

المشكلة هي أنه بعد انسحاب الجيش التبتي، واجه (ليه وو ما) نفسه مأزقاً كبيراً. فبينما كان (بو شيونغ جان دوي) يصد الجيش التبتي، قام أيضاً بتقسيم قوات (ليه وو ما) إلى قسمين، مما جعلهم غير قادرين على مساعدة بعضهم البعض. وفي ظل ضغط الجيش التبتي، ثارت القوات المحلية في (ده قه)، التي كانت قد استسلمت سابقاً، وبدأت تهاجم قوات (ليه وو ما) بشكل متكرر، مما جعل قوات (ليه وو ما) منهكة، وغير قادرة على الراحة ليلاً أو نهاراً.

في ظل هذه الظروف، استمر (ليه وو ما) في تصرفاته المتهورة. عندما اضطر إلى الانسحاب، قام بإحراق القرى التي تخلى عنها. كما كان قاسياً جداً مع الأسرى من الجيش التبتي. تذكر السجلات المحلية:

«تم أسر العديد من الجنود التبتيين، وبعضهم أُلقي في النهر ليُعدموا، والبعض الآخر تم احتجازهم وتعذيبهم. تم ثقب أيدي كل ثمانية عشر أسيرًا، وربطهم بحبل صوفي، ووضعهم في مجموعة واحدة. وبعد تجريدهم من ملابسهم، تم احتجازهم في غرفة فارغة ليلة كاملة، ولم ينجُ منهم سوى واحد أو اثنين، بينما مات الباقون جميعًا.»

حتى خيول الجيش التبتي لم تسلم: «وضعوا خيول الجيش التبتي في غرفة فارغة، ولم يسمحوا لها بالخروج. ماتت هذه الخيول كلها من الجوع والعطش بعد أن أكلت الأعمدة الترابية والقمامة. وقاموا بقصف المنازل في القلعة بالمدافع، مما حولها إلى أرض محروقة، وقتل العديد من الأشخاص والخيول. وكانت حول المعبد جثث للناس والخيول، ورائحة الفساد كانت لا تُحتمل.»

تصرفات (ليه وو ما) لم تفعل شيئاً سوى إثارة المزيد من الكراهية والمقاومة، ولم تحسن وضعه في الحرب. وبعد فترة وجيزة، قام الجيش التبتي مرة أخرى بمحاصرة (قنغ تشينغ)، حيث كان متمركزاً. وحاول (ليه وو ما) الهروب عدة مرات، ولكنه لم ينجح.

كانت قوات الإمداد القادمة من (تشان دوي) بقيادة (بو شيونغ جان دوي) على مقربة، ولكنه لم يتدخل للمساعدة في المعركة.

لم يكن ذلك بسبب حقده على (ليه وو ما)، بل لسبب آخر.

فقد مرض (بو شيونغ جان دوي)، وأصبح طريح الفراش.

وفقاً للتقاليد في ذلك الوقت، لم يكن الناس يبحثون عن طبيب، بل عن (لاما) للتنبؤ بالمستقبل. فقال اللاما: «لقد مرضت بسبب غضبك على الجنود الإلهيين القادمين من لاسا. وقد تحققت اللعنات التي أطلقتها المعابد الثلاثة الكبرى في التبت. والحل الوحيد لإنقاذ نفسك هو الاعتراف بخطئك للجنود الإلهيين.» شك (بو شيونغ جان دوي) في كلام اللاما، ولكنه قرر عدم التحرك. وبينما كان يراقب، تحسنت حالته الصحية، واستعاد عافيته تدريجياً. عندها، اعتقد (بو شيونغ جان دوي) أن ما قاله اللاما صحيح، وقرر عدم القتال ضد الجيش التبتي مرة أخرى. والأكثر من ذلك، أنه تواصل سراً مع شيخ قبيلة (يو لونغ)، الذي كان قد انضم سابقاً إلى (تشان دوي) ثم انشق إلى الجيش التبتي، وأقسم أنه لن يقاتل الجيش التبتي مرة أخرى. وبطبيعة الحال، وافقوا على طلبه، ووعدوه بأن حكومة (كاشاغ) ستمنحه منصباً عسكرياً بعد انتهاء الحرب.

وهكذا، جاء الوقت الذي فقد فيه (قونغ بو لانغ جيا) (ده قه)، التي كان قد احتلها لبضع سنوات فقط.

تراجع (ليه وو ما) في (ده قه)، وأرسل رسالة إلى (قونغ بو لانغ جيا) يطلب فيها الإذن بالعودة إلى (تشان دوي).

وعندما رأى (قونغ بو لانغ جيا) هذا الوضع، وافق على طلبه. وأمر (ليه وو ما) بإحراق المقر، والقرى، والمعابد، ومطبعة (ده قه) الشهيرة في المنطقة التبتية، قبل أن ينسحب.

أما ابن (قونغ بو لانغ جيا)، (سونغ دا قونغ بو)، فلم يكن يحتقر البوذية مثل والده. وعندما علم بأمر والده، أرسل رسالة فورية إلى (ليه وو ما) الذي كان على وشك الانسحاب من (ده قه)، وكتب فيها بلهجة صارمة: «لا يُسمح لك بحرق معبد (قنغ تشينغ) ومطبعة (ده قه). وإذا فعلت ذلك، فلن يكون هناك أي علاقة بيننا، ولن أسامحك أبداً!»

ولذلك، لم يقم (ليه وو ما) بإحراق مطبعة (ده قه) عندما انسحب.

لذلك، لدينا سبب لنشكر (سونغ دا قونغ بو). فبعد أكثر من مائة عام، أصبحت (قنغ تشينغ) مدينة مزدهرة على الحدود بين سيتشوان والتبت، وهي الآن مقر مقاطعة (ده قه). وبجانب المدينة، لا تزال مطبعة الكتب الدينية التبتية قائمة بهدوء. في أول صباح لي في بلدة (قنغ تشينغ)، ذهبت لاستكشافها. بعد خروجي من الشارع الرئيسي للمدينة، سمعت صوت نهر بين أشجار الحور القديمة وأشجار الصفصاف العالية. وعلى شرفة على سفح الجبل، كان هناك مبنى المطبعة المربع الشكل. كان السكان المحليون يدورون حول الجدران القرمزية العالية للمطبعة، ويصلون. بعد الإفطار، ذهبت مرة أخرى لزيارتها مع صديق محلي. وفي وسط المبنى المربع، كان هناك فناء مربع، وكانت أبواب ونوافذ الغرف العميقة والهادئة تفتح على هذا الفناء. وعلى عكس المباني الدينية التبتية، التي تملؤها رائحة السمن القديم والبخور التبتي القوي، كانت هذه المطبعة القديمة تفوح منها رائحة الحبر والورق. وعندما تفتح الغرف، ترى الصفائح الخشبية التبتية المحفورة يدويًا مصطفة بدقة على الرفوف. تحتوي هذه الصفائح على نصوص كاملة من الكتب البوذية التبتية، ومخطوطات كلاسيكية شهيرة في تاريخ الثقافة التبتية. لذلك، يطلق الناس على هذا المكان اسم «كنز الثقافة التبتية». في الرواق المطل على الفناء، كان الحرفيون يطحنون الحبر الجديد، ويطبعونه على الصفائح الخشبية القديمة، ويضعون عليها أوراقًا جديدة، ويضغطون عليها. وبعد إزالة الورق، تتحول تلك الحكمة القديمة إلى كلمات، تظهر بوضوح على الورق. بعد تجفيف هذه الأوراق، وتجليدها، تخرج من هذا الكنز، وتنتشر في جميع أنحاء المناطق التبتية.

في سقف المطبعة، كانت الشمس مشرقة. وذكرت اسمًا لصديقي المحلي: (قونغ بو لانغ جيا). على عكس (شين لونغ)، حيث كان هذا الاسم معروفًا للجميع، في (ده قه)، كان الناس يرمشون بأعينهم، وينظرون إلى بعضهم البعض، ويبتسمون اعتذارًا لي لأنهم لا يعرفون هذا الاسم.

وعندما ذكرت (سونغ دا قونغ بو)، لم يكونوا يعرفونه على الإطلاق.

فقط ابتسمنا لبعضنا البعض تحت أشعة الشمس.

أشار صديقي المحلي إلى بعض الكهوف المخفية على المنحدر المقابل. لأكثر من ألف عام، كانت تلك الكهوف أماكن للرهبان المنعزلين للتأمل.

تحت المطبعة، كان النهر يتدفق باستمرار بين جبلين، ويتجه غربًا لبضعة عشرات من الكيلومترات، ثم يصب في نهر (جين شا)، ثم يتدفق بقوة نحو الجنوب الشرقي، ويصب في البحر.

تقول الأساطير الشعبية أيضًا إن (ليه وو ما)، بعد أن تلقى رسالة (سونغ دا قونغ بو)، أصر على حرق المطبعة. وقال إنه يريد أن يرى ألسنة اللهب المشتعلة من المطبعة عندما ينسحب.

.indd 208-209 2025-11-27 10:56:03

لكن رجاله لم يجرؤوا على إحراق المطبعة، بل أشعلوا النار في بعض المنازل المجاورة، واستخدموا الدخان كخدعة لخداع (ليه وو ما).

عندما غادر (قنغ تشينغ)، كان (ليه وو ما) على ظهر حصانه يلتفت باستمرار إلى الخلف. وعندما رأى بالفعل سحب الدخان تتصاعد من اتجاه المطبعة، لوّح بسوطه واتجه شرقاً.

وتقول الأسطورة أيضاً إن (ليه وو ما)، بينما كان يقود قواته شرقاً عبر جبل (تشوه إر) الذي يحمي (ده قه)، تعرض لهجمات متكررة من القوات المحلية بقيادة شيخ قبيلة (يولونغ)، مما تسبب في خسائر فادحة في قواته.

«في طريق الانسحاب، لم يكن لديهم خيول، فكانوا يمشون على الأقدام. كانوا يستخدمون بنادقهم وسيوفهم كعصي، وكانوا في حالة يرثى لها مثل المتسولين. وفي شهر يناير من السنة التبتية لسنة الثور الخشبي، عادوا إلى (تشان دوي)».

بعد انسحاب (ليه وو ما)، انسحب (بو شيونغ جان دوي) أيضاً.

وعلى الفور، احتل الجيش التبتي (ده قه) دون قتال.

"الجندي الخارق" الذي لا يُقهر

بعد أن انتشرت أخبار فقدان (قونغ بو لانغ جيا) لمنطقة (ده قه)، بدأت الفوضى على الفور في مناطق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية التي احتلها.

يذكر النص التبتي «تاريخ (تشان دوي) و(نيانغ رونغ)» ما يلي:

«بعد هزيمة الجبهة الأمامية، انتشرت الفوضى في الخلف بسرعة.»

«قام الأشخاص الذين كانوا مسجونين من قبل (قونغ بو لانغ جيا) في مناطق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية بتنظيم عمليات هروب جماعية من السجن. ومن بين هؤلاء، تمكن المساجين في منطقة (قان تسي) (رونغ با تشا) من الهروب، ولكن تم اكتشافهم من قبل زعيم القرية (تشا شي دنغ تشو)، مما أدى إلى مقتلهم جميعًا، أو إلقائهم في النهر حتى الموت. أثارت هذه الحادثة غضب المساجين والسكان، الذين قاموا بالتمرد. وتم تقطيع جثة زعيم القرية (تشا شي دنغ تشو) من قبل الحشود الغاضبة انتقامًا منه.»

«بسبب اضطهاد زعيم القرية (تشا شي دنغ تشو) لمعبد (دا جين) والقرى المجاورة عدة مرات في الماضي، قام رهبان معبد (دا جين) بالقبض على (تشا شي دنغ تشو) وابنه. وبعد أن قطعت الحشود الغاضبة جثتهما، استخدموهما كأهداف لإطلاق النار للانتقام. وتم طرد جميع حراس (تشان دوي) وسكانها الذين كانوا يعيشون في المنطقة.»

كما كان الأشخاص المسجونون في منطقة (تشان دوي) ينظمون عمليات هروب.

«في الماضي، كان هناك مائة وخمسون جندياً من منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لوهوه) متوجهين إلى (ده قه)، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) سرق أسلحتهم، واحتجزهم كرهائن في معبد (نبي غو). بعد بضعة أشهر، حاول نصف الرهائن الهرب، ولكن تم كشف أمرهم. قُتل أربعة منهم، وتمت ملاحقة الهاربين، والقبض على أكثر من ثلاثين شخصاً، وقُطعت أرجلهم، وقُتل أربعة منهم، وعُلقت رؤوسهم على الجسر. وتم إطلاق سراح من لم يهربوا إلى قراهم.»

بعد عودة (ليه وو ما) و(بو شيونغ جان دوي) إلى (تشان دوي)، شن الجيش التبتي هجوماً على المحور الشمالي باتجاه منطقة (قان تسي)، أي مناطق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية. وفي الوقت نفسه، تعرضت منطقة (لي تانغ) في جنوب (تشان دوي) لهجوم من جيش (تبتي) آخر. وفي مواجهة هذا الوضع الصعب، جمع (قونغ بو لانغ جيا) كبار قادته لمناقشة استراتيجية الهجوم. من بينهم اثنان، (ليه وو ما) و(بو شيونغ جان دوي)، نعرفهما جيدًا. والآخران هما (يو بوو تسه دينغ)، قائد (لي تانغ)، و(تسه رن لاما)، الذي أصبح قائدًا رئيسيًا لدى (قونغ بو لانغ جيا).

في مواجهة الهجوم الشرس للجيش التبتي، انقسم القادة الأربعة لـ(قونغ بو لانغ جيا) إلى مجموعتين: واحدة تدعم الحرب، والأخرى تدعم السلام. كان (ليه وو ما) و(يو بوو تسه دينغ) يؤيدان الحرب، بينما كان (بو شيونغ جان دوي) و(تسه رن لاما) يؤيدان السلام.

«جمع (قونغ بو لانغ جيا) كبار قادته، مثل (بو شيونغ جان دوي) و(ليه وو ما)، في (نيانغ رونغ شوبه تانغ) لمناقشة استراتيجية الهجوم.»

«اقترح (بو شيونغ جان دوي): ‹يمكنك التخلي مؤقتًا عن مناطق شيوخ القبائل الخمسة في (تشانغ قو) في (لو هوه)، والأفضل أن تفكر في خطة شاملة لحماية (تشان دوي)، فتشتيت قواتنا ليس في صالحنا، وسيجعلنا نفشل.›»

«عندما سمع (ليه وو ما) ذلك، ضحك بصوت عالٍ وقال: ‹إذا أعطاني (آ قونغ) (قونغ بو لانغ جيا) المزيد من الجنود، فإن الجيش التبتي لا شيء بالنسبة لي، وسأهزمهم›. ثم قال بغطرسة: ‹إذا لم أتمكن من استعادة الأراضي حتى (دا كه)، فسأتحمل كل خطاياك في القتل يا (آ قونغ).›»

«أعجب (قونغ بو لانغ جيا) بشجاعة (ليه وو ما)، وقال: ‹أنت محارب شجاع، وما تقوله منطقي جدًا›. وقام على الفور بمكافأته بالملابس والفراء، وبعد أن زوده بالجنود، أرسله إلى (قان تسي). وفي الوقت نفسه، قال (قونغ بو لانغ جيا) لـ(بو شيونغ جان دوي): ‹أيها النجار، أيها الجبان، أيها الخائف، هل هربت روحك؟› ثم بصق في وجه (بو شيونغ جان دوي)، وأعطاه كيساً من الشاي، وطرده إلى (ماي كه).»

من خلال الأساطير المختلفة، يبدو أن (ليه وو ما)، الذي كان (قونغ بو لانغ جيا) يثق به كثيرًا، كان شجاعًا ولكن ليس لديه حكمة. فقد هُزم بالفعل أمام الجيش التبتي في (ده قه)، ولكنه لا يزال يستهين بالعدو، ويقول: «جنود (جين باو تشونغ) التبت جبناء ويخافون الموت، وجنود (ده قه) يأكلون الدرنات، وجنود شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية يأكلون طحين البازلاء. لا أحد منهم يستطيع القتال. يجب ألا نشعر بأي خوف عند قتال هؤلاء الناس».

«الدرنات» هي نوع من الخضروات التي تزرع على نطاق واسع في مناطق شيوخ القبائل في سيتشوان، وتؤكل جذورها وسيقانها وأوراقها. و«تسانغ با» هو أحد الأطعمة الرئيسية للشعب التبتي، وهو في الأساس طحين مقلي، ومادته الأساسية هي الشعير. أما البازلاء فهي مادة رديئة. هذه الطريقة في الحديث هي جزء من البلاغة التبتية، للسخرية من الأعداء بأن طعامهم سيئ، مما يدل على أنهم أدنى مستوى. أما « (جين باو تشونغ)» (الخنفساء الذهبية)، فهي حشرة تعيش على روث الأبقار، وتشير إلى الجيش التبتي الذي يرتدي الزي الأصفر.

نتيجة لذلك، تم تجريد (بو شيونغ جان دوي) من منصبه، ونُفي إلى منطقة (ماي كه). كان هذا التصرف من (قونغ بو لانغ جيا) خاطئًا للغاية، فبما أنه لم يعد يثق بـ(بو شيونغ جان دوي)، لم يكن ينبغي أن يجرده من منصبه، ثم يرسله إلى منطقة (ماي كه). هذه المنطقة تقع على الحدود مع شيخ قبيلة (تشانغ قو) في (لو هوه)، أحد شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، وهي منطقة مرتفعة في شمال شرق (تشان دوي)، وتتمتع بموقع استراتيجي هام.

كافأ (قونغ بو لانغ جيا) (ليه وو ما) بسخاء، وزوده بجيش إضافي، وأمره بالتوجه شمالًا إلى (قان تسي)، والدفاع عن مناطق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية ، واستغلال الفرصة لاستعادة (ده قه).

كما عاد (يو بوو تسه دينغ)، الذي كان يؤيد الحرب أيضًا، إلى جهة (لي تانغ).

ولكن للأسف، قبل أن تتحرك قوات (ليه وو ما)، كان الجيش التبتي قد وصل بالفعل إلى (قان تسي).

وتذكر السجلات المحلية: «السكان المحليون استقبلوا الجيش التبتي بالبخور، كما لو كانوا يستقبلون (البوذاس). حاول (ليه وو ما) شن هجوم مضاد على الجيش التبتي عدة مرات، ولكنه لم ينجح».

أما بالنسبة لـ(لي تانغ) في الجنوب:

«بعد أن احتل الجيش التبتي (ده قه)، قاموا بتقسيم قواتهم لمهاجمة (لي تانغ). أمر (قونغ بو لانغ جيا) قائده في (لي تانغ)، (يو بوو تسه دينغ)، بالمقاومة. وبعد معركة شرسة، هُزم الجيش التبتي، وانتصرت قوات (تشان دوي). وألقوا بجميع الأسرى من الجيش التبتي في نهر (ليه تشو) (نهر لي تانغ). ولكن (قونغ بو لانغ جيا) اعتقد أن (لي تانغ) منطقة مفتوحة ويصعب الدفاع عنها، ولتركيز قواته والدفاع عن (تشان دوي)، أمر بالانسحاب. وهكذا، احتل الجيش التبتي (لي تانغ) مرة أخرى».

.indd 212-213 2025-11-27 10:56:04

تمت إعادة فتح طريق سيتشوان والتبت الذي كان مغلقًا لسنوات.

في شهر أكتوبر من السنة الرابعة من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، أي عام 1865، تلقى الإمبراطور تقريراً يفيد بأن «قضية (لي تانغ) قد انتهت، وتم إعادة بناء المحطات، وتم تأجيل عودة الجيش التبتي مؤقتًا». عندها فقط تمكن الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (جينغ ون)، الذي كان عالقًا في سيتشوان لأكثر من عام، من السفر إلى منصبه في التبت.

كانت إجراءات إعادة التأهيل في (لي تانغ) كالتالي:

«إعادة جميع السكان التابعين لشيوخ القبائل إلى أعمالهم».

«أمر شيخ قبيلة (لي تانغ) واللاما (غه سانغ) باختيار زعيم آخر ليكون نائباً لشيخ القبيلة... وإرسال نائب شيخ القبيلة (لا وانغ تسه لي) الذي تحالف مع شيخ قبيلة (تشان) إلى التبت القديمة ليعمل في الأعمال الشاقة.»

أما بالنسبة للجيش التبتي الذي توغل في أراضي شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان، فقد أصدر الإمبراطور (تونغ تشي) في السابق أمرًا صارمًا بانسحابهم إلى التبت، ولكن عندما رأى أنه لا يمكنه فرض أمره، اضطر إلى تجاهل الأمر. وأصدر أمرًا قال فيه: «إذا أمرت الجنرالات الجيش التبتي بالتعاون مع شيوخ القبائل للقضاء على (تشان دوي)، فمن الطبيعي أن يتخذ الجيش التبتي ذلك ذريعة لطلب المال من المناطق الداخلية، ويجب أن نكون مستعدين لذلك». «بما أنهم وشيوخ القبائل قد اقتربوا من معقل شيخ قبيلة (تشان)، فإذا انسحبوا الآن، قد يستعيد شيخ قبيلة (تشان) قوته». كان الأمر معقدًا للغاية! لذلك، أمر حاكم سيتشوان، (لوه بينغ تشانغ)، بإرسال مسؤول «للتوجه إلى (تشان دوي) للتحقيق في الوضع، والسيطرة عليه بشكل مناسب، لمنع أي مشاكل أخرى».

على الرغم من أن حرب (تشان دوي) حدثت في أراضي شيوخ القبائل التابعين لسيتشوان، إلا أن جانب سيتشوان كان سلبيًا ويتجنب القتال. ومنذ البداية إلى النهاية، كانت الحرب ضد (تشان دوي) تتم بالكامل تقريباً من قبل الجيش التبتي. وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد، لم يكن هناك مجال لتدخل المسؤولين من سيتشوان. ولكن الإمبراطور، الذي كان في منصبه العالي، لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة للوضع في الجبهة الأمامية. وفي ظل نظام الحكم المركزي، كان من الطبيعي أن يقوم المسؤولون الأدنى بإخفاء الحقائق السلبية عن المسؤولين الأعلى، والحكومة المركزية. وإذا كان الكذب منتشرًا حتى في العصور المزدهرة، فإنه يصبح أكثر شيوعًا عندما تضعف الحكومة المركزية، حيث لا يتردد المسؤولون المحليون في الكذب. ربما لم يكن الإمبراطور يعرف التفاصيل، ولكنه كان يعلم أن التقارير «مزيفة إلى حد كبير». ولكن بما أن الدولة كانت في هذا الوضع، لم يكن لديه خيار سوى التظاهر بعدم المعرفة، وإصدار أوامر غير منطقية، وهذا ليس بالأمر الغريب.

في هذه التقارير، هناك حقيقة واحدة فقط: فقد (قونغ بو لانغ جيا) جميع أراضي شيوخ القبائل التي احتلها في الشمال والجنوب لصالح الجيش التبتي. وما بقي تحت سيطرته هو فقط (تشان دوي) ومقاطعة (تشانغ قو) التي احتلها في البداية.

وسط حالة من الخوف والذعر، كان كل ليلة تحدث مفاجأة.

عندما يبدأ زعيم محلي في الانهيار، تعود القصة إلى مسارها القديم. عدد قليل من الأوفياء لا يستطيعون تغيير الطريق، بينما الغالبية التي تبعته من أجل مصالحها، مصيرها الخيانة عند أول أزمة.

في نهاية القصة، لا تذكر أي من المصادر المكتوبة أو الشفوية أي تصرفات إيجابية للقائدين اللذين أيدا الحرب، (ليه وو ما) و(يو بوو تسه دينغ). وفي النهاية، انضم (ليه وو ما)، الذي كان الأكثر تأييدًا للحرب، إلى الجيش التبتي. كان يتخيل أنه سينقذ حياته، وربما يحصل على منصب. ولكن بسبب جرائمه داخل (تشان دوي) وخارجها، أصبح مكروهًا من الناس، وبعد استسلامه، تم قطع رأسه وعرضه على الملأ من قبل الجيش التبتي.

تقول القصة إن «هناك عدد قليل من الأشخاص فقط ظلوا مخلصين لـ(قونغ بو لانغ جيا) وقاوموا الجيش التبتي كما في السابق».

أما الأغلبية، فقد كانوا خونة.

أولهم كان (بو شيونغ جان دوي)، الذي أُقيل من منصبه بسبب تأييده للسلام.

بعد أن احتل الجيش التبتي (قان تسي)، ذهب (بو شيونغ جان دوي) سراً إلى (تشانغ قو) وتواصل مع الجيش التبتي، على أمل أن يهاجموا (تشانغ قو). علم (قونغ بو لانغ جيا) بذلك، وأرسل رجلاً يدعى (تسي دنغ لوه بو) ليأمر (بو شيونغ جان دوي) بالتحقيق مع أي شخص يمكن أن يكون خائنًا، وجمعهم في السجن، ثم العودة مع زوجته إلى (تشان دوي) لقبول منصب جديد. ولكن (بو شيونغ جان دوي) كشف خطة (قونغ بو لانغ جيا) الماكرة، وتظاهر بالولاء، وأظهر استعداده لطاعة الأوامر، وأرسل ابنه مع (تسي دنغ لوه بو) للعودة إلى (تشان دوي) أولاً. وفي الوقت نفسه، نصب كميناً في الطريق، وقتل (تسي دنغ لوه بو)، وأنقذ ابنه، ثم انضم مع مجموعة من رجاله إلى الجيش التبتي.

«القائد (آ تشو لوه كه) وحده تمسك بالدفاع عن منطقة (تشانغ قو)، ولكنه هُزم في النهاية، وتم القضاء على جيشه بالكامل».

□□□□ □□□.indd 214-215 2025-11-27 10:56:04

وهكذا، تمكن الجيش التبتي من احتلال آخر منطقة تابعة لشيخ قبيلة كان (قونغ بو لانغ جيا) يسيطر عليها.

ثم تقدم الجيش التبتي من منطقة (ماي كه)، وهدد (تشان دوي) من الأعلى.

«كانت قلوب الناس في (تشان دوي) مضطربة. انضم شيخ القبيلة الكبير (قه ران غون) إلى الجيش التبتي، وتظاهر اللاما (رن جن) بمرض تورم في ساقه، وبدأ ينشر شائعات حول نفسه بأنه شخص لا يعرف إذا كان سيموت غداً أم بعد غد.»

عندما كان (قونغ بو لانغ جيا) في ذروة قوته، لم يكن فقط الزعماء المحليون ينضمون إليه، بل كانت جميع المعابد تنضم إليه خوفًا من قوته. ولكن في هذا الوقت، بدؤوا في التخلي عنه. ومن بين هذه المعابد، هناك قصة تستحق الذكر.

في أحد الأيام، هرب اللاما (رن جن) المتظاهر بالمرض مع شريك له، وأخذا معهما بعض المال. في الطريق، التقيا بخادمة تابعة لزعيم محلي، وسألتهما إلى أين يذهبان. أجاب الاثنان: «في هذا الوضع، لا يوجد شيء نخفيه، نحن ذاهبان للاستسلام للجيش التبتي». ذهبت الخادمة وأخبرت الناس، ووصل الخبر إلى (قونغ بو لانغ جيا). وعندما سمع الخبر، غضب (قونغ بو لانغ جيا) جدًا، وقال: «هؤلاء الأشخاص، لقد أعطيتهم أفضل الطعام، وأفضل الأشياء لاستخدامها، وعندما احتجت إليهم لخدمتي، استسلموا للعدو. سأقضي على هذه المعابد والرهبان القساة.»

أرسل على الفور جنودًا لمطاردتهم، ولكن كان الأوان قد فات. كان اللاما (رن جن) قد هرب بالفعل، وتفرق الرهبان. فقام الجنود بنهب معبد (جيانغ كونغ) الذي كان (رن جن) يعيش فيه، وقتلوا راهبًا صغيرًا في المعبد.

بعد أن هرب اللاما (رن جن)، التقى بالجيش التبتي في الطريق، وقدم لهم المال، وعاد ليرشدهم سراً إلى (تشان دوي). وعندما اقترب الجيش التبتي من معبد (جيانغ كونغ)، تعرضوا لكمين من قوات (تشان دوي)، وتكبدوا خسائر فادحة. شك الجيش التبتي في أن اللاما (رن جن) لم يستسلم حقًا، وأحرقوا معبد (جيانغ كونغ)، وضربوا اللاما (رن جن) واحتجزوه. ولكن بعد التحقق من أنه استسلم حقًا، أطلقوا سراحه.

وهكذا، عندما هاجم الجيش التبتي (تشان دوي) من ثلاثة محاور، لم يكن مع (قونغ بو لانغ جيا) سوى أبنائه: (سونغ دا قونغ بو)، و(تشي مي قونغ بو)، و(دنغ دنغ قونغ بو).

كان (دونغ دنغ قونغ بو)، ابن (قونغ بو لانغ جيا) الأخر، قائداً ماهراً في جيشه، وقد قاد بنفسه المعركة جنوباً لمهاجمة شيخ قبيلة (لي تانغ). ولكن لاحقاً، شعر أن والده كان قاسياً جداً في حكم المناطق التي احتلها حديثاً، ولم يكن (قونغ بو لانغ جيا) يستمع إلى نصائحه. فقام (دونغ دنغ قونغ بو) بالعيش بمفرده في مقر آخر. وتقول السجلات المحلية إنه عندما حاصر الجيش التبتي المنطقة، ورأى والده يتخلى عنه الجميع، وتنهار سلطته بسرعة، لم يستطع إلا أن يتنهد للآخرين قائلاً: «والدي فعل الكثير من الأمور السيئة، مما جعل الجميع يتخلون عنه، حتى الشعب أصبح مع العدو.» لذلك، عندما حوصر مقره من قبل الجيش التبتي، شعر (دونغ دنغ قونغ بو) أن القتال حتى الموت لم يعد له معنى، فأرسل (لاما) إلى معسكر الجيش التبتي للتفاوض. وقال له اللاما: «يبدو أن هذا هو الطريق الوحيد الآن، ولكن ماذا لو كانت نتيجة المفاوضات ضدك؟» فأجاب: «لا تهتم بسلامتي الشخصية، يمكنني قبول أي شروط طالما أن زوجتي وأطفالي والناس آمنون.»

يذكر «سجلات (تشينغ) التاريخية» قصة (دونغ دنغ قونغ بو) أيضاً: «الجيش التبتي يهاجم متمردي (تشان)، وحقق انتصارات متتالية، وأسر الابن الأكبر لزعيم التمرد (دونغ دنغ قونغ بو) وابنه، والابن الثاني، الراهب (سيلانغ شنغ قه)، وغيرهم. عرض (دونغ دنغ قونغ بو) وآخرون كتابة رسالة إلى (قونغ بو لانغ جيا) (للحثه) على الاستسلام مع قواته، والإفراج أولاً عن اللاما (سا جيا)، وزوجة شيخ قبيلة (ده قه) وابنه. بعد أن تلقى (قونغ بو لانغ جيا) الرسالة، أطلق سراح الابن الأكبر والابنة الكبرى لـ(ده قه)، ولكنه أبقى اللاما (سا جيا) وزوجة شيخ قبيلة (ده قه) في الحصن، ولم يستسلم مع قواته. وهذا يظهر أنه مستمر في شره. حتى لو استسلم، لا يمكن ضمان أنه لن يغير رأيه، لذا يجب أن يأمر (شي تشي كانغ) بحث الجيش التبتي على المضي قدماً والهجوم بسرعة.»

وتذكر السجلات أن (دونغ دنغ قونغ بو) بعد استسلامه، قدم كل ثروته، والتي استخدمها الجيش التبتي كنفقات للحرب.

في هذا الوقت، كان (جينغ ون)، الذي كان قد وصل حديثاً عبر طريق سيتشوان والتبت، قد تجاوز (لي تانغ) و(با تانغ)، ووصل إلى (تشانغ دوو) في التبت، حيث توقف مؤقتاً. وكان يقوم في الوقت نفسه بتقديم الدعم للجيش التبتي، وحثهم على مواصلة الهجوم. ويذكر كتاب «ملخص شؤون التبت في عهد سلالة (تشينغ)»: «قام (جينغ ون) بتقديم الشاي وغيره من السلع، كما قام بجمع الأموال لإضافة المزيد من الذخيرة، لتشجيع الجنود على الهجوم والقضاء على العدو بسرعة».

[redacted].indd 216-217 2025-11-27 10:56:04

اللحظات الأخيرة لبطل عظيم في عصره

تذكر السجلات التاريخية التبتية و(الهانية) تفاصيل أكثر عن أداء (قونغ بو لانغ جيا) في لحظاته الأخيرة. قيل إنه عندما واجه الجيش التبتي الذي كان يحاصره، كان يتنهد كثيرًا وهو ينظر إلى السماء، بسبب خيانة الجميع له في ذلك الوقت. قال (سونغ دا قونغ بو) لوالده: «لقد فات الأوان للندم الآن. لقد نصحناك مرارًا وتكرارًا بعدم الثقة بـ(ليه وو ما) أكثر من اللازم، لكنك اعتبرته صديقك المقرب الوحيد. عندما يقول شخص ما الحقيقة، تجد ذلك مزعجًا؛ ولكنك تفضل الشخص الذي يبالغ في مديحك. لقد احتللنا العديد من الأماكن، ولكننا لم نكسب قلوب الناس. لقد أسرنا العديد من اللاما وزعماء القرى في (تشان دوي) كرهائن، ولكنهم لم يخضعوا.» كانت هذه الكلمات مقبولة الآن لـ(قونغ بو لانغ جيا)، وتجرأ أبناؤه على قولها، ولكن لم يعد لها أي فائدة.

تنهد (قونغ بو لانغ جيا) قائلاً: «لقد وصلنا إلى هذا الحد، وليس أمامنا سوى التفاوض مع الجيش التبتي!»

فيما يتعلق بشروط التفاوض، كان (قونغ بو لانغ جيا) لا يزال لا يدرك الوضع، وكان يعيش في الأوهام. قال: «نحن نعيش في وطننا، ويجب أن نحافظ على وضعنا وسلطتنا على ثمانين ألف أسرة من السكان التابعين لنا. لقد حصلنا على ذلك بقوتنا الخاصة، وليس لديهم سبب لأخذ ذلك منا.» في الواقع، لم يكن عدد السكان في (تشان دوي) في ذلك الوقت يتجاوز خمسة أو ستة آلاف أسرة. والثمانون ألف أسرة المزعومة، كانت كلها من السكان الذين حصل عليهم من احتلال مناطق شيوخ القبائل الأخرى بشكل مؤقت. في هذا الوقت، لم يعد يسيطر على تلك الثمانين ألف أسرة، بل حتى على الآلاف من الأسر في (تشان دوي) نفسها.

كان مقر (قونغ بو لانغ جيا) يقع على ضفة نهر (يالونغ) الشرقية شديدة الانحدار، مما يمنحه موقعًا استراتيجيًا مميزًا. كان المبنى مكونًا من سبعة طوابق، وجدرانه سميكة تقارب ثلاثة أمتار، وكان لديه مخزون كافٍ من الغذاء، بالإضافة إلى نفق سري يمر من خلاله الماء إلى الداخل. وعلى الرغم من أن الجيش التبتي حاصره بقوة، وشن هجمات متكررة، إلا أنه لم يتمكن من اختراق الدفاعات في وقت قصير.

في ظل هذه الظروف، كان القائد (تشي مان)، قائد الجيش التبتي في الجبهة الأمامية، على استعداد للتفاوض، ولكن كان هدفه الحقيقي هو الإيقاع بـ(قونغ بو لانغ جيا) وأسره.

أراد (سونغ دا قونغ بو) أن يذهب بدلاً من والده، ولكن (قونغ بو لانغ جيا) أصر على الذهاب بنفسه.

في المكان المتفق عليه للتفاوض، نصب القائد (تشي مان) خيمة، ووضع ثلاثين محاربًا في كمين. ثم جلس في الخيمة، منتظرًا وصول (قونغ بو لانغ جيا).

في القصص الشعبية، لا يزال (قونغ بو لانغ جيا)، الملقب بـ» (مان)» أي (قونغ بو لانغ جيا) ذو العين الواحدة، يمتلك روح البطل.

تذكر السجلات المحلية أنه ولد إما عام 1799 أو عام 1800، ويعتقد أن هذا الاختلاف ناتج عن تحويل التواريخ التبتية إلى التواريخ الميلادية. وهذا يعني أن (قونغ بو لانغ جيا) كان يبلغ من العمر أكثر من خمسة وستين عامًا في ذلك العام، ولكنه لم يفقد قوته.

في ذلك اليوم، ترك عائلته وذهب مع خادم واحد فقط، وركب حصانه.

أظهر (قونغ بو لانغ جيا) حكمة وشجاعة في ذلك الوقت. وعندما اقترب من خيمة التفاوض، نزل بهدوء من على حصانه، وأمر خادمه بهدوء: «عندما أنزل، أدر الحصان للخلف، وانتظرني عند خروجي.»

بعد ذلك، دخل الخيمة بمفرده. وقبل أن يجلس، رأى بعض الظلال تتحرك حول الخيمة، فأدرك أنه تعرض لكمين. فقام فجأة بإمساك عنق القائد (تشي مان) بيد واحدة، وسحب سيفه من خصره باليد الأخرى، وهدد قائلاً: «إذا تجرأت على إيذائي اليوم، فلن تخرج من هنا حياً!»

ارتبك (تشي مان) وقال على عجل: «أقسم أنني لن أقتلك.»

لم يترك (قونغ بو لانغ جيا) عنقه، وقال: «اذكر شروطك؟»

«عليك أن تفرج عن زوجة شيخ قبيلة (ده قه) وابنها.»

«ممكن!»

[redacted].indd 218-219 2025-11-27 10:56:04

«وعليك أن تطلق سراح اللاما (سا جيا) وغيره من المحتجزين!»

«حسنًا!» سأل (قونغ بو لانغ جيا): «ألم تكن تريد القبض علي؟»

بعد أن قال ذلك، ترك (قونغ بو لانغ جيا) (تشي مان)، واندفع خارج الخيمة. وبحلول الوقت الذي استعاد فيه المحاربون الثلاثون في الكمين وعيهم، كان (قونغ بو لانغ جيا) قد ركب حصانه، وانطلق وهو يصرخ بصوت عال.

عاد (قونغ بو لانغ جيا) إلى الحصن، ووفقًا لوعده، أطلق سراح زوجة شيخ قبيلة (ده قه) وابنها، وجميع الرهائن الآخرين في الحصن، وعددهم أكثر من مائتي شخص.

ولكن الجيش التبتي لم يرفع الحصار. فقال (قونغ بو لانغ جيا) لولديه: «لم تنتهِ مفاوضاتنا مع الجيش التبتي بعد. على الرغم من أن (تشي مان) قد أقسم، إلا أن الإنسان لا يلتزم بالقسم، تمامًا كما أن الكلب لا يأكل الحديد. الآن، تكبدنا والجيش التبتي خسائر كبيرة. ربما يمكننا التفاوض مرة أخرى.»

وعلى الرغم من أن ابنه (سونغ دا قونغ بو) كان يعلم أن المفاوضات لن تكون مجدية في ظل هذه الظروف، إلا أنه كان على استعداد للذهاب بدلاً من والده.

وعند المغادرة، ودّع جميع أفراد عائلته، وقال: «أنا متأكد من أنني لن أعود من هذه الرحلة. الوضع سيء للغاية، وحتى أحلامي تنذر بالسوء. ولكني لا أشعر بالندم. لا تقلقوا، لن أجلب العار لعائلتنا.»

عرض (لوو سه)، صهر (قونغ بو لانغ جيا)، وشيخ قبيلة (تشووو)، أحد شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، مرافقة (سونغ دا قونغ بو)، وقال: «سنسافر معًا، ونموت معًا، ونعود معًا!»

كان (تشي مان) غاضبًا جدًا لأنه فشل في القبض على (قونغ بو لانغ جيا) في المفاوضات السابقة. واتهم المحاربين الثلاثين بعدم أداء واجبهم، مما أدى إلى إهانة الجيش التبتي. فقام بجلدهم بالسياط، واستبدلهم بثلاثين محاربًا آخرين، ووضعهم حول الخيمة، مصممًا على القبض على (قونغ بو لانغ جيا) في المفاوضات هذه المرة.

تقول الأساطير المحلية إن (تشي مان) أمر رجاله بتغطية الأرض بقشر الأرز الطازج والزلق جدًا، حتى لا يتمكن أي شخص يأتي للتفاوض من الوقوف بثبات، ناهيك عن المقاومة بالأسلحة.

لم ينتظر (تشي مان) وصول (قونغ بو لانغ جيا)، بل وصل بدلاً منه ابنه (سونغ دا قونغ بو)، وصهره (لوو سه).

لم تكن المفاوضات صعبة، لأن (تشي مان) وافق على جميع الشروط التي طرحها (سونغ دا قونغ بو). ولكن عندما نهض (سونغ دا قونغ بو) ليغادر، هجم عليهما جنود الجيش التبتي الذين كانوا في كمين، وقاموا أولاً بالسيطرة على (لوو سه). استل (سونغ دا قونغ بو) سيفه وقاتل، وقتل بضعة جنود تبتيين. وعندما حاول الاندفاع خارج الخيمة، انزلق على قشر الأرز الزلق. رأى أن مدخل الخيمة مغلق بإحكام، فحاول الهرب من جانب الخيمة. ولكن ما أن أخرج رأسه، حتى أمسك جنود الجيش التبتي بجدائله، وقيدوه على الفور.

أخذ (تشي مان) (سونغ دا قونغ بو) إلى مقر (قونغ بو لانغ جيا) لإقناعه بالاستسلام.

في ذلك الوقت، كان (قونغ بو لانغ جيا) قد نقل جميع أفراد عائلته إلى مركز المقر، وأشعل النيران في المباني الملحقة الأخرى.

تقول القصة إن (سونغ دا قونغ بو)، عندما وصل أمام المقر ورأى الدخان الكثيف، ضحك بصوت عالٍ وقال: «الأموال ليست للأعداء، والطعام ليس للشياطين. هذا ما أردته تمامًا!»

عندما وصل أمام الحصن، نادى ثلاث مرات: «أبي».

أخرج (قونغ بو لانغ جيا) رأسه من النافذة.

صرخ (سونغ دا قونغ بو) لوالده: «لقد رأيت ما حدث لي! الآن، الأمر متروك لك لاتخاذ القرار!» بعد أن قال ذلك، التفت إلى (لوو سه) وقال: «علينا الآن أن نردد المانترا ذات المقاطع الست!»

فقاما هما الاثنان بترديد المانترا بصوت عالٍ: «أوم ماني بادمي هوم».

عندما رأى (تشي مان) ذلك، أمر بقتلهما بالسيف أمام المقر.

رأت عائلة (قونغ بو لانغ جيا) موت الاثنين المفجع، وغضبوا بشدة.

«في تلك الليلة، بعد غروب الشمس فوق قمة المقر الرسمي، وضعوا مواد قابلة للاشتعال في أسفل المبنى. وبحلول منتصف الليل، بدأ مبنى المقر بالكامل يحترق، والتهمت النيران كل ما فيه من كنوز وممتلكات.. وبعد أن خمدت النيران، عُثر على بقايا ابن (قونغ بو لانغ جيا)، (تشي مي قونغ بو)، وزوجته وغيرهم من بين الأنقاض. أما (قونغ بو لانغ جيا) وابنه (دنغ دنغ قونغ بو)، فلم يتم العثور عليهم أحياء أو أمواتاً، واختفى أثرهم. تمامًا مثل السحب العائمة في السماء، والقوس قزح الذي يتلاشى.»

[redacted].indd 220-221 2025-11-27 10:56:05

تذكر سجلات محلية أخرى ما يلي:

«في تلك الليلة، اشتعلت النيران في المقر بأكمله. لم يسمع من الخارج سوى صرخة قوية من (تشي مي قونغ بو)، ابن (قونغ بو لانغ جيا)، ثم سمع صوت طلقة نار، وبعدها لم يعد هناك أي صوت. وفي اليوم التالي، خمدت النيران، واحترق المقر. لم يعثر الجيش التبتي على شيء في الأنقاض سوى رفات (تشي مي قونغ بو) وزوجته وأطفاله. ويُقال إنه عندما اندلعت النيران، تمكن (قونغ بو لانغ جيا) و(دنغ دنغ قونغ بو) من الهروب من المقر مع زوجاتهم وأطفالهم وخدمهم. ثم مات (قونغ بو لانغ جيا) من الغضب خلف الجبال الثلجية، بينما هرب (دنغ دنغ قونغ بو) عبر (يوشو) إلى منغوليا. هذه كلها أساطير لم يتم تأكيدها».

وتضيف هذه السجلات: «سمعنا مؤخرًا أن هناك أحفادًا لـ(قونغ بو لانغ جيا) في (تشينغهاي)، ولكن لا يزال هذا بحاجة إلى التحقق.»

يختلف ما ورد في «مذكرات (جينغ ون) عن التبت» قليلاً: «عندما هاجم جنودنا، قام زعيم التمرد وأبناؤه الثلاثة، وأكثر من ثلاثين من خدمه، بإحراق ممتلكاتهم ومنازلهم بالكامل. وتمكن (تشي مي قونغ بو) وثلاث نساء من الهرب من النافذة باستخدام حبال، وتم القبض عليهم».

وهكذا، تم القضاء على (قونغ بو لانغ جيا)، شيخ القبيلة القوي الذي نشأ في (تشان دوي) على مدى مئات السنين، وإلى الأبد.

الصدى الخالد لقصة بطل

في الوقت الذي كانت فيه سلالة (تشينغ) تمر بأوقات عصيبة، مليئة بالمشاكل الداخلية والخارجية، بدأ (قونغ بو لانغ جيا) تمرده في عام 1849. سيطر تدريجياً على منطقة (تشان دوي) بأكملها، ثم شن هجمات على مناطق شيوخ القبائل المجاورة. وفي هذه الأثناء، فشلت حملة (تشي شان)، التي ضمت جنوداً من قومية (الهان) وشيوخ قبائل، في إيقافه، مما زاد من طموحه. بعد انسحاب القوات الحكومية، شن هجمات واسعة النطاق، فاحتل ونهب ثلاث عشرة قبيلة، بما في ذلك شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية، و(ده قه)، و(لي تانغ)، و(تشونغ شي)، و(مينغ تشنغ)، بالإضافة إلى عشرات القبائل البدوية التابعة لـ(تشينغهاي) و(شينينغ) والتبت في ذلك الوقت. امتد نفوذه «شرقاً إلى منطقة (دا جيان لو)، وجنوباً إلى (تشانغ دوو) في التبت، وشمالاً إلى (لي فان)، وغرباً إلى القبائل الخمس والعشرين التابعة لـ(شينينغ)، على مساحة تزيد عن عشرة آلاف لي، ولم تسلم أي منطقة من أفعاله. وفي السنة الأولى من حكم الإمبراطور (تونغ تشي)، حاصر (لي تانغ) مرة أخرى، وأغلق طريق سيتشوان والتبت، مما تسبب في فوضى في مناطق شيوخ القبائل في (كانغ) والتبت.»

في النهاية، أعلن طموحه الكبير بأنه يريد أن يكون «ملك الهان والتبت والمنغوليين»، مما أدى إلى سقوطه.

كانت أسباب فشله، بالإضافة إلى الهجوم المشترك من الحكومة المركزية وحكومة التبت، هو فقدان دعم الشعب. لقد اهتممت بالتاريخ المحلي لـ(تشان دوي) في عهد سلالة (تشينغ) لأنني أدركت أن هذا التاريخ هو في الواقع انعكاس للتاريخ الكامل للمناطق التبتية التابعة لسيتشوان، ونموذج مثالي له على مدى مئات أو آلاف السنين.

لم تكن مناطق شيوخ القبائل في سيتشوان كبيرة، وكان عدد سكانها قليلاً، ولم يكن لديهم جيش دائم في الأوقات العادية.

□□□□ □□□.indd 222-223 2025-11-27 10:56:05

في أوقات السلم، كان الناس يعملون في الزراعة والرعي في منازلهم، أو يتم استخدامهم بشكل غير مشروط من قبل شيوخ القبائل في مهام مختلفة. ولكن عند اندلاع الحرب، يتم تجنيد جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وستين عامًا. يتم تنظيمهم في وحدات على أساس القرى، ويتولى زعماء القرى قيادة القوات. وفي المعارك الشرسة، يتم اختيار الشباب الأقوياء والشجعان من الجنود العاديين وتشكيلهم في قوات هجومية خاصة. يُطلق على جنود هذه القوات اسم « (دا شنغ)»، أي الجنود الذين يأكلون النمور. ويتم ترقية من يحصلون على هذا اللقب إلى ضباط وزعماء بعد تحقيقهم انتصارات في المعارك. إلى جانب أن تصبح (لاما)، كان هذا هو الطريق الوحيد لسكان الطبقة الدنيا من المجتمع لدخول طبقة النبلاء.

لم يكن هناك نظام ثابت لتدريب جنود شيوخ القبائل. وكانت تدريبات الجنود في (تشان دوي) تشمل المصارعة، والركض، وسباق الخيل، والرماية، وشد الحبل، وتسلق الأشجار، والمبارزة بالسيوف، ورمي السهام، وقطع دمى من القش بالسيوف.

كان على كل أسرة أن تعد أسلحتها بنفسها. في عهد (قونغ بو لانغ جيا)، كانت الأسر الغنية التي لديها رجال تعد بندقية، وحصاناً جيداً، وسيفاً طويلاً، ومائة عبوة بارود، ومائة طلقة رصاص. أما الأسر المتوسطة، فكانت تعد سيفاً طويلاً، ورمحاً، وحصاناً. وكانت الأسر الفقيرة تعد فأساً، و(إه دوو) - وهو عبارة عن حبل مصنوع من شعر البقر لإلقاء الحجارة. بالإضافة إلى ذلك، كانت عدة أسر تتعاون في صنع سلم خشبي واحد، لاستخدامه في الهجوم على الحصون. وعند الذهاب للحرب، كان على كل جندي أن يحمل مؤناً تكفيه لمدة شهر.

كانت القواعد العسكرية بسيطة، وتتلخص في أربع نقاط رئيسية: لا يُسمح بالاستسلام، وخاصة لجنود « (دا شنغ)»، وإذا استسلم أحدهم، فإنه يُعدم، ويتم مصادرة حصانه وسلاحه، وتعاقب أسرته أيضاً. لا يُسمح بفقدان الخيول أو الأسلحة. لا يُسمح بإخفاء أي ممتلكات يتم الحصول عليها من الغنائم أو النهب. لا يُسمح بترك جثث القتلى أو المصابين.

أما فيما يتعلق بالنهب، لم يتم تطبيق القاعدة التي تمنع إخفاء المسروقات أبدًا في قوات (تشان دوي). بل على العكس، أعلن (قونغ بو لانغ جيا) صراحة أن جميع الغنائم تعود للأفراد، ولا يجب تسليمها. وهذا هو السبب في أن قوات (تشان دوي) كانت تشن غارات واسعة النطاق عند الذهاب للحرب، مما أدى إلى فرار السكان في المناطق التي احتلها حديثًا.

الأهم من ذلك، أن طريقة حكمه للمناطق التي احتلها كانت مجرد نسخ بسيطة للأساليب القديمة. كان يتم تعيين القادة الذين حققوا انتصارات في المعارك كزعماء محليين، ويفرضون الضرائب على السكان، ويجبرونهم على أداء مهام مختلفة. وعندما كانت قوته في أوجها، كان يستطيع الحفاظ على استقرار ظاهري، ولكن عند أول بادرة من الاضطرابات، كان السكان والزعماء المحليون يثورون ضده.

بسبب التأثر بالأسلوب الأكاديمي الذي حول التاريخ الصيني إلى تاريخ ثورات الفلاحين، اعتبر بعض الأكاديميين في فترة من الفترات أن (قونغ بو لانغ جيا) هو زعيم ثورة فلاحين (تبتية). ولكن عندما بحثت في هذا الجزء من التاريخ، شعرت أن هذا التفسير بعيد عن الواقع.

هناك أسطورة تقول إنه في موقع مقر (قونغ بو لانغ جيا) المحترق، كان هناك كمية هائلة من الممتلكات التي تم تجميعها، وكمية السمن المخزنة كانت أكبر مما يمكن للمرء أن يتخيل. تقول الأسطورة إنه بعد حرق المقر، سال السمن المذاب من التل، ومر عبر ضفة النهر لمئات الأمتار، ثم صب في نهر (يالونغ).

على عكس هذا التفسير الذي يستخدم الأيديولوجية المعاصرة، فإن التفسير الأكثر شيوعًا في المنطقة اليوم هو القدرية الدينية. يختتم النص التبتي «تاريخ (تشان دوي) و(نيانغ رونغ)» بهذا القول:

«لقد حصل (قونغ بو لانغ جيا) على الشهرة والمكانة والسلطة والثروة، ولكنه فقدها بسرعة، وخلال بضعة أشهر فقط، تجلت عقوبته وتقلبت الأحوال.»

«تقلب الأحوال» يشير إلى القدر البشري.

«العقوبة» تشير إلى السبب الأكبر لفشله، وهو عدم احترامه للبوذية.

يقول سكان (شين لونغ) إن (قونغ بو لانغ جيا) آمن في حياته كلها براهب واحد فقط، وهو الراهب (باي ما دنغ دنغ) الذي كان يمارس الشعائر البوذية السرية. ذهبت إلى موقع (باي ما دنغ دنغ) القديم، في جبل (تشا غا) المقدس، الذي يقع في جنوب غرب مدينة (شين لونغ). قمة هذا الجبل هي عبارة عن جرف صخري حاد لا تنمو عليه أي أعشاب. أما الكهوف الموجودة أسفل الجرف، فتعتبر أماكن مقدسة لممارسة الطقوس البوذية السرية. يوجد في هذا الجرف العالي والمنحدر بقايا موقعين، تقول الأساطير المحلية إنهما مرتبطان بـ(قونغ بو لانغ جيا) و(باي ما دنغ دنغ).

يقول الناس إن هذا هو المكان الذي جعل فيه (باي ما دنغ دنغ) (قونغ بو لانغ جيا) المتغطرس يؤمن به.

XXXX XXX.indd 224-225 2025-11-27 10:56:05

التقى (قونغ بو لانغ جيا) هنا بـ(باي ما دنغ دنغ)، الذي كان يتأمل في كهف على الجبل. وقال (قونغ بو لانغ جيا) له: «يقول الجميع إن لديك قوى خارقة، ولكنني لا أصدق ذلك. لقد التقيت بالعديد من الرهبان الذين ادعوا أن لديهم قوى خارقة، وطلبت منهم أن يظهروها لي، ولكنهم لم يجرؤوا.»

سأله (باي ما دنغ دنغ) بهدوء: «ما نوع القوى التي تريد أن تراها؟»

نظر (قونغ بو لانغ جيا) إلى الجرف الذي يلامس السماء الزرقاء، وأعطى (باي ما دنغ دنغ) العصا الخشبية التي كان يستخدمها في التسلق، وقال له: «إذا كنت تمتلك القوة حقًا، فضع هذه العصا على قمة الجرف.»

أخذ (باي ما دنغ دنغ) العصا، وقفز، وصعد أعلى فأعلى. شعر (قونغ بو لانغ جيا) بالدوار وهو ينظر إليه، ونادى (باي ما دنغ دنغ) ليطلب منه النزول بسرعة.

في ذلك الوقت، كان (باي ما دنغ دنغ) قد وصل إلى منتصف الجرف، على بعد مسافة من القمة. وعندما سمع النداء، قام بإدخال العصا الخشبية في شق في الصخر، وتحول إلى نمر، وقفز من منتصف الجو. واليوم، لا تزال هناك آثار أقدام على شكل مخالب نمر على الصخور أسفل الجبل، ويُقال إنها الآثار التي تركها (باي ما دنغ دنغ) عندما قفز. كما توجد عصا خشبية ماثلة في شق في الجرف، ويعتقد الناس أنها عصا (قونغ بو لانغ جيا).

عند سفح الجرف، بحثت بدقة باستخدام عدسة الكاميرا المقربة، وبالفعل، رأيت العصا الأسطورية، وعليها أعلام صلاة ملونة.

تقول الأسطورة إن (باي ما دنغ دنغ) عاد من هيئة النمر إلى هيئة بشرية، مما جعل (قونغ بو لانغ جيا) يسجد له على الفور. فقال له (باي ما دنغ دنغ): «يبدو أنك لن تتمكن من تحقيق إنجازات عظيمة في النهاية.» فسأله (قونغ بو لانغ جيا) عن السبب. فأجابه (باي ما دنغ دنغ): «لو لم تكن متسرعًا، وسمحت لي بأخذ العصا إلى قمة الجبل، لكان عملك ناجحًا. ولكن هذا الوضع الآن يدل على أن عملك سيفشل في منتصف الطريق.»

لم أتفاجأ عندما سمعت هذه القصة. فهذا أمر شائع في المناطق التبتية.

بعد بضعة أيام، وجدت كتابًا مترجمًا إلى اللغة الصينية بعنوان «سيرة القديس (باي ما دنغ دنغ)». في الفصل السادس عشر من الكتاب، «إخضاع شيخ القبيلة»، تم ذكر هذه الأسطورة على أنها حقيقة تاريخية.

«جاء شيخ القبيلة الكبير (قونغ بو لانغ جيا)، محاطاً بشيوخ القبائل وخدمه، لزيارة جبل (شيونغ لونغ شي) المقدس. وقف شيخ القبيلة، الذي كانت بطنه متدلية، على صخرة مسطحة، ونظر حوله. وفجأة، لاحظت عيناه المتغطرسة والمتعجرفة (باي ما دنغ دنغ) الذي كان يجلس بهدوء. قام (قونغ بو لانغ جيا) بمسح لحيته وسأل من حوله: ‹سمعت أن هناك راهبًا يعرف السحر على هذا الجبل المقدس، هل هو ذلك الشخص الذي يجلس بعيدًا؟›

«انحنى شيخ قبيلة صغير وقال له: ‹سيدي، إنه (باي ما دنغ دنغ)، الراهب العظيم المشهور في كل مكان.›

«عندما سمع (قونغ بو لانغ جيا) ذلك، قاد رجاله نحو المكان الذي كان يتأمل فيه الراهب.

«في هذه الأثناء، لاحظ (باي ما دنغ دنغ) الحشود القادمة. فرفع (قونغ بو لانغ جيا) رأسه، وقال له بلهجة متكبرة: ‹يقول الناس إنك راهب عظيم، وتعرف السحر أيضًا. ولكنني أعتقد أن الناس يبالغون في مدحك. اليوم، أريد أن أرى بنفسي ما يسمى بالقوى الخارقة. إذا لم تتمكن من إثبات كذب هؤلاء الأشخاص، فأنت مجرد شخص عادي، ولن نؤمن بعد الآن بأن الرهبان يمكن أن يمتلكوا أي قوى خارقة.›»

يذكر الكتاب: «من أجل جعل شيخ القبيلة المتغطرس يتخلى عن معتقداته الخاطئة، ولجعله يدرك أن كل شيء في الوجود هو وهم، مشى الراهب على الجرف الأملس مثل المرآة لمسافة خمسة وعشرين ذراعاً (أي ما يعادل ثلاثة وأربعين مترًا).»

«صُدم (قونغ بو لانغ جيا) ومن حوله بهذه المعجزة التي حدثت أمام أعينهم، ووقفوا كأنهم تماثيل خشبية. عندها، رفع (قونغ بو لانغ جيا) رأسه وصرخ للراهب: ‹هذا مخيف جدًا، من فضلك انزل بسرعة!› وضع الراهب وشاحًا أبيض وتمثالًا برونزيًا لـ(بوذا) على الصخرة، وعاد إلى مكانه الأصلي. وقال لـ(قونغ بو لانغ جيا): ‹يا شيخ القبيلة، بسببك، ستفشل أعمالك فجأة عندما تصل إلى ذروتها.›»

□□□□ □□□.indd 226-227 2025-11-27 10:56:05

«بسبب النوايا الشريرة والكلمات السيئة التي وجهها (قونغ بو لانغ جيا) للراهب، تجمعت الغيوم الكثيفة فجأة في السماء، ودوّى صوت الرعد الأصم على الأرض المستوية أمامه. استيقظ (قونغ بو لانغ جيا) من ذهوله، وسجد خائفًا عند قدمي الراهب: ‹يا قديسنا العظيم والرحيم، من فضلك لا تدع الرعد يستمر قبل أن أغادر هذا الجبل المقدس! الشيء الذي أخشاه أكثر في حياتي هو صوت الرعد اللعين!›

«كان الراهب قد وصل إلى مرحلة يمكنه فيها التحكم الكامل في الكون. فمد يده وأمسك بالتنين الصغير الذي كان يطير في السحب والضباب، ويبرق. رأى (قونغ بو لانغ جيا) ومن معه بأعينهم التنين الصغير في ذراعي الراهب، وكانت قشوره الفضية تلمع، وعيناه اللتان تشبهان اللؤلؤ تثيران الرعب... قال (قونغ بو لانغ جيا)، وهو يرتجف، للراهب: ‹يا قديسنا، أنت القديس الذي يجب أن أسجد له في حياتي، أنت راهب عظيم حقًا.›»

ملاحظة: (قونغ بو لانغ جيا) لم يكن شيخ قبيلة تم تعيينه من قبل الحكومة. يجب أن نتذكر أن (تشي شان) حاول منحه المنصب لاحقاً، لكنه رفض.

نعم، في المناطق التبتية، يوجد عالم إلهي إلى جانب العالم الواقعي.

سواء في (شين لونغ) اليوم، أو في أي مكان آخر في المناطق التبتية، غالبًا ما يشعر الشخص بأنه يعيش في عالمين.

العالم الأول هو عالم المدن والمقاطعات، حيث يتحدث الناس نفس لغة بكين، وينفذون الأوامر القادمة من الأعلى. يعيش الناس في مبانٍ سكنية، ويشاهدون التلفزيون، ويتحدثون عن أمور الحياة اليومية، ويقلقون من المشاكل المعتادة. في تلك الأيام، كان المسؤولون في المقاطعة، من مختلف المستويات والإدارات، مشغولين بالتعامل مع لجان التفتيش واللجان التي جاءت من الأعلى للموافقة على المشاريع. كانت إحدى هذه اللجان ستوافق على مشروع «خطة إعادة توطين الرعاة» الذي كانت الحكومات في المناطق التبتية تنفذه بجهد كبير في السنوات الأخيرة. وكان أحد قادة المقاطعة، الذي التقيته، سعيدًا لأن اللجنة منحت المقاطعة درجة عالية في هذا المشروع، تفوق التسعين.

في (شين لونغ)، لا يزال الناس يتحدثون بحماس عن مشروع إعادة بناء الطريق الذي يربط (شين لونغ) بـ(قان تسي) و(لي تانغ)، والذي سيبدأ قريبًا. وعندما ينتهي، سيتم تحسين الطريق مرة أخرى، وسيتم تقصير الوقت المستغرق للسفر من (شين لونغ) إلى (قان تسي)، و(لي تانغ)، و(كانغ دينغ)، و(تشنغدو).

بجانب موقع مقر (قونغ بو لانغ جيا)، توجد مدرسة ابتدائية جديدة، واسعة ونظيفة، يرفرف عليها علم وطني تحت السماء الزرقاء. وبجانب المدرسة، يوجد مبنى حكومة البلدة الجديد، وهو مبنى من طابقين مخصص للمكاتب والسكن. يبدو ضيقًا مقارنة بالمدرسة المجاورة، ولكن المسؤولين في البلدة راضون، ويقولون إن المدرسة يجب أن تكون أفضل من المبنى الحكومي.

في منطقة (شين لونغ)، غالبًا ما كانت المباني التقليدية على شكل برج تُبنى من الطين الأصفر مع أسطح مسطحة. ولكن في السنوات الأخيرة، تمت إضافة أسطح مائلة إلى معظمها. وهذه الأسطح ذات ألوان مختلفة، ولكنها جميعها مشرقة وجذابة. سمعت من صديق محلي أن أحد القادة يطلق على هذا الأمر «ثورة الأسطح».

إذا كانت الثورة تعني كل هذه التغييرات الجديدة، فأنا أتطلع أكثر إلى ثورة في قلوب الناس.

العالم الآخر في (شين لونغ) هو الريف الشاسع، حيث يبدو أن العالم الروحي للناس لا يزال في العصور القديمة. هناك معابد في كل مكان، والعديد منها في طور البناء. ولا يزال الناس يتحدثون عن قصص غريبة ومذهلة حول القوى الخارقة للرهبان العظماء، وحول السبب والنتيجة، وحول القدر البشري.

عندما كنت في طريقي إلى (شين لونغ)، وقبل أن أدخل المقاطعة، سمعت الناس يقولون إن معجزة أخرى قد حدثت في جبل (تشا غا) المقدس.

تقول الأسطورة إن إله جبل (تشا غا) هو تنين، ولأن هذا العام هو عام التنين، فإن الطواف حول الجبل هذا العام يعطي ثوابًا يعادل الطواف اثنتي عشرة مرة في الأوقات العادية. والأعجب من ذلك، يقول الناس إن أسدين ثلجيين قد ظهرا على الجرف المقدس. لا يوجد أسود في هضبة (تشينغهاي-التبت)، وهذا الحيوان الذي يعشقه التبتيون هو في الواقع من النصوص البوذية الهندية. ولكن هذا الحيوان الذي ليس له وجود في المنطقة، ظهر بشكل غامض على جرف يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف متر. ولم يشك أي شخص سمع الخبر في ذلك، بل أكدوا على ذلك. بقيت عند سفح الجبل الصخري لمدة ساعتين أو ثلاث، وبحثت مرارًا وتكرارًا، ولكني لم أجد شيئًا. ومع ذلك، لا يزال الناس يقولون إن الأسدين الثلجيين قد ظهرا بالفعل، وهما هناك على الجرف.

[redacted].indd 228-229 2025-11-27 10:56:05

لقد تصدى المعلم الكبير (قن دون تشون بيل)، الذي سُجن في التبت واعتبر «راهبًا مجنونًا»، لمثل هذه القصص الخيالية أو الهلوسات الدينية حول أسد الجبل الثلجي. في مقالته «ملاحظات حول جبال الهيمالايا»، يقول: «مصطلح ‹أرض الثلج› لا يشير فقط إلى الجبال الثلجية»، ويضيف: «عندما ننظر إلى القصائد الهندية التي تتناول موضوع أرض الثلج، نجد أن الكثير منها يصف الغابات، والمراعي المليئة بالزهور، وقطعان الياك. لذا، فإن الاعتقاد بأن كل شيء في المناطق الجبلية الثلجية يعيش في الثلج والجليد هو أمر خاطئ، تمامًا مثل الاعتقاد بأن كل شيء في (سا جيا) يعيش في الطين الرمادي». «المنطق نفسه ينطبق على اسم ‹أسد الجبل الثلجي›.» «عادة، يفضل الأشخاص الساذجون القصص الغريبة، ويشعرون بالملل من الحقائق البسيطة. عند سماعهم لاسم ‹أسد الثلج›، كان يجب أن يدركوا أنه يعيش في غابات أرض الثلج، تمامًا مثل فيل أرض الثلج. ولكنهم يصفونه بـ«الأسد ذو الشعر الأخضر الذي يعيش على الجبال الثلجية البيضاء واللامعة». وكما أشار المترجم العظيم (بانغ غانغ)، فإن هذا الوصف هو محض خيال من التبتيين.» أود أن أضيف نقطتين: أولاً، هذا الخيال لم يأتي من جميع التبتيين، بل من الرهبان الذين لم يستوعبوا النصوص الهندية. وثانيًا، «غابات أرض الثلج» التي ذكرها الأستاذ لا توجد في التبت نفسها، بل تشير إلى الغابات الاستوائية وشبه الاستوائية على المنحدرات الجنوبية لجبال الهيمالايا التي تميل نحو الهند. للأسف، لم يتم أخذ هذه الكلمات الصادقة في الاعتبار من قبل الناس اليوم، وخاصة من قبل الأشخاص الذين تلقوا تعليمًا أكثر حداثة من الأستاذ.

أعتقد أن مراقبة وجود الدين وتأثيره يمكن أن يخبرك ما إذا كان المجتمع طبيعيًا أم لا.

المجتمع التبتي غير طبيعي. هناك الكثير من المعابد والرهبان، وتأثير الدين قوي جدًا.

المجتمع في المناطق الداخلية من الصين غير طبيعي أيضًا. لقد تحولت المعابد إلى مناطق سياحية. يذهب الناس إليها للصلاة من أجل تحقيق رغباتهم المادية. والمسؤولون ورجال الأعمال لديهم رغبات خفية عندما يواجهون الرهبان والآلهة.

أحدث حقيقة تتعلق بالحياة الدينية هي أن المسؤولين ورجال الأعمال الذين يشعرون بالاضطراب في قلوبهم لا يذهبون إلى المعابد، بل يأتي الرهبان إليهم لتقديم الخدمة. في هذه الأيام، يسافر العديد من الرهبان من المناطق التبتية إلى بكين والمدن الساحلية الجنوبية الشرقية التي يتركز فيها المسؤولون ورجال الأعمال الأغنياء، ويكسبون عددًا كبيرًا من المتابعين. تقول الأساطير إن التبرع الواحد من هؤلاء المتابعين قد يصل إلى مئات الآلاف أو حتى الملايين.

في (شين لونغ)، ذهبت لزيارة منطقة طبيعية لم يتم تطويرها بعد، وكان هدفي هو الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة، ولكني وجدت أن معبدًا كبيرًا قيد الإنشاء. لم يكن المعبد الرئيسي والمباني الملحقة فقط، بل كانت هناك أيضًا مساكن للرهبان، تم بناؤها جميعها مثل الفلل. لسوء الحظ، كان البناء العشوائي في ذلك المكان الجميل قد دمر المناظر الطبيعية الخلابة.

في وقت الغداء، جلسنا على العشب وأكلنا طعامنا الجاف، وبعض الخبز، واللحم البقري المطبوخ، وبعض التفاح. كنت أتساءل لماذا لا أرى الكثير من الرهبان في هذه المباني الدينية الكثيرة. قال لي دليلي المحلي من (شين لونغ): «إنهم مشغولون جدًا، فهم في المناطق الداخلية من الصين يقومون بجمع التبرعات، وإلا لما كان لديهم كل هذه الأموال لبناء هذه المباني الجميلة.»

وبعد الغداء، ضحك صديقي المحلي وقال: «في الماضي، كان الرهبان المشهورون والقديرون هم من يذهبون لجمع التبرعات. ولكن الآن، حتى الأشخاص الذين ليس لديهم أي معرفة يتجرؤون على السفر وجمع التبرعات، ويعودون بأموال طائلة. وقال لي أيضًا: ‹لقد سافرت كثيرًا ورأيت العديد من الأشخاص من عرقية (الهان). إنهم يضحكون علينا ويقولون إننا أغبياء لأننا متدينون، ولكنهم يعطون الكثير من الأموال للرهبان، دون التمييز بين الرهبان الحقيقيين والمزيفين. أليسوا هم الأكثر غباءً منا؟›»

لم أستطع الإجابة على هذا السؤال. أو ربما، لم يكن هناك حاجة للإجابة، لأن لديه الإجابة في قلبه بالفعل.

لذلك، عدت واستمررت في سرد قصة (تشان دوي) التي أعرفها.

.indd 230-231 2025-11-27 10:56:05

معالجة تداعيات (تشان دوي) غير مرضية

تم القضاء على (قونغ بو لانغ جيا).

بعد استسلام ابنه (دونغ دنغ قونغ بو) للجيش التبتي، تم إرساله إلى التبت. وقام الدالاي لاما والمسؤولون التبتيون برفع تقرير إلى الإمبراطور عبر (جينغ ون)، ذكروا فيه أن (دونغ دنغ قونغ بو) نصح والده عدة مرات بالانسحاب من الأراضي التي احتلها، «وقدم ثروته لتمويل الجيش، مما يجعله يستحق الرحمة». «ولذلك، يُرجى العفو عنه، وإرساله من قبل (جينغ ون) إلى مكان يبعد ألف لي، وأمر المسؤولين بحبسه في سجن عسكري، لإظهار رحمة الحكومة».

ولكن قضية (تشان دوي) لم تنتهِ عند هذا الحد، وحدث ما كان الإمبراطور (تونغ تشي) يخشاه.

بعد أن احتل الجيش التبتي (تشان دوي)، رفضوا الانسحاب، وطلبوا المال. «لقد أنفقنا أكثر من ثلاثمائة ألف تايل من الفضة على رواتب الجنود، والذخيرة، وتعويضات أسر القتلى، وقد تم دفع هذا المبلغ من قبل التجار. وقد تعهد الدالاي لاما بالتبرع بمائة وخمسين ألف تايل، ولكن لا يزال هناك عجز كبير...»

بصراحة، كان هذا الطلب غريبًا حقًا.

في عدة مناسبات، أرسلت سلالة (تشينغ) جنودًا من الجيش الرسمي، وجنودًا من شيوخ القبائل في سيتشوان لمساعدة التبت في طرد الغزاة من (زونغار) و(غوركا). وفي كل مرة، كانت هناك نفقات على رواتب الجنود، والذخيرة، والتعويضات عن القتلى والمصابين، ولم يتم تسجيل أي طلب من حكومة (كاشاغ) لاسترداد هذه التكاليف. فلماذا في هذه المرة، يطالبون بتكاليف عسكرية، ويبدو أنهم مقتنعون بأن لديهم الحق في ذلك؟ ربما كان هذا بسبب تفكير الرهبان، حيث يعتبرون أنفسهم أرضاً مباركة، وأنهم المانحون، وأنه إذا لم تساعدهم، فيجب أن تدفع لهم المال، وإذا ساعدتهم، فمن الطبيعي أن تحصل على المال.

اعتاد الإمبراطور على أن يكون المتبرع، ولم يجد هذا الطلب غريبًا، لكن الحكومة المركزية لم تكن ترغب في دفع المال، فأصدرت أمرًا بأن تتحمل مقاطعة سيتشوان هذه التكاليف المتعلقة بالتبت: «يجب على (تشونغ شي) و(لوه بينغ تشانغ) أن يخصصا عدة عشرات الآلاف من تايلات الفضة من مقاطعة سيتشوان، وإرسالها إلى (جينغ ون).»

اعترض جنرال تشنغدو (تشونغ شي) والحاكم العام لمقاطعة سيتشوان (لوه بينغ تشانغ) ، وأبلغا الإمبراطور بأنه لا ينبغي لهما دفع أي أموال: «لم تكن القوات التبتية التي أُرسلت لقمع (تشان دوي) مُرسلة أصلاً من مقاطعة سيتشوان». بالإضافة إلى ذلك، بعد الحرب، أرسلوا عشرة آلاف عبوة من الشاي كمكافأة وعزاء للجنود التبتيين. والآن، لا نستطيع نحن في سيتشوان إخراج هذا المبلغ الضخم.

في ذلك الوقت، كانت الفوضى منتشرة في جميع أنحاء البلاد، «فالأعداء في (شنشي) و(قانسو) لم يهدأوا بعد؛ والمتمردون في (يونان) و(قويتشو) يزدادون قوة». ولم يكن هناك مكان آمن في الشمال والشرق والجنوب في مقاطعة سيتشوان. وأمرت الحكومة المركزية مقاطعة سيتشوان بإرسال جنود للمساعدة في قمع التمرد في (قويتشو)، وتوفير الذخيرة والمؤن. وبالإضافة إلى حرب (تشان دوي) التي انتهت للتو، فإن عشرات الآلاف من الجنود كانوا متمركزين في الشمال والجنوب، وتكاليف الطعام والمؤن كانت كبيرة جدًا، لدرجة أن مقاطعة سيتشوان «تفتقر إلى الأموال، والديون المتراكمة لرواتب الجنود والمؤن قد تجاوزت المليون، ولا نعرف كيف سنتصرف». لذلك، قالوا: «يا صاحب الجلالة، عندما تطلب منا دفع كل هذه الأموال للجيش التبت، فإننا لا نستطيع ذلك».

ولكن الإمبراطور أصر: «لا يزال يتعين عليكم تخصيص بعض الأموال». لم يعد هذا أمرًا إمبراطوريًا، بل أصبح أشبه بالمساومة، «ادفعوا بعض المال على الأقل».

وهكذا، قدم جنرال تشنغدو (تشونغ شي) والحاكم العام لمقاطعة سيتشوان(لوه بينغ تشانغ) اقتراحًا للإمبراطور: «نطلب منكم أن تمنحوا منطقة (تشان دوي) للدالاي لاما لإدارتها». بهذه الطريقة، «لن يكون الجيش التبتي قد عمل بلا فائدة»، وفي الوقت نفسه، لن تضطر مقاطعة سيتشوان إلى القلق بشأن توفير المال.

لم يكن هناك مال لدفع تكاليف الجيش التبتي، ولا حتى لتغطية نفقات نقل (دونغ دنغ قونغ بو) ورفاقه إلى التبت. وهذا ما أكده تقرير (جينغ ون) للإمبراطور. ذكر في تقريره أن مسؤولاً من وزارة الشؤون الخارجية يدعى (إن تشنغ)، بدأ رحلته من (لي تانغ)، ونقل (دونغ دنغ قونغ بو) وغيره من السجناء إلى التبت. ولكن نفقات الطعام والشراب والاحتياجات الأخرى لهذا العدد الكبير من الأشخاص «كانت على حسابه الخاص، ولم يتلق أي أموال من المحطات». فما الحل؟ اقترح (جينغ ون) ترقيته، «هل يمكن منح (إن تشنغ) لقب (تشي فو) كمكافأة؟».

في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، كانت الميزانية العامة للدولة في حالة صعبة، فقررت الحكومة بيع الألقاب الرسمية. الحصول على لقب (تشي فو) كان يعني الحصول على مؤهل لتصبح (تشي فو)، ولكن لتصبح (تشي فو) بالفعل، كان عليك أن تنتظر دورك في قائمة الانتظار. لسوء الحظ، كلما زاد بيع الألقاب، زادت فترة الانتظار. مات الكثيرون وهم ينتظرون، ولم يحصلوا على شيء. في ذلك الوقت، كان العديد من المسؤولين الصغار الذين يعملون بجد في طريق (سيتشوان-التبت) يحملون ألقابًا مثل نائب حاكم المحافظة.

بما أن الوضع كان سيئًا إلى هذا الحد، لم يكن هناك سبب يمنع الإمبراطور من الموافقة.

في ذلك الوقت، اكتشف (جينغ ون) في التبت أن القائد (تشي مي دوو جي) ومرؤوسه (قونغ تشوه دان با) «استوليا على جميع الممتلكات، والملابس، والماشية، وغيرها من الأشياء بعد حرب (تشان دوي)». وبعد أن انكشف أمرهما، تم حمايتهما من قبل (بنغ تسوه تسه وانغ دوو جي)، أحد وزراء حكومة (كاشاغ) الأربعة. وبعد تحقيق قصير، تم اكتشاف أن هذا الوزير هو شقيق (تشي مي دوو جي). فرفع (جينغ ون) تقريرًا يطلب فيه عزل الوزير من منصبه وإعادته إلى مسقط رأسه، وعزل القائدين اللذين استوليا على الغنائم وسجنهما.

رد الإمبراطور: «افعل ما طلبته».

لاحقاً، كان (جينغ ون) يرفع تقارير حتى عن الأمور الروتينية، مثل عندما نزل الدالاي لاما من قصر (بو تالا) للمشاركة في مهرجان (تشوان تشاو) السنوي في لاسا، والذي يشارك فيه خمسة وأربعون ألف راهب، «لإلقاء المواعظ، وتقديم الصدقات». كان يطلب من الإمبراطور أن يعلم أنه «اعتنى بالدالاي لاما جيدًا عند عودته إلى الجبل»، وأن «الوضع هادئ»، وكان يقصد بذلك التباهي بعمله.

رد الإمبراطور بهدوء: «علمت».

غالبًا ما يكون المسؤولون المحليون أذكياء جدًا، ولكن الرغبة في التعبير عن إنجازاتهم لا يمكن كبحها. في الواقع، لم يفكر (جينغ ون) مليًا في أن الإمبراطور قد يفكر، قائلاً في نفسه: «عندما كان طريق سيتشوان-التبت مغلقًا، لم تفعل شيئًا، وعندما كانت هناك مشكلة حقيقية، لم أسمع منك أي تقارير. الآن، بعد أن أصبح كل شيء هادئًا، تقوم برفع تقارير متكررة عن هذه الأمور الروتينية.»

كثرة هذه التقارير جعلت الإمبراطور يفقد صبره!

بسبب تمرد (قونغ بو لانغ جيا)، قضى الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (جينغ ون)، وقتًا على الطريق أطول مما قضاه في منصبه بلاسا. وعندما انتهت ولايته، توجه الوزير الجديد لتولي المنصب. شعر (جينغ ون) أنه على الرغم من أنه لم يحقق إنجازًا عظيمًا في القضاء على (تشان دوي)، إلا أنه بذل جهدًا كبيرًا، ولكنه لم يحصل على مكافأة. فخطرت في باله فكرة، ورفع تقريرًا آخر، ينقل فيه رأي الدالاي لاما. وقال للإمبراطور إن الدالاي لاما ومن معه قالوا إن جميع الأشخاص الذين قدموا خدمات في حرب (تشان دوي)، سواء كانوا مسؤولين تبتيين أو هانيين، قد حصلوا على مكافآت من الإمبراطور، باستثناء الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، ولذلك، فهم يطلبون بالإجماع من الإمبراطور أن يمنح (جينغ ون) المكافأة التي يستحقها.

غضب الإمبراطور أخيرًا، وقال: «تفاجأت جدًا من هذا التقرير».

ووجه له اللوم: «بما أن (جينغ ون) هو الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، فإن التعامل مع شؤونها هو من واجبه. ولكنه يتذرع بـ«مطابقة رغبات التبتيين» ليطلب مكافأة لنفسه، وهذا لم يحدث من قبل في تاريخنا.» وأضاف الإمبراطور: «كان بإمكانك أن تكون أكثر حكمة! الوزير الجديد سيتولى منصبه قريبًا. إذا كان الدالاي لاما ومن معه يعتقدون حقًا أنك تستحق الترقية والمكافأة، كان من الأفضل أن ينتظروا حتى يتولى الوزير الجديد منصبه ويرفع التقرير، ولم يكن ذلك متأخرًا! بعد كل هذه السنوات في السياسة، ألا تفهم حتى أبسط قواعدها؟! إن «تقديم هذا الطلب بنفسك، هو عمل حقير ومخجل!» ونتيجة لذلك، أصدرت وزارة الحرب قرارًا بمعاقبة (جينغ ون) بتخفيض رتبته أربع درجات، وجلده ثمانين جلدة.

[redacted].indd 234-235 2025-11-27 10:56:06

الفصل السادس

في خريف عام 1889، اندلع انتفاضة شاملة ضد المسؤولين التبتيين بقيادة (سا لا يونغ تشو) والراهب المحلي (با زونغ لاما) وغيرهم. وعشية الانتفاضة، جمع (سا لا يونغ تشو) الناس وأقسم قائلاً: «أريد أن أزيل الشر عن الناس، فلا تقتلوا الأبرياء، ولا تنهبوا الممتلكات، وأغلقوا مخازنهم، حتى وصول المسؤولين (الهانيين). ومن يخالف ذلك، سأقتله بسيفي!»

.indd 236-237 2025-11-27 10:56:06

العرق والدولة في ظل الوضع الجديد

في عهد سلالة (تشينغ)، كانت المناطق التبتية التابعة لشيوخ قبائل سيتشوان[1]، سواء كانت مستقرة أو مضطربة، تمثل دائمًا محور تركيز المسؤولين الكبار في سيتشوان. في فترة حكم الإمبراطور (تشيان لونغ)، كانت قوة سلالة (تشينغ) في أوجها. كانت تمردات شيوخ القبائل تعتبر اضطرابات داخلية، مثل قمع زعماء قبيلة (تشان دوي) و(جين تشوان). من وجهة نظر الإمبراطور، كانت هذه الحروب تتعلق بشكل أساسي بـ«هيبة الدولة»، ولم يكن لها أي معنى سياسي خاص. ولكن بعد حرب الأفيون، تغير الوضع بشكل جذري، وبدأت الاضطرابات في مناطق الأقليات العرقية تأخذ طابعًا مختلفًا.

في ذلك الوقت، لم تكن الحدود البحرية فقط مفتوحة أمام المدافع والسفن الأجنبية، بل أصبحت المناطق الداخلية، التي لم تكن هادئة في الأصل، أكثر اضطرابًا. كانت مناطق التبت و(شينجيانغ) و(منغوليا) دائمًا خارج سيطرة الإمبراطورية، وكان زعماء الأقليات العرقية المحلية يثورون على الحكومة المركزية بين الحين والآخر. في هذا الوقت، كانت القوى العظمى مثل بريطانيا وروسيا وفرنسا تحيط بالبلاد، وتطلب من الشرق والغرب والشمال فتح التجارة، والسماح بالتبشير، والسياحة، ثم تطالب بالتنازل عن الأراضي. لقد أثروا على المشاعر الانفصالية بين الأقليات العرقية في المناطق الحدودية والحكومة المركزية، مما تسبب في الفوضى. وبعد ذلك، استخدموا قوتهم للتدخل في مختلف النزاعات والصراعات بين الحكومة المركزية والأقليات العرقية، مما جعل المشاكل في المناطق الحدودية أكثر تعقيدًا.

1 شيوخ قبائل سيتشوان: في عهد سلالة (تشينغ)، يمكن تسمية أي شيخ قبيلة في المناطق الخاضعة لحاكم مقاطعة سيتشوان بـ«شيخ قبيلة سيتشوان». واليوم، لا يزال شيوخ القبائل موجودين في مقاطعات (قانتسي)، و(آبا)، و(لياننغشان)، بالإضافة إلى مناطق (توجيا) و(مياو) في جنوب شرق سيتشوان. ولكن في هذا الكتاب، يشير المصطلح بشكل أساسي إلى شيوخ القبائل في منطقة (قانتسي) اليوم. لمزيد من المعلومات حول تاريخهم وتوزيعهم، يرجى الاطلاع على الفصل «تاريخ شيوخ القبائل التبتيين في سيتشوان».

كان الوضع في المناطق التبتية مشابهاً.

في عام 1875، غزت قوة بريطانية صغيرة من (ميانمار) منطقة (يونان)، ولكنها تعرضت لهجوم من قبل ميليشيا محلية، مما أدى إلى مقتل (ما جيا لي)، وهو مترجم من السفارة البريطانية في بكين. أدى هذا الحادث الصغير إلى توقيع معاهدة غير متكافئة أخرى بين الصين وبريطانيا، وهي «معاهدة (يانتاي)». كان المحتوى الرئيسي للمعاهدة هو فتح (يونان) وبعض الموانئ التجارية الجديدة. وفي الوقت نفسه، كان هناك بند خاص بالتبت ملحق بالمعاهدة. وينص هذا البند على أنه يمكن للبريطانيين، من أجل استكشاف الطريق بين الهند والتبت، إرسال مسؤولين من بكين للسفر عبر المناطق التبتية في (قانسو) و(تشينغهاي) وغيرها، ويمكنهم أيضًا الدخول والخروج بحرية من التبت من المناطق الداخلية مثل سيتشوان.

بعد شهرين فقط من تولي (دينغ باو تشن) منصب حاكم مقاطعة سيتشوان، وصل البريطانيون الذين كانوا «يسافرون» إلى التبت عبر طريق (سيتشوان-التبت). تنص «معاهدة (يانتاي)» على أنهم يستكشفون الطريق من الهند إلى التبت، لذلك كانت المناطق التبتية في سيتشوان مجرد طريق عبور لهم. ولكن المسؤولين (الهانيين) وشيوخ القبائل في جميع المناطق أبلغوا أن هؤلاء الأشخاص كانوا يرسمون خرائط «ويزورون الأماكن الاستراتيجية»، مما لا يوحي بأنهم مجرد سياح عاديين.

في هذه الفترة، تمكن البريطانيون من السيطرة على الدول الصغيرة المجاورة للهند البريطانية، مثل (تشي منغ شيونغ) (سيكيم) و(بوتان)، التي كانت دائمًا بمثابة حاجز للتبت. ثم حاول البريطانيون تجاوز الحدود بين التبت و(تشي منغ شيونغ)، وبناء طريق ومحطات بريدية في جبل (لونغ توو). وقبل ذلك، لم تكن هناك أي حواجز دفاعية على الحدود بين حكومة التبت و(تشي منغ شيونغ) و(بوتان). في مواجهة هذا الوضع، قامت حكومة (كاشاغ) في التبت بإنشاء نقطة تفتيش في جبل (لونغ توو) عام 1886. تسبب هذا الأمر في احتجاج من السفير البريطاني في بكين، الذي قال إن المنطقة التي أقام فيها الجيش التبتي نقطة التفتيش هي جزء من (تشي منغ شيونغ)، وأن الهدف من ذلك هو منع التجارة، وطالب الحكومة المركزية بوقف تصرفات حكومة (كاشاغ) التبتية للدفاع عن أراضيها.

تلقى (ون شوو)، وهو وزير جديد في التبت، أمرًا بالتوجه إلى التبت على الفور للتعامل مع هذا الحادث، بينما كان لا يزال في (لي تانغ) على طريق (سيتشوان-التبت). وكانت الأوامر من الأعلى أن يوافق على مطالب البريطانيين: «بريطانيا تتفاوض على التجارة الحدودية، بينما التبتيون يقيمون نقطة تفتيش لمنع طريق التجارة، وهذا يتعارض بوضوح مع المعاهدة». لذلك، «تم إرسال رسالة عاجلة» إلى (ون شوو)، تطلب منه «جمع جميع شيوخ القبائل، وإصدار هذا الأمر الصارم، وإبلاغهم بضرورة سحب الجنود من نقطة التفتيش على الفور، وتوخي الحذر من أي تأخير، حتى لا يندموا على ذلك.»

.indd 238-239 2025-11-27 10:56:06

لكن (ون شوو) لم يكن شخصاً يتبع الأوامر بشكل أعمى. بعد وصوله إلى لاسا، جمع المسؤولين (الهانيين) والتبتيين، ووضح الموقف للحكومة المركزية في تقريره: «التحقيق يثبت أن التبتيين لم يتجاوزوا حدودهم في الدفاع، ومن الصعب سحب الجنود من نقطة تفتيش (لونغ توو).»

«هذه هي أراضيهم، وهؤلاء هم شعبهم، ولا يوجد مكان للانسحاب.»

كما أرسل رسمًا بيانيًا للتضاريس في جنوب التبت إلى بكين، ليثبت أن حكومة (كاشاغ) أنشأت المعسكرات ونقاط التفتيش على أراضيها.

أشار(ون شوو) في تقريره إلى أن الحكومة المركزية إذا أجبرت الجيش التبتي على التخلي عن نقطة التفتيش والانسحاب، فإن التبتيين سيشعرون بأن الحكومة المركزية قد باعتهم، وبالتالي سيشعرون بالعداء تجاه الحكومة المركزية. يجب القول إن تحليل (ون شوو) كان حكيماً. بعد ذلك، استمر البريطانيون في الضغط، وقاومت حكومة (كاشاغ) بالقوة العسكرية. ولكن في ذلك الوقت، لم تعد الأوضاع مثلما كانت في عهد الإمبراطورين (يونغ تشنغ) و(تشيان لونغ)، ولم تعد مقاومتهم للغزاة الأجانب تحظى بدعم الحكومة المركزية في (تشينغ). ونتيجة لذلك، بدأ التبتيون، من الرهبان والمدنيين، الذين كانوا متحدين ضد العدو، يميلون إلى قوة البريطانيين، خاصة مع ضعف الحكومة المركزية. وفي بداية القرن العشرين، تحولت الميول الموالية لبريطانيا لدى بعض النخب إلى فكر وممارسات انفصالية.

طبعًا، هذا حديث لاحق.

أدرك البريطانيون هذه النقطة أيضًا. كتب (رونغ هه بنغ)، الذي قاد القوات البريطانية لمهاجمة لاسا في عام 1904، في كتابه «الهند والتبت» (الذي ترجم إلى الصينية بعنوان «تاريخ الغزو البريطاني للتبت»): «لقد أثبتت المعاهدة أنها عديمة الفائدة، حيث لم يعترف بها التبتيون أبدًا، ولم تتمكن السلطات الصينية من إجبارهم على ذلك».

«اعتبرت السلطات الصينية نفسها غير قادرة على السيطرة على التبتيين. وبما أن التبتيين لا يطيعون الأوامر، فإنهم لا يجرؤون على إعطائهم الأوامر. إن سيطرة الصين على التبت هي مجرد اسم... يمكن للسلطات الصينية أن توافق على أي اقتراح، ولكنها لا تستطيع تحمل مسؤولية الالتزام به. إذا تم التفاوض مع التبت، فإما أن يحيلوا كل شيء إلى السلطات الصينية، أو يقولون إنهم لم يتلقوا تعليمات من لاسا، وإنهم لا يجرؤون على الالتزام بأي شيء، ويمكنهم فقط إيصال الرسالة.»

إذا كانت لديك نقطة ضعف، فسيراها الآخرون. وعندما يرى الآخرون نقطة ضعفك، ولا تراها أنت، أو تراها ولكن لا يمكنك إصلاحها، فسيستغلها الآخرون بشكل كبير.

بالطبع، هذا حديث آخر.

□□□□ □□□.indd 240-241 2025-11-27 10:56:06

بلاط (تشينغ) يولي إهتمام بقضية منطقة التبت، لكنه متأخر قليلاً

في عهد الإمبراطور (قوانغ شي)، شهدت سلالة (تشينغ)، التي كانت تواجه أزمات عميقة، فترة قصيرة من الانتعاش. وظهر في النظام البيروقراطي، الذي اعتاد على الركود والإهمال، بعض المسؤولين المحليين الذين كانوا قلقين على مصير البلاد، وعملوا بجد لتحقيق إنجازات.

وكان الحاكم الجديد لمقاطعة سيتشوان، (دينغ باوتشن)، واحدًا منهم.

بعد توليه منصب حاكم سيتشوان، أدرك (دينغ باوتشن) أن التبت، سواء كانت تحت سيطرة حكومة (كاشاغ) أو شيوخ القبائل في سيتشوان، هي كيان واحد مترابط جغرافيًا وثقافيًا. وأدرك أن سيتشوان لن تكون مستقرة إذا كانت التبت في خطر، لذلك قدم تقريرًا بعد فترة وجيزة من توليه منصبه يقول فيه: «مقاطعة سيتشوان والتبت مترابطتان، ولا يمكن فصلهما». ولذلك، فإن مشاكل التبت وسيتشوان «مرتبطة بالدفاع عن السواحل»، بل إنها «أكثر أهمية من الحدود البحرية».

وبهذا الوعي، بدأ (دينغ باوتشن) في إصلاح شؤون شيوخ القبائل في سيتشوان فور توليه منصبه. في ذلك الوقت، كانت مناطق شيوخ القبائل تشهد حروبًا متكررة. وكان سبب هذه النزاعات هو التنافس على السلطة والممتلكات بين شيوخ القبائل، ولم تكن صراعات قائمة على مطالب وطنية أو عرقية. ومن أجل حل هذه الصراعات، أرسل (دينغ باوتشن) مسؤولين للعمل مع شيوخ القبائل لتحديد الحدود ووضع علامات. وفي السنة العاشرة من حكم الإمبراطور (قوانغ شي)، قدم (دينغ باوتشن) تقريرًا يطلب فيه مكافأة المسؤولين الذين ساهموا في تحديد الحدود: «تم تحديد حدود (تشان دوي) و(لي تانغ)، ونطلب مكافأة المسؤولين مثل (دينغ شي بن) الذين قاموا بعمل جيد.»

لسنوات عديدة، كنت أزور مناطق شيوخ القبائل، وأبحث عن أي علامات أو نقوش حجرية تشير إلى الحدود التي تم وضعها في الماضي، ولكن دون جدوى. ولكن هذا العام، عندما كنت في طريقي إلى (شين لونغ) لأبحث في تاريخ (تشان دوي)، مررت بمقاطعة (قان تسي)، التي كانت في الماضي مناطق شيوخ القبائل «هوه إر» الخمسة ذوي الأصول المنغولية. دعا (لي) القادة المحليون لتناول وعاء سيتشوان الساخن، ورافقني مدير مكتب التاريخ المحلي ومدير مكتب الثقافة. وخلال العشاء، تحدثنا عن عصر شيوخ القبائل. قال مدير الثقافة إنهم في السنوات الماضية، عندما كانوا يبنون مبنى سكنيا جديدا للمكتب، وجدوا نقشًا حجريًا في الفناء. أرسلوا صورته إلى باحث من جامعة (تشنغدو)، فأكد لهم أنه لوحة حدودية بين شيوخ القبائل. شعرت بالحماس الشديد، وطلبت رؤية النقش فورًا.

في صباح اليوم التالي، تم اصطحابي إلى مكتب الثقافة في المقاطعة. كان النقش الحجري موضوعًا بشكل أفقي على جانب الحائط، تحت درج في مبنى. بعد أن أزلت الغبار، كانت الكلمات واضحة. قرأتها على الفور، ووجدت أنها كانت لوحة حدودية تم وضعها في عهد (دينغ باوتشن) عندما كان حاكمًا لسيتشوان.

سألتهم عن كيفية العثور على النقش. فقالوا لي إن موظفي متحف المقاطعة وجدوه في الخمسينيات من القرن الماضي على تلة على الحدود بين (شين لونغ) و(قان تسي)، ونقلوه إلى الأسفل، ووضعوه في المتحف. وخلال «الثورة الثقافية»، قام أحدهم بنقش اقتباسات من أقوال الرئيس (ماو) على الجانب الخالي من النقش، ووضعه في الفناء. وبعد سنوات طويلة، نمت الأعشاب، وتغير الموظفون، ولم يعد أحد يهتم بالنقش، فسقط ودُفن في التراب لسنوات. وعندما كانوا يبنون المبنى الجديد في السنوات الماضية، عاد النقش للظهور مرة أخرى.

تنص الكلمات على النقش على أن «تحديد الحدود» و«وضع النقوش الحدودية» يهدف إلى «منع النزاعات». «وإذا حدث أي تجاوز للحدود، فإن شيخ القبيلة أو المسؤول هو المسؤول عن حل النزاع.»

هذا يدل على أن (دينغ باوتشن) كان جادًا في تحديد الحدود لمنع النزاعات.

□□□□ □□□.indd 242-243 2025-11-27 10:56:06

لكن الوقت لم يسعفه. فقد تدهورت صحة (دينغ باوتشن)، ووهنت قواه. تذكر السجلات التاريخية أنه قبل وفاته، كتب «مذكرة أخيرة لشكر الإمبراطور»، ذكر فيها «لقد قدم الإنجليز والروس اقتراحات لدخول التبت، ومن المؤكد أن ذلك سيؤدي إلى صراع عسكري». اعتقد أنه ستكون هناك حرب حتمية مع الإنجليز في التبت في المستقبل القريب، لأن «المعاهدات مع الدول الأجنبية لا يمكن الاعتماد عليها على الإطلاق». وأخيراً، ناشد حكومة (تشينغ) ألا تقوم بحل الجيوش الحديثة التي تم تدريبها في سيتشوان وغيرها من المناطق، وأن تواصل تشغيل مصانع الأسلحة الحديثة وتوسيع القدرات العسكرية.

تأسف الناس لاحقاً على أن هذا المسؤول الموهوب لم يعش طويلاً، «فلم يكن أي من خلفائه الأقل كفاءة قادرًا على تحقيق طموحاته. لم يكن ذلك سوى لسوء حظ التبت، بل لسوء حظ الصين أيضاً».

في الواقع، كانت «الأمة الصينية في حالة انهيار»، و»البيت الكبير على وشك السقوط»، ولم يكن بوسع مسؤول أو اثنين موهوبين إنقاذ الوضع.

على عكس سلفه، الذي كان يضغط على التبتيين لتقديم تنازلات للعدو، فإن (ون شوو)، بعد توليه منصبه، دعم حكومة (كاشاغ) بقوة للاستعداد للحرب. ولهذا السبب، أصدرت بكين مرسومًا يلومه على «عدم فهم الوضع»، وأمرته «بأن يكون سحب نقطة التفتيش هو الأولوية الأولى». من وجهة نظر واقعية، كان رأي الحكومة المركزية ليس بدون أساس. فمحاولة التبتيين مقاومة البريطانيين بمفردهم كانت شجاعة، ولكن عندما تندلع الحرب، «فالقوي والضعيف معروفان»، والنتيجة الوحيدة هي الهزيمة. في ذلك الوقت، ستخسر التبت المزيد من الأراضي. «وعندها، سيكون من الصعب العودة». لم يكن الأمر أنهم لا يريدون القتال، بل أنهم لا يستطيعون الفوز!

ولكن (ون شوو)، الذي كان في التبت، تأثر بتصميم وشجاعة الجيش والشعب التبتي في مقاومتهم للإنجليز وحماية أراضيهم. فقدم تقريرًا يرفض فيه سحب الجيش التبتي من جبل (لونغ توو).

في فبراير 1888، حارب الجيش التبتي، الذي فقد دعم بلاط (تشينغ)، القوات البريطانية بمفرده. خلال ذلك، تم عزل (ون شوو) من منصبه بأمر من الحكومة المركزية بتهمة «عدم الاهتمام بالصالح العام». وتولى (شنغ تاي)، الذي كان يطيع الأوامر، منصبه. ونفذ بحزم المرسوم الإمبراطوري لبلاط (تشينغ) «بمنع الجيش التبتي من التصرف بتهور». وفي ظل هذه الظروف، عانى الجيش التبتي، الذي كان يقاتل بأسلحة بدائية، من هزائم متتالية في أغسطس من ذلك العام. وبعد تضحية أكثر من ألف جندي ومدني، خسروا في النهاية معركة جبل (لونغ توو).

كانت النتيجة توقيع «معاهدة الصين-بريطانيا (يانتاي)» و»المعاهدة الصينية-بريطانية الإضافية بشأن التبت والهند»، والتي لم تكن سوى تنازلات عن الأراضي وفتح التجارة.

تم توقيع المعاهدة، ولكن تنفيذها ترك للطرف التبتي، الذي رفض تنفيذها بشتى الطرق. كيف يمكنهم أن ينفذوا المعاهدة عندما تقوم بانتزاع أراضيهم؟ كيف يمكنهم أن ينفذوا المعاهدة عندما لا يريدون التجارة، وتجبرهم على فتح موانئ تجارية؟ خلال العصور الوسطى، سيطرت الطوائف البوذية التبتية على الحكم الديني والسياسي في التبت في فترات مختلفة، وذلك بفضل عزلتها الجغرافية والثقافية. والآن، هناك من يحاول فتح هذا الباب بالقوة، ومن الطبيعي أن يشعر الحاكم بالخطر. لذلك، فإن كلام (رونغ هه بنغ) الذي اقتبسته سابقًا ينطبق على هذا الوضع.

منذ ذلك الوقت، شعر التبتيون بالخوف من قوة البريطانيين، وفي الوقت نفسه، زاد استياؤهم وازدراؤهم للمسؤولين في (تشينغ). ونتيجة لذلك، أصبحت الحكومة المركزية أقل قدرة على السيطرة على المسؤولين والرهبان في حكومة (كاشاغ).

في مواجهة هذه الأزمات، بدأت الحكومة المركزية في (تشينغ) تولي اهتمامًا أكبر لمشاكل التبت والمناطق التبتية). حتى أنها أدرجت مشاكل التبت في امتحانات الخدمة المدنية في عهد الإمبراطور (قوانغ شي).

في السنة السادسة عشرة من حكم الإمبراطور (قوانغ شي)، «تم اختبار ٣٠٨ مرشحين في قاعة (باو هه)، بما في ذلك (شيا تسنغ يو)». وكان موضوع الاختبار يتعلق بسياسة تجارة الشاي والخيول مع التبت على مر العصور: «متى بدأت ضريبة الشاي في عهد سلالة (تانغ)؟ ومتى بدأت ضريبة الشاي على التجار فقط؟ ومتى تم إنشاء مكتب الشاي؟ وكيف تغيرت قوانين ضريبة الشاي بعد ذلك؟ بدأت تجارة الشاي والخيول في عهد سلالة (تانغ)، وكانت هناك مكاتب خاصة بها في عهد سلالة (سونغ) و(يوان) و(مينغ). ما هي الطريقة الأفضل من بين الطرق الثلاث في عهد سلالة (سونغ)؟ أين تم إنشاء مكاتب (مينغ) لتجارة الشاي والخيول؟ يعتبر التبتيون الشاي مهمًا جدًا لحياتهم. هل يمكنك أن تشرح بالتفصيل فوائد ومساوئ تجارة الشاي مع الدول الأخرى؟»

يمكن استخدام هذا السؤال اليوم لاختبار المسؤولين ورجال الأعمال الذين يهتمون بتطوير «طريق الشاي والخيول القديم» كمورد سياحي. لا أتوقع منهم الإجابة الصحيحة، بل مجرد فهم السؤال سيكون كافيًا.

في السنة الثامنة عشرة من حكم الإمبراطور (قوانغ شي)، كان موضوع الاختبار يتعلق مرة أخرى بالمناطق التبتية)، وهذه المرة كان حول التغيرات الإدارية والجغرافيا.

[redacted].indd 244-245 2025-11-27 10:56:06

التبت تفصل بين مقاطعتي سيتشوان ويونّان، وكانت في الماضي تُسمى التوبو، فمتى بدأت هذه البلاد بإرسال بعثات الجزية إلى البلاط الإمبراطوري؟ تنقسم أراضيها إلى أربع جهات، ومن الصين إلى التبت ثلاث طرق رئيسية يمكن سلوكها، فما مدى اتساع رقعتها؟ في عهد أسرة (يوان) أُنشئ مكتب لتهدئة التوبو، كما أُقيم مكتب للإعلان والتهدئة آخر في منطقة (دياو من) وما جاورها، ثم أُنشئت مقاطعات (وو سي تسانغ) وجُعل على رأسها الحاكم (باسي با)، فكيف تطورت هذه الإدارات عبر العصور؟ وفي عهد أسرة (تانغ)، أين كان مقر حكومة التوبو؟ وأيّ جبل هو المعروف اليوم باسم أنوُدا؟ وكم عدد الجبال العظيمة القريبة منه؟ إن نهر (يا إرلونغ تسانغ بو) هو أعظم أنهار التبت، كما أن نهري (لان سانغ) و(لوجيانغ) ينبعان أيضًا من أراضيها، فهل يمكن تتبع أصول هذه الأنهار ومسارها بدقة؟

يمكن استخدام هذا السؤال اليوم لاختبار المسؤولين من مختلف المستويات الذين يعملون في إدارة المناطق التبتية، والحفاظ على استقرارها، وتطويرها. اليوم، العديد من المسؤولين (الهانيين) والتبتيين حاصلون على شهادات جامعية وعليا، ولكن كم منهم يستطيع فهم هذا السؤال؟ وكم منهم يستطيع الإجابة عليه بشكل صحيح؟

قد يعترض البعض ويقول إن هذه مجرد معرفة نظرية، ولكن إذا لم يتمكن المرء من معرفة هذه المعلومات، فكيف سيفهم الثقافة المتنوعة والواقع المتغير للمناطق التبتية؟ الإدارة بدون معرفة تؤدي حتمًا إلى الوعود الفارغة، وخداع من هم أدنى رتبة، والغش على من هم أعلى رتبة.

بالعودة إلى تلك الفترة، فإن الاهتمام الذي أظهرته الحكومة المركزية في عهد الإمبراطور (قوانغ شي) بالتبت والمناطق التبتية قد جاء متأخرًا.

ماضي وحاضر نظام شيوخ القبائل في حدود سيتشوان ومنطقة التبت

من الضروري الآن أن نستعرض الخلفية التاريخية لنظام شيوخ القبائل في منطقة (كانغ) في سيتشوان.

تم تطبيق نظام شيوخ القبائل بشكل مبدئي في التبت في عهد سلالة (مينغ). وبعد أن سيطرت سلالة (تشينغ) على الصين، استمروا في هذا النظام الذي يعتمد على السيطرة غير المباشرة بدلاً من الإدارة المباشرة. وفي السنة الخامسة من حكم الإمبراطور (شون تشي)، عام 1648، تم اتخاذ قرار: «على شيوخ القبائل في جميع المناطق أن يحموا أراضيهم، ولا يستمعوا إلى الخونة أو ينضموا إليهم، ويجب أن يظلوا تحت حكم الإمبراطورية. أما الذين لم يخضعوا بعد، والذين يأتون للاستسلام الآن، فسيتم السماح لهم بالحكم في مناطقهم وقبائلهم كما في السابق. أما الذين يأتون لتقديم الخونة، فسيتم مكافأتهم بسخاء. أما شيوخ القبائل الذين خضعوا بالفعل وقدموا إنجازات... فسيتم ترقيتهم ومكافأتهم على إنجازاتهم.»

في السنة التاسعة والثلاثين من حكم الإمبراطور (كانغ شي)، عام 1700، أرسلت سلالة (تشينغ) قائد قوات سيتشوان مع جنوده إلى (دا جيان لو) والمناطق المحيطة بها، للسيطرة على القبائل الصغيرة والكبيرة. تم إنشاء قبيلة (مينغ تشنغ)، التي كانت تسيطر على جميع أو بعض مقاطعات (قان تسي)، و(جيوو لونغ)، و(داو فو)، و(يا جيانغ)، و(دان با)، و(لوو دينغ)، وعدد سكانها أكثر من ستة آلاف أسرة.

□□□□ □□□.indd 246-247 2025-11-27 10:56:07

في السنة الثامنة والخمسين من حكم الإمبراطور (كانغ شي)، عام 1719، غزت قبيلة (زونغار) التبت. أرسل بلاط (تشينغ) جيشًا لقمع التمرد، وفي طريقهم إلى التبت، وصل القائد الشهير(يوبه تشونغ تشي) إلى (لي تانغ) و(با تانغ). أرسل التبتيون مسؤول المعسكر[1] في (لي تانغ) واللاما في دير (تشانغ تشون) في (لي تانغ) لمنع جيش (تشينغ) من دخول التبت. فقام (يوبه تشونغ تشي) بإقالة المسؤول وإعدام اللاما على الفور. وأنشأ محطات بريدية في (لي تانغ) و(با تانغ)، وأنشأ حاميات عسكرية، ونقل الإمدادات العسكرية في (لي تانغ) و(باتانغ) والمناطق المجاورة.، وفتح طريق سيتشوان-التبت من (دا جيان لو) إلى لاسا. وفي الوقت نفسه، عين شيوخ قبائل رئيسين ونواب لهم في المناطق التبتية التي تم إخضاعها، بما في ذلك (لي تانغ)، وكانت منطقته تشمل جميع أو بعض محافظات (لي تانغ)، و(شيانغ تشنغ)، و(داو تشنغ)، و(يا جيانغ)، و(شين لونغ). وإلى الغرب، عين شيوخ قبائل رئيسين ونواب لهم في (با تانغ)، شملت مناطقهم جميع أو بعض محافظات (با تانغ)، و(ده رونغ)، و(باي يوو)، و(يان جينغ) في منطقة التبت الذاتية الحكم حالياً، و(وي شي)، و(ده تشين)، و(تشونغ ديان) في (يونان).

في السنة السادسة من عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) الموافق عام 1728م، أعلنت منطقة (ده قه) ولاءها للدولة، فأنشئ فيها مكتب الإعلان والتهدئة برتبة إدارية من الدرجة الرابعة الأدنى. وفي عام 1773م، وبسبب ما أبداه الجنود المحليون من (ده قه) من بلاء حسن في الحملات العسكرية، رُقي المكتب إلى مكتب التهدئة والإشراف من الدرجة الثالثة الأدنى. وكانت سلطته الإدارية تشمل مناطق اليوم الواقعة ضمن محافظة (قان تسي) مثل (ده قه)، و(بايْ يُو)، و(شيْ تشو)، و(قان تسي)، بالإضافة إلى كامل أو جزء من محافظات (جيانغ دا) وغيرها داخل حدود التبت الحالية، وجزء من منطقة (يُوشو) داخل منطقة (تشينغ هاي) الحالية.

في العام نفسه، استسلمت عدة قبائل رئيسية ضمن مناطق محافظات (قان تسي)، و(لو هوه)، و(داو فو) الحالية، بما في ذلك (كونغ سا) المنغولية الأصل، و(ما شو) المنغولية الأصل، و(تسان) المنغولية الأصل، و(تشو وو) المنغولية الأصل، و(تشانغ قو) المنغولية الأصل، وسلمت لسلالة (تشينغ). وتم منحهم مناصب في مكاتب التهدئة والأمن من الدرجة الرابعة، كما تم منحهم أختامًا وأوراقًا رسمية. هذه القبائل كانت تقع في شمال (تشان دوي)، وهي شيوخ القبائل الخمسة «هو إر» ذوي الأصول المنغولية التي تم ذكرها سابقًا. يقول (لوه وو تشي ماي) و(دان تسنغ تسه ونغ)، وهما باحثان محليان، في كتابهما «تاريخ شيخ قبيلة (تشانغ قو) المنغولي الأصل»، إن شيوخ القبائل «هو إر» الخمسة ينحدرون من نفس السلف. في أوائل عهد سلالة (يوان)، بعد أن التقى (كوو دوان)، حفيد (جنكيز خان)، بملك (سا جيا) في (ليانغتشو)، أرسل حراسه إلى منطقة (كانغ)، وهزموا الملك (باي لي)، الذي كان يؤمن بالدين التبتي القديم. كما أمر بحماية (با سي با)، وهو راهب بوذي من طائفة (سا جيا)، في طريقه إلى منطقة (كانغ) للتبشير. وكان سلف شيوخ القبائل الخمسة هو أحد النبلاء المنغوليين الذين بقوا في المنطقة بعد حماية (با سي با). ومع مرور الوقت، تكاثر أحفادهم، وأصبحوا زعماء للقبائل، واندفعوا في الثقافة التبتية، مما أدى إلى ظهور شيوخ القبائل الخمسة.

1 مسؤول المعسكر: في الأصل، كان يشير إلى قائد على مستوى المعسكر في سلالة (تشينغ)، عادةً ما يقود حوالي خمسمائة جندي. ولكن في هذا النص، لا يعني ذلك. بل يشير إلى مسؤول محلي تعينه الحكومة التبتية، ويعادل رئيس الإدارة على مستوى المحافظة. ويُطلق عليه باللغة التبتية «زونغ بن».

تم منح جميع شيوخ القبائل المعينين أختامًا وأوراقًا رسمية. الجميع يعرف ما هو الختم؛ أما «الورقة الرسمية»، فهي في الواقع وثيقة موافقة من الحكومة المركزية لسلالة (تشينغ) لتعيين شيخ قبيلة جديد.

كان على شيخ القبيلة المعين إعداد سجل سكاني، وبناءً عليه، يتم تحديد مقدار الإتاوة والضريبة التي يجب دفعها للحكومة المركزية. وكانت الإتاوات والضرائب عادةً عبارة عن منتجات محلية خاصة. إذا كانت المنطقة مشهورة بالخيول، فإنهم يقدمون الخيول كإتاوة؛ وإذا كانت مشهورة بالأعشاب الطبية الثمينة، فإنهم يقدمون الإتاوة والضريبة من الأعشاب الطبية. كانت الكمية قليلة ورمزية. وهذا يعني أن الحكومة المركزية كانت تريد إظهار خضوع شيخ القبيلة. وفي وقت لاحق، وبسبب صعوبة جمع الإتاوات والضرائب العينية، تم تحويلها إلى عملة فضية. على سبيل المثال، في (تشان دوي)، بطل قصتنا، في السنة السادسة من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، كان عدد الأسر في (تشان دوي) العليا 428 أسرة، وكان مبلغ الضريبة المحول إلى الفضة 16 تايل من الفضة. وفي عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، لم يكن شيخ قبيلة (تشان دوي) الوسطى ملزمًا بدفع الإتاوة والضريبة، بسبب قلة عدد أسرهم، كما تم منحه الأختام والوثائق الرسمية.

كانت منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ) واسعة، وعدد سكانها كبيرًا. في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، كان عدد الأسر 6500 أسرة، وكانت الجزية المستحقة «3362 تايل و4 تشيان و7 لي و9 هاو و8 سي» من الفضة. لم يكن عليهم دفع المبلغ بالكامل، لأنهم كانوا على طريق (سيتشوان-التبت)، وكان عليهم إيواء العديد من المسؤولين. وكانت الحكومة المركزية تمنح شيخ القبيلة 443 تايل من الفضة كمصروفات، «يُسمح بخصمها من الجزية المستحقة.»

كانت المجتمعات الداخلية تحت حكم شيوخ القبائل بسيطة الإدارة في الغالب، باستثناء شيوخ القبائل الذين يحكمون مناطق شاسعة وذات كثافة سكانية عالية مثل (ده قه)، الذين كان لديهم نظام إداري أكثر تعقيداً ونضجاً بقليل. أما غالبية شيوخ القبائل فكانت إدارتهم بسيطة جداً. كان شيخ القبيلة الكبير هو ‹الزعيم القبلي الأعظم›، وتحت هذا الزعيم الكبير كان هناك العديد من ‹الزعماء القبليين الصغار›. وعندما يصبح الزعيم القبلي الأعظم شيخاً للقبيلة، يصبح شيوخ القرى والقبائل الأصغر هم الرؤساء المحليون، التابعون لشيخ القبيلة. وقد نال جزء من هؤلاء الرؤساء القبليين اعتراف البلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ)، حيث مُنحوا رتباً أقل من شيخ القبيلة مثل ‹قائد مائة من القوات المحلية› و‹قائد ألف من القوات المحلية› ، لكنهم ظلوا خاضعين لسلطة شيخ القبيلة في المنطقة التي يتبعون لها.

كان العبء الرئيسي على عامة الناس الخاضعين لحكم شيخ القبيلة يتمثل في مختلف أشكال الخدمة العسكرية والسخرة غير المدفوعة الأجر. ونظراً لأن الإنتاج كان لا يزال في مرحلة الاكتفاء الذاتي البدائية غير المكثفة، وحتى لو كانت هناك تجارة، فقد كانت محتكرة من قبل الأديرة أو رؤساء القبائل التابعين لشيوخ القبائل، فلم يكن لدى المزارعين والرعاة أي دخل آخر بخلاف المنتجات الأولية للزراعة والرعي. لذلك، كانت الضرائب والإتاوات التي تُقدم لشيوخ القبائل وقادتهم تُدفع أيضاً على شكل سلع عينية، مثل الحبوب أو منتجات الماشية.»

.indd 248-249 2025-11-27 10:56:07

كان شيوخ القبائل يعيشون في عزلة، في مناطق غير منتظمة ومتشابكة.

كانوا معزولين كملوك يتمتعون بسلطة مطلقة.

فرض الضرائب العينية، والعمل الإجباري بدون أجر، وسلطة اتخاذ قرارات الحياة والموت على آلاف الأشخاص.

وفي الوقت نفسه، كان العالم يتقدم بسرعة بعد عصر الاكتشافات العظيمة التي بدأها (كريستوفر كولومبوس)، وتزداد الصلات بين أجزائه. لكن شيوخ القبائل ظلوا محصورين في أراضيهم الصغيرة، غير مدركين للزمن الذي يعيشون فيه. كانت الشمس التي تشرق كل يوم هي نفسها التي أشرقت قبل خمسمائة عام. وكانت الأفكار التي تخطر على بال شيخ القبيلة كل يوم هي نفسها التي خطرت على بال من سبقه في هذا المنصب. كانت أفراحهم وأحزانهم متشابهة.

هل كانوا نبلاء؟ نعم، إلى حد ما. النبلاء هم من الطبقة المثقفة، ولكنهم كانوا مجرد طبقة حاكمة، وليست طبقة مثقفة. لم تكن حياتهم الروحية غنية، بل حتى حياتهم المادية كانت خشنة وفقيرة. في المجال الروحي، كانوا مثل بقية الناس، يتبعون تعاليم الرهبان. وكان هذا العالم الروحي بعيدًا عن الواقع، وغامضًا وغير واضح. فهل يمكننا أن نتوقع أن يتقدم مجتمع يقوده هذا النوع من الطبقة النبيلة؟ لا يوجد أي أمل.

في (تشان دوي)، خلال فترة حكم (قونغ بولانغ جيا)، كان العبء الرئيسي على الناس هو الخدمة العسكرية والعمل الإجباري. بالإضافة إلى المشاركة في الحروب، كان عليهم أيضًا أن يعملوا مجانًا في زراعة الأراضي. بالإضافة إلى ذلك، كان على كل أسرة من المزارعين الذين يمتلكون أراضٍ أن تدفع أربعة دلاء من الشعير المحمص المستخدم في صناعة النبيذ إلى عائلة (قونغ بولانغ جيا) كل عام. كانت هذه الكمية (بالوحدة التبتية)، ما يعادل كيلوغرامًا واحدًا. كان زعماء القرى يجمعون هذه الجزية ويسلمونها. وكان على الرعاة أن يصنعوا الزبدة والجبن من حليب أبقارهم ليوم واحد في السنة، ويسلمونها إلى شيوخ القبائل. لولا الحروب المستمرة، لكان هذا العبء مقبولاً في (تشان دوي). ولكن مع اندلاع الحرب، كان على كل أسرة أن توفر رجلاً، وحصانًا، وبندقية، وطعامًا، وتذهب للقتال بعيدًا عن منزلها. وكان هذا العبء ثقيلًا جدًا لدرجة أن الناس كانوا يفلسون ويهربون.

بعد أن احتل الجيش التبتي (تشان دوي)، لم يهتم المسؤولون القادمون من لاسا بانخفاض عدد السكان، وخاصة الشباب، بعد أكثر من عشر سنوات من الحرب. بل قاموا ببناء مقر حكومي ومعبد جديد في موقع مدينة (شين لونغ) اليوم، وكان سكان المنطقة يتحملون تكاليف البناء. كما فرضوا ضرائب باهظة، وقاموا بنقل الأموال إلى التبت. وبما أن «سيدهم» الإمبراطور لم يدفع المال، فقد كان عليهم أن يجدوا طريقة لاستعادة ضعف تكاليف الحرب.

في ذلك الوقت، كانت مقاطعة سيتشوان تدفع سنويًا ستين ألف تايل من الفضة لتغطية نفقات الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت والمحطات البريدية على طريق (سيتشوان-التبت). لذلك، كانت المقاطعة مترددة جدًا في دفع تكاليف حملة الجيش التبتية على (تشان دوي). وبما أن الحكومة المركزية لم تكن ترغب في دفع أو لم تستطع توفير هذا المبلغ، فقد «منحت» منطقة (تشان دوي) للدالاي لاما، لتقوم حكومة (كاشاغ) بجمع الضرائب المختلفة لتعويض تكاليف الحرب. المشكلة هي أنه لم تكن هناك إحصاءات دقيقة لكمية الضرائب التي يمكن جمعها في (تشان دوي). لذلك، لم تكن هناك فترة محددة لبقاء الجيش التبتي هناك. تشير معظم المصادر التي رأيتها إلى ثلاثين عامًا، بينما يقول البعض إنها عشر سنوات.

تشير بعض المصادر إلى أن المبلغ الذي يمكن جمعه سنويًا، بناءً على عدد السكان والإنتاج في (تشان دوي) في ذلك الوقت، لا يتجاوز عشرة آلاف تايل من الفضة.

بعد انسحاب معظم الجيش التبتي، بقيت قوة صغيرة لحماية (تشان دوي)، وتم إرسال مسؤولين لإدارة الشؤون المحلية. بالنسبة للسكان المحليين، كان الأمر لا يختلف عن تعيين شيخ قبيلة جديد، ولم يتغير الهيكل الاجتماعي الأساسي. لم يخطط المسؤولون التبتيون لتغيير طرق الإنتاج أو تنظيمها. لقد تحولت العائلات القوية في القرى إلى مسؤولين محليين في حكومة (كاشاغ). وكان التغيير الوحيد الذي شعر به الناس هو الضرائب. في الماضي، كانوا يدفعون الجزية العينية، ولكن الآن أصبحوا مجبرين على دفع الذهب والفضة، مما جعل حياتهم بائسة. بالإضافة إلى ذلك، كانت حكومة (كاشاغ)، مثل جميع الأنظمة الإقطاعية، فاسدة بشكل كبير، وكان تقديم الرشاوى أمرًا علنيًا.

كان المسؤولون الذين عينتهم هذه الحكومة الفاسدة في (تشان دوي)، التي كانت منطقة معزولة وبعيدة عن التبت، يتمتعون بسلطة مطلقة. بالإضافة إلى تحقيق الأهداف المالية التي كانت مطلوبة منهم من لاسا، كان عليهم أيضًا ملء جيوبهم، مما زاد من مطالبهم غير المعقولة. وعندما لم يتمكن السكان المحليون من تلبية جشعهم، أو عندما أظهروا أي استياء، كان المسؤولون التبتيون يستخدمون العقاب بشكل مفرط. استمر هذا الوضع المأساوي لأكثر من عشرين عامًا. لم تهتم الحكومة المركزية في (تشينغ) ولا حكومة (كاشاغ) بحياة الناس، طالما لم يقم الأقوياء المحليون بالتمرد. وعندما لم يعد بإمكان السكان المحليين تحمل ذلك، لم يكن لديهم خيار سوى التمرد.

[redacted].indd 250-251 2025-11-27 10:56:07

في عصر كانت فيه فكرة الصراع الطبقي سائدة، كان (قونغ بو لانغ جيا)، الذي أحدث الفوضى في المنطقة، يُعتبر زعيم ثورة الفلاحين. ولكن في رأيي، هذه المرة فقط يمكن اعتبار تمرد سكان (تشان دوي) ثورة فلاحين حقيقية.

في ذلك الوقت، لم يكن قد مر عامان على انتهاء معركة جبل (لونغ توو)، التي هزم فيها الجيش التبتي على الحدود.

انتفاضة الأقنان الحقيقية

كان قائد انتفاضة (تشان دوي) هذه المرة يدعى (سا لا يونغ تشو).

في السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور (قوانغ شي)، عام 1889، بعد ستة وعشرين عامًا من احتلال الجيش التبتي لـ(تشان دوي)، رفع الوزير (شنغ تاي) في التبت تقريرًا يفيد بأن السكان التبتيين في (تشان دوي) يخططون للتمرد.

في ذلك الوقت، كان المسؤول التبتي المعين في (تشان دوي)، ويدعى (تشينغ راو تسه بي)، جشعًا للغاية، وكان يفرض إتاوات لا حدود لها على السكان المحليين، وكان قاسياً للغاية، مما أثار غضب الناس. بالإضافة إلى ذلك، كان ابنه (جيان تسان زا با)، وشيخ القبيلة (سي لانغ وانغ دوي)، يتصرفان بوقاحة في القرى، مما زاد من معاناة السكان. وأي شخص كان يظهر أي استياء، كان يتعرض للعقاب.

كان الوضع في (تشان دوي) سيئًا للغاية، وكانت الحكومة التبتية على علم بذلك، ولكنها لم تفعل شيئًا. في عام 1889، رفع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت تقريرًا إلى الحكومة المركزية يصف فيه الوضع في (تشان دوي):

«المسؤولون التبتيون، من الكبار والصغار، الذين تم إرسالهم إلى هنا، لا يهتمون بالشؤون العامة، بل يهتمون فقط بالمال. وفي الآونة الأخيرة، ازدادت طلباتهم القاسية، فهم يعاملون الناس مثل الماشية، ويستخدمون الجلد والتعذيب للحصول على ما يريدون.» ولم يكن (تشينغ راو تسه بي) المسؤول التبتي الوحيد الذي تصرف بهذه الطريقة. «منذ أن سيطر التبتيون على (تشان دوي)، كان جميع المسؤولين الذين تم إرسالهم يهدفون إلى استغلال الناس. والمسؤول الجديد (تشينغ راو تسه بي) هو الأكثر قسوة، فهو يعامل الناس مثل الماشية، ويفرض ضرائب قاسية ومستمرة.»

XXXX XXX.indd 252-253 2025-11-27 10:56:07

لم يكتفِ المسؤولون التبتيون بالتعسف على سكان (تشان دوي)، بل تدخلوا في شؤون شيوخ القبائل المجاورة. بعد وصول (تشينغ راوتسه بي) إلى (تشان دوي)، اندلع تمرد شعبي في منطقة مجاورة ضد حكم شيخ القبيلة. فقام (تشينغ راوتسه بي) على الفور بإجبار شباب (تشان دوي) على الخروج للمساعدة، «لقتال شعب شيخ القبيلة». خلال هذه الحرب، خسر سكان (تشان دوي) حياتهم وممتلكاتهم، ولم يظهر المسؤولون التبتيون أي تعاطف، بل استغلوا الفوضى لتحقيق مكاسب شخصية. تذكر السجلات التاريخية أن (تشينغ راوتسه بي) وابنه، ومساعديه (زا آسه) و(دوو جيي زا دوي)، و(تشوان هاو)، «ارتكبوا أعمالًا شريرة، وقتلوا ونهبوا، وجمعوا ما مجموعه أكثر من عشرين ألف تايل من الفضة».

عندما رأى سكان (تشان دوي) المعاملة القاسية من المسؤولين التبتيين، أرسلوا وفدًا إلى التبت لتقديم شكواهم، وفي الوقت نفسه، أرسلوا ممثلين إلى (دا جيان لو) لتقديم «التماس» إلى مكاتب حكومة (تشينغ)، يطالبون فيه بالانفصال عن إدارة التبت والعودة إلى سيتشوان. لكن «المسؤولين الكبار» تجاهلوا الأمر، قائلين إن هذه «نزاعات تافهة» لا علاقة لها بشؤون الدولة. بعد أكثر من عشر سنوات، مر مسؤول مقيم في التبت تم تعيينه حديثًا من قبل بلاط (تشينغ) وهو في طريقه إلى التبت، وعندما وصل إلى (دا جيان لو)، راجع الملفات القديمة، واكتشف أن المسؤول التبتي في عهد الإمبراطور (قوانغ شي) « تصرف باستبداد وجعل الناس يعيشون في بؤس، فثاروا على التبت ورغبوا في العودة إلى سيتشوان، وقدموا أكثر من مئة شكوى». ولكن هذه الشكاوي ظلت في مكاتب الحكومة المحلية التابعة لسلالة (تشينغ) لأكثر من عشر سنوات دون أن يتم التعامل معها.

على الرغم من أن شعب منطقة (كانغ با) معروف بقوته، إلا أن تأثير البوذية عليهم لأكثر من ألف عام جعلهم يؤمنون بالقدر، ويتقبلون النظام الإقطاعي دون مقاومة. في هذا الوقت، عندما لم يتم الاستماع إلى التماساتهم، لم يعد بإمكانهم تحمل الوضع، فقاموا بالتمرد بقيادة (سا لا يونغ تشو)، الذي كان حدادًا.

تم حفظ قصة (سا لا يونغ تشو) في «الالتماس» الذي قدمه سكان (تشان دوي) إلى الحكومة المركزية في (تشينغ).

لم يكن (سا لا يونغ تشو) فقيرًا، بل كان من عائلة شيخ قبيلة صغير.

كان والده يدعى (آ قه)، «وقد أدى واجبه بعناية في عهد المسؤول التبتي السابق (بنغ راوبا) دون أي خطأ. ولكن المسؤول التبتي الجديد (سوكانغ سه)، بسبب خلافه مع (بنغ راوبا)، غضب على (آ قه). وبسبب أن شقيق (آ قه)، (سونغ لانغ جوه ماي)، قام بتزوير ختم المسؤول التبتي، قام (سوكانغ سه) بإلقائه في النهر ليموت، وصادر جميع ممتلكات عائلته.» كما قام بسجن (آ قه) وابنه (سا لا يونغ تشو) لمدة ثلاث سنوات.

قبل أن يكمل (سوكانغ سه) فترة خدمته ويعود إلى التبت، أخرج الأب والابن من السجن، وأمرهم بأن يقسموا أمام إلههم ألا يرفعوا شكوى إلى المسؤولين (الهانيين) أو التبتيين، ثم قام بابتزاز المزيد من المال منهم، وبعد ذلك أطلق سراح (سا لا يونغ تشو) ووالده. عندها، أصبحت العائلة بأكملها فقيرة جدًا، وكأنهم متسولون.

أصبح (سا لا يونغ تشو) حدادًا، وهي مهنة دنيئة.

في نظري، (سا لا يونغ تشو) هو البطل الحقيقي لـ(تشان دوي). لقد كان يحمل الكره في قلبه، وإلى جانب صناعة الأدوات اليومية للبيع، كان «يصنع سيفًا كل يوم، ولا يبيعه، بل يعطيه لأحد أقاربه الموهوبين، ويطلب منه الاحتفاظ به جيدًا. حتى لو أراد شخص ما شراءه بسعر مرتفع، فإنه لا يستجيب». في الواقع، كانت لديه طموحات كبيرة، وكان يجمع قوة التمرد بهذه الطريقة.

في خريف عام 1889، اندلع انتفاضة شاملة ضد المسؤولين التبتيين بقيادة (سا لا يونغ تشو) والراهب المحلي (با زونغ لاما) وغيرهم.

وعشية الانتفاضة، جمع (سا لا يونغ تشو) الناس وأقسم قائلاً: «أريد أن أزيل الشر عن الناس، فلا تقتلوا الأبرياء، ولا تنهبوا الممتلكات، وأغلقوا مخازنهم، حتى وصول المسؤولين (الهانيين). ومن يخالف ذلك، سأقتله بسيفي!»

انضم أكثر من ستة آلاف شخص من (تشان دوي) إلى التمرد، وهاجموا جميع القواعد العسكرية والمقرات الحكومية. وسرعان ما هزم الجيش التبتي، وفر أو قُتل. عندها، توسل المسؤول التبتي (تشينغ راوتسه بي)، الذي كان محاصرًا في مقر الحكومة، قائلاً: «بما أنكم لا تريدون أن تكونوا تحت حكم التبت، فسأعود إلى التبت.»

طالب المتمردون بإعادة الأموال التي نهبها، ولكن معظم الأموال كانت قد أرسلت بالفعل إلى التبت. ولم يتمكن المتمردون من استعادة سوى جزء صغير من الأموال التي لم يتم إرسالها بعد.

أراد المتمردون قتل المسؤول التبتي، ولكن الرهبان من المعابد في (تشان دوي) تدخلوا وناشدوا عدم قتله. وقالوا إن قتله سيكون مخالفًا للقانون، وطالبوا فقط بأخذ اسمه، والسماح له بالعودة إلى التبت، بل وقدموا له المال والسلاح ليقوم بالرحلة إلى منطقة شيخ قبيلة (ده قه) في الشمال الغربي.

لم يعد (تشينغ راوتسه بي) إلى التبت، بل هرب إلى منطقة شيخ قبيلة (لي تانغ)، وكان يخطط لشن هجوم مضاد.

□□□□ □□□.indd 254-255 2025-11-27 10:56:08

بعد انتصار تمرد (سا لا يونغ تشو) و(با زونغ لاما)، «قام سكان (تشان دوي)، في مناطقهم العليا والوسطى والسفلى، بحشد قواتهم» وقاموا بحراسة جميع الممرات ونقاط التفتيش المؤدية إلى (تشان دوي)، «ولم يسمحوا لأي شخص بالدخول أو الخروج».

في الوقت نفسه، استمر (سا لا يونغ تشو) ورفاقه في تقديم «التماسات» إلى الحكومة المركزية في (تشينغ)، يشكون فيها من المسؤولين التبتيين)، ويطالبون بالانضمام إلى الحكومة المركزية.

قال (تشي يوان)، الذي كان يشغل منصب جنرال (تشنغدو) في ذلك الوقت، في تقريره: «لقد تلقيت من قبل رسالة من قائد المتمردين، يذكر فيها مظالم المسؤولين التبتيين) ورفضهم الخضوع لحكم التبت). كانت كلماته منطقية، وقام بنشر قواته لحراسة الممرات في منطقة (تشان دوي) فقط، ولم يتعدّ على المناطق المجاورة».

وفي تقرير الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، على الرغم من أنه اعترف بأن سبب التمرد هو «الضرائب القاسية»، إلا أنه اتهم (سا لا يونغ تشو) ورفاقه بـ»التآمر مع القبائل البربرية لشن تمرد ضد التبت)، ومحاصرة المقر الحكومي، ونهب وحرق الأماكن».

في الواقع، كان (سا لا يونغ تشو) مدفوعًا بالغضب، وقاد التمرد. وبعد القضاء على الجيش التبتي) وطردهم للمسؤولين التبتيين)، أرسل رسائل متكررة إلى الحكومة المركزية في (تشينغ)، يطلب فيها الانفصال عن التبت والعودة إلى الحكم المركزي. ولم يكن لديه طموحات في أن يصبح «ملكًا» لـ(تشان دوي) أو لمناطق أكبر، مثل قادة التمرد السابقين من (بان قون) إلى (قونغ بو لانغ جيا)

بعد نجاح تمردهم، سمعوا أن (دنغ دنغ قونغ بو)، ابن (قونغ بو لانغ جيا)، هرب إلى القبائل البدوية في منطقة (قوو لوو) بعد هزيمة جيشه. فتشاوروا فيما بينهم لكي يعيدوه إلى (تشان دوي)، وينصبوه قائدًا للجيش المتمرد. وأرسلوا (با زونغ لاما)، وهو الرجل الثاني في التمرد، للذهاب إلى (قوو لوو) بنفسه لإعادته.

وجد (با زونغ لاما) بالفعل (دنغ دنغ قونغ بو) في قبائل (قوو لوو) البدوية. في ذلك الوقت، كان (دنغ دنغ قونغ بو) قد أصبح شعره نصف أبيض، وكان قادرًا على حشد عدة آلاف من الأشخاص في المنطقة. بالإضافة إلى ذلك، بعد هزيمته الكارثية قبل أكثر من عشرين عامًا، أدرك (دنغ دنغ قونغ بو) أنه لا يمكنه أبدًا أن يكون عدوًا للحكومة المركزية في (تشينغ). فقال لـ(با زونغ لاما) إنه لن يقود «قبائله البربرية» للعودة إلى (تشان دوي) إلا إذا حصل على «مرسوم من الإمبراطور الكبير، يمنحه لقبًا وشعارًا، ويسمح له بالعودة إلى (تشان دوي)»، وأن لديه «دليل مكتوب على ذلك». ثم أوصى (با زونغ لاما) بالعودة مع ابن أخيه، (قونغ بو تشوه تشيونغ)، ابن (دونغ دنغ قونغ بو)، وحفيد (قونغ بو لانغ جيا)، «الذي كان يرعى الأغنام في الجبال. يجب أن تعيدوه أولاً إلى (تشان دوي)، وتنصبوه قائدًا مؤقتًا.»

وهكذا، عاد (با زونغ لاما) أولاً إلى (تشان دوي) ومعه (قونغ بو تشوه تشيونغ)، ونصبه (سا لا يونغ تشو) وغيره من المتمردين قائدًا. يحتوي كتاب «وثائق دبلوماسية من أواخر عهد سلالة (تشينغ)» على ترجمة لـ»الالتماس» الذي قدمه (سا لا يونغ تشو) ورفاقه إلى الحكومة المركزية في (تشينغ)، وجاء فيه: «لقد رحب شعب (تشان دوي) بـ(قونغ بو تشوه تشيونغ) كزعيم جديد لهم، وأقسموا ألا يخضعوا لحكم التبت، ويرغبون في أن يصبحوا رعايا صالحين للإمبراطور العظيم، وألا يثيروا أي مشاكل، ويطلبون أن يتم ضمهم إلى الحكومة المركزية مثل شيوخ القبائل الآخرين.»

في الواقع، كان (قونغ بو تشوه تشيونغ) شخصية رمزية فقط، بينما كان (سا لا يونغ تشو) و(با زونغ لاما) هما القائدان الفعليان لجماهير الشعب المتمردة.

في ذلك الوقت، كانت الحكومة المركزية في (تشينغ) تعلم تمامًا بتمرد (تشان دوي)، الذي كان مختلفًا تمامًا عن التمردات السابقة ضد حكم الحكومة المركزية، لأنه كان ضد المسؤولين الفاسدين وحكمهم القاسي. ومع ذلك، تجاهلت الحكومة المركزية الالتماسات المتكررة من (تشان دوي)، وأصدرت أمرًا للوزير في التبت بأن تأمر حكومة (كاشاغ) «بعزل المسؤول (تشينغ راو تسه بي) الفاشل من منصبه والتحقيق معه»، وفي الوقت نفسه، أصدرت أمرًا آخر لـ (تشي يوان) جنرال تشنغدو، والحاكم العام (ليو بينغ تشانغ)»بإرسال جنود لقمع التمرد، وإيجاد طريقة لحله»، و»بضرورة تحديد قادة التمرد والقبض عليهم ومعاقبتهم».

بعد أن تلقى الحاكم العام (ليو بينغ تشانغ) المرسوم الإمبراطوري، أرسل على الفور القاضي المبتدئ (وانغ يان لينغ)، ونائب حاكم المحافظة (تشانغ بينغ هوا)، وقائد حامية (باتانغ) (لي دنغ شان) لقيادة الجنود سرًا لمهاجمة (تشان دوي).

.indd 256-257 2025-11-27 10:56:08

حملة بلاط (تشينغ) العسكرية الخامسة على (تشان دوي)

كانت هذه هي الحملة العسكرية الخامسة لسلالة (تشينغ) على (تشان دوي).

وهكذا، حاصرت القوات الهانية والتبتية التي أرسلها بلاط (تشينغ) منطقة (تشان دوي) مرة أخرى.

على عكس المسؤولين في سلالة (تشينغ) الذين خدعوا رؤساءهم وأخفوا الحقائق عن مرؤوسيهم خلال حملاتهم العسكرية السابقة على (تشان دوي)، فإن هؤلاء الذين كُلفوا بهذه المهمة هذه المرة، على الرغم من أن مناصبهم ليست رفيعة، فهم بالفعل، بالنسبة لبلاط (تشينغ) الإمبراطوري، عدد من الموظفين الأكفاء الذين «يعملون بجد وإخلاص».

قادوا جيش (تشينغ) من منطقة شيخ قبيلة (تشانغ قو) إلى حدود (تشان دوي)، وأقاموا معسكرًا في هذا المكان، من ناحية تحسبًا لـ (دنغ دنغ قونغ بو) من قيادة «قبائل البرابرة» من (قولوه) ونزولهم جنوباً من سهول الشمال؛ ومن ناحية أخرى، قاموا بتجنيد شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) في شرق (تشان دوي)، وشيخي قبيلتي (لي تانغ) و(با تانغ) في جنوب (تشان دوي)، «لقيادة جنودهم المحليين لإغلاق الممرات الرئيسية بشكل صارم».

بعد أن قام (تشانغ بينغ هوا) و(لي دنغ شان) بهذه الاستعدادات، أدركا أن تمرد (تشان دوي) لم يكن ضد البلاط الإمبراطوري، لذلك تجرأوا على الدخول إلى (تشان دوي)، تحت ذريعة مسح الحدود بين (تشان دوي) وشيوخ القبائل، وقاموا بعملية واسعة من الانقسام والحل. لم يشعر (سا لا يونغ تشو) وسكان (تشان دوي) بالخطر، لأنهم كانوا ينتظرون وصول المسؤولين من البلاط الإمبراطوري. سمحوا لهم بالتحرك بحرية في جميع أنحاء (تشان دوي). أعلن (تشانغ بينغ هوا) و(لي دنغ شان) للجماهير الشعبية في (تشان دوي) إن «الإمبراطور العظيم في صفهم»، وأنه سيتم بالتأكيد إلغاء حكم المسؤولين التبتيين القمعي. بهذه الطريقة، قاموا بخداع الجماهير المنتفضة لكي يلقوا أسلحتهم، وعزلوا قادة الانتفاضة. وبالفعل، وقع العديد من الجماهير في الفخ، فقاموا بجمع سيوفهم وبنادقهم وعادوا إلى الزراعة.

قام (تشانغ بينغ هوا)، عبر مترجم يدعى (لي تشاو)، برشوة (سا لا آ قه)، ابن أخ (سا لا يونغ تشو) وأحد قادة الانتفاضة، بالإضافة إلى عدد من رؤساء القبائل الصغار والكبار، واستغلوا هؤلاء الخونة «لتزويدهم بالمعلومات الاستراتيجية، ولحثهم على إقناع بعضهم البعض، مما يسمح بتحييد الدفاعات الذاتية، وإزالة الشكوك بين الجماهير، ثم يُقنعوا الأتباع المكرّهين بالانفصال، فيتفرق الأتباع، وتصبح (تشان دوي) معزولة بلا عونٍ ولا سند».

بعد أن قاموا بهذه الاستعدادات، وفي مارس 1890، قاد (شوليان كوي)، نائب القائد المتمركز في (دا جيان لو)، قواتٍ من الجنود البهان والمحليين، وتسللوا إلى (تشان دوي)، وحاصروا (سا لا يونغ تشو) والميليشيات التي كان يقودها. في هذه اللحظة، أدرك (سا لا يونغ تشو) أن «رجال إمبراطورية تشينغ العظمى» لم يأتوا لمساعدة شعب (تشان دوي)، بل ليبطشوا بهم بلا رحمة. أدرك أنه وقع في فخ كبير، فقاد رجاله في محاولة يائسة للهروب. خلال المعركة، قاتل (سا لا يونغ تشو) بشجاعة، ولكن ابن أخيه (سا لا آ قه)، الذي تلقى رشوة من جيش (تشينغ)، أطلق عليه النار من الخلف، فمات خلال محاولة الهروب.

عندما فشلوا في الهروب، تولى (با زونغ لاما) القيادة، وقاد رجاله للدفاع عن حصنهم.

لاحقًا، استعرض (تشانغ قنغ)، وهو وزير آخر مقيم في التبت، حالة المعركة في تقريره بعنوان «تقرير إخضاع برابرة (تشان دوي) والقبض على كبار الأشرار واحدًا تلو الآخر» على النحو التالي: «كان ارتفاع جدار الحصن الخارجي عدة أقدام، كانت هناك عدة طبقات من المباني المحيطة، وفي المنتصف، كان هناك برج محصن عالٍ يشمخ في السماء، وكانت الأبراج الصغيرة تحيط بالخارج وتتكامل في الدفاع. وقام (با زونغ لاما) بتوزيع أتباعه، وواصلوا القتال ببنادقهم من الداخل». وهكذا، استمر القتال لأكثر من نصف شهر، حتى وصل جيش (تشينغ) أخيرًا إلى الحصن، «فأمروا قوات النخبة بوضع ألواح مربعة فوق رؤوسهم للحماية، والحفر في جدار الحصن، وسدّ بوابة الحصن بالحطب والوقود»، استعداداً للهجوم على الحصن بإشعال النيران.

عندما رأى (با زونغ لاما)، الذي كان معزولًا وبلا مساعدة، أن الحصن على وشك السقوط، قاد رجاله لفض الحصار والهروب، وقُبض عليه بعد قتال عنيف. كما قُتل (قونغ بو تشوه تشيونغ)، حفيد (قونغ بو لانغ جيا)، الذي تم إعادته من (قولوه)، بعد أن أصيب بطلق ناري أثناء محاولة فض الحصار للهروب.

ونتيجة لذلك، قام بلاط (تشينغ) بقمع هذه الانتفاضة الشعبية الحقيقية على الأرض.

وإلى هنا، تكون هذه هي المرة الخامسة التي يشن فيها جيش (تشينغ) حملة عسكرية على (تشان دوي). أما بالنسبة لتلك المعارك ضد من عارضوا البلاط الإمبراطوري حقًا، فقد كانت كل منها مكلفة، ومحبطة في كثير من الأحيان، وبدأت بقوة وانتهت بضعف، ولم تحقق أي نتائج جيدة. ولكن هذه المرة، التي قمعت فيها انتفاضة شعب (تشان دوي) الذين كانوا يريدون الانضمام إلى البلاط الإمبراطوري من قلوبهم، حققت انتصارًا كاملاً. كانت هذه مأساة بالنسبة لشعب (تشان دوي)، ومفارقة سخيفة وكبيرة بالنسبة لبلاط (تشينغ)، الذي زعم دائمًا أنه «يستخدم الفضيلة لكسب الناس البعيدين».

[redacted].indd 258-259 2025-11-27 10:56:08

لم يكن بلاط (تشينغ) غير مدرك أن ثورة الشعب كان لها ما يبررها، ولكن قراره استخدام القوة العسكرية هذه المرة جاء لاعتبارات ما يُسمى بـ«الصالح العام/المصلحة العليا»، وهذا «الصالح العام»، كان يتمثل في العلاقة التي أصبحت حساسة للغاية في ذلك الوقت بين حكومة تشينغ المركزية وحكومة (كاشاغ). وكان الهدف من قمع ثورة أهالي (تشان دوي) هو استرضاء الطبقة العليا في التبت. لذلك، لم يُظهروا أي رحمة لـ (با زونغ لاما) بعد أسره، حيث قيل: «إن (با زونغ لاما)، المتمرد من (تشان دوي)، هو أول من حرض على الفتنة والتآمر مع قبائل البرابرة للسيطرة على الحصن وطرد المسؤولين، وجرمه عظيم وخطير. والآن، وبعد أن ثبتت إدانته بوضوح من خلال استجواب (تشانغ قنغ) وغيره، يُرسل فوراً للإعدام والصلب، ليكون عبرة واضحة. ما هي هذه العبرة الواضحة؟ إنها أن مسؤولي حكومة (كاشاغ)، سواء كانوا رجال دين أو علمانيين، بغض النظر عن مدى قسوتهم وظلمهم الشخصي وتعذيبهم للشعب، يجب على الأهالي أن يتقبلوا مصيرهم وألا يقاوموا أبداً. في جميع العصور والعهود، كان ما يُسمى بحكم التبت وتأمين الحدود يدور حول كسب ود النخب الدينية والعلمانية العليا، دون إظهار أي تعاطف مع آراء ومشاعر الناس. هذه السياسة في حكم التبت، إذا تأملناها اليوم، فإنها لا تخلو من دروس وعبر ذات مغزى!

بهذه الأيديولوجية، أصبحت بعض الإجراءات اللاحقة التي اتخذها بلاط (تشينغ) الإمبراطوري، بعد إخماد التمرد الخامس في (تشان دوي)، مجرد إجراءات شكلية، ومن أمثلتها ما يُسمى بإدراج «ثماني نقاط مقترحة حول السياسات القمعية الواجب حظرها» وعبارة «تهدئة المنطقة».

بعد عامين، رفع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (شنغ تاي)، تقريرًا حول كيفية التعامل مع المسؤول التبتي (تشينغ راوتسه بي)، الذي تسبب في تمرد (سا لا يونغ تشو) في (تشان دوي): «أظهر التحقيق أن الحكم القاسي للمسؤول التبتي السابق (تشينغ راوتسه بي) كان بالاتفاق مع شيخ القبيلة (سي لانغ وانغ دوي) وابنه (جيان تسان زا با)». وهذا يعني أن هذا الشخص، بعد عودته إلى التبت، استخدم الأموال التي نهبها من (تشان دوي) لتخفيف العقوبة، وأعلن أنه لم يرتكب أي حكم قاسٍ، بل كان فقط مهملاً في واجبه. ولذلك، طلب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت في تقريره «إعفائه من العقوبة».

صدر المرسوم الإمبراطوري بـ: «الموافقة"

في هذه الأثناء، كان المسؤول التبتي الجديد قد بدأ عمله في (تشان دوي)، وكرر نفس الأخطاء القديمة.

يا للأسف على الحداد (سا لا يونغ تشو)!

يا للأسف على الراهب (با زونغ لاما)!

وا أسفاه على أهالي (تشان دوي)!

تجدر الإشارة إلى أن هذه الحقائق التاريخية حظيت باهتمام خاص من قبل الغربيين بطريقتهم الخاصة. ففي كتاب الإيطالي (بيداك) «النبلاء والحكومة في التبت»، يتم تسجيل هذا الحدث على النحو التالي: «في عام 1889، اندلعت اضطرابات في تلك المنطقة، مما أدى إلى طرد الحاكم التبتي الرئيسي... تطلب الوضع من الحاكم العام لسيتشوان أن يعزز مرة أخرى الحكم المباشر للهان. وفي مواجهة هذا الوضع الصعب، أرسلت حكومة لاسا (هوه إركانغ ساي) و(كانغ بو لو سانغ زا شي) للتحقيق. بعد فترة وجيزة، تولى (هوه إركانغ ساي) منصب كبير الحكام المحليين، ونجح في قمع التمرد. وقام حاكم سيتشوان العام بإعدام أحد القادة، (با زونغ لاما)، علنًا، وقاضى أتباعه الرئيسيين وفقًا للقانون.»

يجب التنويه هنا إلى أن الصين في ذلك الوقت كانت تحت حكم أباطرة المانشو من سلالة (تشينغ)، ولم تكن «تحت الحكم المباشر لشعب الهان».

هذا كتاب أكاديمي يتمتع بسلطة وموثوقية عالية؛ يصوّر الأحداث الدموية والعنيفة بهدوء تام وبأسلوب أكاديمي أنيق! لكن ميوله لا يزال صعب الإخفاء؛ غير أن هذا التعاطف لم يقع على أكثر من يستحقونه أمثال (سا لا يونغ تشو) و(با زونغ لاما)!

.indd 260-261 2025-11-27 10:56:08

الفصل السابع

من بين الحملات الست التي شنتها سلالة (تشينغ) على (تشان دوي) ، تُعد هذه الحملة هي الأكثر حسمًا واتقانًا. والسبب في هذا النصر العظيم بسيطًا للغاية أيضًا، فبعد حركة تعزيز الذات، المعروفة أيضًا باسم حركة التغريب، امتلك جيش (تشينغ) بعض الأسلحة الحديثة. كانت المتفجرات هي الأسلحة الأكثر فتكاً في معركة الهجوم على (تشان دوي). لكن هذه المعركة التي كانت الأكثر سلاسة وروعة أدت إلى نتائج سخيفة للغاية.

.indd 262-263 2025-11-27 10:56:08

إهمال دمّلة قد يسبّب نكبة

نتيجةً لنهج بلاط (تشينغ) المتمثل في تهدئة الأمور واللامبالاة والإهمال، حدث أمرٌ آخر في (تشان دوي) بعد ست سنوات.

ففي العام الحادي والعشرين من عهد الإمبراطور (قوانغ شو)، الموافق ١٨٩٥م، تلقى البلاط مذكرة أخرى تفيد بأن: «المسؤول التبتي في (تشان دوي)، (دوي دوي دوه جي) وآخرين، قاموا بمطاردة سكان قرى (وا شو) الثلاث كذريعة بهدف ضم منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ). وقد تجرأوا على قيادة أكثر من ألف جندي والتوغل عميقًا، مما أدى إلى قتلى وجرحى من الجانبين، وقدم (شانغ شانغ) الحماية الكاملة لهم». وكما ذكرنا سابقًا، فإن كلمة «(شانغ شانغ)» هي ترجمة صوتية من اللغة التبتية، وهي في الأصل تشير إلى الهيئة المتخصصة التي تدير الشؤون المالية والإدارية للدالاي لاما، وتُستخدم أحيانًا للإشارة إلى حكومة (كاشاغ) في كتب تاريخ سلالة (تشينغ).

وبطبيعة الحال، شعر الحكام بالغضب من تجاوز القوات التبتية في (تشان دوي) للحدود، قائلين: «... قيادة القوات لتجاوز الحدود بهدف ضم منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) هو عمل شرير للغاية ومتهور». وصدر مرسوم بإقالة المسؤول التبتي (دوي دوي دوه جي) والمسؤول الراهب (بي شي توبودان) من منصبيهما، وأُمر الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت بترجمة هذا المرسوم إلى اللغة التبتية وتسليمه إلى حكومة (كاشاغ)، مطالبين إياهم «بتعيين مسؤولين أكفاء آخرين لتولي المسؤولية». لاحقًا، لم يتم تلبية هذا الطلب الموجه لحكومة (كاشاغ) لتغيير المسؤولين في (تشان دوي). وذلك لأنه في ذلك الوقت، كان مساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت المعين حديثًا، (نه تشين)، في طريقه من (سيتشوان) إلى التبت لتولي مهام منصبه، وكان سيمر عبر المنطقة التي تجاوز فيها المسؤول التبتي الحدود وأحدث الاضطرابات. وعندما سمع المسؤول التبتي بذلك، خشي من تفاقم الأمور وصعوبة السيطرة عليها، «فسحب قواته على الفور». وعليه، أصدرت العاصمة مرسومًا آخر مفاده: «بما أن هؤلاء المسؤولين التبتيين لا يزال لديهم بعض الخوف، فيمكن إغتنام فرصة لإرشادهم وتوجيههم».

يُوصف هذه الصراع في كتاب «نبلاء التبت وحكومتها» الذي ألفه غربيون على النحو التالي: «في أواخر عام 1895م، اعتدى شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) على (تشان دوي). فقام المسؤول التبتي الرفيع، (دوي دوي دوه جي)، بالاحتجاج ومقاومة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) والرد على اعتداءاته. اعتبر حاكم (سيتشوان) العام، (لو تشوان لين)، ذلك غزوًا على الأراضي الصينية. بناءً على طلبه، طلب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (تسوي هوان)، من الدالاي لاما استدعاء (دوي دوي دوه جي) وزميله المسؤول الراهب (كانتشونغ بي شي توبودان) ورفع دعوى قضائية ضدهما، لكن الدالاي لاما رفض تنفيذ ذلك. بقي المسؤولان في (تشان دوي)، ونظّما المقاومة، وعيّنا (تسي تشونغ تسه تشونغ تشابا) قائدًا لقواتهما المسلحة.»

في هذا الوقت، بدأت بعض الإجراءات التي اتُخذت ضمن حركة تعزيز الذات و»السياسات الجديدة في أواخر عهد سلالة (تشينغ)» بالوصول إلى المناطق التبتية.

في البداية، اقترح حاكم (سيتشوان) العام، (لو تشوان لين)، الشروع في أعمال التعدين في (سيتشوان). لكن «جميع المعادن في مقاطعة (سيتشوان) تقع في أراضي شيوخ القبائل من الأقليات العرقية». أما بالنسبة للمناطق «القريبة من المقاطعة والتي يكون فيها شيوخ قبائل مطيعين، فيجب إرسال موظفين لإجراء مسح تفصيلي وتنفيذ العمل بجدية». أما بخصوص «(دا جيان لو) المتاخمة للتبت، فبمجرد محاولة توجيه شيوخ القبائل لتجريب العمل، حدثت فوضى وتجمعات لإثارة الشغب». وبما أن هذه المناطق، وخاصة مناجم الذهب على طول النهر، سهلة الاستخراج للغاية، فإنها فرصة جيدة لتعزيز الخزانة الخاوية لسلالة (تشينغ)، لذلك، طلب بلاط (تشينغ) الإمبراطوري من جانب (سيتشوان) «دراسة الوضع بعناية والمضي في التعدين حسب تقديرهم».

في العام الثاني والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو) (1896م)، وبالنظر إلى «بطء التقارير والمراسلات بين (سيتشوان) والتبت، فقد اقتُرح مد خط تلغراف من (تشنغ دو) إلى (دا جيان لو) أولاً".

لقد تم مد خط التلغراف، وبات من الممكن إرسال البرقيات، لكن الأخبار التي تصل إلى العاصمة عبر التلغراف كانت في الغالب أخبارًا سيئة ومزعجة، إلا أنها كانت تصل بشكل أسرع.

وفيما يلي بعض المقتطفات العشوائية:

"خلاف بين غوكرو والتبت، يُرجى إرسال موظفين عن طريق البحر عبر الهند للتحقيق وحل المشكلة، ويُطلب تخصيص نفقات عامة إضافية."

"وفقًا لما قدمه كاهن بارلادانغ تشوي مو بارل، في السنوات الأخيرة، تعرض مبعوثو الجزية إلى العاصمة مرارًا للغش والاحتيال من قبل الرهبان والتجار المقيمين في معبد باجوتا وغيرها، يرجى إصدار أمر باستدعائهم للتحقيق."

"(لو تشوان لين) يرفع مذكرة تفيد بأن المسؤول التبتي في (تشان دوي) قد قاد قواته مرة أخرى خارج معقله وتجاوز الحدود وأحدث اضطرابات، ورفض التوجيهات."

"المسؤول التبتي في (تشان دوي) والذي تجاوز الحدود وتورط في نزاع مسلح مع شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) العام الماضي، أُمر بتجريد المسؤولين المدنيين والرهبان التبتيين المقيمين في (تشان دوي) من مناصبهم من قبل (لو تشوان لين) وآخرين، وقد وافق المرسوم الإمبراطوري على ذلك. ومع ذلك، لم يمتثل هذا المسؤول المخلوع لأمر التغيير، وقاد قواته مؤخرًا مرة أخرى لتجاوز الحدود وإثارة المتاعب، وتدخل في قضية شيخ قبيلة (تشانغ قو)، وأجبره على كتابة تعهد بالولاء لـ (تشان دوي).»

لقد تفاقمت الأمور أكثر مما كانت عليه. لم يقتصر الأمر على إرسال القوات لغزو شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، بل تدخل أيضًا في قضية شيخ قبيلة (تشانغ قو).

[redacted].indd 264-265 2025-11-27 10:56:08

لقد أصبحنا على دراية تامة بـ شيخ قبيلة (تشانغ قو) الواقع في (لوهوه)

عندما أحدث (قونغ بو لانغ جيا) الفوضى في منطقة (كانغ)، كان شيخ قبيلة (تشانغ قو) هو أول من تضرر. تسجل كتب تاريخ سلالة (تشينغ) أنه بعد أن قامت القوات التبتية بالتهدئة في (تشان دوي)، عاد شيخ قبيلة (تشانغ قو) التاسع إلى منطقته واستعاد منصبه. في هذا الوقت، لم يحتل الجيش التبتي (تشان دوي) فحسب، بل احتل أيضًا أراضي شيخ قبيلة (تشانغ قو). تذكر السجلات التاريخية المحلية لـ (قان تسي)، «نظرة عامة على شيوخ قبيلة (تشانغ قو) التابعة لقبائل (هوه أر) المنغولية الأصل، أنه بعد تهدئة الوضع في (تشان دوي)، أعاد الجيش التبتي سلطة شيخ قبيلة (تشانغ قو). وبعد وفاة شيخ قبيلة (تشانغ قو) التاسع، تولى (جا شي وانغ جيا) منصب شيخ قبيلة (تشانغ قو) العاشر. وفي الوقت نفسه، عين الجانب التبتي مسؤولًا راهبًا ليتولى منصب (تسونغ بن) الإداري في (تشانغ قو)، لإدارة أراضي (تشانغ قو). تذكر السجلات التاريخية المحلية أن (جا شي وانغ جيا) نشأ وسط الحروب والاضطرابات منذ صغره، وافتقر إلى التعليم، ولم تكن لديه القدرة على الحكم. أضف إلى ذلك أنه يخضع لسلطة (تسونغ بن) التبتي، وبالتالي لم يكن يتدخل في شؤون الحكم بعد توليه المنصب. في عام 1896، توفي (جاشي وانغ جيا). وبما أنه لم يكن لديه أبناء، انقطع نسل شيخ قبيلة (تشانغ قو). أثار هذا الفراغ في منصب الشيخ صراعًا بين الأقوياء داخل (تشانغ قو). كما طمع شيخ قبيلة (تشو وو) وشيخ قبيلة (ما شو) المجاورتان، وغيرهم، في أراضي وسكان (تشانغ قو)، وتدخلوا في الصراعات العلنية والخفية حول منصب شيخ القبيلة.

وفقًا لسجلات «ملخص شؤون التبت في عهد سلالة (تشينغ)»، توفي شيخ قبيلة (تشانغ قو) التاسع في السنة الثامنة عشرة من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، ولم يكن لديه أبناء يخلفونه. خلفه شيخ قبيلة (تشانغ قو) العاشر (جاشي وانغ جيا) شيخ قبيلة (ماشو)، ، وأصبح بذلك (الوريث لأسرتين) في (تشانغ قو). في النظام الأبوي الإقطاعي، يعني هذا أن رجلاً واحدًا يتحمل مسؤولية استمرارية أسرتين في نفس الوقت. ويقال إن هناك دراسات تشير إلى أن قاعدة «ابن واحد يرث أسرتين» كانت قاعدة خاصة وُضعت خلال فترة حكم الإمبراطور (تشيان لونغ).

أثارت (الوصاية على أسرتين) التي حظي بها شيخ قبيلة (ماشو) لتولي منصب شيخ قبيلة (تشانغ قو) غضب شيخ قبيلة (تشو وو)، الذي تتشارك أراضيه مباشرة مع (تشانغ قو). تشير الأساطير إلى أن قبيلتي (تشو وو) و(ماشو) تنحدران من جد مغولي واحد. وفي هذا الوقت، العلاقة بينهما علاقة مصاهرة، حيث أن زوجة شيخ قبيلة (ماشو) هي ابنة شيخ قبيلة (تشو وو). بعد وفاة شيخ قبيلة (تشانغ قو) التاسع بالمرض، حث شيخ قبيلة (تشو وو) ابنته على «أخذ أوراق وختم شيخ قبيلة (تشانغ قو) والعودة بها إلى (تشو وو) للاحتفاظ بها». لم يرضَ شيخ قبيلة (ماشو) عن ذلك، فرفع دعوى قضائية إلى مكتب حكومة (تشينغ) في (دا جيان لو). «وعلى الرغم من أن المسؤولين المدنيين والعسكريين في (دا جيان لو) حثوا شيخ قبيلة (تشو وو) مرارًا وتكرارًا على تسليمها، إلا أنه لم يرفض التسليم فحسب، بل تجرأ أيضًا على إعلان نيته التوجه إلى المسؤولين التبتيين في (تشان دوي) لمناقشة الأمر.» في السنة الثانية والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، حشد شيخ قبيلة (تشو وو) قواته المحلية «وتواطأ مع قوات (تشان دوي) التبتية الإضافية للمساعدة في مهاجمة أراضي شيخ قبيلة (تشانغ قو)». في الواقع، تجاوز الجيش التبتي في (تشان دوي) الحدود لمساعدة شيخ قبيلة (تشو وو) في مهاجمة شيخ قبيلة (ماشو).

وهذا ما ورد في المذكرات المرفوعة من قبل حاكم (سيتشوان) العام والوزير الإمبراطوري المقيم في التبت بخصوص «التدخل في قضية شيخ قبيلة (تشانغ قو)»

في الوقت نفسه، كان المسؤولون التبتيون في (تشان دوي) يتدخلون في النزاعات الداخلية لعائلة شيخ قبيلة (كونغ سا) التابعة لقبائل (هو أر) المنغولية الأصل. في ذلك الوقت، ساءت العلاقة بين شيخ قبيلة (كونغ سا) السابع وزوجته، مما أدى إلى انقسام أتباعهما إلى فصيلين. اشتبك الفصيلان في صراعات أسفرت عن عدة حوادث دموية. وفي الأخير، حاصر فصيل الزوجة الحصن، وهرب شيخ القبيلة. وسيطرت الزوجة على سلطة شيخ القبيلة بفضل دعمها المالي. كانت أراضي شيخ قبيلة (كونغ سا) في الأصل قد استعادها الجيش التبتي من (قونغ بو لانغ جيا). وبطبيعة الحال، بعد عودة شيخ القبيلة إلى منصبه، ابتعد عن بلاط (تشينغ)، واعتمد على المسؤولين التبتيين في (تشان دوي)، حيث كان يبلغهم بكل ما يحدث. وقد توسط المسؤولون التبتيون المقيمون في (تشان دوي) في هذا النزاع الداخلي لعائلة شيخ قبيلة (كونغ سا). وكانت نتيجة الوساطة: إنهاء العلاقة الزوجية بين الزوجة وشيخ القبيلة، وتنازل كل من الزوجة وشيخ القبيلة عن المنصب، وانتقال السلطة إلى شيخ قبيلة (كونغ سا) الثامن.

كانت عائلات شيوخ القبائل هذه، في عهد أسلافها، قادرة على حماية أراضيها وضمان سلامة سكانها، وجمع الناس للزراعة والرعي، وكمجتمعات قبلية بدائية، تقبلت الثقافة البوذية وساعدت على نشرها، مما لعب دورًا تقدميًا في التاريخ. لكن منذ ذلك الحين، استمروا على نفس النهج القديم، متمسكين بالتقاليد، ورغم رغبتهم في تكديس الثروة وزيادة قوتهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك من خلال تحديث أساليب الإنتاج وأشكاله التنظيمية، أو تطوير الصناعة والتجارة. كانت وسيلتهم الوحيدة هي التنافس على الأراضي والسكان، وكانت النتيجة صراعات داخلية وخارجية أدت إلى تدهور معيشة الناس، وتقلص عدد السكان، وضعف عائلات شيوخ القبائل نفسها تدريجيًا.

□□□□ □□□.indd 266-267 2025-11-27 10:56:09

في صيف العام الثاني والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو) (1896 م)، قاد المسؤول التبتي في (تشان دوي)، (تسه تشونغ تشا با)، قواته مباشرة إلى (تشانغ قو) للتدخل في الصراعات بين شيوخ القبائل. أرسل (لو تشوان لين) رئيس الشؤون الخارجية، (لو يي لي)، على رأس قوة عسكرية لقمع الاضطرابات. وقع اشتباك مسلح بين جيش (تشينغ) والجيش التبتي في (تشان دوي) حيث هُزم (تسه تشونغ تشا با) في المعركة، وتراجع عائدًا إلى (تشان دوي). بعد تلقي التقرير، في خريف العام الثاني والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، أصدر بلاط (تشينغ) أمرًا بشن حرب على (تشان دوي). وجاء في الأمر: «لقد تم توجيه سكان (تشان دوي) مرارًا وتكرارًا، لكنهم قاوموا ولم يمتثلوا... وتجرأوا على إطلاق النار على المسؤولين والجنود، وقد بدأت الأعمال العدائية بالفعل، ولا بد من شن حملة عقابية شديدة.»

هذه هي المرة السادسة التي تستخدم فيها سلالة (تشينغ) القوة العسكرية في (تشان دوي)، والتي أصبحت اليوم مجرد محافظة.

الحملة العسكرية السادسة لبلاط (تشينغ) على (تشان دوي)

كان (لو تشوان لين)، الذي طالما دعا إلى استعادة (تشان دوي)، مستعدًا مسبقًا، وبمجرد تلقيه الأمر، شن هجومه فورًا.

«تم اقتحام حصن المتمرد (تشو وو) وحصن (تشان فان شين)، لكن المتمرد (تسه تشونغ تشا با) تمكن من الفرار مستغلاً الفوضى.» وعلى الفور، أصدر (لو تشوان لين) أمرًا للجنرال (تشو وان شون) بقيادة القوات لمطاردته، وفي الوقت نفسه، حشد قوات شيوخ القبائل من (مينغ تشنغ) و(لي تانغ)، «لتكون جاهزة للانضمام كدعم إضافي».

في هذا الوقت، بدأ بلاط (تشينغ)، الذي أصدر أمرًا بقمع التمرد، يشعر بالقلق. ولحسن الحظ، مع وجود التلغراف، أصبح نقل الأخبار أسرع بكثير. بعد ثلاثة أيام، أرسل بلاط (تشينغ) «برقية إلى (لو تشوان لين)، تفيد بأن التدخل في شؤون الدالاي لاما في قضية (تشان دوي) قد يؤثر على الوضع العام في التبت والصين. فهل ستتمكن القوات الإضافية من قمع التمرد؟ وطُلب من (لو تشوان لين) إرسال برقية في أي وقت للاطلاع على الوضع.»

أما (لو تشوان لين)، فقد كان يفكر بالفعل في ترتيبات ما بعد (تشان دوي)، داعيًا إلى سياسة «حماية (سيتشوان) والسيطرة على التبت»: «اقترح «تعيين مسؤولين مدنيين بعد استعادة المناطق الثلاث في (تشان دوي)». بمعنى آخر، كان حاكم (سيتشوان) العام الطموح هذا يخطط بالفعل لطرد المسؤولين التبتيين بعد الحرب، و«تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين» في (تشان دوي) والمناطق الأخرى، وإنشاء هياكل إدارية يديرها مسؤولون مدنيون معينون من قبل البلاط.

في هذا الوقت، كان بلاط (تشينغ) يقدر ويدعم مقترحات (لو)، وأشاد به قائلًا إنه «يسعى دائمًا لتعزيز الدفاعات وإزالة التهديدات الخفية".

بعد أن دخل جيش (تشينغ) إلى (تشان دوي)، اكتشفوا أن المسؤولين التبتيين المقيمين في (تشان دوي)، (دوي دوي دوه جي) و(بي شي تو بودان)، اللذين أمر بلاط (تشينغ) بعزلهما قبل عام، ما زالا في المنطقة، ويقودان الجيش التبتي لمقاومة جيش (تشينغ). لكنهما سرعان ما هُزما وتراجعا أمام هجوم القائد (تشو وان شون) الشامل من ثلاثة محاور. أما في (تشانغ قو)، فقد هُزم شيخ قبيلة (تشو) الذي استولى على ختم شيخ قبيلة (تشانغ قو)، وهرب متخفياً حاملاً ختم شيخ قبيلة (تشانغ قو) وختمه الخاص.

□□□□ □□□.indd 268-269 2025-11-27 10:56:09

سارت مجريات المعركة بسلاسة. اقترح (لو تشوان لين) مباشرة على البلاط الإمبراطوري: «بناءً على الوضع العام بين (سيتشوان) والتبت، أنه من الضروري تغيير نظام (تشان دوي) إلى مسؤولين صينيين."

لكن البلاط الإمبراطوري في هذه الأثناء تردد مجددًا، وأرسل برقية إلى (لو تشوان لين) تفيد بأن: «استخدام القوة العسكرية في (تشان دوي) هو إجراء مؤقت، وبعد استقرار الوضع، يجب إعادة النظر في ما إذا كان ينبغي تعيين مسؤولين تبتيين مرة أخرى»، و»لا يمكن أن نلوم اللاما بشدة بسبب هذا، مما قد يؤدي إلى مشاكل أخرى. شؤون التبت حساسة، وعلى الحاكم وغيره التخطيط الشامل، وعدم التهور».

بينما كانت المراسلات تذهب وتأتي، كانت القوات الصينية والمحلية بقيادة (تشو وان شون) تخوض معارك ضارية، مقتربة من (تشان دوي) الوسطى، حيث تقع حصون المسؤولين التبتيين، وهي المنطقة التي تقع فيها مدينة (شين لونغ) حاليًا. يقع هذا المكان على الضفة الغربية لنهر (يا لونغ) بينما تقف على الضفة الشرقية جبال شديدة الانحدار تصل إلى حافة النهر مباشرة، ويوجد جسر يربط الضفتين. عندما زرت هذا الموقع القديم الذي شهد معارك شرسة، وجدت اختلافًا عن الماضي: الجسر الخشبي التبتي القديم قد استُبدل بجسر خرساني مقوس يتسع لمركبات الشحن الكبيرة. تغير الجسر، لكن الوضع الجغرافي لم يتغير. الضفة الغربية للنهر أقل انحدارًا قليلًا، وهناك هضبة مائلة على ضفة النهر، حيث كانت تقع مكاتب المسؤولين التبتيين وحصون الجيش التبتي. حفر الجيش التبتي خنادق عميقة وبنى تحصينات عالية، عازمًا على خوض معركة حاسمة ضد جيش (تشينغ) هنا. المعركة جديدة، والخصم جديد، لكن الوضع مطابقًا تقريبًا للهجمات السابقة على (تشان دوي). «يتكون معقل المتمردين من حصنين كبيرين قديم وجديد، متصلين ببعضهما البعض، وكلاهما شديد الارتفاع والتحصين. خارج الحصنين القديم والجديد، يوجد سبعة عشر حصنًا صغيرًا تحيط بهما من ثلاث جهات، ثلاثة منها أحرقها اللصوص بأنفسهم، بينما البقية منتشرة وموزعة مثل أحجار رقعة الشطرنج، تدعم بعضها البعض.» بالإضافة إلى ذلك، يوجد ثلاثة أبراج مراقبة على الجبل الأيمن للمعسكر، مرتبة على شكل رمز «品» الذي يشبه ثلاث مربعات متصلة، لتشكل درعًا للحصن الجديد. وأمام الحصنين الجديد والقديم، يوجد أربعة حصون مائية تدعم بعضها البعض، مما يجعله مكانًا يسهل الدفاع عنه ويصعب الهجوم عليه. الأصعب من ذلك هو أن جيش (تشينغ) كان على الضفة الشرقية، وعندما تراجع الجيش التبتي، دمر الجسر المؤدي إلى الضفة المقابلة. قام جيش (تشينغ) في الخطوط الأمامية على عجل ببناء قوارب من جلد البقر، «حيث قصفوا الضفة بالبنادق الحديثة» لتغطية عملية العبور بالقوة. في الوقت نفسه، قاموا بالالتفاف عن طريق عبور النهر من جسر (بوري)، الذي يقع على بعد حوالي مائة لي من (تشان دوي) الوسطى في اتجاه المنبع. وأخيرًا حاصروا الجيش التبتي في (تشان دوي) الوسطى.

كان (تشو وان شون)، الذي يقود القوات في الخطوط الأمامية، بارعًا في التكتيكات: فقد «أعد دروعًا خشبية سميكة للغاية لصد الرصاص والحجارة»، وحفر أنفاقًا عميقة وصلت إلى ما بعد أسوار الحصن، عندها فقط حث الجنود على الهجوم. وقد سجل (لو تشوان لين) بالتفصيل مجريات الحرب في مذكراته، تاركًا لنا تفاصيل حية عن تلك المعارك في ذلك الوقت.

في فجر يوم الثامن والعشرين من الشهر الثامن من السنة الثانية والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، بدأت رسميًا معركة الهجوم على المعقل المركزي للجيش التبتي المتمركز في (تشان دوي).

"تقدمت كل الكتائب بقيادة القائد الجديد (تشو وان شون)، وهاجمت الحصن المائي الأول مباشرة. أطلق المتمردون النار ورموا الحجارة، لكن جيشنا دافع عن نفسه بالدروع الخشبية، وتقدم بشجاعة. تراجعوا وتقدموا بالتناوب حتى حلّ الظلام، عندها فقط وصلوا إلى قاعدة الحصن». ترك (لو تشوان لين) أيضًا أسماء الضباط ذوي الرتب المنخفضة: «قاد (تساو هواي جيا)، و(تشو لان تينغ)، و(ما جي)، و(لي تشاوفو)، و(يان مينغ تشينغ)، وغيرهم، وحداتهم من الجنود الشجعان للهجوم من الجهات الأربع. أشرف ضابط الحراسة (تشن يوجين) على الجنود وعمال المناجم في حفر أسوار الحصن. تساقطت الرصاصات والحجارة كالمطر من أعلى الحصن، تبعتها مياه مغلية، وقامت حصون المتمردين القريبة بإطلاق النار والقذائف من كل جانب، مما ألحق خسائر فادحة بجيشنا. خرج عشرات من المتمردين الأشداء من الحصن الكبير الجديد، وتقدموا مباشرة لتقديم المساعدة. لوّح (تشن يوجين) برمحه واقتحم الصفوف، وقاوم بشجاعة، وقطع رؤوس العديد من المتمردين الأشداء، عندها بدأ المتمردون في التراجع». لكن جيش (تشينغ) فشل في حفر النفق لأنهم واجهوا صخورًا ضخمة. «كان الفجر قد أوشك على البزوغ، وبدأ جيشنا في التراجع إلى قاع الخندق، أصيب (تشو لان تينغ) وضابط الحراسة (تشانغ يولين) بجروح من الحجارة، وقُتل جندي شجاع، وأصيب أحد عشر آخرون».

بعد أن استراحت القوات نهارًا، شنت هجومًا جديدًا على هذا الحصن المائي ليلة التاسع والعشرين. في الوقت نفسه، قامت بهجوم تمويهي على حصون أخرى لتشتيت انتباه العدو، وواصلت حفر الأنفاق بقيادة ضابط جديد يُدعى (لي في لونغ). «عاد عشرات من المتمردين من الحصن الكبير لتقديم المساعدة، واشتبكوا مباشرة مع قواتنا. بعد أن قام كل من (ما جي) والضابطين (آي رونغ هوا) و(ما شيانغ تشيان) بتقسيم قواتهم للتصدي لهم، قُتل ثلاثة من المتمردين، ثم فروا. ومع ذلك، استمرت القذائف والحجارة تتساقط كالمطر من أعلى الحصن، وأصيب كل من (يان مينغ تشينغ) و(تشن يوجين). وعند الضربة الرابعة للجرس (الضربة الرابعة للجرس هي بحلول الساعة 1 ~ 4 صباحاً) تم الانتهاء من حفر النفق. سارع الضابط (تشن تشانغ شين) بحمل برميلين من المتفجرات ووضعهما داخل النفق، ثم أشعل النار فيهما، فانهار سور الحصن على الفور. استغلت قواتنا الفرصة وهاجمت، وتم حرق وقتل جميع المتمردين في الحصن دون ترك أحد، وتم أسر امرأة من التبت حاولت الفرار، وزعيم قبلي من (قونغ تشو)، وزعيم قبلي من (تشووو)، واثنين من الزعماء القبليين من (تشايا). كما فقدت قواتنا جنديًا واحدًا، وخمسة من المقاتلين (المتطوعين) الشجعان.»

وهكذا تم الاستيلاء على أول حصن من الحصون المائية الأربعة الخارجية.

□□□□ □□□.indd 270-271 2025-11-27 10:56:09

في ليلة الثلاثين، كررت القوات نفس التكتيكات، مهاجمة الحصن المائي الثاني. ولكن المختلف هذه المرة، لم تخرج أي تعزيزات من الحصن الكبير حتى بعد أن دُمر الحصن المائي مرة أخرى بالمتفجرات الموضوعة في النفق.

في الأول من سبتمبر، لاحظت قوات (تشينغ) أن تركيز الجيش التبتي في (تشان دوي) ينصب على الدفاع عن الحصنين المائيين المتبقيين، فقررت بشكل مفاجئ التخطيط للهجوم على أبراج المراقبة الواقعة على الجبل الأيمن للمعسكر الكبير. في تلك الليلة، «أمروا (يان مينغ تشينغ) ورفاقه بالتوجه ليلاً للهجوم، بينما انضم (تساو هواي جيا) و(لي في لونغ) وجنود (مينغ تشنغ) المحليون للاختباء والاستعداد للدعم. في منتصف الليل، تقدموا بسرعة في صمت حتى وصلوا إلى وكر العدو. واجههم العدو بالرماح الطويلة والحجارة، لكن قوات (لي في لونغ) بقيادة الضابط (تشن شوشين) خرجت من الكمين فجأة، فلم يتمكن العدو من تحقيق غايته، وأصيب العديد من جنودنا أيضًا. كان هذا البرج قائمًا مباشرة على الصخر، والطريق إليه شديد الانحدار والخطورة، وكان يشكل نقطة دعم متبادلة مع الحصن الجديد. في ذلك الوقت، كانت المدافع البرونزية تقصف قواتنا وتتسبب في مقتل جنودنا، مما جعل التقدم صعبًا فجأة. بينما كنا في مواجهة، سمعنا فجأة صوت انفجار مدفع برونزي في الحصن الجديد، وصيحات بكاء هزت السماء. سارع الضابط (يانغ يين تانغ) بإطلاق قذيفة مدفعية كبيرة، فاندفعت قواتنا إلى الأمام وحفرت نفقًا بسرعة. تم ملء النفق بالمتفجرات على عجل، مما أدى إلى انهيار جدار البرج، واقتحمت قواتنا البرج مستغلة الفرصة، وقضت على جميع المتمردين الأشداء داخله بالكامل. أصيب الضابطان (دينغ يوتانغ) و(ليو تشانغ شنغ) بجروح خطيرة بسبب شجاعتهما في الاقتحام أولاً، واستشهد ثلاثة جنود شجعان، وأصيب اثنا عشر آخرون». وبهذا، لم يسقط سوى برج واحد فقط من أبراج المراقبة الثلاثة على الجبل الأيمن.

بعد ذلك، «اشتدت دفاعات الجيش التبتي»، وتوقفت المعركة، واستمر الجمود لما يقارب نصف شهر دون أي تقدم جديد.

في الثالث عشر من سبتمبر، وصل مساعد القائد العام (تشن لي قانغ) على رأس تعزيزات قوامها كتيبتان، مما رفع معنويات جيش (تشينغ). على الفور، أمر (تشو وان شون) بشن هجوم واسع النطاق خلال النهار. «تم تقسيم القوات إلى كتيبة (شو تسي) الخلفية، وكتيبة (تشانغ شنغ تشونغ) الوسطى، وكتيبة (تشانغ شنغ) الوسطى المساعدة، وكتيبة (شين جيان)، وانطلقت في هجوم عنيف من طرق مختلفة. أطلق المتمردون النار وقصفوا بعنف داخل الحصن، مما أدى إلى مقتل جندي شجاع من فرقة الحراسة التابعة للقائد (يو فنغ دينغ) على الفور. وأصيب القائدان (تينغ يو تانغ) و(لونغ يينغ تينغ) بجروح خطيرة. عندما أراد الجميع التراجع، اندفع ضابط الحراسة (تشن يو تشن) بنفسه، متجاهلاً وابل الرصاص والحجارة، وركض نحو أسفل الجدار. ثم جاء (يان مينغ تشينغ) من الخلف ليشرف على الفرق، فبدأ الجميع في القتال بشجاعة وحفروا بعزم عند قاعدة الجدار. قامت جميع الكتائب بإطلاق نيران المدفعية والبنادق بشكل مكثف، ولم يجرؤ لصوص الحصون الأخرى على الخروج لتقديم الدعم. بعد ساعتين من القتال المتواصل، تم حفر ثغرة في جدار الحصن. سارع (تشن يو تشن) لوضع المتفجرات الأجنبية داخل الفجوة، ثم دحرج الصخور من الأعلى. بعد لحظات، اندلع الحريق، ودُمر جدار الحصن بالكامل، ولم ينجُ أحد من عشرات اللصوص الشرسين الذين كانوا يدافعون عن الحصن.»

ثم أمر (تشو وان شون) بالتوجه لمهاجمة الحصون المائية.

«صُمم هذا الحصن في الأصل لحماية الجسر، وهو شديد الارتفاع والمتانة، بُني على يساره بركة عميقة، وعلى يمينه جدار حصين، وحُفر خارج الجدار خندق عميق. وامتلأ الخندق من الخارج بأوتاد «زهرة البرقوق» المتشابكة مع الأشواك. أشرف (هان قوه شيو) بنفسه على الضباط والجنود، وأمر بانتزاع أوتاد زهرة البرقوق بقوة، بينما أمطر اللصوص الكامنين داخل الجدار نيران البنادق والحجارة كالمطر. وبعد فترة من المواجهة، قُتل قائد الحامية (وانغ شنغ مي)، وقائد الكتيبة (تشانغ رن تشن)، والضابط العسكري المتميز من الرتبة السادسة (ما تساي بين) ، كما سقط العديد من المقاتلين الشجعان (المتطوعين) بين قتيل وجريح، وبدت القوات على وشك الانهيار. فأمر (تشو وان شون) على الفور الضابط (ليانغ تشانغ تاي) بقصف الحصن بالقذائف المتفجرة. وعند حلول منتصف الليل تقريبًا، خرج اللصوص مرة أخرى لتقديم الدعم. تصدت لهم جميع القوات بشجاعة، وقتلوا عددًا كبيرًا من اللصوص، الذين تراجعوا متفرقين إلى داخل الحصن. تمكن ستة منهم من الفرار وطلبوا الاستسلام، بينما قُتل البقية بنيران المدفعية. ومع انخفاض وتيرة إطلاق النار من البنادق والمدافع، سارع (تشن يو تشن) لقيادة المقاتلين الشجعان لشن هجوم عنيف، وقفزوا فوق الجدار المحيط، ثم أمروا بحفر جدار الحصن بسرعة. خرج المتمردون من الحصن مرارًا لتقديم الدعم، ولكن تم صدهم جميعًا. وعند حلول الفجر، تم حفر جدار الحصن بعمق ثمانية أقدام، لكنه لم يتم اختراقه بالكامل بعد. فتم إلقاء المتفجرات عجل، مما أزال جزء من جدار الحصن. استغلت قواتنا الفرصة واندفعت للهجوم، وقضت عليهم بالكامل تقريبًا.»

توقف جيش (تشينغ) عن الهجوم، وحث الجنود التبتيين على الاستسلام.

في السادس عشر من سبتمبر، تخلى الجنود التبتيون عن أبراج المراقبة والحصون الصغيرة المتبقية في المحيط، وانسحبوا تباعاً إلى الحصن الكبير المركزي. عندما رأى (تشو وان شون) أن محاولات إقناعهم بالاستسلام باءت بالفشل، «أمر كل كتيبة بالتقدم والاستيلاء على الحصون القريبة. ثم قادت كل كتيبة قواتها لمحاصرة المتمردين من جميع الجهات وصاحوا بصوت عالٍ وموحد، مما أثار ذعر المتمردون الذين تشبثوا بمعقلهم القديم بيأس. قاد (يان مينغ تشينغ) بعد ذلك عشرات من المقاتلين الشجعان على طول الجبل، واقتحموا أحد الحصون، ليكتشفوا أن المتمردين قد فروا إلى الحصن الكبير، ولم يتبق سوى ثلاث نساء وأطفال، فأصبح هذا الحصن لنا. قاد كل من (هان قوه شيو) و(لي في لونغ) قواتهما وهاجما الحصن الكبير بشدة. انهالت الرصاص والحجارة من الحصن كالمطر، وقُتل القائد (وانغ هواي سان) وجندي شجاع، مما جعل الاقتراب لتضييق الخناق صعبًا. رأى (لي في لونغ) حصنًا قريبًا كانت أصوات إطلاق النار فيه قليلة، فخمن أنه لا يوجد الكثير من المتمردين فيه. فقاد على الفور عشرات من الجنود الأقوياء واقتحموا البوابة مباشرة. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص داخل الحصن، قفزوا من النافذة، وسرعان ما قتلهم جنودنا. وبهذا، تم الاستيلاء على هذا الحصن أيضًا. وبينما كانوا يستعدون لمواصلة التقدم نحو الحصن الكبير، هطلت أمطار غزيرة، فتم سحب القوات على الفور. تم الاستيلاء على خمسة حصون بالتتابع، وبلغ إجمالي عدد القتلى من الضباط والجنود الشجعان سبعة عشر شخصًا، وإصابة ثلاثة وسبعين آخرين. كانت هذه المعركة هي الأعنف في حملة الهجوم على (تشان دوي).»

إحصائيات نتائج المعركة: «بعد حصار استمر لأكثر من شهرين، تمكنا من اختراق ثمانية من حصون العدو. لم يتبق الآن سوى الحصنين الكبيرين الجديد والقديم، وخمسة حصون صغيرة.»

أما بالنسبة للقوات التبتية، فبعد هزيمة القائد العسكري (تسه تشونغ تشا با) في (تشانغ قو)، لم يعد إلى (تشان دوي) واختفى أثره. كان المتمركزون في (تشان دوي) هما المسؤول العلماني السابق (دوي دوي دوه جي) والمسؤول الراهب (يي شي تو بودان)، اللذان كان بلاط (تشينغ) قد أمر حكومة (كاشاغ) (حكومة التبت) بعزلهما في العام السابق. هرب (دوي دوي دوه جي) العلماني قبل أن يعبر جيش (تشينغ) نهر (يا لونغ) ويحكم الحصار، تاركًا ابنه (لنغ شو) والراهب (يي شي تو بوه دان) يدافعان عن الحصن الخاص بالمسؤولين.

.indd 272-273 2025-11-27 10:56:10

قُتل (لنغ شو) في الثالث عشر من الشهر، ولم يتبق سوى المسؤول الراهب (بي شي تو بودان) وحده يقود بقايا القوات في مقاومة عنيدة.

عندما رأى (لو تشوان لين) هذا الوضع، أمر (تشو وان شون) بالتوجيه للاستسلام، والجمع بين القمع والاسترضاء.»

تلقى (تشو وان شون) الأمر، «وأرسل مرارًا رسلًا مستسلمين لدخول الحصن وتوجيههم، آمرًا إياهم بتقديم الحصن والاستسلام لتجنب الموت، لكن المتمردين ما زالوا متحصنين ورافضين.» في الوقت نفسه، كان يستعد بنشاط للحرب، و»بدأ في حفر خندق مكشوف متعرج، كخطة للاستيلاء على الحصن القديم المتمرد.»

في السابع عشر من سبتمبر، تم الانتهاء من حفر الخندق، وأصبح المتمردون داخل الحصن أكثر ذعرًا، ونقلوا الأمتعة من الحصن القديم إلى الحصن الجديد، لكنهم ظلوا يقاومون ويرفضون الاستسلام. علم (تشو وان شون) أنهم فقدوا إرادتهم في المقاومة، وفي صباح الثامن عشر من سبتمبر، أمر كل كتيبة بالهجوم من جميع الجهات, في الوقت نفسه، أرسل مرة أخرى رسلاً تبتيين مستسلمين لدخول الحصن، وتوجيههم بجدية، وشرح لهم المزايا والأضرار والويلات، ووعدهم بإعفائهم من الموت إذا قدموا الحصن واستسلموا، وإذا تجرأوا على المقاومة والرفض، فسيتم الهجوم عليهم، وسيسقط الحصن حتمًا في هذا اليوم.عندما رأى المتمرد التبتي (بي شي تو بودان) أن الوضع أصبح حرجًا، أرسل أخيرًا المسؤول التبتي من الدرجة الثانية، (تشيا سانغ با)، ليخرج من الحصن ويطلب مقابلة المسؤولين الصينيين. أمر (تشو وان شون) على الفور (بنغ هن نيان)، و(تشو تشي فان)، و(تشانغ تشي تشي)، و(لي في لونغ)، و(يان مينغ تشينغ)، و(لي تشاوفو) بلقائه. في البداية، ظل (تشيا سانغ با) يراوغ أنه غير مذنب، ولكن كلماته لا تزال عنيدة. لكن (بنغ هن نيان) ورفاقه عددوا جرائمه المتمثلة في اضطهاد شعب (تشان دوي)، والتعدي على أراضي شيوخ القبائل، وعدم الامتثال لأوامر العزل، والجرأة على قيادة القوات لتجاوز الحدود وإثارة المشاكل، ومقاومة وإصابة المسؤولين والجنود، وغيرها من الجرائم، ووبخوه بكلمات صارمة، وأبلغوه بأن الأمر قد وصل إلى هذا الحد، وأن المزايا والأضرار، والويلات، كلها نتيجة لأفعاله. عندها فقط، ارتعد (تشيا سانغ با) خوفًا من الذنب. ادعى أن كل ما حدث سابقًا كان من فعل (دوي دوي دوه جي) و(تسه تشونغ تشا با)، اللذان كانا قد هربا بالفعل، وأن (بي شي تو بودان) لم يجرؤ على مقاومة المسؤولين والجنود، وأن دفاعهم الأخير كان بموجب خطة (لنغ شو)، ابن (دوي دوي دوه جي)، الذي قُتل للتو بنيران المدفعية. وأن (بي شي تو بودان) نادم الآن على جرائمه، ويتوسل لوقف القتال. عندها، أمر (بنغ هن نيان) ورفاقه بفرض مهلة ثلاثة أيام لتسليم الحصون تباعًا، دون تأخير، وسيتم التسامح معهم.

قام (تشيا سانغ با) بعدة جولات، وأخيرًا في فترة ما بعد الظهر، فتح بوابة الحصن القديم الكبير وسلمه. كان التبتيون الذين كانوا داخل الحصن قد فروا إلى الحصن الجديد، ونُقلت جميع الممتلكات والأسلحة. دخلت قوات (هان قوه شيو) على الفور إلى الحصن وتمركزت فيه.

خلال هذه الفترة، وقعت حادثة أخرى: حيث قبض جيش (تشينغ) على جندي تبتي كان قادمًا لتسليم رسالة، وعثروا بحوزته على ورقة «وثيقة إخطار» تزعم أن ألفًا وخمسمائة جندي تبتي إضافي متجهون إلى (تشان دوي) لتعزيز قواتهم. إلا أن طباعة وختم هذه الوثيقة كانت باهتة وغير واضحة، ولم يذكر من يقود هذه التعزيزات أو من أين أتت. وبالتالي اعتبر جيش (تشينغ) بأنها مزورة، وأن الهدف منها «بث الخوف وزعزعة الروح المعنوية للجيش بأصوات وهمية». وفيما بعد، لم تظهر هذه التعزيزات المذكورة في الورقة على الإطلاق حتى نهاية معركة (تشان دوي).

بعد الانتهاء من الحديث عن الأمور الجانبية، لنعد إلى الحديث عن **معركة** (تشان دوي) الوسطى.

تفاوض الطرفان، وكان من المقرر أن يسلم الجيش التبتي خمسة حصون في التاسع عشر من الشهر، ولكن مع انتهاء المهلة، "ظلت الحصون الخمسة محصنة كما كانت من قبل".

على الفور، أمر (تشو وان شون) كتيبتي (هان قوه شيو) و(تساو هواي جيا) بالاصطفاف في تشكيلات قتالية، مظهرين استعدادهم للهجوم. ثم أرسل الفصائل التبتية التي استسلمت إلى مختلف الحصون لمواصلة إقناعهم بالاستسلام. في هذا الوقت، «شعرت القبائل التبتية التي تحرس الحصون بالرعب من قوة الجيش، وأدركت أنه من الصعب مقاومته، فسلمت أسلحتها واستسلمت واحدة تلو الأخرى. على الفور، أُرسل الجنود الشجعان إلى كل حصن، واستسلم أكثر من مائة رجل وامرأة من القبائل، وتم تسريحهم بشكل فردي".

في اليوم الحادي والعشرين، خرج (تشيا سانغ با) من الحصن مرة أخرى إلى معسكر جيش (تشينغ)، مدعيًا أن تأخرهم في الاستسلام يعود لخوفهم من أن يتم إعدامهم غدرًا من قبل جيش (تشينغ). كما ذكر أنهم «يخشون الانتقام من سكان (تشان دوي) بسبب العداوات التي تكونت، ويتوسلون لتخصيص بعض الجنود لمرافقتهم للعودة إلى التبت»، «أعلن (تشو وان شون) فورًا عن «العفو الإمبراطوري ووافق على كل طلباتهم».

"ومع ذلك، فإن طبيعة التبتيين المتشككة جعلتهم يخشون الإعدام غدرًا، فاستمروا في المماطلة وطلب التأجيل. وفي السادس والعشرين من الشهر، خرج (بي شي تو بودان) مع اللامات والتبتيين الآخرين، بمن فيهم النساء والأطفال، الذين بلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة شخص، وقاموا بتسليم خمسة مدافع كبيرة، وأطلقوا سراح ستة وسبعين شخصًا من التبتيين الذين كانوا محتجزين من قبائل (مينغ تشنغ)، و(قه شن تسان)، و(ده قه)، وشيوخ قبائل (هوه أر) الخمس المغولية الأصل، وعلى الفور تم استجوابهم وتسريحهم، ثم تم توزيع الكتائب لإعادة تمركزها داخل الحصون، وبذلك تم تطهير جميع مناطق (تشان دوي) الثلاث بالكامل.»

بعد فترة وجيزة، تلقى البلاط الإمبراطوري أخبارًا سارة من الخطوط الأمامية: «تم إبلاغنا بالبرقية بأن جميع حصون (تشان دوي) قد سقطت بالكامل، وأن قادة المتمردين قد فروا.»

وفي وقت لاحق، وردت أنباء أخرى تفيد بأن المسؤول التبتي الفار (تسه تشونغ تشا با) قد توفي بسبب المرض في منطقة (تشا مو دوه).

.indd 274-275 2025-11-27 10:56:10

محاولة (لوتشوان لين) لتغيير النظام المشيخي الوراثي

وتعيين مسؤولين مدنيين

فيما يتعلق بتسوية الوضع في (تشان دوي) بعد المعركة، رفع (لوتشوان لين) أكثر من عشر مذكرات متتالية، داعيًا بقوة إلى تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين وتعيين مسؤولين من الهان. واقترح تحديدًا تحويل (تشان دوي) إلى «قاعة (تشان دوي) الإدارية المستقلة، وفي الوقت نفسه، تعيين مسؤولين عسكريين اثنين للمرابطة في أراضي شيخ قبيلة (تشانغ قو) وشيخ قبيلة (تشووو).

في هذا الوقت، بدأ بلاط (تشينغ) يشعر بالقلق من أن تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (تشان دوي) سيؤدي حتمًا إلى تفاقم الوضع المتوتر بالفعل بين الحكومة المركزية وحكومة (كاشاغ) (حكومة التبت). «على الرغم من أن مناطق (تشان دوي) الثلاث قد تم استعادتها بالكامل، إلا أن ضمها للحكم الداخلي أو إعادتها للدالاي لاما يمثل عقبة كبيرة أمام الوضع العام، وهو في الحقيقة مأزق. ... إذا شعر الدالاي لاما بخيبة أمل بسبب هذا، وعرقل جميع الأمور، فسيكون من الصعب البدء في قضية ترسيم الحدود بين الهند والتبت في المستقبل، لذا فإن فكرة الاستعادة ليست بالأمر السهل». لكن البلاط الإمبراطوري لم يكن راغبًا في إعادة (تشان دوي) للدالاي لاما أيضًا، «خشية أن يثير ذلك طمع التبتيين وتهديدهم لشيوخ القبائل المجاورة، مما قد يعيق الطرق المؤدية إلى التبت، وعندئذ كيف يمكن دخول التبت إذا لم يكن هناك من يوفر الحمولة؟"

في هذا الوقت، لم يكن الوزير الجديد في التبت، (ون هاي)، قد وصل ليتولى منصبه بعد. أمر بلاط (تشينغ) مساعد الوزير في التبت، (نه تشين)، بإقناع الدالاي لاما بانسحاب الجانب التبتي من (تشان دوي) مقابل أن يمنحهم بلاط (تشينغ) مكافأة من المال، أي دفع النفقات العسكرية السابقة المستحقة للحملة إلى (تشان دوي)، لكن الجانب التبتي رفض بشدة.

وهكذا، بعد الانتصار في (تشان دوي)، أصبحت قضايا ما بعد الحرب معلقة، وتأخر حلها لفترة طويلة.

عندما ألح (لوتشوان لين) مرة أخرى في مذكراته، أبدت السلطات العليا نفاد صبرها: «باختصار، حماية (سيتشوان) مهمة، وحماية التبت أهم. والتخطيط لما بعد الحرب وتعيين مسؤولين مدنيين هو خطة لحماية (سيتشوان)، وليست خطة لحماية التبت.»

اضطر (لوتشوان لين) إلى التحلي بالصبر، منتظرًا قرار بلاط (تشينغ). وبعد أكثر من عام من الانتظار، ظل بلاط (تشينغ) مترددًا وغير قادر على اتخاذ قرار حاسم.

على الرغم من أن مساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (نه تشين)، لم يتمكن من إقناع الدالاي لاما بالتخلي عن (تشان دوي)، إلا أنه ظل يدعم موقف (لوتشوان لين)، وقدم مذكرة خاصة ذكر فيها أن «سحب (تشان دوي) وضمها لـ (سيتشوان) هو أمر لا شك فيه». كان ذلك في الشهر التاسع من العام الثالث والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو). بعد أقل من شهر، أبلغت دائرة شؤون الأقليات، وهي الهيئة المركزية في سلالة (تشينغ) والمسؤولة عن إدارة شؤون منغوليا والتبت، أن الدالاي لاما أرسل ممثلين إلى العاصمة للضغط وطلب تقديم مذكرة نيابة عنه «يتوسل فيها لإعادة (تشان دوي)".

خلال هذه الفترة، كان جيش (تشينغ) الذي يقوده (تشووان شون) في (تشان دوي)، «الكتائب الأربع التي شاركت في الهجوم على المتمردين أولاً، تكبدت العديد من الإصابات والإرهاق الشديد. البرد القارس خارج الحدود، والجنود يتوقون للعودة إلى ديارهم». وفي (تشان دوي)، «استقبل سكان (تشان دوي) الأوامر بفرح، وعاد العديد من الفارين السابقين، لكنهم اشتكوا جميعًا من وحشية المسؤولين التبتيين وجباية الضرائب القاسية، التي جعلت حياتهم بائسة، وطالبوا بالعودة إلى الحكم الداخلي». في ظل هذه الظروف، اعتقد (لوتشوان لين) أن منطقة (تشان دوي) لا تحتاج إلى إبقاء عدد كبير من القوات، فطلب سحب الكتائب الأربع التي وصلت إلى (تشان دوي) أولاً، وعيّن (تشانغ جي) مؤقتًا كمفوض لقمع التمرد في (تشان دوي)، وقاد الكتائب الأربع من جيش (تشينغ) التي وصلت لاحقًا كتعزيزات، تاركًا ثلاث كتائب «متمركزة في (تشان دوي) لتنظيم الأمور بعد الحرب. تمركزت الكتيبة الأولى لـ (هان قوه شيو) في (داووو)، ليتولى أيضًا شؤون (تشانغ قو) و(تشووه) بعد الحرب».

أثناء انتظار قرار بلاط (تشينغ)، أرسل شيخ قبيلة (ده قه) مبعوثين إلى (تشان دوي)، ليعرضوا مظالمهم على (تشانغ جي) مفوض قمع التمرد في (تشان دوي).

تذكر السجلات التاريخية المحلية أنه، «خلال فترة حكم (تشيه ماي دابي دوه جي)، نشأت خلافات بينه وبين رؤساء القبائل التابعين له، فلم يتمكن من ممارسة سلطاته كشيخ قبيلة. وقد طلب من حاكم (سيتشوان) العام إرسال قائد عسكري يدعى (تشياو) على رأس قوات لقمع التمرد».

ورد في كتاب «ملخص شؤون التبت في عهد سلالة (تشينغ)» ما سجله (لوتشوان لين) في تقاريره إلى بلاط (تشينغ) في ذلك الوقت، والتي يُفترض أنها أكثر دقة كونها سجلت في حينه: «لقد تبين أن زوجة (تسه وانغ دوه جي لو تشوي بنغ تسوه كه) عضو مكتب مفوضية التهدئة، هي امرأة تبتية. وقد أنجبت منه ابنًا يُدعى (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ). كان هذا الابن يتواصل مع المسؤول التبتي في (تشان دوي)، (دوي دوي دوه جي). ونتيجة لذلك، قامت الزوجة بمنع زوجها وانفصلت عنه، وخلع الابن أباه ونصّب نفسه حاكمًا..... اضطهد السكان المحليين، تمامًا كما فعل (دوي دوي دوه جي).» بمعنى آخر، سُلبت سلطة شيخ القبيلة القديم الذي عينه بلاط (تشينغ) من قبل زوجته وابنه، اللذين كانا مدعومين من قبل المسؤولين التبتيين في (تشان دوي)، وفقد سلطته كشيخ قبيلة. بعد انتصار جيش (تشينغ) في (تشان دوي)، سمع شيخ القبيلة القديم أن المسؤول التبتي قد توفي في (تشا مو دوه). عندئذ، «أرسل شيخ القبيلة القديم مرارًا وتكرارًا أشخاصًا إلى معسكر (تشانغ جي) مفوض قمع التمرد في (تشان دوي)، لتقديم شكواه، كما أن رؤساء القبائل التابعين له توافدوا إلى المعسكر للالتماس».

بالبحث في سجلات «سلالة شيوخ قبيلة (ده قه)، يتبين أن الشخص الذي ذهب لتقديم الشكوى هو شيخ قبيلة (ده قه) التاسع عشر، (تشيه ماي دابي دوه جي). عندما كان في الحادية عشرة من عمره، تم أسره هو ووالدته من قبل (قونغ بولانغ جيا) واحتُجزا كرهائن لسنوات في منطقة تقع جنوب (تشان دوي). بعد هزيمة (قونغ بولانغ جيا)، تم إنقاذهما من قبل الجيش التبتي وعادا إلى (ده قه) لاستعادة منصبه. وقع أسر (تشيه ماي دابي دوه جي) وتم أخذه إلى (تشان دوي) في عام 1852، بينما كان إرسال مبعوثين لتقديم الشكوى إلى مكتب مفوض قمع التمرد في (تشان دوي) في عام ١٨٩٧. هذا يعني أنه في ذلك العام، كان (تشيه ماي دابي دوه جي) يبلغ من العمر ستة وخمسين عامًا فقط. فمن الطبيعي ألا يكون راضيًا عن سلب سلطته في أوج شبابه من قبل زوجته وابنه.

تلقى (لوتشوان لين) التقرير، وأمر (تشانغ جي) بالتوجه إلى المكان «لاتخاذ الإجراءات المناسبة حسب الظروف».

"على الفور، قاد (تشانغ جي) قواته متوغلاً في التضاريس الوعرة، حيث استقبلهم السكان المحليون بالماشية والنبيذ تعبيرًا عن الترحيب. وبعد أن أعلن لهم عن فضل البلاط الإمبراطوري ونعمته، غمرتهم مشاعر الامتنان والبكاء. لكن شيخ القبيلة الصغير، (أنغ وونغ جيانغ باي رنتشينغ)، ظل عنيدًا كعادته، وما زال يرغب في المقاومة وتوحيد صفوف المعارضة، دون أن يعلم أن (تشانغ جي) قد أرسل بالفعل قوات لاحتلال قلب منطقته». في الحادي عشر من الشهر الرابع من السنة الثالثة والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، «وصل الضابط على متن خيله الخفيف إلى القرية، وتمكن من القبض على الأم وابنها معًا».

كان لدى (لوتشوان لين) منذ فترة طويلة فكرة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق (سيتشوان) التابعة لـ«شيوخ القبائل». وعندما رأى الصراع الداخلي على السلطة داخل عائلة شيخ قبيلة (ده قه)، استغل الفرصة لإدراج أراضي شيخ قبيلة (ده قه) ضمن نطاق هذا التغيير. على الفور، رفع مذكرة قائلاً: «لقد أدرك شيخ القبيلة العجوز ضعفه ومرضه، ورغب في التنازل عن منصبه. أرجو أن يتم معاقبة الزوجة المتمردة والابن العاصي وفقًا للقانون، وهو مستعد بجدية لتقديم كل أراضيه والولاء، وتسليم الختم ودفاتر الضرائب وغيرها.» ما إذا كان هذا القول حقيقة أم مجرد رواية ملفقة من جانب (لوتشوان لين) لتحقيق طموحاته، أصبح من الصعب التحقق منه. ربما كان حرصه على تأمين (سيتشوان) وحماية التبت شديدًا لدرجة أنه اختلق حقيقة أن شيخ القبيلة العجوز كان راغبًا في التنازل عن أراضيه وتسليم الختم، والتخلي عن منصبه ليصبح مجرد مواطن عادي. لكن رؤيته للوضع العام بين (سيتشوان) والتبت كانت واضحة تمامًا. فقد كان يعتقد أنه يجب تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في جميع المناطق الشمالية من (سيتشوان) و(كانغ)، وهذا بالفعل يصب في مصلحة الدولة. فقد ذكر:»من بين شيوخ القبائل الواقعة خارج ممر (دا جيان لو)، تُعد (ده قه) هي الأكبر... تمتد على طول الحدود بين (سيتشوان) والتبت لمسافة تزيد عن خمسمائة لي (أي ما يعادل 250 كيلو متر) من الشمال إلى الجنوب، وتتصل بـ(شي نينغ)، وتمتد لأكثر من ألفي لي (1000 كيلو متر) من الشرق إلى الغرب، وتتصل بـ39 قبيلة. إنها الطريق الشمالي لتجار الشاي الذين يدخلون التبت، وهو طريق أقصر وأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية، كما أنها تقع على طول مجرى نهر (جينشا) العلوي. إذا تم تحصينها والدفاع عنها بشكل جيد، فستصبح الحدود أكثر أمنًا.» وأضاف: «نظرًا لأن شيخ القبيلة العجوز قد قدم أراضيه وأعلن ولاءه، فيجب الموافقة على طلبه. ويجب أن ترسل (سيتشوان) مسؤولين مدنيين وعسكريين ليحلوا محل شيوخ القبائل، وأن يتم الترتيب بعناية، مما سيعود بفائدة كبيرة على الوضع العام. الآن، شيخا قبيلة (تشوووه) و(تشانغ قو) قد تم استبدالهما بمسؤولين عسكريين، وقد بدأت الأمور تتخذ شكلاً منظمًا، وهذا الأمر يسير على نفس المنوال، إلا أن مساحة الأرض الشاسعة والعبء الثقيل على الدفاع عن الحدود أكبر بكثير.»

وافق بلاط (تشينغ) أيضًا على ما يلي: «إن شيخ قبيلة (ده قه) الصغير، (أنغ وونغ جيانغ باي رنتشينغ) ووالدته، قد ارتكبا أعمالاً غير مشروعة، وتم القبض عليهما من قبل المفوض (تشانغ جي) واقتيادهما إلى قاعة (لو) للسجن. وقد قام شيخ القبيلة العجوز ورؤساء القبائل التابعون له بتقديم أراضيهم وإعلان ولاءهم، والآن يُقترح تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين.»

.indd 278-279 2025-11-27 10:56:10

معارضة جنرال (تشنغدو) للتغيير

إن شن (لوتشوان لين) لحملته المظفرة على (تشان دوي) واستيلاءه على (ده قه)، جعله يشعر بالطموحات الكبيرة وأصبح محط أنظار الجميع. هذا الأمرأثار استياء (قونغ شو)، جنرال (تشنغدو)، الذي هو أيضًا مسؤولًا رفيع المستوى في المنطقة. تأسس منصب جنرال (تشنغدو) بعد حملات سلالة (تشيان لونغ) على (جينشوان) الكبرى والصغرى، نظرًا لكثرة الأحداث في مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ(سيتشوان). نصت واجباته صراحةً على أن جنرال (تشنغدو) لا يدير شؤون المناطق الداخلية من المقاطعات والولايات والثكنات، بل كان مسؤولًا بشكل خاص عن شؤون شيوخ القبائل من مختلف الأعراق في (سيتشوان)، وخاصة الشؤون العسكرية والسياسية لشيوخ القبائل في المناطق التبتية التابعة لـ(سيتشوان). منذ إنشاء هذا المنصب، ، شغله مسؤولون رفيعو المستوى من المانشو والمغول. لكن كلما طالت فترة حكم الطبقة الأرستقراطية في بلاط (تشينغ)، زاد الفساد. ونتيجة لذلك، أصبحت الطبقة الأرستقراطية من المانشو والمغول الذين شغلوا منصب جنرال (تشنغدو) لاحقًا غير مؤهلين بشكل متزايد، وغير قادرين على الاضطلاع بمسؤولياتهم الفعلية. بعد (تشي شان)، عندما كانت هناك مشاكل في (تشان دوي) أو مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، كان حكام (سيتشوان) العامون مثل (ليو بينغ تشانغ)، و(دينغ باوتشن)، و(لوه بينغ تشانغ)، و(لوتشوان لين) هم من يتولون زمام الأمور. وعندما كان الحكام العامون يتعاملون مع شؤون المنطقة التبتية، كانوا أحيانًا يتشاورون مع جنرال (تشنغدو)، وأحيانًا أخرى كانوا يتولون الأمر بأنفسهم، ويكتفون بتوقيع أسماء جنرالات (تشنغدو) عند تقديم التقارير إلى البلاط، وقد أصبح هذا الأمر روتينيًا تقريبًا. أما جنرالات (تشنغدو) هؤلاء، فيعيشون في مدينة (تشنغدو)، يستمتعون بالطعام والشراب واللعب، ويسعدون بوقت فراغهم.

ومع ذلك، فإن قيادة (لوتشوان لين) للقوات إلى (تشان دوي)، وتحقيقه نصرًا كبيرًا، وارتفاع مكانته، أثار استياء (قونغ شو)، جنرال (تشنغدو) في ذلك الوقت، بشكل متزايد. ذكر كتاب «سجلات تقاليد التبت الحدودية» للمؤلف (تشا تشيان): «في ذلك الوقت، كان (قونغ شو)، جنرال (تشنغدو)، غير كفء وجبان، وكان (لوتشوان لين) ينظر إليه بازدراء. في هذه الخطط الرئيسية المتعلقة بشؤون الأقليات العرقية وتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، لم يتشاور (لوتشوان لين) أبدًا مع (قونغ شو) أو يوقّع معه على أي مذكرة. لم يفهم (قونغ شو) السبب، وشعر مستشاروه بالظلم وعدم الرضا.»

هذا يعني أن (لوتشوان لين) احتقر (قونغ شو)، ولم يتشاور معه عندما قدم اقتراحه بتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (تشان دوي) و(ده قه) وغيرهما من الأماكن، لكنه وقّع باسمه. شعر (قونغ شو) بالضيق وعدم الارتياح، وكان مستشاروه ومساعدوه أكثر استياءً.

خاصة بعد علمه بموافقة بلاط (تشينغ) على تغيير حكم (ده قه)، غضب (قونغ شو) ولام (لوتشوان لين) قائلاً: «لماذا لم يتم التشاور معي مسبقًا، بل تم تضمين اسمي في المذكرة دون علمي، ولم يتم إعلامي إلا بعد وقوع الأمر؟ لم يسبق أن كانت هناك طريقة عمل كهذه». كما رفع رسالة شكوى سرية إلى بلاط (تشينغ) بعنوان «مذكرة سرية حول تغيير حكم (ده قه) في حدود (سيتشوان)». في الواقع، كانت هذه رسالة اتهام، حيث قال إن «(تشانغ جي) متعطش للمجد بسرعة»، وإن (لوتشوان لين) «لم يتحقق من الحقائق»، وبالتالي عارض بوضوح تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين ، قائلاً: « عندما يسمع شيوخ القبائل بهذا، فلا مفر من أن تراودهم الشكوك وتنشأ لديهم أفكار مختلفة، وقد تظهر طموحات خفية، وقد لا تتحقق الفائدة وقد يكون الضرر أعظم».

(قونغ شو)، الذي كان دائمًا كسولًا، وبصفته جنرال (تشنغدو)، لم يقم بأي تحركات تُذكر بخصوص اضطرابات منطقة (تشان دوي) المستمرة لسنوات. لكن هذه المرة، أصبح نشطًا بشكل غير عادي، ورفع مذكرات متتالية يتهم فيها (لوتشوان لين) بسوء إدارة النزاع بين عائلة شيخ قبيلة (ده قه).

كما انحاز الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ون هاي) إلى جانب (قونغ شو)، وقدم مذكرة جاء فيها: «إن أمر (لوتشوان لين) بإحضار شيخ القبيلة الابن وأمه إلى المقاطعة للمحاكمة، أثار الرعب والدهشة بين الناس، مما تسبب في شعور جميع شيوخ القبائل بعدم الارتياح."

كان (لوتشوان لين) يتمتع بطموحات كبيرة وشغف بالإنجاز، وربما كانت تصرفاته تنطوي على بعض الأخطاء. لكن بالنظر إلى الاستقرار طويل الأمد لمنطقة (سيتشوان) والتبت، فإن نهجه كان يتماشى مع التطورات الكبرى، وكان بلا شك خطوة صحيحة تتفق مع قوانين التقدم التاريخي.

التغيير: يفقد جميع شيوخ القبائل مكانتهم المرموقة وأراضيهم وشعبيتهم التي ورثوها لمئات السنين، وهذا طبيعي أن يجعلهم يشعرون بـ«عدم الارتياح». بل وأكثر من مجرد «عدم ارتياح"!

عدم التغيير: طوال عهد سلالة (تشينغ)، من عصر الازدهار إلى الانحطاط، وعلى مدى أكثر من مائتي عام، لم تشهد أراضي شيوخ القبائل يومًا واحدًا من الهدوء. ولو كان عدم التغيير يؤدي إلى الاستقرار، لما تكررت هذه القصة القديمة في هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا.

التغيير: بعد «عدم الارتياح»، لا يزال من الممكن توقع التقدم الاجتماعي والاستقرار الدائم.

عدم التغيير: ليس أكثر من روتين متكرر، استمرار لتلك القصص القديمة من القمع والتهدئة، وترك أراضي شيوخ القبائل معزولة عن تيار العالم المتغير باستمرار. فبينما يتجه العالم كله نحو الحضارة، يظل أتباع شيوخ القبائل في جهل وفقر. كيف يمكن للناس أن يتحملوا ذلك؟ وكيف يمكن للمشاعر أن تتحمل ذلك؟

.indd 280-281 2025-11-27 10:56:11

على الرغم من أن بلاط (تشينغ) قد انتعش قليلاً من خلال حركة تعزيز الذات و»السياسات الجديدة في أواخر عهد سلالة (تشينغ)»، إلا أنه ظل في النهاية أسيرًا لمصالح العائلة المالكة الأنانية. ففي مواجهة أي مطالب بالإصلاح، كان مترددًا للغاية، يوازن الأمور مرارًا وتكرارًا، وهذا ما كان يعتبر «المصلحة العليا». ومن أجل هذه «المصلحة العليا»، كانت الأصوات المحافظة المعارضة للتغيير هي التي تروق للسلطة العليا وتلقى صدى أكبر في المركز. وبعد بضع مذكرات من أمثال (قونغ شو) و(ون هاي)، وفي الشهر التاسع من السنة الثالثة والعشرين لحكم الإمبراطور (قوانغ شو)، أي بعد عام واحد من الانتصار في حملة (تشان دوي)، أصدر بلاط (تشينغ) أمرًا بعزل (لو تشوان لين) من منصب الحاكم العام واستدعائه إلى العاصمة. لم يقتصر الأمر على إيقاف خطة ضم (تشان دوي) إلى (سيتشوان) فحسب، بل تبخرت أيضًا فكرة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في أراضي شيوخ قبائل (ده قه)، و(تشانغ قو)، و(تشو ووه).

في الشهر الحادي عشر من العام نفسه، أصدر بلاط (تشينغ) مرسومًا جاء فيه: «بناءً على طلب سابق من الدالاي لاما في (دائرة شؤون الأقليات) [في فان يوان] 1 لاستعادة الأراضي، وبمراجعة المذكرات المتتالية التي قدمها القائم بأعمال الحاكم العام، تبين أن هذا المسؤول التبتي لم يرتكب أي أعمال تمرد، وهو أمر جدير بالثقة. فكيف للبلاط الإمبراطوري، الذي يهتم بالرهبان التبتيين، أن يقرر سحب أراضيهم بسرعة بناءً على مجرد شكوك؟ لذا، يجب إعادة جميع مناطق (تشان دوي) الثلاث إلى الدالاي لاما.»

لم يتم عزل (لو تشوان لين) من منصبه فحسب، بل أصبحت حملته العسكرية ضد (تشان دوي) خطأً أيضًا – فعبارة «هذا المسؤول التبتي لم يرتكب أي أعمال تمرد» تعني أن حملته كانت بلا مبرر. وهكذا، من بين الحملات الست التي شنتها سلالة (تشينغ) على (تشان دوي)، تعد هذه الحملة هي الأكثر حسمًا واتقانًا. والسبب في هذا النصر العظيم بسيطًا جدًا: فبفضل حركة تعزيز الذات، امتلك جيش (تشينغ) بعض الأسلحة الحديثة. وكانت المتفجرات هي الأسلحة الأكثر فتكاً في معركة الهجوم على (تشان دوي). لكن هذه المعركة التي كانت الأكثر سلاسة وروعة أدت إلى نتائج سخيفة للغاية.

في عام 1898 م، وهو العام الرابع والعشرون من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، فشلت إصلاحات (وو شو) والتي تُعرف أيضًا بـ إصلاحات المائة يوم.

مملكة كانت ذات يوم في أوج مجدها، تتجه خطوة بخطوة نحو الانهيار دون أن تُدرك ذلك.

1 لي فان يوان: هي مؤسسة مركزية في عهد سلالة (تشينغ) مسؤولة عن إدارة شؤون الأقليات العرقية في (منغوليا)، و(تشينغهاي)، و(شينجيانغ)، والتبت، ومناطق شيوخ القبائل في (سيتشوان). واللجنة المنغولية-التبتية هي المؤسسة المقابلة لها في فترة جمهورية الصين.

افتقار أساس التقدم والتراجع، في (تشان دوي)، وفي التبت أيضًا

بعد أن ترك (لو تشوان لين) منصبه، أعاد بلاط (تشينغ) مجددًا منطقة (تشان دوي) التي استعادها جيش (تشينغ) «للدالاي لاما، دون الحاجة إلى تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». وبالطبع، لم يخلُ الأمر من الإجراءات الرسمية المعتادة، حيث أصدر البلاط مرسومًا جاء فيه:

"على الدالاي لاما أن يستوعب لطف البلاط الإمبراطوري الشامل، وأن يدرك العرفان والخوف، ويسعى جاهدًا للتجديد، وأن يختار بعناية المسؤولين التبتيين، ويفرض عليهم قيودًا صارمة، حتى لا تتكرر ممارسات القسوة ضد شعب (تشان دوي) أو التعدي على المناطق المجاورة، مما قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم."

يُعد هذا الأمر مفرطًا في التمني والسذاجة. بل إن مطالبة حكومة (كاشاغ) بـ «السعي جاهدة للتجديد» هو أكثر إثارة للسخرية. فالتخلي عن سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين لم يكن بحد ذاته خطوة نحو التجديد، فكيف يمكن مطالبة حكومة (كاشاغ) الأكثر محافظةً، بفعل ذلك؟

[redacted].indd 282-283 2025-11-27 10:56:11

إن خسارة (تشان دوي) ربما تكون مجرد تنازل بسيط بالنسبة لبلاط (تشينغ)، لكنها تُعدّ نصرًا عظيمًا لحكومة (كاشاغ). يجب أن نلاحظ أن (كاشاغ) لم تكن سلطة علمانية، فزعيمها الأعلى في الوقت نفسه هو الزعيم الديني الأعلى لجميع التبتيين الذين يعتنقون البوذية التبتية، وخاصة طائفة (غيلوغ) البوذية التبتية. حتى عندما لم تتح الفرصة للدالاي لاما من التاسع إلى الثاني عشر للحكم بأنفسهم، كان (بوذا الأحياء) المشهورون من هذه الطائفة بمثابة الأوصياء، ممثلين للدالاي لاما، الزعيم الديني الأعلى. لذلك، فمنذ فترة طويلة، تقوم حكومة (كاشاغ)، من ناحية، بإدارة شؤون التبت إداريًا، ومن ناحية أخرى، تمارس نفوذًا متزايدًا على المناطق التبتية خارج التبت من خلال سيطرتها الدينية الهائلة، وخاصة عبر أنظمة الأديرة المختلفة. في مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، كان هذا النفوذ يتزايد أيضًا، لدرجة أنه تطور تدريجيًا لتتدخل بعض الأديرة ذات النفوذ التابعة لطائفة (غيلوغ) في الشؤون السياسية والاقتصادية المحلية، مما غير المشهد السياسي المحلي تغييرًا جذريًا. يرتبط هذا الوضع ارتباطًا وثيقًا بسياسة دعم قوة طائفة (غيلوغ) البوذية التبتية بقوة منذ بداية عهد سلالة (تشينغ). في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، وبعد الانتصار في حملتي (جنتشوان) الكبرى والصغرى، تم إلغاء نظام شيوخ القبائل إداريًا، وتم حظر ديانة (بون) المحلية المنتشرة، وتم إجبار جميع معابد (بون) المحلية على اعتناق البوذية التبتية. على سبيل المثال، تم تحويل معبد (يونغ تشونغ لادينغ)، ومعبد أسرة شيخ قبيلة (جنتشوان) الكبرى، قسرًا إلى أديرة لطائفة (غيلوغ)، وكان جميع رؤساء الأديرة المتعاقبين يُرسلون من دير سيرا، أحد الأديرة الثلاثة الرئيسية في طائفة (غيلوغ). في المناطق المجاورة لـ (تشان دوي) مثل أراضي شيوخ قبائل (هو أر) المنغولية الأصل والمنطقة القريبة من (دا جيان لو)، تم إنشاء ثلاثة عشر ديرًا تابعًا لطائفة (غيلوغ) تدريجيًا منذ أواخر عهد سلالة (مينغ) حتى بداية عهد سلالة (تشينغ). ومن بين هذه الأديرة، دير (لينغ تشوي)، ودير (شونينغ)، ودير (داجين)، والتي تطورت لاحقًا لتصبح أديرة ضخمة تضم آلاف الرهبان. وفي وقت لاحق، تجاوزت القوة الاقتصادية والعسكرية لهذه الأديرة قوة شيوخ القبائل المحليين بكثير. وقد حدث هذا الوضع أيضًا في منطقتي (لي تانغ) و(باتانغ) جنوب (تشان دوي). وحدث الأمر نفسه في دير (تشانغ تشينغ تشون كير) ودير (دينغ لين) وغيرهما في هاتين المنطقتين. في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، تدهورت قوة البلاد وتولي السلطة مسؤولون غير أكفاء، وعُزل الوزراء الطامحون لحكم البلاد مرارًا وتكرارًا. كما ضعفت عائلات شيوخ القبائل، التي توارثت السلطة لعشرة أجيال أو أكثر، بشكل متزايد، وازدادت قوة الأديرة قوة يومًا بعد يوم.

تختلف هذه الأديرة عن شيوخ القبائل المعزولين عن بعضهم البعض؛ إنها نظام محكم، مركزه في (لاسا) بالتبت، وكان على رأسه في ذلك الوقت الدالاي لاما الثالث عشر.

هذا التغيير في موازين القوى بين نظام الأديرة ونفوذ شيوخ القبائل جعل ما يحدث في المناطق التبتية على حدود (سيتشوان) لم يعد مجرد أحداث معزولة كما في الماضي.

في الواقع، لم يكن هذا التنازل من جانب بلاط (تشينغ) نابعًا عن اهتمام حقيقي بالتبت أو تعاطف معها، بل كان نتيجة لضعف الدولة، ونتيجة للبيروقراطية الفاسدة حيث يكون المسؤولون على كافة المستويات محافظين وغير راغبين وغير قادرين على إجراء أي تغييرات. فإذا كان هذا هو حال التنازلات الداخلية، فإن درجة التنازلات في العلاقات الخارجية كان أكثر سخافة.

في عام 1888 م، وهو العام الرابع عشر من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، غزت القوات البريطانية التبت. دافع الجنود والمدنيون التبتيون عن حدود جبل (لونغ تو) بكل عزم وإحساس وطني، لكن بلاط (تشينغ) لم يبالِ بإصرارهم وعواطفهم القوية في الدفاع عن أراضيهم، ولم «يتعاطف مع التبت» بتقديم الدعم العسكري. بل على العكس، قام بعرقلتهم بكل الوسائل، وعزل الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ون شو) الذي كان يتعاطف ويدعم حكومة (كاشاغ) في مقاومتها للبريطانيين. انتهى الأمر بهزيمة الجيش التبتي الذي كان يدافع عن جبل (لونغ تو)، وكانت النتيجة الطبيعية هي التنازل للغزاة وتوقيع «معاهدة التبت والهند الصينية-البريطانية»، والتي كانت أكثر توافقًا مع نوايا ومصالح البريطانيين.

تضمنت هذه المعاهدة بنودًا تتعلق بترسيم الحدود بين التبت و(تشه منغ شيونغ) (سيكيم). لكن البريطانيين أنفسهم لم يكن لديهم النية للالتزام بهذه المعاهدة.

في عام 1902 م، قاد وايت، الرئيس التنفيذي البريطاني لمنطقة (تشه منغ شيونغ)، الجيش البريطاني لغزو التبت مرة أخرى. قاموا بهدم أكوام الحجارة التي تحدد الحدود في منطقة (جيا قانغ) وطردوا الجنود التبتيين الذين يحرسون الحدود.

في نهاية العام التالي، قاد الكولونيل (رونغ خه بنغ) الجيش البريطاني متسللاً عبر الممرات الجبلية الحدودية، وتمركز في (رين جينغ انغ) داخل الأراضي التبتية، ثم احتل (بالي)، ووضع قواته في مبنى الحكومة المحلية (الزونغ). كما احتجز المسؤولين المفاوضين من حكومة (كاشاغ) بشكل غير مبرر. استشاط سكان (بالي) المحليون بالغضب، واقتحموا مبنى الحكومة المحلية وأنقذوا المسؤولين المفاوضين. رد الجيش البريطاني على الفور بإطلاق النار والقذائف على المدنيين التبتيين. في هذا الوقت، منع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت آنذاك بشكل صارم جيش (تشينغ) من المشاركة في القتال. والأدهى من ذلك، أن ضابطًا في جيش (تشينغ) تلقى رشوة مالية من البريطانيين وكشف لهم مواقع انتشار الجيش التبتي.

في عام 1904، واصل الجيش البريطاني تقدمه داخل التبت. واجه الجيش التبتي، بأسلحته البدائية، الجيش البريطاني المسلح بالمدافع والرشاشات. تعرضوا لهزيمة أولى في (تشومي شين قو)، حيث بلغت الخسائر أكثر من سبعمائة قتيل وجريح. ثم هُزموا مرة أخرى في (قولو)، وسقط منهم سبعمائة قتيل وجريح آخر. إن المقاومة الباسلة للجيش والمدنيين التبتيين أثارت إعجاب البعض حتى في صفوف الجيش البريطاني، حيث كتب أحدهم في رسالة إلى صديق: «أنا معجب بشجاعتهم وبسالتهم، آمل ألا يعتبر الناس هذا دليلاً على أنني موالٍ للتبت».

في ظل هذه الظروف العصيبة، لم يُظهر بلاط (تشينغ) أي «تعاطف» مع جيش التبت ومدنييها. فقد ذكر (يوتاي)، الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، في مذكرته إلى (رونغ خه بنغ): «بالنظر إلى أن (دابان) التبتي السابق لم يلتزم بالقيود، بل بدأ الصراع والحرب في منطقة (قولو)، فقد ألحقت قوة الدولة العظمى هزيمة بأتباعه، وهو يتحمل مسؤولية ذلك".

وفي تقريره إلى بلاط (تشينغ)، كان (يوتاي) أكثر صراحة: «إذا مُني التبتيون بهزيمة كبرى أخرى، فسيكون هناك تحول في هذا الأمر». بمعنى آخر، فقط عندما يتعرض الجيش التبتي لهزيمة كبيرة أخرى، سيكونون مستعدين للتفاوض مع البريطانيين، «مثل سحب الحطب من تحت القدر، لا يمكنهم الامتثال لأوامري». ومن أجل إجبار التبتيين على الامتثال لأوامره، لم يكتفِ بعدم إرسال جنود (تشينغ) المتمركزين في التبت للمساعدة في المعركة، بل أراد أيضًا «سحب الحطب من تحت القدر» (التسبب في خسارة فادحة) لإجبارهم على الخضوع.

.indd 284-285 2025-11-27 10:56:11

واصل الجيش والمدنيون التبتيون مقاومة الجيش البريطاني، ولكن بسبب تخلف الأسلحة والمعدات ونقص تدريب الضباط والجنود، هُزموا مرة أخرى في منطقة (كانغ ما)، مما أسفر عن مقتل أكثر من ثلاثمائة شخص.

حشد الجانب التبتي أكثر من عشرة آلاف جندي تبتي وميليشيات محلية من مختلف المناطق، وقاوموا ببسالة وخاضوا سلسلة من المعارك الدامية، ثم خاضوا معركة جيانغتسي الدفاعية في عام 1904. وبعد الهزيمة مرة أخرى، فُتحت أبواب التبت على مصراعيها، وتوجه الجيش البريطاني مباشرة إلى لاسا. فر الدالاي لاما الثالث عشر إلى منغوليا، وكانت النتيجة أن الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يوتاي) والوصي الذي عينه الدالاي لاما قبل فراره، اجتمعا مع (رونغ خه بينغ) في قصر بوتالا.

في مواجهة الهجوم البريطاني المتغطرس، كيف فهمت حكومة (كاشاغ)، التي كانت تصر على مقاومة البريطانيين، هذه الأزمة، وكيف تعاملت معها؟

إن بعض المواد في «وثائق أرشيف التاريخ الاجتماعي للتبت» التي تم تحريرها بشكل مشترك من قبل معهد الإثنولوجيا التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية وأرشيف التبت، تعد اليوم ملهمة جدًا لقارئها.

في عام 1888، استخدم البريطانيون القوة العسكرية ضد التبت لأول مرة. قبل اندلاع الحرب، كان لدى الجانب التبتي يقظة تامة للأزمة الحدودية.

في أوائل عام 1886، صدر أمر بالاستعداد للحرب. جاء في الأمر ما يلي: «إن عدوة الدين - بريطانيا - تواصل محاولاتها لقلب الأراضي المقدسة البوذية في التبت، ويجب الاستعداد لذلك.» هذا يعني أنه في نظر حكام حكومة (كاشاغ)، لم تكن التبت «دولة» بل «أرضاً بوذية مقدسة". وأضاف الأمر قائلًا: «لضمان وصول الضباط والجنود إلى معسكري (يادونغ) و(سيكيم) دون تأخير، يجب توفير الخيول ودواب الحمل، ويجب تجهيزها في أي وقت. أي شخص لا يفهم التعاليم الدينية العظيمة، إذا حاول إيقافها أو التقليل من شأنها كما كان من قبل، ولو لفترة وجيزة، فسيتم التعامل معه وفقاً للقانون العسكري، استنادًا إلى الإعلان المختوم بالختم الرباعي وحجج الرهبان والعلمانيين في هذا المكان." بعبارة أخرى، تم إرجاع الأسباب الذاتية للإيجابية أو السلبية تجاه الاستعداد للحرب إلى فهم أو عدم فهم «التعاليم الدينية العظيمة». هذا يعني أنه في نظر الحكام في ذلك الوقت، عندما غزا الجيش البريطاني الحدود، كان الدين هو الذي يمر بأزمة، وليس «العرق» أو «الدولة».

إن مفهومي «العرق» أو «الدولة» موجودان منذ القدم بطبيعة الحال، لكن التعبير عنهما كمفهوم شامل والمطالبة بحقوق مختلفة بناءً عليهما هو في الحقيقة مفهوم حديث. في عصر محاولات بريطانيا الاستيلاء على التبت، أصبح هذان المفهومان يتصدران بشكل متزايد المطالب السياسية الدولية، لكن في التبت، كان الاستعداد النشط يتركز على حرب الدفاع عن الدين. علاوة على ذلك، كان الإصرار على حرب الدفاع عن الدين قويًا جدًا، ففي إعلان صدر عن حكومة (كاشاغ) في العام نفسه، ورد هذا التعبير: «الآن هناك إنجلترا ذات النوايا السيئة من الخارج، ترغب في التجارة في أرض بوذا المقدسة في التبت، وتهدد بضرورة فتح طريق التجارة وعدم وضع أي عوائق، وإلا فسيواجهوننا بالأسلحة وما إلى ذلك. يجب وضع حدٍّ لهذا الأمر وعدم إرساء أي سابقة. ووفقًا للتعهدات السابقة في جميع المؤتمرات، حتى لو مات جميع رجال التبت، فإن النساء على استعداد لمقاومة العدو حتى النهاية، بثبات وعزيمة لا يتزعزعن.»

في ذلك الوقت، كان عدد الجيش التبتي النظامي في منطقة التبت لا يتجاوز ثلاثة آلاف جندي، وكانت أسلحتهم متخلفة وتدريبهم ضعيفًا. أمام هجوم الجيش البريطاني المسلح بأسلحة حديثة ومدرب تدريبًا جيدًا، كان من الصعب عليهم المقاومة مهما كانت عزيمتهم قوية، لذلك اضطروا إلى حشد وتعبئة الميليشيات المحلية للمشاركة في القتال. ويتجلى مدى تخلف المعدات التي كانت بحوزة الميليشيات التي تم استدعاؤها على عجل بوضوح من خلال أمر التجنيد الصادر عن حكومة (كاشاغ).

في الأول من يوليو، أصدرت الحكومة أمرًا كتابيًا مختومًا بالختم الرسمي، نصه الكامل كالتالي:

«من أجل طرد الغزاة الأجانب - الجيش البريطاني - يجب زيادة القوات... يجب تعبئة الجنود وفقًا للعدد المحدد من قبل الحكومة، ولمحاربة أعداء الأمة، يجب اختيار الأشخاص الأقوياء جسديًا. ليس من الضروري إحضار الأسلحة، ولكن يجب أن يحضر كل خمسة أشخاص مجرفة ومعولًا، ويحضر كل عشرة أشخاص فأسًا، ويحضر كل شخص حبلًا وكيسًا، بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يحضروا طعامهم الخاص لمدة شهرين.»

هذه الأوامر بها نقطتين جديرتين بالملاحظة.

أولًا: ظهور كلمة «الأمة" في الوثيقة.

ثانيًا: على الميليشيات التي تم استدعاؤها بشكل مؤقت أن تحضر مؤنها الخاصة وأدوات بناء التحصينات. كيف يمكن لهؤلاء أن يقاوموا هجوم جيش محترف مسلح بأسلحة حديثة؟

□□□□ □□□.indd 286-287 2025-11-27 10:56:11

أما الأوامر الأخرى فتقضي بجمع الأسلحة من المناطق المحلية: «على منطقة (تشه كانغ) توفير ثلاث بنادق، وعلى منطقة (ده كانغ) توفير بندقية واحدة، ومجموعة من أكياس البارود، وعشرين طلقة، وثلاث فتائل إشعال.»

وهكذا، تم حشد ما يزيد عن عشرة آلاف شخص للتوجه إلى الجبهة ومقاومة الجيش البريطاني. في ذلك الوقت، كانت الأديرة والمعابد منتشرة في كل مكان في التبت، ووفقًا لإحصائيات الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت آنذاك: «بلغ عدد الأديرة التابعة للدالاي لاما 3150 ديرًا، وعدد الأديرة التابعة للبانشن لاما 327 ديرًا، وهناك 84 ألف لاما يتلقون إعانات غذائية.» إنها حقًا دولة بوذية! في الواقع، وصفها بأنها دولة بوذية ليس دقيقًا تمامًا؛ فلا يمكن القول إن كثرة الرهبان تجعلها دولة بوذية. بل إن تسمية عالم أمريكي في شؤون التبت كانت أكثر دقة، ألا وهي: مملكة اللاما.

بداية تدويل قضية التبت

كانت نتائج الحرب متوقعة بطبيعة الحال.

دخلت القوات البريطانية المنتصرة لاسا، وقدمت معاهدة كانت قد أعدتها مسبقًا. تُعرف هذه المعاهدة تاريخيًا باسم «معاهدة لاسا»، وتتألف من عشرة بنود.

لم تكن محتوياتها سوى نسخة مكررة للعديد من المعاهدات التي فرضتها القوى الأجنبية على الصين منذ حرب الأفيون: حيث يدفع المعتدى عليه تعويضات عسكرية للمعتدي. طالب البريطانيون بتعويض قدره خمسمائة ألف جنيه إسترليني؛ وفتح موانئ تجارية جديدة؛ وتدمير جميع التحصينات العسكرية على الطرق الرئيسية المؤدية من التبت إلى الهند؛ والمطالبة بفتح التبت، ولكن فقط لبريطانيا.

في ظل الضغط العسكري البريطاني المكثف، لم تكن المفاوضات سوى توقيع على نص أعده الآخرون. وقع (رونغ خه بينغ)، ووقع كذلك الوصي الذي عينه الدالاي لاما، (غاندن تريبا). وكان الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يو تاي) على وشك التوقيع والختم، لكن سكرتيره (خه ون شيه) منعه بشدة، مبررًا بأن (يو تاي) ليس لديه صلاحية التوقيع والختم دون موافقة وزارة الخارجية بحكومة (تشينغ).

حينها فقط، قدم (يو تاي) محتوى المعاهدة إلى بلاط (تشينغ).

اعتبرت حكومة (تشينغ) أن هذه المعاهدة تُهين سيادة مملكة (تشينغ)، فأرسلت برقية ردًا على (يو تاي)، رافضة التوقيع.

قال البريطانيون أنفسهم عن هذه المعاهدة: «المعاهدة التبتية المكونة من عشر مواد لا تزال بحاجة إلى مزيد من المباحثة، والمادة التاسعة على وجه الخصوص تمثل عائقًا، فهي تضر بمصالح الصين.» وأضافوا: «على الرغم من أن المعاهدة لم تُرسخ الإمبراطورية البريطانية كسلطة مُهيمنة على التبت، إلا أنها على الأقل منحتها وضعًا خاصًا كحامية للتبت.» لكن البريطانيين كانوا يعلمون أيضًا أن هذه المعاهدة، التي وقعت عليها حكومة (كاشاغ) فقط دون توقيع ممثل حكومة (تشينغ)، هي معاهدة باطلة.

.indd 288-289 2025-11-27 10:56:11

سجل (رونغ خه بينغ) في كتابه «الهند والتبت» (الذي ترجم الى الصينية بعنوان «تاريخ الغزو البريطاني للتبت») تفاصيل دقيقة حول مراسم توقيع المعاهدة في قصر (بوتال)!:

"جلس الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت في المنتصف، والوصي على يساره، بينما جلس البقية على اليمين. بعد الجلوس، قدم التبتيون الشاي العطري للضيوف، وقدم كأس لكل من المسؤولين الصينيين والبريطانيين، ورصت الفواكه المجففة على طاولات صغيرة أمام المسؤولين المركزيين. بعد الانتهاء من الشاي والوجبات الخفيفة، بدأتُ على الفور في طلب الإذن من الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت للشروع في العمل الرسمي."

وكان هذا العمل الرسمي هو حفل توقيع المعاهدة.

«أمرتُ أولاً بقراءة النص الكامل للمعاهدة باللغة التبتية، وسألتُ المسؤولين التبتيين عما إذا كان لديهم أي اعتراض على التوقيع، فأجابوا بالنفي. ثم عرضتُ مسودة المعاهدة، مكتوبة بثلاث لغات: الصينية والإنجليزية والتبتية على ورقة واحدة، وذلك وفقًا لعادة التبتيين. طلبتُ من الجانب التبتي التوقيع أولاً، فقام التبتيون بإتمام الإجراءات تباعًا. وعندما انتهى ممثلو الكابلون والأديرة الثلاثة الكبرى والبرلمان من ختم المعاهدة، تقدموا مع الوصي إلى الطاولة، ووقف الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت وجميع المسؤولين الحاضرين في نفس الوقت. ثم وضع الوصي ختم الدالاي لاما، وقمتُ أنا بالتوقيع والختم أخيرًا. بعد الانتهاء من الإجراءات، سلمتُ المعاهدة إلى الوصي، وقلتُ له إنه بما أن السلام قد تم تحقيقه الآن، آمل أن يتم الحفاظ عليه إلى الأبد.»

لقد لفت انتباهي هنا نقطتان. الأولى هي إشارة (رونغ خه بينغ) إلى «البرلمان، ففي ذلك الوقت، كانت الحكومة المحلية في التبت تعقد اجتماعات موسعة عند مواجهة قضايا كبرى، يحضرها عدد أكبر من المسؤولين الرهبان والعلمانيين. أحيانًا كانت تُعرف هذه الاجتماعات أيضًا بـ»الجمعية الشعبية» أو «الجمعية الشعبية الموسعة»، وتُسمى باللغة التبتية «تشون دو جي تسو". لقد درس ماي غولدشتاين، وهو عالم أمريكي متخصص في دراسات التبت، بالتفصيل من هم المشاركون في «الجمعية الشعبية»، وأشار إلى أن هذا المجلس ينقسم إلى نوعين مختلفين من حيث الحجم. وقال إن هناك «ربما سوء فهم خارجي حول الجمعية الشعبية الموسعة، لأن أعضائها لا يأتون من جميع أنحاء التبت». وأورد بالتفصيل حضور الاجتماعات كالتالي: 1. جميع رؤساء الأديرة الحاليين والسابقين للأديرة الثلاثة الكبرى التابعة لطائفة (غيلوغ)، وهي: دير غاندن، دير سيرا، ودير دربيونغ. 2. أربعة من المسؤولين الرهبان يدعون «تشونغ يي تشين مو» من مكتب إيشانغ، وهو الهيئة الحكومية المحلية في التبت المسؤولة عن الشؤون الدينية، وأربعة مسؤولين يدعون «تسي بون» من الهيئة الحكومية المحلية في التبت المسؤولة عن الشؤون المالية والضرائب. 3. جميع المسؤولين المتواجدين في لاسا وقت انعقاد الاجتماع. 4. ممثلون عن بعض الأديرة الهامة خارج الأديرة التبتية الثلاثة الكبرى. 5. ممثلون عن الجيش التبتي المتمركز في لاسا. 6. حوالي عشرين من صغار المسؤولين المسؤولين عن تحصيل ضريبة المنازل وترتيب الخدمات في لاسا. 7. حوالي ثلاثين موظفًا عامًا من الحكومة المحلية في التبت. ويشير إلى أن مثل هذه الاجتماعات «كانت تُعقد بشكل غير رسمي بناءً على طلب (الكاشاغ)، وكان الغرض منها هو مناقشة وإبداء الآراء بشأن القضايا المحددة التي يقدمها (الكاشاغ)».

«الاجتماع الأصغر لـ‹الجمعية الشعبية› كان يضم بشكل ثابت أربعة من مسؤولي ‹تشونغ يي تشين مو› من مكتب إيشانغ، وأربعة من مسؤولي ‹تسي بون› من مكتب ت(شي كانغ). عادة ما كانت كاشاغ هي من تدعو إلى هذا الاجتماع، وكان هدفه التشاور وتقديم الآراء حول قضايا محددة يقدمها الدالاي لاما.» المشاركون في هذا «الاجتماع الشعبي» المصغر لم يكونوا من عامة الشعب، بل كانوا القادة الإداريين للهيئات التنفيذية الهامة، وهما «إيشانغ» و»ت(شي كانغ)»، والذين كانت مكانتهم لا تقل أهمية عن الكالونات الأربعة في الحكومة.

يُفترض أن من حضر حفل توقيع المعاهدة هم المسؤولون الثمانية الذين يشكلون «الجمعية الشعبية». أما ما إذا كان (يونغ) قد اعتبرها «برلمانًا» بقصد رفع مكانتها عن عمد، أو كان ذلك خطأً غير مقصود، فلا يمكننا الجزم.

من ناحية أخرى، لم يوقع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت على المعاهدة، لكنه حضر حفل التوقيع.

بإصرار من حكومة (تشينغ)، تم نقل المفاوضات حول هذه المعاهدة إلى كلكتا. في هذه المرة، أرسل بلاط (تشينغ) (تانغ شاو يي) كممثل مفوض للتفاوض مباشرة مع البريطانيين، ولم تشارك حكومة (كاشاغ) في المفاوضات. لكن مفاوضات كلكتا لم تسفر عن أي نتيجة. كان البريطانيون في الواقع يدركون أن «معاهدة لاسا» التي وُقعت مع الجانب التبتي وحده غير صالحة، ولذلك أولوا اهتمامًا كبيرًا، حسب تعبير (رونغ خه بينغ)، «لإتمام المفاوضات المباشرة بين التبت والهند». هنا، «الهند» لا تشير إلى الهند اليوم، بل إلى الهند التي كانت تحت حكم الحاكم العام الاستعماري البريطاني في ذلك الوقت. كان (رونغ خه بينغ) يعلم أن الخطوة التالية ستكون «المطالبة باعتراف رسمي من حكومة (تشينغ) بصلاحية معاهدة لاسا».

لكن "تولى (تانغ شاو يي) مهمته في الهند دون أي نتيجة، وسرعان ما عاد إلى بلاده بسبب المرض". حتى 27 أبريل 1906، لم يتم توقيع المعاهدة الصينية-البريطانية المكونة من ست مواد إلا في بكين. وافقت بريطانيا على عدم ضم الأراضي التبتية أو التدخل في شؤونها الداخلية، لكنها احتفظت بالحق في مد خطوط التلغراف في جميع الموانئ التجارية التبتية لربطها بالهند. وبعد جهود مضنية من بلاط (تشينغ)، كان المكسب الرئيسي هو حق التوقيع على المعاهدة، وكانت أهمية ذلك تكمن في إعادة التأكيد على سيادة الصين على التبت بهذه الطريقة.

[redacted].indd 290-291 2025-11-27 10:56:12

أدت هزيمة الجيش والمدنيين التبتيين في حرب مقاومة البريطانيين عام 1904، والمفاوضات المباشرة التي أجرتها الحكومة المحلية للتبت مع البريطانيين بشأن المعاهدة، إلى نشأة وعي وحركة "استقلال التبت"، كما كانت بداية لتدويل قضية التبت.

يقول (رونغ خه بينغ) في كتابه: "بعد إبرام "معاهدة لاسا"، أصبح موقف التبتيين تجاهي ودودًا أكثر من المعتاد."

منذ ذلك الحين، لاحظت بعض النخب من الرهبان والعلمانيين في التبت أن بلاط (تشينغ)، بسبب ضعف قوته الوطنية، لم يعد قادرًا على حماية التبت بقوة كما كان الحال في عهد (كانغ شي) و(يونغ تشنغ) و(تشيان لونغ). فبدأوا تدريجيًا في الابتعاد عن بلاط (تشينغ) والتقرب من الإدارة البريطانية في الهند. قبل ذلك، كانت الاضطرابات المختلفة في المناطق التبتية غالبًا ما تنشأ بسبب صراعات على السلطة والمصالح بين الفصائل الدينية المختلفة والقوى المحلية المختلفة داخل المجتمع التبتي. لم يكن لديهم نظام مركزي واضح، بل وصل الأمر إلى المقاومة المسلحة، لكنها لم تكن سوى صراعات محلية بين القوى المحلية والأديرة لتوسيع نفوذهم والسيطرة على السكان، ولم تكن مدعومة بأي أيديولوجية سياسية واضحة. ولكن منذ تلك اللحظة، أصبحت العديد من الأحداث التي وقعت في المناطق التبتية مرتبطة بشكل أعمق وأوسع بالتيارات العالمية الكبرى. وعندما تحدث أحداث غير مستقرة في التبت والمناطق التبتية، بدأت مفاهيم مثل الأمة والدولة تتضمن فيها، وبالتالي اكتسبت دلالات سياسية عميقة.

فشلت المقاومة الثانية للجيش والمدنيين التبتيين ضد القوات البريطانية، وفرّ الدالاي لاما الثالث عشر على عجل قبل دخول الجيش البريطاني إلى لاسا. وما زالت الأسباب والدوافع وراء هروبه موضع خلاف حتى اليوم، حيث تختلف الروايات حولها.

القول الأكثر شيوعًا هو أن رحلة الدالاي لاما هذه جاءت بسبب خيبة أمله الكبيرة في عجز بلاط (تشينغ) عن حماية التبت. فحاول التوجه إلى روسيا عبر منغوليا الخارجية، طالبًا دعم القيصر لمواجهة بريطانيا. ولكن بسبب هزيمة روسيا القيصرية أمام اليابان في الحرب للسيطرة على «أرض التنين» في شمال شرق الصين، وانشغالها بنفسها، لم يكن أمام الدالاي لاما خيار سوى التخلي عن خطته.

وفقًا للمواد التاريخية التبتية التي تم اكتشافها وتنظيمها في السنوات الأخيرة، تلقى الدالاي لاما، قبل مغادرته لاسا، رسالة من القائد البريطاني (رونغ خه بينغ)، الذي كان يقود قواته نحو لاسا. ذكرت الرسالة بوضوح أن الغرض من دخول لاسا هو توقيع معاهدة جديدة، وأنه «بمجرد توقيع الدالاي لاما، ستنسحب القوات فورًا من لاسا».

قال الدالاي لاما: "أفكاري وتصرفاتي تختلف تمامًا عن أفكار الأجانب وتصرفاتهم، ولا يمكننا الجلوس والتحدث معًا." هذه بالتأكيد ليست كلمات زائفة، وإلا لما كانت هناك تلك المقاومة المستمرة للبريطانيين رغم الهزائم المتتالية. وعند الحديث عن الأحداث الماضية اليوم، يدعو المؤرخون إلى تبني "فهم متعاطف" للحكم على الأشخاص والأحداث. بصفته الزعيم الديني والإداري للتبت، كان الدالاي لاما الثالث عشر يتمتع بسلطة كبيرة. لكن سلطة سلالة (تشينغ) في حكم منطقة التبت، بصرف النظر عن منح ألقاب الزعماء الدينيين مثل الدالاي لاما والبانشن لاما والاعتراف بتجسداتهم، وتعيين الوصي على العرش عندما يكون الدالاي لاما قاصرًا، وتعيين وعزل مسؤولي الحكومة المحلية، انعكست في الجوانب العسكرية والدبلوماسية. في الماضي، عندما كانت سلالة (تشينغ) قوية، استخدمت القوة العسكرية في التبت عدة مرات، غالبًا لصد العدوان والدفاع عن أراضي التبت. وبعد الحرب، كان الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت هو الممثل الطبيعي للجانب الصيني عند إبرام المعاهدات. كان (رونغ خه بينغ) يعلم هذه القاعدة، لكنه تعمد إرسال رسالة إلى الدالاي لاما لإجباره على توقيع معاهدة مذلة، وكان ينوي بذلك فصل علاقة بلاط (تشينغ) بالتبت. وبما أن الدالاي لاما لم يكن يرغب في عقد سلام مع البريطانيين، وحتى لو رغب، لم يكن يملك صلاحية التوقيع على المعاهدة، فلم يكن أمامه سوى المغادرة وهو السبيل الوحيد لتجنب هذا الموقف المحرج.

ربما كانت رحلة الدالاي لاما إلى منغوليا الخارجية تهدف أيضًا إلى الاستفادة من قوة روسيا لمواجهة الغزو البريطاني، لكنه لم يصدر أي تصريحات أو يقوم بأفعال واضحة بهذا الشأن. فقد ذكر الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (يوتاي)، في مذكرة رفعها: «إن خروج الدالاي لاما بعيدًا عن التبت دون إبلاغ مسبق للسلطات أمر مخالف للقواعد، ومن الصعب التكهن بما إذا كانت لديه أي خطط ماكرة." في ذلك الوقت، كانت الحقائق السياسية في منطقة التبت معقدة، وربما كان من الصعب على الدالاي لاما أن يتخذ خيارًا قاطعًا كما ذكر الياباني ياماغوتشي كن في كتابه «نظرة عامة عن التبت». في هذه الفترة، بدأ اليابانيون أيضًا يطمعون في التبت، وقد يكون ما قالوه مبنيًا على بعض الحقائق، ولكن الأرجح أنه كان قائمًا على العلاقات الروسية اليابانية آنذاك ومصالح اليابان الخاصة.

في السنوات الأخيرة، بدأت تظهر تدريجيًا مواد تاريخية باللغة التبتية من التبت نفسها، مما يوفر لنا مراجع جديدة.

[redacted].indd 292-293 2025-11-27 10:56:12

«سجلات الدالاي لاما الثالث عشر»، التي نُشرت في «مجموعة مختارات من الوثائق التاريخية والثقافية التبتية» عام ٢٠٠٧ عن دار نشر القوميات، هي إحدى هذه المصادر التاريخية. يبلغ طول هذه الوثيقة عشرات الآلاف من الكلمات، ولا تحمل اسم مؤلف أو مترجم، لكن أسلوبها يشير إلى أنها مترجمة من التبتية، أو أنها كُتبت بناءً على مصادر تاريخية تبتية.

يوثّق المقال أيضًا بالتفصيل هروب الدالاي لاما: «وصلت القوات البريطانية الغازية إلى معبر جسر (تشوشوي) المعلق بالسلاسل الحديدية. تم إرسال (جيتشياو كانبو باشي آ وانغ أو تشو) من قبل الدالاي لاما، حاملًا تعليمات موقعة من الدالاي لاما ومختومة بختم الديوان الداخلي بتاريخ الثامن من يونيو، للتفاوض مع الضابط البريطاني (رونغ خه بينغ). لكن القوات البريطانية أصرت على الذهاب إلى لاسا والتفاوض مباشرة مع الدالاي لاما. فكر الدالاي لاما أنه إذا التقى بالضابط البريطاني، فلن يكون أمامه خيار سوى الانصياع للشروط البريطانية أثناء المفاوضات، ولن يتمكن هو شخصيًا من تحمل مسؤولية الأضرار التي قد تلحق بالعمل العظيم للشؤون السياسية والدينية في الحاضر والمستقبل. لذلك، راودته فكرة السفر إلى المناطق الداخلية لتقديم تقرير مباشر إلى الإمبراطورة الأرملة والإمبراطور والوزراء حول الكارثة التي حلت بالبوذية. في الثاني عشر من يونيو، قطع الدالاي لاما شعائره الدينية فجأة وتوجه مباشرة إلى قصر بوتالا، حيث عيّن (غاندين تريبا لوبسانغ جيالتسين) وصيًا على العرش، أصدر له تعليمات مفصلة بشأن شؤون الحكم. وفي منتصف الليل بعد الخامس عشر من يونيو، وبعد أن قدم وصاياه للآلهة الحامية التي يعتمد عليها ويقدسها، غادر لاسا مع عدد قليل من المرافقين.»

في الثلاثين من يونيو، وفي منتصف الطريق من (نا تشو) باتجاه جبال (تانغ قولا)، أرسل الدالاي لاما رسالة أخرى إلى الوصي الذي عينه، (غاندين تريبا)، أعرب فيها عن مظالمه الداخلية: «كما أخبرت الكالون سابقًا، يجب أن يتولى المجلس التبتي العام مسؤولية إرسال المسؤولين المهمين وقضايا الحدود. مع ذلك، في الماضي، بذلت قصارى جهدي في الشؤون العامة، والآن تلقيت رسائل متتالية من المسؤولين البريطانيين يطالبونني باتخاذ قرارات شخصيًا، وما زالوا يلقون المسؤولية عليّ وحدي.» هذا يعني أنه شعر أن مطالبة (رونغ خه بينغ) بالتفاوض المباشر والتوقيع معه كانت مسؤولية لا يمكنه ولا ينبغي له أن يتحملها شخصيًا، ولذلك لم يكن لديه خيار سوى المغادرة.

نوفمبر، منغوليا الخارجية.

ورد في «سجلات الدالاي لاما الثالث عشر» أيضًا أن الإمبراطور (قوانغ شو) والإمبراطورة الأرملة (تسي شي) «أرسلا خصيصًا وزيرًا مفوضًا يحمل رداءً رهبانيًا أصفر فاخرًا مطرزًا بتسعة تنانين ملونة على هيئة سحاب، وهدايا متنوعة، بالإضافة إلى مرسوم إمبراطوري يثني على الدالاي لاما ويمنحه لقبًا تشريفيًا لزيارته.»

"وبعد أن تلقى الدالاي لاما هدايا الإمبراطور، سجد تسع مرات باتجاه بكين."

«في اليوم التالي، جاء الوزير المفوض والوزراء المانشو للقاء، وتحدث الدالاي لاما عن رحلته هذه إلى بكين لتقديم تقرير مباشر للإمبراطور حول مستقبل الشؤون السياسية والدينية.»

في الوقت نفسه، تلقى الدالاي لاما أيضًا معلومات من التبت تفيد بأن «المسؤولين البريطانيين اجتمعوا مع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت وأجروا مشاورات». وفي رده على رسالة الوصي (غاندن تريبا)، قال: «بعد وصولي إلى هنا، أرسل الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة وزيرًا مفوضًا خصيصًا لينقل تحيات الإمبراطور، بالإضافة إلى منحي زيًا كاملاً من الملابس المانشوبة، وعشر لفات من قماش الديباج، وستة آلاف تايل من الفضة. حاليًا، أطلب من الوزير المفوض أن يقدم تقريرًا مفصلاً للإمبراطور عن الوضع في التبت... وبمجرد تلقي المرسوم الإمبراطوري، سأستعد للعودة سريعًا إلى لاسا". يبدو أن قول الدالاي لاما هذا لم يكن مجرد كلام بلا فعل، لأنه طلب أيضًا من حكومة (كاشاغ) إعداد المواد ذات الصلة. شملت المواد التي طلبها: 1. رسائل من مختلف مستويات حكومة (كاشاغ) إلى الجانب البريطاني خلال الحرب البريطانية-التبتية؛ 2. نسخ من الوثائق التي تم إبلاغ الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت بها؛ 3. الآراء الصادرة عن المؤتمر التبتي العام. وفي الوقت نفسه، طلب إرسال حوالي عشرة آلاف تايل من الفضة كـ«نفقات للأنشطة الهامة». من هذا يبدو أن الدالاي لاما كان عازمًا على مناقشة قضية التبت بجدية مع الحكومة المركزية لبلاط (تشينغ).

وفي الوقت نفسه، كان الدالاي لاما يولي اهتمامًا أيضًا لوضع شيوخ القبائل في منطقة (سيتشوان)، الذين لم يكونوا تحت إدارة حكومة (كاشاغ).

في عام 1907، رد الدالاي لاما على رسالة من رهبان دير (قان تسي) في أراضي شيوخ قبائل (هور) الخمس المنغولية الأصل، معربًا عن علمه بـ«وضع المعاناة والرخاء في منطقة (تشو ووه)»، ومؤكدًا: «وفي المستقبل، يجب علينا أيضًا الدفاع عن الوطن والعيش والعمل في سلام ورخاء".

وتلقى أيضًا ردًا على رسالة من دير (لينغ تشوي) في (داوفو). في عام 1905، دُمر دير (لينغ تشوي) بسبب زلزال، مما أسفر عن مقتل أو إصابة أكثر من مائتي راهب. في ذلك الوقت، كانوا «يجمعون التبرعات من جميع الدوائر لإعادة بناء الدير والقاعات البوذية»، وخلال هذه الفترة، «اقتنع ثلاثمائة من الحمالون الذي كانوا يعملون في خدمة الدير بكلام الغرباء، وتبعوهم ولم يتم استعادتهم». لا نعرف من هم هؤلاء الغرباء.

لم يُظهر الدالاي لاما أي موقف، فقط رد قائلًا: «لقد علمت بذلك».

[redacted].indd 294-295 2025-11-27 10:56:12

هذا يدل على أن الأديرة الواقعة تحت إدارة شيوخ القبائل في (سيتشوان)، وخاصة أديرة طائفة (غيلوغ)، على الرغم من أنها تقع في أراضي شيوخ القبائل في (سيتشوان)، إلا أنها كانت مرتبطة بشكل عميق وواسع بحكومة (كاشاغ) التي كانت تتبع نظام الحكم الديني والسياسي المشترك، وكان الدالاي لاما زعيمها الأعلى.

ثم، توجه الدالاي لاما عبر جبل (وو تاي) استعدادًا للتوجه إلى بكين. وهناك، «استقبل الدالاي لاما دبلوماسيًا أمريكيًا وخادمه... وعندما غادر المسؤول الأمريكي، قال باللغة التبتية: ‹أرجو من الدالاي لاما أن يضع يده على رأسي للمباركة.› وأعرب عن استعداده لخدمة البوذية. فسر الدالاي لاما بذلك وباركهم بوضع يده على رؤوسهم."

وهناك أيضًا، التقى بالروس، حيث «استقبل ضابطًا عسكريًا روسيًا وأجرى معهم محادثات ودية."

كما ظهر مسؤول تبّتي من (تشان دوي) في جبل (وو تاي). كان هذا المسؤول «(تشا لينبا داي بن) من (تشان دوي)، منطقة (دوه كانغ)» – «مقدم العرائض»، وباركهم الدالاي لاما بوضع يده على رؤوسهم.

لاحقًا، وصل الدالاي لاما الثالث عشر إلى بكين.

في «العشرين من أغسطس، وهو اليوم الأكثر مباركة، ارتدى الدالاي لاما الرداء الراهب الذهبي والأحمر، ووضع التاج على رأسه المعروف باسم «قبعة الرجل العارف». ومع أول قرع للطبلة عند الفجر، استقل المحفة الصفراء الكبيرة، برفقة وزراء مجلس الدولة ووزراء «لي فان يوان» (مكتب الشؤون الحدودية). نزل من المحفة عند بوابة (وو من) ودخل المدينة المحرمة، حيث قابل الإمبراطورة الأرملة (تسي شي) في قاعة (رن شو). قدم الدالاي لاما لـ (تسي شي) «خادا» (وشاح احتفالي) للتحية، وقدم لها تمثال بوذا. ردت الإمبراطورة الأرملة بتقديم «خادا» بيضاء نقية، ثم أمرت بإحضار مقعد له. استفسرت الإمبراطورة الأرملة من الدالاي لاما عن مدة غيابه عن التبت، وما إذا كان قد عانى من التعب خلال رحلته، وكيف كانت معاملته في بكين، فأجاب الدالاي لاما على كل سؤال. ثم قدمت الإمبراطورة الأرملة للدالاي لاما مسبحة من الأحجار الكريمة، فقدم الدالاي لاما شكره وانسحب.

«ثم قاد مسؤول من «لي فان يوان» (مكتب الشؤون الحدودية) الدالاي لاما إلى قاعة أخرى للاستراحة لفترة وجيزة، ثم عادوا إلى قاعة (رن شو) لمقابلة الإمبراطور (قوانغ شو). قدم الدالاي لاما «خادا» (وشاح احتفالي) وتمثال بوذا، ورد الإمبراطور بتقديم «خادا» صفراء. استفسر الإمبراطور (قوانغ شو) عن أحوال الدالاي لاما خلال رحلته إلى العاصمة، وعن الأحداث الكبرى في التبت، وما إذا كان مرتاحًا في بكين، فأجاب الدالاي لاما على جميع أسئلته واحدًا تلو الآخر.»

«في اليوم السادس، أقام الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة مأدبة عشاء على شرف الدالاي لاما في (تشونغ نان هاي).»

"أقيمت مأدبة على طاولة كبيرة، وكانت الأطباق والشاي وفيرة، والجو مليئًا بالفرح. قدم العديد من الممثلين من قومية (الهان) عروض رقصات منغولية وبرامج أخرى."

بالطبع، لم تكن رحلة الدالاي لاما هذه لتناول الولائم وتلقي الهدايا. فقد قدم للإمبراطور والإمبراطورة الأرملة مطالب حكومة (كاشاغ):

1. من أجل الشؤون السياسية والدينية في التبت ورعاياها، يجب مساعدة التبت في مقاومة غزو الدول الأجنبية وحماية التبت.

2. بالنسبة لجميع القضايا الهامة في التبت، يمكن للدالاي لاما أن يرفع تقريرًا إلى البلاط الإمبراطوري مباشرة، أو يمكن للوزير المقيم في التبت وحكومة (كاشاغ) رفع تقرير مشترك.

وفقًا للترتيبات السابقة في عهد سلالة (تشينغ)، كان على الدالاي لاما بنفسه وحكومة (كاشاغ) تقديم جميع المراسلات إلى الحكومة المركزية عبر الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، وكان هذا إجراءً لتعزيز سلطة الوزير المقيم. لكن في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، توترت العلاقة بين الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت ومسؤولي حكومة (كاشاغ) تدريجيًا، وغابت الثقة المتبادلة. غالبًا ما كان الجانب التبتي يشك في أن المذكرات التي يقدمونها للوزير المقيم لم تُنقل كما هي، كما كانوا يشكون فيما إذا كانت الإجراءات المختلفة التي يتخذها الوزير المقيم قد صدرت بالفعل بأوامر من الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة. أثناء نفيه هذه المرة، أرسل الدالاي لاما رسالة إلى رئيس دير في منطقة التبت قال فيها: «لن يمتنع الإمبراطور عن منحنا فضله الإلهي. لا تخافوا من وزراء (الهان) الذين ينشرون الفتنة.»

لكن كل هذا كان قد فات الأوان.

فبعد أقل من شهر على مأدبة الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة، توفي الإمبراطور (قوانغ شو). وبعد يومين، توفيت الإمبراطورة الأرملة.

في التاسع من أكتوبر، اعتلى آخر أباطرة سلالة (تشينغ)، الإمبراطور (شوان تونغ)، العرش. وبعد شهرين من حضوره مراسم التتويج، غادر الدالاي لاما العاصمة عائدًا إلى التبت. لم يُوافق على طلبه المتعلق برفع التقارير المباشر للمسائل الهامة إلى الحكومة المركزية.

في التاسع من نوفمبر 1909 م، عاد الدالاي لاما المحبط، الذي رأى بأم عينيه أن بلاط (تشينغ) في حالة اضطراب، إلى لاسا. كان قد مر أكثر من خمس سنوات على مغادرته التبت في يونيو 1904م.

يسجل هذا السجل السنوي أيضًا بوضوح أن حكومة (كاشاغ) أنشأت في ديسمبر من ذلك العام مكتب الشؤون الخارجية. وهذا يعني أن الدالاي لاما وحكومة (كاشاغ) كانا يعتزمان التخلي عن الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت والتعامل مع الشؤون الخارجية بأنفسهما.

□□□□ □□□.indd 296-297 2025-11-27 10:56:13

في هذا الوقت، لم يبقَ على سقوط سلالة (تشينغ) سوى عامين.

وفي السجلات التاريخية الرسمية، أُنشئ مكتب الشؤون الخارجية لحكومة (كاشاغ) في عام 1942، أي بعد سنوات عديدة من وفاة الدالاي لاما الثالث عشر، وبدأت الأنشطة الدبلوماسية المتكررة الهادفة إلى تحقيق الاستقلال في الظهور حينها. ومع ذلك، وبما أن الوثائق التاريخية المحلية تذكر ذلك بوضوح، فقد تم إدراجه هنا لغرض البحث المتخصص. «سجلات الدالاي لاما الثالث عشر» تسجل بالفعل ما يلي: «في السابع والعشرين من ديسمبر، عاد [الدالاي لاما] من (نوربولينغكا) إلى قصر (بوتالا)، وشاهد طقوس طرد الأرواح الشريرة في نهاية العام. وفي ذلك العام، تم إنشاء مكتب جديد للشؤون الخارجية، وعُين كل من (كان تشيونغ جيان تسان بينغ تسوه) والمسؤول من الدرجة الرابعة (كاي موه رن تشين وانغ جي) مسؤولين عنه.»

□□□□ □□□.indd 298-299 2025-11-27 10:56:13

الفصل الثامن

قاد (تشاو إر فنغ) قواته جنوبًا إلى (تشان دوي)، حيث قام بطرد المسؤولين والجنود التبتيين المتمركزين هناك، وضم منطقة (تشان دوي)، التي احتلتها حكومة (كاشاغ) لعقود، إلى (سيتشوان).

وهكذا، ذابت هذه «الكتلة الحديدية» التي كانت (تشان دوي).

.indd 300-301 2025-11-27 10:56:13

أخيرًا، حان وقت التغيير

في السنوات الأخيرة من عهد سلالة (تشينغ)، كان هناك عدد قليل من كبار المسؤولين المحليين الذين، مع اقتراب نهايتها، سعوا لتحقيق إنجازات في منطقة التبت. اثنان من هؤلاء المسؤولين كانا مرتبطين بمنطقة (تشان دوي) تحديدًا، لذا فإن الأمر يستحق تفصيلاً.

أحدهم يُدعى (فنغ تشوان).

لنتحدث أولاً عن (فنغ تشوان) قبل ظهوره على الساحة، في هذا الوقت أدرك بلاط (تشينغ) تدريجيًا أنه لم يعد هناك أي إمكانية للحفاظ على الاستقرار الاجتماعي في مناطق (سيتشوان) و(كانغ) و(التبت) بالاعتماد على الأساليب القديمة المتمثلة في الاعتماد على الطغاة المحليين ودعم القوى الدينية، مع عدم إحداث أي تغييرات في البنية الاجتماعية. في جميع أنحاء المنطقة التبتية، أصبحت القوى الدينية التي دعمها بلاط (تشينغ) عمداً تتمتع بنفوذ كبير يصعب السيطرة عليه يوما فيوما. وفي مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، وخاصة المناطق المجاورة لـ(تشان دوي)، تراجعت قوة شيوخ القبائل في حين تزايدت قوة القوى الدينية، وخاصة أديرة طائفة (غيلوغ)، بشكل غير مسبوق. في بعض المناطق، تجاوزت قوة الأديرة ونفوذها بكثير السلطة الدنيوية لشيوخ القبائل بفضل علاقاتها الخاصة بالمجموعات الدينية في التبت. وأدرك عدد متزايد من مسؤولي بلاط (تشينغ) أن السبيل الوحيد لتغيير هذا الوضع في المناطق التبتية هو تطبيق سياسات جديدة، وتطوير الصناعة والتجارة، وإصلاح المجتمع. ولكن في المناطق التبتية على حدود (سيتشوان)، لم تكن لدى شيوخ القبائل وجماعات الأديرة أي رغبة على الإطلاق في إجراء إصلاحات اجتماعية ذاتية. وبما أنه لا يوجد وعي داخلي بالتجديد الذاتي، لم يكن هناك خيار سوى أن تطالب القوى الخارجية بالإصلاح الاجتماعي، في محاولة لإنقاذ المجتمع في المناطق التبتية من الوضع المتأزم.

في السنة التاسعة والعشرون من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، الموافق لعام 1903 م، اقترح أحدهم على البلاط الإمبراطوري بأن طريقة تغيير الوضع الخطير في منطقة (سيتشوان) والتبت هي: «الاعتماد على استصلاح الأراضي لإقامة المستوطنات، والاعتماد على فتح المناجم لتنشيط التجارة» في أراضي شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان).

أصدر البلاط الإمبراطوري على الفور مرسومًا إلى الحاكم العام لـ (سيتشوان)، (شي ليانغ)، يطلب منه «فحص الوضع وتقديم خطة مدروسة".

بعد فترة وجيزة، قدم (شي ليانغ) مذكرة قال فيها: «إن الأمور العاجلة في (سيتشوان) والتبت لا يمكن حلها من خلال الاعتماد على استصلاح الأراضي لإقامة المستوطنات أو فتح المناجم لتنشيط التجارة." أي بمعنى: سواء كانت في التبت أو في أراضي شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، فإن هناك العديد من القضايا العاجلة التي لا يمكن حلها بإجراءات تستغرق وقتًا طويلاً مثل استصلاح الأراضي وفتح المناجم. بعبارة أخرى، لم يكن كبار المسؤولين المحليين متحمسين للأمور التي لا تحقق نتائج فورية وتواجه صعوبات لا حصر لها في التنفيذ. كان (شي ليانغ) شخصية فاعلة نسبيًا في «السياسات الجديدة في أواخر عهد سلالة (تشينغ)». وخلال فترة ولايته كحاكم عام لـ (سيتشوان)، عمل بنشاط على إنشاء مدارس حديثة في المناطق الصينية وإرسال الطلاب الشباب للدراسة في الخارج، وحقق سمعة سياسية جيدة. ومع ذلك، في مواجهة الفوضى التي سادت في أراضي شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، افتقر هو أيضًا إلى الثقة.

بعد فترة وجيزة، ظهر شخص نشيط. هذا الشخص هو (فنغ تشوان).

في عام 1904، عُين (فنغ تشوان) مساعدًا للوزير المقيم في التبت. قبل بضعة أشهر، وفي مواجهة الهجوم البريطاني المتزايد في التبت، وصعوبة السيطرة الفعالة على الحكومة المحلية في التبت، توقع بلاط (تشينغ) أنه قد يأتي يوم يضطر فيه لاستخدام القوة العسكرية في التبت. لذلك، أصدر أمرًا بنقل مساعد الوزير المقيم، الذي كان يقيم في لاسا مع الوزير المقيم، إلى (تشا مو دوه)، الواقعة بين (سيتشوان) والتبت، لتسهيل «التنسيق والدعم» بين (سيتشوان) والتبت.

في أواخر أغسطس من ذلك العام، كان (فنغ تشوان) في طريقه إلى (تشا مو دوه) لتولي منصبه، وعند وصوله إلى (دا جيان لو)، تلقى مرسومًا إمبراطوريًا آخر من بلاط (تشينغ). كان فحوى المرسوم يقول إن سلالة (تشينغ) قد حكمت التبت لأكثر من مائتي عام. وفي الآونة الأخيرة، غزت القوات البريطانية التبت بهدف إجبار أسرتنا على توقيع معاهدات لتقسيم الأراضي وفرض التجارة. تطور الوضع إلى هذه الدرجة، وأصبح من الصعب التكهن بما ستؤول إليه الأوضاع في التبت. ورأى البلاط أن مفتاح استقرار (سيتشوان) والتبت في هذا الوقت يكمن فقط في تدريب الجنود وتعزيز القوة العسكرية لضمان استقرار الحدود، لكن كل هذا يتطلب موارد مالية كافية. لذلك، طُلب من (فنغ تشوان)، بعد توليه منصبه، إجراء مسح دقيق للأراضي المحلية واختيار الأماكن المناسبة للزراعة العسكرية وتربية الماشية، وأن يكون المزارعون المجندون جنودًا ومزارعين في الوقت نفسه. كما طُلب منه توظيف عمال للتعدين حسب الاقتضاء لضمان توفر إمدادات كافية للجيش، وأعرب البلاط عن أمله في أن «يبذل قصارى جهده في التخطيط، وألا يتهرب من الصعاب، وأن يبذل قصارى جهده للإدارة».

[redacted].indd 302-303 2025-11-27 10:56:13

في ذلك الوقت، كان الجيش البريطاني يتقدم بنجاح نحو لاسا. لم يكن بلاط (تشينغ) متأكدًا من النوايا الحقيقية للبريطانيين، فاضطر إلى وضع خطة للاعتماد على مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان) كحاجز وقائي لمقاطعات (سيتشوان) و(يون نان) في حال فقدان التبت..

تلقى (فنغ تشوان) المرسوم بحماس، ورأى أن قرار البلاط يتوافق تمامًا مع تصوراته، وعزم على تحقيق إنجازات عظيمة خلال فترة ولايته.

حتى وهو في طريقه لتولي منصبه، بدأ (فنغ تشوان) بتشكيل جيش جديد. هذا الجيش الجديد سيزود بأسلحة حديثة ويدرب بأساليب تدريب معاصرة. الهدف من ذلك السيطرة على نفوذ شيوخ القبائل والأديرة المحلية، حتى يتسنى التركيز على شؤون الزراعة العسكرية وغيرها؛ وفي الوقت نفسه، يمكن إرسال تعزيزات في حال وقوع أي طارئ في التبت.

خدم (ليو تينغ شو)، الذي كان يشغل منصب مساعد حاكم (دا جيان لو)، في مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان) لمدة ثماني سنوات، وكان على دراية تامة بالوضع الاجتماعي المحلي. اقترح على (فنغ تشوان) تجنيد التبتيين من أراضي شيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، مشيرًا إلى أنهم محليون، يتحملون المشاق، وأكثر تحضرًا لقربهم من المناطق الداخلية. أمر (فنغ تشوان) على الفور شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) باختيار مائتي شاب تبتي وتدريبهم بشكل مكثف. في نوفمبر، رفع (فنغ تشوان) مذكرة جاء فيها: «عند وصولي إلى مكتب الحاكم، قمت بتجنيد متطوعين محليين، وتحديد موعد للعبور."

جاء الرد من الإمبراطور: «درّبوهم بجدية وتأكدوا من فعاليتهم.»

بعد هذه الاستعدادات في (دا جيان لو)، غادر (فنغ تشوان) إلى (ليتانغ) و(باتانغ). كان ذلك في ذروة الشتاء القارس في جبال (هنغ دوان) على هضبة (تشينغ هاي)-التبت، حيث كانت المناظر الطبيعية مليئة بالجليد والغابات الباردة والقفر. فقط (باتانغ)، الواقعة في وادٍ صغير، تتمتع بمناخ دافئ وتربة خصبة وتضاريس واسعة، بالإضافة إلى الكثير من الأراضي غير المستصلحة. في وقت سابق، كان الحاكم العام لـ (سيتشوان)، (شي ليانغ)، قد أمر بزراعة أكثر من ثلاثمائة مو (ما يعادل ٢٠٠ كيلو متر مربع) من الأراضي القاحلة هناك على سبيل التجربة. عندما وصل (فنغ تشوان) إلى (باتانغ)، على الرغم من حصاد القمح في الحقول، كانت الخضروات لا تزال خضراء يانعة. استكشف المنطقة من على ظهر حصانه، واكتشف أن هذه المنطقة وحدها تحتوي على خمسة إلى ستة آلاف مو (ما يعادل ٣٣٣٥ الى ٤٠٠٠ كيلو متر مربع) من الأراضي القاحلة القابلة للاستصلاح. لذلك، رفع مذكرة إلى البلاط، قائلاً إنه يجهز للزراعة في (باتانغ)، وإذا ذهب إلى (تشا مو دوه) في هذا الوقت، فستكون الرحلة طويلة، ويصعب التوفيق بين الأمرين، وطلب الإقامة في (باتانغ) لمدة ستة أشهر «حتى يتمكن من إنجاز العمل في الفترة بسهولة أكبر».

لكن بلاط (تشينغ) لم يوافق قائلاً: «يجب أن يبقى (فنغ تشوان) متمركزًا في (تشا مو دوه) للتخطيط واتخاذ الترتيبات اللازمة»

ومع ذلك، ظل (فنغ تشوان) متمركزًا في (باتانغ). وبعد الفحص، طلب من الحاكم العام لـ (سيتشوان)، (شي ليانغ)، تسريح الجنود الضعفاء والمرضى من المعسكرين التابعين لجيش (تشينغ) المتمركزين غرب (دا جيان لو)، ودمج الجنود الأقوياء المتبقين في معسكر واحد، إضافة إلى الجيش الجديد الذي جنده، ليصبح العدد الإجمالي ألف جندي. تم توزيعهم في أربعة مواقع: (لوهوه)، و(باتانغ)، و(ليتانغ)، و(تشا مو دوه). خصصت 70% من القوة للدفاع و30% من القوة للزراعة. وأصدر مهمة استصلاح ألف مو (666.6 كيلو متر مربع) من الأراضي القاحلة في ذلك العام. وفي خطته، بزيادة مساحة الأراضي المستصلحة تدريجيًا كل عام، يمكن أن تغطي الإيرادات بعد بضع سنوات رواتب ومؤن هذا الجيش.

بعد الانتهاء من ترتيبات الزراعة وتدريب الجيش الجديد، توجه (فنغ تشوان) إلى (ليتانغ) لإجراء مزيد من الفحص. (ليتانغ) هي هضبة فوق هضبة، وهي المنطقة التي غالبًا ما تُعرقل فيها الطرق الرئيسية بين (سيتشوان) والتبت بسبب عصابات «جيا با». في ذلك الوقت، كان اثنان من شيوخ القبائل (رئيس ونائبه) الذين عينهم البلاط قد ضعفوا للغاية ولم يعودوا قادرين على تحمل المسؤولية. أحد الأسباب وراء ذلك كان ازدياد قوة ونفوذ الأديرة المحلية تدريجيًا.

في ذلك الوقت، كان العدد الإجمالي للسكان في جميع أنحاء (ليتانغ) حوالي 6500 أسرة فقط، بينما وصل عدد الرهبان في الأديرة إلى 3800 راهب. كانت الضرائب على الحبوب التي تدفعها (ليتانغ) للحكومة تبلغ ما يعادل 450 تايل من الفضة فقط. في المقابل، كان على السكان المحليين تزويد الأديرة بـ 600 تايل من الفضة لملابسهم، و1750 شي (115500 كجم) من الحبوب، و470 رأسًا من الماشية، وما يقرب من ألف جين (500 كجم) من الزبدة. ولم تكن الخدمات المجانية المختلفة التي يقدمونها تُحسب. في (ليتانغ)، وهي منطقة رعوية ذات مناخ بارد جدًا وطرق إنتاج بدائية للغاية، تسببت هذه الأعباء الاقتصادية والعملية في وصول السكان المحليين إلى حد البؤس. بعد تضخم نفوذ الأديرة، بدأت تتدخل أيضًا في السياسة المحلية، وتفرض قيودًا على شيوخ القبائل، ثم تحمي وتتسامح مع عصابات «جيا با»، مما أدى إلى تزايد حوادث السطو على طول طريق (سيتشوان) والتبت الذي كان هادئًا في السابق. كان على التجار المسافرين، إذا أرادوا المرور بأمان عبر أراضي (ليتانغ)، تقديم العروض للأديرة وطلب الحماية. وكان نصف الجنود الذين كانوا يطاردون عصابات «جيا با» يفرون للاختباء في الأديرة. في العام الذي سبق تولي (فنغ تشوان) منصبه، تطور الأمر إلى حد قيام الأديرة المحلية بتجمع الحشود وإثارة الشغب، مطالبين بإزالة الجنود المتمركزين في المحطات البريدية. «قاد (ليو تينغ شو)، مساعد حاكم (دا جيان لو)، قواته لقمعهم، وقام بالقضاء على رئيس الأديرة الذي كان يقود الفتنة، وتراجعت قوتهم قليلاً».

”هدأ الوضع قليلاً» كان تعبيرًا استخدم في المذكرات الرسمية، لكن بعد فترة وجيزة، وقع حادث آخر على هذا الطريق: «وقع مؤخرًا حادث سطو على القِسِّيس[1] بودوان، ولحسن الحظ لم يصب أحد بأذى.»

هذه المرة، المستهدف من قبل عصابة «جيا با» هو أجنبيًا، وهو ما كان يُعدّ حدثًا جللاً في عهد سلالة (تشينغ).

في وقت مبكر من عهد الإمبراطور (شيان فنغ)، بنى المبشرون الكاثوليك الفرنسيون كنيسة كاثوليكية في (دا جيان لو)، ثم توغلوا في (باتانغ) والمنطقة المجاورة لها، (وي شي يي) في (يون نان). في عهد الإمبراطور (تونغ تشي)، بُنيت كنيستان كاثوليكيتان في منطقة (باتانغ)، ثم بُنيت كنائس كاثوليكية أخرى في (وي شي يي) ، و(تسي تشونغ)، و(يان جينغ) وغيرها من المناطق التبتية المجاورة لـ (باتانغ) في (يون نان). لذلك، كان المبشرون الفرنسيون يترددون على طريق (سيتشوان) والتبت بين (باتانغ) و(ليتانغ).

ذكر (فنغ تشوان) في مذكرته أن «مناطق (هوانغ توقانغ) و(قان هاي تسي) هي مناطق تتردد عليها عصابة (جيا با).“

لابد أنكم جميعاً تتذكرون أن قصة (تشان دوي) قد بدأت من منطقة (هاي تسي تانغ)، حيث تعرضت فرقة من الجنود المناوبين للنهب من قبل «جيا با»، مما أدى إلى حملة عسكرية ثانية من قبل بلاط (تشينغ) على (تشان دوي) في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ). كان ذلك في العام التاسع من حكم (تشيان لونغ)، أي عام 1744 م. بعد ذلك، مر أكثر من مائة عام، لكن الوضع الاجتماعي بدا وكأنه لا يزال في نقطة البداية. لقد ضاع الوقت سدى، وتكررت القصص القديمة في دائرة مغلقة لا نهاية لها. في هذه المرحلة، فإن تحديد من هو على صواب أو خطأ، ومن هو مذنب أو بريء بين الأطراف المعنية، لم يعد هو القضية الأهم. ما يثير الشعور بالمأساة حقًا هو جمود التاريخ. مع وجود الكون، وُجد الزمن. ومع وجود الزمن، وُجد تاريخ الأرض وتاريخ البشرية. لا يكمن معنى الزمن في مروره فحسب، بل في تطور وتقدم المجتمع أثناء مروره. ولكن في قصتنا هذه، التي تكاد تكون مليئة بجميع العناصر الدرامية التي عرفتها البشرية على مر العصور، ينقصها كلمة رئيسية واحدة: التطور.

ربما كان تصور الأباطرة مثل (كانغ شي) و(تشيان لونغ) في البداية هو إبقاء هذا العالم خارج مسار التطور الاجتماعي إلى الأبد، ويبقى في حالة من التخلف والبدائية، وذلك لتسهيل حكم السلالة. ذكر (تشيان لونغ) في مقاله «عن اللامات» الذي شرح فيه سياسته تجاه التبت، أن جوهر هذه السياسة هو «تطوير دينهم دون تغيير عاداتهم، وتنظيم حكمهم دون تغيير خصائصهم». لكنه لم يدرك أن الوضع المتخلف والمنغلق الذي لا يتوافق مع التيار العالمي العام، يحمل في طياته نوعًا من القوة المدمرة، قوة تدفعه نحو الأسفل.

1 القِسِّيس: هو مرتبة دينية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. يُعرف عادة باسم الأب أو القس، وهو المسؤول عن الكنيسة. رتبته بين الأسقف والشماس، ويحتل المرتبة السابعة بين الكهنة الكاثوليك.

قدم (فنغ تشوان) اقتراحًا: «نقترح إعادة التأكيد على النظام القديم، بحيث لا يتجاوز عدد لامات الأديرة الكبيرة في مناطق شيوخ القبائل ثلاثمائة راهب، ويتم تعليق ترسيم الرهبان لمدة عشرين عامًا. بعد ذلك، يُحدد عدد اللامات المسموح بهم، ولا يُسمح بترسيم أي راهب بشكل خاص، أما الرهبان الذين تقل أعمارهم عن ثلاثة عشر عامًا، فيُطلب من أسرهم استعادتهم وإعادتهم إلى الحياة المدنية. لقد أصدرتُ تعليمات صارمة لشيوخ القبائل ورؤساء الأديرة لتوجيه رهبان الأديرة الكبيرة للعودة إلى قبائلهم وبناء أديرة صغيرة متفرقة لممارسة الزهد، وذلك لتفريق قوتهم. أرجو أن يتم توجيه هذا الأمر إلى مكتب (لي فان يوان) - مكتب الشؤون الحدودية - لمناقشته وتنفيذه. بهذه الطريقة، سينخفض عدد الرهبان ويزداد عدد السكان بعد عشرين عامًا، ولن يعاني الناس من التشرد، ولن يأكل الرهبان على حساب الآخرين، وسنرى نتائج إيجابية في الأرض والسكان.»

وبالنسبة لاقتراح (فنغ تشوان) هذا، لم يُظهر الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة في العاصمة أي موقف، وظلا هادئين، واكتفيا بتوجيه «الوزارة المعنية لمناقشة الاقتراح». أي أنهم أحالوا القضية إلى الإدارات المختصة وطلبا منها آرائهم.

.indd 306-307 2025-11-27 10:56:13

حتى المعبد الإمبراطوري يتمرّد أيضًا

عندما مكث (فنغ تشوان) في (دا جيان لو)، سمع أن نهرًا بالقرب من دير (هوي يوان) في منطقة (تاي نينغ) كان غنيًا بالرمال الذهبية. في السنوات الأولى من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، عندما قاد الجنرال (نيان قنغ ياو) قواته لطرد غزاة الزونغار من التبت، مر عبر (تاي نينغ) وقام بتجنيد العمال هناك للتعدين، وحصل على الكثير من الذهب. لذلك، تشاور مع الـ تونغ تشي[1] (ليو تينغ شو)، مساعد حاكم (دا جيان لو)، بشأن «تجنيد العمال لإنشاء مصنع» لاستخراج الذهب. في الوقت نفسه، حث الحاكم العام لـ (سيتشوان) أيضًا على فتح منجم ذهب في (دا جيان لو). عندما بدأ (فنغ تشوان) في استصلاح الأراضي في (باتانغ)، أرسلت إدارة (دا جيان لو) مسؤولين لاستكشاف منجم الذهب في (تاي نينغ). أثار هذا الإجراء استياء رئيس دير (هوي يوان)، الذي حرض السكان المحليين على منع التعدين بحجة أنه يخل بالتوازن الطبيعي أو الروحي للمكان، وهو ما يعرف باسم «الفنغ شوي». ذهب القائد (لو مينغ يانغ) لإقناعهم، لكنه قُتل رميًا بالرصاص. توسعت الاضطرابات بشكل أكبر، وقام مثيرو الشغب بحرق أكثر من ثلاثمائة منزل. أرسل بلاط (تشينغ) حاكم (سيتشوان) العام (ما وي تشي) لقيادة القوات لقمع التمرد.

دير (هوي يوان) هذا في الأصل كان ديرًا إمبراطوريًا بُني في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ) من سلالة (تشينغ)، ولكنه قاد الناس في هذا الوقت لمعارضة سياسات البلاط الإمبراطوري الجديدة.

في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، غزت قبيلة (زونغار) المغولية التبت، مما أدى إلى فوضى عارمة في المنطقة التبتية. في العام السابع من حكم الإمبراطور (يونغ تشنغ)، ولضمان سلامة الدالاي لاما السابع، الذي تم اختياره من منطقة (ليتانغ)، خصصت حكومة (تشينغ) أموالًا خاصة من الخزانة لبناء هذا الدير. بلغت مساحة الدير خمسمائة مو (333.3 كيلو متر مربع)، وتم بناء أكثر من ألف غرفة للرهبان. بعد اكتمال بناء الدير، أطلق الإمبراطور (يونغ تشنغ) عليه اسم «دير (هوي يوان)»، وكتب بنفسه لافتة تحمل هذا الاسم، واستقبل الدالاي لاما السابع ليقيم في الدير مؤقتًا. أقام الدالاي لاما السابع في هذا الدير لمدة سبع سنوات (1728-1735). بعد استقرار التبت، أرسل الإمبراطور (يونغ تشنغ) شقيقه، الأمير (قوه)، الذي كان يشغل منصب مسؤول في «لي فان يوان» مكتب الشؤون الحدودية، والمعلم الوطني (تشانغ جيا هوتوكه تو)، لمرافقة الدالاي لاما السابع إلى لاسا. قبل مغادرته، طلب الدالاي لاما السابع الاستمرار في إدارة دير (هوي يوان)، ووافق البلاط الإمبراطوري على طلبه. ترك الدالاي لاما السابع رئيسًا للدير وسبعين راهبًا للصلاة وتلاوة النصوص البوذية. كما خصص بلاط (تشينغ) عشرات الأسر من سكان منطقة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) لخدمة الدير. بالإضافة إلى ذلك، كانت الحكومة تدفع 770 تايل من الفضة سنويًا كثمن لبخور الدير. وفيما بعد، كان رؤساء دير (هوي يوان) يتم تعيينهم من قبل الجانب التبتي.

1 تونغ تشي: اسم لمنصب رسمي في عهد سلالة (تشينغ)، اختصارا لـ«تونغ تشي فو شي». ويعتبر الرئيس التنفيذي على مستوى المكتب المستقل المباشر لمجلس الدولة في عهد سلالة (تشينغ). في هذا النص، «تونغ تشي» (ليو تينغ شو) هو الرئيس التنفيذي لمكتب (داجيان لو). كان مكتب (دا جيان لو) في الأصل تابعًا لحكومة ولاية (يا تشو)، وهي مؤسسة على مستوى المحافظة. لاحقًا تم رفع مستواه إلى مكتب مستقل مباشر في عهد الإمبراطور (قوانغ شو)، وهي على مستوى حكومة الولاية، ومقرها فيما يعرف اليوم باسم (كانغ دينغ).

ترتبط قصة (تشان دوي) أيضًا بهذا الدير. ففي عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، وخلال حملة (تشينغ) العسكرية الثانية على (تشان دوي)، ظهر شيخ قبيلة (بان قون) المهزوم، بعد سنوات من هروبه، في هذا الدير. وأعرب رئيس الدير عن ندمه أمام بلاط (تشينغ) وطلب الصفح والعفو، وتم منحه إياه.

قبل خمس سنوات، سافرت من (ده قه) إلى (كانغ دينغ)، وتوقفت في بلدة (با مي) بمحافظة (داوفو) بسبب إصلاحات الطرق. اغتنمت الفرصة لزيارة دير (هوي يوان) الواقع على بُعد بضعة كيلومترات. في ذلك اليوم، كان الطقس لطيفًا ومشمسًا، وكانت المروج خضراء يانعة، والدير هادئًا تمامًا، وتوقفت كتل من السحب البيضاء في السماء الزرقاء خلف القاعة الرئيسية. قرأت النقوش على اللوحة التذكارية أمام بوابة الدير، والتي كانت مرسومة بأمر إمبراطوري بمناسبة اكتمال بناء الدير في عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ). بعد مرور أكثر من مائة عام، أصبحت الحروف على اللوحة باهتة وغير واضحة. ثم توجهت بالسيارة إلى التل الصغير المقابل، حيث استمتعت بالظل في غابة من أشجار البتولا البيضاء. أمام التل الصغير، امتد سهل خصب واسع، وكانت حقول القمح صفراء ناضجة. في وسط حقل القمح كانت هناك قرية هادئة، وهي القرية التي ولد فيها الدالاي لاما الحادي عشر. لسوء الحظ، توفي هذا الدالاي لاما بشكل غامض في سن الثامنة عشرة، وهو العمر الذي كان سيتمكن فيه من تولي الحكم بنفسه. التاريخ لا يقدم افتراضات، لكنني لا أستطيع مقاومة التفكير: لو أن هذا الدالاي لاما، الذي ولد في قرية تابعة لدير إمبراطوري، تولى الحكم، كيف كان سيتصرف؟ وما هو التأثير الذي كان سيحدثه على التبت وحتى على مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان).

.indd 308-309 2025-11-27 10:56:14

بدأ بلاط (تشينغ) في دعم طائفة (غيلوغ) البوذية التبتية، مما سمح لنفوذها بالتوغل في التبت والوصول إلى المنطقة التبتية بأكملها. بعد ذلك، استمر دعم طائفة (غيلوغ) كأداة رئيسية للحفاظ على الحكم في المنطقة التبتية، وقد حققت هذه السياسة في البداية نتائج مضاعفة. ومع ذلك، بعد أكثر من مائتي عام، عندما تغيرت التوجهات العالمية والأوضاع الاجتماعية بشكل كبير، لم يدرك الخلفاء ذلك، وتمسكوا بالتقاليد القديمة. ولكن بسبب قوة الفصائل الدينية المتزايدة، فقدوا تدريجياً السيطرة الفعالة على المنطقة التبتية. وتُعدّ حادثة دير (هوي يوان) مثالاً على ذلك. فقد كان لمعارضة الدير للتعدين منطقها الخاص، سواء العملي أو العاطفي. لكن بالنسبة لبلاط (تشينغ)، فإن الدير الذي بنوه بأموالهم السنوية المدفوعة له لإشعال الفتنة بين الناس ومعارضة عمليات التعدين الخاصة بهم، كان بالطبع دليلاً صغيراً ولكنه واضح جداً على فشل سياسة (تشينغ) في حكم التبت.

أما جيش (تشينغ) المتمركز في المنطقة التبتية، فقد كان يتسم بالتراخي في الانضباط، واستغلال السكان، ومضايقة الناس لفترة طويلة. وبعد قمع التمرد في (تاي نينغ)، قام بنهب واسع النطاق في دير (هوي يوان). لذلك، بعد استتباب الأمن، أصدر بلاط (تشينغ) أمراً بمكافأة شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الذي ساهم في الحرب بمنحه لقب «قائد عام»، وفي الوقت نفسه، «أرسل (مو بينغ ون) محافظ المحافظة المعزول وقائد كتيبة (جينغ بيان)، الذي سمح لجنوده بالنهب، إلى (شين جيانغ) للقيام بأعمال شاقة".

بعد أن هدأت الاضطرابات في منجم (تاي نينغ) للذهب، تبين أن الأمر لم يقتصر على رئيس دير (هوي يوان) فحسب، بل كان هناك أيضاً مسؤول تبّتي متمركز في (تشان دوي) يحرض من وراء الكواليس. وهذا ما أثار يقظة بلاط (تشينغ). كانت حكومة (كاشاغ) تسيطر على منطقة (تشان دوي)، لكن نفوذها كان أوسع بكثير من (تشان دوي) نفسها. في ذلك الوقت، كان بلاط (تشينغ) يخشى أنه بعد الغزو البريطاني، سيفقد التبت، وبالتالي سيفقد (تشان دوي) أيضاً. وكان هناك سبب أقوى للخوف من أن يؤدي ذلك إلى تأثير أكبر وأسوأ على الأراضي المحيطة بشيوخ القبائل في (تشان دوي). ولذلك، ومن أجل ترسيخ الأمن على حدود (سيتشوان)، أصدر بلاط (تشينغ) أمراً إلى ثلاثة من كبار المسؤولين المحليين: حاكم (سيتشوان) العام (شي ليانغ)، والوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يو تاي)، ومساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (فنغ تشوان)، نص على: «الوضع في منطقة التبت حرج، يرجى إدارة جميع شيوخ القبائل في (سيتشوان)، واستعادة مناطق (تشان دوي) الثلاث وجعل تبعيتها للداخل في الوقت المناسب."

تصرف (فنغ تشوان) بسرعة، وأرسل على الفور مسؤولين إلى (تشان دوي) لدراسة الوضع الاجتماعي، وفهم موقف الزعماء المحليين والسكان والمسؤولين التبتيين تجاه سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين. خلص التحقيق إلى أن الزعماء المحليين والسكان كانوا راغبين في العودة إلى (سيتشوان)، بينما أشار المسؤولون التبتيون إلى أن بقاءهم أو رحيلهم يعتمد فقط على أوامر حكومة (كاشاغ). بعبارة أخرى، بدون أمر من حكومة (كاشاغ)، لن ينسحبوا من (تشان دوي) أبداً، وحكومة (كاشاغ) لن تصدر مثل هذا الأمر على الإطلاق. تذكروا أنه في السابق، عندما قام جيش (تشينغ) بغزو (تشان دوي)، هُزم الجيش التبتي هزيمة ساحقة، وحقق جيش (تشينغ) انتصاراً كاملاً، ومع ذلك استعادت حكومة (كاشاغ) (تشان دوي) من بلاط (تشينغ)، وأعادت تعيين المسؤولين لحكمها مجددًا. الآن، وقد أصبح بلاط (تشينغ) غارقاً في الأزمات وعلى وشك الانهيار، كيف يمكن لحكومة (كاشاغ) أن تُعيد هذه المنطقة طواعية؟

عند رؤية هذا الوضع، حثَّ (فنغ تشوان) حاكم (سيتشوان) العام، (شي ليانغ)، آملاً أن يرسل قوات لاستعادة (تشان دوي) بالقوة. لكن (شي ليانغ) لم يتعجل في تحريك القوات، واكتفى بإخبار (فنغ تشوان) بأنه يجمع مائتي ألف تايل من الفضة، استعدادًا لتغطية نفقات الجيش التبتي في حملته السابقة لاستعادة (تشان دوي).

ثم كتب (فنغ تشوان) إلى الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (يو تاي)، يطلب منه بذل المزيد من الجهود في لاسا لإقناع حكومة (كاشاغ) بالتخلي عن (تشان دوي).

لكن (يو تاي) كان حينها في لاسا يواجه وضعاً حرجاً للغاية، فمع غزو الجيش البريطاني، وهروب الدالاي لاما الثالث عشر، والعديد من المواقف المعقدة الأخرى، لم يكن لديه متسع من الوقت للاهتمام بشؤون (تشان دوي). لذلك، رد (يو تاي) على (فنغ تشوان) قائلاً إنه يؤيد استصلاح الأراضي وتدريب الجنود لردع التبت، لكنه لم يؤيد استعادة (تشان دوي)، ف»بالنظر إلى الوضع العام، لا بأس بإظهار قوة السماء، لكن فقدان هذه الثقة العظيمة أمر مستحيل تماماً".

لم يخضع (فنغ تشوان) لأوامر الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (يو تاي)، لأنه كان يشغل منصباً أعلى منه. بل رد عليه في رسالته بحجج قوية، قائلاً إن استعادة (تشان دوي) لا تنطوي على مسألة فقدان الثقة، لأن تخصيص (تشان دوي) للتبت كان في الأصل لسداد نفقات الحرب، وقد جمع المسؤولون التبتيون «أكثر من تسعة آلاف تايل من الفضة من الضرائب السنوية من سكان (تشان دوي) لأكثر من ثلاثين عاماً»، مما تجاوز بكثير نفقات الحرب المستحقة. لذلك، «سواء كان ينبغي استعادة (تشان دوي) أم لا، فهذا سؤال لسعادتكم. هل يمكن الحفاظ على الحكم الذاتي للتبت إلى الأبد أم لا؟ إذا كان بالإمكان الحفاظ عليه، فيمكن تأجيل مناقشة استعادة (تشان دوي)». وهذا يعني أنه هو والبلاط يدعوان بقوة لاستعادة (تشان دوي) في هذا الوقت، لأن القوات البريطانية وصلت بالفعل إلى التبت، و»بمجرد توقيع معاهدة، ستنشأ تعقيدات، ثم سيكون هناك ندم لاحق على مناقشة استعادة (تشان دوي). فالمناطق الأربع المحيطة بـ(تشان دوي) كلها تابعة لشيوخ قبائل (سيتشوان)، وإعادتها للدالاي لاما سيكون أشبه بسحب قطعة حرير من وسطها، وستتفتت إلى قطع. وإذا حدث أي شيء، فلن تكون الأبواب غير واضحة فحسب، بل لن يكون هناك أساس للدفاع أيضاً.»

الخلاصة بطبيعة الحال هي: «إذا سقطت التبت، ستسقط (تشان دوي) أيضاً.»

.indd 310-311 2025-11-27 10:56:14

بعد حادثة منجم (تاي نينغ) للذهب، رفع حاكم (سيتشوان) العام، (شي ليانغ)، مذكرة يوضح فيها أسباب الحادثة، رابطاً إياها بنيّة البلاط الإمبراطوري في (تشان دوي) بتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين: «بسبب تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (تشان دوي)، قام رهبان دير (تاي نينغ) أي (دير هوي يوان) بالتحريض على الفتنة، مما أدى إلى مقتل الجنود.»

صدر أمر غريب من البلاط الإمبراطوري، فلم يُوكل المهمة إلى حاكم (سيتشوان) العام، بل «أمر (فنغ تشوان) بالذهاب بنفسه لقمع التمرد». بالنسبة لـ(فنغ تشوان)، لم يكن جيشه الجديد قد اكتمل تدريبه بعد، ولم يرسل البلاط تعزيزات، فكيف له أن يقمع التمرد بنفسه؟

المشكلة الأكثر خطورة هي أنه لم يكن هو من سيقمع الآخرين، بل إن إصلاحاته كانت ستصطدم حتماً بالنقاط الحساسة في النظام القديم، مما سيدفع بالآخرين إلى الثورة ومواجهته.

مقتل السيد العظيم (فنغ) في (باتانغ)

كان الوضع الفعلي في ذلك الوقت أن حاكم (سيتشوان) العام كان متردداً، وكان الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يو تاي) يعارض بوضوح، بينما كان الجيش الجديد الذي خطط له (فنغ تشوان) لا يزال بعيداً في (كانغ دينغ) يتلقى التدريب. لم يكن لديه سوى حرس شخصي مكون من حوالي مائة شخص، مما جعله عاجزاً عن العمل بمفرده. لقد أحدث ضجة كبيرة حول تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (تشان دوي) قبل أن يبدأ العمل الفعلي، ربما كان ذلك نوعاً من التعجل.

يقول (وو قوانغ ياو) في كتابه «سجلات تغيير النظام المشيخي وتعيين مسؤولين مدنيين في التبت»: «في ذلك الوقت، انتشرت أخبار تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين في (تشان دوي) في جميع أنحاء المروج، وغضب شعب (بي)، و(فنغ تشوان) لم يدرك ضرورة تغيير خطته."

كان (وو قوانغ ياو) مسؤولاً أيضاً في (سيتشوان) في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، وعمل في مكتب حاكم (سيتشوان) العام، وكان معاصراً لـ (فنغ تشوان). وعلى الرغم من أن موقفه في كتابه «سجلات تغيير النظام المشيخي وتعيين مسؤولين مدنيين في التبت» يميل إلى المحافظة، إلا أن الوقائع التي سجلها يجب أن تكون موثوقة. قال عن (فنغ تشوان): «كان قوياً وشجاعاً ومنفتحاً، وكان إدارياً كفئاً. لكنه كان يفتقر إلى التعليم والثقافة، وكان يحب إهانة الآخرين.» بمعنى أن (فنغ تشوان) كان شخصية قوية وصريحة وفعالة. لكنه كان يفتقر إلى المعرفة واللياقة، ولم يحترم الناس. تضخمت هذه النقطة السلبية، عدم احترام الناس، عندما وصل إلى المنطقة التبتية، بالإضافة إلى أيديولوجيته القومية لقومية (الهان) المتطرفة. سجل (وو قوانغ ياو) عنه: «في (باتانغ)، ضرب أيضاً رأس شيخ القبيلة بأنبوب غليون التبغ الخاص به، قائلاً: ‹كم من الوقت سيبقى هذا الرأس على جسدك؟› وكان شيخ القبيلة قد حصل على رتبة رسمية من البلاط الإمبراطوري ولقباً رفيعاً، وكان أميراً صغيراً لشعب (بي) (يشير إلى التبتيين). كان الوزراء يسعون جاهدين لاسترضاء البعيدين، وكانوا يعاملونهم دائمًا على قدم المساواة. لكن (فنغ تشوان) وحده أهانهم علناً، ولذلك ازداد غضب شعب (بي).»

«في الشهر الأول من العام التالي – الربيع-، أصبحت شائعات شعب (بي) أكثر فظاعة».

□□□□ □□□.indd 312-313 2025-11-27 10:56:14

كان (فنغ تشوان) يريد استصلاح الأراضي وتطوير التعدين، فانتشرت شائعات محلية تقول: «لقد خدم شعب (يي) (التبتيين) الإمبراطور العظيم لمئات السنين، ولذلك أحبهم الإمبراطور العظيم كثيراً، فمن أين أتى هذا المبعوث الإمبراطوري ليأخذ منا أراضينا ومناجمنا؟"

عندما كان يتدرب مع جيشه الجديد في (باتانغ)، انتشرت شائعات أخرى تقول: «لماذا يرتدي جنود الإمبراطور العظيم ملابس أجنبية؟ إنه مبعوث أجنبي، وليس مبعوث الإمبراطور العظيم".

وصرحوا علانية: «يجب على شعب (يي) أن يقتلوا هذا الرجل من أجل الإمبراطور العظيم".

بل إن دير (دينغ لين) في (باتانغ) طالب بأن يلغي (فنغ تشوان) الأوامر التي تحد من عدد الرهبان في كل دير بثلاثمائة راهب فقط.

بطبيعة الحال، لم يمتثل (فنغ تشوان) لهذه المطالب.

وهكذا، بدأت الاضطرابات في (باتانغ) عام 1905. في مارس، «بدأ دير (دينغ لين) بالهجوم على معسكرات الزراعة» و»قتل المبشرين الفرنسيين".

يُعدّ دير (دينغ لين) أكبر دير لطائفة (غيلوغ) في (باتانغ)، وكان يضم في ذلك الوقت أكثر من ألف وخمسمائة راهب.

«في الثاني من أبريل، أحرقوا حقول الزراعة في كهف (تساي شي)، ثم أحرقوا الكنيسة. وكان (فنغ تشوان) متمركزاً في صومعة الحبوب... أحاط حوالي ثلاثة آلاف من «شعب (يي)» (التبتيين) بصومعة الحبوب، وتهاطلت عليهم الرصاصات والحجارة كالمطر دون توقف طوال الليل. أدرك حاكم المحافظة (تشين زونغ فان) أن الوضع لا يمكن إنقاذه، فخرج وحده من صومعة الحبوب ليقودهم، ولكنه قُتل. كما قُتل اللواء (وو يي تشونغ) الذي كان يقود فرقة المدفعية، وأصيب أكثر من عشرين من الحرس الشخصي. وبلغ عدد القتلى والجرحى بين «شعب (يي)» (التبتيين) أكثر من مائة.»

تراجع (فنغ تشوان) إلى مقر شيخ القبيلة الرئيسي، «وطلب من «شعب (يي)» (التبتيين) التفرق ووعدهم بالعفو".

لم يكن (فنغ تشوان) يعلم أن شيخ قبيلة (باتانغ)، (لوه جين باو)، ونائب شيخ القبيلة، كانا يخشان أيضاً أن تهدد إجراءاته المختلفة في (باتانغ) مصالحهم الخاصة. وعند رؤية هذا الوضع، اقتصرا على نصحه بمغادرة (باتانغ). في ذلك الوقت، لم يكن لدى (فنغ تشوان) سوى أكثر من مائة جندي. قبل وقوع الحادث، عندما رأى أن الوضع في (باتانغ) يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، طلب مراراً وتكراراً من حاكم (سيتشوان) العام و(دا جيان لو) إرسال تعزيزات عسكرية، لكن حتى بعد بدء الاضطرابات، عندما أصبح الوضع لا يمكن السيطرة عليه، لم يصل جندي واحد للمساعدة. عندما رأى (فنغ تشوان) ذلك، لم يكن أمامه خيار سوى الموافقة على مغادرة (باتانغ).

في الخامس من أبريل، تحرك (فنغ تشوان) للمغادرة. وعند وصوله إلى مكان يُدعى فم الببغاء (ينغ قه زوي)، على بعد خمسة لي (٢,٥ كيلومتر) من (باتانغ)، وقع في كمين نُصب له مسبقاً. «انطلق الكمين، وأطلق التبتي (لونغ بن لانغ جي) النار على (فنغ تشوان) فأصابه في مؤخرة رأسه برمح، فجاء الراهب اللاما (آ تسه) وقتله. وأخذوا منه قلادته وريشة القبعة. وقُتل كل من المفتش (تشن شي يو)، ومساعد القاضي (وانغ يي لين)، و(تشاو تونغ)، وقائد الألف جندي (لي شنغ قوي)، وأكثر من خمسين من الحرس الشخصي في نفس الوقت.»

ثم تلت ذلك حلقة من أحداث البلاط الرسمي.

بعد حادثة (باتانغ)، كان جيش (تشينغ) متمركز في (دا جيان لو) وأماكن أخرى، وقد طلب (فنغ تشوان) أيضاً تعزيزات، ولكن لماذا لم يتحرك مساعد حاكم (دا جيان لو)، (ليو تينغ شو)؟ هذه القضية ظلت محل جدل في ذلك الوقت، ولا تزال هناك روايات مختلفة عنها حتى اليوم. وهناك قضية أخرى، وهي أن (فنغ تشوان) عندما وصل إلى (باتانغ)، لم يجد مكاناً للإقامة، فأقام في مخزن للحبوب. وبعد أن أفرغ مسؤول الحبوب المحلي، (وو شي جين)، مسكنه، اختار سكناً آخر في منزل مدني. لذلك، عند وقوع الحادث، اختبأ مسؤول الحبوب هذا في منزل التبتيين الذين استضافوه، ولم يُحاصر. وهذا أمر منطقي ولا يوجد فيه شيء غير طبيعي. ولكن بعد الحادث، تحول (فنغ تشوان)، الذي كان شخصية مثيرة للجدل في حياته، إلى بطل استشهد في سبيل الوطن. أما (وو شي جين)، كونه أحد الناجين القلائل بعد فوضى (باتانغ)، كان بحاجة إلى تبرير تصرفاته خلال الحادث.

تقول معظم الكتب التي تؤرخ حادثة (باتانغ) إن (وو شي جين)، قبل مغادرة (فنغ تشوان) لـ(باتانغ)، نظر من النافذة ورأى (فنغ تشوان) يهم بمغادرة مقر شيخ القبيلة. فاندفع، متجاهلاً نصائح صاحب المنزل، وأوقف محفة (فنغ تشوان) وبكى بشدة محاولاً إقناعه بالعدول عن الرحيل، لكن (فنغ تشوان) لم يستمع إليه. فطلب (وو شي جين) أن يرافقه لحمايته، لكن (فنغ تشوان) رآه بملابس غير مرتبة، فأمره بالعودة ليرتدي ملابسه الرسمية وقبعته ثم يعود. وعندما أصبح جاهزاً، كانت قافلة (فنغ تشوان) قد ابتعدت، ثم ركلته البغل الذي كان يركبه، مما جعله غير قادر على اللحاق بهم.

في هذه القصة، طلب (فنغ تشوان) من مسؤول الحبوب أن يرتدي ملابسه الرسمية قبل الانطلاق، وهو تفصيل مؤثر في قصة بطولية. لذلك، نادراً ما شكك أحد في هذه القصة، بل تكرر ذكرها كإضافة حيوية لقصة أسطورية.

لكن (وو قوانغ ياو)، شاهد هذا الحدث، يشكك في هذه الرواية في كتابه «سجلات تغيير النظام المشيخي وتعيين مسؤولين مدنيين في التبت». يقول: «لم يكن مسؤول الحبوب (وو) قد حاول منع (فنغ تشوان) في مقر شيخ القبيلة». واستند في ذلك إلى أن «نيابة الأعمال العسكرية، رأت تقريري مسؤول الحبوب (وو) عن وفاة (فنغ تشوان)، وكانا متناقضين، وكلاهما يصفان الوضع على أنه حرج للغاية وغير قابل للإنقاذ".

التقرير الأول يقول: «كان حافياً، يحمل جورباً، وصل إلى مكان إقامة المبعوث الإمبراطوري محاولاً منعه، فأمره المبعوث بارتداء جوربه».

.indd 314-315 2025-11-27 10:56:14

ثم غُيّر التقرير ليصبح: «هاجم شعب (بي) مكان إقامة المبعوث الإمبراطوري ودمرّوه. وبكيت بشدة ولم أستطع الذهاب لرؤيته، فأرسلت شخصًا لتقديم التحية للمبعوث الإمبراطوري.» وصرح بوضوح أن «شعب (بي) عزلوني لعدة أيام سابقة، ولم يتمكن المسؤولون الصينيون من الذهاب والالتقاء به. وفي ذلك الوقت، قام شعب (بي) في (باتانغ) بالنهب والقتل، وكانوا عنيفين في الأسواق، ولم يسلم أحد من حقدهم القديم.» وهذا يعني أنه بمجرد اندلاع الاضطرابات، انتشر مثيرو الشغب، ولم يكتفوا بنهب وقتل المسؤولين الصينيين، بل انتهزوا الفرصة للانتقام من الضغائن القديمة المتراكمة بين الناس. في مثل هذا الوضع، كيف يمكن لمسؤول الحبوب (وو)، بمفرده، أن يصل إلى المبعوث الإمبراطوري المحاصر من قبل مثيري الشغب؟

يقول (وو قوانغ ياو): «إن عادة مسؤول الحبوب (وو) في التملق والتزلف تظهر في وثائقه الرسمية، وهو ليس بالرجل الذي يواجه الصعاب.“

في المجتمع الصيني، غالباً ما يواجه الشخص الذي يسعى لتحقيق إنجاز أو القيام بعمل عظيم عدم الفهم والدعم، بل ويُنتقد باستمرار. لكن هذا المجتمع نفسه يرحب بشدة بتحول الآخرين إلى شهداء، وبمجرد أن يصبح الشخص شهيداً، يُخشى ألا تكون شخصيته كاملة، ويُستعد دائماً لإضافة تفاصيل مؤثرة إلى هذه التضحية.

وهكذا، ظهرت نسخة مثالية لقصة مسؤول الحبوب (وو) وهو يودع المبعوث الإمبراطوري، حيث تحول طلب (فنغ تشوان) من (وو) بارتداء الجوارب إلى طلب منه بترتيب ملابسه. لقد ولّى الماضي، ومر أكثر من مائة عام على حادثة (باتانغ)، فأي القصص أقرب إلى الحقيقة؟ لم أعد أستطيع الحكم. لكن الظاهرة التي انتقدها (وو قوانغ ياو) تزداد سوءًا اليوم: «في الوثائق الرسمية الحديثة، يخادع الأعلى الأدنى والأسفل الأعلى بهذا الشكل، ولا يوجد مسؤول كبير يحاسبهم على ذلك.“

ليس هذا فحسب، بل إن أسلوب (فنغ تشوان)، الذي لا يسعى إلا للإنجازات، ويزدري الشعب والأقليات العرقية، لا يمكن وصفه في الخطاب الرسمي بأنه «قلة» بين مسؤولي الحكومة على مختلف المستويات.

بمقتل (فنغ تشوان)، فشلت محاولاته لتطبيق «السياسات الجديدة في أواخر عهد سلالة (تشينغ)» في منطقة (باتانغ) التبتية فشلاً ذريعاً، كما أجهضت فكرة البلاط باستعادة (تشان دوي).

أمر بلاط (تشينغ) مساعد الوزير المقيم الجديد في التبت، (ليان يو)، بعدم التمركز في (باتانغ) أو (تشا مو دوه)، بل بالعودة لتولي منصبه في لاسا. وهذا يعني أن البلاط قد تخلى عن خطته المتعلقة بتكليف مساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت لاستصلاح الأراضي وتدريب الجنود في منطقة (كانغ با).

خلال حادثة (باتانغ) هذه، استغل مثيرو الشغب الوضع وأحرقوا الكنيسة الكاثوليكية، وقتلوا المبشرَين الفرنسيين (موشورن) و(سولي). بالإضافة إلى ذلك، قُتل وأُصيب العديد من أتباع الكنيسة، ونُبشت قبور اثنين من القساوسة الذين توفوا سابقًا في (باتانغ)، وتُركت رفاتهم في العراء. في عام 1900، قام السكان المحليون أيضاً بقتل مبشرين كاثوليك، وتذكر بعض السجلات التاريخية المحلية: «ربط الكاهن الفرنسي على وتد في قرية (خه شي)، ورُسمت دائرة سوداء على صدره، ثم استُخدم هدفًا حياً للرماية حتى الموت». وتذكر بعض السجلات أن هذا كان «انتفاضة شعب (باتانغ) تحت تأثير حركة الملاكمين المناهضة للإمبريالية»، وهو ما يثير لدي الشك.

مقارنة بهذا التساؤل، أرغب في معرفة ما إذا كان الدالاي لاما، الذي كان في المنفى آنذاك، قد علم بحادثة (باتانغ)، وما كان رد فعله. لكن عند مراجعة «سجلات الدالاي لاما الثالث عشر»، لا يذكر إلا: «في منتصف أبريل، التقى ثلاث مرات بالوزير المفوض ووزير مكتب كولون المفوض، وتحدثوا عن شؤون التبت، آلامها، سعادتها، وأمنها، مما عزز الصداقة المتبادلة». لا أعلم ما هي «شؤون التبت، آلامها، سعادتها، وأمنها» التي أشار إليها. في ذلك الوقت، كانت هناك مفاوضات صعبة بين الصين وبريطانيا حول قضية التبت، وبالطبع كان مهتمًا بنتيجة المفاوضات، وهذا يعتبر من «شؤون الأمن». علاوة على ذلك، في طريق هروبه، وبناءً على مذكرة رفعها الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يوتاي)، كان بلاط (تشينغ) قد جرد الدالاي لاما من لقبه. وهذا يجب أن يكون من «شؤونه، آلامه وسعادته»، لكنه ظل يقول إن هذا كان مؤامرة من الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، وليس مرسوماً حقيقياً من البلاط. لذلك، عندما التقى بالوزير المفوض الذي أرسله الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة، فمن المؤكد أنه سيناقش هذا الأمر. أما حادثة (باتانغ)، فالقوة الرئيسية التي اشتبكت مباشرة مع حكومة (تشينغ) هي أديرة طائفة (غيلوغ) التي كانت تعتبره زعيمها الأعلى، وبالنسبة له وللمنطقة التبتية، كانت هذه الحادثة «أمنية» و«مؤلمة» في آن واحد. لكن بما أن السجلات لم تذكر شيئًا عن ذلك، فلا أستطيع التكهن.

لا يمكن لمن يهتم بـ«شؤون الآلام والسعادة والأمن» أن يكون مرتاح البال. وفي منغوليا الخارجية، واجه الدالاي لاما أمورًا أكثر إزعاجًا. فقد لاحظ (جيبتسوندامبا)، وهو أكبر راهب متجسد من طائفة (غيلوغ) في منغوليا الخارجية، أن الدالاي لاما، الذي كانت مكانته الدينية أعلى منه، ظل مقيمًا لفترة طويلة، فغير موقفه الترحيبي الحار، وبدأ يتصرف بوقاحة وغطرسة، مما أزعج الزعيم الأعلى لنفس الطائفة الدينية. تذكر «سجلات الدالاي لاما الثالث عشر» بوضوح: «ازداد انزعاج (جيبتسوندامبا) يوماً بعد يوم، وتطور لديه شعور بالاشمئزاز تدريجياً، فحطم عرش الدالاي لاما، ودخن أمامه، وقام بأفعال مختلفة لا تليق بمكانته.» بعد عدة أشهر، غادر الدالاي لاما (كولون) وتوجه إلى مكان آخر.

.indd 316-317 2025-11-27 10:56:14

وهذا يوضح أنه حتى بالنسبة للزعيم الأعلى في طائفة دينية واحدة، فإن سلطته قد تتراجع، بل وتتعرض للتحدي، عندما تضعف قوته داخل نفس الطائفة.

إذا قلنا إن حكومة (تشينغ) كانت ضعيفة جداً في ذلك الوقت، فإن هذه الإمبراطورية الضخمة، مقارنة بحكومة (كاشاغ) التي كانت ضعيفة لفترة طويلة، كانت لا تزال تمتلك قوة كبيرة. لذلك، كان اهتمام الدالاي لاما في هذا الوقت ينصب بشكل أكبر على الإجراءات المختلفة التي تتخذها حكومة (تشينغ) في المنطقة التبتية.

كانت (تشان دوي) أيضاً واحدة من الأمور التي تهمه.

في عام 1906، تلقى في طريقه «تقريرًا عن المعاهدة» من حكومة (كاشاغ)، وفي الوقت نفسه، تلقى «رسائل باللغتين الصينية والتبتية من المدير العام لـ(تشان دوي)». وكانت تعليمات الدالاي لاما هي: «فيما يتعلق بما أبلغه المدير العام لـ(تشان دوي)، يجب فهم الحقائق الأساسية دون إغفال، بناءً على التغيرات في الوضع الحالي، والسعي لحل المشكلة تدريجياً دون أي تجاوز أو تأخير». لم تذكر السجلات السنوية المحتوى المحدد لما أبلغه المدير العام لـ(تشان دوي)، لكن موقف الدالاي لاما من قضية (تشان دوي) كان واضحاً جداً، حيث طالب بـ«عدم وجود أي تجاوز»، وفي الوقت نفسه، طالب بـ«حل تدريجي دون أي تأخير".

يجب القول إنه حتى عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، كانت المبادرة في يد بلاط (تشينغ) فيما يتعلق بكيفية تغيير الوضع في المنطقة التبتية التابعة لـ (سيتشوان)، بما في ذلك (تشان دوي). لقد تشكل نظام شيوخ القبائل في عهد سلالة (تشينغ)، لكنه بدأ في عهد سلالتي (يوان) و(مينغ). وقد كان العديد من عائلات شيوخ القبائل تسيطر على مناطقها لسنوات عديدة كقوى محلية قوية قبل أن تُمنح ألقابها من قبل سلالة (تشينغ). وعندما كانت السلالة الحاكمة المركزية تتمسك بالتقاليد القديمة، كان بإمكانهم عموماً التعايش بسلام. لكن «السياسات الجديدة في أواخر عهد سلالة (تشينغ)» أثرت أيضاً على مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، وارتفعت الأصوات المطالبة بـ«تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». وهكذا، نشأ صراع لا يمكن التوفيق بينه، بين التغيير وعدم التغيير.

بالنظر إلى ذلك في سياق التوجهات التاريخية الكبرى، فإن حادثة (باتانغ) ليست حدثاً عرضياً معزولاً مثل اضطرابات (تشان دوي) السابقة، بل هي حتمية عند وصول الأوضاع إلى منعطف تاريخي.

بالنسبة للطرف المعارض للتغيير، كانت هذه محاولة يائسة للمقاومة. أما وقوع الحادث، فبالنسبة لبلاط (تشينغ) الذي كان حريصاً على التغيير ليصبح دولة قوية، فإن هذه المقاومة قدمت له مبررات أقوى ودفعة أكبر لتغيير سياسته تجاه التبت، وحفزته على اتخاذ قرار بتسريع وتيرة التغيير. وعندما فشلت محاولات التغيير السلمية، لم يتبق سوى القوة العسكرية. خلال حكم سلالة (تشينغ) بأكملها، لم تتخذ الحكومة أي إجراءات لتعزيز القوى التقدمية داخل المناطق التبتية - بل لم تكن لديها حتى الرغبة في ذلك - فكل ما كانت تسعى إليه هو إخضاع هذه الأراضي وضمان سلامها. وعندما تحدث مشكلة، كان الأمر لا يتجاوز خيارين: القمع أو التهدئة. القمع يكلف المال، والتهدئة تكلف المال أيضاً، وهو ما يُعرف بـ«دفع المال مقابل السلام». اليوم، يحب الصينيون الحديث عن مدى اتساع أراضي الصين في عصر ازدهار (كانغ شي) و(تشيان لونغ). ولكن على الأراضي التي تم فتحها، لم تُعزز التنمية الاجتماعية، ولم تنشأ أو تتطور أفكار جديدة، ولم تُزرع على الأقل هوية وطنية. وعندما لم يستطع البلاط الإمبراطوري توفير الأموال اللازمة للحفاظ على الاستقرار، غالباً ما كانت هذه الأراضي الشاسعة لا يتبقى لها سوى طريق واحد: الاستيلاء ثم الفقدان. على مر العصور في التاريخ الصيني، كانت التغيرات في حدود الأراضي، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهوية الشعوب الحدودية وولائها أو خيانتها. أما بالنسبة للمناطق التبتية، فإن الأراضي التي تسيطر عليها الصين اليوم، والتي تُعرف بالمنطقة الثقافية التبتية، قد تقلصت بالفعل بشكل كبير مقارنة بعصري (كانغ شي) و(تشيان لونغ).

□□□□ □□□.indd 318-319 2025-11-27 10:56:15

قدوم (تشاو إرفنغ)

في الخامس من أبريل، لقي (فنغ تشوان) حتفه. وفي الثاني والعشرين من أبريل، أصدر بلاط (تشينغ) أمراً «بتعيين مسؤول ذي كفاءة عالية، وإضافة قوات عسكرية قوية، للتقدم بسرعة، والتحقيق في الوضع، والتعاون مع (ما وي تشي) لقمع التمرد». وبالمقارنة مع التأخير والتباطؤ في الماضي، كان رد الفعل سريعاً للغاية هذه المرة.

(ما وي تشي)، وهو من (يون نان)، شارك في الحرب الصينية الفرنسية عام 1883، وحقق العديد من الإنجازات العسكرية. كان يشغل حينها منصب حاكم (سيتشوان). بعد تلقيه الأمر، قاد (ما وي تشي) خمس كتائب من الجيش الجديد من (دا جيان لو)، ووصل إلى (باتانغ) في منتصف يونيو.

أما «المسؤول ذو الكفاءة العالية» الذي رافق (ما وي تشي) في حملة القمع، فكان (تشاو إرفنغ)، الذي كان يشغل منصب حاكم (جيان تشانغ داو).

لقد وصف (تشو خا بو)، الذي كان يشغل منصب جنرال (تشنغدو) في ذلك الوقت، بالتفصيل في مذكرته الرسمية قمع تمرد (باتانغ):

«في ذلك الوقت، أقسم رهبان وشيوخ قبائل (باتانغ)، وغيرهم، على القتال ورفعوا الأعلام، وخرجوا للمقاومة. لقد أقاموا كمائن عند كل ممر جبلي، ودمروا الجسور وحفروا الخنادق لصد قواتنا. رأى (ما وي تشي) أن القضاء على الأعداء يتطلب السرعة، فقام في الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من يونيو بقيادة خمس كتائب بنفسه، وتقدموا تباعاً في مسارات مختلفة. في الثامن عشر، وصلت القوات إلى خليج (إرلانغ). كان دير (لا ما سي) خلف الجبل يتمتع بموقع مرتفع ومنيع، وقد تجمع فيه قطاع طرق أشرار، سعوا لمهاجمة قواتنا بشكل مفاجئ. أرسل (ما وي تشي) أولاً (هوانغ تشي ون) و(ما ده تشانغ) من الكتيبة الوسطى لقيادة الهجوم. تهاطلت القذائف والحجارة كالمطر، وأصيب جنودنا مثل (تشانغ بينغ كوي). في اليوم التالي، ذهب (ما وي تشي) بنفسه لتقديم الدعم والقتال، وتسلق الجنود الأشجار مثل القردة، وقتلوا عشرات من قطاع الطرق، وقطعوا رؤوس القادة الرئيسيين: (كا شو دا وا)، و(تسه رن)، و(جي تسون)، كما أُطلقت النار على (تشاو تشو) واثنين آخرين من القادة الرئيسيين. عندها فقط فر بقية قطاع الطرق، واستولينا على الأسلحة النارية، وكانت هناك أيضاً ممتلكات حكومية مستصلحة بينهم. في نفس اليوم، وصل (ما رو شيان) من الكتيبة الخلفية إلى ممر (سان با)، والتقت جميع الكتائب وحاصرت وهاجمت الأعداء بشجاعة مضاعفة، وخاضوا معركة عنيفة استمرت ساعتين. قطعوا رؤوس أربعة من المتمردين الرئيسيين: (ري قن بنغ تسوه)، و(لا ما يين جو جيا هوه)، وهكذا استولوا على الممر. في العشرين من الشهر، واجه (ما ده)، نائب قائد الكتيبة الوسطى، فجأة فرقة من اللصوص مكونة من ثلاثمائة فارس في دير (لا ما سي)، كانت تحاول سرقة المؤن الحكومية. قامت كتيبته بإلحاق الهزيمة بقواتهم النخبة، وعندها تراجعت جميع العصابات وتمركزت في ممر (دا سوه)، ودافعوا عنه بكل قوتهم. كان الممر عبارة عن جرف صخري شديد الانحدار، ولا يزال الثلج يتراكم عليه حتى في ذروة الصيف، وكان من الصعب مهاجمته من الأسفل، لذلك تم إرسال (ما ده) سراً، مع مساعديه (جيانغ دينغ بانغ) و(ما رونغ كوي)، للالتفاف لمسافة ستين لي (30 كيلو متر)

لمهاجمة العدو من الخلف. في الثالث والعشرين من فبراير، التقى (ما رونغ كوي) بقافلة مؤن العدو، واستولى على ثمانية حمولات من التسامبا (طعام تبتي). في ظهر نفس اليوم، هاجمت جميع الكتائب العدو من الأمام والخلف. اندفعت العصابات بأعداد كبيرة للهجوم، وأطلق (تشن تيان إن) وآخرون قذائف مدفعية ضخمة، واخترقوا وسط العدو، ثم اندفعوا جميعاً إلى الأمام، واستولوا على الممر الحصين. تم القضاء على القادة المتمردين، مثل الراهب (قونغ بو وانغ آ نا). في هذه المعركة، قُتل مئات من قطاع الطرق، وكانت هناك أيضاً خسائر في صفوف قواتنا. وهكذا، بعد اختراق الممرات الحصينة المتتالية، تقدموا مباشرة نحو (بين تسا مو). في الرابع والعشرين، استولت جميع الكتائب على (با تانغ). كان الرهبان قد اتخذوا من دير (دينغ لين) وكراً لهم، وعندما لم يعد بإمكانهم الصمود، أشعلوا النار بأنفسهم، وعبروا النهر، وهدموا الجسر ولاذوا بالفرار. طارد جيشنا الأعداء إلى ضفاف النهر، وأطلقوا النار عليهم، وقتلوا أكثر من مائة شخص بالرصاص وغرقا.»

□□□□ □□□.indd 320-321 2025-11-27 10:56:15

في السادس والعشرين من أبريل، وصل (ما وي تشي) إلى (باتانغ). في هذا الوقت، لم يكن (تشاو إرفنغ)، حاكم (جيان تشانغ داو)، قد وصل إلى الخطوط الأمامية بعد.

شرع (ما وي تشي) على الفور في التحقيق في أسباب وتداعيات حادثة (باتانغ): «لقد استفسر عن تفاصيل بداية التمرد ونهايته، وقام بتهدئة التجار والسكان المتضررين، وحل الجماعات التي انضمت تحت الإكراه، وميز بين الجيد والسيء. وقام على الفور باحتجاز شيخ القبيلة الرئيسي (لو جين باو)، ونائب شيخ القبيلة (قوه شو تسا باو)، بشكل صارم. تبين أن الراهب (آ تسه) والمتمرد (لونغ بن لانغ جي)، اللذين قتلا (فنغ تشوان)، بالإضافة إلى رئيس الدير (با قه وي كه)، و(آ جيانغ)، و(قي سانغ لو مي)، و(آ سونغ هه دوه)، الذين كانوا من أشهر الأشرار، لا يزالون فارين. علاوة على ذلك، كان سبب الاضطراب هو قيام «شعب (بي)» (التبتيين) من القرى السبع في الوادي بحرق منطقة الاستصلاح، وهؤلاء «شعب (بي)» لا يزالون منتشرين ومختبئين في منطقة جبل (شيانغ شان). إذا لم يتم معاقبتهم بشدة، فسيُخشى أن تتجدد النار من الرماد. فوزع (ما وي تشي) ضباطه، وقاد الفرق في جميع الاتجاهات، بهدف القضاء على المجرمين الرئيسيين وتطهير بقايا العصابات. في الأيام من الثالث إلى العاشر من يوليو، قام (ما رو شيان) بالبحث عن اللصوص في (آ ناي شي)، وقبض حياً على (قي سانغ لو مي) و(لو رونغ تشو بن). ولكن بسبب كثافة الغابات، وقع (ما رو شيان) في كمين أثناء بحثه عن اللصوص، وأصيب بجروح بالغة، وعاد بضمادات. بينما قبض (تشانغ هونغ شنغ) على (آ جيانغ) عند مفترق الطرق الثلاثة، وقبض (لي كه تشانغ) على (تسه تشانغ وانغ شوي) في جبل (شيانغ شان). وقبض (ما ده) على (آ تسه) و(وانغ دينغ بانغ) و(جيا تينغ قوي) وغيرهم في جبل (ما ني ره) غرب النهر، وقد حققوا جميعاً مكاسب كبيرة. قامت المعسكرات بعمليات تفتيش ومطاردة في كل مكان، وأسرت سجناء يوميًا، واستولت على أكثر من ٧٠ بندقية بتسع طلقات، وعُثر على قلادة (فنغ تشوان) وريشة قبعته بحوزة (آ جيانغ). كما عُثر على ملابس وأغراض المسؤولين الذين استشهدوا بحوزة (تسه تشانغ وانغ شوي). وفي مقر شيخ القبيلة، عُثر على أموال وممتلكات الكنيسة، وتم العثور على جثث القسيسين، وتم التعرف عليهما بدقة. وتم القبض على (جي شيو بينغ بو)، وهو من أخطر اللصوص الذين أشار إليهم الأسقف (ني ده لونغ)، بالإضافة إلى الراهب (قي سانغ جي تسون) الذي ذهب إلى (يانغ ينغ) لتجنيد الجنود وتدمير الكنيسة. وقد تم القبض على جميع اللصوص، وقد تم التعرف على المجرمين منهم من قبل شهود العيان، مثل مسؤول الحبوب (وو شي جين). وقد اعترف (لونغ بن لانغ جي) بإطلاق النار على مؤخرة رأس (فنغ تشوان) دون إنكار، كما تم القبض على (آ سونغ قه دوه) وغيرهم.

فيما يتعلق بحادثة (باتانغ)، جاء في المذكرة الرسمية: «لقد اتبع (فنغ تشوان) الأوامر في تنظيم شؤون الحدود، وعلى الرغم من رغبته في تنشيط الزراعة العسكرية، إلا أنه لم ينفذها بصرامة. وكل ما في الأمر أنه اقترح مذكرة للحد من عدد الرهبان، مما أثار استياء وغضب الرهبان الذين نشروا اتهامات باطلة وشائعات كاذبة، وأضلوا السذج. في البداية، كان شيخ القبيلة الرئيسي ونائبه يشاركان سراً في التآمر، ثم راحا يساعدان في الشر علناً، وأرسلا مراراً وتكراراً وثائق مختومة إلى إداراتنا، زاعمين أن (فنغ تشوان) كان يدرب جنوداً على الطريقة الغربية، ويحمي الأجانب، وأنه يجب إعدامه. وإذا أرسلت مقاطعة (سيتشوان) قوات لفرض السيطرة، فإنهم لن يكون أمامهم خيار سوى حشد أتباعهم وتوحيد قبائل الحدود للمقاومة حتى الموت، وهذا جنون مطلق."

بعد أن أعدم (ما وي تشي) شيخ قبيلة (باتانغ) الرئيسي ونائبه والرهبان المشاركين في التمرد من دير (دينغ لين)، «أبقى على جزء من قواته، وعاد منتصراً إلى المقاطعة». و«فيما يتعلق بالترتيبات اللاحقة والمتمردين الذين يجب قمعهم والقبض عليهم، أمر (تشاو إرفنغ) بقيادة القوات المتمركزة هناك، لإجراء تحقيق دقيق، ووضع خطة مناسبة للتنفيذ".

إن تدوين هذه العملية مرة أخرى أصبح أمراً قديماً. ألم يحدث نفس الشيء في حملات (تشينغ) العسكرية المتعددة على (تشان دوي)؟ ألم تنتهِ الأمور بعد النصر بتعيين القوى المحلية المستعدة لطاعة البلاط الإمبراطوري شيوخاً للقبائل؟ ألم يكن الأمر مجرد انتظار حدوث شيء مماثل في مكان آخر في المرة القادمة، ثم تكرار نفس القصة؟

لا، التاريخ قاسٍ.

دروس التاريخ قاسية، والخيارات التي يقدمها التاريخ قاسية أيضاً.

التاريخ يجبرك على الاختيار.

.indd 322-323 2025-11-27 10:56:15

أخطأ بلاط (تشينغ) العديد من فرص الاختيار، لكنه اتخذ أخيراً خيارات جديدة. أما حكومة (كاشاغ) وشيوخ القبائل التابعون لـ (سيتشوان) فقد تخلى عن المزيد من الخيارات، أو بعبارة أخرى، استمروا في رفض الاختيار في الوقت الذي تغيرت فيه الأوضاع العالمية رأساً على عقب. كان شيوخ القبائل واللامات يواصلون الانحدار في جمود سلبي للطبيعة البشرية دون أن يدركوا ذلك.

قمع (ما وي تشي) تمرد (باتانغ)، وعاد منتصراً إلى المقاطعة.

وتُرك (تشاو إر فنغ) ليتولى شؤون ما بعد التمرد.

عند توليه منصبه، كان (تشاو إر فنغ) يحمل في ذهنه «ست سياسات لحكم المناطق الحدودية»، وهي:

1. تعيين مسؤولين: أي تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين.

2. تدريب الجنود.

3. الزراعة العسكرية.

4. تعزيز التجارة: أي تطوير الموارد المحلية وتعزيز التبادل التجاري.

5. بناء المدارس: إنشاء مدارس حديثة لتنوير العقول وتأهيل الكفاءات.

6. تطوير التعدين.

من بين «السياسات الست لتنشيط المناطق الحدودية»، كانت جميع الأمور تتطلب القاعدة الأولى. فقد كان عليه أن يطلب من شيوخ القبائل الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير الوضع الراهن إخلاء الأراضي لتكون مسرحاً لسياسته الجديدة في المنطقة التبتية. لم يقتصر الأمر على شيوخ القبائل فحسب، بل شمل أيضاً الأديرة ذات النفوذ الأكبر.

عندما وقعت حادثة (باتانغ)، كانت الأديرة وشيوخ القبائل المحيطة أيضاً مضطربة. «تحالف شعب (بي) (التبتيون) التابعون لمكتب (وي شي) في (يون نان) وتمردوا، فأحرقوا الكنائس، وقتلوا المبشرين، وحاصروا القوات الحكومية». ورفض شيخ قبيلة (ليتانغ)، الذي كان يسيطر على الطريق الرئيسي بين (دا جيان لو) و(باتانغ)، نقل المؤن العسكرية وتوفير الحطب لقوات (ما وي تشي) التي كانت تتقدم لقمع تمرد (باتانغ). وكان الإمبراطور (يونغ تشنغ) قد طلب تعيين شيخ قبيلة (ليتانغ) تحديداً لضمان سلاسة النقل على الطريق الرئيسي بين (سيتشوان) والتبت.

يذكر (رن ناي تشيانغ) في كتابه «ملخص تاريخ وجغرافيا (كانغ) والتبت»: «أعدم (تشاو إر فنغ) زعماء (ليتانغ) المتمردين على الحرس الإمبراطوري، واحتجز شيخ القبيلة... ثم قام بمراجعة السجلات السكانية والضرائب، واستعد لتغيير النظام المشيخي الوراثي. قام شيخ قبيلة (ليتانغ) الرئيسي، (سي لانغ جان دوي)، بقتل الجنود الحراس وهرب إلى (قونغ قا لينغ) في (داو تشنغ)، حيث جمع السكان المحليين لإثارة الشغب. استجاب له جميع مثيري الشغب في البلدات والقرى، وكان الراهب (بو تشونغ زا وا) من دير (سانغ بي) في (تشونغ شيانغ تشنغ) شريراً ومخالفاً للقانون، وقد تمرد على شيخ قبيلة (ليتانغ) في السابق، وقتل القائد (لي تشاو فو). أرسل حاكم (سيتشوان) (لو تشوان لين) قوات لقمع التمرد، وتم القبض على القائد (شي شي مينغ) حياً، وسُلخ جلده وحُشي بالعشب، واستُخدم كهدف للرمي في الاحتفالات السنوية لطرد الشر. استقر (تشاو) في (باتانغ)، وأرسل من

يستدعي (ليتانغ)، لكن ردهم كان مهيناً. في نوفمبر، أرسل (تشاو) قواته لمهاجمة (شيانغ تشنغ)، وقمع (داو تشنغ) أيضاً. استقرت (داو تشنغ)، لكن قوات (شيانغ تشنغ) لم تحقق نصراً. في يناير من العام الثاني والثلاثين (1906)، هاجم (تشاو) شخصياً دير (سانغ بي)، وفي أبريل، تمكن من اقتحامه».

تذكر السجلات التاريخية أن (تشاو إر فنغ) كان قائداً عظيماً ويتمتع بموهبة عسكرية استثنائية، وقد حقق إنجازات كبيرة، لكنها تصفه أيضاً بأنه قاسٍ ومتعطش للدماء، وكان يفرط في القتل. يسجل (وو قوانغ ياو)، المعاصر لـ(تشاو)، في كتابه «سجلات تغيير النظام المشيخي وتعيين مسؤولين مدنيين في التبت»: «أفاد (تشاو إر فنغ) بانتصاره في معركة (سانغ بي)، وقام بمصادرة جميع الممتلكات، وأمر بذبح أكثر من سبعة آلاف من شعب (بي) المستسلمين. وقد أُعدم مئات الأشخاص، وبعض الجلادين ذرفوا الدموع لدرجة أنهم توقفوا عن القتل.» وهذا يعني أنه استخدم مائة جلاد لقتل آلاف الأشخاص، وبعض هؤلاء الجلادين وصلوا إلى مرحلة لم يعد بإمكانهم الاستمرار في القتل، فألقوا سكاكينهم وعيونهم تدمع. «كان (شيونغ تينغ تشوان)، حاكم محافظة (فوشون)، مسؤولاً عن مخزن الحبوب في ذلك الوقت، وطلب العفو عن شعب (بي) لكن طلبه رُفض. فجلس على صخرة، وشاهد الإعدامات وهي تجري بهذه الطريقة."

لم يكن قاسياً فقط على «شعب (بي) المستسلمين»، بل كان قاسياً جداً أيضاً على جنوده. فبعد الاستيلاء على دير (سانغ بي)، حصلوا بطبيعة الحال على كمية كبيرة من الممتلكات. فأمر الجنود بتسليم كل شيء، ثم عرض جميع الممتلكات معاً، وقال للجنود إن بإمكانهم أخذ ما يعادل إنجازاتهم. «الماهرون يعرفون طبيعته ولا يجرؤون على الأخذ، بينما الأغبياء يطيعون الأمر ويأخذون بأنفسهم. في اليوم التالي، أعدم جميع الجنود والضباط الذين أخذوا لأنفسهم، وكان عددهم بالعشرات".

قال (وو قوانغ ياو): «عاد (تشانغ جون شنغ) مع قواته، وأخبرني أن الجثث كانت منتشرة في كل مكان."

بعد معركة دير (سانغ بي)، قام (تشاو إر فنغ) على الفور بإعادة تخطيط المناطق الإدارية في أراضي شيوخ قبائل (باتانغ) و(ليتانغ) السابقة، وطلب إنشاء ثلاث محافظات جديدة: (با آن)، و(دينغ شيانغ)، و(لي هوا)، وعين مسؤولين مدنيين لإدارة الشؤون المدنية.

خلال فترة جمهورية الصين، كان هناك مدرس ثانوي من (هوبي) يدعى (خه جيوه في)، الذي التحق بالأكاديمية العسكرية المركزية التابعة لحزب الكومينتانغ بعد احتلال اليابان لشمال شرق الصين. وبعد تخرجه، أُرسل إلى (سيتشوان)، وشغل منصب محافظ محافظة (لي هوا)، وهي المنطقة التي كانت تابعة لشيوخ قبيلة (ليتانغ) سابقاً، في الفترة من 1941 إلى 1944. وله كتاب بعنوان «ملاحظات على أحداث (شي كانغ) التاريخية والقصائد»، والذي يحتوي على العديد من السجلات للأحداث الهامة والعادات والتقاليد في مناطق حدود (سيتشوان) من أواخر سلالة (تشينغ) إلى فترة جمهورية الصين. وقد ذكر في هذا الكتاب: «كان حكم (تشاو إر فنغ) للمناطق الحدودية يبدأ بالقوة العسكرية... ثم يُنفذ خطته الكبرى لتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين.»

XXXX XXX.indd 324-325 2025-11-27 10:56:15

"بعد استقرار الأراضي الحدودية، شرع (تشاو) على الفور في مختلف مشاريع البناء."

قام (خه جيوه في)، أثناء توليه منصب محافظ محافظة (لي هوا)، بدراسة السجلات التاريخية وزيارة العديد من الرهبان الكبار والمسؤولين القدامى، وأكمل أول سجل محلي للمنطقة، «سجل محافظة (لي هوا)». عندما قام بتجميع هذا السجل، كان قد مر ثلاثون عامًا فقط على حكم (تشاو إرفنغ) لمناطق حدود (سيتشوان)، لذا فإن روايته لإنجازات (تشاو إرفنغ) يجب أن تكون دقيقة للغاية. وقد لخص (خه) أيضاً ببراعة جهود (تشاو إرفنغ) المختلفة في بناء المناطق الحدودية.

"بالحديث عن الشؤون الداخلية: فقد اختار المسؤولين بعناية، وحسّن العادات والتقاليد، ووضع لوائح (وو لا)، وأصدر قائمة بأسماء المئات من العائلات، واستقدم الأطباء واشترى الأدوية.

"بالحديث عن التعليم: فقد طلب تعيين (وو جيا مو) كرئيس لمكتب الشؤون التعليمية، وأنشأ المدارس في جميع المناطق التي تغير فيها نظام الحكم الوراثي المشيخي، واشترى آلة طباعة لـ (با آن) (الاسم الجديد لـ(باتانغ)) لطباعة الكتب المدرسية.

"بالحديث عن النقل: فقد بنى محطات على الطرق خارج الممرات، وسوّى طرق بين (كانغ) و(سيتشوان)، ومد خطوط التلغراف بين (سيتشوان) والتبت، ووظف مهندسين بلجيكيين لبناء جسر فولاذي في مصب (خه كو).

"بالحديث عن الصناعة: فقد جند المزارعين، وحسّن الزراعة، واستكشف رواسب المعادن، واشترى آلات غزل وطحن دقيق، وغيرها."

في هذا الوقت، كان بلاط (تشينغ) ينظر إلى أراضي شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان) كوحدة استراتيجية متكاملة. ومع ظهور هذا التفكير الجديد، ظهر مصطلح جديد: «تشوان بيان» (مناطق حدود سيتشوان). هذا مصطلح جغرافي يشمل جميع أراضي شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان) في منطقة (كانغ با). فمنذ بداية عصر شيوخ القبائل في أوائل عهد سلالة (تشينغ)، كان بلاط (تشينغ) يسعى فقط إلى الحفاظ على السلام في هذه المنطقة، ولذلك «زاد من عدد الإقطاعيات ووزعها لتقسيم قوتها». ومنذ ذلك الحين، بدأوا في اعتبار هذه المناطق وحدة متكاملة يجب إدارتها وتطويرها.

في إطار هذا التفكير الجديد، ظهر منصب رسمي جديد أيضاً: «وزير شؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان)». وقد أوضح بلاط (تشينغ) بوضوح سبب إنشاء منصب وزير شؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان): «مقاطعتي (سيتشوان) و(يون نان) تقعان على حدود التبت، وشؤون الحدود ذات أهمية قصوى. وإذا تم إنشاء مزارع عسكرية في المناطق الحدودية للمقاطعتين، وتوسيع فوائد الأراضي، وتدريب جنود جدد، فسيكون ذلك كافياً لتعزيز بوابات (سيتشوان) و(يون نان)، وبالتالي حماية حصن التبت، وهو أمر لا يمكن تأجيله اليوم.»

في عام 1906، تولى (تشاو إرفنغ) منصب وزير شؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان) الذي أُنشئ حديثاً.

صدر مرسوم من بلاط (تشينغ) ينص على: «إعفاء (تشاو إرفنغ)، حاكم (جيان تشانغ داو) في (سيتشوان)، من منصبه، ومنحه لقب نائب الوزير، وتعيينه وزيراً لشؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان)، ليقوم بتوجيه وتخطيط جميع شؤون استصلاح الأراضي والدفاع والتدريب بشكل فعال".

وخُصص مليون تايل من الفضة كنفقات للبدء في العمل.

لم تقتصر السياسات الجديدة على حدود (سيتشوان) فحسب.

في عام 1906، لم تسفر المفاوضات حول «معاهدة لاسا»، التي استمرت لأكثر من عام في الهند، عن أي نتائج. ثم نُقلت المفاوضات إلى بكين، حيث وُقعت أخيراً «المعاهدة الصينية البريطانية الملحقة بالمعاهدة التبتية الهندية». كان المحتوى الرئيسي للمعاهدة، بالإضافة إلى تخفيض مبلغ التعويضات لبريطانيا، هو إعادة تأكيد الصين لسيادتها على التبت: «تتعهد المملكة المتحدة بعدم احتلال الأراضي التبتية وعدم التدخل في جميع شؤون التبت السياسية. وتتعهد الصين أيضاً بعدم السماح لأي دولة أخرى بالتدخل في الأراضي التبتية وجميع شؤونها الداخلية. ولا يجوز لأي دولة أخرى أو شعب آخر التمتع بالحقوق المنصوص عليها في القسم الرابع من المادة التاسعة من المعاهدة الموقعة بين بريطانيا والتبت، باستثناء الصين التي تتمتع بها وحدها. ومع ذلك، وبعد الاتفاق مع الصين، يحق لبريطانيا إقامة خطوط تلغراف في الموانئ التجارية المحددة في المادة الثانية من هذه المعاهدة، للاستفادة من الاتصال داخل الأراضي الهندية".

في نفس العام، عين بلاط (تشينغ) (تشانغ ين تانغ)، الذي شارك في مفاوضات «المعاهدة الصينية البريطانية الملحقة بالمعاهدة التبتية الهندية» في الهند، للانتقال مباشرة من الهند إلى التبت، وتولي منصب مساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت.

أول ما فعله (تشانغ ين تانغ) عند توليه منصبه في التبت كان إصلاح الإدارة. فقد وصل إلى لاسا في أكتوبر، وفي الثامن عشر من نوفمبر، قدم مذكرة بعنوان «لتوضيح العلل المتراكمة، وطلب مرسوم لإزالتها ومعاقبة المسؤولين، للحفاظ على قلوب الناس في المناطق الحدودية»، كاشفاً فيها عن الفساد المستشري بين المسؤولين المقيمين في التبت، وكيف كانوا يضطهدون التبتيين ويسرقون أموالهم.

«تبين أن جميع المسؤولين والضباط الذين رافقوا الوزراء المقيمين في التبت في فتراتهم المختلفة، كانوا في الغالب من المسؤولين الذين عوقبوا وخفضت رتبهم، وقد سعوا جاهدين لإعادة تعيينهم، وحالفهم الحظ في الحصول على مهمة. وبما أن سمعتهم لم تكن محل اهتمام، فقد ازدادوا وقاحة، واستغلوا السكان التبتيين، واختلسوا أموال الخزانة.» لخص معاصرو ذلك الوقت هذه الظاهرة في التبت والمسؤولين الذين أرسلهم البلاط إلى المناطق التبتية بقولهم: «النبلاء لا يذهبون، ومن يذهب ليس نبيلاً». اعتقد البلاط أنه قد أنعم على التبتيين بالكثير، لكنهم كانوا يبتعدون عنه، بل حتى أن بعض المسؤولين قالوا إن «التبتيين يخشون القوة ولا يخشون الفضل». في الواقع، كان سبب هذا الوضع، بالإضافة إلى ضعف قوة سلالة (تشينغ) بشكل عام، هو تصرفات هؤلاء المسؤولين الفاسدين والظالمين في المنطقة التبتية، والتي كانت عاملاً مهماً للغاية، بل وأحياناً العامل الوحيد.

[redacted].indd 326-327 2025-11-27 10:56:16

لم يقتصر الفساد على صغار المسؤولين، بل كان الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت غالباً هو رأس الفساد.

كانت حكومة (كاشاغ)، تحت قيادة الدالاي لاما أو الوصي، تضم أربعة وزراء (كالون) يديرون شؤون التبت بأكملها. وعندما ينشأ منصب شاغر، كان على الدالاي لاما، بالتعاون مع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، ترشيح شخص جديد لبلاط (تشينغ). وقد منح هذا الوضع الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت فرصة لبيع المناصب وشراء النفوذ. وبحسب تحقيق (تشانغ ين تانغ)، فإن «الرسوم غير الرسمية» لمنصب كالون بلغت اثنا عشر ألف تايل من الفضة، وهو سعر شبه معلن في السوق، بالإضافة إلى «الابتزاز الإضافي المستمر». أما المناصب الأخرى فكان لها أسعار محددة: «لترقية الدايبين (ضابط رفيع) والجيابين (ضابط أدنى) وغيرهم من المسؤولين، تتراوح الرسوم غير الرسمية من ألفين إلى ثلاثة آلاف تايل من الفضة وحتى عدة مئات». ولم يكن المسؤولون التبتيون يدفعون هذه التكاليف من أموالهم الخاصة، بل «كانت تُوزع على الشعب». لذلك، تنهد (تشانغ ين تانغ) قائلاً: «ما ذنب الناس حتى يتعرضوا لهذا الدمار!"

تسببت تصرفات الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت هذه في «تخلي جميع السلطات السياسية طوعاً عن صلاحياتها مقابل الرشاوى".

عندما غزا البريطانيون التبت للمرة الثانية، أدت تصرفات الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (يوتاي) إلى تدمير الدفاعات بنفسه. فعند وصول القوات البريطانية إلى لاسا، ذهب (يوتاي) لمقابلة يونغهاسباند، و»أعلن أنه ليس لديه صلاحية للسيطرة على التجار والضباط، ورفض توفير الرجال والخيول، ليبرئ نفسه، ويستجدي الأجانب، فابتسم يونغهاسباند ووافق، وسجل ذلك في الكتاب الأزرق، واعتبره دليلاً قاطعاً على عدم امتلاك الصين للسيادة في التبت، وأنها ضعيفة وغير كفؤة، وقد أضرت بالبلاد ضرراً جسيماً!"

الأكثر إثارة للغضب والضحك هو أنه عندما وصلت القوات البريطانية إلى لاسا، كان (يوتاي) مشغولاً بـ»مكافأة الأبقار والأغنام والحطب»، وكان سخياً للغاية، حيث أنفق ألف وخمسمائة إلى ألف وستمائة تايل من الفضة. وفي النهاية، كشف (تشانغ ين تانغ) أن (يوتاي) قد طالب بتعويضات عن نفقات الاستقبال هذه بلغت أربعين ألف تايل من الفضة!

إذا كان المسؤول الأعلى بهذا السوء، فماذا عن مرؤوسيه؟ كان هناك من يقلل من النفقات ويقدم تقارير مبالغ فيها، ومن يطلب الرشاوى ويقبلها من المسؤولين التبتيين والعامة، ومن يختلس رواتب جنود (تشينغ) المتمركزين في التبت. في ذلك الوقت، كان (يوتاي) يثق في خادم بوابة مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، (ليوون تونغ)، «وعينه قائداً لجناح الجيش الأمامي في التبت، وقائداً لحرس المعهدَين، ومديراً عاماً لجميع شؤون المعسكرات في التبت، وقد استغل سلطته لطلب الرشاوى وبيع المناصب، وأصبح بابه كالسوق، وتنافس الضباط في مختلف المراكز على النقل، حتى وصل الأمر إلى تجنيد الجنود ومؤن المراكز، حيث كانت الرسوم المطلوبة تتراوح بين أربعمائة إلى خمسمائة تايل من الفضة». وقد ذكر (تشانغ ين تانغ) في مذكرته مثالاً، حيث تم عزل ضابط يدعى (لي فولين)، وقدم رشوة إلى (ليوون تونغ) بلغت خمسة آلاف تايل، فلم يتم تخفيض رتبته بل رُفع إلى منصب قائد.

عندما غزا الجيش البريطاني، واشتدت المعارك في الجبهة، و»توالت الإنذارات المستعجلة للذهاب إلى جبهة العدو لمناقشة الأوضاع»، رفض (يوتاي) الذهاب إلى الجبهة للتعامل مع الأزمة. في هذا الوقت، جاء (ليوون تونغ) لترفيه عن سيده: «اشترى خمس أو ست جواريٍ تبّتيات، وتملق سيده ليحافظ على حظوته، وفي وضح النهار كان يأخذ مساعديه إلى (ليولين زي) (غابة الصفصاف) ليدعو العاهرات ليشربوا معهن ويغنوا ويرقصوا للاستمتاع بالهواء النقي، وكان ذلك المسؤول الأعلى مخموراً غارقاً في أحلامه، مسلّماً نفسه بالكامل لغبائه".

لطالما استخدم أباطرة سلالة (تشينغ)، على مر العصور، سياسة «الفضل والقوة» مع التبت والمنطقة التبتية بأكملها، لكنهم كانوا دائماً ما يروجون لمفهومين رئيسيين: «التفضيل والبعد» و»التحول بالفضيلة». ومع ذلك، فإن المسؤولين الذين أُرسلوا إلى المنطقة تصرفوا بفساد وغطرسة، مما عكس تماماً هذين المفهومين. فكان من الوهم أن نتوقع منهم «إخضاع البعيدين» بهذه الطريقة.

لم أقم بإحصاء العدد الدقيق للوزراء المعتمدين والمساعدين الذين أُرسلوا إلى التبت خلال عهد سلالة (تشينغ)، لكنهم بالتأكيد بلغوا العشرات. ومع ذلك، يبدو أن (تشانغ ين تانغ) هو الوحيد الذي اتخذ إجراءات صارمة وشاملة لإصلاح الفساد المستشري في الإدارة التبتية التي كانت تتدهور.

بعد أن أبلغ عن حالات الفساد المختلفة بين مسؤولي (تشينغ) في التبت، اقترح (تشانغ ين تانغ) «هل يمكننا أن نطلب مرسوماً بإقالة سبعة مسؤولين وهم: (ليوون تونغ)، و(سونغ تاو)، و(لي منغ بي)، و(إن شي)، و(جيانغ تشاو)، و(يوتشاو)، و(فان تشي رونغ)، وتقديمهم للمحاكمة، ومصادرة ممتلكاتهم لردع الفاسدين». أما بالنسبة لـ(يوتاي)، «بصفته مسؤولاً رفيع المستوى من الرتبة الثانية، فإن كيفية معاقبته تقع ضمن سلطة الإمبراطور الحكيم، ولا يجرؤ خادمكم على اقتراح أي شيء".

لم يقتصر الفساد على المسؤولين الذين أُرسلوا من الحكومة المركزية، بل كان مشكلة مزمنة في حكومة (كاشاغ) أيضاً.

كما كشف (تشانغ ين تانغ): «كان (قابولونغ بن تسوه وانغ دان) فاسداً وعنيداً، يبتز الناس، ويفرض ضرائب تعسفية على المكافآت والرسوم. أما (لانغ تساي شيا فان قوان يانغ ماي)، فقد كان معروفاً بفساده وظلمه، مما أثار غضب الناس، ونحن نطلب إقالته والتحقيق معه فوراً".

وافق بلاط (تشينغ) على جميع إجراءات (تشانغ ين تانغ). ففي الأصل، كان بلاط (تشينغ) قد أمر (يوتاي) «بالحضور إلى العاصمة للقيام بواجباته»، ولكن في هذه المرة، أصدر مرسوماً بإقالته «وعدم السماح له بالعودة إلى العاصمة، وإيقافه عن العمل لحين التحقيق".

لقد لاقت مبادرة (تشانغ ين تانغ) دعماً وترحيباً من جميع طبقات المجتمع التبتي، وأحدثت صدمة كبيرة في الأوساط الرسمية الصينية والتبتية التي كانت تعاني من تفشي الفساد وتراخي الأداء. وقد قال (تشانغ ين تانغ) نفسه: «لقد اهتزت التبت بأكملها بشدة، وتترقب إجراءاتنا بصمت، معتقدة أن خادمكم قد أُرسل بأمر إمبراطوري للتحقيق في شؤون التبت، وهو يختلف عن المسؤولين المقيمين العاديين». وهذه الجملة تعني، بالمعنى العكسي، أن في نظر التبتيين، فإن المسؤولين المقيمين العاديين كانوا جميعاً متشابهين إلى حد كبير.

[redacted].indd 328-329 2025-11-27 10:56:16

بعد إجراء بعض الإصلاحات في الدوائر الرسمية التابعة لسلالة (تشينغ) في التبت، قدم (تشانغ ين تانغ) خطة رئيسية جديدة تتكون من أكثر من عشرة بنود لسياسة حكم التبت، ورفعها إلى وزارة الخارجية في حكومة (تشينغ).

البند الأول، بعد إضفاء ألقاب شرفية على الدالاي لاما وزيادة راتبه السنوي، تعيين حاكم مدني آخر بصفة ملك التبت، ليتولى إدارة شؤون الحكومة المحلية بشكل حصري، مع وجود مسؤول صيني للإشراف عليه. الهدف الأساسي من ذلك كان إنهاء نظام الحكم الديني والسياسي المشترك في التبت.

البند الثاني، إصلاح هيكل حكومة (كاشاغ)، وإعادة تنظيم المناصب الرسمية، وتقسيم الشؤون إلى إدارات مختلفة مثل الإدارة الداخلية، والشؤون الخارجية، والإشراف على التدريب العسكري، والمالية، والتعليم، والقضاء، والشرطة، والزراعة، والصناعة، والتجارة، والتعدين. وهذا يعني تحويل الحكومة القديمة إلى حكومة حديثة.

البند الثالث، إضافة قوات من جيش بيانغ الجديد لتتمركز في التبت.

البند الرابع، تدريب الجنود التبتيين بأساليب حديثة.

العديد من البنود اللاحقة، مثل تأسيس المدارس، وبناء الطرق، ومد خطوط التلغراف، وتعليم التبتيين زراعة الشاي محلياً، كلها تعكس نية تحديث التبت وتقويتها. وعلى الرغم من موافقة بلاط (تشينغ)، لم تكن هناك تدابير دعم ملموسة. وبما أن حكومة (كاشاغ) كانت أول من استهدفته إصلاحات (تشانغ ين تانغ) الجديدة في التبت، فقد كان رد فعلها سلبياً بطبيعة الحال. يقول البريطاني بيل في كتابه «التبت: ماضيها وحاضرها»: «لم تتناسب الإصلاحات التي قام بها هذا المفوض الأعلى مع مزاج غالبية المسؤولين في لاسا... لذلك، حظيت في البداية بشعبية كبيرة، ولكن بعد ذلك لم تحقق الخطة أي نتائج".

علاوة على ذلك، فإن تحقيقاته في الفساد في التبت لم تمسّ فقط مسؤولاً رفيع المستوى من الرتبة الثانية مثل (يوتاي)، بل مسّت شبكة واسعة. وكما قال معاصروه: «إن مركز السلطة في البلاط كان فاسداً، والمسؤولون كانوا يتسلقون على أكتاف بعضهم البعض، ويشكلون عصابات من أجل مصالحهم الخاصة، ويهدمون أساس الأمة معاً». لولا ذلك، كيف كان لشخص مثل (يوتاي) أن يصل إلى منصب مسؤول رفيع من الرتبة الثانية؟ عندما كان تشانغ يتصرف بجرأة في التبت، تلقت حكومة (تشينغ) بالفعل تقارير سرية تتهمه زوراً بأنه في لاسا «أمر الرهبان بالعودة إلى الحياة المدنية، وتغيير ملابسهم إلى الطراز الغربي»، بالإضافة إلى اتهامات مختلفة بسوء تصرفاته، و»الخوف العميق من إثارة اضطرابات».

في مايو 1907، تلقى (تشانغ ين تانغ) توجيهات برقية من وزارة الخارجية في حكومة (تشينغ) تطلب منه التوجه إلى شيملا بالهند لمناقشة التفاصيل المتعلقة بإنشاء بريطانيا لمرفأ تجاري في (جيانغ تسي) بالتبت.

تشير بعض المصادر إلى أن الوزير المقيم الجديد في التبت (ليان يو) هو من قدم المذكرة السرية التي أدت إلى إجبار (تشانغ ين تانغ) على مغادرة التبت. ولكن بعد إبعاد (تشانغ ين تانغ)، بذل هذا الوزير المقيم، الذي كان قد زار الخارج، جهوداً لدفع السياسات الجديدة التي وضعها (تشانغ) لحكم التبت.

اقترح على بلاط (تشينغ) فصل جميع المسؤولين المدنيين والعسكريين المتمركزين في المحطات البريدية المختفة، والإبقاء فقط على الموظفين الإداريين المسؤولين عن تسليم المذكرات الرسمية والوثائق وإدارة المحطات، مما سيوفر مائة ألف تايل من الفضة سنوياً، ويُخصص هذا المبلغ لتدريب كتيبتين من القوات الجديدة، «مع التركيز على التدريب العسكري أولاً، لترسيخ الهيبة». في الوقت نفسه، طلب أيضاً تخصيص مائة ألف تايل من الفضة من كل من (قوانغ دونغ) و(سيتشوان) لتوسيع تدريب الجيش الجديد. وقد وافق البلاط على مبلغ يزيد عن ضعف ما طلبه. وهكذا، بدأ على الفور في شراء أسلحة حديثة من الخارج، وفي الوقت نفسه، افتتح أكاديمية للجيش، واختار أكثر من عشرين شخصاً من جيش (تشينغ) المتمركز في التبت، واستقدم عشرة شبان من القبائل التسع والثلاثين في شمال التبت التي تخضع مباشرة للوزير المقيم، بالإضافة إلى عشرة تبتيين عينتهم حكومة (كاشاغ)، وعشرة من الجوركا، لينضموا جميعاً إلى أكاديمية الجيش لتدريب ضباط للجيش الحديث المستقبلي.

بعد ذلك، أنشأ في لاسا أيضاً مركزاً للشرطة، ودرب مائة وعشرين شرطياً مشاة وأربعة وعشرين شرطياً راكباً.

على غرار (تشانغ ين تانغ)، أولى (ليان يو) اهتماماً بالغاً لتطوير التعليم وتنوير العقول. فقد افتتح مدرستين ابتدائيتين في التبت، حيث درس أبناء الصينيين والتبتيين معاً دون رسوم دراسية. وكان نظام الدراسة ست سنوات، وكان مخططاً أن يُرسل هؤلاء الطلاب بعد التخرج إلى (سيتشوان) لمواصلة دراستهم. وبعد عامين، أُنشئت ستة عشر مدرسة ابتدائية في جميع أنحاء التبت.

كما قام (ليان يو) بتنظيم معاهد لتعليم اللغة التبتية واللغة الصينية، حيث أرسل الصينيين لتعلم اللغة التبتية، والتبتيين لتعلم اللغة الصينية، وذلك لتأهيل مترجمين للتبت.

وهكذا، بفضل جهود (تشاو إرفنغ) في (سيتشوان) الحدودية، و(تشانغ ين تانغ)، و(ليان يو) في التبت، الذين عملوا بجد وتنسيق، تغيرت المنطقة التبتية بعد آلاف السنين من السبات والجمود، وأصبحت تشهد وضعاً جديداً تماماً. ولكن تحت هذا المظهر الجديد، كان هناك اضطراب مستمر. فبالإضافة إلى الخلافات بين القديم والجديد، كانت هناك أيضاً قضايا تتعلق بالعلاقات العرقية بين الصينيين والتبتيين. وأي سوء تصرف بسيط يمكن أن يؤدي إلى فوضى بسبب الإصلاح، ويسير في الاتجاه المعاكس تماماً.

□□□□ □□□.indd 330-331 2025-11-27 10:56:16

في نوفمبر1909، عاد الدالاي لاما الثالث عشر مع حاشيته إلى لاسا. وخرج الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ليان يو) لاستقباله شخصيًا في الضواحي. كان الدالاي لاما قد علم بالفعل بتغييرات (تشاو إرفنغ) في حكم حدود (سيتشوان) المتمثلة في تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، وإلغاء سلطة شيوخ القبائل الوراثية، وتقييد امتيازات الأديرة، بالإضافة إلى الإصلاحات الجديدة التي نفذها (تشانغ ين تانغ) و(ليان يو) في التبت. وقد شعر بالاستياء الشديد من هذه الأمور. وأثناء عودته إلى التبت، سمع أيضاً أن (ليان يو) قد رفع مذكرة إلى البلاط الإمبراطوري يطلب فيها إرسال قوات (سيتشوان) إلى التبت لترسيخ سياسات الحكم الجديدة في التبت، مما زاده غضباً. وعندما التقى بأول مسؤول رسمي من بلاط (تشينغ) في التبت، (ليان يو)، الذي جاء لاستقباله في الضواحي، تجاهله تماماً، ولم ينطق بكلمة واحدة، وفي حالة غضبه هذه، تخلى حتى عن أبسط قواعد المجاملة والرسميات.

اعتبر(ليان يو) ذلك إهانة لا تُنسى، وفي خضم غضبه، فقد هدوءه كمسؤول رفيع، وتجاهل الوضع برمته، وفكر فقط في الانتقام واستعادة كرامة الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت. فقام على الفور باتهام الدالاي لاما بشراء أسلحة روسية سراً، وقاد بنفسه مجموعة للبحث في قصر بوتالا، لكنه لم يجد شيئاً. ثم أرسل أناساً شمالاً إلى (نا تشو) لتفتيش أمتعة الدالاي لاما التي لم تكن قد وصلت إلى لاسا بعد، ولم يعثروا على الأسلحة المذكورة أيضاً.

لم يتأخر الدالاي لاما عن الرد بالمثل، فأمر حكومة (كاشاغ) على الفور بوقف تزويد مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت بالحطب، والغذاء، والخدم، ودواب النقل، وغيرها.

وهكذا، التقى أعلى مسؤول في بلاط (تشينغ) في التبت ورئيس حكومة (كاشاغ)، ولم يتبادلا كلمة واحدة، ناهيك عن مناقشة الخطط الكبرى لإصلاح التبت، بل أصبحا يعتبران بعضهما البعض أعداء. وبدأ الوضع في التبت يخرج عن السيطرة تدريجياً. وعند رؤية هذا الوضع، عيَّن بلاط (تشينغ) (تشاو إرفنغ) وزيراً مقيماً جديداً في التبت، وأرسل أكثر من ألفي جندي من (سيتشوان) إلى التبت. لم تكن هذه القوات تسير بسلاسة في بداية تقدمها، حيث واجهت عوائق في (تشا مو دوه) منطقة (بومي). ثم قاد (تشاو إرفنغ) بنفسه جيشه الحدودي الذي أنشأه لدعم المعركة، وهزم الجيش التبتي والميليشيات المحلية، ثم أعاد تنظيم صفوفه وتوجه إلى لاسا. لم تعترض السلطات التبتية على دخول جيش (سيتشوان) إلى التبت فحسب، بل عارضت بشدة تعيين (تشاو إرفنغ)، الذي اشتهر بتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في المناطق التبتية على حدود (سيتشوان)، وزيراً مقيماً في التبت. لهذا الغرض، قامت السلطات التبتية، بالإضافة إلى المقاومة المسلحة في شرق التبت، برفع رسالة إلى بلاط (تشينغ) تطلب فيها منع دخول جيش (سيتشوان) إلى التبت. جاء في الرسالة الموجهة إلى حكومة (تشينغ):

«نحن التبتيون المضطهدون نقدم لكم هذه الرسالة، وعلى الرغم من أن كل شيء يبدو جيداً ظاهرياً، إلا أن الداخل يشهد صراعاً بين القوي والضعيف... لقد دخل الجيش التبت، وهذا يثير ذعراً هائلاً بين التبتيين. وقد أرسلنا مبعوثاً إلى كلكتا لإرسال برقية بتفاصيل الأمر. نرجو سحب المسؤولين والقوات التابعة لسلالة (تشينغ) الذين وصلوا مؤخراً إلى منطقة (كانغ)، وإذا لم تفعلوا ذلك، فسوف تقع كارثة.»

في الوقت نفسه، أرسلت السلطات التبتية رسالة إلى البريطانيين تطلب فيها الوساطة الدبلوماسية: «على الرغم من أن إمبراطورية (تشينغ) والتبت قريبان مثل عائلة واحدة، إلا أن مسؤولي (تشينغ)، (تشاو إرفنغ) والوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ليان يو)، يتآمرون ضدنا. لم يقدموا نسخاً من وثائق احتجاجنا الأصلية إلى الإمبراطور العظيم، بل قاموا بتزويرها لتحقيق أهدافهم الشريرة. إنهم يرسلون جيشاً إلى التبت في محاولة للقضاء على ديننا. نرجوكم أن تبلغوا إمبراطور (تشينغ) عبر البرقية، وتطلبوا منه وقف الجيش الذي يدخل التبت حالياً. نحن قلقون للغاية بشأن الوضع الحالي، ونطلب من القوى العظمى التدخل لحث جيش (تشينغ) على الانسحاب من التبت.“

قبل بلاط (تشينغ) نصف طلب التبت، فألغت التعيين الجديد لـ(تشاو إرفنغ)، وأمرته بالبقاء في منطقة (شوان بيان) لمواصلة عمله، بينما استمر الجيش في التقدم نحو التبت. في الوقت نفسه، أوضح بلاط (تشينغ) للبريطانيين أن إرسال جيش (سيتشوان) إلى التبت كان بهدف إجبار الدالاي لاما على الالتزام بالمعاهدة، وحماية الموانئ التجارية الجديدة، والحفاظ على الأمن.

في فبراير1910، وصلت قوات (سيتشوان) هذه إلى لاسا.

في ذلك الوقت، لم يكن قد مر سوى شهرين على عودة الدالاي لاما إلى لاسا بعد انتهاء هروبه. وعندما رأى أن الوساطة البريطانية غير مجدية، وأن قوات (سيتشوان) تتقدم بلا عوائق، وافق الدالاي لاما أخيراً على التفاوض مع مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت. ولكن حتى هذه اللحظة، ظل الدالاي لاما يرفض مقابلة (ليان يو)، فدعا مساعد الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ون تسونغ ياو) لمقابلته. ووعد بأنه لن يمنع قوات (سيتشوان) من دخول التبت بالقوة بعد الآن، وسيعيد جميع الإمدادات اللازمة لمكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت. ووعد (ون) بدوره بأن قوات (سيتشوان)، عند وصولها، لن تثير الفوضى في المنطقة، وأن إصلاحات الإدارة التبتية ستتم بسلام، ولن تنتهك السلطة الدينية للدالاي لاما، ولن تعرض الرهبان للخطر. ومع ذلك، وبغض النظر عن الوعود، فإن انضباط قوات (سيتشوان) التي دخلت التبت كان متراخياً. فبمجرد وصولها إلى لاسا، قامت بإطلاق النار على الرهبان في مكان يُدعى (ليولي تشياو)، ثم أطلقت النار عشوائياً أثناء مرورها بقصر بوتالا. شعر الدالاي لاما بالذعر والقلق، وفرّ مرة أخرى ليلاً. ولكن هذه المرة، كان اتجاه هروبه مختلفاً عن السابق، فقد توجه جنوباً، وهرب إلى الهند، المستعمرة البريطانية.

□□□□ □□□.indd 332-333 2025-11-27 10:56:16

تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق حدود (سيتشوان)

كان تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق حدود (سيتشوان) يسير بشكل سلس نسبياً.

كانت سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (باتانغ) و(ليتانغ) بجنوب (كانغ) قد بدأت تؤتي ثمارها. أما في شمال (كانغ)، في (ده قه) وشيوخ قبائل (هوه أر) الخمس، وشيخ قبيلة (مينغ تشنغ)، فلم تبدأ هذه التغييرات بعد.

في هذا الوقت، كان هناك خلاف داخلي في عائلة شيخ قبيلة (ده قه)، مما أتاح لـ(تشاو إرفنغ) فرصة للتدخل.

لقد ذكرنا سابقاً أن (لوتشوان لين)، عندما كان حاكماً لـ (سيتشوان)، وبعد أن انتصر جيشه على القوات التبتية في (تشان دوي)، أرسل المفوض (تشانغ جي) للتعامل مع النزاع الذي نشأ داخل عائلة شيخ قبيلة (ده قه) بسبب الصراع على السلطة. في ذلك الوقت، كان (لوتشوان لين) ينوي تطبيق سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (تشان دوي) و(ده قه)، فاستغل الفرصة ونقل شيخ القبيلة القديم (تشيه ماي دا بي دو جي) وزوجته وابنيه أولاً إلى (دا جيان لو)، ثم إلى (تشنغدو) لوضعهم تحت الإقامة الجبرية. وعندما فشل (لوتشوان لين) في تطبيق سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، أُطلق سراح عائلة شيخ قبيلة (ده قه) وعادوا إلى موطنهم. لم تذكر السجلات التاريخية الرسمية تفاصيل هذه الحادثة بشكل واضح، لكن المصادر التاريخية المحلية تصف هذه العملية بالتفصيل.

بعد أن ترك (لوتشوان لين) منصبه، قررت السلطات في (سيتشوان) أن يتولى الابن الأكبر لـ (تشيه ماي دا بي دو جي)، (دو جي سنغ قه)، «مساعدة شيخ القبيلة القديم في إدارة الشؤون السياسية، وإذا أثبت كفاءته، فسيسمح له بالخلافة». لكن (تشيه ماي دا بي دو جي) وزوجته توفيا تباعاً في طريق عودتهما. وبعد موافقة الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ون هاي)، وموافقة جنرال (تشنغدو) (قونغ شو)، تولى (دو جي سنغ قه) منصب شيخ القبيلة بالإنابة، ومُنح خاتماً رسمياً.

كان (دو جي سنغ قه) ضعيف الشخصية، وبعد توليه منصب شيخ القبيلة، سقطت السلطة في يد الرئيس الكبير المسؤول عن إدارة شؤون شيخ القبيلة اليومية.

أما شقيقه (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ)، فكان يتمتع بشخصية قوية، ففي ذلك العام، وبدعم من والدته والمسؤولين التبتيين المتمركزين في (تشان دوي)، سيطر بالفعل على سلطة شيخ القبيلة. لم يكن والده راغبًا في رؤية السلطة تقع في يد أحد غيره، فبعد انتصار جيش (تشينغ) في (تشان دوي)، ذهب إلى (تشان دوي) لتقديم شكوى. ولهذا السبب، كان (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ) غير راضٍ عن تولي أخيه منصب شيخ القبيلة، وعندما رأى أن سلطته قد تضاءلت، أجبر أخيه على التنازل عن السلطة بالقوة. أرسلت مقاطعة (سيتشوان) أعضاء لجنة (تشانغ قوتون) للتوسط ولكن دون جدوى، فاضطر (دو جي سنغ قه) إلى تسليم ختم شيخ القبيلة، وهرب إلى التبت ليصبح راهباً. كان ذلك في عام 1903. بعد أن تولى (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ) منصبه، وللتخلص من سيطرة الرئيس الكبير الموالي لـ (دو جي سنغ قه)، أقام مقراً جديداً لممارسة سلطة شيخ القبيلة. وفي عام 1906، قدم طلباً رسمياً إلى بلاط (تشينغ) للموافقة على توليه منصب شيخ القبيلة رسمياً. كما أرسل المسؤول التبتي المقيم في (تشان دوي) قوات مسلحة إلى (ده قه) لدعم (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ).

وقد أثارت هذه الخطوة معارضة شديدة من رؤساء القبائل الذين كانوا يعملون تحت قيادة (دو جي سنغ قه) سابقاً. فأرسلوا من يستدعي (دو جي سنغ قه) من التبت، وفي الوقت نفسه، نظموا هجوماً مسلحاً على مقر (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ)، وقتلوا وطردوا بعض رؤساء القبائل الذين كانوا يدعمون (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ). وعاد (دو جي سنغ قه) إلى السلطة مرة أخرى، وسجن أخاه. لاحقاً، هرب (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ). وانقسم رؤساء القبائل التابعون لشيخ قبيلة (ده قه) إلى فصيلين، يدعم كل منهما طرفاً، وتواصلت المعارك بينهم. في النهاية، هُزم (دو جي سنغ قه) وهرب، وسيطر (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ) على سلطة شيخ القبيلة مرة أخرى.

في هذه الأثناء، كان (دو جي سنغ قه) في مأزق، ورأى أن المسؤول التبتي المقيم في (تشان دوي) لم يقف إلى جانبه في صراع الإخوة، بل دعم أخيه صراحة. لذلك، بعد هزيمته، لم يرغب في الذهاب إلى التبت ولم يجرؤ على ذلك. ولم يتبق له سوى طريق واحد، وهو الحصول على الدعم من بلاط (تشينغ). فأرسل المقربين منه جنوباً إلى (باتانغ)، ليقدموا شكوى ضد أخيه لرفضه «تفويض إمبراطور السماء»، ويطلبوا من (تشاو إرفنغ) إرسال قوات لقمع التمرد، وأعلن استعداده لتسليم ختم شيخ القبيلة وتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (ده قه).

بعد أن أخمد (تشاو إرفنغ) التمرد في جنوب (كانغ)، أراد تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في شمال (كانغ)، وكان يشعر بالضيق لعدم وجود نقطة بداية. وعندما رأى صراع الإخوة في (ده قه) الذي لا يتزعزع، اعتبره فرصة من السماء. وعلى الفور، قاد جيشاً كبيراً في عدة اتجاهات من الجنوب إلى الشمال متقدماً نحو (ده قه). كما نظم (دو جي سنغ قه) أكثر من ثمانمائة جندي من السكان الأصليين ليكونوا عوناً له من الداخل. وهُزم (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ) وهرب إلى التبت.

[redacted].indd 334-335 2025-11-27 10:56:17

تقول الروايات الشعبية إن (أنغ وونغ جيانغ باي رن تشينغ) هرب أولاً مع جنوده المهزومين إلى (تشينغ هاي)، وبواسطة راهب متجسد مشهور من أحد الأديرة، ذهب إلى التبت مع الدالاي لاما الثالث عشر الذي كان عائداً إلى لاسا. وقد أسكنته حكومة (كاشاغ) هو وأتباعه في منطقة (نا تشو)، ومنحته رتبة رسمية من الدرجة الرابعة.

بعد الحرب، طلب (دو جي سنغ قه) «مراراً تسليم الختم والوثائق، والتنازل طوعاً عن منصبه كشيخ قبيلة»، وقد وافق (تشاو إر فنغ) على الفور، فقد كان هذا ما يتمناه.

في عام 1909 م، أصدر بلاط (تشينغ) مرسوماً بمنح (دو جي سنغ قه) منصب قائد وراثي، مع الاحتفاظ بلقب المسؤول من الرتبة الثانية وريشة القبعة، ويُصرف له راتب سنوي قدره ثلاثة آلاف تايل من الفضة. في الوقت نفسه، نُقل (دو جي سنغ قه) من (ده قه) واستقر في (باتانغ). ومُنح مقر شيخ القبيلة السابق في (باتانغ)، بالإضافة إلى ميدان سباق الخيل خارج المقر، وطاحونة المياه، وبضع فدانات من الحدائق النباتية، وقطعة أرض من المراعي، ليعيش بها ويستخدمها. وهذا يعني أن تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين لم يكن مجرد تجريد شيوخ القبائل من سلطتهم، بل كان البلاط الإمبراطوري يسعى إلى الحفاظ على مكانتهم وحياتهم المرموقة. مكانتهم مكفولة من خلال الألقاب الفخرية ذات الرتب، أما معيشتهم فتُؤمن بالمال وبعض المؤن الأساسية. بعد نقل (دو جي سنغ قه) إلى (باتانغ)، تبرع بألفي تايل من الفضة لمدارس (تشاو إر فنغ) الجديدة، لتمويل بناء مدارس للذكور والإناث. ولهذا السبب، حظي (دو جي سنغ قه) بتقدير من بلاط (تشينغ)، ومنح لقب رسمي من الدرجة الأولى ولوحة تحمل عبارة «مُحب للصالح العام». وبعد إلغاء نظام شيخ قبيلة (ده قه)، استسلم بعض شيوخ القبائل الصغار في الجوار، لعدم قدرتهم على المقاومة، وسلموا أختامهم وتنازلوا عن أراضيهم لتحويلها إلى حكم مدني. وهكذا، أنشأ (تشاو إر فنغ) في هذه المنطقة ولايات (دنغ كه)، و(دي هوا)، و(ما لونغ)، ومحافظتي (شي تشو)، و(تونغ بو). وبالإضافة إلى تعيين المسؤولين المدنيين، قام أيضاً «بجمع الناس لمناقشة الضرائب، وتحسين نظام السخرة".

في عام 1911، تلقى (تشاو إر فنغ) تعيينه حاكماً عاماً لـ (سيتشوان). وهكذا، قاد هو ووزير شؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان) الجديد الذي أوصى به، قواتهم عبر طريق شمال (كانغ)، وعلى طول الطريق، استسلم شيوخ قبائل (كونغ سا)، و(باي لي)، و(تشو وي)، وسلموا أختامهم وتحولوا إلى نظام حكم مدني.

"ملاحظات حول أحداث وقصائد سجلات (شي كانغ)» تحتوي على عدة وثائق من فترة (تشاو إر فنغ) لتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين.

يقول المؤلف (خه جيوه في): «هنا نسجل بضع وثائق (تشاو) حول الحدود، لأعطيكم لمحة عن حالة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». نسختها هنا، آملًا أن يعرف الجميع معنى ما يُسمى «القرار بإصدار مرسوم». تجدر الإشارة إلى أن هذا «القرار بإصدار مرسوم» صدر بعد تهدئة قمع (باتانغ)، و(ليتانغ)، و(ده قه).

الوثيقة الأولى: «رسالة اجتماع (تشاو) مع وزير شؤون الحدود الجديد (فو)»:

«بخصوص رسالة الاجتماع، ووفقًا لما تم الاطلاع عليه من أوضاع مناطق شيوخ القبائل في مختلف المقاطعات، فقد تقدمت وزارة الشؤون المدنية بطلب تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، وقد حظي هذا الطلب بموافقة الإمبراطور، وتم التصريح بالتنفيذ، فيجب على الجميع طاعة الأوامر وتنفيذها كما هو مقرر. وقد قام الوزير المسؤول في هذه الدائرة بإسترجاع الأختام الرسمية وأوراق المراسلات الخاصة بستة من شيوخ القبائل وهم شيوخ قبائل (تشو وو)، و(باي لي)، و(لينغ تسونغ)، و(دونغ كه)، و(كونغ سا)، و(ما شو)، وتم استبدالهم بمسؤولين من قومية الهان لإدارة هذه المناطق. باستثناء شيخي قبيلة (كونغ سا) و(ماشو)، اللذين تم عزلهما بسبب قضايا ولا يُناقش أمرهما، يعتزم باقي شيوخ القبائل التقدم بطلب إلى جلالة الإمبراطور طلبًا لفيض نعمته، بأن يتم منحهم مناصب حكومية وراثية على غرار موظفي الهان ليحافظوا على أملاكهم ومصالحهم على الدوام. أما أنتم يا شيوخ قبائل (تشونغ شي)، و(تشو دنغ)، و(ماو يا)، فعليكم تسليم أختامكم ووثائقكم الرسمية لكي يتم إرسالها إلى الوزارة لإتلافها، وسيتم القيام أيضاً برفع التماس للإمبراطور لتغيير مناصبكم إلى مناصب حكومية على غرار موظفي الهان ، ويصدر بشأنكم أمر رسمي بذلك. وعليه، تُصدر إليكم هذه الرسالة بالأمر الصريح بالامتثال، وبعد استلام الرسالة، عليكم إحضار أختامكم ووثائقكم الرسمية بأنفسكم في موعد أقصاه السادس والعشرون من يونيو، إلى مقر (دا جيان لو) الحكومي لتسليمها، والانتظار لتلقّي التوجيهات. ويُمنع التردد أو الانتظار أو التأخير، ومن يُخالف يُحاسب. نؤكد على هذا الأمر تأكيدًا مشددًا.»

ظهرت هنا بعض أسماء شيوخ القبائل الجديدة التي لم تُذكر في النصوص السابقة.

كنا نتحدث في السابق عن شيوخ القبائل الكبار أو المتوسطين الذين لم يكونوا تابعين لبعضهم البعض. ولكن، بالإضافة إلى هؤلاء، كان هناك أيضًا عدد من شيوخ القبائل الصغار، ففي نظام شيوخ القبائل في عهد سلالة (تشينغ)، كان العديد من شيوخ القبائل الصغار الذين يملكون أراضي ضيقة وأعداد قليلة من السكان يخضعون لحكم شيوخ القبائل الكبار. يُوثق السيد (رن ناي تشيانغ) في كتابه «الخطوط العريضة لتاريخ وجغرافية (كانغ) والتبت» تفاصيل شاملة عن شيوخ القبائل في مناطق حدود (سيتشوان) في عهد سلالة (تشينغ). فعلى سبيل المثال، كان مكتب الإعلان والتهدئة في (لي تانغ) تخضع له «ثلاثة مكاتب خارجية للزعامة»، هي على التوالي مكتب زعامة (واشومايا)، ومكتب زعامة (واشو تشو دنغ)، ومكتب زعامة (تشونغ شي).

شيخ قبيلة (يوكه) هو من شيوخ القبائل الصغار أيضاً. وعندما تلقى «رسالة الاجتماع» من (تشاو إر فنغ) ووزير شؤون الحدود الجديد (فو هوا فنغ)، لم يجرؤ على المقاومة ولم يكن لديه القدرة على ذلك، لكنه حاول المماطلة والتأخير، ثم رفع «التماس الأقليات».

«إلى معالي الوزير المفوض، أنا، شيخ قبيلة (يوكه) الصغير، أقدم هذا الالتماس الصادق. إنني منذ سنوات عديدة لم أكن مثل مزارعي الماشية الآخرين، فأنا تحت حكم الإمبراطور العظيم، وأقدم سنوياً مبالغ من الفضة، وأنت يا معالي الوزير تعلم بذلك. أتوسل إلى معالي الوزير أن يسمح لي بالإقامة كما كنت سابقًا، وأن يمنحني وثيقة ترخيص، وسأكون ممتناً جداً. وإذا كان من الصعب الموافقة، وكان لابد من تسليم الختم والوثائق الرسمية، فأتوسل أولاً أن يأمر معاليكم شيخَي قبيلة (تشو سي جيا) و(قه شن تسان) بتسليم أختامهم، وسأقوم أنا أيضاً بتسليمها بعدهم على الفور.»

.indd 336-337 2025-11-27 10:56:17

رد (تشاو) على الفور على الالتماس بالتعليمات التالية: «تم الاطلاع على الالتماس. طلب شيخ القبيلة الإذن بالإقامة في مكانه السابق ومنحه رخصة، كلاهما مقبول. أما تسليم الأختام والوثائق الرسمية، فهو أمر بموجب مرسوم إمبراطوري، ويجب أن يطبق على جميع شيوخ القبائل على حد سواء. كيف يعقل ألا يُطلب من (تشو سي جيا) وقه شي تسان) تسليم أختامهم؟ وطلبك أن يأمر معالينا أولاً شيخَي القبيلة المذكورين بتسليم أختامهم قبل أن تقوم أنت بتسليمها، هو طلب سخيف. إذا كان الأمر يتعلق بتسليم الأختام، فما الفرق في الترتيب؟ ليس لدى الوزير أي محاباة. لقد سلّمت كل من (تشووي)، و(باي لي)، و(لينغ تسونغ) أختامها بالفعل. لماذا لا تقارن نفسك بـ(تشووي) وغيرهم، وتتخذ من (تشو سي جيا) و(قه شي تسان) كمرجع؟ هذا النوع من الجهل والوحشية يستدعي العقاب في الأصل، ولكن سنعفو عنك هذه المرة.“

تحت وطأة هذا التوبيخ الشديد، لم يكن أمام شيخ قبيلة (يوكه) سوى تسليم ختمه.

يوجد من بين شيوخ قبائل مناطق حدود (سيتشوان) من فرّ حاملاً ختمه ووثائقه الرسمية لتجنب تطبيق سياسة «تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». فقد فرّ(يونغ جين كان تشو)، شيخ قبيلة (كونغ سا) السابع التابعة لقبائل (هو أر) المنغولية الأصل، متظاهراً بالذهاب للحج إلى التبت، حاملاً ختم شيخ القبيلة، ومعه حوالي ثلاثمائة شخص من أتباعه ورؤساء القبائل والرهبان، تحت جنح الظلام. أرسل (تشاو إرفنغ) قوات لملاحقته واعتراضه وإعادته، وفي مارس 1911، عقد اجتماعاً عاماً لمصادرة الأختام والوثائق علناً، وأعلن إلغاء سلطة شيخ القبيلة الوراثية التي استمرت لأجيال.

ذوبان الكتلة الحديدية

بعد ذلك، قاد (تشاو إرفنغ) قواته جنوباً إلى (تشان دوي)، وطرد المسؤولين والقوات التبتية المتمركزة هناك، وأعاد (تشان دوي)، التي احتلتها حكومة (كاشاغ) لعقود، إلى سيطرة (سيتشوان).

هل كان ذلك سهلاً جداً؟

سهل جداً! قصص (تشان دوي) السابقة كانت مليئة بالتقلبات والتحولات، ومفعمة بالدراما، ومليئة بالتفاصيل الغريبة، وغير المعقولة، وصاخبة جداً. لقد هزت ركناً نائياً من البلاد للبلاط الإمبراطوري مراراً وتكراراً، وأسفرت عن مقتل وإصابة العديد من الجنود والمدنيين، وفقد العديد من المسؤولين حياتهم ومناصبهم. ومع كل ذلك، استُعيدت (تشان دوي) دون إطلاق رصاصة واحدة أو فقدان جندي واحد؟ لقد استُعيدت حقاً!

وهكذا ذابت هذه الكتلة الحديدية، (تشان دوي).

كيف نفسر هذه الظاهرة؟ هناك إجابة واحدة فقط: الزخم. إنها قوة الدفع الهائلة.

اختلفت آراء الناس حول (تشاو إرفنغ) من قبل معاصريه ومن جاء بعدهم، ويعزى الاختلاف إلى أساليبه الدموية المفرطة في القسوة. لكن لا أحد ينكر إنجازاته الضخمة في تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في غضون بضع سنوات قصيرة. والسبب المهم في ذلك هو أن هذا كان نتيجة للتحرك مع التيار العام.

لكن التغيير جاء متأخراً جداً، فلم يتمكن حتى عدد قليل من المسؤولين الأكفاء من إنقاذ إمبراطورية تشينغ من الانهيار.

□□□□ □□□.indd 338-339 2025-11-27 10:56:17

تذكر السجلات التاريخية أن (تشاو إرفنغ) قاد قواته إلى (تشان دوي) دون أي مقاومة من الجيش التبتي المتمركز هناك. وعندما وصل (تشاو إرفنغ) إلى وسط (تشان دوي)، أمر المسؤول التبتي (با دنغ لانغ جيا) بالعودة إلى التبت في غضون خمسة أيام. لم يقاوم (با دنغ لانغ جيا)، بل قال فقط إن خمسة أيام لا تكفيه لإنهاء شؤونه. وافق (تشاو إرفنغ) على تمديد المهلة خمسة أيام أخرى. غادر (با دنغ لانغ جيا) (تشان دوي) في الثاني والعشرين من مايو في العام الثالث من حكم (شوان تونغ) (1911 م).

سيطرت الحكومة المحلية في التبت على (تشان دوي) لأكثر من ثلاثين عاماً، وقد تجاوزت الضرائب التي جمعتها من (تشان دوي) بالفعل النفقات العسكرية التي أنفقتها على غزو (قونغ بو لانغ جيا) في ذلك الوقت. ومع ذلك، لا يزال بلاط (تشينغ) يخصص مائة وستين ألف تايل من الفضة من (سيتشوان) كتعويض.

طرد (تشاو إرفنغ) المسؤول التبتي المتمركز في (تشان دوي)، وعين (مي تشنغ شيانغ) مفوضاً لـ(تشان دوي)، وأنشأ محافظة (هواي رو) في (تشان دوي). لاحقاً، وبسبب تشابه الاسم مع محافظة (هواي رو) في مقاطعة (خه بي)، غُيّر اسم المحافظة إلى (تشان هوا). نتذكر أن (تشان دوي) تعني «الكتلة الحديدية» باللغة التبتية. فهل كان اسم (تشان هوا) الصيني، في ذهن (تشاو إرفنغ)، يعني أن هذه «الكتلة الحديدية» التي كانت صلبة للغاية في نظر بلاط (تشينغ) لأكثر من مائتي عام قد ذابت أخيراً؟

لطالما أردت أن أعرف كيف كان يبدو (تشاو إرفنغ)، لكن النصوص الباقية نادراً ما تحتوي على وصف مباشر لشكله. في البداية، رأيت مادة تقول إنه بعد أن قمع تمرد (باتانغ)، هاجم دير (سانغ بي) في مدينة (شيانغ تشنغ)، واستمرت المعركة لمدة نصف عام، وفي ذروة الأزمة، تحول شعر (تشاو إرفنغ) الأبيض جزئياً إلى اللون الأبيض بالكامل في ليلة واحدة. وبعد ذلك، تذكرت وصفاً لـ(تشاو إرفنغ) في كتاب (تشن تشو تشن) «أحلام غبار الحياة البرية» الذي قرأته قبل بضع سنوات. وعندما أخرجت الكتاب، وجدت بالفعل هذه الفقرة: «في ذلك اليوم، تبعتُ الفريق للخروج لاستقباله، وانتظرنا طويلاً، ثم رأينا جيشاً كبيراً يندفع بسرعة من الجبل المقابل. أشار أحدهم إلى آخر حصان يركبه رجل يرتدي سترة النصر وتنورة قتال أرجوانية، وقال: هذا هو (تشاو إرفنغ). بعد أن عبر الجسر، أدى الجيش كله التحية، واندفع (إرفنغ) مسرعاً دون أن يلتفت. وعند التدقيق في مظهره، بدا مختلفاً تماماً عما كان عليه في (تشنغدو). فقد كان (إرفنغ)، عندما كان يشغل منصب حاكم (سيتشوان)، شعره ولحيته مختلطين باللون الأبيض، وكان يبدو في الخمسينات من عمره تقريباً، أما الآن، فقد غطى الثلج رأسه بالكامل، وأصبح شعره ولحيته أبيضين تماماً. وقد انتظر الضباط والجنود طويلاً، وكانت الرياح باردة جداً، لدرجة أنهم كانوا يرتجفون ولا يستطيعون الصمود، بينما كان (إرفنغ)، وهو في السبعين من عمره، يرتدي زيه العسكري ويجلس على حصانه، وتكشف الرياح الباردة عضلاته، دون أن يبدو عليه أي شعور بالانكماش أو الارتعاش.»

وُلد (تشاو إرفنغ) عام 1846. عندما قابله (تشن تشو تشن) في (تشا مو دوه)، كان ذلك عام 1909، أي أن (تشاو إرفنغ) كان في الستينيات من عمره، وكان لا يزال يركب الخيل لمسافات طويلة بهذه البراعة والنشاط، وتلك الصورة تبرز بوضوح على الورق. كان (تشاو إرفنغ) يتقدم بسرعة بخيوله الخفيفة نحو (تشان دوي) لاستعادتها، ولابد أن هذا هو شكله. يذكر (تشن تشو تشن) في نفس المقال أن جيش الحدود الذي قاده (تشاو إرفنغ)، «على الرغم من كونه جيشاً قديماً، إلا أنه ظل يقاتل مع (إرفنغ) في المناطق الحدودية لفترة طويلة جداً، وكان شجاعاً وبارعاً في القتال، وكانت لياقة جنوده وضباطه قوية جداً، وكانوا يسيرون مائة وعشرين لي (60 كيلو متر) يومياً بشكل اعتيادي".

في طريق عودته إلى (تشنغدو) لتولي منصبه، ألغى (تشاو إرفنغ) أيضاً منصب شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الذي كان موالياً لبلاط (تشينغ) دائماً.

خلال عهد سلالة (تشينغ)، في عهدي الإمبراطورين (كانغ شي) و(يونغ تشنغ)، أُنشئت العديد من مناصب شيوخ القبائل في مناطق حدود (سيتشوان)، ووُضعت هذه المناطق تحت سلطة (سيتشوان). ومنذ عهد الإمبراطور (يونغ تشنغ)، كانت الحروب والصراعات تحدث بين شيوخ القبائل من أجل توسيع نفوذهم وعدد سكان قراهم. وكان من بين المحرضين على هذه الصراعات شيخ قبيلة (تشان دوي). في عهد الإمبراطور (تشيان لونغ)، شُنّت حملة عسكرية على منطقة (تشان دوي)، وتبعها مرتان من التدخل العسكري في (جنتشوان) الصغرى والكبرى. ومنذ ذلك الحين، أصبحت مسألة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، سواءً تم تنفيذها أم لا، قضية كبيرة ومعقدة في سياسة سلالة (تشينغ) لإدارة المناطق التبتية. ولم تستقر الأوضاع إلا بعد ما يقرب من مائتي عام، بقيادة (تشاو) الذي نفذ إصلاحات جذرية، وفقط في غضون بضع سنوات، تحولت معظم شيوخ القبائل في مناطق حدود (سيتشوان) إلى نظام حكم مدني.

في 2 أغسطس 1911، عاد (تشاو إرفنغ) إلى (تشنغدو). في ذلك الوقت، كانت حركة حماية السكك الحديدية في (سيتشوان)، التي كانت مقدمة لثورة (شينهاي)، مشتعلة، وبدأ الوضع يخرج عن السيطرة تدريجياً. وبعد فترة وجيزة، انطلقت رصاصة في (ووتشانغ)، واندلعت ثورة (شينهاي)، وأعلنت المقاطعات استقلالها تباعاً. في 22 نوفمبر، وقع (تشاو إرفنغ) و(بو ديان جون)، رئيس مجلس استشاري (سيتشوان) وأحد قادة حركة حماية السكك الحديدية، «معاهدة استقلال (سيتشوان)». وبموجب هذه المعاهدة، عهد (تشاو إرفنغ) بالشؤون المدنية إلى رئيس المجلس الاستشاري (بو ديان جون)، والشؤون العسكرية إلى قائد القوات (تشو تشينغ لان). أما هو شخصياً، فقد استعد للعودة إلى منصبه كوزير لشؤون حدود (سيتشوان) و(يون نان) على رأس قواته.

أنشأت (سيتشوان) على الفور «حكومة هان العسكرية الكبرى في (سيتشوان)»، مع (بو ديان جون) حاكمًا و(تشو تشينغ لان) نائبًا للحاكم.

في الساعة التاسعة صباحاً من يوم 8 ديسمبر 1911، أجرت الحكومة العسكرية استعراضاً عسكرياً خارج ساحة العرض الشرقية في (تشنغدو). وفي منتصف الاستعراض، اندلعت ثورة عسكرية، وفرّ الحاكم (بو ديان جون) ونائب الحاكم (تشو تشينغ لان) من منصة العرض مذعورين. اندفعت القوات المتمردة من ساحة العرض، ونهبوا كل شيء في مدينة (تشنغدو)، «فجأة، انتشر اللصوص في كل مكان، وأصبح كل شيء يثير الشكوك. وتكررت عمليات النهب مراراً وتكراراً، حتى أن البعض تعرض للنهب خمس أو ست مرات». ويقال إن هذه المأساة لم يسبق لها مثيل منذ مذبحة (تشانغ شيان تشونغ) في (سيتشوان)، وأن «مدينة (تشنغدو) الجميلة تحولت إلى عالم همجي».

[redacted].indd 340-341 2025-11-27 10:56:17

في خضم الفوضى، استُدعي (تشاو إرفنغ) مرة أخرى، وأصدر إعلاناً باسم «الوالي السابق لـ (سيتشوان)» للحفاظ على النظام.

في 21 ديسمبر 1911، قام الحاكم الجديد لـ (سيتشوان)، (ين تشانغ هنغ)، بتدبير عملية للقبض على (تشاو إرفنغ)، وتم قطع رأسه أمام مقر الحاكم. في ذلك الوقت، كانت التصوير الفوتوغرافي قد اخترع منذ سنوات عديدة، ودخل الصين. لذلك، بقيت صورة لـ(تشاو إرفنغ) قبل إعدامه. تُظهر الصورة رجلاً نحيفاً، شعره ولحيته أبيضان تماماً، يُمسك به لإجباره على الركوع. كانت هذه هي اللحظة التي سبقت اختفاء حياته من هذا العالم. الصورة غير واضحة، لكن يمكن رؤية أن تعابير وجهه لم تكن تدل على الخوف، بل على اليأس والوحشة. هل كان ذلك من أجل نفسه، أم من أجل الوطن؟ ربما كان من أجل الاثنين معاً.

عند قراءة تاريخ أواخر عهد سلالة (تشينغ)، لا يقتصر الأمر على شخصيات مثل (تشاو إرفنغ)، بل أنا كقارئ، غالباً ما أشعر بهذا الشعور بالوحشة الذي يتخلل جسدي وروحي.

لقد أزالت القراءة الدقيقة للسجلات التاريخية لأواخر عهد سلالة (تشينغ) الانطباعات الخاطئة التي ترسخت في ذهني من قراءة الكتب الثانوية.

أحد هذه الانطباعات كان أن إصلاحات بلاط (تشينغ) في ذلك الوقت كانت إصلاحات زائفة، مجرد تظاهر. لكن بالنظر إلى هؤلاء الأشخاص المرتبطين بحكم التبت في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، مثل (تشاو إرفنغ)، و(تشانغ ين تانغ)، و(ليان يو)، فقد كانوا يهدفون إلى إصلاحات حقيقية، وخلال بضع سنوات قصيرة، وفي أضعف فترات قوة سلالة (تشينغ)، قاموا بالفعل بالعديد من الأشياء عملياً. لقد قاموا بأشياء كانت سلالة (يونغ تشنغ) تريد أن تفعلها ولم تفعلها. في أضعف فترة من قوة البلاد، قاموا بأشياء لم تُنجز في أقوى فترات البلاد.

لكن هذه الإصلاحات جاءت متأخرة جداً.

بالنظر إلى التاريخ الصيني، فإن الإصلاحات المفيدة للمصالح الوطنية ومعيشة الناس غالباً ما لا تُنفذ عندما يكون تنفيذها سهلاً. والسبب في ذلك هو التباطؤ البيروقراطي ومعارضة مجموعات المصالح. وفي النهاية، عندما يصبح التغيير حتمياً، يكون الأوان قد فات. فينهار الصرح الكبير.

بلغت مسيرة شخصيات مثل (تشاو إرفنغ) أوجها، لكنها تلاشت بمجرد انهيار سلالة (تشينغ). وشهدت منطقة التبت الحدودية في (سيتشوان) اضطرابات أكبر خلال فترة جمهورية الصين اللاحقة، وتدهورت العلاقة بين الحكومة المركزية والتبت مراراً وتكراراً. وتصاعدت التناقضات بينهما تدريجياً لتصبح صراعات قومية ووطنية - على الأقل هكذا صُورت من قبل بعض الأطراف في حكومة (كاشاغ).

الأمر الأكثر إثارة للأسف هو الإصلاح السياسي في التبت.

كانت رؤية (تشانغ ين تانغ) لإصلاح سياسة ومجتمع التبت ممتازة في الأساس. وقد تعامل مع العلاقة مع حكومة (كاشاغ) بدقة كبيرة. وعلى الرغم من أن العديد من مبادراته لم تُنفذ بالكامل، إلا أن أفكاره وموقفه لقيا ترحيباً من النبلاء التبتيين، سواء من رجال الدين أو العامة، أو على الأقل لم تثير مقاومة شديدة منهم. ومع ذلك، سرعان ما غادر منصبه. ثم تولى الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ليان يو) مسؤولية مواصلة إصلاحات التبت، فمن جهة، ورث أفكار (تشانغ) الإصلاحية، ومن جهة أخرى، تبنى موقفاً متعالياً بصفته مسؤولاً إمبراطورياً، وكثيراً ما أظهر شعوراً بالتفوق الثقافي، مما أدى إلى توتر العلاقات مع الجانب التبتي بشكل متزايد. وكان من المفترض أن تكون الإجراءات التي تهدف إلى تقوية البلاد والجيش - بما في ذلك الإصلاحات التي تعزز قدرات حكومة (كاشاغ) والجيش - مقاومة من الجانب التبتي. وفي النهاية، أدى ذلك إلى عداوة مطلقة وانقطاع الاتصال مع الدالاي لاما الثالث عشر، الزعيم الأعلى للحكم الديني والسياسي في التبت. وبعد دخول جيش (سيتشوان) إلى التبت، وبسبب ضعف الانضباط العسكري والفساد، والتباهي بالقوة، غادر الدالاي لاما لاسا للمرة الثانية، وتحول من مقاوم شرس للبريطانيين قبل سنوات قليلة إلى الانخراط في أحضانهم.

يجب القول إن هذا الدرس عميق جداً، ولم يُلخص بشكل جيد حتى يومنا هذا.

يتمثل هذا الدرس في أن السياسات المتعلقة بحكم التبت، على الرغم من دوافعها الحسنة وأفكارها الجيدة، واجهت مشاكل متنوعة أثناء التنفيذ. وعلى الرغم من أن القومية والمحلية الضيقة تشكل عائقاً كبيراً، إلا أن الطرف المهيمن يتمتع بميزة كبيرة بطبيعة الحال. وبالتالي، فإن أسلوب وطريقة عمل منفذي هذه السياسات يصبح إلى حد كبير العامل الحاسم الذي يحدد نجاح الأمور أو فشلها، وجودة النتائج أو رداءتها.

بالطبع، الأمر الأكثر إثارة للأسف هو ما حدث في التبت. تحت وطأة موجة التغيير الهائلة التي اجتاحت العالم، ظل هذا المجتمع الذي ظل منغلقًا لآلاف السنين دون وعي أو تحرك، ومستمرًا في محاولة الحفاظ على حكمه بالطرق القديمة، والتعامل مع مختلف الأحداث المحيطة بنفس الأساليب البالية.

تُعد قضية تبعية منطقة (تشان دوي) مثالًا واضحًا على ذلك.

بعد أن استخدم حاكم (سيتشوان) (لو تشوان لين) القوة العسكرية في (تشان دوي)، دعا إلى ضمها لـ (سيتشوان). لم تكن خطة (لو) لاستعادة (تشان دوي) تتضمن تعيين زعماء قبليين جدد، بل تهدف إلى تغيير الهيكل الاجتماعي والسياسي من خلال « تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». كان الهدف النهائي هو إنشاء نظام إداري فعال، وتطوير التعليم، وزيادة الإنتاجية، لمنع التدخل البريطاني في مناطق التبت الضعيفة والفقيرة. على الرغم من أن هذه الخطة باءت بالفشل في النهاية بسبب معارضة كبار مسؤولي بلاط (تشينغ) الذين يفتقرون إلى الطموح، مثل (قونغ شو) و(ون هاي)، إلا أنه لو كانت حكومة (كاشاغ) قد أبدت أدنى حساسية لتيار العصر العظيم، لكانت هذه التغييرات قد أثارتها بما يكفي. لكن بالنظر إلى رد فعل واستجابة حكومة (كاشاغ)، فقد ظلت طرق تعاملهم كما هي من قبل، والمعلومات الجديدة التي كشفت عنها هذه الأحداث تم تجاهلها تمامًا.

في نوفمبر من العام الثالث والعشرين من حكم الإمبراطور (قوانغ شو)، قام بلاط (تشينغ) بإعفاء (لو تشوان لين) الذي دعا إلى استعادة (تشان دوي) من منصبه، وقرر «أن منطقة (تشان دوي) تُعاد لإدارة الدالاي لاما، ولا حاجة لتغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين «. وفي مارس من العام التالي، قدم الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت (ون هاي) مذكرة نيابة عن الدالاي لاما، يشكر فيها الإمبراطور على إعادة (تشان دوي). جاء في المذكرة: «...بفضل حكمة الإمبراطور العظيم، تم إعفاء الحاكم العام (لو تشوان لين)، ولم تتغير البنود الثلاثة المتعلقة بالأراضي التجارية والأراضي ونظام السخرة، وتمت إعادتها كما كانت». إعادة التبعية أمر، والأهم هو أن البنود الثلاثة: الأرض، الأراضي الزراعية، ونظام السخرة لم تتغير. الأرض تعني النفوذ الإقليمي، ومع النفوذ يأتي البندان الآخران: الأراضي الزراعية والناس. الأراضي الزراعية تعني وجود حقول للزراعة، ومعها يأتي الغذاء والضرائب المحدودة. الناس يعني وجود من يؤدي السخرة. السخرة هي مختلف أنواع العمل الإجباري. في ذلك الهيكل الاجتماعي، كان على الشعب كله واجب خدمة الحكام. فكانوا يساعدون في زراعة الأراضي، ورعي الماشية، وبناء التحصينات العظيمة، وإيصال الرسائل، بل والأهم من ذلك، كانوا ملزمين بالمشاركة في الخدمة العسكرية ومساعدة الحكام في الحروب. كانت البنود الثلاثة: الأرض، والأراضي الزراعية، والسخرة، قد وصلت بالفعل إلى أقصى حد يمكن أن تتحمله الأرض والشعب. وبدون هيكل اجتماعي جديد، وطرق إنتاج وتنظيم جديدة، فليس فقط لن يكون هناك أي تقدم اجتماعي، بل حتى مجرد تراكم الثروة سيصبح مستحيلاً.

لم يتضمن خطاب الشكر الذي قدمه (ون هاي) نيابة عن الدالاي لاما أي محتوى جديد يشير إلى محاولة التغيير أو النهوض، بل اكتفى بالقول: «عندما سمع الجميع المرسوم الإمبراطوري، لم يسعهم إلا الفرح والابتهاج. لقد قام الدالاي لاما وحماة القانون... والمسؤولون الرهبان والعلمانيون، بتقديم القرابين أمام بوذا شاكياموني في جبل بوتالا، وأحرقوا البخور متطلعين إلى البلاط الإمبراطوري، وركعوا ثلاث مرات وسجدوا تسع مرات، شاكرين النعمة الإلهية."

في ذلك الوقت، كان المرسوم الإمبراطوري يتضمن طلباً آخر: «أمر (ون هاي) بالاتفاق مع الدالاي لاما على تدابير ما بعد الحادثة.» لكن الخطاب لم يُجب، والشيء الوحيد الذي ذكره الخطاب هو الهدايا، حيث قال: «الآن أعددنا وشاح (خادا) لشكر النعمة الإلهية وتمثال بوذا، وقلادة من خرز المرجان»، وهذا الوشاح (خادا)، وتمثال بوذا، وخرز المرجان كانت هدايا الدالاي لاما. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك وشاح (خادا) ومرآة حماية للقلب قُدمت باسم حماة القانون.

بالطبع، لم يكن بلاط (تشينغ) راضياً عن مثل هذا الخطاب. بغض النظر عن أي شيء آخر، كان يجب على الأقل ضمان عدم قيام المسؤولين التبتيين، بعد عودتهم إلى (تشان دوي)، «بالانتقام والشكوى، وزيادة القسوة والاضطهاد». وبعد مفاوضات عديدة بين (ون هاي) وآخرين وحكومة (كاشاغ)، وبعد شهرين، «قدموا وثيقة اتفاق من خمسة بنود، كانت الترجمة فيها غير واضحة»، لكن المعنى كان بسيطاً جداً في الواقع، «الفكرة الأساسية هي تقييد المسؤولين التبتيين، وعدم السماح لهم بالاعتداء أو القسوة، وهذا يعتبر امتثالاً للأوامر الإمبراطورية». وهذا يعني أنك طلبت مني تقديم الضمان بهذه الطريقة، ولم أستطع رفض طلبك، لذا قمت بتقديم الضمان بناءً على رغبتك.

.indd 344-345 2025-11-27 10:56:18

الفصل التاسع

بعد تأسيس محافظة (تشان دوي)، كان الإجراء الأول هو تغيير اسمها إلى محافظة (هواي رو). وهذا الاسم في الحقيقة لا يتناسب مع الواقع. ففي عهد سلالة (تشينغ)، شُنّت حملات عسكرية قوية على (تشان دوي) عدة مرات، ولكن بعد الحروب، لم تُتخذ أي إجراءات إصلاحية حقيقية مفيدة لمعيشة الشعب. بعد إنشاء المحافظة، اكتشفوا أن هناك بالفعل محافظة (هواي رو) أخرى في مقاطعة (خه بي)، ولتجنب مشكلة تكرار الاسم، غُيّر اسم المحافظة إلى (تشان هوا).

«تشان» هي حرف من الاسم القديم للمكان، أما «هوا» فهي كلمة صينية بحتة وتعني «التحول». وعند جمعهما، يصبح المعنى واضحاً تماماً. لكن كيفية تحقيق معنى «هوا» هي قصة معقدة وطويلة وذات تفاصيل عديدة.

.indd 346-347 2025-11-27 10:56:18

قدوم جمهورية الصين

لقد وصلت جمهورية الصين!

يبدو أن قصة «(تشان دوي)» قد حان وقت نهايتها.

لقد استُعيدت «(تشان دوي)» أخيراً.

لقد انتصرت ثورة (شينهاي).

لكن مهلاً، كان الهدف الأساسي للثورة، وفقاً لمبادئ السيد (سون تشونغ شان) الثلاثة للشعب، هو القومية وحقوق الشعب ومعيشة الشعب. أما الشعار الأكثر إثارة للحماس والأعلى صوتاً في ذلك الوقت فربما كان «طرد التتارواستعادة الصين». إذا اعتبرنا سقوط حكومة (تشينغ) علامة على النصر، فإن الثورة قد انتصرت. أما إذا استخدمنا معايير أخرى، فيمكننا استخدام كلمات (سون تشونغ شان) اللاحقة: «الثورة لم تنجح بعد». لأن نتيجة الثورة بالتأكيد لا ينبغي أن تكون فترة أمراء الحرب والحروب الأهلية المتكررة التي نتجت عنها.

علاوة على ذلك، فإن الثورة التي ترفع راية القومية ستثير حتماً قومية الأعراق الأخرى في الدولة متعددة الأعراق. لذلك، في دولة داخلية، وخاصة دولة تتكون من عدة أعراق، عندما لا يكون هناك وعي وطني فعال يوحد جميع هذه الأعراق، فإن سلاح القومية يجب استخدامه بحذر. السبب واضح جداً، وبالنظر إلى الواقع الصيني اليوم، يمكننا أن نرى أننا، قبل أن نفهم بوضوح ما تعنيه القومية لهذه الأمة، استخدمنا هذا السلاح لمواجهة التحديات الخارجية، لكننا أغفلنا أنه سيوقظ في الوقت نفسه القومية داخل البلاد، مما يضعف الوعي الوطني المشترك، ويولد اضطرابات وقلاقل داخل المجتمع. وقد بدأت هذه العملية بالفعل في السنوات الأولى من جمهورية الصين.

بالنسبة للمناطق التبتية الحدودية في (سيتشوان)، ومع سقوط سلالة (تشينغ)، انتهت أيضًا السياسات الجديدة التي اتبعها (تشاو إرفنغ) وغيره، وذهبت الإصلاحات الاجتماعية التي بدأت للتو تظهر آثارها أدراج الرياح. قبل أن يعود (تشاو إرفنغ) إلى منصبه كحاكم عام لـ(سيتشوان)، أوصى بمساعده الموثوق به (فو هوا فنغ) ليخلفه كوزير لشؤون الحدود في (سيتشوان) و(يون نان). في عام 1911، اندلعت ثورة (شينهاي)، وأرسل (تشاو إرفنغ) برقية سرية إلى (فو هوا فنغ) يطلب منه قيادة ثلاث كتائب من جيش الحدود لنجدة (تشنغدو). وصل (فو) بقواته إلى (ياتشو)، لكنه هُزم على يد قوات (بنغ قوانغ ليه) التابعة للجيش الجديد، وأُسر (فو) وأُرسل إلى (تشنغدو) للتحقيق. حاولت السلطات إقناعه بالاستسلام، لكن (فو هوا فنغ) رفض. خلال فترة اعتقاله، ألف كتاب «سجلات تأسيس مقاطعة شيكانغ»، الذي يصف بالتفصيل عملية تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق (كانغ) في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، ويتناول حقائق تاريخية مفصلة عن السياسة والاقتصاد والعسكرية والثقافة والدين والعادات والتقاليد الشعبية. أما جيش الحدود الذي بقي في المناطق التبتية على ضفتي نهر (جينشا)، فقد أعلن أيضًا دعمه للثورة، وعين (قوتشان ون) كحاكم عسكري مؤقت، وتمركز في (باتانغ). وقُسم جيش الحدود إلى ثلاثة ألوية، تتمركز في (تشا مو دوه)، و(ده قه)، و(جيانغ كا). وتحول الوضع الهجومي إلى وضع دفاعي، حيث تمركزت كل قوة في منطقتها، ولم تعد مهمتها دعم التبت أو الدفاع ضد مؤامرات بريطانيا في التبت، بل أصبحت تتمثل في الدفاع ضد هجمات الجيش التبتي.

بعد ذلك، اندلعت الاضطرابات أولاً في (شيانغ تشنغ)، وهي المنطقة التي أخمدها (تشاو إرفنغ) عسكريًا قبل بضع سنوات. وبعد أن سيطرت القوات المحلية على (شيانغ تشنغ)، احتلت أيضًا (لي تانغ) ومناطق أخرى. تجمع شيخ قبيلة (مينغ تشنغ) الذي أُطيح به قبل أقل من عام، بقواته في ممر (خه كو) على طريق (سيتشوان)-التبت، وهي اليوم محافظة (ياجيانغ) بين (كانغ دينغ) و(لي تانغ). واحتجز رهبان دير (لينغ تشي) في (داوفو) أعضاء اللجنة الإدارية، وغرقت منطقة (كانغ) بأكملها في فوضى عارمة. واستغل شيوخ القبائل الذين أطاح بهم (تشاو إرفنغ) مؤخرًا الحروب الأهلية المتكررة بين أمراء الحرب في السنوات الأولى لجمهورية الصين، وطردوا المسؤولين الصينيين، واستعادوا سيطرتهم على مناطقهم الأصلية وسكانها. كما سقطت أكثر من عشر محافظات أنشأها (تشاو إرفنغ) شرق نهر (جينشا) بما في ذلك محافظة (بومي)، واحدة تلو الأخرى في يد الجيش التبتي.

كان هذا هو العام الأول لجمهورية الصين في مناطق حدود (سيتشوان).

في يونيو 1912، تلقى (ين تشانغ هنغ) موافقة بالبرقية من الحكومة المركزية لتعيين شخص آخر حاكمًا عامًا لـ(سيتشوان)، وطلب أربعمائة ألف تايل من الفضة من الحكومة المركزية كدعم مالي للجيش. وتولى بنفسه قيادة الحملة الغربية، وقاد جيشًا كبيرًا غربًا. وبدعم من جيش الحدود المتمركز سابقًا في المناطق التبتية، سرعان ما استعاد معظم الأراضي المفقودة، ووصل بقواته إلى (تشا مو دوه). كما أرسل حاكم (يون نان) (تساي أه) قوات، واستعاد مناطق مثل (يان جينغ). وكانت هذه في الواقع مجرد الخطوة الأولى في حملة جيش (ين تشانغ هنغ) غرباً، فهدفه الحقيقي كان لاسا. كما كان جيش (يون نان) بقيادة (تساي أه) على استعداد للتحالف معه ومواصلة التقدم غربًا.

ما كان الوضع في التبت في هذا الوقت؟

في فبراير 1912، أعلن إمبراطور سلالة (تشينغ) تنازله عن العرش، وبعد ثلاثة أيام، تولى (يوان شي كاي) منصب رئيس جمهورية الصين. في أبريل، استسلمت قوات تشينغ المتمركزة في لاسا للجيش التبتي، وطُرد جميع مسؤولي تشينغ المقيمين في التبت بالكامل من البلاد. وفي مايو، عاد الدالاي لاما الثالث عشر إلى لاسا بعد ثلاث سنوات من المنفى في الهند. وبعد فترة وجيزة، تلقى الدالاي لاما برقية من الرئيس (يوان شي كاي)، الذي تولى السلطة بعد تغيير النظام، تعيد إليه لقب الدالاي لاما الذي جُرّد منه للمرة الثانية من قبل «سلالة (تشينغ) السابقة".

جاء في برقية (يوان شي كاي): «لقد تأسست جمهورية الصين الآن بقوة، والأعراق الخمسة متحدة كعائلة واحدة، والدالاي لاما متأثر بشكل طبيعي بمشاعر الانتماء العميق للوطن. في ظل هذه الظروف، يجب مسامحة أخطائه السابقة، ولذلك يُعاد إليه لقبه ‹بودا العظيم الصالح والحر› الذي يعزز الصدق في السماء الغربية، على أمل أن يدعم تعاليم البوذية الصفراء ويساعد جمهورية الصين."

كما اعتذر (يوان شي كاي) في برقيته عن تصرفات قوات تشينغ التي أحدثت فوضى في لاسا بعد ثورة (شينهاي).

لكن الدالاي لاما لم يبدِ أي امتنان لذلك، وقال إنه لن يطلب من الحكومة الصينية استعادة منصبه ولقبه الأصليين، بل «يأمل فقط في ممارسة سلطته السياسية والدينية في التبت». بعد ذلك، أصدر الدالاي لاما بياناً في التبت، وكما ذكر ماي غولدشتاين في مؤلفه الضخم «سقوط مملكة اللاما»، كان هذا «إعلاناً من جانب واحد يعيد تأكيد سيطرته على التبت بأكملها".

تضمن هذا البيان العبارة التالية: «قبل سنوات قليلة، سعى المسؤولون الصينيون في (سيتشوان) و(يون نان) جاهدين إلى استعمار أراضينا. وبذريعة الدفاع عن الموانئ التجارية، أرسلوا أعداداً كبيرة من القوات إلى (وي تسانغ) (وسط التبت).. وفي هذا الوقت، انهارت إمبراطورية (تشينغ) أيضاً. وقد تشجع التبتيون ونهضوا لطرد الصينيين من منطقة (وي تسانغ)، وعُدتُ أنا بأمان إلى بلدي العادل والمقدس، وأنا الآن بصدد طرد بقية القوات الصينية من (دوكانغ) الواقعة شرق التبت."

.indd 350-351 2025-11-27 10:56:18

لكن في هذا الوقت، كان جيش (ين تشانغ هنغ) يتقدم غربًا، ولم يكن بوسعه فقط عدم طرد «القوات المتبقية في (دوكانغ) في شرق التبت»، بل ستصبح لاسا هدفًا لتقدمهم.

يقول السيد (رن ناي تشيانغ) في كتابه «الخطوط العريضة لتاريخ وجغرافية (كانغ) والتبت»: «سمع الدالاي لاما بتقدم جيشَي (سيتشوان) و(يون نان) غربًا، فخاف، وطلب المساعدة من المبعوث البريطاني. استغلت بريطانيا ذريعة حماية التجارة، وأرسلت قواتها لتتمركز في (جيانغ تسي)، وذلك لدعم التبت."

نتذكر أنه في عهد الإمبراطور (شوانتونغ)، عندما تقدم جيش (سيتشوان) إلى التبت، كان السبب المعلن هو حماية الموانئ التجارية مثل (جيانغ تسي)، وكان ذلك أيضاً «لدعم التبت». أما الآن، فقد تحول الوضع، وأصبح الجيش البريطاني يتمركز هناك لحماية التبت. في هذا الوقت، ظهرت العواقب الوخيمة لتعيين بلاط (تشينغ) مسؤولين فاقدي البصيرة مثل (يو تاي) لمنع التبت من مقاومة البريطانيين، وذلك عندما كانت التبت تقاوم البريطانيين بشدة قبل أكثر من عشر سنوات. في الوقت نفسه، رهنت حكومة (كاشاغ) مناجم الملح للحصول على قرض بريطاني بقيمة أربعين ألف جنيه إسترليني لتمويل نفقاتها العسكرية. وقدم المبعوث البريطاني إلى الصين، جورديان، طلبًا إلى وزارة خارجية جمهورية الصين ينص على «عدم تدخل الصين في الشؤون الداخلية للتبت»، وهدد بعدم الاعتراف بحكومة جمهورية الصين. ولذلك، أمرت الحكومة المركزية لجمهورية الصين (ين تشانغ هنغ) بوقف حملته الغربية. وحُلت قيادة جيش الحملة الغربية، واستُبدلت بمكتب حاكم حدود (سيتشوان)، وتولى (ين تشانغ هنغ) منصب حاكم حدود (سيتشوان).

لم يمكث (ين تشانغ هنغ) في هذا المنصب طويلاً، فقد أُعفي من منصبه في خريف العام الثاني من جمهورية الصين (1913).

مؤتمر سيملا وتأثيره المستمر حتى اليوم

في العام الثاني من جمهورية الصين (1913)، افتُتح مؤتمر سيملا، وهذه المرة لعب البريطانيون الدور الرئيسي. في الواقع، كان التفاوض بين طرفين: حكومة جمهورية الصين من جهة، والبريطانيون وحكومة (كاشاغ) التبتية من جهة أخرى. كان أكبر تنازل قدمته حكومة جمهورية الصين هو اعتراف الصين باستقلال التبت الذاتي. لكن الجانبين البريطاني والتبتي اعتبرا هذا أمرًا واقعًا لا داعي لمناقشته، وركزا المفاوضات على قضية الحدود. لم تكن قضية الحدود تركز على الحدود بين المستعمرة البريطانية الهند والتبت، بل على تحديد ما يسمى الحدود الصينية التبتية. يقول ماي غولدشتاين في كتابه «سقوط مملكة اللاما»: «قدمت التبت في البداية وثيقة تضع حداً غير مقبول للغاية في الجوانب السياسية والإقليمية، ولم تطلب فقط إعادة توحيد جميع المتحدثين باللغة التبتية (بما في ذلك أمادو وجميع التبتيين في منطقة (كانغ) وصولاً إلى (دا جيان لو)) تحت إدارة الدالاي لاما، بل طالبت أيضاً بوضع سياسي مستقل، وحظر دخول المسؤولين الصينيين إلى التبت."

تجدر الإشارة إلى أن كلمة «إعادة» غير صحيحة، لأنه لم يحدث في التاريخ قط أن «توحد جميع المتحدثين باللغة التبتية» تحت إدارة الدالاي لاما.

في «تجميع الوثائق التاريخية عن العلاقات بين منطقة التبت والحكومة المركزية منذ عهد يوان» رقم 2459 «سير المفاوضات التبتية»، توجد مسودة معاهدة من ستة بنود قدمتها حكومة (كاشاغ) في مؤتمر سيملا: «في اليوم الثالث عشر من الشهر العاشر، العام الثاني من جمهورية الصين، بدأت المفاوضات التبتية، وطالب الجانب التبتي بستة بنود: (1) استقلال التبت؛ (2) أن تشمل أراضي التبت مناطق (تشينغ هاي)، و(ليتانغ)، و(باتانغ)، بالإضافة إلى (دا جيان لو)؛ (3) أن تُعدل قوانين التجارة الهندية التبتية لعامي (قوانغشو) التاسع عشر والرابع والثلاثين من قبل البريطانيين والتبتيين، دون تدخل صيني؛ (4) عدم إرسال الصين مسؤولين إلى التبت؛ (5) أن يعترف الدالاي لاما كزعيم ديني لجميع المعابد في الصين ومنغوليا، وأن يعين الدالاي لاما رؤساءها.»

بعبارة أخرى، فقد طُرحت دعوى «استقلال التبت» بوضوح في السنوات الأولى لجمهورية الصين. والأكثر من ذلك، لم تكن هذه التبت هي التبت التي تخضع لإدارة (كاشاغ) فحسب، بل كانت تشمل جميع المناطق الثقافية التبتية، ما يُعرف اليوم بـ«التبت الكبرى".

البند السادس، أي الأخير، من مشروع المعاهدة الذي اقترحته (كاشاغ)، كان يتعلق بـ«(تشان دوي)»: «على الحكومة الصينية أن تعوض بسرعة الأموال التي استولت عليها من حكومة التبت والضرائب التي ابتزتها بالقوة من (تشان دوي)."

هنا نتحدث عن مبلغين من المال. المبلغ الأول هو «الأموال التي استولت عليها من حكومة التبت»، وهذا أمر حقيقي. فبعد ثورة (شينهاي)، قام جيش (سيتشوان)، الذي وصل إلى التبت قبل وقت قصير، بقتل قائده باسم الثورة. ثم سيطرت عصابة «جيه لاو هوي» داخل الجيش على القيادة، وقاموا بحرق ونهب وقتل في لاسا. أولاً، سرقوا مائة وثمانون ألف تايل من الفضة من خزينة مكتب الوزير الإمبراطوري المقيم في التبت، ثم ابتزوا ثمانون ألف تايل من الفضة من حكومة (كاشاغ)، مدعين أنها تكاليف عودتهم إلى (سيتشوان). لكن بعد حصولهم على هذين المبلغين الضخمين، لم يعودوا إلى (سيتشوان)، بل استمروا في إثارة الفوضى في لاسا، مما أثار غضب الرهبان والمدنيين التبتيين، فانتفضوا وقاوموا. هُزم جيش (سيتشوان) هزيمة نكراء، ونُزعت أسلحتهم بالكامل، وأُرسلوا خارج البلاد. هذا المبلغ له ما يبرره. أما «الضرائب المبتزة بالقوة من (تشان دوي)»، فلا نعرف لماذا طُلبت.

أما الحدود بين (سيتشوان) والتبت التي اقترحتها حكومة جمهورية الصين في مؤتمر سيملا، والتي امتدت غرب نهر (جينشا)، فلم تكن مقبولة بالطبع من الجانب التبتي.

في النهاية، لم تصادق حكومة جمهورية الصين على المعاهدة التي وضعها البريطانيون بعد تلاعبهم بالمفاوضات. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، انشغل البريطانيون بأنفسهم، فتوقفت المفاوضات.

خلال الثلاثين عامًا التالية من جمهورية الصين، لم تنتهِ الحروب الأهلية لسنوات طويلة، ثم جاءت حرب المقاومة ضد اليابان. وبعد انتهاء حرب المقاومة، اندلعت حرب أهلية أوسع نطاقًا. وبما أن الحدود بين (سيتشوان) والتبت لم تُحدد بوضوح في أي معاهدة، فقد اعتمدت على قوة الطرفين، فكانت هناك مفاوضات وقتال، وقتال ومفاوضات، وتغير خط السيطرة الفعلي بين الجانبين عدة مرات. وفي النهاية، استقر خط الجبهة عند نهر (جينشا)، وبقي كذلك حتى اليوم، وهو يشكل الخط الفاصل بين منطقة التبت ذاتية الحكم ومقاطعة (سيتشوان).

في إحدى السنوات، بينما كنت أسافر على طول الطريق الوطني 317 من (قان تسي) إلى (ده قه)، وعندما وصلت إلى ضفة نهر (جينشا)، رأيت بوضوح حرفين كبيرين باللون الأحمر «التبت» على صخرة على ضفة النهر المقابلة. تحت الحرفين، كان النهر يتدفق بقوة، وخلفهما، كانت حقول الشعير الذهبية تنضج على الهضبة النهرية، تلتصق بالجبل وتطل على النهر، كانت هناك قرية هادئة تتكون من بيوت طينية. لا أعرف ما إذا كانت كتابة مثل هذه الحروف الكبيرة طريقة لتحديد الحدود. يجب أن نعلم أن حدود التقسيمات الإدارية ليست ثابتة، ففي عهد سلالة (تشينغ)، كانت تلك المنطقة على الضفة المقابلة تابعة لشيخ قبيلة (ده قه) في (سيتشوان).

□□□□ □□□.indd 354-355 2025-11-27 10:56:18

فوضى الحدود تحت شعار«وحدة الأعراق الخمسة"

في بداية تأسيس جمهورية الصين، ورغم رفع شعار«وحدة الأعراق الخمسة»، إلا أن المجموعات المسلحة المحلية في الداخل كانت تتمتع بقوتها الخاصة وتخوض صراعات لا تتوقف، ولم يكن هناك توحيد للأوامر السياسية والعسكرية. أما المناطق الحدودية التي تقطنها الأقليات العرقية، مثل منغوليا، وشينجيانغ، والتبت، فقد كانت تسعى كل منها إلى حماية نفسها وتحقيق استقلالها. وفي ظل هذه الظروف، شهدت منطقة التبت الحدودية في (سيتشوان) فوضى عارمة. فمن جانب الحكومة، كان هناك جيش الحدود الذي خلفته فترة (تشاو إرفنغ)، بالإضافة إلى جيش (سيتشوان) الذي أُعيد تشكيله بعد تأسيس جمهورية الصين. كما استعاد شيوخ القبائل الذين أُلغيت سلطتهم في أواخر عهد سلالة (تشينغ) سيطرتهم على أراضيهم وسكانها، وكان لكل منهم قواته المسلحة الخاصة.

في العام السادس من جمهورية الصين (1917)، كانت هناك كتيبة من جيش الحدود أسسها (تشاو إر فنغ)، بقيادة (بنغ ري شنغ)، أحد قدامى تشاو. كانت هذه الكتيبة متمركزة في (تشانغدو) على الضفة الغربية لنهر (جينشا)، ومن هناك، كانت تسيطر على مساحة تعادل عدة محافظات اليوم غرب نهر (جينشا). تمركزت إحدى سرايا المدفعية غربًا في (لي وو تشي)، وكانت في حالة مواجهة مع الجيش التبتي. تقع (لي وو تشي) شمال غرب (تشانغدو). يحتوي كتاب «سجلات التبت» الذي كتبه مؤلفون من سلالة (تشينغ) على وصف واضح للمسافة من (تشانغدو) إلى (لي وو تشي): «من (تشانغدو) خمسين لي إلى (إي لوه تسانغ)، ثم ستين لي إلى (شاو دو)، ثم أربعين لي إلى (كانغ بينغ دو)، ثم خمسين لي إلى (لي وو تشي).» إجمالي أربع محطات بمسافة مائتي لي (100 كيلومتر). يجب أن يكون هذا السجل دقيقًا، فقد سرت في هذا الجزء وقمت بقياس المسافة على عداد السيارة خصيصًا، وقد أظهرت المسافة من مدينة (لي وو تشي) إلى (تشانغدو) مائة وخمسة كيلومترات. اليوم، تُعرف (تشا مو دوه) اليوم باسم (تشانغدو)، وهي عاصمة منطقة (تشانغدو) في منطقة التبت ذاتية الحكم، وأصبحت (لي وو تشي) محافظة تابعة لـ(تشانغدو). تقع (تشانغدو) على ضفاف نهر (لانسانغ). وعلى بعد مائتي كيلومتر أخرى شرقًا، تقع محافظة (جيانغ دا). كانت محافظة (جيانغ دا) في عهد سلالة (تشينغ) تابعة لشيخ قبيلة (ده قه) في (سيتشوان). وهذا يعني أنه في السنوات الأولى لجمهورية الصين، لم تكن معظم منطقة (تشانغدو) الحالية، شرق نهر (جينشا)، تخضع فعليًا لسيطرة حكومة (كاشاغ).

في عام 1919، عبر جنديان تبتيان الحدود وتم أسرهما من قبل كتيبة جيش الحدود المتمركزة في (لي وو تشي). لم يكن الجنديان يعبران الحدود بقصد الاستفزاز، بل تم أسرهما بطريق الخطأ أثناء جمعهما للعشب لخيولهما. ومع ذلك، بعد إرسالهما إلى (تشانغدو)، أمر القائد (بنغ ري شنغ) بقطع رأسهما. عندما جاء الجيش التبتي للتفاوض لاستعادة الجنود، لم يحصلوا سوى على رأسهما، فغضب الجيش التبتي وشن حربًا ضد جيش الحدود. لم يعد جيش الحدود في ذلك الوقت كما كان في عهد (تشاو إرفنغ)؛ فقد حُرموا من دعم جيش (سيتشوان) الجديد، وكان قادتهم متقدمين في السن وجنودهم مرهقين، وكانوا وحيدين، فتلقوا هزيمة تلو الأخرى. حاصرهم الجيش التبتي في (تشانغدو)، وفي النهاية طلبوا الصلح ووضعوا أسلحتهم. أُرسل (بنغ ري شنغ) إلى لاسا وسُجن. ومنذ ذلك الحين، فقدت جميع المناطق التي عمل (تشاو إرفنغ) على تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في (سيتشوان) شرق نهر (جينشا). واصل الجيش التبتي تقدمه بلا هوادة، وعبر نهر (جينشا) ليواصل الهجوم. واستعادوا تباعًا محافظات (ده قه) و(باي يو) وغيرها التي أنشأها (تشاو إرفنغ)، ثم تقدموا في مسارين، شمالي وجنوبي، نحو (قان تسي) و(باتانغ). حشد جيش (سيتشوان) تسعة كتائب، وقاتلوا بشدة في (قان تسي) لأكثر من أربعين يومًا، حتى تمكنوا من كبح هجوم الجيش التبتي.

بعد ذلك، توسط المستكشف البريطاني (تايكي مان)، الذي كان في المنطقة، وأبرم قائد جيش الحدود (ليو زان تينغ) ومسؤول حكومة (كاشاغ) (جيانغ با دينغ دا) اتفاق هدنة في (قان تسي) (رونغ با تشا). تضمن اتفاق الهدنة ثلاثة عشر بندًا، وكان المحتوى الرئيسي هو إعادة ترسيم خط الحدود بين (سيتشوان) والتبت. أقرت المعاهدة بأن (لي وو تشي)، و(إندا)، و(تشا مو دوه)، و(نينغ جينغ)، و(قونغ جوي)، و(ده قه)، و(باي يو)، و(دنغ كه)، و(شي تشو)، وغيرها من المناطق التي كانت تحت السيطرة الفعلية لجيش الحدود في أواخر عهد سلالة (تشينغ)، أصبحت كلها تحت سيطرة الجيش التبتي.

أما (تشان دوي) في عهد سلالة (تشينغ)، والتي كانت في ذلك الوقت محافظة (تشان هوا) في جمهورية الصين، فقد ظلت ضمن نطاق حكم مقاطعة (سيتشوان) في اتفاق الهدنة هذا، ولكن إذا كان شعب (تشان هوا) «يتمتع بالسلام كالمعتاد، ولا يوجد ما يدعو للقلق بشأن خروجهم وإحداث اضطرابات، فلا ينبغي للمسؤولين الصينيين أن يتمركزوا بقواتهم داخل تلك المحافظة». وهذا يعني أنه في هذا الاتفاق، على الرغم من أن (تشان هوا) كانت تابعة لمقاطعة (سيتشوان)، إلا أنه لم يُسمح بتمركز القوات فيها. وهكذا ظهرت المكانة الخاصة لـ(تشان هوا) في العلاقة بين (سيتشوان) والتبت.

على الرغم من أن هذا الاتفاق لم يحصل على موافقة حكومة جمهورية الصين، وذُكر فيه صراحةً أنه «هذا الاتفاق وشروط وقف إطلاق النار وانسحاب القوات ليست معاهدة سلام رسمية»، إلا أن خط السيطرة الفعلي بين جيشي (سيتشوان) والتبت، الذي حدده الاتفاق، ظل ساري المفعول حتى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي قبل أن يتغير قليلاً. وقد أدى توقيع هذه المعاهدة إلى فقدان اثني عشر محافظة أخرى كانت ضمن المناطق التي طبقت سياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في عهد (تشاو إرفنغ).

لم تتمكن جمهورية الصين، التي قامت على شعار «جمهورية الأعراق الخمسة»، في بداياتها من تحقيق التعايش مع الأعراق الأخرى فحسب. بل بعد طرد حكام المانشو، اندلعت صراعات داخلية فوضوية بين أمراء الحرب في الداخل، مما قلل من الاهتمام بشؤون المناطق الحدودية. في تلك الفترة، عندما كان (بنغ ري شنغ) يقود قواته في (تشا مو دوه) ويواجه قتالًا مريرًا، لم يرسل (تشن شيا لينغ)، قائد حامية الحدود في (سيتشوان)، قوات للمساعدة من (دا جيان لو)، بل على العكس، قام بسحب القوات المتمركزة في منطقة الحدود إلى داخل (سيتشوان) للمشاركة في الحروب الأهلية بين أمراء الحرب. يقول (ليو زان تينغ)، الذي كان يشغل منصب قائد فرقة جيش الحدود في (باتانغ) في ذلك الوقت، في كتابه «ملاحظات موجزة عن المناطق الحدودية والتبت» الذي نُشر عام 1921: «من يوليو 1917 إلى أبريل 1918، دارت معارك عنيفة بين جيش الحدود والتبتيون. خلال هذه الأشهر التسعة، لم يرسل (تشن شيا لينغ) قوات، ولم يقدم إمدادات أو رواتب. مات القائد (ني بانغ)، وأُسر القائد (بنغ)، ودُمرت ثماني أو تسع كتائب من جيش الحدود، وقُتل آلاف الضباط والجنود، وسقطت اثنتا عشرة محافظة، وأُسر مسؤولون محليون على يد العدو، وقُطعت أنوفهم وأُدخلت في آذانهم، وهذا عار على الأمة، وما من ذي نخوة إلا اهتز لذلك. ولو أن (تشن) أرسل في ذلك الوقت كتيبتين أو ثلاث لتعزيز جيش الحدود، لكانت معنويات الجنود في الخطوط الأمامية قد ارتفعت مائة ضعف، ولكان من الممكن استعادة أراضي أكثر من عشر محافظات دفعة واحدة دون صعوبة. لكنه بدلاً من ذلك، احتفظ بثمان كتائب، واكتفى بمشاهدة الوضع في الحدود يتدهور.»

في تلك الفترة، ظهر بعض المسؤولين التبتيين الذين كانت لديهم نية الإصلاح والسعي نحو القوة، وذلك بسبب هزيمتَي حرب المقاومة ضد البريطانيين وثورة (شينهاي). كان أحد الجوانب المهمة هو تحديث الجيش التبتي. تذكر الباحثة التايوانية (فنغ مينغ تشو) في كتابها «المفاوضات الصينية-البريطانية حول التبت والوضع الحدودي بين (سيتشوان) والتبت»، أنه بعد مؤتمر سيملا، توسع الجيش التبتي من ثلاثة ألف واثنان وستون جنديًا بأسلحة متخلفة في الماضي إلى قوة دائمة تزيد عن عشرة ألف جندي مدججين بأسلحة بريطانية الطراز. وتضيف (فنغ مينغ تشو) في كتابها أن بريطانيا افتتحت أيضًا مدرسة لتدريب الضباط في (جيانغ تسي)، حيث عمل القائد البريطاني التابع للجنة التجارية في (جيانغ تسي) كمدرب، وقام بتدريب ضباط الجيش التبتي على أساليب الحرب البريطانية. منذ عام 1914، بدأت حكومة (كاشاغ) بزيادة ضريبة الملح وضريبة الجلود، واستخدمت هاتين الضريبتين الجديدتين لشراء أسلحة بريطانية حديثة. وفي الوقت نفسه، أنشأت مصنعًا للمعدات في التبت لتصنيع الأسلحة والذخائر. ونتيجة لذلك، سرعان ما تطور الجيش التبتي ليصبح قوة شبه حديثة، وازدادت قوته القتالية بشكل كبير.

أدت زيادة حكومة (كاشاغ) التبتية للضرائب بهدف توسيع الجيش وتقويته إلى حدث كبير في التاريخ الحديث، وهو هروب بانشن لاما التاسع إلى المناطق الداخلية عام 1923. يذكر التقويم السنوي للدالاي لاما الثالث عشر باللغة التبتية هذا الحدث على النحو التالي: «اتصل (مو شيا)، مسؤول الدرجة الرابعة من (جيانغ تسي)، بالدالاي لاما ليبلغه أن المعلم بانشن لاما ورفاقه غادروا دير (تاشيلهونبو) فجأة في 15 نوفمبر. تركوا رسالة قبل مغادرتهم. جاء في الرسالة: ‹لقد خالف المسؤولون المرؤوسون رغبة الدالاي لاما، ولم يلتزموا بالسابقة، وفرضوا ربع نفقات الجيش. ولعدم وجود مورد، لم يكن أمامي خيار سوى الذهاب إلى مناطق هان ومنغوليا لجمع التبرعات من المؤمنين.»

يتضمن كتاب (تشن قوان شون) «سجلات التبت» الذي كُتب في عهد الإمبراطور (قوانغ شو)، فصلاً خاصاً بعنوان «نظام الجيش التبتي»، يصف فيه أسلحة الجيش التبتي في تلك الفترة بأنها كانت لا تزال بدائية للغاية: «كانت أسلحة التبتيين في ذلك الوقت لا تزال من الأشياء القديمة. أولاً: المدافع. يزن كل منها ما بين ثلاثين وأربعين جين أو خمسين وستين جين (ثلاثين كيلو)، بعضها مصبوب من النحاس وبعضها من الحديد. يبلغ طولها ثلاثة أو أربعة أقدام، وتتسع لأكثر من عشرة تايل من البارود وثلاثين أو أربعين تايل من الرصاص. ثانياً: البنادق البدائية. مصنوعة من الحديد المطاوع، تُحمّل فيها الذخيرة من الفوهة الأمامية، وهي تشبه بنادق الطيور الداخلية. بعض مقابضها مزينة بالذهب، والفضة، واللؤلؤ، واليشم. تُصب الرصاصات من الرصاص وتكون مستديرة الشكل. ثالثاً: البنادق السريعة. توجد منها أنواع ذات طلقة واحدة، وخمس طلقات، وسبع طلقات، وتسع طلقات، وثلاث عشرة طلقة. كما توجد بنادق سريعة طرازروسي تُجلب من (تشينغ هاي). رابعاً: الرماح. مقبض خشبي ملفوف بسلك حديدي، لا يزيد طولها عن عشرة أقدام. خامساً: السيوف الفولاذية. حوافها حادة جداً، ويمكنها قطع حتى البنادق السريعة. سادساً: الأقواس والسهام. سابعاً: الخوذات والدروع الحديدية، تُستخدم للحماية من رصاص البنادق.“

ويذكر فصل آخر «طرق أهل التبت للدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء». ويتحدث عن الكمائن في الغابات الكثيفة، وتطويق الوديان، ودحرجة الصخور من التلال العالية، وسرقة المؤن من الطرق الضيقة، ومهاجمة المعسكرات ليلاً، وإغلاق الممرات، وحفر الحفريات لقطع الطرق، والتحصن في الحصون المنيعة، وهذه كلها مشاهد نراها غالباً في الروايات الكلاسيكية.

أمام مثل هذا الجيش، تمكن جيش الحدود بقيادة (تشاو إرفنغ)، الذي حسّن تسليحه وتكتيكاته القتالية أولاً، من السيطرة على مساحة ثلاثمائة ألف كيلومتر مربع من الأراضي الحدودية في (سيتشوان) بقوة لا تتجاوز بضعة آلاف من الجنود. من «مختارات من الوثائق التبتية من فترة أواخر تشينغ وجمهورية الصين المبكرة في منطقة (كانغ)» التي حررها (تشاو شين يو) والبروفيسور (تشين خه بينغ)، قرأت «قواعد مسيرة حملة (ده قه) لجيش الحدود بقيادة (تشاو إرفنغ)»، التي تحدد بالتفصيل تكتيكات القتال لجيش الحدود، مما يذكرنا بمشاهد الحرب في الأفلام الأجنبية. سأقوم بنسخ بعض الفقرات، حتى نتمكن من تخيل مشاهد وتفاصيل تلك الحرب:

.indd 358-359 2025-11-27 10:56:19

"أولاً: عند مواجهة العدو، تُقسم قواتنا إلى صفوف، كل صف يتكون من أربعين جندياً، مكونة خمسة صفوف إجمالاً؛ وتُشكل فرقة الحراسة من أربعين جندياً الصف الثالث؛ أما العشرة المتبقون، فيتولون حراسة مخازن الأسلحة والمعدات الخاصة بالمعسكرين، ومراقبة الطريق الخلفي للتأكد من عدم وجود لصوص يحاولون الالتفاف."

"أولاً: عند مواجهة العدو، إذا كانت ساحة المعركة واسعة، تُرتّب صفان في خط مستوٍ؛ وإذا كانت ضيقة، يُرتّب صف واحد في خط مستوٍ، وتُرتّب الصفوف الأربعة المتبقية بالتتابع. على الرغم من كونها صفوفاً مستوية، إلا أنه يُفضل أن تكون متباعدة قليلاً، وألا تكون متقاربة جداً، لتجنب إصابات نيران العدو. أما إذا كان المكان ضيقاً جداً، فتُرتّب نصف صف في خط مستوٍ، أو تُقسّم إلى صفين على شكل جناح أوزة، لتوسيع الجناحين. هذا يعتمد على تقدير قائد الكتيبة لتضاريس الأرض، ووضع العدو، وحكمته وبصيرته."

"أولاً: عند إطلاق النار في المعركة، يطلق الصف الأول النار أولاً ثم ينحني؛ ثم يليه الصف الثاني، وهكذا بالتناوب ينحني كل صف ويطلق النار؛ وعندما ينتهي الصف الخامس من إطلاق النار، يعود الصف الأول للدور مرة أخرى. إذا كان هجوم العدو سريعاً جداً، فإن الصف الأمامي يطلق النار وهو منحنٍ، والصف الخلفي يطلق النار وهو واقف. أما إذا لم يشن العدو هجوماً بعد، فلا يُسمح بإطلاق رصاصة واحدة عشوائياً."

"أولاً: عند إطلاق كل صف للنيران، يجب على الضابط المسؤول عن الكتيبة أن يراقب بانتباه. إذا استمر إطلاق النار لدورتين دون إصابة أحد، فهذا يعني أنهم يفتقرون إلى الدقة أو أن أيديهم ترتجف، وهذا دليل على اهتزاز شجاعتهم. في هذه الحالة، يجب ألا يُسمح لهم بإطلاق النار مرة أخرى، وذلك لتوفير الذخيرة للاستخدام المستقبلي."

«أولاً: عند مواجهة العدو، تتمركز فرقة الفرسان المكونة من أربعمائة رجل على جانبي قواتنا. إذا كان العدو على بعد ميل أو ميلين، يجب ألا تطلق فرقة الفرسان النار على العدو. إذا هُزم العدو، فلتلاحقه فرقة الفرسان، ولتتبعها قواتنا عن كثب لحماية فرقة الفرسان. إذا تراجع العدو إلى القرية، ولحقته فرقة الفرسان إلى القرية، فيجب على مشاتنا التقدم ببطء، على مسافة سهمين أو ثلاثة من فرقة الفرسان، خشية أن يكون هناك كمين داخل القرية. عندها، يمكن لقواتنا إطلاق النار من الخلف لضرب الكمين وإنقاذ فرقة الفرسان. يمكن معرفة ما إذا كان هناك كمين في القرية بمجرد النظر عند وقوع الحدث. إذا سقط عدد كبير من الأعداء قتلى جراء إطلاق النار، أو استمر القتال لفترة طويلة، وأصبحوا في حالة فزع وهروب، فهذه هزيمة حقيقية يمكن استغلالها. أما إذا كان عدد قتلى العدو قليلاً، أو تراجعوا بعد قتال قصير، أو لم يكن عدد المقاتلين كبيرًا، وانسحبوا بنظام وراحة، فهذا مؤشر على وجود خدعة، ويجب توخي الحذر الشديد.»

"أولاً: تُستخدم أربعمائة فارس فقط، يتمركزون على جانبي قوات المشاة لدينا، بمسافة عشرة أقدام تفصل بين الفرسان والمشاة، ويجب ألا يكونوا قريبين جداً. أما المائة فارس المتبقين، فيبقون في الطريق الخلفي لقواتنا، ويتحركون على بعد ميل أو ميلين، لمنع العدو من الالتفاف. إذا حاول العدو الالتفاف، يجب على فرقة الفرسان أن تقاتل بقوة من جهة، وترسل تقريراً سريعاً إلى القوات الأمامية من جهة أخرى."

"أولاً: إذا قام العدو بالالتفاف، فستكون هناك فرقة الفرسان في الخلف للقتال، بالإضافة إلى عشرة من كشافينا الذين يمكنهم الهجوم من الجانب. وعندما يصل الخبر إلى القوات الأمامية، يجب ألا يفزعوا على الإطلاق. إذا كان الالتفاف على بعد ميلين أو أقل، فما عليهم سوى أن يديروا الصفوف الأربعة أو الخمسة الأخيرة إلى الخلف، وعندما يأتي العدو، يطلقون النار عليه. وتُخصص مائة فارس أخرى لتعزيز القوات الخلفية. أما الصفوف الأمامية الثلاثة، فستستمر في القتال بالتناوب في المقدمة، ولا داعي للاهتمام بما يحدث في الخلف، ولا يُسمح لهم بالتحرك دون إذن. إذا اقترب العدو تدريجياً، يمكن عندئذٍ أن تُفتح فرقة الفرسان النار معاً، مع الحفاظ على الهدوء والتحكم بالنفس كأولوية."

"أولاً: عند مواجهة العدو، إذا أردت استدراج العدو، فليتقدم الفرسان شعب (بي) في المقدمة، بينما تختبئ قواتنا المشاة في الخلف، ولا تدع العدو يراهم. عندما يكون العدو والفرسان منخرطين في قتال عنيف، أصدر الأمر، فينقسم الفرسان إلى اليمين واليسار، وتندفع قواتنا من المنتصف وتطلق النار. لن يؤدي ذلك إلى سقوط عدد كبير من الأعداء فحسب، بل سيصيب العدو بذهول مفاجئ، ولن يتمكن من السيطرة على نفسه، وسيهزم بالتأكيد. لكن هذا البند يتطلب تدريباً مكثفاً مع فرقة الفرسان، حتى لا يصابوا بالارتباك أثناء المعركة."

"أولاً: في المعارك المتفرقة، تُوزع قوات المشاة إلى مجموعات من ثلاثة أشخاص أو خمسة أشخاص، سواء في المقدمة أو الخلف، أو على اليسار أو اليمين، أو مختبئين في منحدرات الجبال، أو خلف الصخور، واقفين أو يركضون، منحنين أو مستلقين، بغض النظر عن الترتيب أو الأسبقية، يقاتل كل فرد بمفرده، ويصوب على العدو، ويطلق النار فحسب."

كانت هذه خطة معركة مسبقة أعدها جيش الحدود بقيادة (تشاو إرفنغ) لمعركة معينة. وقد صدرت التعليمات قبل المعركة، مع التأكيد على ما يلي: «غير أن مكان العدو هذه المرة، حسب ما ورد، هو واد جبلي، وقوات الفرسان لدينا أكثر من المشاة. ربما يكون من الأفضل أن تتفرق القوات، لأن ذلك قد يعرقل هجوم الفرسان، أو أن تتمركز قوات المشاة بالكامل عند سفوح الجبال أو في منتصفها، بينما تتمركز قوات الفرسان في السهول، حتى لا تعيق بعضها البعض. لكنني لم أشاهد التضاريس بنفسي، ويصعب تقديرها من بعيد، لذلك أقدم هذه الملاحظات كمرجع. وعلى ضباط المعسكر المعنيين أن يتخذوا القرارات المناسبة وفقاً للظروف في الميدان."

كانت هناك العديد من القواعد الأخرى المتعلقة بالمسير التي وضعت لهذه المعركة، فيما يتعلق بالخدمات اللوجستية، وما بعد النصر، وما إلى ذلك، ولن أدرجها جميعها هنا.

.indd 360-361 2025-11-27 10:56:19

يتضح من ذلك أن انتصارات (تشاو إرفنغ) المتتالية في كل المعارك أثناء حملته لـ «تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين»، كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتبني جيش الحدود التابع له الأسلحة النارية والأساليب القتالية الغربية. أما بعد تأسيس جمهورية الصين، فقد تدرب الجيش التبتي على يد البريطانيين واستخدم أسلحة بريطانية. وبالتالي، أصبحت أساليبهم القتالية وأسلحتهم، إن لم تكن تتفوق على جيش الحدود، فعلى الأقل تضاهيه قوةً. ومع الاستفادة من ميزة الأرض، وتغير الظروف وموازين القوى، أصبحت هزيمة جيش الحدود المعزول وفقدانه للأراضي أمرًا متوقعًا ومنطقيًا.

محافظة (تشان هوا) في أوائل عهد جمهورية الصين

ماذا حدث بعد طرد (تشاو إرفنغ) لمسؤولي التبت في (تشان دوي)؟

بعد تأسيس محافظة (تشان دوي)، كان الإجراء الأول هو تغيير اسمها إلى محافظة (هواي رو). وهذا الاسم في الحقيقة لا يتناسب مع الواقع. ففي عهد سلالة (تشينغ)، شُنّت حملات عسكرية قوية على (تشان دوي) عدة مرات، ولكن بعد الحروب، لم تُتخذ أي إجراءات إصلاحية حقيقية مفيدة لمعيشة الشعب. بعد إنشاء المحافظة، اكتشفوا أن هناك بالفعل محافظة (هواي رو) أخرى في مقاطعة (خه بي)، ولتجنب مشكلة تكرار الاسم، غُيّر اسم المحافظة إلى (تشان هوا).

«تشان» هي حرف من الاسم القديم للمكان، أما «هوا» فهي كلمة صينية بحتة والتي تعني «التحول». وعند جمعهما، يصبح المعنى واضحاً تماماً. لكن كيفية تحقيق معنى كلمة «هوا» هي قصة معقدة وطويلة وذات تفاصيل عديدة.

خلال فترة جمهورية الصين بأكملها، شهدت منطقة (كانغ) الشمالية، في منطقة (قان تسي) و(ده قه)، تغيرات متكررة. لم تحدث أحداث كبرى في (تشان هوا)، التي لا تقع على طرق رئيسية، لذلك لا تُذكر كثيرًا في السجلات التاريخية الرسمية. ويقدم «سجل محافظة (شين لونغ)» الذي أُعد في عام 1992 وصفًا موجزًا جدًا لفترة جمهورية الصين، على النحو التالي:

السنة الأولى للجمهورية (1912): في أغسطس، تغير اسم محافظة (هواي رو) إلى محافظة (تشان هوا).

السنة الثانية للجمهورية (1913): بدأت القوات المتمركزة في المحافظة باستخراج الذهب من مناجم (جيا سي كونغ) و(ماي كه شا).

السنة الخامسة للجمهورية (1916): في أغسطس، أُنشئت أربع مناطق حماية عامة: (شانغ تشان)، و(شيا تشان)، و(خه دونغ)، و(خه شي).

تستحق النقطة الأخيرة المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي في أوائل جمهورية الصين مناقشة مفصلة.

خلال أكثر من ثلاثين عامًا من حكم المسؤولين التبتيين في (تشان دوي)، اعتمد الجانب التبتي، باستثناء إرسال عدد قليل من القوات وبعض المسؤولين المحدودين، على القوى المحلية لتنفيذ الحكم. كانت طريقتهم تتمثل في تقسيم حوالي مائة أسرة إلى وحدة إدارية، وتعيين رئيس محلي مؤثر وذو نفوذ لجمع الضرائب، والإشراف على أعمال السخرة، وتولي مسؤولية الأمن المحلي. كان لهؤلاء الرؤساء أيضًا واجب مهم آخر، وهو التناوب في العمل في مكتب المسؤول التبتي في (تشان دوي)، لضمان أمن المكتب من جهة، ونقل أوامر المسؤولين التبتيين من جهة أخرى. بعد تأسيس جمهورية الصين، وبصرف النظر عن وجود مسؤول واحد يرأس الحكومة المحلية وعدد قليل من القوات، استمر تنفيذ السياسات الحكومية بالاعتماد على الأسر المحلية القوية وذات النفوذ. وكان الإجراء الرئيسي هو تقسيم المحافظة بأكملها إلى أربع مناطق إدارية، يُطلق على رؤساءها اسم «زونغ باو». وقد عُين في هذه المناصب أربعة أفراد محليون يتمتعون بالنفوذ والمكانة.

لم يتغير وضع البقاء للأقوى الذي استمر لآلاف السنين، وفي كثير من الأحيان، لم يتمكن الناس من العيش في سلام والعمل في الزراعة والرعي. ففي «السنة السابعة من حكم جمهورية الصين»، أغسطس عام 1918م، نشب نزاع بين قبيلتي (ماي كه وا سي ماي با) و(ران لو آه قه). قام (ماي با لونغ لوه) شيخ قبيلة (وا سي ماي با) بقيادة خمسمائة أسرة وأكثر من ثلاثين ألف رأس من الماشية، وهاجروا جماعياً إلى منطقة (أبا)، وهي اليوم منطقة (هونغ يوان).“

”في العام الحادي عشر للجمهورية، 1922، غيّر مكتب قائد حامية الحدود في (سيتشوان) التقسيمات الإدارية الأربع إلى أربع مناطق، وهي: منطقة (خه) الشرقية، ومنطقة (خه) الغربية، ومنطقة (تشان) العليا، ومنطقة (تشان) السفلى. وعُين لكل منطقة رئيس منطقة «باو تشانغ» لإدارتها.» وظل الأشخاص الذين يتولون منصب رئيس منطقة «باو تشانغ» هم من القوى المحلية القوية.

”في العام التاسع عشر للجمهورية، أبريل 1930، غُيّر لقب حاكم محافظة (تشان دوي) إلى محافظ المحافظة. وتولى (تشانغ كاي) أول منصب محافظ للمحافظة.“

فيما يتعلق بالجوانب المختلفة لمحافظة (تشان هوا) في هذا الوقت، ترك لنا السيد (رن ناي تشيانغ) سجلاً تفصيلياً ومعاصراً، مما يمكننا من إلقاء نظرة على الوضع الاجتماعي المحدد لمحافظة (تشان هوا) بعد قيام جمهورية الصين. في عام 1924، بدعوة من قيادة دفاع حدود (سيتشوان) و(كانغ)، التي كان يرأسها (ليو ون هوي)، قام السيد (رن) بصفته مفتشاً للشؤون الحدودية، بفحص جميع المحافظات الجديدة التي أُنشئت في الأراضي التابعة لشيوخ القبائل في مناطق حدود (سيتشوان) السابقة خلال عام واحد. وفي كل محافظة زارها، قام برسم خرائط مساحية دقيقة، وكتب تقرير فحص. وكان تقرير الفحص رقم سبعة هو «تقرير فحص محافظة (تشان هوا)“.

لنتحدث عن الإنتاج أولاً، السيد (رن ناي تشيانغ) هو مشهوراً بخبرته في تاريخ وجغرافيا منطقة التبت، لكنه تخرج في الأصل من كلية الزراعة في بكين. لذلك، أولي اهتماماً خاصاً للحالة الإنتاجية المحلية في كل مكان يزورها. ذكر تقرير التفتيش أن منطقة (تشان دوي)، الواقعة في وادي نهر (يالونغ)، تتميز بظروف جيولوجية ومناخية مناسبة لنمو العديد من النباتات. ومع ذلك، قال إن السكان المحليين في (تشان هوا) «متشبثون بالقديم، فإذا شبعوا استسلموا للكسل، وإذا جاعوا لجأوا إلى النهب، وليس لديهم أي طموح للتكيف مع العصر وتحسين حياتهم، وبالتالي لا يستغلون الإمكانات الكاملة للأرض. لو تمكنّا من توجيه شعب (بي) هؤلاء نحو التحضر، وتوظيف الأشخاص المناسبين للتشجيع على الزراعة، فإن هناك ثلاثة مجالات يمكن تحسينها في قطاع الصناعة في هذه المحافظة.“

الأول: «العناية ببساتين الفاكهة»، مثل الكمثرى، والجوز، والعنب، والتفاح، وما إلى ذلك. «بالنظر إلى المناخ والتربة في (تشان هوا)، فهي مناسبة للغاية. ومع ذلك، لا توجد زراعة للفاكهة في (تشان هوا) حالياً، وهذا أمر مؤسف.“

الثاني: تتعلق هذه النقطة بتربية المواشي، وقد تم تجاوزها.

الثالث: «زيادة المنتجات الزراعية. أراضي (تشان هوا) الجبلية مناسبة جداً لزراعة البطاطس. أما الوديان النهرية فمناسبة للفواكه، والبطيخ، والبصل، والثوم المعمر، والملفوف الصيني، والنيلة، وما شابه. فكل ما يمكن زراعته في منطقة (كانغ)، يمكن زراعته في (تشان دوي). ومع ذلك، تُشترى البطاطس والبصل من (داوفو)، أما المنتجات الأخرى فتُشترى من (قان تسي) لتُستهلك. في الماضي، كان التبتيون بسطاء، لا يحتاجون شيئاً سوى الزامبا، والزبدة المصفاة، ولحم البقر. وكانت الزراعة بسيطة، ولا حرج في ذلك؛ لكن في السنوات الأخيرة، بدأ التبتيون يتبنون تدريجياً عادات (الهان)، وزادت رغباتهم في الطعام بشكل مفرط، وبالتالي فإن زيادة المنتجات الزراعية هو في الواقع تلبية لأهم متطلبات الحياة.“

لم يكن الإنتاج متخلفاً للغاية فحسب، بل كانت التجارة أيضاً غير متطورة بشكل كبير.

يذكر تقرير السيد (رن) أن: «مقر محافظة (تشان هوا) لا يضم سوى خمسين أسرة مدنية، ولا يوجد دير لاما بالقرب منه، وبالتالي لا توجد تجارة. قلة الأسر المدنية تعني ركود البضائع، وعدم وجود دير لاما يعني عدم قدرة الباعة المتجولين على اقتراض رأس مال. قبل بضع سنوات، كانت هناك قوات صينية متمركزة هنا، وكان عدد الباعة المتجولين أكبر. أما الآن، فلم يتبق سوى متجرين للشاي والأقمشة، وأعمالهما قليلة جداً. لا توجد متاجر أو أسواق في أي من القرى المحلية... ويعتمدون سنوياً على التجار المتجولين الذين يحملون بضائعهم من (رونغ با تشا) (الموجودة في (قانتسي))، ويتجولون في القرى لبيع السلع اليومية. وهناك أيضاً تاجر أو تاجران من (الهان) يتجولون في القرى لشراء السلع الجبلية مثل المسك وغيرها.“

أما عن الصناعات اليدوية، ف»لا توجد صناعات في (تشان هوا)، ويوجد في مقر المحافظة حداد واحد فقط، يعمل أيضاً في صياغة المجوهرات الذهبية والفضية، ولكن منتجاته رديئة الصنع.»

[redacted].indd 364-365 2025-11-27 10:56:20

في ظل هذه الظروف، يتبع السكان المحليون «أسلوب حياة مقتصد للغاية. فحتى أغنى العائلات ترتدي ملابس صوفية مبطنة بقماش، وأطعمتهم تقتصر على شاي الزبدة، والزامبا (طعام التبت الرئيسي)، ولحم البقر. وباستثناء الشاي، نادراً ما يستخدمون السلع المستوردة، ولم تكن لديهم رغبة في زيادة ثرواتهم. أما الرجال، فهم عاطلون معظم أوقات حياتهم، وإذا اضطروا، يلجأون إلى السرقة. وإذا حصلوا على ما يكفيهم ليوم واحد، فإنهم يشربون الخمر حتى الثمالة كعادة. أما النساء فيدبرن شؤون المنزل، ويُجدن نسج صوف الأغنام. وإذا ادخرن شيئاً قليلاً، فإنهن يتصدقن به على اللامات (الرهبان).“

في ظل هذا الإنتاج الاجتماعي وظروف المعيشة هذه، كيف يمكن لمحافظ المحافظة الذي عُيّن حديثاً أن يدير مكاناً بهذا الوضع؟

”ومع ذلك لم يمضِ وقت طويل على فتح (تشان دوي)، وإدارة المسؤولين في (شي كانغ) قد تدهورت بالفعل. فالمسؤولون المتعاقبون أقل شأناً في أقوالهم وأفعالهم، وأصبحوا تدريجياً محط استخفاف وازدراء شعب (بي) (سكان التبت). ثم أصبحوا أكثر جرأة وغير منضبطين. المسؤولون في الغالب جشعين بلا ضمير، واستمر التباطؤ والتراخي يوماً بعد يوم، حتى وصل الأمر في السنوات الأخيرة إلى وضع مأساوي تتخلله آلاف الثغرات.» إلى أي مدى وصل الوضع؟ يذكر السيد (رن) أن هناك محافظاً يدعى (تشانغ تشو)، أمضى ثلاث سنوات حاكماً لمحافظة (تشان هوا)، لكنه كان يخشى في كثير من الأحيان انقطاع مؤن الطعام عن نفسه، «فعهد بجميع الأمور إلى رؤساء القبائل الأربعة في (تشان دوي)، ولم يكن يفعل سوى الموافقة على قراراتهم.“

ومع ذلك، كان هذا المسؤول يعتبر مسؤولًا جيدًا، لأن هذا المسؤول «يعرف عادات شعب (بي)»، أي أنه يفهم عادات وتقاليد السكان المحليين، و»يمكنه كسب ود زعماء القوى المحلية ببعض العطايا الصغيرة، ولم يأخذ أموالًا من الناس ظلمًا. لذلك، على الرغم من أن سلطته لم تكن تُنفذ بالكامل، إلا أن شعب (بي) لم يشتكوا منه. كانت ميزته في عدم الإضرار بواجباته الرسمية، وكانت عيوبه في تآكل سلطته الرسمية يوماً بعد يوم. وهذا في الواقع مرض شائع بين مسؤولي الحدود في العصور الحديثة، ولا يمكن لوم (تشانغ) وحده.» وهذا يعني أنه تحلى بعدم الفساد والجشع، وعدم اضطهاد الشعب، لذا كان يعتبر مسؤولًا جيدًا. أما عدم قدرته على تحقيق أي إنجازات في منصبه، فهذه ظاهرة عامة، ولا تقتصر على محافظ (تشان هوا) وحده.

ومع ذلك، عندما وصل السيد (رن) إلى (تشان هوا)، كان هذا المحافظ قد غادر منصبه. وتولى المحافظ الجديد (تشانغ كاي) منصبه، «كان جريئًا وموهوبًا، وأمضى وقتًا طويلاً في المناطق الحدودية، لذلك كان يعرف أيضًا عادات شعب (بي)، وكانت مهاراته في السيطرة عليهم تتفوق على مهارات المحافظ (تشانغ) السابق بمائة ضعف. في غضون بضعة أشهر من توليه المنصب في (تشان دوي)، بدأ في إصلاح جميع الجوانب المتدهورة.“

أولاً، أمر الرؤساء المحليين الأربعة الذين عُينوا سابقًا كرؤساء منطقة «بالتناوب في الحضور إلى مكتب المحافظ لأداء مهامهم»، وكان القصد من ذلك بطبيعة الحال جعلهم يدركون مصدر السلطة، وإرساء سلطة الحكومة.

ثانياً، في السابق، وبسبب تقاعس المسؤولين وعدم كفاءتهم، بالإضافة إلى عنف العادات المحلية، لم يكن من الممكن جمع الضرائب السنوية بالكامل. بعد تولي (تشانغ كاي) منصبه، باستثناء منطقة تسمى «داقاي» التي لم تدفع ضرائبها بسبب قضايا عالقة، «فقد دُفعت جميع الضرائب الأخرى بالكامل قبل أكتوبر.» في ذلك الوقت، كانت محافظة (تشان هوا) بأكملها تتكون من 4 مناطق و48 قرية و4578 أسرة، وكانت تُحصّل ضريبة حبوب سنوية تزيد عن 1300 شي، وتُحصّل ضريبة ماشية من الرعاة بقيمة 6492 يوان تبتي. وفي العام السادس عشر لجمهورية الصين، أُضيفت ضريبتان جديدتان: ضريبة الذبح بدخل سنوي قدره 300 يوان تبتي، وضريبة الخمور بدخل سنوي قدره 200 يوان تبتي.

أضف إلى ذلك، «على الرغم من أن مقر المحافظة كان يضم في السابق جنودًا محليين (من السكان الأصليين)، إلا أنهم كانوا عزلاً تمامًا. لذلك، أمر (تشانغ) كل رئيس منطقة في المناطق المختلفة باستعارة خمس بنادق سريعة ومائة رصاصة، وتزويد الجنود بها، مما أضفى على المظهر العسكري نظامًا وترتيبًا.“

الأهم من ذلك، «أن القضايا الكبيرة والصغيرة لم تعد تُترك للزعماء المحليين لإدارتها. وعلى الرغم من أن بعضها لم يكن قابلاً للإدارة، إلا أنه لم يكن هناك أي تنازلات أو مساومة تُقلل من هيبة السلطة الرسمية.“

هذا يعني أن المسؤولين المحليين السابقين لم يكونوا يديرون بأنفسهم القضايا الكبيرة والصغيرة داخل المحافظة، مما جعل الحكومة شكلية. وكان لذلك أسباب تاريخية. «في أيام حكم المسؤولين التبتيين في (تشان دوي)، كانوا يختارون أقوى وأبرز العائلات المحلية، ويمنحونهم لقب نائب. وقد استغل المسؤولون التبتيون سلطة هؤلاء النواب لنهب الشعب، واستغل النواب بدورهم نفوذ المسؤولين التبتيين للسيطرة على قرويهم. وبما أن القرى في (تشان دوي) كانت متناثرة والناس عنيدين ومكرين، فإن إدارة المنطقة بمسؤول واحد كانت مستحيلة بدون هذه الطريقة.“

منذ تأسيس جمهورية الصين، «منذ إنشاء الإدارة، استمر اختيار أقوى وأبرز النواب في المناطق الأربع لتولي منصب رئيس المنطقة، ليُديروا شؤون الشعب. وقد أُلغي لقب نائب، وعُيّنوا كرؤساء للقرى. ومع ذلك، وبما أن نفوذ النواب قد ترسخ، فلا يمكن إزالته بكلمة مجردة، وكان رؤساء القرى مجرد أدوات في أيديهم. ولكن لعدم وجود وضع رسمي لهم للوصول إلى الحكومة، لم يكن لديهم خيار في البداية سوى الخضوع لرؤساء المناطق. ومع مرور الوقت، تحول بعض النواب السابقين إلى زعماء صغار تحت سلطة رئيس المنطقة، أو تمكنوا تدريجياً من الاقتراب من الحكومة، وبالتالي أصبحوا يقفون ضد رؤساء المناطق... بل وقد تخضع الحكومة لسلطتهم في بعض الأحيان.“

أما في مجال التعليم والثقافة، فهي في فترة تأسيس أولية صعبة للغاية.

بعد تأسيس جمهورية الصين، أُنشئت مدرسة وطنية واحدة في (تشان هوا)، ولكن لم يلتحق بها سوى عدد قليل من أبناء (الهان) المقيمين في مقر المحافظة.

[redacted].indd 366-367 2025-11-27 10:56:20

بعد تولي المحافظ (تشانغ كاي) منصبه، قام بجمع رؤساء المناطق الأربع وبعض رؤساء القبائل لمناقشة سبل تعزيز التعليم. في ذلك العصر، لم يكن السكان المحليون، الذين كانت عاداتهم وتقاليدهم لا تزال محافظة، يرغبون في الذهاب إلى المدرسة، خاصة وأنهم اعتبروا تعلم الحروف الصينية وقراءة الكتب الصينية عملاً شاقًا، وفضلوا استئجار أشخاص للذهاب إلى المدرسة بدلاً منهم. استغل (تشانغ كاي) هذا الوضع بحكمة، واتفق على أن تدفع كل منطقة خمسين يوانًا فضيًا تبتيًا شهريًا، وأن تستخدم الحكومة المحلية هذه الأموال لتوظيف أشخاص للدراسة. تمثلت الطريقة المحددة في تحويل هذه الأموال المحصلة إلى منح للطلاب، حيث كان يُصرف لهم دلاء من الحبوب شهريًا. باستخدام هذه الطريقة التي تكيفت مع الظروف المحلية، تمكنوا من جذب أكثر من ستين طالبًا، قُسموا إلى فصلين: علوي وسفلي. يروي السيد (رن): «كان مبنى المدرسة هو معبد (قوان دي) في مقر المحافظة، وقد جرى ترميمه، وكان مناسبًا للاستخدام. وكان (تشن هوان تشانغ)، عضو لجنة التجهيز للمشروع، هو المدير. جميع المعلمين عينتهم الحكومة المحلية، وكان عددهم كافيًا، وكانت طريقة التدريس قانونية. جميع الطلاب، سواء من (الهان) أو غير (الهان)، كانوا يعرفون الحروف الصينية، ويفهمون اللغة الصينية. وكان بعض الطلاب غير (الهان) يتميزون بأداء أفضل من طلاب (الهان)، وهذا لم يكن موجودًا في المحافظات الأخرى في الشمال."

ويقابل هذا الوضع وجود عدد كبير من المعابد: «في كل قرية من قرى (تشان هوا) يوجد دير لاما واحد، وإجمالي عدد المعابد في المحافظة أكثر من أربعين (دون احتساب المعابد الصغيرة)".

يمكن اعتبار هذا الوضع في محافظة (تشان هوا) بمثابة صورة عامة للوضع في معظم المحافظات الجديدة التي أُنشئت بعد حملة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين في مناطق حدود (سيتشوان). كانت بعض أديرة اللاما قوية، وكان من الصعب على الحكومة المحلية الضعيفة السيطرة عليها. كان محافظ محافظة (تشان هوا)، (تشانغ كاي)، مسؤولًا كفئًا، وتمكن بعد توليه منصبه من جمع جميع الضرائب المتأخرة لأكثر من عشر سنوات. لكن كانت هناك منطقة تسمى (داقاي)، وبسبب قضايا عالقة، لم يتمكن من تحصيل المتأخرات منها.

كانت هذه القضية تتعلق بدير (داقاي لاما) المحلي. أما عن تفاصيل هذه القضية، فقد ورد ذكرها في مقالين في كتاب السيد (رن ناي تشيانغ) «ملاحظات (شي كانغ)». المقال الأول بعنوان «قضية قتل طفل (تشان دوي)»، وكلمة «طفل» هنا لا تعني الطفل الصغير في حديثنا اليومي، بل تشير إلى شخص من مكان ما، أي «طفل (تشان دوي)» تعني شخص من (تشان دوي). والمقال الآخر بعنوان «تقرير (داقاي) التبتي".

يُعد دير (داقاي لاما) أكبر دير في منطقة (تشان هوا). كان هناك لاما كبير يُدعى (وو جين دوه جي) في الدير، وكانت علاقته سيئة دائمًا باللاما (آ دنغ تشي ناي)، رئيس الدير. كان للاما (وو جين دوه جي)، الذي لم يكن يطيع رئيس الدير، أخ يُدعى (آ قا)، وكان سيئ الطبع، ودائمًا ما يثير المشاكل في القرية. في السابق، كان قد انضم إلى الرهبنة في دير (داقاي) نفسه، ثم عاد إلى الحياة العادية، وكان يذهب إلى الدير بشكل متكرر للتنمر على رئيس الدير، مما جعل رئيس الدير يكن له الكراهية. في أحد الأيام، بينما كان اللاما الكبير يمنح البركات للمؤمنين، هجم عليه فجأة عشرون أو ثلاثون لاما من نفس الدير، وقتلوه بالسكاكين. في ذلك الوقت، كان (آ قا) ووالدته يركعان لتلقي البركة من أخيه، ولم يتمكنا من المقاومة، فتم ربطهما بالحبال وأُعدما فورًا، كما سُجنت والدته. بعد وفاة الأخوين، لم يهدأ الدير، فأرسلوا رجالاً إلى مرعى (ماي كه) وقتلوا أخاهما الآخر بالرصاص، واستولوا على جميع ممتلكات الإخوة الثلاثة، من الأبقار والخيول، لتصبح ملكاً للدير. وقعت القضية في نطاق سلطة رئيس المنطقة لمنطقة (شانغ شان). ولكن لم يبلغ رئيس المنطقة السلطات المحلية إلا بعد نصف شهر من وقوع الحادث. استدعى المحافظ (تشانغ كاي) رئيس القضية (آ دنغ تشي ناي) إلى المحافظة لاستجوابه، لكن اللاما رفض الحضور، وبدلاً من ذلك، قدم «تقرير تبتي» إلى المحافظة، سرد فيه بالتفصيل جرائم الأخوين (آ قا) لسنوات عديدة، وذكر أنه فعل ذلك لتخليص الناس من الشر، وطلب مكافأة. رفض (تشانغ كاي) طلبه، واستدعاه مرة أخرى، لكنه لم يحضر، فاضطر إلى إرسال أشخاص إلى المنطقة للفصل في القضية. لم يكن الفصل في القضية وفقاً لقانون جمهورية الصين، «القتل يجزى بالقتل»، بل وفقاً للعادات المحلية، بدفع «الدية»، أي تحديد مبلغ مالي مقابل حياة شخص واحد. وكانت نتيجة حكم الموظفين المعينين من قبل المحافظة: «حُكم بإطلاق سراح أفراد العائلة، ودفع ثلاثة آلاف من الفضة التبتية كـ«دية» للأشخاص الثلاثة، وتسليم ثلاث بنادق للقاتل، وغرامة قدرها مائة مكيال من الفضة تدفع لمقر المحافظة.» رفض دير اللاما الحكم. فهددت المحافظة بإرسال قوات لقمعهم.

في هذه الأثناء، وصل السيد (رن) بصفته مفتشاً إلى (تشان هوا)، ومر بالمكان الذي يقع فيه دير (داقاي لاما). اعتبروا المفتش مسؤولاً حكومياً يتمتع بسلطة، «فجاء رهبان الدير ليشتكوا: ‹ الدية التي تُطلب هي ألف يوان للشخص الواحد، وهذا ليس عرفاً في (تشان دوي) على الإطلاق›.» كما قدموا للسيد رن «تقرير تبتي» آخر، والذي يعتبر من وجهة نظرنا اليوم وثيقة غريبة، ولقد شكرنا السيد (رن) على تسجيله لها، مما يسمح لنا بإلقاء نظرة على الجانب الغريب من تلك الحقبة.

الترجمة الصينية لهذا «التقرير التبتي» كالتالي:

«منذ وصول القائد (تشاو إرفنغ) إلى (تشان هوا)، حدثت حالات قتل في أماكن مختلفة، وكان هناك قواعد تحدد قيمة الدية، سواء كانت هذه القيمة عالية أو منخفضة، كبيرة أو صغيرة: قتلت عائلة (آه سه نيو تشانغ كاجيا) سبعة أشخاص، ودفعت دية مقدارها خمسة مكاييل من الفضة، وغرامة مكيال واحد من الفضة، واستُخدمت الأواني النحاسية كضمان ؛ (لا ري ما) قتل ستة أشخاص، وكانت الدية خمسة مكاييل من الفضة لكل شخص، واستُخدمت الأدوات النحاسية بالكامل كضمان؛ (مو با) قتل (ره لو داي بن) وتسعة أشخاص آخرين، وكانت الدية أربعة مكاييل من الفضة لكل شخص، واستُخدمت الأدوات النحاسية والبضائع بالكامل كضمان، ولم تُدفع أي غرامة؛ (تشو ووي) قتل سبعة أشخاص، وكانت الدية أربعة مكاييل من الفضة، وغرامة خمسمائة يوان، واستُخدمت الأدوات النحاسية والبضائع كضمان؛ قُتل ثلاثة أشخاص على يد جنود القائد (ما)، وكانت الدية والغرامة ثلاثة مكاييل من الفضة لكل شخص، واستُخدمت البضائع بالكامل كضمان؛ في فترة المشرف السابق (تشانغ)، قُتل الجندي المحلي (تسي ونغ)، وكانت الدية مكيالين من الفضة، واستُخدمت البضائع كضمان؛ قُتل (جا سونغ قونغ بو)، الذي استسلم للقائد (لي)، وقتل خمسة من أفراد عائلته، كباراً وصغاراً، ولم

[redacted].indd 368-369 2025-11-27 10:56:20

تُدفع أي دية أو غرامة؛ في فترة المشرف الحالي، قتل (قوري) شخصين، ولم تُدفع أي دية أو غرامة؛ في قرية (كانغ لي)، قُتل شخص واحد من عائلة (ري جيا ما)، وأُصيب آخر، ولم تُدفع أي دية أو غرامة؛ قُتل ابن عائلة (ري شونيو تشانغ جيا) ، ولم تُدفع الدية. كانت هناك العديد من قضايا القتل المذكورة أعلاه، ولم تُرسل قوات لمواجهتها. أما بالنسبة للأشخاص الذين قُتلوا في دير (داقاي لاما) فقد كانوا في الأصل من قطاع الطرق وتم التخلص منهم لصالح المنطقة، وبدلًا من المكافأة، أُرسلت قوات لمهاجمتنا، وهذا غير عادل على الإطلاق!»

مكيال (ينطق تشنغ باللغة الصينية) هو وحدة قياس للفضة التبتية، يعادل خمسين تايل من الفضة التبتية. تجدر الإشارة إلى أن الفضة التبتية لم تكن فضة خالصة، بل كانت سبيكة مختلطة من الفضة والنحاس تحتوي على كمية كبيرة من النحاس الأبيض، لذا كانت أقل قيمة من الفضة الخالصة.

من خلال هذا «التقرير التبتي» يتضح أن السكان المحليين لم يقتلوا بعضهم البعض فحسب، بل إن جنود الجيش الحكومي ارتكبوا جرائم قتل أيضاً. إذا كان السكان المحليون يقتلون بعضهم البعض، ولا يمكن تطبيق القانون الوطني عليهم، فإن التعامل مع الأمر وفقاً للعادات المحلية قد يكون مبرراً. ولكن عندما يرتكب جنود الجيش الحكومي جرائم قتل ولا يتم التعامل معهم وفقاً للقانون الوطني، فإن ذلك يصعب فهمه. ف«تحول» (تشان هوا) يعني تحويل البربرية إلى حضارة، لكن النتيجة هي أن المتحضرين الذين ذهبوا ل«تحويل» الآخرين، ولتسهيل الأمور، تحولوا هم أنفسهم إلى بربريون. علاوة على ذلك، كانت عقوبات جنود الجيش الحكومي خفيفة جداً، ولهذا السبب تجرأ «التقرير التبتي» على الصراخ بالظلم!

بعد فترة وجيزة، تلقى السيد (رن) «تقريرًا تبتيًا» آخر من دير (داقاي)، يوضح فيه سبب قتلهم للأخوة الثلاثة (آ قا) لإزالة الضرر الذي لحق بالمنطقة:

"البند الأول: ما كان ينبغي لـ اللاما (وو جين دوه جي) أن يقتل حصان اللاما (لانغ كا دوه جي) في دير (ماو قو). وقد سمم حصان (باي ما يي شي) في دير (قه تو لاما)، وقطع أنف الأخوين (ماي لانغ) وأخيه (تشا با جيا إن). هؤلاء الأشخاص يستحقون القصاص النفس بالنفس. البند الثاني: عندما كان شقيق (آ قا) راهباً في دير (داقاي)، دُمر معبد (ماي كه) وصومعته، وغرّمه رئيس دير (داقاي) أربعمائة وثمانين يواناً على ذلك؛ ثم سرق من رئيس دير (داقاي) سبعمائة يوان؛ وأرسل (تسي ونغ) رئيس دير (تشو تشينغ) وآخرون خمسمائة يوان بعد أن سمعوا أن (آ قا) يريد قتلهم؛ وكان هناك رجل مسن من (شنشي) في الدير، سرق منه المسك، وغُرّم صاحب المنزل أكثر من ألف يوان؛ ثم سرق من الراهب (آه تسي) أربعمائة يوان؛ ثم ذهب إلى (دونغ قو) وسرق بندقية سريعة، ودفع دير (داقاي لاما) خمسمائة يوان مقابل هذا الحادث؛ ثم سرق دير (زونغ دوي با ما)، ودفع ألف وثمانمائة يوان أخرى؛ ثم سرق مسكاً آخر من شخص آخر، ودفع دير اللاما مائتي يوان؛ وفي العاشر من الشهر، سرق مائتين وستة وأربعين يواناً من حساب رئيس دير اللاما؛ وكان مدينًا للراهب (تي بانغ) بإحدى عشرة يوانًا. إجمالًا، دفع دير داغاي» سبعة آلاف وسبعمائة يوان تعويضًا عن سرقات «آغا» وديونه، ويجب أن يدفع ذلك من ممتلكاته العائلية. البند الثالث: بالإضافة إلى ذلك، لدى دير اللاما أدلة على الأعمال غير القانونية التي ارتكبها الإخوان (آ قا) من عائلة (جيا قاي)، بما في ذلك طبعة سرية لتذاكر «شاي يي شينغ»، وأداتين لتقطيع العملات الفضية وسحب الجزء الأوسط منها. عائلة (جيا قاي) هي في الواقع عائلة مجرمة. لقد أعدمنا قطاع الطرق، ولم نحصل على مكافأة، بدلا من ذلك تم تهديدنا بالعقاب. نرجو من سعادة المفوض أن ينصفنا!"

لم يُسجل كيف تم التعامل مع هذه القضية لاحقاً.

بعد ذلك بفترة وجيزة، اندلعت حرب عنيفة بين (سيتشوان) والتبت بسبب خلافات محلية بسيطة. في بداية المعركة، حقق الجيش التبتي انتصارات متتالية، واستولى على محافظة (تشان هوا) مرة أخرى، وتم أسر رئيس حكومة المحافظة (تشانغ كاي) من قبل الجيش التبتي، واقتيد إلى (تشانغدو) للاحتجاز. ربما تكون هذه القضية قد طُويت صفحاتها دون حل.

لم أتراجع عن تدوين هذه الوثائق التاريخية على الرغم من تفاصيلها الكثيرة، وذلك لأنها توضح بوضوح الوضع الاجتماعي في (تشان هوا) في أوائل جمهورية الصين. والأهم من ذلك، أن هذه المواد المفصلة والدقيقة يمكنها تبديد خرافتين:

الخرافة الأولى هي الحتمية التقدمية البسيطة. التي تفترض أن الحضارة ستنتصر حتماً على البربرية في مسار التاريخ الاجتماعي. وأن المجتمعات البربرية ستنهار فوراً بمجرد وصول الحضارة، كما يذوب الثلج بالماء الساخن. الخرافة الثانية هي تبت «شانغريلا» المثالية، والتي ظهرت في السنوات الأخيرة، حيث تُصوّر المناطق الحدودية التبتية وكأنها جنة يعيش فيها الناس بعيداً عن الماديات، متفرغين للعبادة، ومعروفين بنقاء أخلاقهم. أما أصحاب هذه الخرافة، فبعضهم طيبون وساذجون، يرون أن المجتمع اليوم غارق في الماديات، ويحلمون بحياة في مكان آخر، ويشتاقون إلى عالم طاهر غير موجود. أما البعض الآخر، فهم يعرفون الحقيقة التاريخية جيداً، لكنهم يتعمدون اختلاق أوهام كاذبة. أما فيما إذا كان لديهم دوافع خفية أم لا، فهذا أمر يتطلب من الجميع التفكير العميق واليقظة.

.indd 370-371 2025-11-27 10:56:21

استئناف حرب (داجين – بايلي)

مع بداية ثورة (شينهاي) (1911) وما تلاها، واجه المجتمع التبتي أزمات عميقة ومتعددة. وفي خضم هذه الأزمات، بدأ بعض المستنيرين الذين أدركوا التوجهات العالمية الكبرى في الشروع بإصلاحات جريئة. ونتيجة لهذه الإصلاحات، تحسنت القدرة القتالية للجيش التبتي بشكل كبير، مما أدى إلى انتصاره الساحق في المعركة ضد جيش الحدود في السنة السابعة لجمهورية الصين.

في وقت لاحق، ومع غرق بريطانيا في مستنقع الحرب العالمية الأولى، وانغماس القوى الفاعلة في جمهورية الصين حديثة التأسيس في حرب أهلية عميقة، تلاشت الضغوط الداخلية والخارجية المفروضة على المنطقة التبتية فجأة. شعر التبتيون حينها أنهم تجاوزوا الأزمة، فنهضت القوى المحافظة، التي تتمركز حول الرهبان المتدينين. ولأن الإنتاجية كانت منخفضة، فإن الدخل المكتسب من زيادة بند أو بندين من الضرائب كان محدودًا في النهاية، وبالتالي، لم تتمكن الموارد المالية التبتية من دعم استمرار تحديث الجيش التبتي. وهكذا، توقف تحديث هذا الجيش.

والأهم من ذلك، أن المجتمع التبتي بأكمله في ذلك الوقت كان لا يزال في عصر الظلام في العصور الوسطى، حيث كانت مصالح الجماعات الدينية تعتبر المصلحة العليا فوق كل اعتبار. لذلك، لم يدرك ضرورة الإصلاح السياسي والتحسين الاجتماعي سوى عدد قليل من المسؤولين في حكومة (كاشاغ)، فعزموا على بدء تحديث الجيش، آملين في فتح وبناء هذا المجتمع التبتي المنغلق. لكن أي وعي أو قوة تقدمية كانت ستثير استياء وقلق الجماعات الدينية. ونتيجة لذلك، تم عزل بعض المسؤولين، بمن فيهم كبار الضباط في الجيش التبتي، وعلى رأسهم قائد الجيش التبتي (تسا رونغ)، وعاد المجتمع بأسره إلى حالة من الجمود. وبدرجة ما، كان هذا سببًا رئيسيًا للاستقرار النسبي الذي شهدته مناطق حدود (سيتشوان) على مدى أكثر من عشر سنوات.

في عام 1930، تحديدًا في يونيو من العام التاسع عشر من جمهورية الصين (1930 م)، تلقت لجنة شؤون منغوليا والتبت التابعة للحكومة الوطنية رسالة شكوى من قرية (بايلي) في (قانتسي).

هذه الرسالة، مدونة في كتاب « مختارات من أرشيف النزاع بين (كانغ) والتبت»، جاء محتواها كما يلي:

"إن قريتنا الصغيرة (بايلي)، هي أرض شعب صغير وضعيف. منذ عهد سلالة (تشينغ) السابقة، لم نكف يومًا عن الولاء والإخلاص للحكومة المركزية. وفي العام الماضي، عندما كانت هناك اشتباكات بين القوات الصينية والتبتية، لم ندخر جهدًا في تقديم المساعدة الكاملة للقوات الصينية، وكان جميع المسؤولين المدنيين والعسكريين في الجانب الصيني على دراية تامة بذلك. إلا أن هناك شخصًا يُدعى (لوه قا يي تشو)، من دير (قاتشا) التابع لقريتنا (بايلي)، قد دأب على مضايقة أهل قرية (بايلي) مرارًا وتكرارًا منذ العام الماضي، مستوليًا بقوة على ممتلكات رهباننا وعوامنا. كما أنه دائمًا ما يثير الفتن والمشاكل بين الأديرة المختلفة وكبار وصغار المسؤولين المحليين. ومع أن قرية (بايلي) كان يحكمها منذ القدم مسؤولون يتوارثون المنصب، إلا أن (لوه قا يي تشو) طمع مرارًا وتكرارًا في منصب حاكم (بايلي) ليتملكه. وفي العام الماضي، قام بالقبض تعسفًا على مدبر منزل (بوذا تشينغ تشو)، الذي تعرض لإهانة لا تطاق. ولهذا السبب، نشأ نزاع مفاجئ بين الطرفين، وكاد أن يؤدي إلى انفجار الموقف. ولحسن الحظ، تدخل المسؤولون لتسوية الأمر والتوصل إلى هدنة، وتمكنوا من توقيع اتفاق سلام، فهدأت الأمور. ولكن بعد ذلك، قام (ناتشو) ورفاقه من عصابة (قاتشو)، الذين لم يلتزموا بالاتفاق، بطرد رهبان دير (بايلي). ثم لجأوا إلى حيلة خبيثة، محرضين دير (لينغ تسانغ) على الزعم زورًا بأن أراضي وممتلكات دير (نا تشا) التابع لدير (بايلي)، بالإضافة إلى خمس عشرة أسرة، قد تم التنازل عنها لهذا الدير بالفعل. وبذريعة ذلك، وبسوء نية، أرادوا الاستيلاء على هذه الممتلكات بالقوة. علاوة على ذلك، اتخذوا ذريعة اتهام قريتنا الصغيرة (بايلي) بأنه خلال اشتباكات العام الماضي بين الصينيين والتبتيين، وبسبب مساعدتنا للقوات الصينية، قُتل الراهب (لوه شي) من دير (دا جيّه) متأثرًا بجراحه أثناء مقاومته للقوات الصينية، وشرعوا في المطالبة بتعويض عن حياته، وهو أمر غير معقول ومجرد مضايقة مفرطة. نحن نؤكد أن أراضي وشعب قرية (بايلي) ودير (نا تشا) لطالما كانت تحت حكم الحكومة الصينية، وأن سكانها دائمًا ما كانوا ملتزمين بالقانون. ومع ذلك، يعتمد (ناتشو) على نفوذ دير (دا جيّه)، ويستغل الفرص مرارًا لإثارة المشاكل، مضايقًا الناس بشكل مفرط، وهو أمر يصعب تحمله. وبعد تفكير عميق، لم نجد مناصًا سوى التوسل إلى لجنتكم الكريمة لتبدي عطفها وتفهم وضعنا المتدني، وتمنحنا المساعدة لوقف دير (دا جيّه)، وعدم السماح لهم بالتعدي بقوة على أراضي وممتلكات قرية (بايلي)، وعدم السماح لهم بإثارة الفتن بين الصينيين والتبتيين، لتجنب حدوث كوارث. لذا، وبغير إرادتنا، نتجرأ على تقديم هذا الالتماس، سائلين تفضلكم بالنظر فيه والموافقة على تنفيذه.»

.indd 372-373 2025-11-27 10:56:21

توقيع رسالة الشكوى هذه جاء باسم «رهبان قرية (بايلي) الصغيرة وعوامها، وعموم دير (نا تشا)، وعموم دير (قولونغ)».

من خلال أسلوب صياغة الرسالة، يمكن الاستنتاج أنها لم تُترجم من اللغة التبتية، بل كُتبت بواسطة شخص صيني، وإلا لما احتوت على هذا الكم من الكليشيهات البيروقراطية. كاتب الرسالة لم يكن يتمتع بأسلوب جيد، وتعبيره عن الأمور كان غير واضح ومربك. بالإضافة إلى ذلك، لم يُوضع معيار موحد للترجمة الصينية لأسماء الأماكن والأشخاص التبتية عبر التاريخ. فالنطق الواحد في اللغة التبتية قد يُكتب بأحرف صينية مختلفة، بسبب اختلاف مستوى الثقافة لدى المترجمين، أو اختلاف اللهجات الصينية المحلية، أو اختلاف عادات الكتابة، أو اختلاف الفترات الزمنية، مما يؤدي إلى تباين كبير في كتابة أسماء الأشخاص والأماكن، ويجعل قراءة هذه المادة الأصلية تبدو غامضة ومليئة بالتفاصيل المتشابكة. على سبيل المثال، اسم المكان «(تشا مو دوه)" لم يتغير نطقه في التبتية، لكنه يُكتب الآن «(تشانغدو)». ومثال آخر، دير (دا جيّه) المذكور في هذه الوثيقة، يُكتب اليوم بشكل شائع باسم «(داجين)».

لذلك، يجب أن نروي القصة من البداية.

في عصر (تشاو إرفنغ)، امتثل «شيخ قبيلة (بايلي)»، أحد شيوخ قبائل (هوه أر) الخمس في شمال (كانغ)، لسياسة تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين. ولكن بعد سقوط سلالة (تشينغ) وتأسيس جمهورية الصين، استعاد «شيخ قبيلة (بايلي)»، شأنه شأن العديد من شيوخ القبائل في مناطق حدود (سيتشوان)، النظام المشيخي الوراثي، واستعاد الأراضي والسلطة التي فقدها مؤخرًا. وقد صيغت الرسالة بأسلوب لبق: «تخضع منطقة (بايلي) لحكم مسؤولين يتوارثون المنصب جيل بعد جيل." يوجد في أراضي «شيخ قبيلة (بايلي)» دير بوذي صغير تابع لمذهب ساكيا في البوذية التبتية، ويُدعى دير (يالا)، وكان بمثابة دير عائلي لـ«شيخ قبيلة (بايلي)». عندما كان أول تجسيد للبوذا الحي رئيسًا للدير، قام «شيخ قبيلة (بايلي)» بتخصيص خمس عشرة أسرة وأراضيها التابعة لها لدير (يالا)، كنوع من الدعم، وتم توثيق ذلك كتابيًا. بعد وفاة أول تجسيد للبوذا الحي، وُلد التجسيد الثاني للبوذا الحي في عائلة تابعة لدير (داجين). هذا التجسيد الثاني، واسمه (تشيوه يونغ)، عندما بلغ سن الرشد، قام بإهداء الأسر الخمس عشرة والأراضي التي كان «شيخ قبيلة (بايلي)» قد خصصها سابقًا لدير (يالا)، إلى دير (داجين).

يُعد دير (داجين) واحدًا من ثلاثة عشر ديرًا رئيسيًا لطائفة (غيلوغ) في منطقة (كانغ)، ويضم آلاف الرهبان، ويمتلك ثروة هائلة وتسليحًا جيدًا. على الرغم من أنه يقع داخل حدود مناطق شيوخ القبائل في حدود (سيتشوان)، وتحت إدارة محافظة (قانتسي) التي أنشأها (تشاو إرفنغ) بعد تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، إلا أنه يتمتع بعلاقات عميقة مع الجانب التبتي لأسباب دينية. وخلال صراع (سيتشوان) والتبت في السنة السابعة من حكم جمهورية الصين، دعم دير (داجين) علنًا الجيش التبتي. خلال السنوات العشرة التالية للهدنة، ومعتمدًا على ثروته الكبيرة وآلاف الرهبان الذين يمتلكهم، بالإضافة إلى قوته المسلحة الكبيرة، لم يعر اهتمامًا لشيوخ القبائل المحليين الذين كانت سلطتهم تتضاءل تدريجيًا. وتفاقمت الخلافات بينه وبين شيخ قبيلة (بايلي). في ظل هذه الظروف، شعر شيخ قبيلة (بايلي) باستياء شديد عندما رأى أن التجسيد الثاني للبوذا الحي في دير (يالا) قد أهدى الأسر والأراضي التي كان قد خصصها هو نفسه للتجسيد الأول للبوذا الحي في دير (يالا)، إلى دير (داجين)، وطالب شيخ قبيلة (بايلي) التجسيد الثاني للبوذا الحي في دير (يالا) بإعادة الوثيقة الأصلية التي وُقعت مع التجسيد الأول، لكن التجسيد الحي (تشيوه يونغ) رفض ذلك.

ثم اقترح شيخ قبيلة (بايلي) استعارة الوثيقة لنسخها ثم إعادتها. وعندما طالب التجسيد الحي (تشيوه يونغ) بإعادة الوثيقة مرة أخرى، بدأ شيخ قبيلة (بايلي) في المماطلة ورفض إعادتها. كان القصد بالطبع هو استخدام هذه الوثيقة كدليل لتقديم شكوى إلى حكومة جمهورية الصين، والمطالبة باستعادة الأراضي والسكان، وإلا لما ظهرت رسالة الشكوى تلك في أرشيفات حكومة جمهورية الصين.

خلال عهد جمهورية الصين، تم تعيين مسؤولين مدنيين في مناطق شيوخ القبائل في حدود (سيتشوان)، وكانت كل من (بايلي) ودير (داجين) تحت سلطة حاكم محافظة (قانتسي). لكن الحكومة المحلية واجهت صعوبة في تطبيق أوامرها. وعندما كانت هناك شكاوى من الطرفين، لم تستطع حكومة محافظة (قانتسي)، ولم تجرؤ، على إصدار حكم عادل لحل النزاع، واضطرت إلى الاكتفاء بالوساطة. وعندما لم تسفر الوساطة عن نتيجة، لم يكن أمام حاكم المحافظة سوى الوقوف متفرجًا.

عندما رأى شيخ قبيلة (بايلي) الوضع، قام برشوة رهبان آخرين في دير (يالا)، بهدف تحييد التجسيد الثاني للبوذا الحي.

أدرك التجسيد الحي (تشيوه يونغ) في دير (يالا) أنه أصبح معزولًا بشكل متزايد في منطقة شيخ قبيلة (بايلي)، فقرر ببساطة التنازل عن الدير والوثيقة بالكامل لدير (داجين). دير (داجين) لم يكن معزولًا عن شؤون الدنيا، لذلك، بالطبع، قبل الهدية المقدمة إليه بالكامل دون تردد.

وهكذا، تحول الصراع بين شيخ قبيلة (بايلي) وديره العائلي إلى صراع مع دير (داجين) القوي.

قد يقول القراء: «لماذا دائمًا ما تكون هناك نزاعات تافهة ومقيتة في هذه المنطقة؟»

[redacted].indd 374-375 2025-11-27 10:56:21

نعم، في مناطق شيوخ القبائل التابعة لـ (سيتشوان)، تتشابك العديد من الصراعات بين شيخ قبيلة وآخر، أو بين شيخ قبيلة ودير، أو حتى بين دير وآخر، وغالبًا ما تنبع من صراعات تافهة على المصالح، ولا تحمل أي جديد. لكن عندما يفشل الحاكم في السيطرة بشكل صحيح، تتطور هذه الصراعات إلى اضطرابات كبيرة. ومع ذلك، فإن هذه النزاعات التافهة لا تتوقف عن الظهور، ومع كثرة الأحداث، لا يمكن تحديد أي منها سيتطور وأيها لن يتطور، مما يؤدي إلى تكرار هذه الأحداث مرارًا وتكرارًا. وقد وصف مؤرخ فرنسي هذه الظاهرة بأنها «إعادة ضبط التاريخ»، بمعنى أن الأحداث التي تجري في مجتمع راكد تشبه المعداد الصيني (أباكوس)، فبعد أن تمتلئ الخانات المحدودة، تعود إلى الصفر لتبدأ من جديد.

إن التسوية السلمية للصراعات هي بمثابة وضع نفسك على بركان لا تعلم متى أو كيف سينفجر.

البركان على وشك الانفجار في النهاية.

هذه المرة، شرارة الانفجار هي حصان.

فقد شيخ قبيلة (بايلي) حصانًا جيدًا. وفي جو العداء السائد، اشتبه بشكل طبيعي في أن الحصان قد سُرق من قبل سكان تابعين لدير (داجين). فأرسل من يطلب إعادته. وبغض النظر عما إذا كان هذا قد حدث بالفعل، ففي هذا الجو العدائي، لم يعترف دير (داجين) بالاتهام، وطردوا المرسل ببساطة. بطبيعة الحال، أراد شيخ قبيلة (بايلي) الانتقام. كيف ينتقم؟ كانت ابنته على علاقة جيدة بلاما من دير (داجين). في السابق، كان يسمح لهما بالاختلاط دون تدخل، لكن هذه المرة، وفي نوبة غضب، طرد شيخ قبيلة (بايلي) هذا اللاما الذي لم يلتزم بالتعاليم الدينية من منطقته. شعر اللاما بالإهانة وعاد إلى دير (داجين) ليشتكي. اشتعلت مشاعر الغضب بين رهبان دير (داجين)، وفي 18 يونيو 1930، شنوا هجومًا مفاجئًا على شيخ قبيلة (بايلي). لم يتمكن شيخ قبيلة (بايلي) من الصمود، وهرب إلى منطقة (دونغ قو). كما فر رؤساؤه وبعض رعاياه تباعًا. بين عشية وضحاها، احتل دير (داجين) جميع أراضي شيخ قبيلة (بايلي). وقد ورد وصف أكثر تفصيلاً للحدث في برقية أرسلها القائد (ليوون هوي)، قائد الجيش الرابع والعشرين، إلى الحكومة الوطنية:

"في محافظة (قانتسي) التابعة لمنطقة (شيكانغ)، نشأ خلاف بين رهبان ديري (دا جيّه) (داجين) و(يالا) في يونيو من هذا العام بسبب نزاع على الممتلكات. اعتمد دير (دا جيّه) على قوته وغطرسته لمضايقة (بايلي)، فجمع جميع رهبانه، مسلحين ببنادق محشوة بالذخيرة الحية، معلنين أنهم لن يتوقفوا حتى يدمروا (بايلي) تمامًا. وبناءً على طلب رهبان وشعب (بايلي) للإنقاذ، تم إرسال موظف لوقف تمرد دير (دا جيّه)، للحفاظ على وحدة الأراضي. وقد تم إبلاغ ذلك إلى لجنة (شيكانغ) السياسية والقوات المتمركزة هناك، وتم إصدار أمر صارم للمعسكر والمحافظة بالتحقيق والتعامل مع الأمر بعدالة. رفض دير (دا جيّه) الانصياع للتحذيرات، وتم إرسال (تشوتسان يي شيان ون) على عجل لإقناعه، مع توجيهات له بجمع رهبان وشعب (بايلي) وجميع رهبان دير (دا جيّه) للتفاوض سلميًا والتوسط بحكمة. لكن دير (دا جيّه) تجرأ على إشعال فتيل الصراع في السادس من يونيو، وقاد قواته في هجوم عنيف، وأطلق النار بكثافة، واحتل المرتفعات في (بايلي)، وأحرق عشرات المنازل المدنية. ثم احتل قرية (بايلي)، واقتاد معه عشرات الرجال والنساء، وصادر أكثر من 200 بندقية سريعة وبندقية شوكة، ورفع علنًا العلم الأصفر ذو الأسد، وارتدى زيًا عسكريًا أصفر، ووقف في حالة تأهب ومواجهة مع قواتنا."

نصف هذه البرقية كان غامضًا.

"العلم الأصفر ذو الأسد" هو علم الجيش التبتي، و"الزي العسكري الأصفر" هو زي الجيش التبتي. قد يعني هذا أن الجيش التبتي في (ده قه)، المتمركز في المحافظة المجاورة لـ(قانتسي)، قد تسلل إلى (قانتسي) وشارك في القتال. أو قد يعني أن الرهبان المسلحين في دير (داجين) استخدموا علم الجيش التبتي وارتدوا زيه الرسمي، للإشارة إلى أنهم يعتبرون أنفسهم قوة مسلحة تابعة لحكومة التبت المحلية.

لم تذكر البرقية ذلك صراحةً. وهذا يشير إلى أن الجيش الرابع والعشرين، الذي وصل حديثًا إلى مناطق حدود (سيتشوان)، كان يرغب في تهدئة الأمور وتجنب بدء حرب بسهولة. هذا الموقف كان بالطبع مرتبطًا بالوضع الدولي والمحلي في ذلك الوقت. داخل المقاطعة، على الرغم من أن (ليوون هوي) كان يسيطر على مناطق حدود (سيتشوان)، إلا أن تركيزه الأساسي كان على المناطق الغنية داخل (سيتشوان)، حيث كان يخوض صراعات خفية وعلنية مع أمراء الحرب الآخرين داخل (سيتشوان). على المستوى الوطني، لم تكتمل وحدة الحكومة الوطنية بقيادة (شيانغ كاي شيك)، الذي تولى الحكم منذ فترة قصيرة. وعلى الصعيد الدولي، كان اليابانيون، الذين دخلوا بالفعل شمال شرق الصين، يستعدون للحرب، وكانت تلك عشية حادثة 18 سبتمبر. في مواجهة هذا الوضع الخطير، لم تكن هناك رغبة في بدء حرب جديدة في المناطق الحدودية.

الجانب التبتي كان بالطبع يدرك هذه الظروف تمامًا، واستغل هذه الفرصة لتوسيع نفوذه في مناطق حدود (سيتشوان).

في هذا الوقت، تم تخصيص مناطق حدود (سيتشوان) كمنطقة دفاع للجيش الرابع والعشرين التابع للجيش الثوري الوطني. وكان (ليوون هوي)، قائد الجيش الرابع والعشرين، يشرف على هذه المنطقة بصفته قائد قيادة دفاع حدود (سيتشوان) و(كانغ). لكن في ذلك الوقت، كان الجزء الأكبر من الجيش الرابع والعشرين يتمركز في المناطق الداخلية من (سيتشوان)، وكان (ليو) نفسه يقيم بشكل دائم في (تشنغدو). وبعد توليه منصب القائد العام للدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ)، عين (ما سو) كقائد لواء في جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ)، متمركزًا في (كانغ دينغ)، للدفاع عن مناطق حدود (سيتشوان).

[redacted].indd 376-377 2025-11-27 10:56:21

عندما وقعت المشكلة في (قانتسي)، كان حاكم المحافظة خائفًا ومترددًا، وعاجزًا عن التصرف، ورأى أن المشكلة الصغيرة تتفاقم لتصبح كبيرة، فلم يجد أمامه سوى طلب إرسال قوات لقمع التمرد. في ذلك الوقت، كانت (قانتسي) تستضيف معسكرًا تابعًا لجيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ). فأمرت قيادة الجيش الرابع والعشرين القوات المتمركزة في (قانتسي) بقيادة قوات (لوه ينغ) بالتدخل. فرضت قوات (لوه ينغ) حصارًا على دير (داجين)، وألزمت الدير بدفع عشرة آلاف تايل من الفضة كتعويض عن خسائر شيخ قبيلة (بايلي). تحت هذا الضغط الشديد، وافق دير (داجين) ظاهريًا على الدفع، لكنه أرسل سرًا مبعوثين إلى (ده قه) لمقابلة قائد الجيش التبتي (ده من داي بن) المتمركز هناك، وطلبوا دعم الجانب التبتي. بعد فترة وجيزة، تلقى دير (داجين) ثلاثمائة بندقية بريطانية كهدية من الجانب التبتي. وبفضل هذا الدعم، أصبح موقف دير (داجين) أكثر تصلبًا.

لقد قرأتُ مقال ذكريات (ده من. يون تشونغ تشوه ما) المنشور في «مختارات من المواد التاريخية والثقافية التبتية، المجلد ٣». المؤلفة هي زوجة (ده من. لانغ جي بينغ تسوه)، قائد الجيش التبتي الذي شارك في حرب (داجين - بايلي) في ذلك الوقت. ذكرت في المقال أن أمين خزانة دير (داجين) في ذلك الوقت «ذهب إلى لاسا لتقديم تقرير إلى حكومة (كاشاغ) والدالاي لاما الثالث عشر»، و«توسل بشدة ألا ‹يُلقى الرضيع من حضن أمه الحنون، طالبًا الحماية". تروي (يونغ تشون تشوما) في المقال إنه بعد فترة وجيزة، تلقى زوجها، الذي كان قائدًا في الجيش التبتي، توجيهات من الدالاي لاما الثالث عشر في لاسا جاء فيها: «بخصوص نزاع (بايلي) و(داجين)، أمر (ده من داي بن) بقيادة خمسين فارسًا والتوجه بسرعة إلى دير (داجين)... استدعوا ممثلين عن (بايلي)، وأمروا الرهبان بعدم التدخل في النزاع. يجب عليك (أي (ده من داي بن)) التوسط والعمل كوسيط، والتعامل مع الأمر بحكمة. دير (داجين) هو بلا شك دير تابع لمكتبنا (أي حكومة (كاشاغ)). إذا سمحنا للمسؤولين الصينيين في (سيتشوان) بالتصرف بتحيز، فسوف يضر ذلك بسمعة ومصالح مكتبنا. لذلك، يجب الرد بقوة من الجانب العسكري والسياسي."

وفي نفس هذه المادة التاريخية التبتية، التي تحمل عنوان «سبب ذهاب (ده من. لانغ جي بينغ تسوه) إلى (دومي) ومعركة معبر (كانغ تو)»، هناك رواية أخرى لسبب نزاع (داجين - بايلي): حيث قام زعيم قبلي في منطقة (قانتسي) بصب تمثال برونزي لـ(أفالوكيتشفارا) ذي الألف ذراع وألف عين بحجم إنسان بالاشتراك مع آخرين. كان من المتفق عليه في الأصل أن يُهدى هذا التمثال إلى دير (داجين)، «لكن حدث تغيير لاحق»، ولم يعد يُهدى إلى دير (داجين)، بل إلى دير (يالا) في (بايلي). «ولهذا السبب، فشلت عدة مفاوضات خاصة»، بمعنى أن كلا الديرين أرادا التمثال. فاضطروا للبحث عن حكم. «اشتكى الأمر إلى (ليو تسي تشيان) «(ليوون هوي)» في (سيتشوان). وأصدر (ليو) فورًا رسالة متحيزة، جاء فيها: ‹في هذا الأمر، يجب الالتزام بإرادة المؤمنين والرعاة، ولا يجوز لدير (داجين) إثارة المشاكل. وإذا نشأ أي خلاف، فسيتم فرض عقوبات مدنية وعسكرية بناءً على خطورة الموقف›».

لو كان الأمر كذلك بالفعل، فإن تصرف (ليوون هوي) لم يكن فيه أي تحيز. فهل يعقل ألا يكون للمؤمنين حرية اختيار المعبد الذي يضعون فيه تمثال بوذا الذي صنعوه ليعبدوه؟

في هذه المقالة، قاد (ده من داي بن) على الفور فرقة من الفرسان من (ده قه) إلى دير (داجين)، لاستدعاء الزعيم الذي صنع تمثال بوذا للقاء، والتوسط في النزاع بين الديرين. لكن الزعيم الذي صنع تمثال بوذا وكان ينوي إهداءه للدير، عندما رأى أن هذا الأمر قد تسبب في مثل هذه المشكلة غير المتوقعة، أصيب بالرعب بطبيعة الحال، ولم يكن أمامه سوى الفرار، قيل إنه «توجه إلى (سيتشوان)".

وفقًا لهذه المادة التاريخية التبتية، كان المسؤولون التبتيون في الخط الأمامي لـ (سيتشوان) والتبت في ذلك الوقت يعارضون استئناف القتال. فقد كتب الاثنان من (ده قه)، بعد التشاور، رسالة إلى الدالاي لاما جاء فيها: «إن سبب نزاع (داجين - بايلي) هو تمثال (أفالوكيتشفارا) ذي الألف ذراع وألف عين بحجم إنسان. فإذا أخذ مكتبنا (أي حكومة (كاشاغ)) في الاعتبار تعاليم البوذية ومصالح الكائنات الحية، وقام بصب تمثال آخر جيد بنفس الحجم، وأهداه لأي من الطرفين، فإن الديرين سيتمكنان من التصالح، وسيتلاشى النزاع كالسحاب وتشرق الشمس. وإلا، فإننا نخشى أن تؤدي وشاية المائة أسرة بقيادة (آبو) إلى (ليو تسي تشيان) «(ليوون هوي)» في (سيتشوان) إلى إشعال حرب. في هذه الحالة، طريق (كانغ) والتبت بعيد، والوديان عميقة وضيقة، والتلال والجبال كثيرة، والسكان على طول الطريق فقراء للغاية. وبالتالي، لن تصل المساعدات العسكرية والذخائر والتموين في الوقت المحدد، وسيتعين علينا خوض معركة معزولة دون دعم. وإذا حدث ذلك، فمن المؤكد أن المسؤولين والجنود سيموتون، وستصبح ذخائر مكتبنا غنيمة للعدو، وسيفقد مكتبنا كل من اسمه وثروته. لذلك، نقدم هذا التقرير بإخلاص، وليس بدافع الخوف".

لم يرد الدالاي لاما مباشرة، بل «أرسل صندوقًا يحتوي على تمائم واقية تسمى ‹الدرع الماسي›، وهي صور طينية لآلهة ياما فاجرا مغلفة بقطعة قماش صفراء». وفي وقت لاحق، تلقوا أمرًا جديدًا: «إذا اعتمدت (بايلي) على (ليوون هوي) من (سيتشوان) كداعم لها، وقامت بالاعتداء العسكري على (داجين)، فإن هذا الدير (داجين) هو بلا شك دير تابع لمكتبنا. وقد تم تعيين رؤساء الأديرة المتعاقبين من قبل التبت، وبالتالي، حتى لو أدى الأمر في النهاية إلى حرب، فليس لدينا سوى مواجهة شاملة، فكيف يمكن لمكتبنا أن يستسلم دون سبب!"

في هذه الأثناء، كان «(ليوون هوي) من (سيتشوان)» يتخذ إجراءات أيضًا.

.indd 378-379 2025-11-27 10:56:22

بعد فشل الوساطة الأولى، أرسل قائد اللواء (ما سو) قائد الفوج الثاني والأربعين (ما تشنغ لونغ) كقائد للقوات المتقدمة، على رأس أربع كتائب من الجنود، من (كانغ دينغ) إلى (قانتسي)، بهدف إجبار دير (داجين) على الخضوع بالقوة. وبإضافة الكتيبة المتمركزة سابقًا في (قانتسي)، أصبح لدى جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) خمس كتائب في منطقة (قانتسي)، أي أكثر من ألفي جندي مسلح.

بعد وصول التعزيزات، قام حاكم محافظة (قانتسي) (هان) والقائد (ما) مرة أخرى بمحاولة التوسط. وقبل ذلك، وفي ظل مخاوف من تدخل الجيش التبتي واستغلاله للفرصة، أرسلوا خطابًا إلى قائد الجيش التبتي (ده من داي بن) المتمركز في (ده قه) لاستطلاع موقفه. رد (ده من داي بن) بأن دير (داجين) يقع ضمن الأراضي الصينية، وأن الجانب التبتي لن يتدخل في شؤونه. بعد الحصول على هذا الضمان، اطمأن قائد اللواء (ما) والحاكم (هان)، وتوجهوا بقواتهم إلى دير (داجين)، وقدموا ستة مقترحات للتسوية: 1. يسلم الدير جميع الأسلحة؛ 2. تهدم الجدران العالية لدير (داجين) التي تشبه التحصينات العسكرية؛ 3. يدفع الدير غرامة قدرها أربعمائة ألف تايل من الفضة؛ 4. يعوض الدير شيخ قبيلة (بايلي) وسكانه عن الخسائر التي تكبدوها؛ 5. يسلم الدير المتسببين الرئيسيين في المشكلة؛ 6. يقدم الدير تعهدًا بعدم إثارة المشاكل في المستقبل.

من الطبيعي أن دير (داجين) لم يكن ليقبل مثل هذه التسوية.

في مواجهة الحشود العسكرية، قام دير (داجين) بطلب وساطة قائد الجيش التبتي من جهة، ومن جهة أخرى، قام بتسليح رهبانه وسكان المنطقة التابعة له، واستعد بنشاط للحرب. استغل الجيش التبتي فرصة الوساطة لدخول منطقة (قانتسي) علنًا. وقامت القوات من الجانبين ببناء التحصينات وحفر الخنادق، مما أدى إلى حالة جمود ومواجهة في (قانتسي). وبحلول 30 أغسطس 1930، قُتل قائد فصيلة من الجيش الرابع والعشرين أثناء خدمته في الخط الأمامي بنيران الجيش التبتي. وعلى الفور، قصفت قوات (ما تشنغ لونغ) دير (داجين)، وانضم الجيش التبتي علنًا إلى القتال. وهكذا، اندلعت رسميًا ما عُرفت تاريخيًا بـ«حرب (داجين - بايلي)".

خلال الحرب، تباينت الانتصارات والهزائم بين الطرفين، لكن الحكومة الوطنية كانت تسعى دائمًا إلى تهدئة الأمور. أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت التابعة للحكومة المركزية للحزب القومي أمرًا برقياً إلى قائد الجيش الرابع والعشرين (ليوون هوي) «بعدم مواصلة الهجوم والتوصل إلى تسوية سلمية، للحفاظ على استقرار الوضع في التبت». كما أرسلت برقية إلى الدالاي لاما لإبلاغه بوقف إطلاق النار من قبل قوات الجيش الرابع والعشرين. وأعربت حكومة التبت المحلية أيضًا عن استعدادها لقبول الوساطة.

وهكذا، ساد الهدوء المؤقت على جبهة (قانتسي) التي شهدت معارك ضارية.

(تانغ كه سان)، المبعوث المنتظر للوساطة

من سيقوم بالوساطة إذن؟

رفعت لجنة شؤون منغوليا والتبت تقريرًا إلى المجلس التنفيذي للحكومة الوطنية، طالبةً إرسال شخصيات باسم الحكومة المركزية للوساطة. في 17 ديسمبر 1930، أصدر المجلس التنفيذي توجيهًا باسم رئيسه، (تشيانغ كاي شيك)، جاء فيه: «الطلب المقدم لاختيار موظفين مطلعين على أوضاع (كانغ) والتبت للذهاب إلى (كانغ) للتحقيق والتعامل بحكمة، ينبغي الموافقة عليه. لذا، يجب على اللجنة المذكورة تعيين من تراه مناسبًا."

كان الوضع متوترًا في الجبهة، لكن عمل لجنة شؤون منغوليا والتبت تقدم ببطء. ففي 31 يناير 1931، فقط، أبلغت اللجنة المجلس التنفيذي بأن العضو (سون شنغ وو) سيتوجه للوساطة، ولم يصدر أمر التعيين الرسمي إلا في 12 فبراير. وفي الوقت نفسه، تم تعيين (ليوزان تينغ)، عضو لجنة شؤون منغوليا والتبت، والذي كان قائدًا للجيش الحدودي في منطقة (كانغ) لسنوات عديدة، كمفوض خاص ومساعد لـ(سون) يرافقه في مهمته.

لكن العضو (سون) لم يذهب فورًا بعد تسلمه الأوامر. وبعد أكثر من شهر، في 23 مارس، أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت أمرًا جديدًا يفيد بأن «العضو (سون) لديه مهمة أخرى، ولا يمكنه الذهاب»، وتم استبداله بالعضو (تانغ كه سان) و(ليوزان تينغ) «للتوسط".

في 11 أبريل، وصل المبعوث الخاص (تانغ كه سان) إلى (بي تشانغ) بمقاطعة (خوبي)، ولم يتمكن من المضي قدمًا. والسبب هو أن «قوات (قونغ خه لونغ)، التابعة للحزب الشيوعي، كانت تنتشر في منطقة (بادونغ)، وكانت قوات الجيش الحادي والعشرين تقوم بعمليات قمع وتطويق، مما أدى إلى عرقلة الملاحة الجوية، فاضطر للبقاء هناك». في 18 أبريل، وصل (تانغ) إلى (تشونغ تشينغ). وفي 3 مايو، أرسل (تانغ كه سان) برقية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، «وصلت إلى (تشنغدو) اليوم». لم يتوجه (تانغ) فورًا إلى منطقة (كانغ) من (تشنغدو)، بل كان ينتظر قائمة ممثلي التفاوض الذين سيرسلهم الجانب التبتي وموعد وصولهم إلى منطقة (كانغ)، ثم سينطلق. وكان رأي لجنة شؤون منغوليا والتبت أنه لا داعي لانتظاره، «نرجو منه التقدم فورًا لتجنب المزيد من التأخير".

[redacted].indd 380-381 2025-11-27 10:56:22

كان الوقت منتصف شهر مايو، وقد مضى نصف عام على مطالبة الحكومة الوطنية بوقف إطلاق النار في الجبهة، والانتظار حتى يتم التوصل إلى تسوية سلمية.

المشكلة هي أن القوات في الجبهة لم تلقِ أسلحتها وتنتظر الوساطة لمجرد وجود أمر من الحكومة المركزية. فبعد هدنة قصيرة، استؤنفت المعارك في جبهة (قانتسي)، وتراجعت قوات الجيش الرابع والعشرين باستمرار، بينما واصل الجيش التبتي هجومه محققًا انتصارات متتالية، واحتل بالفعل كامل منطقة (قانتسي) وأجزاء كبيرة من محافظتي (لو هوَه) و(تشان هوا).

وثقت المادة التبتية التي تحمل عنوان «سبب ذهاب (ده من. لانغ جي بينغ تسوه) إلى (دومي) ومعركة معبر (كانغ تو)» حالة الحرب: «ذات يوم، وردت معلومات تفيد بظهور أكثر من مائة جندي صيني عند رأس جسر (يا ري)، وكانوا يقومون ببناء تحصينات. عند سماع ذلك، تم إرسال خمسين راهبًا مسلحًا من دير (داجين) إلى ضفة النهر لحراسة الجسر. إن قدرة الدير على حشد الرهبان بهذه السرعة تعود إلى أن معظم الأديرة في منطقة (هور)، باستثناء عدد قليل، تشترط على الرهبان الجدد عند انضمامهم إحضار حصان وسكين وبندقية نارية أو آلية تسلم للدير.» هذا ليس معبدًا لتحويل الناس إلى رهبان، بل هو تجنيد عسكري. «قام (داي بن) بنشر قواته لشن هجوم مضاد، وقرر أولاً شن هجوم ليلي على رأس الجسر على الضفة المقابلة. فوضع 150 جنديًا تبتيًا من قوات (داي بن) الثامن على الجبل الشمالي، و200 راهب جندي على الجبل الأوسط، وأبقى بقية قوات (داي بن) الثامن والرهبان الجنود (80 شخصًا) و(ده من) نفسه على الجبهة الأمامية. وفي نهاية ذلك الشهر، شنوا هجومًا ليليًا على تحصينات قوات (سيتشوان) عند رأس الجسر، وطردوهم بالكامل. بعد ذلك، شنوا هجومًا واسع النطاق من هذه المواقع الثلاثة، وخاصةً من الجبهة الأمامية حيث قام (جو بون تشي با دوه جي) وجنوده التبتيون بتلويح سيوفهم الكبيرة واندفعوا مباشرة إلى خنادق قوات (سيتشوان)، واشتبكوا معهم في قتال قريب، وأسروا 112 ضابطًا وجنديًا من قوات (سيتشوان). وبهذه الطريقة، تم الهجوم من ثلاث جهات، مما أسفر عن سقوط العديد من القتلى والجرحى. خافت قوات (سيتشوان) ولم تجرؤ على المقاومة العنيدة. بعد المعركة، تم توزيع الأموال من الفضة والأسلحة التي غنمتها القوات على جماعة (تشي با دوه جي)، وتم تحسين وجباتهم الغذائية.»

تصف هذه المقالة وصفًا إيجابيًا للجنود الصينيين الذين تراجعوا عن القتال وأُسروا: «لقد رأى الكاتب في (جيانغ ري) أن جنود الجيش الصيني جميعهم شبان في العشرينات من العمر، بينما كان الضابطان في الخمسينات تقريبًا. كانوا جميعًا يرتدون قمصانًا سوداء أو زرقاء، وسراويل وقمصانًا بلون أصفر باهت، ومعاطف قطنية بيضاء من القماش الخشن، وجوارب قطنية بيضاء مرقعة، وأحذية سوداء من القماش. كانوا يربطون علب الشاي حول خصورهم، ويلفون رؤوسهم بقطعة قماش سوداء، ويحملون لحافات قطنية مغطاة بالقماش على ظهورهم.» بهذه الهيئة، يبدون كعناصر ميليشيا شعبية.

نظرًا لأن (قانتسي) تقع على الطريق الرئيسي من (سيتشوان) إلى التبت، فبمجرد اندلاع الحرب، انقطعت طرق التجارة، وتكبد التجار بطبيعة الحال خسائر فادحة. «تعتمد التجارة في (شيكانغ) (غرب (سيتشوان) والتبت) بالكامل على التجارة في المحافظات الشمالية مثل (داووو)، و(لو هوَه)، و(قانتسي)، و(تشان هوا) كقوة مركزية... وبسبب الفوضى في (داجين)، تدهورت التجارة، وتكبدت خسائر فادحة.“

لذلك، في فبراير، أرسلت الغرفة التجارية العامة في (شيكانغ)، ومقرها (كانغ دينغ)، ممثلين طوعيين للتوسط، واتفقوا مع البوذا الحي (هادنغ) من دير (داجين) على لقاء في (قانتسي) في ٨ فبراير. لكنهم «انتظروا اليوم كله، لكن (هادنغ) خالف الوعد ولم يأتِ». لاحقًا، أرسل البوذا الحي (هادنغ) رسالة إلى ممثلي الغرفة التجارية، لكنه لم يتحدث عن النزاع بين دير (داجين) وشيخ قبيلة (بايلي)، بل طالب بتعويضات. أولًا، تعويض نفقات الجيش التبتي في إرسال القوات، وثانيًا، تعويض اللامات الذين قتلوا أو أصيبوا في الحرب. «كيف ستدفع نفقات الجيش التبتي إذا انسحب هذه المرة؟ وكيف سيعوض اللامات الذين أصيبوا أو قتلوا وجميع الخسائر الأخرى؟“

تضمنت الرسالة مطلبًا آخر يستحيل تحقيقه: «لن يكون هناك أمل في التوصل إلى تسوية إلا إذا تم وضع أديرة اللاما الثلاثة عشر تحت إدارتهم.“

في تلك الوثائق المدنية في ذلك الوقت، غالبًا ما كانت العبارات غير واضحة بالنسبة لنا اليوم، وهذه الجملة غير واضحة للغاية. يُفترض أن «أديرة اللاما الثلاثة عشر» تشير إلى الأديرة الثلاثة عشر الكبرى لطائفة (غيلوغ) في منطقة (كانغ)، وأن الضمير «هم» يشير إلى الجانب التبتي. وهذا يتوافق أيضًا مع رغبة الجانب التبتي في السيطرة على كامل منطقة التبت بعد مؤتمر سيملا. في ذلك الوقت، كان دير (داجين)، الذي يقع في مقاطعة (سيتشوان)، يعتبر نفسه ممثلاً للجانب التبتي بالكامل.

لاحقًا، التقى البوذا الحي (هادنغ) أخيرًا بممثلي الغرفة التجارية في (قانتسي).

”عندما وصل (هادنغ) إلى (قانتسي)، قدم له المسؤولون معاملة ممتازة، ولكن بمجرد أن غادر ممثلو جمعيتنا، بدأوا بإطلاق النار.“

هذا يعني أن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة، وبمجرد مغادرة ممثلي الغرفة التجارية، استأنف الطرف الآخر القتال. وتقول هذه البرقية، التي أرسلتها الغرفة التجارية العامة في (شيكانغ) إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، إن ممثلي المفاوضات بمجرد مغادرتهم، «شنوا هجومًا مضادًا من طرق مختلفة.» وعندما رأى ممثلو المفاوضات للغرفة التجارية «غرورهم بهذا الشكل، يأسوا من تحقيق السلام، عادوا على الفور.»

[redacted].indd 382-383 2025-11-27 10:56:22

لاحقًا، «أسست الجمعيات الشعبية والمنظمات القانونية في (شيكانغ) جمعية (شيكانغ) المدنية للوساطة السلمية، وانتخبوا بالإجماع (جيانغ يوون)، المستشار السابق في مجلس الشورى السياسي، بالإضافة إلى السادة (يانغ هاي تينغ) و(تشينغ تشنغ باي ما)، كممثلين»، وتوجهوا للوساطة، لكنها باءت بالفشل أيضًا، وكان ذلك في مارس 1931. في ذلك الوقت، كانت الحكومة الوطنية التي اتخذت قرار الوساطة لم تتمكن بعد من تحديد الشخصيات التي ستتولى هذه المهمة.

صراع بين ديروشيخ قبيلة.

صراع بين الجيش التبتي والجيش الحكومي.

معظم كتب التاريخ لا تكتب إلا عن صراعاتهم من أجل الهيمنة، وكأن هذا يشكل التاريخ كله.

ما يثير اهتمامي هو هذه الحرب التي وقعت في العصر الحديث وتركت وراءها وثائق أرشيفية غنية، حيث دفعت بالتجار والمواطنين إلى الواجهة. كانت صراعات الأديرة وشيوخ القبائل حتمية، وكذلك الاشتباكات بين الجيش التبتي وقوات الحكومة الوطنية. ولكن ماذا عن التجار والمواطنين؟ لقد ظهروا من أعماق التاريخ، إنهم حقًا لا يريدون الحرب. لذلك، عندما تأخر كبار موظفي الوساطة الذين أرسلتهم الحكومة، تقدموا هم بأنفسهم إلى الخط الأمامي لإقناع الأطراف بالسلام.

يحتوي ملف أرشيفي في «مختارات من أرشيف النزاع بين (كانغ) والتبت»، التي جمعها ونشرها الأرشيف التاريخي الثاني للصين ومركز أبحاث التبت الصيني، على تفاصيل محددة لكيفية تضرر التجار والمواطنين خلال الحرب.

يصف هذا الملف حالة تاجر ثري في منطقة شيخ قبيلة (بايلي). هذا التاجر الثري يدعى (ديه تشو لانغ جي)، ويمتلك مؤسسة تجارية تسمى (جيا بن كونغ). يبدو هذا التاجر من اسمه أنه من أصل تبتي. لقد كتب رسالة إلى (قه سانغ تسه رن)، وهو شخص تبتي يعمل في لجنة شؤون منغوليا والتبت، يشكو فيها من معاناته:

"هذه المرة، قام دير (داجين)، بسبب نزاع صغير على ممتلكات الدير، ورفضه لوساطة المسؤولين المحليين، ببدء أعمال عدائية، ونهب سكان (بايلي)، وأحرق منازلهم. على الرغم من أنني صديق لدير (داجين)، إلا أنني، كجزء من مجتمع (بايلي)، اضطررت للانضمام إلى هذا الجانب في الدفاع عن النفس بسبب العمل الجماعي. وبما أن الأمر كان نزاعًا محليًا داخل محافظة تابعة لمنطقة الدفاع العسكري الرابع والعشرين، لم يكن له في البداية علاقة بالجانب التبتي. علاوة على ذلك، فقد عملت مؤسستي، (جيا بن كونغ)، في التجارة لأجيال عديدة، وكانت لها أكبر أعمال تجارية في المناطق التبتية الداخلية والخارجية. ومن أجل مصلحتي الخاصة، لم أجرؤ على الإساءة إلى التبت بأي شكل من الأشكال.

إلا أنني فوجئت بأن حكومة التبت السابقة اتخذت من نزاع (داجين - بايلي) ذريعة، زاعمة أن مؤسستي هي التي حرضت عليه، وصادرت جميع ممتلكات مؤسستي في التبت، واحتجزت شركائي. وقد علمت أن هذا الأمر كان من فعل المرؤوسين، وليس بأمر من الدالاي لاما."

الحقيقة أن هذا التاجر من (بايلي)، الذي كان يمارس التجارة على الطريق السريع بين (سيتشوان) والتبت، اتُهم من قبل الجانب التبتي بـ"التخابر سرًا"، فتم القبض على شريكيه اللذين كانا يديران أعماله في التبت، (جامبا) و(آلو)، وسُجنا. بالإضافة إلى مصادرة ممتلكاته، فُرضت عليه غرامة تزيد عن مليون تايل من الفضة.

كان هذا التاجر التبتي ساذجًا بعض الشيء. فقد ظن أن وجود مواطن من (كانغ) يعمل مسؤولًا في الحكومة المركزية سيساعده، فكتب إليه رسالة شكوى يطالبه فيها «بإعادة الممتلكات والإفراج عن الشريكين». كان يتألم لخسائره المالية الضخمة، ولجأ إلى أي حل في يأس، لكنه لم يفكر للحظة أن الجيش التبتي، الذي كان يهاجم القوات الوطنية، لن يستمع إلى كلام الحكومة الوطنية ويعيد له ممتلكاته.

قام (قه سانغ تسه رن)، الذي كان يعمل في لجنة شؤون منغوليا والتبت، برفع طلب هذا التاجر إلى رؤسائه، واقترح اقتراحين: «أولًا، أن ترسل اللجنة برقية باسم رئيسها إلى الدالاي لاما لطلب إعادة الممتلكات، أو أن يتم إبلاغ مكتب الدالاي لاما في بكين بذلك. ثانيًا، أن يتم رفع الأمر إلى الحكومة الوطنية، وأن تصدر برقية باسم الرئيس إلى الدالاي لاما لطلب إعادة الممتلكات."

أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت بالفعل «تعليمات» إلى مكتب التبت في (نان جينغ)، «لإبلاغهم بإرسال برقية عاجلة إلى الدالاي لاما، للإفراج عن شركاء مؤسسة (جيا بن كونغ) التجارية والممتلكات المحتجزة، وإعادتها، تخفيفًا لمعاناة التاجر."

من خلال المواد الأرشيفية، يبدو أن الطرف الآخر لم يرد على الإطلاق.

لم يقتصر الأمر على قضية التاجر الصغيرة، بل إن الردود على القضايا الكبرى التي طرحتها لجنة شؤون منغوليا والتبت كانت سطحية للغاية.

شهدت هذه الفترة قضيتين رئيسيتين:

الأولى هي تحقيق وقف إطلاق نار حقيقي. والثانية هي تحديد الجانب التبتي لممثليه في المفاوضات في وقت مبكر.

بعد سقوط سلالة (تشينغ)، لم تتمكن حكومة جمهورية الصين الوليدة من إنشاء إدارة أو مكتب في لاسا. ولكن في مارس 1930، عين الدالاي لاما الثالث عشر راهبًا يُدعى (قون تشيوه تشونغ ني)، الذي كان متمركزًا سابقًا في معبد (يونغ خه قونغ) في بكين، كممثل عام له في بكين، ليكون مسؤولًا عن التواصل مع حكومة جمهورية الصين، والتحضير لإنشاء مكتب. عندما اندلعت حرب (داجين - بايلي)، كان مكتب التبت في بكين قد تأسس حديثًا، واستغلت الحكومة الوطنية هذه الفرصة للتواصل المستمر مع الجانب التبتي عبر هذا المكتب.

XXXX XXX.indd 384-385 2025-11-27 10:56:22

يبدو أن هذه «التعليمات» والبرقيات التي تم إرسالها عبر المكتب إلى الدالاي لاما لم يكن لها تأثير يذكر. حتى أن (ما فوشيانغ)، رئيس لجنة شؤون منغوليا والتبت في ذلك الوقت، كتب إلى «الممثل (قون)» في المكتب: «طلبت الحكومة من الطرفين إيقاف العمليات العسكرية فورًا، وأمرت لجنتنا بإنهاء النزاع سلميًا. لقد استجبت لإرادة الحكومة، وحثيت على إنهاء النزاع مبكرًا، وتبادلت الرسائل والبرقيات الطويلة».

في هذا الوقت، كان جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) يخضع لأوامر الوساطة المركزية، مما قيد حركته، بينما استغل الجيش التبتي ودير (داجين) هذا الوضع المواتي، فتقدموا خطوة بخطوة، وواصلوا التوغل والهجوم.

لم يكن أمام لجنة شؤون منغوليا والتبت سوى إرسال الرسائل والبرقيات إلى الدالاي لاما في لاسا.

في ٢٠ مارس، وردت برقية تقول: «تلقينا للتو برقيات من (ليو ون هوي) وأهالي (شيكانغ)، تفيد بأن ثلاثة (داي بن) من الجيش التبتي يقودون أكثر من أربعة آلاف جندي تبتي يهاجمون بقوة الممرات الرئيسية في (قانتسي) و(تشان هوا)، وقد تم الاستيلاء على دير (جيوه مو). نأمل أن يتم إصدار أمر عاجل للجبهة الأمامية بوقف الهجوم فورًا، والعودة إلى مواقعهم الأصلية، للحفاظ على الوضع العام، وإلا فسيكون من الصعب الحفاظ على الصداقة العامة والعلاقات الشخصية. نأمل في الرد.» هنا، «ثلاثة داي بن» لا تعني الجيل الثالث، بل تعني أن الجيش التبتي حشد قوة ثلاثة قادة. ووفقًا للمادة التاريخية التبتية بعنوان «سرد موجز عن الجيش التبتي الحديث و(ما جي كانغ) والمواقف ذات الصلة»، «باستثناء قوات الحرس التابعة للقائد الأول التي يبلغ قوامها ألف جندي، فإن بقية القادة يبلغ قوامهم حوالي خمسمائة جندي.» وهذا يعني أن من بين الأربعة آلاف جندي، كان هناك أكثر من ألف جندي من الجيش التبتي.

في ٢٨ مارس، أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت «تعليمات» أخرى إلى مكتب التبت في بكين، «لإرسال برقية أخرى إلى الدالاي لاما يأمره فيها بالانسحاب إلى مواقعه الأصلية في الخط الأمامي وانتظار الوساطة.“

في ٣٠ مارس، وبسبب «غزو الجيش التبتي لـ (قانتسي)، ونهبه كل ما في طريقه، وإرسال قواته جنوبًا للتجسس على محافظة (با تانغ) ومحافظة (يان جينغ)»، تم إرسال برقية إلى الدالاي لاما: «مثل هذا التقدم المتواصل يتعارض تمامًا مع مبادئ السلام. نرجو إصدار أمر عاجل للجيش التبتي بوقف العمليات العسكرية فورًا، والانسحاب إلى مواقعه الأصلية، وانتظار الوساطة.“

في ٤ مايو، أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت «تعليمات» أخرى إلى مكتب التبت في بكين: «نرجو إرسال برقية إلى الدالاي لاما يأمر فيها قوات الخط الأمامي بالعودة إلى مواقعهم الأصلية، وإرسال شخصيات مهمة للتشاور مع عضو اللجنة (تانغ).“

في ٢٦ مايو، وصلت «تعليمات» لجنة شؤون منغوليا والتبت مرة أخرى إلى مكتب التبت في بكين: «بخصوص احتلال الجيش التبتي لـ(تشان هوا)، يرجى إرسال برقية فورية إلى الدالاي لاما يأمره فيها بالعودة إلى مواقعه الأصلية في (داجين) للوساطة.»

في ٢٩ مايو، أصدرت لجنة شؤون منغوليا والتبت تعليمات متطابقة، مرتين متتاليتين، إلى مكتب التبت في بكين، تطالبان الجيش التبتي الذي احتل (تشان هوا) «بالعودة إلى مواقعه الأصلية“.

وفي ظل هذا الوضع على الجبهة، كان المبعوث الكبير (تانغ كه سان)، الذي أرسلته الحكومة المركزية للوساطة، لا يزال في الطريق. واجه قائد اللواء (ما سو) من الجيش الرابع والعشرين ضغوطًا هائلة مع تقدم الجيش التبتي المتواصل خطوة بخطوة، وأخيرًا لم يعد قادرًا على التحمل، فأرسل برقية مباشرة إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت قائلاً: «لقد أوقفت قواتنا في الخط الأمامي العمليات العسكرية، لكن الطرف الآخر لم يراعِ نوايا السلام للحكومة المركزية ولنا، بل استمر في إرسال تعزيزات والتقدم خطوة بخطوة. لقد تنازل جيشنا مرة في (بايلي)، ومرة أخرى في (قانتسي)، والآن تراجعنا إلى (لوهوَه)، ومع ذلك يواصلون التقدم بلا توقف. الأمل الوحيد في هذه اللحظة هو وصول المبعوث مبكرًا، فربما يمكن حل الأمر سلميًا. وإلا، إذا استمر التأخير لأيام أو حتى عشرة أيام، فإن الأمر سيتعلق بالدفاع الوطني، ولن أجرؤ على تحمل اللوم.“

في ظل هذه الظروف، أصبح القادة في الجبهة الأمامية في حيرة من أمرهم، وزادت معاناة المدنيين الذين أصبحوا بلا مأوى بشكل مأساوي. وهناك مواد أرشيفية تؤكد ذلك، وهي رسالة شكوى من مسؤولي ومواطني (بايلي) إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، يصفون فيها معاناتهم: «بعد تلقي أمرهم، تراجعت القوات الصينية المتمركزة في (كانغ) خطوة بخطوة، منتظرة الوساطة. ولكن قبل وصول الممثل، انهك الجيش التبتي الأوامر. واستغل عدم استعدادنا، وقاد جيشًا كبيرًا للهجوم بكل قوته. لم يكن لدى مسؤولي ومواطني هذا المكان أي مساعدة أخرى، فكان عليهم المقاومة حتى الموت، ولكن كثرة عدوهم وقِلَّتنا لم تجد نفعًا، وفي النهاية هُزمنا. وهكذا، سقطت مناطق (بايلي)، و(قانتسي)، و(تشان هوا) تباعًا. في هذا الوقت، حاول مسؤولو ومواطنو (بايلي) الفرار مع الجيش الصيني إلى (دان قه) للاحتماء، لكن (تشان هوا) كانت قد سقطت بالفعل في أيدي الجيش التبتي، ولم يتمكنوا من العبور. ولم يكن أمامهم خيار سوى الإقامة مؤقتًا في منطقة (سي لي كه).

«قبل هزيمتنا وانسحابنا، كان المسؤولون والمواطنون يعتقدون أن هناك مساعدة من الحكومة المركزية، ولن تحدث أي حوادث غير متوقعة، لذلك لم يفكروا في نقل أو إخفاء ممتلكاتهم. وعندما وصل الجيش التبتي فجأة، لم يكن هناك وقت للبحث عن سبل النجاة، فكيف يمكنهم الاهتمام بالممتلكات؟ وهكذا، أصبحت جميع ممتلكاتنا تحت سيطرتهم. وحتى ما تمكنوا من حمله من قطعة أو اثنتين، فقد سُلب منهم بالكامل من قبل القوات الملاحقة في الطريق... الآن، لم يتبق في أيديهم سوى بندقية وحصان واحد، وفي الوقت الحالي، سيتعين على المسؤولين والمواطنين بيع البندقية والحصان لتوفير الطعام والملابس، ويمكن تخيل المعاناة التي يكابدونها.»

[redacted].indd 386-387 2025-11-27 10:56:23

تضمنت هذه الرسالة المرفوعة أيضًا كلمات غضب موجهة للحكومة: «لقد تحول هذا الخلاف البسيط الآن إلى نزاع بين (كانغ) والتبت. إن معاناة شعب (كانغ) من قبل الجيش التبتي، واضطهاده، لم يسبق لها مثيل عبر التاريخ. لو كنا نعلم أن صرخاتنا اليوم لن تُجاب، لكان من الأفضل لنا الاستسلام للجيش التبتي في ذلك الوقت، ولربما لم نكن لنتعرض لمثل هذه الآلام الآن."

لم يكن (تانغ كه سان) يبدو مستعجلًا، ففي 3 يونيو، أبلغ لجنة شؤون منغوليا والتبت بوصوله إلى ياآن.

في 11 يونيو، وصل (تانغ كه سان) إلى (كانغ دينغ).

في هذه الأثناء، حدد الجانب التبتي (تشيونغ رانغ داي بن) للتفاوض مع (تانغ كه سان). لكنهما لم يلتقيا وجهًا لوجه، بل تبادلا الرسائل والبرقيات لمناقشة مكان الاجتماع. «طلب (تشيونغ رانغ) في رسالته الذهاب إلى (قانتسي) للاجتماع، لكن هذا المكان كان لا يزال تحت احتلال الجيش التبتي». رفض (تانغ) الذهاب، قائلاً:» سأذهب إلى (لو هوَّه) حالما تمكنا من استعادتها».

كان رأي لجنة شؤون منغوليا والتبت «لا بأس حتى في (قانتسي)".

ظل (تانغ كه سان) مترددًا في الذهاب شخصيًا إلى (قانتسي)، فأرسل نائبه (ليوزان تينغ) إلى (قانتسي) للقاء والتفاوض مع ممثل الجانب التبتي (تشيونغ رانغ).

كان ذلك في 12 يوليو، أي بعد مرور أكثر من شهر على وصول (تانغ كه سان) إلى (كانغ دينغ).

بعد أسبوع، في 19 يوليو، أرسل (تانغ كه سان) برقية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت: «تلقيت رسالة من (ليوزان تينغ)، وموقف (تشيونغ رانغ) لا يزال جيدًا، لكنه يحظر مقابلته مع شيخ القبيلة واللاما. يدعي أنه لا يستطيع تحمل مسؤولية قضية (قانتسي)، وقد طلب حضور كا لون إلى (قانتسي).» وهذا يعني أن (ليوزان تينغ) وصل إلى (قانتسي)، التي كانت محتلة من قبل الجيش التبتي، وكان موقفهم لا بأس به، لكنه لم يتمكن من مقابلة الطرفين المتسببين في حرب حدود (سيتشوان)، وهما شيخ القبيلة واللاما. علاوة على ذلك، ادعى ممثل التفاوض هذا أنه لا يملك صلاحية اتخاذ القرارات الفورية، وأن المفاوضات الجوهرية تتطلب حضور كا لون، الذي كان يقود العمليات في (تشانغدو) في ذلك الوقت.

في 30 يوليو، أبلغ (تانغ كه سان) مرة أخرى: أن كا لون، الذي كان من المفترض أن يأتي إلى (قانتسي) للتفاوض، رفض المجيء، وطلب من (تانغ) الذهاب إلى (تشانغدو) للتفاوض، لكن (تانغ) أصر على أن يأتي الطرف الآخر إلى (قانتسي) للتفاوض.

عندما رأى الكالون (المسؤول التبتي) الوضع، تنازل قليلاً، وقال إنه مستعد للتفاوض مع (تانغ) في (ده قه)، الواقعة بين (قانتسي) و(تشانغدو). في ٢٢ أغسطس، أرسل (تانغ كه سان) برقية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، قائلاً: «لا يمكن التفاوض، والوساطة مستحيلة... لا يمكنني البقاء هنا طويلاً». هذا يعني أنه بعد كل هذا الوقت، لم يرَ حتى وجه الطرف الآخر، ناهيك عن التفاوض، لذا فإن بقائه هنا لم يعد مجديًا، وعليه العودة.

□□□□ □□□.indd 388-389 2025-11-27 10:56:23

(تشان هوا) في حرب (داجين - بايلي)

بينما كانت الحكومة الوطنية تتخذ قرارًا بالتوسط والتسوية السلمية، وكان المبعوثون المسؤولون عن الوساطة في طريقهم، كان الجيش التبتي يتقدم بخطوات واسعة، وتراجع جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) دون قتال. لم يمضِ وقت طويل حتى سقطت محافظة (قانتسي) بأكملها وجزء من محافظة (لو هوَّه).

في 8 مايو 1931، أرسل قائد اللواء (ما سو) برقية إلى قائد الجيش (ليوون هوي) جاء فيها: «وفقًا لتقارير عاجلة من سكان قريتي (قولو) و(تونغ شياو)، فإن قائد الجيش التبتي (تشيونغ يا داي بن)، الذي غادر (ده قه)، قد وصل قبل أيام على رأس قوة قوامها خمسمائة إلى ستمائة جندي إلى دير (تشانغ تاي دوقو)، ثم أرسل أشخاصًا يحملون وثيقة إخطار إلى (قولو) و(تونغ شياو)، يأمرون قادة القريتين بإعداد مواقع، ومن المؤكد أنهم سيهاجمون (تشان هوا) خلال يومين أو ثلاثة أيام.» تقع قريتا (قولو) و(تونغ شياو) اليوم ضمن محافظة (شين لونغ)، التي كانت آنذاك محافظة (تشان هوا).

في 10 مايو، أبلغ (ما سو) مرة أخرى: «تلقيت رسالة من حاكم محافظة (تشان هوا) (تشانغ كاي) تفيد بأن القوات التبتية قد تقدمت من (قولو) و(تونغ شياو) واحتلت مدينة (تشانغ) في اليوم الثالث، وأبلغتكم بذلك على عجل لطلب التوجيه.“

في 12 مايو، أرسل وفد التماس مدني برقية إلى (شيانغ كاي شيك)، ولجنة شؤون منغوليا والتبت، والقائد (ليو)، وغيرهم، جاء فيها: «تلقينا للتو تقريرًا عاجلاً من (تشان هوا)، يفيد بأن فصيلًا تبتيًا بقيادة (تشيونغ يا داي بن) يهاجم مدينة (تشانغ) على رأس مئات الجنود، ويقوم بأعمال نهب وسرقة. نرجو من الحكومة إرسال قوات كبيرة على الفور لإنقاذ الشعب من هذه الكارثة.“

في 21 مايو، أرسل (ليوون هوي) برقية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت: «يهاجم الجنود التبتيون بقوة من اتجاهات مختلفة، وقد حوصرت (تشان هوا). أمر (جينغ في) على الفور أمرًا عاجلاً لمعسكر (لو) بالذهاب لتقديم الدعم، وعندما وصلوا إلى جبل (ماي لي)، اشتبكوا مع العدو في معركة شرسة استمرت عدة ساعات، وتمكنوا من دحر العدو واحتلال قرية (جيانغ قه)، كما تقدم قائد الفوج (ما تشنغ لونغ) بقواته من (ما تشيو تشانغ). لكن جسر (شو) الواقع بـ (تشان دوي) العليا تم تدميره من قبل العدو، كما تم قطع خطوط الاتصال في وادي (جيا لا) والخط الجبلي المجاور، وتم قطع جميع الطرق. وزاد عدد فرسان العدو إلى سبعمائة أو ثمانمائة، ومع كثرة العدو وقلة قواتنا، أصبح التقدم صعبًا، وسقطت مدينة (تشان هوا) في النهاية. وبسبب ذلك، حوصر معسكر (لو) من قبل العدو. وبعد ذلك، قام رئيس المنطقة (شانغ لا قه)، بمخاطرة، بإرشادهم من خلال ممر ضيق لقطع الحطب في الجبال العميقة، واتباع قاع الوادي خلف الجبل للخروج من الخطر.»

يذكر السيد (رن ناي تشيانغ) في كتابه «ملخص تاريخ وجغرافيا (كانغ) والتبت“:

”استعاد جيش (كانغ) «(الجيش الرابع والعشرون)» الأراضي المفقودة في (بايلي)، وتقدمت لاحتلال (شن كه)، و(تانغ قو)، و(وي دوي)، وحاصرت دير (داجين)، ولكنها لم تتمكن من احتلاله لفترة طويلة. أرسل الدالاي لاما برقية إلى الحكومة المركزية لوقف تقدم جيش (كانغ). فأرسلت الحكومة المركزية برقية إلى القائد العام (ليو) تأمره بوقف التقدم. كما أمرت لجنة شؤون منغوليا والتبت بإرسال موظفين إلى (كانغ) للوساطة. وعليه، أوقف جيش (كانغ) هجومه.

استغل الجيش التبتي تراخي جيش (كانغ)، وتعاون مع رهبان دير (داجين)، وفي ليلة 9 فبراير 1931، شنوا هجومًا عنيفًا على جيش (كانغ). ردت جيش (كانغ) على عجل، لكنها هزمت هزيمة نكراء وتراجعت إلى (قانتسي). وعندما رأوا أن قوات الإمداد الخلفية لا تزال بعيدة، تراجعوا مرة أخرى إلى (لو هوَّه). وقد كان شيخ قبيلة (تشوووه) يكنّ عداءً للمسؤولين الصينيين، ولذلك استقبل الجيش التبتي. وعليه، احتل الجيش التبتي محافظة (قانتسي) بأكملها ومنطقة (تشوووه) في (لو هوَّه)، وأبلغ الدالاي لاما بذلك. فأمر الدالاي لاما بمواصلة احتلال (تشان هوا). دافع محافظ محافظة (تشان هوا)، (تشانغ كاي)، عن المدينة مع الميليشيات الشعبية حتى شهر مايو، لكن قوات الإمداد لم تصل، وسقطت المدينة وأُسر. وهكذا، احتل الجيش التبتي كامل محافظة (تشان هوا).“

لم يقتصر الأمر على محافظة (تشان هوا) وحدها، بل استغل الجيش التبتي الوضع واحتل أيضًا منطقتي (تشيونغ با) و(شيابا) التابعتين لمحافظة (لي تانغ)، والواقعتين جنوب (تشان هوا).

كانت الأوضاع في الجبهة الأمامية ترفع باستمرار إلى الحكومة المركزية. وفي ذلك الوقت، كانت الحكومة المركزية تعاني من ضغوط هائلة، فمن جهة، كان اليابانيون يتقدمون خطوة بخطوة في الشمال الشرقي، وكانت البلاد على أعتاب حادثة 18 سبتمبر. ومن جهة أخرى، كانت الحكومة تخوض حربًا ضد الجيش الأحمر في عدة قواعد ثورية في الجنوب. لذلك، كانت لا تزال تأمل في حل قضية (داجين - بايلي) سلميًا من خلال الوساطة. كان (ليوون هوي)، قائد الجيش الرابع والعشرين، يشغل منصب رئيس مقاطعة (سيتشوان) في ذلك الوقت، وكان أيضًا القائد العام للدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ). لكن أمراء الحرب في (سيتشوان) كانوا يتنافسون فيما بينهم، وكانت القوات الرئيسية للجيش الرابع والعشرين تحمي المناطق المزدهرة في كل من (لوتشو) و(تسي قونغ) و(لي شان) حاليًا. أما القوات المتمركزة في حدود (سيتشوان) فقد اقتصرت على فوج أو أكثر تحت قيادة اللواء (ما سو). لذلك، كانوا متفائلين بالوساطة المركزية.

تلقت الحكومة المحلية في التبت ردًا من الحكومة المركزية، جاء فيه: «(قانتسي) و(تشان هوا) هما في الأصل أراضٍ تبتية، ويجب أن يحتلها الجيش التبتي. إن المبعوث الخاص (تانغ) يصر مرارًا على سحب القوات، وهو أمر خاطئ تمامًا».

في 18 يونيو، أبلغ (تانغ كه سان) عن «استعداده للمغادرة»، أي مغادرة (كانغ دينغ) والتوجه إلى (لو هوَّه)، التي أصبحت جبهة أمامية.

في 8 يوليو، أرسل (تانغ كه سان) برقية: «وصلت اليوم إلى (لو هوَّه). وسأذهب مع (ليو زان تينغ) إلى (قانتسي) للتشاور مع (تشيونغ رانغ) حول مكان عقد محادثات السلام، وسأحث الكالون على القدوم لتولي المفاوضات. ومع ذلك، ذكر (تشيونغ رانغ) في رسالته أن (تشان هوا) أرضه، وأنه قد أرسل الحاكم (تشانغ) وأكثر من أربعين من أفراد أسرته إلى (تشانغدو).“

إن الحاكم (تشانغ) هذا هو نفسه حاكم محافظة (تشان هوا) الكفء الذي ذكره السيد (رن ناي تشيانغ) في تقريره عن تفتيش (تشان هوا)، واسمه (تشانغ كاي).

بعد ذلك، أرسلت الحكومة المركزية برقية إلى الدالاي لاما، وكتب (تانغ كه سان) رسالة إلى الكالون المتمركز في (تشانغدو)، مضيفين إلى مطلبهم السابق بسحب القوات، مطلبًا جديدًا وهو الإفراج عن الحاكم (تشانغ)، واعتبروا هذين المطلبين شرطين للتفاوض. لكن الجانب التبتي اكتفى بالجدل حول مكان التفاوض، ولم يرد على مطلبي سحب القوات والإفراج عن الحاكم (تشانغ).

في 15 أغسطس، أرسل (تانغ كه سان) برقية أخرى إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت: «أبلغني سرًا رئيس قرية (تشان هوا) الأعلى (دوجي لانغ جيا) بأن عدد الجنود التبتيين في (تشان هوا) قد زاد إلى ثمانمائة. وقد دعا (ده من داي بن) جميع رؤساء (تشان هوا) وأعلن لهم أن الحكومة المركزية قد تنازلت عن (تشان هوا) للتبت، لكنهم لم يصدقوا ذلك، وجاءوا للاستفسار. وإذا استعادت الحكومة المركزية (تشان هوا) بالقوة، فهم مستعدون للتعاون من الداخل، ويمكنهم توفير ألف وخمسمائة بندقية سريعة.“

وفي 17 أغسطس، أرسل برقية أخرى: «لقد مر أكثر من شهر منذ ذهاب (ليوزان تينغ) إلى (قانتسي)، ولم يره (تشيونغ رانغ) على الإطلاق. ورد (آ بي) (اسم الكالون المتمركز في (تشانغدو)) في رسالة إلى (ليو)، قائلاً إن احتلال (تشان هوا) هو استعادة لأرضهم الأصلية، وهو يتطابق تمامًا مع كلام الدالاي لاما... منذ وصول (ليو) إلى (قانتسي)، أصبح محاطًا بحراسة الجنود التبتيين، وانقطعت عنه الأخبار الخارجية، وكأنه تحت المراقبة.“

في هذه المرحلة، اقترح (تانغ كه سان)، المبعوث الكبير للوساطة والذي جاء بمهمة سلام، على الحكومة المركزية: «في رأيي، إذا أصرت الحكومة المركزية على موقف صارم، فعليها أن ترسل برقية إلى مقاطعة (سيتشوان) لتعجيل إرسال عدة كتائب من الجنود المدربين إلى الحدود، واستخدام الميليشيات لإظهار عزمها على الاستعادة، ثم إصدار أمر إلى مقاطعتي (يون نان) و(تشينغ هاي) بتحذير الجيش التبتي المسلح، أو قد يتراجعون دون قتال.“

أعرب (ليو ون هوي) أيضًا عن موقفه للحكومة المركزية عبر (تانغ كه سان): «لقد أبلغت قيادة الجيش بموافقتي، إذا منحت الحكومة المركزية المسؤولية الكاملة عن التخطيط للحدود، وقدمت المساعدات المالية والذخائر، وأمرت (يون نان) و(تشينغ هاي) بالمساعدة، فليس فقط سنستعيد (قانتسي) و(تشان هوا)، بل يمكننا استعادة كامل منطقة (كانغ).»

في سبتمبر، كان رد الحكومة المركزية لا يزال يميل إلى الحل السلمي: «المركز حذر في التعامل مع شؤون الحدود، وما زال يتبنى نهجًا سلميًا في المعالجة.“

في 11 أكتوبر، أرسل (تانغ كه سان) برقية أخرى: «تلقيت رسالة من (آ بي)، يصف فيها نفسه بـ‹الدولة المقدسة›، و‹حكومتنا›، و‹دولة لاسا› وما شابه ذلك، وهو متعجرف إلى هذا الحد. لن تسحب القوات، ولن يأتي إلى (قانتسي).“

بعد أيام قليلة، أرسل مكتب التبت في بكين رسالة إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت: «لقد أرسل الدالاي لاما ممثله إلى (كانغ) في وقت مبكر للانتظار والتواصل مع المفوض المركزي. وفي ظل الظروف الملحة لاحتلال اليابان (لياو جي) حاليًا، وفي الوقت الذي يجب فيه على شعبنا التوحد بصدق لمقاومة العدوان الخارجي، من منا لا يمتلك الروح الوطنية؟ يجب أن تُنهى جميع النزاعات الداخلية على الفور، وتُركز كل الجهود لمواجهة العدو.» لم يذكر الخطاب كيفية تنفيذ ذلك بالتحديد. ولم يذكر ما إذا كانت القوات ستنسحب أو الأسرى سيُطلق سراحهم، ولم يتناول مشكلة مكان المفاوضات والأشخاص المتورطين فيها، والتي استمرت لعدة أشهر. لكنه أوضح نقطة واحدة، وهي أنهم يدركون أنكم تواجهون مشكلة كبيرة.

في 20 أكتوبر، طلب (تانغ كه سان) إنهاء مهمته والعودة إلى بكين ليعتني بوالدته المريضة.

لكن لجنة شؤون منغوليا والتبت طلبت منه البقاء في منصبه ومواصلة مهمته السلمية.

في هذه الأثناء، بدا أن الأمور بدأت تأخذ منعطفًا إيجابيًا، حيث تحسنت لهجة (تشيونغ رانغ)، ممثل الجانب التبتي في المفاوضات. عاد (ليوزان تينغ) من (قانتسي) إلى (لو هوَّه)، «حيث قيل إنه تلقى طلبًا من (تشيونغ رانغ) للعودة إلى (لو هوَّه) لشرح الموقف، معربًا عن حسن نيته، وذكر أن ‹جميع الأمور سهلة الحل... وأن الحاكم (تشانغ) وغيره، بعد وصولهم إلى دير (داجين)، سيُطلق سراحهم قريبًا›.» الحاكم (تشانغ) هذا هو نفسه محافظ محافظة (تشان هوا) الكفء، (تشانغ كاي). عندما كان (تشانغ كاي) يتولى إدارة (تشان هوا)، تزامن ذلك مع تغيير لقب رئيس المحافظة من «حاكم» إلى «محافظ «، ولذلك، تظهر كلتا التسميتين بالتناوب في المواد التاريخية.

.indd 392-393 2025-11-27 10:56:23

في 22 أكتوبر، دوّن (تانغ كه سان) في مذكراته التي نُشرت عام 1933 تحت عنوان «مذكرات رحلتي إلى كانغ»، والتي تغطي فترة وساطته في حرب (داجين - بايلي): «الطقس مشمس. جاء جندي من جنود الحاكم (تشانغ)، يُدعى (خه)، لمقابلتي، وذكر أن ثلاثين شخصًا منهم، بمن فيهم الحاكم (تشانغ)، كان قد وعد (آ بي) بإعادتهم، وكانت البطاقات التي أعطيت لهم تحمل علامة (قانتسي). ولكن عندما وصلوا إلى (ده قه)، لم يسمح لهم فجأة بالمغادرة. والآن أصبح الطقس باردًا، نرجو التفاوض بسرعة لإطلاق سراحهم مبكرًا.» لماذا احتجز الجانب التبتي من وعدوا بالإفراج عنهم في منتصف الطريق؟ في جوهر الأمر، كانوا يريدون المال. في ذلك الوقت، كان لدى الجانب التبتي، بالإضافة إلى حاكم محافظة (تشان هوا) (تشانغ كاي) وأكثر من ثلاثين أسيرًا آخر، أكثر من مائة أسير من جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ)، ليصبح الإجمالي حوالي مائتي شخص. اعتقد الجانب التبتي أن الإفراج عن الأسرى يتطلب مقابلًا ماليًا. ففي صراع (سيتشوان) والتبت في السنة السابعة من حكم جمهورية الصين، حصلوا على «مكافأة ضخمة» مقابل الإفراج عن الأسرى. وقد سجل (تانغ كه سان) ذلك أيضًا في مذكراته:

"طالب الجانب التبتي بمكافأة ضخمة مقابل إطلاق سراح قوات (سيتشوان) في مرتين سابقتين، في العامين الثاني والسابع من جمهورية الصين، وكانوا يأملون في تطبيق نفس السابقة. لكنني اعترضت بشدة، قائلاً إنها مجرد دفعة مقدمة لتكاليف الطعام، وبحساب مائتي شخص، فإن تكلفة طعام كل شخص شهريًا تبلغ عشرة تايل من الفضة التبتية، أي ما لا يزيد عن عشرين ألف تايل في عشرة أشهر. وبعد مناقشات متكررة، تم الاتفاق على مبلغ عشرين ألف تايل من الفضة التبتية.» و«تم الاتفاق على طريقة السداد بالتقسيط». ولم يوافق الطرف الآخر على إطلاق سراح الأسرى حتى يتم استلام المال، لذا تم احتجاز (تشانغ كاي) ورفاقه في (ده قه) بعد وصولهم إلى منتصف الطريق.

الأغرب من ذلك، أن (تشيونغ رانغ) طلب من خصومه في المفاوضات، الذين لم يكونوا أصدقاء، «شراء خمسة قطع من الحرير المخملي وفساتين الربيع»، وحدد «تصميمًا جديدًا، بألوان برونزية، وأرجوانية داكنة، وأزرق داكن، ورمادي أخضر». وبالطبع، فهم (تانغ كه سان) أن هذا كان طلبًا للهدايا، وأرسل برقية خاصة إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، «الرجاء شرائها وإرسالها بالبريد إلى لجنة (شيكانغ) السياسية لاستلامها وإعادة توجيهها، كهدية منا إليهم، والرجاء الإسراع في ذلك». لم تبدأ المفاوضات بين الأعداء، لكن كبير المفاوضين قدم مثل هذا الطلب إلى الطرف الآخر، حتى لو لم يكن ذلك طلب رشوة بطريقة ملتوية، فهو كفيل بأن يصبح قصة غريبة.

في ٧ نوفمبر، أبلغ (تانغ كه سان) أن (ليوزان تينغ) و(تشيونغ رانغ) اتفقا على ثمانية شروط لحل قضية (داجين - بايلي):

(قانتسي) و(تشان هوا) ستبقى مؤقتًا تحت سيطرة الجيش التبتي، بانتظار تسوية منفصلة؛

يتولى (تشيونغ رانغ) التعامل مع قضية (داجين - بايلي) بنزاهة؛

تتراجع القوات الأمامية من الجانبين لمسافة مائتي لي؛

تُعاد (تشيونغ با)، و(شيا با)، و(تشو ووه)؛

يُسدد دير (داجين) المبالغ المستحقة للتجار الصينيين فورًا؛

يُفرج عن الأسرى الصينيين؛

يُرسل (ما سو) و(تشيونغ رانغ) ممثلين لبعضهما البعض للتعبير عن امتنانهما؛

يُستأنف النقل التجاري.

كان هذا الاتفاق بالتأكيد تنازلاً مفرطًا، إذ كان بمثابة اعتراف ضمني باحتلال الجيش التبتي لـ(قانتسي) و(تشان هوا). لذلك، أرسل (ليو ون هوي)، بصفته القائد العام للدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ)، برقية فورية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، «معلنًا عدم موافقته». كان اعتراضه الأشد على البنود الأول والثالث والسابع، وكذلك على قيام الحكومة بشراء أشياء وإهدائها إلى (تشيونغ رانغ).

بالنسبة للأشخاص من (شيكانغ) المقيمين في (نان جينغ)، فقد اشتعلت فيهم مشاعر الغضب، «فشكلوا جمعية إنقاذ الدفاع الوطني» وأصدروا مطالب قوية للجنة شؤون منغوليا والتبت: أولاً، إقالة (تانغ كه سان) والتحقيق معه؛ ثانياً، الكشف عن الحقيقة وراء مفاوضات (كانغ) والتبت؛ ثالثاً، هل قرار ضم (قانتسي) و(تشان هوا) إلى التبت كان قرار لجنة شؤون منغوليا والتبت، أم هو قرار شخصي خاطئ من (تانغ كه سان)؟

المشكلة أن هذا الاتفاق، حتى الجانب التبتي كان لديه من يعارضه، حيث «قدم مسؤول تبتي عريضة إلى الدالاي لاما، يعارض فيها بند إعادة (تشيونغ با) و(شيا با) و(تشو ووه)".

لم يكن للجنة شؤون منغوليا والتبت صلاحية اتخاذ القرار، فقدمت هذا الاتفاق إلى المجلس التنفيذي لاتخاذ القرار النهائي.

ربما أدركت لجنة شؤون منغوليا والتبت في هذا الوقت أن شراء الحرير المخملي كهدية لـ(تشيونغ رانغ) أمر غير لائق للغاية، فأرسلت برقية إلى (تانغ كه سان): «النسيج المخملي الذي تم تسليمه للبريد بالأمس قد تم استعادته."

في 10 ديسمبر 1931، وافق المجلس التنفيذي على هذا الاتفاق: «بالنظر إلى الشروط الثمانية التي اتفق عليها المفوض (تانغ) مع ممثل التبت (تشيونغ رانغ) لحل قضية (كانغ)، وبالنظر إلى الوضع الحالي، فهي مناسبة. يُبلغ اللجنة بذلك عن طريق البرقية لتنفيذها.» وقد وقّع عليها «الرئيس (تشيانغ كاي شيك)".

ولكن في 21 ديسمبر، أرسلت لجنة شؤون منغوليا والتبت برقية أخرى إلى (تانغ كه سان): «البنود الثمانية المتفق عليها لقيت الكثير من الانتقادات من الخارج، وخاصة من قبل أهالي (كانغ) المقيمين في العاصمة، وستصبح لجنتنا وموظفونا هدفًا للانتقادات. نأمل ألا توقع على الاتفاق مؤقتًا، وأن تسعى لإيجاد حل بديل تدريجيًا."

في 22 ديسمبر، كتب (تانغ كه سان) في مذكراته: «الطقس مشمس. تلقيت برقية من صديق في (تشنغدو)، يقول فيها إن السلطات بدأت في الاعتراض والاستجواب لأن جميع الأطراف في عاصمة المقاطعة غير راضية عن الشروط المتفق عليها... لا أجهل أن هذا الاتفاق، يوم إبرامه، ستتجمع عليّ المتاعب والعيوب. ولكن بما أنني أتبع توجيهات الحكومة المركزية، فليس أمامي سوى التضحية بكل شيء، ولن ألتفت إلى الانتقادات الخارجية."

هذا الاتفاق الذي أشرف عليه (تانغ كه سان)، والذي كان يهدف إلى تنفيذ توجيهات الحكومة المركزية، قوبل بمعارضة شديدة من جانب الجيش الرابع والعشرين ومختلف الأوساط المحلية في منطقة (كانغ). في ظل هذه الظروف، تراجعت الحكومة المركزية عن قرارها. في الواقع، بعض الزعماء المحليين من سكان (قانتسي) و(تشان هوا)، الذين رأوا أنهم سيصبحون تحت إدارة الحكومة التبتية بعد توقيع الاتفاق، لجأوا أيضًا إلى (تانغ كه سان) لتقديم شكواهم.

[redacted].indd 394-395 2025-11-27 10:56:24

دون (تانغ كه سان) في مذكراته: «جاء زعيم (بايلي) لزيارتي، معربًا عن عدم رغبته في الانضمام إلى التبت، وذرف الدموع، مما أثار شفقتي.“

”عندما سمع أهالي محافظات (قانتسي) و(تشان هوا) و(لو هوَّه) و(ليتانغ) الأربع، بذلك، أصابهم فزع شديد، وتوافدوا للزيارة، مؤكدين بشدة أنهم لن يخضعوا للتبت حتى الموت، وذرفوا الدموع. قمت بتهدئتهم بقوة، وأخبرتهم أنه مهما حدث، سأجد طريقة لاستعادة جميع الأراضي المفقودة، وطمأنتهم، فشكروني وغادروا.“

”جاء المسؤول العام في (دا تانغ با)، (قه تسي تسه)، لزيارتي. وذكر أن والده، منذ أن انضم إلى المسؤولين الصينيين، كان مخلصًا بلا حدود، وحتى لحظة وفاته، أوصاه بأن يواصل مسيرة والده بشكل جيد، وقد أطاع الأوامر بدقة. منذ أن هاجم الجيش التبتي (قانتسي) واحتلها العام الماضي، وأجبرهم على الاستسلام، لم يرغب في الخضوع، ولم يكن لديه القدرة على المقاومة، ففر مع مئات الأشخاص إلى (لو هوَّه) للاحتماء، والآن جاء خصيصًا لطلب خطاب حماية. قمت بمدحه ومكافأته، وأعطيته خطاب الحماية ليغادر.“

في ظل هذه الظروف، كان (تانغ كه سان) عاجزًا ويائسًا، فأرسل برقية أخرى إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، «طالبًا الإذن بالعودة إلى بكين لتلقي العلاج بسبب إصابته بمرض دماغي حاد.“

بطبيعة الحال، لم يوافقوا على طلبه، وأمروه بمواصلة العمل في المنطقة.

في 14 ديسمبر، بعد توقيع الاتفاق، سجل (تانغ كه سان) في مذكراته مرة أخرى حول إطلاق سراح حاكم محافظة (تشان هوا) (تشانغ كاي): «لقد مر شهر على وصول (تشانغ) ورفاقه الثلاثين إلى (قانتسي)، لكن (تشيونغ رانغ)، متذرعًا بضرورة استشارة الدالاي لاما، رفض إطلاق سراحهم.» لا بأس بعدم إطلاق سراحهم، لكن على الأقل يجب أن تهتم بإطعام الأسرى. لكنه رفض حتى توفير الطعام، لأن مبلغ العشرين ألف يوان الذي تم الاتفاق عليه سابقًا لتكاليف الطعام لا يشمل هذه الأيام اللاحقة. لذلك، قال (تانغ كه سان) في مذكراته: «بما أنه لا يمكنني اقتراض الطعام من الجانب التبتي، وليس لدى سلطات (كانغ دينغ) أي مساعدة، فإن مرافقي (تشانغ) وغيرهم اضطروا إلى بيع ملابسهم وأمتعتهم في الشوارع لكسب قوت يومهم. وبما أن الأمر يتعلق بسمعة الحكومة، لم أستطع الجلوس مكتوف الأيدي، وقدمت لهم المساعدات المالية مرارًا وتكرارًا، وقد فعلت ذلك ثلاث مرات الآن.» هذا ربما يكون غريبًا في تاريخ الحروب. الطرف المنتصر لا يتحمل نفقات طعام الأسرى، وعندما تنفد الأموال التي دفعها الطرف الآخر لتكاليف الطعام، يتوقف عن توفير الطعام.

وصلنا أخيرًا إلى اليوم الأخير من هذا العام. في 31 ديسمبر، كتب (تانغ كه سان) في مذكراته اليومية: «وصل الحاكم (تشانغ) وثلاثون شخصًا آخر إلى (لو هوَّه). استغرقت هذه المفاوضات سبعة أشهر، وقد أخل الجانب التبتي بوعده عدة مرات، والآن تم إطلاق سراحهم. ألوم نفسي على قضي نصف عام خارج العاصمة، ولم أحقق سوى هذه النتيجة، وهذا يسبب لي خجلًا عميقًا. ذكر الحاكم شخصيًا أنه منذ أن أُجبر على المغادرة من (تشان هوا) باتجاه الغرب، فقد أقام في (تشانغدو) شهرين، وفي (ده قه) أكثر من سبعين يومًا، وفي (قانتسي) أكثر من أربعين يومًا. ومن بين الثلاثين شخصًا الذين كانوا معه، كان هناك حوالي عشرة من النساء والأطفال. لسوء الحظ، توفي (وي فانغ قان) وزوجته بعد عودتهما إلى (قانتسي) بسبب المرض. أما أنا، لحسن الحظ، بصحة جيدة.“

أتذكر قبل عام، في عام 1930، عندما قام السيد (رن ناي تشيانغ) بتفتيش (تشان هوا)، أشاد بـ (تشانغ كاي) بأنه موظف كفء يمكنه «إحياء جميع الشؤون الحكومية» في المنطقة. ولكن في ظل الاضطرابات السياسية التي سادت مناطق حدود (سيتشوان) في ذلك الوقت، أصبح هو أيضًا قطعة قش تتقاذفها الأمواج.

ورد في وثائق مذكرات (يون تشون تشوما)، زوجة (ده من داي بن) قائد الجيش التبتي آنذاك، ، أن حاكم محافظة (تشان هوا) (تشانغ كاي)، أثناء أسره، كان يستطيع إقامة مأدب للضباط التبتيين. تذكر الوثيقة أنه في أحد الأيام، صدر أمر «يسمح لجنود حامية (يارونغ) في (تشان هوا) بالعودة إلى موطنهم الأصلي (سيتشوان)، ويصدر تصاريح مرور لاستخدام الحيوانات على طول الطريق». وبعد بضعة أيام، وصل (تشانغ كاي) ورفاقه إلى (ده قه). دُعيت زوجة (داي بن ده من) وقائد الجيش التبتي الآخر (كاي مو) ومسؤولون تبتيون آخرون لحضور مأدبة «حامية (يارونغ)». «استجبت الدعوة، وكان في المأدبة، بالإضافة إلى المذكورين أعلاه، مترجم واحد. خلال المأدبة، قال (كاي مو): ‹لم أتلق بعد تعليمات من الكالون (آ بي) بشأن شؤونكم، لذا أرجو منكم البقاء مطمئنين لعدة أيام، وسأقيم أيضًا مأدبة عشاء بسيطة لاستضافتكم في يوم آخر.›» لم يكن (كاي مو داي بن) يتحدث من باب المجاملة، بل بدأ بالفعل في التحضير للمأدبة، ولكن في هذه اللحظة بالذات، تلقى إشعارًا من الكالون (آ بي) المتمركز في (تشانغدو): «سيتم احتجاز حامية (يارونغ) مؤقتًا في (ده قه).» هذا أغضب (كاي مو) بشدة: «الكالون (آ بي) لم يخبرني مسبقًا، لكنه أصدر شهادات وتصاريح وأعاد حامية (يارونغ). واليوم يأمر باحتجازهم في (ده قه)!» تذكر الوثيقة فقط استياء هذا القائد من الكالون الأعلى منه، ولم تذكر ما إذا كانت المأدبة التي دعوا إليها (تشانغ كاي) ورفاقه قد أقيمت أم لا.

تبين أنه أحيانًا، حتى في خضم الحروب الدامية، تظهر مثل هذه المشاهد التي تحمل لمسة من الدفء.

[redacted].indd 396-397 2025-11-27 10:56:24

الفصل العاشر

لقد نجحوا في تسجيل اسم جديد: «(كانغ با هونغ)». كلمة «هونغ» تعني أحمر وتشير إلى اللون الأحمر الذي يضعه رجال (كانغ با) على رؤوسهم. في ذلك الوقت، كان العديد من رجال (كانغ با) الشجعان ينسجون كميات كبيرة من شرائط الحرير الأحمر أو خيوط الحرير الحمراء في ضفائرهم الطويلة، ويلفونها حول رؤوسهم، مما يضفي عليهم هالة بطولية.

XXXX XXX.indd 398-399 2025-11-27 10:56:24

فشل الوساطة والمبعوث الخاص يواجه تمردًا عسكريًا

مع دخول عام 1932، استمر الجيش التبتي في رفض التراجع، فأرسل (تانغ كه سان) برقية إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت جاء فيها: «الوضع في التبت مخادع. إذا عرفوا الوضع الداخلي الحالي، فإن طموحاتهم ستزداد ولن يكون هناك أي احتمال للتوصل إلى حل سلمي.“

كما أرسل (ليو ون هوي) برقية إلى الحكومة المركزية: «لقد تحول موقف التبت فجأة إلى التشدد. رسالة (تشيونغ رانغ) إلى المبعوث (تانغ) تقول: ‹يجب أن يكون نهر (لودينغ) هو الحد الفاصل بين الأراضي الصينية والتبتية، ويجب أن يصل التنازل كحد أقصى إلى (تاي نينغ).»

بعد عشر سنوات، عندما أنشأت لجنة شؤون منغوليا والتبت مكتبًا لها في التبت، أصدر أول مدير للمكتب، (كونغ تشينغ تسونغ)، الذي قضى سنوات عديدة في لاسا وكان مطلعًا جيدًا على أوضاع التبت، مقالًا يناقش حرب (داجين – بايلي). كان رأيه الرئيسي أن الجيش التبتي في عهد جمهورية الصين تجاوز الحدود التقليدية بين (سيتشوان) والتبت وتحرك بنشاط شرقًا، مما يشير إلى أن الجانب التبتي كان لديه بالفعل «وعي بالتبت الكبرى» في ذلك الوقت. والفرق بين ذلك الوقت واليوم هو أنهم كانوا يقومون بأفعال نشطة حينها، بينما يُستخدم هذا المفهوم الآن في الدعاية الدولية. لكن هذا حديث لاحق. دعنا نعود إلى ذلك الوقت، حيث شعر (تانغ كه سان) بيأس عميق بشأن مستقبل الوساطة: «مرضي الدماغي شديد للغاية، وقد تجاوزت فترة علاجي أسبوعين دون أي تحسن. لا أستطيع تحمل مسؤولية قضية (كانغ)، وأتوسل إليكم الموافقة على عودتي إلى بكين لتلقي العلاج.» لم يتلق ردًا، فقام ببساطة بالإبلاغ: «أنوي السفر إلى (تشنغدو) لتلقي العلاج في اليوم الخامس عشر.“

حلّ يوم الخامس عشر، لكن (تانغ كه سان) لم يغادر بعد، ولا يزال في (كانغ دينغ).

بالإضافة إلى ذلك، واجه (تانغ كه سان) حدثًا جللًا — تمردًا عسكريًا! وكاد يفقد حياته.

سجلت مذكراته اليومية سرد تفاصيل الحادث في ذلك اليوم:

"الطقس غائم. منذ العام الماضي، عندما قدمت من المقاطعة إلى مدينة (لو هوَّه)، وفي هذه المرة إلى الجمارك، أقمت في الطابق العلوي من منزل عائلة (تونغ) في جسر (جيانغ جون). في السابعة مساءً، جاء قائد اللواء (ما)، والرئيس (لونغ)، ومدير القسم (تشنغ)، والعضو (تشين)، والمستشار (يانغ)، ورفاق آخرون إلى مسكني لإبقائي، وحثوني بشدة على تأجيل السفر إلى المقاطعة. استمر الحديث حتى التاسعة، ولم يتفرقوا بعد. فجأة، دخل جندي من دورية تابعة لقوات (ما)، متهجمًا، إلى الغرفة في الطابق العلوي، وأبلغ (ما) بصوت عالٍ أنه أثناء تفتيشه للشارع، انتزع منه جنود الحامية التابعون للفوج التاسع والعشرين مسدسًا، وجاء خصيصًا لطلب التوجيه. أمره (ما) بالذهاب لإبلاغ رئيس الأركان (وانغ)، لكن الجندي لم يذهب. كرر (ما) الأمر بلهجة شديدة، لكن الجندي بمجرد خروجه من الباب، سمعنا فجأة إطلاق نار كثيف في الطابق السفلي. اعتقدت أن جنود الفوج التاسع والعشرين جاءوا لإثارة الشغب والاشتباك معهم. هرعت إلى الجانب الأيمن خارج الغرفة للاحتماء مؤقتًا، وسمع (ما) الصوت ونهض من مقعده، وتبعني إلى خارج الغرفة. في هذه اللحظة، ركض جندي فجأة وأطلق النار، مرت الرصاصة بالقرب من وجهي، وأحرقت جلدي، ولسعت رائحة البارود أنفي. في هذه اللحظة الحرجة، سقطت على الأرض على عجل، ثم جاءت رصاصة أخرى، ولحسن الحظ كانت أعلى قليلاً، واخترقت الجدار الخشبي. أصابت الرصاصة الثالثة (ما) فسقط أرضًا. سمعنا الجنود المتمردين يصرخون ‹أصيب! أصيب!›، ثم نزلوا مسرعين، وأطلقوا وابلًا من الرصاص في الفناء وغادروا. بعد أن غادر الجنود المتمردون، نهضت لأرى (ما)، فوجدته مستلقيًا على الأرض لا يتحرك. في ذلك الوقت، بدأ إطلاق النار من كل جانب، وبما أن الطابق العلوي لم يكن آمنًا، نزلت مسرعًا، واختبأت خارج الباب الخلفي. بعد حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات، خفّ إطلاق النار تدريجيًا من جميع الجهات، فصعدت إلى الطابق العلوي لأرى (ما)، فإذا به قد لفظ أنفاسه الأخيرة. عند فحص الجثة، وجدت رصاصة دخلت من الخصر ولم تخترق الجسم. كما قُتل أحد حراسه الشخصيين تحت السلالم. جاء حوالي عشرين جنديًا متمردًا إلى مسكني، وبعد قتل (ما)، تجمعوا لنهب مقر اللواء، ودار سك العملة، ومكتب المحافظة، كما هاجموا السجن. ونهبوا أيضًا عشرات المتاجر الصغيرة في منطقة الجسر الأوسط. لحسن الحظ، حدث ذلك في وقت متأخر من الليل، ولم يصب أي مدني. بعد أن نهب الجنود المتمردون ما أرادوا، انقسموا وهربوا باتجاه الشرق والشمال خارج الحدود. على الفور، أرسلت شخصًا لاستدعاء رئيس الأركان (وانغ) للمشورة، وأرسلت برقية عاجلة إلى الرئيس (ليو) لطلب قوات، وحثيت قائد الفوج (وانغ) على القدوم بسرعة إلى (لو هوَّه) لفرض السيطرة. أما جثة قائد اللواء (ما)، فقد أُرسل من يحملها إلى مقر اللواء. في هذا الاضطراب، لحسن الحظ لم يكن لزعيم المتمردين طموحات كبيرة، فبعد أن امتلأت جيوبهم، هربوا في اتجاهات مختلفة. لو أنهم تمركزوا في مدينة (لو هوَّه)، لكانت الكارثة لا يمكن تصورها. بعد الحادث، تبين أن جميع جنود (ما)، بما في ذلك المهندسون، وسريتي الرشاشات، وجنود الحراسة الجدد، حوالي ثلاثمائة شخص، قد تمردوا جميعًا. وكان تقرير فريق الدورية الكاذب عن سلب جنود الفوج التاسع والعشرين مسدسًا، يهدف في الواقع إلى خداع (ما) للعودة إلى مسكنه وقتله في الطريق. وعندما رأوا أن (ما) ليس لديه نية للذهاب، اضطروا إلى شن الهجوم في مكاني."

وكشفت التحقيقات اللاحقة في أسباب التمرد العسكري أن قائد اللواء (ما سو) كان يقتطع رواتب الجنود لفترة طويلة، مما أدى إلى استياء جنوده. ومع حلول رأس السنة القمرية الجديدة، لم يتمكن الجنود من الحصول على رواتبهم، فقاموا بهذا العمل العنيف. ونتيجة لذلك، لقي قائد اللواء (ما) حتفه.

أفاد (ليو زان تينغ)، الذي كان لا يزال في (قانتسي)، بأن الجانب التبتي كان يعزز قواته في الخط الأمامي في ذلك الوقت، ويبدو أنه كان يستعد لهجوم جديد.

ولم يكن أمام (تانغ كه سان) خيار سوى البقاء في (كانغ دينغ) وتولي مسؤولية الحفاظ على استقرار الوضع.

في الثامن عشر من الشهر، سجل (تانغ كه سان) في مذكراته اليومية: «وصل قائد الفوج (وانغ) إلى (لو هوَّه)، ومعه عدد قليل من الجنود. سمعت أن الرئيس (ليو) قد أصدر أمرًا برقياً لقائد اللواء (يورو هاي)، المتمركز في (تشيونغ)، بالتوجه بسرعة إلى (لو هوَّه) لفرض السيطرة.» وذكر في يومياته أيضًا حالة الطقس: «تساقط الثلوج بعد الظهر»، وربما كان ذلك يعكس حالته النفسية المتدهورة.

"في السادس والعشرين، الجو غائم. وصل قائد اللواء (يورو هاي) على رأس خمس سرايا من الجنود إلى (لو هوَّه)، والتقى بي في مسكني ليلاً. السيد (يو) كفؤ للغاية، وهو قادر على تحمل المسؤولية في مناطق حدود (سيتشوان)."

في ٤ مارس، غادر (تانغ كه سان) (كانغ دينغ) أخيرًا بعد فشل الوساطة: «الجو مشمس. انطلقت في التاسعة صباحًا، وقد ودعنا جميع الدوائر والهيئات والمدارس في (بي يوان تسي). وسرنا مسافة ستين لي إلى وادي (وا سي) حيث أقمنا، وكان الطقس باردًا جدًا."

وصل إلى محافظة (مينغ شان) في اليوم الثاني عشر، وفي اليوم الثالث عشر استقل سيارة من هناك، ووصل إلى (تشنغدو) في نفس اليوم.

لم يستعجل (تانغ) العودة إلى (نان جينغ) لتقديم تقريره، فبالإضافة إلى زيارة الأقارب والأصدقاء في (تشنغدو)، قام أيضًا برحلة إلى جبل (إيمي). ربما بعد أن غادر الهضبة، أو ربما لم تعد مشكلة (داجين - بايلي) تزعج عقله، فلم يعد يذكر صداعه في مذكراته اليومية بعد ذلك. وهكذا، لم يعد إلى (نان جينغ) إلا في ٢٠ مايو، أي بعد «أربعة عشر شهرًا» من مغادرته إلى (قانتسي).

في هذا الوقت، تغيرت قيادة لجنة شؤون منغوليا والتبت، وأصبح رئيسها الجديد يدعى (شي تشينغ يانغ). في اليوم التالي، «زرت رئيس اللجنة (شي)، وشرحت بالتفصيل ما حدث قبل وبعد التعامل مع قضية (قانتسي)."

«في الثلاثين من الشهر، الجو مشمس. زرت الرئيس (وانغ) في المجلس التنفيذي. تصادف أن كان هناك اجتماع لمجلس الدولة، وطلب مني الرئيس (وانغ) الحضور وتقديم تقرير عن قضية (قانتسي). وبسبب ضيق الوقت، قدمت عرضًا موجزًا فقط.»

[redacted].indd 402-403 2025-11-27 10:56:24

بهذا تنتهي «مذكرات رحلة إلى كانغ» لـ (تانغ كه سان)، وتُختتم مهمته غير الناجحة في الوساطة.

طوال أكثر من عام من محاولات الوساطة، لم يلتقِ (تانغ كه سان)، المبعوث الخاص، حتى بممثلي الجانب التبتي.

النتيجة الوحيدة لجهود الوساطة التي استمرت عامًا كاملًا هي أن كلاً من الحكومة المركزية لحزب الكومينتانغ و(ليوون هوي) على المستوى المحلي أدركا أن العلاقة بين الحكومة المركزية والتبت، أو العلاقة بين (سيتشوان) والتبت، لا يمكن حلها بمجرد السعي إلى السلام. خاصة في أوقات الاضطرابات الوطنية، وكان من الأهمية بمكان إظهار القوة والتحدث بقوة السلاح.

يظل الاعتماد على القوة هو الفيصل

في أبريل 1932، أبلغ (ليو ون هوي) الحكومة المركزية أولاً: «تتركز معظم القوات التبتية في (قانتسي) و(تشان هوا)، وهناك مؤشرات على هجوم وشيك علينا."

وأضاف: «في أبريل من هذا العام، ومع عودة المبعوث الخاص (تانغ كه سان) إلى العاصمة وتوقف المفاوضات، هاجموا قواتنا بثلاثة جيوش ضخمة. لحسن الحظ، بفضل هيبة الحكومة المركزية وشجاعة الضباط والجنود، لم ينجح العدو، وتمكنت قواتنا من استعادة (قانتسي) و(تشان هوا) في انتصار."

لم ترد تفاصيل استعادة (تشان هوا) في الوثائق الأرشيفية الصينية، ولكنها وردت بتفصيل كبير في المذكرات التبتية لزوجة (ده من داي بن)، قائد الجيش التبتي المتمركز في (تشان هوا) آنذاك. في ذلك الوقت، لم يكن الضباط التبتيون وحدهم، بل حتى الجنود، يصطحبون عائلاتهم معهم غالبًا. لذلك، شهدت زوجة (ده من داي بن) معركة (تشان هوا) بنفسها عن كثب. وتظهر مذكرات زوجة القائد الأعلى للقوات التبتية في (تشان هوا) آنذاك أن (ده من داي بن) أرسل في وقت مبكر ضباطًا متنكرين إلى (دا جيان لو) للاستطلاع، وتقييم وضع جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ). وبعد فترة وجيزة، عاد الجنديان اللذان أُرسلا للاستطلاع وأبلغا: «تتقدم أعداد كبيرة من القوات الصينية باتجاه (يارونغ) «(تشان هوا)»، والمعركة لا مفر منها.» وأرسلوا شخصًا إلى الكالون المتمركز في (تشانغدو) «لطلب تعزيزات من القوات والذخائر والإمدادات». ووعدت القيادة «بتوفير الذخائر والإمدادات دون تأخير»، ولكن «في الواقع، لم تصل الإمدادات في الموعد المحدد."

لاحقًا، «توالت المعلومات الاستخباراتية عن تقدم القوات الصينية إلى منطقة (قاتا) و(مولي)، وعن قيامهم بالتدريبات والمناورات. في ذلك الوقت، لم تكن الإمدادات العسكرية التبتية قد وصلت بعد. وكانت الضرائب المحلية تأتي بمعظمها من الزبدة وقليل من الحبوب، لذلك عند دفع الرواتب، كانت معظمها تُدفع بالزبدة. اشتكى الضباط والجنود من صعوبة تبديل الزبدة بالحبوب، ولم يوافقوا إلا بعد أن أقنعهم الداي بن والروبين بصعوبة.»

□□□□ □□□.indd 404-405 2025-11-27 10:56:24

تكشف هذه الفقرة العديد من المعلومات التي تتيح لنا فهم الوضع الأساسي لـ(تشان هوا) والجيش التبتي في تلك الحقبة :أولاً، بمجرد احتلال الجيش التبتي لـ(تشان هوا)، بدأ في فرض الضرائب. وكما كان الحال في عهد شيوخ القبائل السابق، كانت هذه الضرائب تُدفع غالبًا عينيًا - أي حبوبًا وزبدة. ثانياً، لم يكن لدى الجيش التبتي أي دعم لوجستي ذي شأن؛ فكانوا يعيشون على ما ينهبونه من الأماكن التي يقاتلون فيها. وغالبًا ما كانت رواتب الجنود تُدفع أيضًا من الموارد التي يتم جمعها محليًا. ومع ذلك، واجهوا مشكلة في (تشان هوا)، حيث كانت الزبدة وفيرة ولكن الحبوب نادرة، مما تسبب في صعوبات خاصة.

"في ٢ مارس من ذلك العام (بالتقويم التبتي)، تعرضت قوات حامية (يارونغ) السبعة لمضايقات من قبل القوات الصينية. اتفق القائدان، (داي بن) و(روبين)، على تكتيك هجوم مفاجئ، نظرًا لقلة عدد الجنود التبتيين، بل وحتى عدم وجود رواتب عسكرية. وعليه، شنوا هجومًا ليليًا على القوات الصينية القوية، مما أسفر عن خسائر من الجانبين. وعلى الرغم من الإبلاغ المستمر عن الوضع العسكري إلى (تشيونغ رانغ) والكالون (آ بي)، إلا أن القائدين الأعلى والأدنى لم يتدخلا، وأصبح (جيش (تشان هوا) التبتي) يقاتل بمفرده. كان الداي بن والروبين يعقدان اجتماعات يومية مع ضباط الكتائب والسرايا والفصائل لمناقشة استراتيجيات الدفاع، لكنهم كانوا في مأزق، ولم يعد لديهم حل. ولم يكن أمامهم سوى الاستمرار في طحن بعض تسامبا (طعام تبتي أساسي) من الحبوب التي تم جمعها محليًا، وإضافتها إلى الزبدة، وتوزيعها على جميع المواقع.

«بعد شهر تقريبًا من الصمود، تعرض موقع (باكو) لهجوم مفاجئ في أحد الأيام، مما أسفر عن إصابة ضابط وجرح ثمانية عشر جنديًا وسقوط الموقع. كما سقط موقع (مولي لادا) بعد إصابة ثلاثة عشر شخصًا، وتراجع الجرحى إلى معسكرات (يارونغ) و(ري نانغ). في ذلك الوقت، كان الضباط مجتمعين، فقال (دە من داي بن) لـ (ناره روبين): ‹أنت كبير في السن، فابقَ هنا، وتولَّ مسؤولية إبلاغ الوضع العسكري، وتوزيع الحبوب المتبقية. سأذهب أنا إلى (باكو) و(مولي لادا)، وسأقاتل حتى الموت!› وأمر الكاتب بتحضير المؤن الجافة. وبمجرد أن نطق بهذه الكلمات، نهض (ناره روبين) وغيره من (الروبين) والجيابين فجأة، وخلعوا قبعاتهم وتكلموا قائلين: ‹يا قائد، من فضلك اهدأ قليلاً. (يارونغ) محاطة بالجبال، والطرق ضيقة، وقواتنا لا تتجاوز سبعمائة رجل، ونكاد ننفد من الطعام والذخيرة. والآن يمكن القول: «المقاتل بطل، والهارب فارس»، وقبل أن تنهار قواتنا بالكامل، دعنا ننسحب إلى (دە قە)، ونتشاور مع (كاي مو داي بن)، ثم نبلغ الكالون بالوضع.› وبعد إقناع متكرر، وافق (دە من داي بن) أخيرًا، ثم ناقشوا كيفية الانسحاب.»

كانت نتيجة المداولات هي قرار اختيار مائتي ضابط وجندي ممن يعرفون الطرق والتضاريس جيدًا لفتح الطريق، و»يتبعهم المصابون والمرضى وزوجات الجنود وأطفالهم وحيوانات الحمل والإمدادات العسكرية، مع حراسة عدد قليل من الضباط والجنود. أما الـ ٣٠٠ ضابط وجندي الباقون، والداي بن، والروبين، والمرافقون، فيبقون في الخلف لصد قوات المطاردة. بعد الاتفاق على ذلك، تم إرسال الأوامر للقوات بسحبها من مواقع دفاعها، وكان من المقرر أن يبدأ الانسحاب في أوائل أبريل."

لكن الجيش التبتي لم يكن قد نفذ خطة الانسحاب بعد، فقد بدأ جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) هجومه المضاد بالفعل.

"بشكل غير متوقع، في فترة ما بعد الظهر من ٢٠ مارس (بالتقويم التبتي)، احتلت القوات الصينية قمة التل الشرقي لقصر (ري نانغ)، وهاجمت القصر فجأة بثلاث رشقات متتالية، تساقطت القذائف كحبات البرد على السطح. كانت قمة التل الشرقي تبعد عن قصر (ري نانغ) حوالي ثلاثمائة خطوة فقط.» لقد شهد هذا المكان العديد من المعارك من قبل. لذلك، يجب أن نعلم أن هذه المسافة البالغة ثلاثمائة خطوة تفصلها حاجز طبيعي، وهو نهر (يالونغ) العميق والزلق. «أمر الداي بن (دە من) على الفور بحرق الجسور الممتدة عبر النهر إلى الضفة الشرقية، وبعد ذلك، انسحب الجيش التبتي وعائلاتهم وفقًا للخطة الموضوعة، عبر الجانب الغربي من قصر (ري نانغ)."

في ذلك الوقت، كانت (يون تشون تشوما)، زوجة (دە من داي بن)، أعلى قائد للجيش التبتي في (تشان هوا)، صغيرة السن. في مذكراتها، تقول: «كنت في العشرين من عمري آنذاك، وكانت ابنتي (رن تشو) قد بلغت سنتين. أمرني الداي بن بارتداء عباءة رجالية بيضاء، ثم أرسل شخصًا لإعداد الخيول، وبعد ذلك أمر: ‹على (تشان دوي لوه بو) أن يعتني بالسيدة جيدًا ويضمن سلامتها. وعلى الفارس (سولانغ) أن يرعى جيدًا ابنتي (رن تشو) والمربية (لاتشن). ويتولى (جين بين لاتسي) مسؤولية نقل صندوق ملفات نزاع (داجين - بايلي)، ويزوده بدابة ركوب وحيوان حمل لكل منهما، ويجب ألا تُفقد الوثائق.›» يبدو أن هذا الداي بن كان هادئًا في مواجهة الخطر، ويمتلك بعضًا من رباطة الجأش.

«حملت ستة بغال ستة صناديق ذخيرة، وتم تجميع المصابين والمرضى وعائلات الجنود، وفي وقت شرب الشاي، استغلوا فترة توقف نيران العدو، وخرجوا من قصر (ري نانغ) متجهين مباشرة نحو زاوية الجبل الغربية.

.indd 406-407 2025-11-27 10:56:25

”في منتصف الليل، أثناء السير، لمحنا فجأة نارًا عظيمة تشتعل على سفح الجبل الخلفي، فعمّ الذعر الجرحى والنساء والأطفال. أخبرنا السائقون والجنود الذين كانوا يرافقون الذخيرة بأن الحريق نجم عن إهمال أثناء الانسحاب الأخير، وأن الجنود بخير، فاطمأن الناس. تسلقنا الجبل دون توقف تلك الليلة، ووصلنا إلى القمة عند الفجر. أبلغنا جنود الحراسة بأن نستريح هنا، وأن يقوم من لديهم أدوات طهي بإعداد الشاي. وصل بقية الأفراد تدريجياً، واستراحوا في المكان، وقدم الأطباء الرعاية الأولية للجرحى والمرضى. ومنذ الأول من أبريل، كنا نستيقظ مبكرًا ونعود متأخرين كل يوم، نعبر مناطق غير مأهولة، ونتسلق الجبال ونعبر الوديان، ونكابد مشاق السفر والحرب، بما في ذلك الإصابات والمرض والجوع والعطش، حتى وصلنا أخيرًا إلى مفترق الطرق في (داكوه) في 11 أبريل. في ذلك الوقت، نفد الطعام من الجيش، فقررنا التوقف لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. لم يكن هذا المكان بعيدًا عن دير (داجين)، فأرسلنا جيوبين وجنديين إلى الدير لطلب تسامبا وشاي وزبدة وملح، وللبحث عن مكان إقامة (تشيونغ رانغ)، وإبلاغه بالوضع. بعد سقوط (يارونغ)، انتقل (تشيونغ رانغ) من (قانتسي) إلى دير (داجين).

”في صباح اليوم الخامس عشر من الشهر الرابع (بالتقويم التبتي)، أرسل دير (داجين) و(تشيونغ رانغ) أشخاصًا لنقل ستين حملاً من التسامبا، وصندوقين من الشاي، وكيسًا من الملح، وأربعة أكياس من الزبدة، وثمانية رؤوس من الأبقار. عندما مرت حيوانات الحمل من أسفل الجبل الجنوبي، فاحت رائحة التسامبا في المخيم العسكري، وبدأ جميع الضباط والجنود وزوجاتهم وأطفالهم والجرحى الخفيفون بالهتاف فرحًا. وبدت البهجة على وجهي (داي بن) و(روبين)، وقالا: ‹من اليوم فصاعدًا، لن نعاني من الجوع!› ثم قسموا قواتهم إلى ثماني مجموعات، ووزعوا التسامبا وغيرها من المواد الغذائية. وبعد ذلك، قرروا التوجه في فترة ما بعد الظهر من اليوم التالي إلى (رونغ با تشا)، المتاخمة لدير (داجين).“

في الواقع، لم تكن أوامر الجيش التبتي موحدة. فقد عصى ناره روبين، الذي كان يقاتل جنبًا إلى جنب مع (ده من داي بن) ويشاركه المصاعب، الأوامر هذه المرة، وقاد قواته مباشرة إلى (ده قه)، التي كانت لا تزال بعيدة عن خط المواجهة. أما (ده من داي بن)، فقد قاد قواته إلى (رونغ با تشا)، وسرعان ما انضمت إليه قوات (كاي مو داي بن) أيضًا. في مواجهة جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) الذي كان يحقق انتصارات في كل مكان، أصبح (تشيونغ رانغ)، ممثل المحادثات السابق، القائد العام للجبهة الأمامية. عقد اجتماعًا في دير (داجين) مع قائدي الجيش (ده من) و(كاي مو)، وقرروا حشد قوات الجيش التبتي والرهبان المسلحين من دير (داجين)، «وإعلان الحرب على القوات الصينية مرة أخرى.“

وبعد وضع الخطة، أرسل القائدان (ده من) و(كاي مو) زوجتيهما، اللتين كانتا ترافقهما دائمًا في الحملات، إلى لاسا.

في أوائل الشهر السابع (بالتقويم التبتي)، عادت (يون تشون تشوما) زوجة (ده من) إلى لاسا، بعيدًا عن خط المواجهة. وهناك، التقت بحملة تجنيد جديدة للحكومة المحلية في التبت بين أبناء العائلات الغنية، «كانت (تشونغ تشا ما قا) تقوم بالتجنيد هنا، وبما أن الرجال المجندين كانوا مطالبين بقص ضفائر شعرهم وخلع أقراطهم قبل الانضمام للجيش، فقد كانت مشاهد بكاء الزوجات والأطفال على نطاق واسع في كل مكان.»

عندما عادت زوجة الـ(داي بن) هذه إلى لاسا، لم نتمكن بعد ذلك من العثور على وصف تفصيلي للوضع في الجبهة الأمامية في السجلات التبتية. لقد ذكرت في مقالها التذكاري فقط: «منذ أن غادرنا... خاض القادة (كاي) و(تشيونغ) و(ده) ثلاث معارك في (قانتسي)، وكلها باءت بالفشل بسبب قلة العدد.“

لحسن الحظ، فإن الأحداث القتالية التالية وردت بتفصيل أكبر في برقية أرسلها (ليو ون هوي) إلى الحكومة الوطنية المركزية. في السابق، كانت برقيات (ليو) تذكر الهجمات المضادة بشكل موجز للغاية. فقد كانت تكتفي بالقول إن (تشان هوا) استعيدت في يوم معين، و(قانتسي) في يوم معين. أما الآن، فقد أصبحت فجأة مفصلة للغاية: «استعاد جيشنا (قانتسي) و(تشان هوا) في انتصار. ثم أرسلت التبت قوات قوية، وحشدت الميليشيات، وركزتها في منطقة (داجين - بايلي)، بهدف شن هجوم مضاد.“

«أدرك (ليو ون هوي) خبث الوضع التبتي، وكان يعتزم التقدم بسرعة لتدمير قوتهم الرئيسية، لكن العدو، بشكل غير متوقع، استغل تبديل حرسنا في 1 يونيو (بالتقويم الشرقي)، وهاجم قمة جبل الثلج الكبير بقوة تزيد عن خمسة آلاف جندي. كانت فرقنا الأولى والثانية والثالثة والرابعة منتشرة على خط جبهة وعر وواسع، ولم تكن مستعدة، فتلقت ضربة قوية. وبما أننا فقدنا مواقعنا على عجل، استغل العدو انتصاره وقام بمسح شامل لنا، وتزعزع خط الدفاع بأكمله، وكان الوضع خطيرًا للغاية. ولحسن الحظ، سارعت فرقنا في الجناح الأيسر والاحتياطية العامة لتعزيز القوات، واشتبكوا في معركة شرسة استمرت يومًا كاملاً، وسقط العديد من القتلى والجرحى، حتى تم استعادة موقع جبل الثلج بالكامل، وتحول الخطر إلى أمان. ثم شرعنا في شن هجومًا عامًا وفقًا للخطة الأصلية. هاجمت فرقتنا الثالثة في مساء ٢ يونيو (بالتقويم الشتوي) من خلف جبل الثلج، وهاجمت الفرقة الثانية من الجناح الأيسر لمنصة حرق البخور، وهاجمت الفرقتان الأولى والرابعة من دير (جيوه لوه)، وقاتلنا العدو في معركة استمرت يومًا وليلة. احتلت فرقتنا الأولى قرية (بايلي) في ٤ يونيو، واحتلت الفرق الثانية والثالثة والرابعة في نفس الوقت قرية (تسا دوي)، وتقدموا نحو (قه لاولونغ). بعد سقوط (بايلي)، تراجع العدو بالكامل نحو (داجين)، وطلب تعزيزات على عجل. وقد أقاموا تحصينات منيعة في الممرات الرئيسية بجانب الدير، ونشروا قواتهم على طبقات، ودافعوا بشدة حتى الموت. تقدم جيشنا خطوة بخطوة منذ ٥ يونيو، واشتبك في معارك دموية لمدة أربعة أيام، لكنه لم يتمكن من اختراق دفاعاتهم. وقد انتفض ضباطنا وجنودنا في الخط الأمامي، وتوسعت أعينهم غضبًا، وتنافسوا على أن يكونوا أول من يصعد، وفي فجر ٩ يونيو، أقسموا جميعًا على التضحية من أجل الوطن، وخاضوا معركة حتى الموت... دوت أصوات المدافع، وتطايرت الأشلاء، وكان ضباطنا وجنودنا في الخط الأمامي لا يزالون يهتفون بالتدريب العسكري، ويواجهون الموت بشجاعة، يتقدمون الواحد تلو الآخر دون أي تراجع، مما أثار دهشة السكان المحليين في منطقة المعركة الذين لم يروا مثل هذه الشدة في حرب (شيكانغ) من قبل. ثم هاجم جيشنا دير (داجين)، الذي كان يعتمد على دعم التبت ويُثير الفتنة والاضطرابات، واحتله بضربة واحدة، واستغل انتصاره لاحتلال (رونغ با تشا). وكانت غالبية قوات العدو تتراجع نحو (ده قه)، وقبل المغادرة، أضرموا النيران في مستودعات الذخيرة والمؤن في دير (داجين)، وهم حاليًا بصدد التعامل مع الآثار المترتبة على ذلك.»

.indd 408-409 2025-11-27 10:56:25

في هذه الأثناء، عندما رأى الدالاي لاما الثالث عشر أن الحرب تسير في غير صالحه، احتج لدى لجنة شؤون منغوليا والتبت عبر مكتبه في بكين قائلاً: «في عام رينشن (1933)، أعلن الجانب الصيني عن نيته في إقامة علاقات ودية مع التبت، لكنه مارس الخداع، والدليل على ذلك هو حشده غير المبرر للقوات والأسلحة وشن القتال في منطقتي (خه قه) و(تشان دوي) ..... أما بخصوص صراع ديري (داجين – بايلي)، فبعد أن أوكلت لجنة شؤون منغوليا والتبت الأمر إلى (ليو ون هوي) في (سيتشوان)، لم يتم إجراء أي مشاورات، بل بدأوا الحرب فجأة. كل هذا يكفي لإظهار أساليبهم الخادعة!"

في نزاع (داجين - بايلي)، سواء في فترات القتال أو السلام، ربما توجد تفاصيل أخرى حول الصواب والخطأ لم أطلع عليها بعد. لكن إذا تحدثنا عن مكاسب وخسائر (تشان هوا) ومنطقة (داجين - بايلي)، فإن ادعاء الجانب التبتي بوجود «خداع» هو في الحقيقة نوع من التبرير الواهي.

على عكس بداية نزاع (داجين - بايلي)، عندما كانت لجنة شؤون منغوليا والتبت ترسل برقيات متكررة إلى الدالاي لاما دون رد، في هذه المرة، ومع استعادة قوات (ليو ون هوي) لأراضيها باستمرار، بدأ جانب الدالاي لاما بإرسال برقيات متكررة إلى لجنة شؤون منغوليا والتبت، ثم انتقلوا مباشرة إلى إرسال برقيات إلى (شيانغ كاي شيك) يسألون: «ما هو الحل الذي تعتزم الحكومة المركزية اتخاذه بخصوص القضية الصينية التبتية؟»

رد (شيانغ كاي شيك) على مكتب التبت في بكين قائلاً: «التبت هي إحدى المجموعات العرقية الخمس في جمهورية الصين، ونحن جسد واحد، ولن ترغب الحكومة المركزية أبدًا في استخدام القوة العسكرية لحل أي مشاكل... ومع ذلك، تتلقى تقارير متكررة من جميع الأطراف تفيد بأن التبت تحشد جيشها لغزو (كانغ)، وتشتري أسلحة جديدة، وأن الدالاي لاما سيقود الهجوم بنفسه. إذا كانت التقارير صحيحة، فهذا يدل على عدم فهمهم لنوايا الحكومة المركزية الحسنة تجاه التبت، وإن استمرار القتال سيجلب المعاناة لشعبي (سيتشوان) والتبت. يرجى إرسال برقية إلى الدالاي لاما، وإذا كان لديه أي آراء ثابتة، فليتفضل بالإفصاح عنها بصراحة. طالما أنها مطالب معقولة، فإن الحكومة المركزية لن تتردد في قبولها، ويجب ألا يصدقوا تحريضات الآخرين بسهولة، ويتجهوا نحو التطرف، مما يمنح الإمبرياليين فرصة للغزو.»

وفي الجبهة، استمرت المعارك، وبحلول أغسطس 1932، كانت الحرب قد شارفت على الانتهاء. أرسل (ليو ون هوي) برقية إلى «رئيس الحكومة الوطنية (لين)، ورئيس اللجنة العسكرية (جيانغ)، ورئيس المجلس التنفيذي (وانغ):

"منذ اليوم التاسع من شهر يوليو، استعدنا سيطرتنا على المناطق المحيطة بدير (داجين) و(رونغ با تشا)، و(يولونغ).... وبحسب ما أفاد به القائد (دنغ شيانغ) ورفاقه، فإن القوات التبتية، بعد أن دُمِّر معظمها في معركة دير (داجين)، أرسلت تعزيزات قوامها أكثر من ألف جندي نظامي وثلاثة آلاف مقاتل من الميليشيات من منطقة (تشانغدو). لقد أقاموا خط دفاعهم الأول عند سفح الجانب الشرقي من جبل (تشوي إر) في منطقة (شان قن تسي)، وعهدت حراسته للميليشيات. أما خط الدفاع الثاني، فقد أقاموه في (كه لو دونغ) على الجانب الغربي جبل (تشوي إر)، وعهدت حراسته للفرسان الجدد القادمين من (تشانغدو). أما خط الدفاع الثالث، فقد أقاموه في (ده قه)، وعهدت حراسته للجنود التبتيين الذين تراجعوا من دير (داجين)، وقد حصنوا جميع هذه المناطق بتحصينات قوية. وبعد أن استطلعنا هذه المعلومات، قررنا في السادس والعشرين من الشهر شن هجوم بثلاثة محاور. المحور الأول (الجناح الأيمن): تتولاه الفرقتان الأولى والرابعة، وتتقدمان من (تشو تشينغ) لمهاجمة (كه لو دونغ). المحور الثاني (الواجهة الأمامية): تتولاه الفرقتان الثانية والثالثة، وتستهدفان أولًا السيطرة على (شان قن تسي)، ثم عبور جبل (تشوي إر) لمهاجمة (كه لو دونغ). المحور الثالث (الجناح الأيسر): تتولاه الفرقة الخامسة، وتتقدم من (تسنغ كه) لمهاجمة (ده قه) بشكل جانبي. بدأ القتال صباحًا واستمر حتى المساء، وكانت المعركة ضارية. سقط العديد من القتلى والجرحى من كلا الجانبين. قاتلت قواتنا بشجاعة وتضحية، وهاجمت العدو بلا هوادة. وفي النهاية، تراجع العدو التبتي في فوضى باتجاه (ده قه)، وتمكنا من السيطرة على (شان قن تسي)، وجبل (تشوي إر)، و(كه لو دونغ) وغيرها من المناطق.»

"تبعد (كه لو دونغ) عن (ده قه) أربعين لي، وهي محصورة بين جبلين، مع جروف وعرة ومياه متدفقة، وبها ثلاثة عشر جسرًا. وقد قسمت القوات التبتية نفسها إلى معسكرات، وحصنت الجسور للدفاع عنها. تقدم جيشنا مستغلًا الانتصار، وشن قصفًا عنيفًا بالمدفعية والهاون والرشاشات. قاوم العدو ببسالة واستبسال، مما أعاق تقدمنا. ولم يكن أمامنا خيار سوى تسلق الجبال بخطورة، وتجاوز الجسور من الخلف. في الوقت نفسه، قامت قوات الجناح الأيسر القادمة من (تسنغ كه) بتطويق (ده قه) من الخلف، وهكذا سيطرنا على جميع الجسور الثلاثة عشر بالكامل، وتابعنا المطاردة، وفي اليوم التاسع والعشرون (٢٩) من الشهر، سيطرنا على مدينة (ده قه). تراجع العدو التبتي عبر نهر (جينشا) هاربًا، وتجمع في (قانغ توه). استغل جيشنا عبورهم للنهر وقام بإطلاق النار عليهم، فلقي عدد كبير من الأعداء حتفهم، وسيطرنا على (قونغ يا) في نفس اليوم، وفي الوقت نفسه، أرسلنا فرقة للتقدم نحو ضفة نهر (جينشا)، وفرضنا حصارًا مشددًا على معبر (قانغ توه). تكبد جيشنا خسائر بلغت أكثر من ألف ضابط وجندي بين قتيل وجريح."

بعد هزيمة الجيش التبتي في (ده قه) وانسحابه، اهتزت الجبهة بأكملها، وانسحبوا تباعًا من محافظات (دنغ كه)، و(شي تشو)، و(باي يو). ومنذ ذلك الحين، في العام السابع لجمهورية الصين، استعاد جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) جميع المحافظات الواقعة شرق نهر (جينشا) التي احتلها الجيش التبتي عقب حادثة (لي وو تشي)، أدى ذلك إلى تشكيل وضع مواجهة بين جيشي (سيتشوان) والتبت عبر نهر (جينشا).

[redacted].indd 410-411 2025-11-27 10:56:25

في هذه الأثناء، تدخل البريطانيون لحث الطرفين على وقف إطلاق النار.

بالتزامن مع هذه الأحداث، واجه (ليوون هوي) أزمة داخلية، حيث تحالف قائد الجيش العشرين (ليو شيانغ) مع الجيشين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، استعدادًا لشن حرب ضد (ليوون هوي). وهكذا تخلى جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) عن خطته للاستفادة من النصر وعبور النهر لاستعادة جميع الأراضي الذي فقدها قبل هزيمة معركة السنة السابعة من حكم جمهورية الصين. في أكتوبر 1932، وقع الجانب التبتي، ممثلاً بالقائد (تشيونغ رانغ داي بن) نفسه، وممثلا جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ)، (دنغ شيانغ) و(جيانغ يو ون)، اتفاقية «شروط الهدنة الصينية-التبتية» المكونة من ستة بنود في (قانغ توه)، على الضفة الغربية لنهر (جينشا).

المحتوى الرئيسي للاتفاقية:

تتخذ القوات الصينية والتبتية من الضفة الشرقية والغربية لنهر (جينشا) في المجرى الأوسط والسفلي خط دفاع أمامي، ولا يجوز تجاوزها. وفي الوقت نفسه، لا يجوز أن يتجاوز عدد القوات المتمركزة في كل نقطة على الجبهة مائتي جندي من كل جانب.

هذا الخط الفاصل، حتى اليوم، لا يزال هو الحدود بين مقاطعة (سيتشوان) ومنطقة التبت ذاتية الحكم. لم يعد هناك قوارب جلدية عند معبر (قانغ توه) القديم على النهر، ويوجد الآن جسر إسمنتي كبير. على الضفة الغربية عند رأس الجسر، لا تزال توجد بعض الحصون الصخرية القوية قائمة على سفح الجبل، وقد أُنشئت هذه الحصون في خمسينيات القرن الماضي عندما حاول الجيش التبتي عرقلة تقدم جيش التحرير الشعبي إلى التبت.

قبل ست سنوات، في أحد الأيام، قمت بالقيادة خارج مدينة (ده قه)، وتوقفت لنصف يوم في مكان يسمى (لونغ يا). في ذلك المكان، توجد بقايا قلعة قديمة، وجدار متعرج لمدينة قديمة يمتد من الوادي إلى قمة الجبل. لا توجد أي سجلات مكتوبة لهذه المدينة القديمة في المصادر التاريخية، ولكن هناك أساطير شعبية متداولة بين السكان المحليين. يقال إن هذه المدينة هي القلعة التي كان يحميها (جيا تشا شيه قا)، وهو رئيس الجنود الثلاثين الكبار تحت قيادة الملك جيسار في ملحمة «الملك جيسار»، وهو أيضًا أخوه غير الشقيق. في الملحمة، يُصوَّر (جيا تشا شيه قا) كشخصية مختلطة الأعراق (صيني-تبتي)، مخلصًا وشجاعًا وذكيًا، وحتى بعد موته في المعركة، كان يظهر في ساحة المعركة لمساعدة الجنود. وقفت على جانب الجدار المتبقي على الهضبة، وفكرت، في عصر الملك جيسار، وهو أبعد بكثير مما هو مكتوب في هذا الكتاب، كان نظر الناس في هذه الأرض أبعد، وعقولهم أوسع. لو كان هناك اليوم كتابة بطولية مثل «الملك جيسار»، فهل سيصوّر الناس شخصية مختلطة الأعراق (صيني-تبتي) كبطل يلهم الأجيال؟ تهب الرياح بقوة، وينسكب شلال ضوء الشمس، وتتراءى أمامي سلسلة من الجبال الممتدة. لا أحد يستطيع الإجابة على مثل هذا السؤال، فقط ظلال الأشجار في الريح تتحرك وتصدر ضجيجًا عاليًا. بجانبي، كان الجدار الترابي المتبقي من القلعة القديمة أحمر اللون بالكامل، ويقال إنه أصبح بهذا اللون بعد تعرضه لهجمات نارية متعددة. قام المسن المحلي الذي روى لي القصة بالحفر قليلاً عند قاعدة الجدار المتبقي، وأخرج قطعة كبيرة من مادة حمراء صدئة ووضعها أمامي. لم تكن طينًا، بل كانت أحجارًا ذائبة جزئيًا وملتصقة بإحكام. قال الرجل المسن: «انظر إلى ذلك الوقت، انظر إلى ذلك الوقت، لقد قاموا بحرق خام الحديد حتى ذاب جزئيًا، ووضعوه في أساسات الجدار، ثم سكبوا عليه الحديد السائل لجعل هذه الأحجار تلتصق بإحكام.» قال الرجل المسن: «لذلك، يمكن لجدران القلعة القديمة أن تصمد لآلاف السنين دون أن تسقط.» حفرت في الأرض، ووجدت في كل مكان

أساسات جدران قديمة بلون مغرة، وقد بُني معبد بوذي فوق أساسات الجدران القديمة. كان الضوء خافتًا في المعبد، وعلى عمود ملون، كان معلقًا جعبة أسهم ملونة، وبها بعض الأسهم ذات الريش. قال رهبان المعبد إن هذه أيضًا أشياء قديمة بقيت من عصر جيسار. هذا، حسب قدرتي، يصعب التحقق منه.

غادرت قرية (لونغ يا)، وتوجهت غربًا على طول الوادي، حتى وصلت إلى ضفة نهر (جينشا). تحت أشعة الشمس القوية في الظهيرة، وقفت على الجسر الإسمنتي الواسع، أنظر إلى مياه النهر تحتي. في الأماكن سريعة التدفق، تتصادم المياه بالصخور، وتتلاطم الأمواج البيضاء، بينما في الأماكن الهادئة، تتشكل دوامات متتالية. لم يكن هذا النهر في السابق يمثل خط الحدود بين مقاطعتي (سيتشوان) والتبت، بل كان نهرًا داخليًا ضمن أراضي حاكم (ده قه)، الذي شهد تراجع نفوذ عائلته تدريجيًا في أواخر عهد سلالة (تشينغ) بعد مئات السنين من السيطرة. في عهد جمهورية الصين، تحولت ضفتا هذا النهر عدة مرات إلى ساحة معركة بين (سيتشوان) والتبت. وبعد حادثة (داجين - بايلي) في ذلك العام، تواجه جيش الدفاع الحدودي في (سيتشوان) و(كانغ) والجيش التبتي بعضهما البعض عبر النهر هنا.

توقفت سيارة تحمل لوحة ترخيص تبتية على الجسر، ونزل منها شخصان. قدّما نفسيهما كمسؤولين وصلوا لتوهم إلى محافظة (جيانغ دا)، قادمين من (تيانجين) لدعم التبت، وذكرا أنهما ذاهبان لزيارة قادة محافظة (ده قه). على الرغم من أن المحافظتين تنتميان إلى مقاطعتين مختلفتين، إلا أنهما متقابلتان عبر النهر، ومن الطبيعي أن يتبادل القادة الجدد الزيارات لتسهيل العمل المستقبلي.

تجاذبنا أطراف الحديث على الجسر، مع صوت النهر كخلفية، ثم افترقنا. ذهبا إلى (ده قه)، حيث كنت قد غادرت للتو، بينما اتجهت أنا جنوبًا على طول الطريق الوعر على الضفة الشرقية لنهر (جينشا). يؤدي هذا الطريق إلى محافظة (باي يو)، التي تأسست حديثًا بعد حملة (تشاو إرفنغ) لـ «تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين». ومن (باي يو)، إذا واصلت السير جنوبًا على طول النهر، فستصل إلى (باتانغ) على الطريق الجنوبي بين (سيتشوان) والتبت. وإذا اتجهت شرقًا من (باي يو)، عبر هضبة واسعة مغطاة بالأنهار الجليدية، فستصل إلى ما كان يُعرف سابقًا باسم (تشان دوي)، والتي تعرف اليوم بمحافظة (شين لونغ).

.indd 412-413 2025-11-27 10:56:26

لم أصل إلى (باي يو) في ذلك اليوم.

توقفت في مكان يُدعى بلدة (خه بوه شيانغ)، وهو مشهور بنوع مميز جدًا من السكاكين: سكين (باي يو) التبتي. يُقال إن هذه المنطقة كانت قبيلة تُصنّع الأسلحة في عصر جيسار. تجولت في القرية، وكل منزل تقريبًا كان يعمل في الحرف اليدوية التقليدية، لكنهم لم يعودوا يصنعون الأسلحة. كانوا يطرقون النحاس المصقول إلى صفائح رفيعة لصنع مختلف الأدوات الدينية: قمم المعابد، وعجلات الصلاة، وتماثيل بوذا... كانت هناك مجموعة متنوعة من الأشياء، وبعض الناس كانوا يصنعون سكاكين صغيرة ذات نصل صغير وغمد فضي فاخر – مزين بزخارف معقدة ومرصع بحبات المرجان الأحمر. هذه السكاكين، قيمتها الزخرفية أكبر من قيمتها العملية. لم أستسلم، وبدأت أستفسر عما إذا كان هناك أي شخص لا يزال يصنع سكاكين حقيقية. لهجة (كانغ با) التبتية تختلف كثيرًا عن لهجة (جيا رونغ) في مسقط رأسي، ولم أتمكن إلا من نطق بعض الكلمات البسيطة بصعوبة، وأخيرًا، فهم بعضهم قصدي وقادوني إلى أحد المنازل. في الطابق الثاني من منزل حجري، كان هناك غرفة معيشة واسعة ومفتوحة. أخرج رب المنزل، وهو رجل في الخمسينات من عمره، عددًا من السكاكين البسيطة والحادة، يتراوح طولها بين قدمين وثلاثة أقدام، ووضعها على الطاولة التبتية المنخفضة أمامي. حتى قبل أن ألمسها، شعرت بوزنها وحدتها. أوضح المضيف أن هذه السكاكين لم تعد صالحة للاستخدام. حتى أنه استخدم مصطلحًا صينيًا لها: «سكاكين مُتحكَم بها». قال إن السياح الذين يُعجبون بها يمكنهم أخذها إلى منازلهم وتعليقها على الحائط. وأضاف أن العديد من السياح كانوا يشترونها ويحتفظون بها كمجموعات تذكارية. أما الآن، فلم يعد الأمر كذلك؛ فهي تخضع للتفتيش ولم يعد يُسمح بحملها. عند هذه النقطة، شعرت أنا والمضيف ببعض الأسى. إذا كان لا يزال يريد بيعها، فهذا هو الحال، ثم أخرج سكينًا آخر، غير مسننة، فقلت: «هذه لم تعد سكينًا.”

تذكرت أيام طفولتي عندما كنت أرعى الأغنام، كان مثل هذا السكين مُثبتًا بشكل مائل في حزامي، وعندما تختبئ الأغنام بين الشجيرات وترفض الخروج، كان هذا السكين مفيدًا، كنت أضرب يمينًا ويسارًا بشكل متتالي، فتسقط تلك الأغصان، ويُفتح ممر.

بينما كنا نتحدث، جاء صوت طرق معدني من المنصة خارج الطابق الثاني. خرجت فرأيت شابًا في العشرينات من عمره يطرق سكينًا جديدًا بجانب فرن الحدادة المتوهج. أشرت إلى الحداد الصامت وسألت المضيف: «هل هذا ابنك؟» ابتسم، ونظر إلى ربة المنزل التي كانت تقدم لنا الشاي والماء. عندها فهمت أن هذه عائلة تعدد أزواج (إخوة يتشاركون زوجة واحدة).

تلك الليلة، أقمت في هذا المنزل. كان صوت أمواج نهر (جينشا) من النافذة يجعل النوم صعبًا. كنت أفكر في المصير المأساوي لأمة، ولماذا تحول عصر جيسار العظيم والواسع إلى عصر من إقطاعيات صغيرة وقليل من الناس تحت حكم شيوخ القبائل. وكنت أفكر أيضًا، حتى اليوم، لا يزال عدد قليل جدًا من أفراد هذه الأمة يفكرون في مثل هذه الأسئلة، بل قد يصبح التفكير فيها مجرد مساس متعمد بمحظور ما؟

عند مغادرتي صباحًا، كانت بعض العائلات في هذه القبيلة التي كانت تصنع الأسلحة سابقًا تقوم بتحميل الأدوات الدينية المصنوعة على شاحنات صغيرة. نعم، في زمن السلام، تراجعت السيوف والسهام. من الطبيعي أن تتوارى بعض الأدوات مع تقدم التاريخ، ولكن لماذا تضيق الروح العريضة والنابضة بالحياة وتضعف معها؟

في حرب (داجين - بايلي)، انتصر الجانب التبتي أولاً ثم هُزم. القرارات المتهورة اتخذها من هم في السلطة، بينما الضباط في الميدان كانوا يتبعون الأوامر فقط. لكن مسؤولية الهزيمة وقعت على عاتق ضباط الخط الأمامي. تذكر مذكرات (ده من. يون تشون تشوما) أن: «المسؤول الراهب من الدرجة الرابعة (تشا (كانغ) كان تشونغ) وممثلي الأديرة الثلاثة الكبرى أصدروا بيانًا من (لي وو تشي)، يأمرون فيه قادة الداي بن الثلاثة بالتوجه لتلقي العقوبة العسكرية والسياسية. وصل الرجال الثلاثة إلى ذلك المكان وخضعوا للمحاكمة، سلّم (كاي مو) و(ده من) وثائق تُفصّل المعركة بأكملها. وفي النهاية، عُفي عن الرجال الثلاثة من عقوبة الإعدام، وتم تجريدهم من رتبهم كـداي بن›، وغُرم (تشيونغ رانغ) بمائة وخمسين تايل من الذهب.”

أما كالون (آبي)، الذي كان يتولى قيادة العمليات في الجبهة، فقد توفي من الخوف والقلق في مكتبه في (تشانغدو).

في الواقع، كان هؤلاء الضباط التبتيون، الذين خاضوا معارك متكررة مع الجيش الصيني في الخطوط الأمامية، على دراية تامة بنتائج القتال أو عدمه، ونتائج الحرب أو السلام، مقارنة بالمسؤولين الرهبان والعلمانيين في مركز لاسا.

[redacted].indd 414-415 2025-11-27 10:56:26

انتهت حرب (داجين - بايلي) عام 1932. تخصص «حوليات الدالاي لاما الثالث عشر» جزءاً لهذه الحرب، لكن بلهجة هادئة لا تظهر مشاعر الدالاي لاما: «في هذا العام، دارت معارك بين (سيتشوان) والتبت، وتكبد الجيش التبتي في مناطق (هوه إركو) [وهي مناطق شيوخ قبائل (هو أر) الخمس المنغولية الأصل المتواجدة في (قانتسي) و(لو هوَّه) و(نيانغ رونغ) (أي منطقة تشان هوا)] خسائر وهزائم. تفاوض (تشيونغ رانغ داي بن) مع ضباط صينيين كبار وقادة ألوية، واتفقوا على وقف الأعمال العدائية عند نهر (جينشا) في معبر (قانغ توه). وبسبب التنازلات المفرطة في المعارك والمفاوضات، عاقب الدالاي لاما المسؤولين في (ده قه)، نيانغ رونغ، وهورغو، وهم (تشيونغ رانغ)، (ده من)، و(كاي مو) وغيرهم، وخفض رتبهم إلى مسؤولين مدنيين عاديين، وعين آخرين ليحلوا محلهم."

وفي مايو 1933، سجلت الحوليات مرة أخرى: «بعد توقيع الاتفاقية بين (سيتشوان) والتبت، أمر الدالاي لاما أمين عام (تشا مو دوه) وموظفيه بالحضور للتشرف بلقائه... لتلقي نص الاتفاقية التي قدموها، والاستماع إليهم بالتفصيل.» لكن لم يُسجل كيف كان رد فعله بعد الاستماع إلى التقرير. وبعد خمسة أشهر أخرى، «في الثلاثين من الشهر العاشر، ظهرت على الدالاي لاما علامات الوفاة في قصر العمر المديد (تشي مي تشياو تشي) وهو جناحه الخاص بالقرب من قصر (قه سانغ).» هنا الشهر العاشر هو بالتقويم التبتي. وتاريخ وفاة الدالاي لاما الثالث عشر بالتقويم الميلادي هو 17 ديسمبر 1933، عن عمر يناهز 58 عامًا».

في عام 1934، أرسلت الحكومة الوطنية (هوانغ موسونغ)، نائب الأمين العام لهيئة الأركان العامة، إلى التبت لمنح الألقاب وتقديم التعازي. وفي يونيو، «في السابع والعشرين من الشهر، وصل إلى نهر (جينشا)، حيث كان المسؤولون المدنيون والعسكريون التبتيون والروبين وغيرهم ينتظرون على ضفة النهر بفارغ الصبر. ثم عبروا النهر لحضور مأدبة (تشيونغ رانغ داي بن) المبهجة. ومنذ ذلك الحين، تحسنت العلاقات بين القوات المتمركزة في (كانغ) والتبت إلى حد ما، وقلّت الفجوة بشكل كبير."

ذكر (هوانغ موسونغ) في تقريره: «تم تكليف (تشيونغ رانغ داي بن) من قبل الحكومة التبتية بمهمة المبعوث الخاص، وتولى مسؤولية جميع الترتيبات الأمنية والتعبئة قبل عبور النهر. هذا الشخص مطلع للغاية على أحداث (سيتشوان) و(كانغ)، وقد خدم في القوات المتمركزة في (كانغ) لمدة ستة عشر إلى سبعة عشر عامًا. وقد تولى بنفسه معاهدة (رونغ با تشا) في السنة السابعة من حكم جمهورية الصين، واتفاقية (قانغ توه) المبرمة مع قائد الجيش ليو هذه المرة. إنه رجل ذو خبرة ودهاء، ومليء بالمكر.» يبدو أن المبعوث الخاص (هوانغ موسونغ) لم يكن يحب هذا الرجل كثيرًا. وهذا بدوره يشير إلى أن (تشيونغ رانغ) كان مخلصًا للحكومة المحلية في التبت. في عام 1932، فقد منصبه العسكري، وتم تخفيض رتبته إلى مسؤول مدني عادي. بعد عامين، يبدو أنه استعاد منصبه، لأنه كان لا غنى عنه في التعامل مع «الحكومة الصينية» كشخص متمكن ومطلع على أوضاع الطرفين.

أسطورة بوذا الحي (نونا)

حان الوقت لنترك حرب (داجين - بايلي) ونتحدث عن القصة الأسطورية لبوذا الحي.

للحديث عنه، علينا أن نقلب التقويم مرة أخرى ونعود بالزمن إلى حرب (سيتشوان) والتبت في السنة السابعة من حكم جمهورية الصين.

كانت سلالة بوذا الحي (نونا) في الأصل مسؤولة عن دير (تشانغ تشي) في منطقة القبائل التسع والثلاثين في (لي وو تشي) شمال غرب (تشانغدو). كان بوذا الحي (نونا) في حياته السابقة متبحرًا في تعاليم طائفة (نينغ ما) البوذية التبتية، ويتمتع بمكانة عالية بين أتباعه في تلك المنطقة، وقد منحه إمبراطور سلالة (تشينغ) لقب «خوتو كه تو».

"خوتوكه تو» هو لقب منحته سلالة (تشينغ) لكبار البوذات الأحياء في البوذية التبتية بالمناطق المنغولية والتبتية. كلمة «خوتوكه تو» هي ترجمة صوتية من اللغة المنغولية، وتعني «العمر المديد»، و»تو» تعني «يمتلك»، وبالتالي فإن الكلمة مجتمعة تعني «الشخص الذي يتمتع بعمر مديد»، أي الخلود. وهي في الأصل ترجمة صوتية منغولية للمصطلح التبتي «تشوقو»، والذي يعني «التجسد»، أو ما يُعرف باللغة الصينية العامية بـ «البوذا الحي». كل من كان يُمنح لقب «خوتوكه تو» كان يُسجل اسمه في سجلات مكتب (لي فان يوان) (مكتب الشؤون الحدودية في سلالة (تشينغ))، وكانت التجسدات اللاحقة له تخضع للتصديق عليها من قبل البلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ).

لم أجد أي معلومات تشير إلى أن هذا بوذا الحي (نونا) هو التجسد رقم كم في هذه السلالة. تذكر السجلات التاريخية فقط أن (نونا)، بسبب لقبه الذي حصل عليه من سلالة (تشينغ)، كان «يشعر ببعض التعاطف تجاه الجيش الصيني». لم يكن هذا التعاطف عاديًا؛ ففي السنة السابعة من عهد جمهورية الصين، عندما اندلعت الحرب بين جيش الحدود المتمركز في (تشانغدو) بقيادة (بنغ ري شنغ) والجيش التبتي، وقف بوذا الحي (نونا) وديره إلى جانب الجيش الصيني، وساعد (بنغ ري شنغ) في هجومه على الجيش التبتي. وكما نعلم، كانت نتيجة الحرب هزيمة كاملة للجيش الحدودي. هُزم قائد جيش الحدود (بنغ ري شنغ) وأُسر، واقتيد إلى لاسا حيث سُجن، ويُقال إنه توفي لاحقًا في السجن بسبب المرض. وبالطبع، لم يكن مصير (نونا)، الذي ساعد في الحرب، أفضل حالًا؛ فقد قبضت عليه الحكومة المحلية في التبت أيضًا، واقتيد إلى لاسا، وسُجن. في ذلك الوقت، كان الفساد منتشرًا في الإدارة التبتية، وكان يمكن تحقيق أي شيء تقريبًا بالرشاوى الكبيرة. كان (نونا) يدرك ذلك جيدًا، فتمكن من الهرب من السجن عن طريق رشوة السجانين. بعد أن فر من سجنه، لم يجرؤ على البقاء في التبت لفترة طويلة، فتوجه مباشرة إلى نيبال. وعندما وصل إلى نيبال، لم يُواجه أي صعوبات، لأن أفراد العائلة المالكة كانوا يعتنقون البوذية التبتية. العديد من كبار رهبان البوذية التبتية كانوا يمارسون الطب، وبوذا الحي (نونا) لم يكن استثناءً. عندما وصل إلى نيبال، كانت أميرة العائلة المالكة مريضة، وبعد أن قام بفحصها ووصف لها الدواء، بالإضافة إلى الطقوس الدينية، تعافت الأميرة بسرعة، فزاد احترام العائلة المالكة له. وكان هدف (نونا) النهائي هو الهروب إلى داخل الصين، فمنحه ملك نيبال أموالًا سخية لمساعدته على السفر عبر الهند إلى داخل الصين.

.indd 416-417 2025-11-27 10:56:26

بعد فترة وجيزة، وصل (نونا) إلى بكين، وكان ذلك خلال فترة حكم (دوان تشي روي). قابل دوان وأقنعه بإرسال قوات عبر الحدود لاستعادة الأراضي المفقودة بعد هزيمة جيش الحدود في السنة السابعة من حكم جمهورية الصين. لكن (دوان) كان مشغولًا بمواجهة الصراعات بين أمراء الحرب في الداخل، ولم يكن لديه وقت لأمور أخرى. اضطر (نونا) للبقاء في العاصمة للوعظ وشرح التعاليم البوذية. خلال هذه الفترة، أصبح ممثل أمير الحرب في (سيتشوان)، (ليو شيانغ)، المقيم في بكين، المدعو (لي قونغ دو)، أحد أتباعه أيضاً. دعاه (لي) إلى (تشونغ تشينغ). اعتقد (نونا) أن حكومة (دوان) لا تستطيع مساعدته، فربما يستطيع (ليو شيانغ)، وهو قوة قوية في (سيتشوان)، مساعدته، فقبل الدعوة وتوجه إلى (تشونغ تشينغ). لكن عندما وصل إلى (تشونغ تشينغ)، لم يكن لدى (ليو شيانغ) أي نية للتوسع الحدودي. شعر (نونا) بخيبة أمل، وفي عام 1927، توجه إلى (نان جينغ)، العاصمة الجديدة للحكومة الوطنية التي كانت بالفعل برئاسة (شيانغ كاي شيك).

في (نان جينغ)، جمع (نونا) العديد من الأتباع، ومارس الوعظ وشرح التعاليم البوذية، وازداد تأثيره على الناس.

في ذلك الوقت، كان هناك شاب تبتي يدعى (قه سانغ تسه رن) عضوًا في لجنة شؤون منغوليا والتبت في (نان جينغ).

كان (قه سانغ تسه رن) وهو من مواليد (باتانغ)، من أوائل الشباب التبتيين في منطقة (كانغ) الذين تلقوا تعليمًا حديثًا. بعد أن أجرى (تشاو إرفنغ) إصلاحات إدارية تتمثل في «تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين»، افتتح مدرسة ابتدائية في (باتانغ)، وأصبح (قه سانغ تسه رن) من أوائل الطلاب في هذه المدرسة. بعد ثورة عام 1911، انتقل إلى مدرسة هواشي الابتدائية التي أنشأتها بعثة أجنبية في (باتانغ)، وفي عام 1917، ذهب إلى (كونمينغ) لدراسة المرحلة الثانوية. لاحقًا، قررت الحكومة الوطنية تطوير (شيكانغ)، وأنشأت مكتب المستوطنات بـ(شيكانغ) في (كانغ دينغ). لجمع وتدريب المواهب، وافتتح (ليو يوجيو) رئيس مكتب (المستوطنات) مدرسة ضباط الجيش هناك. في عام 1924، التحق (قه سانغ تسه رن) بهذه المدرسة، وبسبب إتقانه للغتين الصينية والتبتية، عُيّن مفوضًا للتهدئة في مكتب المستوطنات. ثم عمل لاحقًا لدى البانشن لاما التاسع وقائد الجيش الرابع والعشرين (ليو ون هوي). بعد ذلك، انتقل إلى (نان جينغ). وبسبب اهتمامه المستمر بالشؤون الجارية، ورؤيته الفريدة للوضع في (كانغ) والتبت، نال تقدير (داي تشوان شيان)، رئيس المجلس الوطني للامتحانات في الحكومة الوطنية آنذاك، الذي أوصى بتعيينه في الحكومة الوطنية، حيث أصبح عضوًا في لجنة شؤون منغوليا والتبت، ونائب رئيس صحيفة منغوليا والتبت في نفس الوقت، وخلال هذه الفترة انضم إلى حزب الكومينتانغ الصيني. خلال فترة عمله، دعا (قه سانغ تسه رن) إلى تدريب المزيد من الشباب التبتيين في منطقة (كانغ)، والمشاركة في البناء السياسي والاقتصادي والثقافي المحلي. وبتأثيره، جاء العديد من الشباب المتعلمين من منطقة (كانغ)، مثل (باتانغ) و(كانغ دينغ)، إلى (نان جينغ) لتولي مناصب أو للدراسة. تجمع هؤلاء الشباب حول (قه سانغ تسه رن) في (نان جينغ)، وأسسوا «جمعية النهوض بالشباب التبتي»، وتولى (قه سانغ تسه رن) رئاستها، بهدف إعداد المواهب لتغيير وبناء مسقط رأسه في المستقبل.

عندما وصل بوذا الحي (نونا) إلى (نان جينغ)، وبما أنهما تبتيان وينتميان إلى الحكومة المركزية، نشأت بينهما بطبيعة الحال علاقة وطيدة. تشير بعض المصادر إلى أن (قه سانغ تسه رن) «أشاد بـ (نونا) من جميع النواحي»، قائلًا إنه متبحر في التعاليم البوذية، ومخلص للحكومة المركزية، وذكر مساعدته لجيش الحدود في (لي وو تشي) سابقًا. تلقى هذا الراهب الموقر اهتمامًا كبيرًا من الحكومة الوطنية، واستقبله رئيس المجلس الوطني للامتحانات (داي تشوان شيان) شخصيًا. كان (داي تشوان شيان) نفسه بوذيًا ورعًا ومتبحرًا في تعاليم بوذا، وبصفته مسؤولًا حكوميًا رفيع المستوى، كان يهتم بشكل خاص بالوضع السياسي والاجتماعي في (شيكانغ). أجاب (نونا) على جميع استفسارات (داي تشوان شيان) بشكل ممتاز، مما أرضى (داي تشوان شيان) كثيرًا، واعتبر أن (نونا)، مثل (قه سانغ تسه رن)، موهبة نادرة لا تقدر بثمن لخطط الحكومة الوطنية في تطوير (كانغ). لذلك، أوصى بتعيينه عضوًا في لجنة شؤون منغوليا والتبت. كما وافق على تأسيس «مكتب (نونا) (خوتوكه تو) في (شيكانغ)» في (نان جينغ)، برئاسة (لي قونغ ليه)، وهو شقيق (لي قونغ دو) الذي قدم (نونا) في الأصل إلى (ليو شيانغ). لزيادة اتصاله بمناطق (كانغ) والتبت، أنشأ (نونا) أيضًا «مكتب (نونا) (خوتوكه تو) في (كانغ دينغ)». وعيّن الزعيم السابق لقبائل (لي وو تشي) التسع والثلاثين، (تشيونغ بو بنغ تسوه)، رئيسًا له. قرأت بعض المذكرات، وقد قابله العديد من الشخصيات التي كانت تتردد على (كانغ دينغ) في ذلك الوقت. يُعرف هذا (بنغ تسوه) أيضًا باسم (ناماي بنغ تسوه). بعد السنة السابعة من حكم جمهورية الصين، قاد هو وأفراد قبيلته جيش الحدود التابع لـ (بنغ ري شنغ) لمهاجمة الجيش التبتي. وبعد هزيمتهم وأسرهم، عاقبه الجيش التبتي بقطع أنفه. بعد ذلك، لم يتمكن من العودة إلى دياره وظل مشردًا في منطقة (كانغ دينغ) لفترة طويلة. كلمة «ناماي» في اللغة التبتية تعني «ليس لديه». إذنْ فما هو الشيء الذي لم يكن لديه؟ لم يكن لديه أنف. في هذه المرة، توليه منصب رئيس مكتب (نونا) يعتبر استعادة لبعض مجده السابق كزعيم قبلي.

[redacted].indd 418-419 2025-11-27 10:56:26

قبل تقدم اليابانيين خطوة بخطوة، كانت منطقة الجنوب الغربي بمثابة العمق الخلفي للدولة بأكملها، وكانت منطقة (كانغ) هي العمق الأعمق لهذا العمق الخلفي، مما جعل استقرارها أكثر أهمية من أي وقت مضى. كان لدى بعض ذوي البصيرة في الحكومة الوطنية تصور استراتيجي به»ترسيخ (سيتشوان) و(كانغ) أولاً، ثم التبت لاحقًا». وفي الوقت نفسه، كانت الحكومة المركزية تخشى أن تظل هذه المنطقة تحت السيطرة الكاملة لقوى محلية مثل (ليوون هوي)، وكانت تبحث دائمًا عن فرصة لإدخال قوة أخرى. في البداية، استغلت الحكومة المركزية فرصة حرب (داجين - بايلي) لتعيين (قه سانغ تسه رن) مستشارًا للحكومة الوطنية، ثم أرسلته بصفته مفوضًا خاصًا لشؤون الحزب في (شيكانغ)، ليقود مجموعة من شباب منطقة (كانغ) الذين كانوا يدرسون ويعملون في (نان جينغ) للعودة إلى مسقط رأسهم. كان هدف (شيانغ كاي شيك) هو أن ينشئ (قه سانغ تسه رن) تنظيمًا لحزب الكومينتانغ في منطقة (كانغ)، وأن يطور قوة معارضة في معقل (ليوون هوي). عاد (قه سانغ تسه رن) إلى (باتانغ)، ورأى أن معظم قوات (ليوون هوي) المتمركزة في منطقة (كانغ) كانت منخرطة في القتال ضد الجيش التبتي في منطقة (قانتسي) (لو هوَّه)، وتزامن ذلك مع تمرد (كانغ دينغ) العسكري الذي أدى إلى مقتل قائد اللواء (ما) على يد الجنود المتمردين. فقام (قه سانغ تسه رن) بالتواصل مع القوى المحلية القوية، وسيطر على أسلحة سريتين من الحامية المتمركزة في (باتانغ)، وأسس قيادة الدفاع الإقليمي لمقاطعة (شيكانغ)، وعين سكرتيره (هوانغ تسي تشي) محافظًا لمحافظة (با آن). في الوقت نفسه، أعلن برنامج سياسي من خمس نقاط: 1. تطبيق الحكم الذاتي المحلي؛ 2. السعي لتحقيق المساواة العرقية؛ 3. إلغاء نظام أولا (السخرة)؛ 4. تحسين تقنيات الزراعة والرعي؛ 5. تطوير المؤسسات الثقافية والتعليمية. كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ التبت التي يقدم فيها التبتيون أنفسهم مقترحات سياسية ومنهجية متقدمة ومتوافقة مع تيار العالم، ومفاهيم إدارية. في السابق، حاولت الحكومة المحلية في التبت إجراء بعض الإصلاحات، وأرسلت العديد من الطلاب للدراسة في بريطانيا، لكن هؤلاء العائدين بعد دراستهم لم يحدثوا أي تأثير في المجتمع التبتي. أما المسؤول (لونغ شيا)، الذي أُرسل للإشراف على هؤلاء الطلاب، فقد سعى إلى إحداث تغيير في المجتمع التبتي، لكنه أثار غضب المحافظين وسُجن، وقُلعت عيناه. كان ذلك تحذيرًا دمويًا: لا يُسمح لكم بفتح أعينكم لرؤية العالم خارج التبت!

لا تسجل المصادر التاريخية رد فعل (شيانغ كاي شيك) والحكومة الوطنية على مبادرات (قه سانغ تسه رن) الجريئة في (باتانغ). ومع ذلك، اعتبر الجيش التبتي هذا الحادث الذي تسبب فيه (قه سانغ تسه رن) فرصة مواتية. في ذلك الوقت، كان (تانغ كه سان) يتوسط في حرب (داجين - بايلي)، وكانت القوات الصينية والتبتية في حالة مواجهة على طول خط (قانتسي) - (لو هوَّه) على طريق سيتشوان – التبت الشمالي. عند هذه النقطة، لم تعد القوات المسلحة المتمركزة في (باتانغ)، وهي نقطة استراتيجية على طريق سيتشوان – التبت الجنوبي ، تابعة لـ (ليوون هوي)، بل كانت تحت راية (قه سانغ تسه رن)، وبالتالي لم تكن ضمن نطاق وساطة (تانغ كه سان). شن الجيش التبتي على الفور هجومًا على (باتانغ). قبل هجوم الجيش التبتي، أقنع (قه سانغ تسه رن) القوات المسلحة لدير (قونغ قا)، التي كانت ستشارك في الانتفاضة معه، بالانشقاق والانضمام إلى الجيش التبتي. حاصر الجيش التبتي (باتانغ) لمدة ثلاثة أشهر، وكانت قوات (قه سانغ تسه رن) ضعيفة، وغير قادرة على الاستمرار في القتال، فخرج سرًا من (باتانغ) بحجة طلب التعزيزات، وعاد إلى (نان جينغ) عبر (يون نان). كانت فكرة «حكم شعب (كانغ) لمنطقة (كانغ)» مفهومًا رائعًا، لكن الوسائل التي استخدمت لتحقيق هذا المثل الأعلى كانت متسرعة وغير مدروسة، وتبخرت قبل أن تُنفذ فعليًا.

في عام 1946، توفي (قه سانغ تسه رن)، الذي لم يحقق إنجازات كبيرة بعد ذلك، في عزلة وكآبة في جبل (تشينغ تشنغ) بـ(سيتشوان).

كانت تلك الفترة حقًا فترة اضطرابات في منطقة (كانغ)!

لم تنتهِ حرب (داجين - بايلي) بعد، واندلعت «حادثة (باتانغ)» بقيادة (قه سانغ تسه رن) في هذه الأثناء.

وبمجرد انتهاء حرب (داجين - بايلي)، وقبل الانتهاء من أعمال ما بعد الحرب، مثل إعادة بناء دير (داجين) وتسوية شؤون الرهبان، اقترب الجيش الأحمر من منطقة (كانغ) في مسيرته الطويلة.

لصد الجيش الأحمر، تمركز الجيش السادس عشر التابع لجيش الكومينتانغ في (كانغ دينغ). كما أعلنت الحكومة الوطنية عن إنشاء «مكتب مفوضية (شيكانغ) للتهدئة» في (شيكانغ)، وعينت بوذا الحي (نونا) منصب مفوض التهدئة. كان هذا بالطبع لغرضين: الأول، إذا مر الجيش الأحمر بالمنطقة، فيمكن استخدام هيبة (نونا) لتعبئة القوات المحلية للمقاومة؛ والثاني، اغتنام الفرصة لإدخال قوة أخرى في معقل أمير الحرب المحلي (ليوون هوي). تم تقسيم مكتب مفوضية التهدئة إلى أربع مجموعات: السكرتارية، والتهدئة، والشؤون العامة، والقوات المسلحة المحلية. وكل مجموعة لها رئيس وعدة أعضاء. تم تعيين رجل الأعمال التبتي (بانغ دا دوجي)، الذي كان قد قاتل مع (قه سانغ تسه رن) ضد الجيش التبتي في (باتانغ)، رئيسًا لمجموعة التهدئة ومجموعة القوات المسلحة المحلية، بينما تولى (هان دا تساي)، وهو من (خوبي)، منصب السكرتير/أو الأمين العام.

[redacted].indd 420-421 2025-11-27 10:56:27

في أبريل 1935، غادر (نونا) (نان جينغ) متوجهًا إلى (سيتشوان). وبعد وصوله إلى (تشونغ تشينغ)، أرسلت قيادة العمليات الخاصة التابعة للجنة العسكرية للحكومة الوطنية في (تشونغ تشينغ)، المرشد (جيانغ آن شي) وقائد السرية (خه شو بينغ)، على رأس سرية تضم أكثر من ثمانين رجلاً، لمرافقة (نونا) إلى (شيكانغ). كان (جيانغ آن شي) من (باتانغ) وتلقى تعليمه في مدرسة تبشيرية هناك، وعُيّن في نفس الوقت سكرتيرًا للغة التبتية في مكتب مفوضية التهدئة. أما أمير الحرب في (سيتشوان) (ليو شيانغ)، فبسبب علاقته الطويلة بـ(نونا) وحاجته للصراع مع (ليوون هوي)، خصص سربتين من قواته، ونظمهما في كتيبة خاصة تابعة لمكتب مفوضية التهدئة، وعين (تشين وي تشي)، الذي كان قد شغل منصب قائد لواء في جيشه، قائدًا للكتيبة، لمرافقة (نونا) إلى (كانغ).

في يونيو 1935، انطلق (نونا) من (تشنغدو)، ودخل (كانغ) بموكب مهيب احتفالي. تذكر السجلات التاريخية أنه «ركب محفة صفراء تحملها ثمانية أشخاص، محاطًا بمظلات مزخرفة من الأمام والخلف".

بعد دخول (نونا) إلى (كانغ)، عامله (ليوون هوي) باحترام.

في أغسطس، دعا مكتب مفوضية التهدئة بشكل واسع الزعماء الدينيين والعلمانيين المحليين الذين يتمتعون بنفوذ في منطقة (كانغ) لحضور مؤتمر الترحيب في (كانغ دينغ). وكان من بين هؤلاء الزعماء المحليين (جيا ري دوه جي لانغ جيا)، رئيس قبيلة (تشان دوي) العليا في محافظة (تشان هوا). ترأس الأمين العام (هان دا تساي) المؤتمر، وقدم التعازي نيابةً عن الحكومة الوطنية لجميع الأوساط في منطقة (كانغ). ألقى (نونا) خطابًا مطولًا، لم يدعو فيه إلى نشر التعاليم الدينية فحسب، بل دعا أيضًا إلى دعم تنفيذ الأوامر الحكومية المركزية، وتوطيد الدفاعات الحدودية، والحفاظ على الأمن العام، وتعزيز الوحدة في دولة «جمهورية القوميات الخمس»، وغيرها.

بعد ذلك، عقد مكتب مفوضية التهدئة اجتماعًا سريًا لكبار شيوخ القبائل ورؤساء الأديرة في مختلف محافظات (كانغ)، تحت ذريعة التحقيق في أحوال الناس، وطلب منهم تقديم تقارير عن الأوضاع المحلية. في الواقع، كان الهدف هو جمع أدلة ضد (ليوون هوي). وكما توقعوا، تلقى المكتب بعد فترة وجيزة أكثر من ثلاثمائة وثيقة مكتوبة تتهم الجيش الرابع والعشرين بفرض الضرائب الجائرة والقيام بأعمال إجرامية في منطقة (كانغ). أحال المكتب هذه الوثائق فورًا إلى الحكومة الوطنية المركزية، وسرعان ما علم (ليوون هوي) بالأمر، مما أدى إلى تدهور سريع في العلاقات بين الجانبين.

في سبتمبر/أيلول، غادر (نونا) (كانغ دينغ)، وخطط للقيام بأنشطة توعية في المحافظات الواقعة على طول الطريق الشمالي بين (سيتشوان) والتبت. عندما وصل (نونا) ومرافقوه إلى دير (تا قونغ) خارج جبل (تسي دو)، جاء راهب من دير (تشيان نينغ) ليخبرهم أن فصيلة من الجنود الفارين تنهب ممتلكات الدير في (تشيان نينغ). أمر (نونا) على الفور (بانغ دا دوه جي) و(جيانغ آن شي) بقيادة قواتهما لتطويق هذه الفصيلة من الجنود الفارين ونزع سلاحهم. تبين أن هؤلاء الجنود الفارين كانوا من قوات الجيش الرابع والعشرين التي تراجعت بعد هزيمتها في قتال الجيش الأحمر. وبعد أن استولى المكتب على أسلحتهم، صرف لهم تكاليف الطريق وأطلق سراحهم ليعودوا إلى ديارهم.

بعد أن تمركز المكتب في (داوفو)، علموا أن ثلاثة كتائب من لواء يورو هاي التابع للجيش الرابع والعشرين قد هُزمت على يد الجيش الأحمر في محافظة دانبا شمالاً، وأن قائد اللواء مجهول المصير، وقد تراجعت كتيبتان منهما إلى مدينة (داوفو). كان هؤلاء الجنود المنهزمون الخارجون عن السيطرة ينهبون على طول الطريق، وبعد تمركزهم في (داوفو)، كانوا يتعاطون الأفيون ويقامرون، وكانت انضباطهم العسكري متدهورًا. قرر المكتب، تحت شعار الحفاظ على النظام الاجتماعي، نزع سلاح هاتين الكتيبتين لزيادة قوته الذاتية. لتجنب الصراع، أقام المكتب وليمة باسم التعزية ودعا ضباطًا من رتبة فصيلة وما فوق للحضور. وفي الوقت نفسه، قامت قوات المكتب بتطويق مكان الوليمة بهدوء. في منتصف الوليمة، أعلن الأمين العام (هان دا تساي) باسم الحكومة المركزية: أن القوات المتمركزة في منطقة (كانغ) التابعة للجيش الرابع والعشرين ستؤول إلى مكتب مفوضية التهدئة، وستخضع لإعادة التنظيم. وأمر على الفور قادة الكتائب الحاضرين في الوليمة بالتوقيع على أوامر تسليم الأسلحة. ثم قاد (جيانغ آن شي) ورفاقه القوات إلى الثكنات لتلاوة أوامر تسليم الأسلحة، ووعدوا الجنود بأن حياتهم ستُحفظ بعد تسليم أسلحتهم، وأن رواتبهم العسكرية ستُدفع. بهذه الطريقة، تم نزع سلاح كتيبتين من الجيش الرابع والعشرين بنجاح. وبعد فترة وجيزة، حشدوا القوات المحلية وقاموا بتطويق ونزع سلاح كتيبة أخرى من لواء يورو هاي أثناء مسيرها. وقد تم تسريح معظم جنود هذه الكتائب الثلاث، أما الجنود الباقون فقد أُعيد تنظيمهم كقوة مسلحة تابعة مباشرة لمكتب مفوضية التهدئة.

بعد وقوع هذا الحادث، غضب (ليوون هوي) غضبًا شديدًا، وحشد قوة من لواء واحد للتقدم من (كانغ دينغ) نحو (داوفو). لكن الأمين (تشن جي بو)، المتمركز في (كانغ دينغ)، كان قد أبلغ (نونا) سلفًا ببرقية عن خبر وتاريخ تحرك قوات (ليوون هوي).

ونتيجة لذلك، حشد المكتب على الفور أكثر من ألف جندي، تحت قيادة (ناماي بنغ تسوه)، وهزموا قوات (ليوون هوي). بعد هذا النصر، أقال (نونا) محافظ المحافظة الذي عينه (ليوون هوي) في (داوفو)، وعين بدلاً منه عضوًا في فريق العمليات الخاصة يدعى (شو) كمحافظ للمحافظة، يتبع مباشرة قيادة المكتب.

[redacted].indd 422-423 2025-11-27 10:56:27

بعد ذلك، وفي اجتماع حضره بوذا الحي (نونا) و(هان دا تساي) و(جيانغ آن شي) و(بانغ دا دوه جي) فقط، قال بوذا الحي (نونا): «إذا أكل شخص واحد ثومًا، ستكون رائحة فمه كريهة، وإذا أكل الكثير، فستظل رائحة فمه كريهة.» كان يقصد بذلك أنه بما أنهم بدأوا بتحويل أسلحة الجيش الرابع والعشرين إلى أسلحة خاصة بهم بهذه الطريقة، فلا يمكنهم التوقف في منتصف الطريق، بل يجب عليهم الاستمرار.

بعد الاجتماع، وبعد تثبيت موقعهم في (داوفو)، أرسل المكتب (بانغ دا دوه جي) على رأس قواته الخاصة إلى (باتانغ)، حيث كان هناك فوج من الجيش الرابع والعشرين. كانت خطتهم هي حل مشكلة هذا الفوج بنفس الطريقة التي اتبعوها في (داوفو). كان (بانغ دا دوه جي) تبتيًا، ومن عائلة (بانغ دا تشانغ)، إحدى أكبر ثلاث عائلات تجارية في التبت، وقد شغل سابقًا منصب ضابط في الجيش التبتي. لاحقًا، دخل في صراع مع الحكومة المحلية في التبت، وغادر التبت مع أكثر من مائتي رجل مسلح، وتمركز في (باتانغ) لفترة طويلة.

لم تدخل قوات الجيش الأحمر، التي كانت في مسيرتها الطويلة، من جسر (لو دينغ) وغيره من الأماكن، وعبرت نهر (دا دو)، وتجولت في منطقة (جينشوان) في (دان با) لفترة من الوقت، ثم اتجهت شمالًا إلى منطقة سهول (آ با)، ولم تدخل مناطق شمال (كانغ). وكانت القوة الرئيسية للجيش الرابع والعشرين تستخدم في الدفاع ضد دخول الجيش الأحمر إلى منطقة (يا آن)، مما جعل مناطق شمال (كانغ) شبه خالية من القوات، وهذا أعطى مكتب مفوضية التهدئة التابع لـ (نونا) مساحة كبيرة للتحرك.

بعد انطلاق (بانغ دا دوه جي)، سحب (جيانغ آن شي) ثلاثين من الأفراد الأكفاء من فرقة العمليات الخاصة، وزود كل منهم ببندقية ومسدس، وشكلوا فصيلة حراسة لمرافقته في تطهير بقايا قوات الجيش الرابع والعشرين في محافظات شمال (كانغ)، وأقالوا محافظي المحافظات الأصليين، وعينوا محافظين جدد، وأرسلوا عضوًا من فرقة العمليات الخاصة لمساعدة محافظ المحافظة في إدارة شؤون المحافظة. قام (جيانغ آن شي) بجولة في عدة محافظات في شمال (كانغ)، ولم يجد أي قوات للجيش الرابع والعشرين متمركزة هناك. لاحقًا، علم (جيانغ آن شي) من الاستطلاع أن هناك سرية للجيش الرابع والعشرين في محافظة (باي يو)، الواقعة بين محافظتي (ده قه) و(تشان هوا)، فقام بتعبئة أكثر من مائتي من القوات المحلية، ونصب لهم كمينًا في منتصف الطريق، وأجبر هذه السرية على تسليم أسلحتها والاستسلام.

(تشان هوا) بعد حرب (داجين - بايلي)

في مايو 1932، هزمت قوات (ليو ون هوي) الجيش التبتي، واستعادت (تشان هوا).

بعد الحرب، أعيد تنظيم محافظة (تشان هوا) بأكملها إلى أربعة معسكرات عسكرية محلية، وهي: (تشان) العليا، (تشان) السفلى، و(خه) الشرقي، و(خه) الغربي، والتي كانت سابقًا أربع حاميات رئيسيه. وفي نفس العام، تم إصلاح جسر نهر (يالونغ) الكبير الذي دمره الجنود التبتيون، الممتد من الضفة الشرقية للنهر إلى مركز المحافظة على الضفة الغربية. كان مبنى مقر المحافظة الأصلي قد أُحرق من قبل الجيش التبتي. وقد قام المحافظ اللاحق بتأسيس مقر المحافظة بشكل مؤقت في معبد (قوان دي) بمركز المحافظة.

في عام 1934، أنشأ مكتب بريد (قانتسي) من الدرجة الثالثة التابع لإدارة بريد (سيتشوان) الغربية وكالة بريد في (تشان هوا). كانت هذه هي ثاني مؤسسة تتجه نحو التحديث في محافظة (تشان هوا)، بعد افتتاح المدرسة الابتدائية في بداية تأسيس المحافظة.

دخل الصينيون إلى مناطق مثل (موفانغ قو)، و(ري با)، و(لاكو) في (تشان هوا) للتنقيب عن الذهب.

في ذلك الوقت، كان بين الأقسام الإدارية الأربعة في (تشان هوا)، (تشان) العليا برئاسة (جيا ري دوه جي لانغ جيا) هو الأقوى نفوذًا. الوحيد القادر على منافسته هو قسم (تشان) السفلى. لسوء الحظ، لم يكن لدى (دوه جي لانغ جيا) أبناء، بل ابنتان فقط، فقام باستقدام صهر يدعى (ونغ شو شيه با) من (قانتسي) ليتزوج ابنتيه، و»كانت الابنتان زوجتين له». من بين الابنتين، لم يُعرف اسم إحداهما، بينما كانت الأخرى، (تشينغ مي تشي ما)، قوية الشخصية. كان الزوج أيضًا من عائلة كبيرة في (قانتسي)، وبطبيعة الحال، لم يكن يرغب في الانصياع لأوامر زوجته في كل الأمور، مما أدى إلى خلافات عائلية متكررة بين الزوجين. في العائلات الكبيرة، لا يقتصر صراع الأزواج على المشاعر، بل يتعلق الأمر بشكل أساسي بالسيطرة على الأراضي والممتلكات والسكان. وفي النهاية، وصل الخلاف إلى نقطة يصعب التوفيق فيها. قام (ونغ شو شيه با) بالتواصل مع المحافظ بطرق متعددة، فمالت حكومة المحافظة إلى جانب الزوج في النزاع العائلي، مما جعل (تشينغ مي تشي ما) تشعر باستياء شديد تجاه حكومة المحافظة.

.indd 424-425 2025-11-27 10:56:27

في هذا الوقت، نشأ نزاع آخر بين رئيسي منطقتي (تشان) العليا و(تشان) السفلى حول قطعة أرض من المراعي. قد يقول القارئ المطلع على التاريخ الكبير: «لماذا كل الأمور تافهة إلى هذا الحد؟» لكن في تلك الحقبة، كانت النزاعات بين زعماء القبائل في منطقة (كانغ) تنشأ دائمًا من أمور تافهة كهذه. يوجد كتاب صادر عن المجلس الاستشاري السياسي للشعب الصيني في محافظة (قانتسي) بعنوان «مقتطفات من تاريخ (شيكانغ)»، من تأليف السيد (فنغ يوتشي). عمل السيد (فنغ) لفترة طويلة في (شيكانغ) خلال فترة جمهورية الصين، وشهد العديد من الأحداث بنفسه، لذا فإن عمله له قيمة تاريخية كبيرة. لقد سجل في كتابه هذه الدعوى القضائية بين رئيسي منطقتي (تشان هوا) حول قطعة صغيرة من المراعي:

"ذهب محافظ المحافظة المحلي بنفسه للتحقيق. ووجد أن هذه المنطقة من المراعي تقع بالكامل داخل حدود (تشان) السفلى، وأن (تشان) العليا تملك فقط قطعة صغيرة بعرض متر واحد وطول عدة أمتار عند نقطة الحدود. ومن الناحية المنطقية، يجب أن تنتمي هذه المراعي إلى (تشان) السفلى، لذلك حكم بملكيتها لـ (تشان) السفلى."

من وجهة نظر (تشينغ مي تشي ما)، كان هذا الحادث دليلًا آخر على عدم رضا محافظ المحافظة عن (تشان) العليا. وعلى الفور، أخذت حاشيتها المقربة وذهبت إلى (كانغ دينغ) لتقديم شكوى. في ذلك الوقت، كانت الحكومة الوطنية تستعد لإنشاء مقاطعة (شيكانغ). وكان (ليو ون هوي) يرأس لجنة إنشاء مقاطعة (شيكانغ)، وجميع محافظي المحافظات في منطقة (كانغ) كانوا من تعيينه، لذا لم تجد (تشينغ مي تشي ما) وسيلة لتقديم شكواها. في (كانغ دينغ)، أخبرها أحدهم أن لجنة إنشاء مقاطعة (شيكانغ)، على الرغم من تأسيسها من قبل الحكومة الوطنية، إلا أنها لا تشبه تمامًا الحكومة المركزية. حصلت (تشينغ مي تشي ما) على التوجيه، فقدمت شكواها إلى مكتب المقر الحكومي في (تشونغ تشينغ) التابع مباشرة للحكومة الوطنية المركزية. في هذا الوقت، كان بوذا الحي (نونا) قد وصل إلى (شيكانغ). أحال مكتب المقر الحكومي هذه الشكوى إلى مكتب مفوضية التهدئة، وطلب منهم التعامل مع الأمر عن قرب.

في عام 1935، حرض صهر عائلة (جيا ري)، رئيس منطقة (تشان) العليا، حكومة المحافظة على إرسال قوات لمهاجمة مقر عائلة (جيا ري). وورد في سجل أحداث محافظة (شين لونغ) في ذلك الوقت: «تواطأ الزوج مع ضباط حكومة محافظة (تشان هوا) وجنودها، وهاجموا مقر عائلة (جيا ري) وحاصروه، فهرب (جيا ري دوه جي لانغ جيا) إلى (كانغ دينغ) باحثًا عن ابنته (تشينغ مي تشي ما)."

كان (نونا) قلقًا من التدخل في شؤون (شيكانغ) التي كان يديرها (ليو ون هوي) دون مبرر شرعي. وعندما تلقى هذه الشكوى المُحالة من السلطات العليا، توجه على الفور إلى (تشان هوا) مع حاشيته.

عندما رأت (تشينغ مي تشي ما) قدوم مفوض التهدئة، وهو تبتي وبوذا حي في آن واحد، هرعت فورًا لزيارته وأعلنت إيمانها به، لتصبح تلميذة له. كان الهدف الحقيقي لـ(نونا) من هذه الزيارة هو الاستيلاء على سلطة حكومة المحافظة التي كانت تابعة للجنة إنشاء مقاطعة (شيكانغ). لكن وجود فصيلة عسكرية تابعة لحكومة المحافظة جعل الأمر صعبًا عليه في البداية. عندئذ، تطوعت (تشينغ مي تشي ما) بنفسها، وحشدت قوات (تشان) العليا المحلية، وشنوا هجومًا على مركز المحافظة. وقد سجل «تاريخ محافظة (شين لونغ)» نتيجة هذا الحدث: «عاد الأب وابنته مع قواتهما بدعم من مفوض التهدئة (نونا) إلى (تشان هوا) لاستعادة وطنهم، وأسروا عشرات الأشخاص من قرية (جيا يونغ)، واستغلوا الفرصة لنزع سلاح فصيلة الجيش الرابع والعشرين المتمركزة في مدينة (تشان هوا)، وأسروا أربعة أشخاص أحياء: محافظ المحافظة، والمستشار القانوني، والمدير العام، وقائد الكتيبة المتقاعد، وأعدموهم."

كان محافظ المحافظة الذي أُعدم يدعى (قورون شيان).

وعلى الفور، عين (نونا) (تشينغ مي تشي ما) منصب محافظ محافظة (تشان هوا).

لقد أصبحت (تشينغ مي تشي ما) محافظة المحافظة عن غير قصد، لكنها لم تكن مثل (قه سانغ تسه رن) الذي تلقى تعليمًا حديثًا، والذي كان لديه رؤية واضحة بـ «حكم شعب (كانغ) لمنطقة (كانغ)»، ولديه خطط طموحة لتغيير وتطوير مسقط رأسه. باستثناء استخدام السلطة المتاحة لها، مثل شيوخ القبائل السابقين، لتسوية النزاعات العائلية وكسب المزيد من السكان والأراضي والثروات، لم تكن تفكر في أي شيء آخر.

كان مفوض التهدئة (نونا) يحقق نجاحًا مستمرًا في شمال (كانغ)، وحتى تعيينه (تشينغ مي تشي ما) محافظة لـ (تشان هوا)، كان قد سيطر بالفعل على محافظات (داوفو)، و(لو هوّه)، و(قانتسي)، و(ده قه)، (باي يو)، و(دنغ كه). لكن عودة (بانغ دا دوه جي) بقواته إلى (باتانغ) لحل مشكلة حامية الجيش الرابع والعشرين واجهت صعوبات متكررة ولم تكن سلسة على الإطلاق. لاحقًا، توجه (جيانغ آن شي) أيضًا جنوبًا مع فصيلة الحراسة وعدد كبير من القوات المحلية لدعم (بانغ دا دوه جي)، استعدادًا لفرض حصار طويل الأمد على حامية (ليو ون هوي) في (باتانغ). غير أن الجيش الأحمر في هذه الأثناء اقترب مرة أخرى من منطقة (كانغ)، وهذه المرة كانت قوات الجيش الأحمر الثاني القادمة من (يون نان)، وأجزاء من الجيش الأحمر الأول والرابع بقيادة تشانغ قو تاو وتشو ده، التي فشلت في هجومها على (سيتشوان).

في عام 1936، نظم (نونا) القوات المحلية لصد الجيش الأحمر المتقدم شمالًا في (داوفو) و(لو هوّه) مرتين، وفشل في كلتا المحاولتين. بعد تراجعه إلى (قانتسي)، حشد مرة أخرى آلاف القوات المحلية من (ده قه) وغيرها من المناطق، واشتبك مع الجيش الأحمر في منطقة (داجين - بايلي)، وهي ساحة المعركة الرئيسية في حرب (داجين - بايلي) السابقة. ونتيجة لذلك، هُزم على يد الجيش الأحمر بكتيبة واحدة، وأصيب القائد شيا كه داو دينغ وأُسر. هرب (نونا) مع عدد قليل من مرافقيه، بما في ذلك الأمين العام (هان دا تساي) و(ناماي بنغ تسوه)، بالإضافة إلى عشرات من عناصر الكتيبة الخاصة التابعة للمكتب، إلى (تشان هوا). في هذا الوقت، كان الجيش الأحمر المتقدم شمالًا قد اقترب أيضًا من (تشان هوا). فرت (تشينغ مي تشي ما)، حاكمة (تشان هوا) التي عينها (نونا)، واختفت. لم يجرؤ (نونا) على البقاء في (تشان هوا) طويلاً، فواصل طريقه، استعدادًا للتوجه جنوبًا إلى (باتانغ). لكن (دينغ با دوه جي)، وهو رئيس قسم (تشان) السفلى، كان يكره (نونا) منذ فترة طويلة لأنه كان متحيزًا لـ (تشينغ مي تشي ما)، واستغل الفرصة للانتقام. فنصب كمينًا لـ (نونا) ومرافقيه أثناء مرورهم بأراضيه وطوقهم. انهارت الكتيبة الخاصة التابعة للمكتب في المعركة، وتم أسر (نونا) ورفاقه، وأطلق (دينغ با دوه جي) النار على (ناماي بنغ تسوه) وقتله على

[redacted].indd 426-427 2025-11-27 10:56:28

الفور. في البداية، كانت فكرة (دينغ با دوه جي) هي تسليم (نونا) إلى الحكومة المحلية في التبت لتتولى أمره. في هذا الوقت، دخلت القوات الرئيسية للجيش الأحمر، التي كانت تعبر المنطقة، إلى (تشان هوا). وهكذا، سلم (دينغ با دوه جي) (نونا) ورفاقه إلى الجيش الأحمر، وطلب من الجيش الأحمر معاقبتهم بشدة.

عاملت قوات الجيش الأحمر بوذا الحي (نونا) معاملة حسنة، وأرسلته إلى (قانتسي). في (قانتسي)، أسس الجيش الأحمر «جمهورية شعب بوبا». وتولى رئاسة هذه الحكومة المركزية التبتية رئيس ونائب رئيس من التبتيين المحليين، وكان أحد نواب الرئيس هو بوذا الحي (قه دا)، الذي ضحى بحياته لاحقًا من أجل التحرير السلمي للتبت.

تلقى بوذا الحي (نونا) وأمينه العام (هان دا تساي) معاملة كريمة من الجيش الأحمر في (قانتسي). لكن بوذا الحي (نونا)، الذي غادر دير (لي وو تشي) وتجول في الخارج لأكثر من عشرين عامًا، كان يبلغ من العمر أكثر من سبعين عامًا في ذلك الوقت. منذ توليه منصب مفوض التهدئة، عمل بلا كلل ليلًا ونهارًا، وخاصة بعد هزائمه المتتالية أمام الجيش الأحمر، ركب الخيل وسار على الأقدام، وفر هاربًا عبر الطرق الوعرة في الهضبة، منهكًا جسديًا ونفسيًا من الخوف، مما أدى إلى تفاقم مرضه الشديد. على الرغم من استقباله من قبل قادة الجيش الأحمر في (قانتسي)، وتلقيه أقصى رعاية طبية، إلا أنه توفي في (قانتسي) في مايو 1936.

بعد حرق جثته، منح الجيش الأحمر أمينه العام (هان دا تساي) مائتي يوان من الفضة، لمرافقة رماد (نونا) إلى (كانغ دينغ). بعد وفاة (نونا)، أصدرت الحكومة الوطنية المركزية على الفور أمرًا بإلغاء مكتب مفوضية التهدئة، ورافق (هان دا تساي) رماد (نونا) إلى (تشونغ تشينغ). منحت الحكومة الوطنية بوذا الحي (نونا) بعد وفاته لقب «الراهب المبجل (بويو)»، وخصصت أموالًا لـ (هان دا تساي) لنقل الرماد إلى جبل (لوشان) لدفنه في برج. تشير بعض المصادر أيضًا إلى أن رماد (نونا) دفن في جبل (وو تاي) في شانشي.

عند وفاة (نونا)، كان (بانغ دا دوه جي) و(جيانغ آن شي) لا يزالان في مواجهة مع قوات الجيش الرابع والعشرين المتمركزة في (باتانغ). عندما سمعا الخبر، أدركا أن الأمور قد ساءت، ففكوا الحصار وأوقفوا القتال. عاد (بانغ دا دوه جي) بقواته إلى منطقة (بومي)، وغادر (جيانغ آن شي) وقواته الخاصة (باتانغ) بهدوء، وعادوا أخيرًا إلى (نان جينغ).

تولى (هان دا تساي) لاحقًا منصب مستشار في المجلس التنفيذي للحكومة الوطنية، وتوفي بسبب المرض عام 1975 في (ووهان). كان قد ألّف كتابًا بعنوان «سيرة المعلم نونا".

أدرك بوذا الحي (نونا) و(جيانغ آن شي) وغيرهما، مثل (قه سانغ تسه رن) من قبلهم، أنه لتغيير الوضع المتخلف والمنغلق للمجتمع التبتي، لا بد من إجراء تحول سياسي يتماشى مع الاتجاهات العالمية، وتطوير التعليم والثقافة، واستغلال الموارد، وكان لديهم طموح سياسي بـ «حكم شعب (كانغ) لمنطقة (كانغ)». لكن قوتهم الذاتية كانت ضعيفة، ولم يتمكنوا إلا من استغلال التناقضات بين الحكومة الوطنية المركزية والقوى المحلية، ليتمكنوا من خوض معركة سريعة ومحدودة النطاق في منطقة (كانغ با). وقد اضطروا للبدء بالاستيلاء على السلطة المحلية والسيطرة على السلاح بوسائل غير تقليدية، لكن النتيجة كانت الوقوع في نفس دوامة صراع القوى المحلية على السلطة والمصالح. ومع أي تغير بسيط في الوضع، وبسبب افتقارهم للقوة الذاتية، وعدم وجود قاعدة جماهيرية واعية، أدت محاولاتهم المتسرعة إلى الفشل السريع قبل أن يتمكنوا من تطبيق أفكارهم السياسية. فأصبحوا مجرد شخصيات عابرة في مسرح التاريخ، ومادة للحديث المثير للفضول والدروس المستفادة عند مناقشة اضطرابات منطقة (كانغ با).

بعد توجه الجيش الأحمر شمالًا، أعادت لجنة إنشاء مقاطعة (شيكانغ)، برئاسة (ليو ون هوي)، تعيين محافظ لمحافظة (تشان هوا)، وأرسلت قوات للحفاظ على الأمن.

والآن لنعود إلى (تشينغ مي تشي ما).

في عام 1939، ظهرت (تشينغ مي تشي ما)، التي شغلت لفترة وجيزة منصب محافظ محافظة (تشان هوا)، مرة أخرى في مقال لشخص آخر ببضع كلمات فقط.

كان كاتب المقال هو محافظ محافظة (تشان هوا) آنذاك، ويدعى (أويانغ شوبي). نشر مقالًا بعنوان «ماضي وحاضر زعماء قبائل (تشان هوا)» في مجلة «كانغ داو يويه كان» (مجلة إرشاد (كانغ) الشهرية)، وهي مجلة تدرس الأوضاع الاجتماعية والسياسية في (شيكانغ). جاء في المقال: «غالبًا ما سمعت مؤخرًا أن عمليات القتل والنهب في مدخل وادي (سونغ لين) في (داوفو) قام بها أتباع (دوه جي) (خدم المنزل). وعندما جاء السيد (تشوتشانغ يون) وغيره من مجموعة التربة في فريق المسح العلمي في (شيكانغ) إلى (تشان هوا)، قالوا إن هناك زعيمة عصابة نسائية تدعى (تشو مي تشي ما) «(تشينغ مي تشي ما)» في مدخل وادي (سونغ لين). يا للأسف، هذه هي ابنة (دوه جي لانغ جيا)، لقد تجاوز الأشرار الحدود!» اتضح أن (تشينغ مي تشي ما)، بعد فشلها في أن تصبح محافظ محافظة، عادت مع خدمها إلى إتباع النهج القديم لسكان (تشان دوي)، تاركة مسقط رأسها لتمارس أعمال النهب في محافظات أخرى.

.indd 428-429 2025-11-27 10:56:28

فقد والد (تشينغ مي تشي ما)، (دوه جي لانغ جيا)، الذي كان في السابق شخصية قوية وذات نفوذ كبير في محافظة (تشان هوا)، إلا أن مكانته قد تضاءلت. يذكر (أويانغ شوبي) في مقاله أنه بعد أن أصبحت (تشينغ مي تشي ما) محافظة للمحافظة، «أثارت عائلة (دوه جي) إعجاب الحكومة، وبالتالي استعادت مكانة عائلتها». لكن مع قدوم الجيش الأحمر ووفاة مفوض التهدئة (نونا)، «لسوء الحظ، تعثرت العائلة مرارًا، ورأت عائلة (دوه جي لانغ جيا) أنها عاجزة، وتألمت من مصيرها هذا. رأى الكاتب أنه عندما كان في (تشان هوا)، جاءه (دوه جي لانغ جيا)، وكأنه طائر جائع يبحث عن مأوى! فرأف به وقدم له النصح، فتنهد وبكى بلا انقطاع. ولا تزال الحكومة تتعاطف معه، جزئيًا لأنه يستخدم للتحكم في القوى الأخرى في المناطق الثلاث."

في هذا الوقت، أصبح زعيم القوى المؤثرة في منطقة (تشان) العليا راهبًا. «بعد تدهور قوة عائلة (دوه جي لانغ جيا)، ظهر راهب من دير (داقاي) يُدعى (تشي له)، وهو راهب يتمتع بكاريزما سياسية، وقد حل محل (دوه جي) واكتسب شهرة عظيمة. انضمت إليه قرى (ري با)، (وداقاي)، و(وو سه). وتعاظم نفوذه، متجاوزًا قوة (دوه جي)، الذي ظل مجرد رئيس منطقة اسميًا. ومع ذلك، كان (تشي له) ذو عقلية واضحة، ويدرك أن السياسة والدين يجب أن ينفصلا في النهاية، وكان دائمًا يتصرف بما يتماشى مع إرادة الحكومة."

لكن محافظ المحافظة (أويانغ) كان غافلًا.

بعد وقت قصير من نشر مقاله، تسللت (تشينغ مي تشي ما) عائدة إلى (تشان هوا). اتصلت سرًا بجميع زعماء قبائلها، واتفقت معهم على شن انتفاضة في يوم معين من شهر يونيو، بهدف تكرار المخطط القديم، والقضاء على الحامية العسكرية، وطرد محافظ المحافظة. لكنها لم تتحرك بعد، عندما تلقى القائد (تشن هوي شيان)، قائد حامية الجيش الرابع والعشرين في (تشان هوا)، معلومات استخباراتية. على الفور، قاد (تشن) سريتين من القوات، وتسلل عشرات الأميال من المدينة شمالًا لتطويق (تشينغ مي تشي ما) وشن هجوم عليها. في خضم المعركة، قُتلت والدة (تشينغ مي تشي ما). طلبت (تشينغ مي تشي ما) من والدها (دوه جي لانغ جيا) الانسحاب أولاً، بينما أُسرت هي بعد هزيمتها في المعركة، ثم أُعدمت رميًا بالرصاص في مدينة (تشان هوا).

من هذا المنظر، يبدو أن (تشان دوي)، هذا المكان ذو الروح القتالية القوية، والذي يُعرف بـ «الكتلة الحديدية»، قد شهد صعودًا وهبوطًا في القوى، وأن القوى المحلية القوية التي سيطرت على المنطقة لآلاف السنين، قد فقدت فعاليتها في مواجهة التغيرات الهائلة في العصر، وبدأت أخيرًا تظهر عليها علامات نهاية العصر.

على عكس حملات التطهير التي قامت بها قوات سلالة (تشينغ) المتعاقبة ضد (تشان دوي)، عندما مر الجيش الأحمر عبر منطقة (تشان هوا) خلال المسيرة الطويلة، حاولت القوى المحلية القوية المقاومة، لكن لم تحدث أي معارك كبرى ذات أهمية تُذكر. كانت معظم الاشتباكات تنتهي بالهزيمة بمجرد التلامس البسيط. أكبر معركة كانت بين فصيلة من الجيش الأحمر وأكثر من مائتي من المقاتلين المحليين، وقد أسفرت عن استشهاد خمسة وعشرين جنديًا من الجيش الأحمر. لكن هذه القوة المسلحة التي حققت انتصارًا صغيرًا سرعان ما تم القضاء عليها من قبل قوات الجيش الأحمر التي وصلت لدعمها.

بعد أربعة عشر عامًا أخرى، في عام 1950، أرسل جيش التحرير الشعبي الصيني الثامن عشر فصيلة واحدة فقط، وحررت مدينة (تشان هوا) دون قتال. لقد ذابت «(تشان دوي)»، تلك الكتلة الحديدية العنيدة، أخيرًا بالكامل.

بعد فترة وجيزة، غير النظام الجديد اسم محافظة (تشان هوا) إلى محافظة (شين لونغ). كان النظام الجديد يعتبر نفسه مُحررًا للصين بأكملها، بما في ذلك المناطق التبتية. وقد تجلى هذا المعنى في خطوة تغيير اسم المحافظة. ففي اسم «(تشان هوا)»، كانت الكلمة الرئيسية هي «هوا»، والتي تعني «تحويل البربرية إلى حضارة»، أي تحويل الثقافات الأخرى إلى الثقافة الصينية لقومية (الهان). كان هدف «هوا» هو إقامة دولة موحدة سياسيًا وثقافيًا. أما رؤية النظام الجديد، فقد أكدت رسميًا أنها جمهورية متعددة الأعراق. أما ما إذا كان هذا الهدف سيتم التمسك به دائمًا، أو ما إذا كان سيتحقق كليًا أو جزئيًا، فيجب أن يترك ذلك للأجيال اللاحقة لتقييمه.

عند الذهاب إلى (تشان دوي) اليوم، بعد النزول من الطائرة في مطار (كانغ دينغ) في الصباح، تقود السيارة غربًا عبر محافظات (داوفو)، و(لو هوَه)، و(قانتسي)، ثم تتجه جنوبًا، وتصل إلى مدينة (شين لونغ) في غضون نصف يوم تقريبًا. من مركز المحافظة، تتصل جميع البلدات بالطرق، ويمكن الذهاب إلى أبعد بلدة والعودة في نفس اليوم. في قاعة الشاي بالفندق، يتحدث القادة التبتيون والصينيون المحليون عن كيفية تطوير السياحة. وتشمل الموارد السياحية الجبال الخطرة والمعابر العميقة التي كانت يصعب على قوات سلالة (تشينغ) التغلب عليها، بالإضافة إلى الأبراج الحجرية القديمة ذات الأنماط العتيقة. وبالطبع، يرغبون أيضًا في استخراج الموارد الثقافية الروحية من الروح الشعبية القوية، وتسميتها باسم «كانغ با». لكن هذا الاسم قد تم تسجيله من قبل محافظة أخرى تنتمي إلى نفس منطقة (كانغ با). كخيار ثانٍ، لقد نجحوا في تسجيل اسم جديد: «(كانغ با هونغ)». كلمة «هونغ» تعني أحمر وتشير إلى اللون الأحمر الذي يضعه رجال (كانغ با) على رؤوسهم. في ذلك الوقت، كان العديد من رجال (كانغ با) الشجعان ينسجون كميات كبيرة من شرائط الحرير الأحمر أو خيوط الحرير الحمراء في ضفائرهم الطويلة، ويلفونها حول رؤوسهم، مما يضفي عليهم هالة بطولية.

XXXX XXX.indd 430-431 2025-11-27 10:56:28

اليوم، عند التجول في أراضي محافظة (شين لونغ)، ستجد أن معظم الموظفين الحكوميين في المدن والبلدات، وحتى المزارعين في القرى، يرتدون ملابس خفيفة وقصيرة. وأحيانًا، إذا قابلت رجلاً يرتدي الزي التبتي، وعلى رأسه ضفائر شعر تتخللها شرائط قماش حمراء، فإن مضيفي سيُنبّهني مبكرًا قائلاً: «انظر، هذا هو رجل (كانغ با) الحقيقي!"

أثناء زيارتي لـ (شين لونغ) للبحث عن قصص الماضي، صادفت مصمم رقصات شهيرًا من محافظة (كانغ دينغ)، كان يتدرب على عرض مسرحي قوي وواسع الانتشار. تعتمد هذه الرقصات بشكل كبير على مواد الرقص الشعبي المحلي، وتسعى جاهدة لتجسيد الجانب القوي والصلب من الروح الشعبية في (تشان دوي).

بعد أن يتقن هذا العرض، سيُرسل إلى تلفزيون (كانغ با) الذي تأسس حديثًا في المقاطعة، ليُعرض بثًا مباشرًا في رأس السنة الجديدة. كما جاء مسؤولو مكتب الإذاعة بالمحافظة مع محطة التلفزيون المحلية لإجراء مقابلة، وطلبوا مني التحدث عن انطباعاتي عن هذا العرض، وتقييمي للموارد السياحية في المحافظة.

في رأس السنة الجديدة عام 2013، شاهدت هذا العرض على التلفزيون.

وبينما كنت أشاهد تلك الرقصات الكبيرة والواسعة، القوية والمريحة، على المسرح، ومع تغير الأضواء في عمق المسرح، فكرت أن هذا في الواقع أصبح مجرد ظل باهت ورومانسي لعصر طويل ومُترامي الأطراف.

قرائتي لكتاب "تشان دوي"

| (تشو وي تشون)

اسم (تشان دوي)، أعتقد أن معظم الناس سيجدونه غريبًا. تاريخيًا، دخل هذا المكان إلى الوعي العام غالبًا بسبب حملات سلالة (تشينغ) العسكرية المتعددة ضدها في عهدي الإمبراطورين (يونغ تشنغ) و(تشيان لونغ). في عام 1989، عندما وصلت لأول مرة إلى محافظة (قانتسي) بمقاطعة (سيتشوان) كصحفي لـ «صحيفة الشعب اليومية»، قُدت سيارتي من (كانغ دينغ) عبر جبال (تشي دوه)، مرورًا بمحافظات (داوفو)، و(لو هوَّه)، و(قانتسي)، و(ده قه)، وصولًا إلى ضفاف نهر (جينشا) مباشرةً. لاحقًا، عندما عملت في إدارة عمل الجبهة المتحدة المركزية فيما يتعلق بالشؤون التبتية، زادت زياراتي إلى محافظة (قانتسي). في عام 2012 تحديدًا، توجهت جنوبًا من محافظة (قانتسي) إلى (لي تانغ)، وكانت المنطقة على طول الطريق هي نفسها التي تدور فيها أحداث كتاب «(تشان دوي)»، وهي حاليًا حدود محافظة (شين لونغ). في تلك السنوات، كُلفت عدة مرات بالتواصل والتفاوض مع الممثلين الخاصين للدالاي لاما الرابع عشر، وكان قائدهم أحد زعماء منطقة (تشان دوي) المذكورين في الكتاب – حفيد سلالة عائلة (جيا ري).

بسبب متطلبات العمل، غالبًا ما أتعمق في التاريخ الحديث والمعاصر لمناطق (قانتسي) و(أبا)، وأشعر أن هذه الأرض النائية والملونة، المكونة من الجبال الثلجية والغابات والمراعي والوديان، ليست بسيطة على الإطلاق. قبل تأسيس الصين الجديدة، كانت هذه المنطقة مليئة بالصراعات بين القوى المحلية مثل شيوخ القبائل الكبار والصغار، والصراعات بين القوى العلمانية المحلية وقوى الأديرة، والصراعات بين القوى المحلية والحكومة المركزية وسلطات (سيتشوان)، وصراعات بين سلطات التبت المحلية والحكومة المركزية وسلطات (سيتشوان)... لا يمكن فهم هذه العلاقات إلا بجهد كبير. كانت هذه التناقضات متداخلة باستمرار، مما أدى غالبًا إلى اضطرابات اجتماعية وحتى حروب، وقد استنزفت الكثير من طاقة البلاط الإمبراطوري خلال عهد سلالة (تشينغ). كما أثرت إدارة البلاط لهذه المنطقة على التشكيل النهائي للمشهد السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي في جنوب غرب الصين. في الوقت نفسه، أشعر أن بعض هذه التناقضات التاريخية لا يزال يظهر تأثيره بشكل متقطع في الحياة الواقعية حتى اليوم، لدرجة أن بعض الأحداث التي تقع في هذه المنطقة اليوم غالبًا ما تتجاوز حدودها الإقليمية، وتثير حتى اهتمامًا خاصًا من الحكومة المركزية. في ذلك الوقت، راودتني فكرة أنه إذا تمكن شخص ما من كتابة تاريخ هذه المنطقة بوضوح، فسيكون ذلك أمرًا ذا مغزى كبير، وبالطبع سيكون عملًا شاقًا للغاية.

أشكر السيد (آ لاي) على تقديمه مراجعة دقيقة وواضحة وموجزة لتاريخ منطقة (تشان دوي) على مدار مائتي عام، وذلك بالاعتماد على كمية كبيرة من المواد التاريخية الموثوقة والتحقيقات الميدانية. ثم وسع نطاق قلمه ليشمل محافظة (قانتسي) بأكملها اليوم، وحتى المنطقة التبتية التابعة لـ (سيتشوان) بأكملها، وتطرق إلى العلاقة التاريخية لهذه المنطقة بالتبت. وكما قال المؤلف نفسه، «هذا التاريخ المحلي هو في الواقع صورة مصغرة، ونموذج نموذجي لتاريخ منطقة التبت التابعة لـ(سيتشوان) بأكملها على مدى عدة مئات أو آلاف السنين». يتمتع المؤلف بموقفه وآرائه السياسية الواضحة، لكنه لم يقدم الكثير من التفسيرات، بل وجه القارئ ليدرك بنفسه بعض القوانين من خلال عرض الحقائق التاريخية، ويستخلص الاستنتاجات المناسبة. على الرغم من أن النطاق الجغرافي لهذا الكتاب ليس كبيرًا وموضوعه متخصص جدًا، إلا أن قراءته بعناية يمكن أن تقدم إلهامًا ومساعدة مهمة لمن لديهم طموح في تحديث المناطق العرقية اليوم.

لقد ذابت «(تشان دوي)»، هذه «الكتلة الحديدية» التي استمرت لمئات السنين، أخيرًا في عواصف المجتمع في أواخر عهد سلالة (تشينغ) وأوائل جمهورية الصين. يفسر الكتاب هذه الظاهرة بأنها «التيار العام، اتجاه لا مفر منه». وأعتقد أن تشكيل هذا «التيار العام» يعتمد بلا شك على وصول العصر إلى تلك النقطة الحاسمة، ولكنه يعتمد أيضًا على دور الشخصيات الرائدة في ذلك الوقت في صناعة هذا التيار، والتصرف وفقه. تلخيصًا لسرد المؤلف، فإن هذا «التيار العام» الذي تشكل في منطقة التبت بـ(سيتشوان) يتضمن تقريبًا المحتويات التالية: تشكيل أو استيراد قوى وعلاقات إنتاج جديدة، مما أدى إلى تغيير الشكل السياسي والاقتصادي والثقافي لمجتمع منطقة التبت بـ(سيتشوان)، ووفر قوة دفع داخلية للخروج من دائرة التكرار التاريخي؛ تغيير النظام المشيخي الوراثي وتعيين مسؤولين مدنيين، تحقيق توحيد أساليب الإدارة المحلية مع أساليب الإدارة الرئيسية للدولة، مما أتاح إمكانية خروج منطقة التبت بـ(سيتشوان) من الركود والتجزئة والحروب، والتوجه نحو السلام والاستقرار طويل الأمد من منظور الإدارة؛ التخلص من قيود «التبت الكبرى»، والتوجه نحو الداخل بإخلاص، وربط المصير بالحكومة المركزية، وبـ(سيتشوان)، وبالأراضي الداخلية الشاسعة والمتقدمة خلف (سيتشوان)؛ كبح تضخم نفوذ الأديرة، والتخلص من السيطرة السياسية لمجموعة الدالاي لاما التبتية التي تجمع بين الحكم الديني والسياسي، والتي كانت تعتمد على نفوذها الديني للتحكم في منطقة التبت بـ(سيتشوان)؛ رفع مستوى سلطة الحكومة المركزية وإدارتها لمنطقة التبت بـ(سيتشوان)، ومقاومة القوى الأجنبية ومخططات مجموعة الدالاي لاما التبتية الخاضعة لسيطرتها لإقامة «تبت كبرى» وتدويل الشؤون التبتية... إن خطى التاريخ قد تشهد تراجعًا أو حتى انتكاسات في فترات زمنية معينة وفي مناطق محددة، لكن اتجاهها العام لا يمكن تغييره. لا تزال هذه التجارب تحمل أهمية مرجعية كاملة جدًا لإدارة منطقة التبت بـ(سيتشوان) اليوم. والشخصيات الرائدة اليوم لديها كل الظروف اللازمة لتكون أكثر براعة من سابقاتها في استخدام «التيار العام»، وتحقيق الإنجازات.

هذا هو السبب الذي يجعلني أرغب في التوصية بهذا الكتاب.

((تشو وي تشون)، رئيس لجنة الشؤون العرقية والدينية في المؤتمر الاستشاري السياسي الشعبي الصيني)

□□□□ □□□.indd 434-435 2025-11-27 10:56:28

حوارفي المعرض الدولي للكتاب في صربيا

| (ماي جيا) و(آ لاي)

في 26 أكتوبر 2014، في فعاليات ضيف الشرف الصيني بمعرض بلغراد الدولي التاسع والخمسين للكتاب في صربيا، أجرى (آ لاي) و(ماي جيا) حوارًا عميقًا ومثيرًا حول دوافع تأليف كتاب «(تشان دوي)»، والاهتمام الإنساني العميق، والمشاعر الوطنية، وحس المسؤولية التاريخية التي صبها المؤلف في عملية التأليف، بالإضافة إلى كيفية اختيار الكاتب لتحمل هذه المسؤولية.

كتاب «تشان دوي» يُلقي نظرة خاطفة على مراحل تدويل قضية التبت

(ماي جيا): قضيت خمسة عشر عامًا في (سيتشوان)، وكوّنت العديد من الصداقات، أهمها صداقتي مع (آ لاي). إنه ليس مجرد أخي ومعلمي في الأدب، بل هو أيضًا رفيقي في الحياة. لو افترضنا أنني ابتعدت عنه، سواء خلال إقامتي في (سيتشوان) أو بعد مغادرتها، فلا أعتقد أنني كنت سأحقق هذا النمو السريع أو هذا القدر من الحماس. جزء كبير من قوتي الداخلية مصدره (آ لاي)، لذلك أنا ممتن جدًا لأخي هذا. لهذا السبب بالتحديد، أتابع كل تحركات (آ لاي) باستمرار، وحتى بعد مغادرتي (سيتشوان)، كنت أهتم بكل تفاصيله في الكتابة قبل أن يلتفت إليها الآخرون. وعندما علمت أنه يكتب «(تشان دوي)»، شعرت بقليل من القلق. لأن هذا العمل يمثل بالنسبة لـ (آ لاي) انطلاقة جديدة كليًا، ووداعًا لأسلوبه السابق. كما أن هذا الكتاب يلتزم تمامًا بالحقائق التاريخية، ويتعمق في صميم الأمة التبتية، أو يكتب عن قضية تحظى باهتمام كبير لدى التبتيين. بصراحة، لقد صُدمتُ حينها. تساءلتُ ما الذي دفع (آ لاي) إلى هذه الانطلاقة الجديدة، وما الذي سيمكنه من إتمام هذه القفزة. وعندما قرأت هذا العمل، تحول قلقي كله إلى فرح.

هذا الكتاب نُشر لأول مرة وبكل فخر في مجلة «الأدب الشعبي". عندما رأيته حينها، دهشت من التحول الرائع الذي أقدم عليه (آ لاي). لكن اليوم، أمام الجميع، ما زلت أرغب في أن أسأل (آ لاي): لماذا اتخذت هذا الخيار في البداية؟ أعتبره خيارًا خطيرًا، فما هو دافعك الحقيقي؟

(آ لاي): شكرًا لك (ماي جيا). حديثه ينطلق من الفهم والصداقة المتبادلين بين الناس. في العالم المعاصر، وخاصة في أوقات تصاعد القومية، نرى واقعًا أكبر يتمثل في الصراعات وسفك الدماء والنزاعات بين الثقافات المختلفة. هذا الوضع يظهر على نطاق عالمي وفي الصين أيضًا. أشعر شخصيًا، في بيئة اجتماعية كهذه اليوم، عندما يصبح الحديث عن صراعات الثقافات وتبادلها قد يسيء إلى البعض، أننا يجب أن نولي اهتمامًا أكبر لهذه المسألة. في ظل انتشار هذا المد القومي، بدأت بعض المناطق في الصين، مثل التبت، تظهر قضاياها في دائرة اهتمام الجميع. لاحقًا، تساءلت: هل هذه المشكلة موجودة دائمًا، أم أنها مجرد نتيجة لانتشار وتفشي فكرة معينة، مشكلة ليست مشكلة في الأساس؟

لكن مثل هذه المشكلة، في النطاق العالمي اليوم، وفي الكتب المنشورة المتعلقة بالتبت، لا أجد إجابة ترضيني. لذلك، لم يتبق لي سوى البحث عن الإجابة بنفسي.

الطريقة هي إيجاد مكان نموذجي للغاية، ودراسة ثقافته وتاريخه، لمعرفة ماضي وحاضر ما يسمى بـ«قضية التبت» اليوم. أعتقد أن هناك طريقتين فقط: الأولى هي التوجه نحو التاريخ، والبحث عن عدد كبير من الأوثان الأصلية في الأرشيفات؛ والثانية هي التوجه نحو الميدان، والاستفادة من دراسة البيئة الأصلية. بالجمع بين الاثنين، يمكن بناء تاريخ مكان صغير على مدى مائتي عام. وهذان القرنان من التاريخ هما بالضبط العملية التي بدأت فيها ما يسمى بـ«قضية التبت» تُطرح وتتشكل على المستوى الدولي، حتى وصلت إلى وضعها الحالي. هذه عملية رؤية الكبير في الصغير، وهناك مقولة في اللغة الصينية تقول: «نظرة خاطفة على نقطة تكشف النمر بأكمله». وهكذا، وجدت «نقطة» ذات قيمة نموذجية خاصة. هذه «النقطة» هي (تشان دوي). تاريخها الذي يمتد لمائتي عام يفسر بوضوح وحيوية ماهية قضية التبت وكيف نشأت. أعتقد أنه يمكننا من خلال ذلك أن نتطلع إلى حل قضية التبت.

[redacted].indd 436-437 2025-11-27 10:56:29

(ماي جيا) يرافقني اليوم في هذا الحديث، ولديه أيضًا خبرة في العمل بالتبت، ولديه معرفة مباشرة بحياة سكان التبت. في الواقع، لم أتواصل معه بشكل مباشر حول هذا الأمر من قبل، واليوم هو فرصة سانحة.

تاريخ (تشان دوي) مثير للاهتمام لدرجة أنها لا تحتاج إلى خيال الكاتب

(ماي جيا): المواضيع الكبيرة والراقية لا تصلح للمحادثات الخاصة. لقد أتيحت لي ولـ (آ لاي) العديد من فرص التحدث الخاص، لكننا لم نتحدث عن هذا الكتاب حتى اليوم. أعتقد أننا كنا ننتظر فرصة كبيرة وراقية، واليوم هي تلك الفرصة.

لقد ذكرت للتو أن هذه كانت تجربة كتابة محفوفة بالمخاطر، بالإضافة إلى أصالة الموضوع وعمقه، كان لدي بعض الشك. أنت في الأصل شاعر، وتبرع في التعبير العاطفي، وفي الخيال، ولديك خيال لا حدود له، وهذا معترف به في الأوساط الأدبية، وقد حققت نجاحًا كبيرًا بسببه. لكن عند تأليف «(تشان دوي)»، اخترت الانطلاق من التاريخ، من السجلات التاريخية، وسجلات المحافظات، والسجلات المحلية، وهي أشياء ثابتة كالحديد والأسمنت، لتفسير قصتك، ولتتحدث عن موضوعك المتمثل في الاندماج التبتي-الصيني. ألا تخشى أن ينتقدك الآخرون قائلين إن موهبتك قد نضبت، أو إنك فقدت موهبتك، لأنه للوصف الدقيق للحقائق، لا بد أن تتخلى عن الجانب الغنائي الذي تبرع فيه.

(آ لاي): في الأصل، كنت أخطط لكتابة رواية خيالية. كنت قد تطرقت إلى «(تشان دوي)» عندما كتبت روايتي الطويلة السابقة. هناك قصة بطولية أسطورية، وبعد حوالي مائة عام، أصبحت حيوية للغاية. قبل حوالي ثلاثين أو أربعين عامًا، ذهب أستاذ جامعي إلى المنطقة لإجراء بحث (في الإثنولوجيا وعلم الاجتماع)، ووصف هذه الأسطورة بأنها مثل «رومانسية الممالك الثلاث التبتية»، قائلاً إن هذا البطل يشبه غوان يون تشانغ. لكن عندما تعمقت حقًا في هذه المنطقة، اكتشفت أن الناس، بطريقة نمطية، قد أضافوا مآثر الأبطال الناتجة عن سبع حروب على مدى مائتي عام إلى شخص واحد. شعرت أنه يجب علي تفكيك هذه العملية النمطية وإعادتها إلى أصلها. بدأت في البحث التاريخي، واكتشفت أن هذا التاريخ مثير للاهتمام لدرجة أنني لم أحتج إلى اختلاقه أو معالجته. بالطبع، القلق الذي أبداه (ماي جيا) للتو، كان لدي شكوك مماثلة بشأنه. لأن أي كاتب يشعر بالترقب والقلق عند تحويل أسلوبه في الكتابة. لكن هذا القلق كان أقل بكثير من قلق آخر. القلق الثاني هو الضغط الذي يتعرض له الشخص العادي في ظل تصاعد القومية وتعمق الكراهية العرقية، والقلق من محاولة البحث عن إجابات. أمام هذا الضغط، فإن ضغط فقدان جزء من القراء بسبب تغيير الأسلوب أصغر بكثير نسبيًا. لذلك، عند مقارنة القلقين، فإن القلق الثاني أكبر من الأول. لأن الكتابة، بعد كل شيء، مهنة، بينما القلق الثاني يتعلق بكيفية التعامل مع الصراع الثقافي، وكيف ننظر إلى الصراع الثقافي. أي شخص، بغض النظر عن هويته أو مهنته، طالما أنه يعيش في خضم ذلك، يمكنه أن يشعر بهذا الوجود العنيف. هل لدينا طريقة لحل هذا الأمر؟ وكيف نحلّه؟ هذه هي الأسئلة. وكتابي قد يساعد الجميع في العثور على هذه الطريقة.

يجب أن يكتب الكاتب ولديه نية طيبة عميقة تجاه العالم

(ماي جيا): يقول البعض إن أجمل الزهور هي التي تنمو على حافة الهاوية، ولكن تحت الهاوية توجد أيضًا بقايا الجثث. لقد كنت قلقًا حقًا من أن تذهب لقطف الزهور من على حافة الهاوية، وأن نضطر لجمع بقاياك. لحسن الحظ، أنت دائمًا محظوظ، لم تُدفن، وعدت بأجمل زهرة. لقد مر عام على نشر هذا الكتاب، وقد نال إعجاب الجميع، سواء في الأوساط الأدبية أو في الدوائر العليا، وحظي بالتصفيق في كل مكان. سمعت إشادة كبيرة يحظى بها هذا الكتاب: «كتاب (تشان دوي) للكاتب (آ لاي) يجب أن يقرأه كل مسؤول يعمل في الشؤون العرقية». في الواقع، الصراعات والنزاعات بين الأعراق ليست مشكلة صينية فحسب، فعندما تأتي إلى هذه الأرض، لن تجد صعوبة في اكتشاف أن هذه المشكلة عالمية أيضًا. الكتّاب الذين يتخذون هذه القضية موضوعًا لأعمالهم قليلون جدًا، لهذا أنا أحترم (آ لاي). لقد كان لديه ميزة فريدة وحقق هذا النجاح الباهر.

أنا مهتم بمسألة أخرى: عندما يصف العديد من المسؤولين الحكوميين أو الشخصيات ذات النفوذ هذا الكتاب بأنه دليل للحفاظ على الاستقرار في المناطق العرقية، فما الذي يدور في ذهنك؟

(آ لاي): هذه هي النتيجة الطبيعية التي يقدمها هذا الكتاب. آمل ألا يقتصر الأمر على الصين فحسب، بل أن يهتم بهذه القضية كل من يرى أن العالم ليس مسالمًا بالكامل بل له جانب قاسٍ من الواقع، وهذا هو الهدف الذي يسعى إليه هذا الكتاب. هناك فقرة في الكتب البوذية: سأل أحد تلاميذ «سيدهارتا غوتاما بوذا»: كيف يمكننا أن نؤثر على مسار العالم وقلوب البشر؟ فأجاب بوذا: يجب أن يكون هناك صوت عظيم. ثم سأل التلميذ مرة أخرى: ما هو الصوت العظيم؟ قال بوذا: الصوت الذي يصدر من السماء إلى الأسفل هو الصوت العظيم. فسأل التلميذ مرة أخرى: كيف يمكننا أن نصل بأصواتنا إلى السماء للتأثير في الناس؟ فأجاب بوذا: إذا كان صوتنا لا يهدف إلى إثارة الإعجاب، بل يحمل نوايا طيبة عميقة تجاه العالم، فإنه سيصل إلى السماء ويصبح صوتًا عظيمًا. أنا لست بوذيًا متدينًا بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكن عندما أكتب وأرغب في مخاطبة الناس، أعتقد أنني أحمل هذه النية الطيبة.

لذلك، في مسيرتي الكتابية هذه، لم يحدث ما كان يخشاه أخي، على الأقل حتى الآن لم يحدث.

(ماي جيا): إذًا، يجب عليك أن تشكر بوذا على حمايته لك، وتشكر أيضًا الحب العميق الذي يكنه لك العديد من الأصدقاء.

في الواقع، عندما سألتك هذا السؤال للتو، كان لدي إجابة في ذهني. وهي أنني لو حظيت بلقب «دليل الحفاظ على الاستقرار في المناطق العرقية» هذا، لقبلته بكل سرور.

نقول غالبًا إن الأدب أعظم من السياسة، ولكن في الحقيقة، لا يستطيع الأدب التخلص من السياسة، خاصة في بلدنا المتعدد الأعراق، حيث تُعدّ الوحدة العرقية، والتكامل العرقي أمرًا عظيمًا بالغ الأهمية. أنت تضيف لبنة إلى هذه الأمر العظيم، وأعتقد أن هذا عمل لا يقدر بثمن، ويفوق بكثير أي إشادة أدبية حظيت بها، حتى لو كانت أعلى إشادة أدبية في العالم.

أرغب في طرح سؤال أخير: ما هي الهاوية التالية التي ستتسلقها؟

(آ لاي): بدأت بكتابة روايتي التالية قبل ستة أشهر، وهو موضوع مؤلم. عندما تتصاعد القومية، ويحتاج كل منا إلى تحديد هويته ومعرفة أي جانب يقف، يتمزق الإنسان، وتتمزق العائلات أيضًا بين الآباء والأبناء، والإخوة والأخوات. يا له من أمر مروع ومؤلم! لقد كتبت قصة كهذه. هذا الكتاب أيضًا هو كتابة على حافة الهاوية، وكوني كاتبًا، يجب عليّ مواجهة هذا الواقع.

(ماي جيا): قد تكون كتاباتنا نوعًا من الإساءة، وقد تكون تجربة على حافة الهاوية. نختتم حوارنا اليوم هنا، شكرًا لكم جميعًا.

.indd 440-441 2025-11-27 10:56:29